رواية

Victor Hugo

فيكتور هوجو

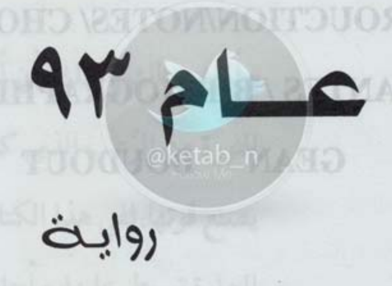


ترجمة : محمود مسعود

فيكتور هوغو

الأعمال الروائية الكاملة

(٦)



عـام ٩٣

رواية

وضع المقدمة والحواشي

واختار التنويعات وكتب السيرة

جـان بـودو

ترجمة: زياد العودة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

تصميم الغلاف
أحمد إسماعيل

العنوان الأصلي للكتاب:

VICTOR HUGO

QUATREVINGT- TREIZE

INTROUCTION/NOTES/ CHOIX DE VARIANTES / BIBLIOGRAPHIE: PAR GEAN BOUDOUT

عام ٩٣: رواية / فيكتور هوغو؛ ترجمة زياد العودة .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ .- ٦٧٢ ص؛ ٢٤سم.

(الأعمال الروائية الكاملة؛ ٦)

وضع المقدمة والحواشي واختار التنويعات وكتب السيرة جان بودو.

١- ٨٤٣ ف هـــ و غ ع ٢- العنوان ٣- هوغو

٤- العودة ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

مدخل

* أريد، مثلك ومعك ،أن أخلصَ
الثورة من الرُعب الذي كان يظنُّ أنه
يصنع قوتها،ففي هذا الكتاب ،أجعلُ
البراءة تسيطر عليها، وأحاول أن ألقي
على هذا الرقم المرعب ٩٣ شعاعاً مطمئناً،
* أريد أن يستمر التقدم في أن يكون قانوناَ،
وأن يكف عن إثارة الخوف.

من فيكتور هيغو إلى إدغار كينيه
(المراسلات / طبعة المطبعة الوطنية
المجلد: ٤ الصفحة :٦/ ١٩٥٢)

إن عام ٩٣/ هي آخر روايات فيكتور هيغو المنشورة. فقد كتبت بين عامي١٨٧٢و١٨٧٣وصدرت في عام ١٨٧٤ ، فهي مؤلفٌ لرجل سبعيني. وكان هيغو قد حمل لزمن طويل في ذهنه هذا الموضوع الكبير. ولدينا فرصة

في أن نجد فيه أفكاره النهائية عن مرحلة تاريخية لايمكن ألا يكون لديه الكثير ليقوله بشأنها. ولئن كانت عام ٩٣ رواية /تاريخية/. وسيكون هناك مجال لمناقشة ذلك – فلأنها على الخصوص رواية ذات طابع فكري يقدم المؤلف فيها تفسيرات، وأحكاماً ويتخذ مواقف، تحت شكل قصة روائية. لقد قال فيكتور هيغو بصدد البؤساء:

لقد جرى تأليف هذا الكتاب من الداخل إلى الخارج، فالفكرة تولدُ الشخصيات، والشخصيات تنتج الحدث.

يعتبر هذا التصريح صالحاً أيضاً لروايته التي تدور على عهود الثورة وحرب الفاندية[1].

إن هذا الكتاب نتيجة. ولكي يتبع المرء مساره التاريخي، لا يكفي أن ينطلق من اللحظة التي جرى الشروع بتأليفه فيها جدياً. (أي بين العامين ١٨٦٢و١٨٦٣). وستكون هناك مجازفة بعدم فهم المعنى الحقيقي للمؤلف، إذا لم يُعِد المرء، بالخطوط الكبرى على الأقل، استعراض المراحل التي كوّن خلالها هيغو ما يحق لنا أن نسميه فلسفته عن الثورة الفرنسية، وهي الفلسفة التي جرى إعدادها ببطء لديه، والتي هي أكثر تدرجاً في لويناتها مما نتصور أحياناً، بدءاً من أفكاره في فترة الشباب وحتى اللحظة التي كتب فيها أخيراً كتابة نهائية وحاسمة العنوان البراق: عام ٩٣.

* * *

«إن هذا الكتاب، كما قال ريمون إيشولييه، كان هيغو يحمله في دمه».

والحقيقة أن روائي عام ٩٣ المقبل كان يشعر بحسه الوراثي بكل ضراوة النزاع الذي كان يتصارع فيه أنصارُ النظام القديم وأنصار الثورة اليعقوبية.

(١) الفاندية هي التمرد المضاد للثورة الفرنسية في عام ١٧٩٣، الذي تشكل من فلاحي بروتانيا، وبواتو وأنجو، بسبب الدستور المدني لرجال الدين . . . . (م:ز.ع).

وإذْ يتخلى هيغو للحظةِ من الزمن عن نبرة الروائي، يدس في نهاية أحد الفصول هذه الإشارة الشخصية: «هذه الحرب قد خاضها والدي، وبوسعي أن أتكلم عنها» وكان والده قد خاض حرب الفاندية في صفوف (الزرق) كجندي من جنود الجمهورية، وكان قد التقى أثناء جولة عسكرية تلك التي ستصبح والده فكتور هيغو، وهي صوفيا تريبوشيه، والتي كانت أقل ميلا إلى الفاندية» ولكنها أقل «لصوصية»[1] ربّما مما ظنّ ابنها ومما قال، بيد أنها أقربٌ بالتأكيد إلى (البيض) منها إلى (الزرق). وهذا صراع ظل كامناً في دماء الطفل، لو لم يقيض له أن يحلَّ ذات يوم بموقف توفيقي. إننا نعلم كم كان يروق لهيغو منذ فتوته أن يشهد بذلك التقليد المزدوج:

والدي جندي قديم . .

والدتي فاندّية. . . . ونعلم أيضاً أن الدم الفاندي قد تجلى لديه أولاً بأقوى مايكون، فقد بدأ هيغو بانحياز عنيف ضد الثورة، وضد المرحلة الإرهابية من الثورة على وجه الخصوص.

كان(اليعقوبي) الشاب يكرس إحدى قصائده الأولى لمصائر الفاندية «شقيقة التيّرموبيل»[2]. وكان حينذاك يمجّد من غير قيود الشّوان[3] المتمرّدين على باريس والجمعية التأسيسيّة. وكان يحكم بالإعدام بلا محاكمة على عام ١٧٩٣ في مقدّمة قصائده الغنائية، والذي يعتبره: «أعياد فحش الإلحاد والفوضى».

لقد سّجل جميع الذين كتبوا سيرة ف. هيغو التطوّر الذي ساقه، اعتباراًمن عام ١٨٢٧، إلى ترك هذا الموقف، وإلى الاقتراب من أفكار والده، وإلى تحويل «يعقوبيّ» عام ١٨٢٠إلى «ثوري عام ١٨٣٠». ولكننا إذا ما نظرنا. إلى الأمر عن كثب، نجد أنه من جراء الحماسة للمجد العسكريّ، والجيوش

(١) هكذا كان الملكيّون يصفون الجمهوريين. (م. ز. ع)
(٢) المعركة البطولية التي جرت بين ثلاثمئة أسبارطيّ بقيادة ليونيداس وجيش كسرى. (م: ز. ع)
(٣) الشوان: الثوار الملكيون المتمردون على الجمهورية. (م:ز. ع)،

الجمهوريّة، وللإمبراطورية خصوصاً - وبسبب الاهتمامات الاجتماعيّة أيضاً - إنما ابتعد قبل كل شيء عن نزعته الملكية المتشددة في فترة شبابه. وهاهو يحافظ على الكثير من الحصافة والتحفظ في أحكامه على العهود الثورية بحصر المعنى. وهذا ما يكشفه لنا هذا الفحص الضميريّ المثير للتساؤل وهو: يوميات ثوري لعام ١٨٣٠، وهي اليوميات التي وضعت في مجموعة: الأدب والفلسفة مختلطان (١٨٣٤). وإننا نقرأ فيها حقا إشارات من مثل مايلي:

لازلت معجباً بلارو شجاكلان، وليسكور وكاتلينو، وحتى شاريت، ولكنني لم أعد أحبهم. إن شعور الاحترام الذي توحي لي به الفاندية لم يعد عندي إلاّ مسألة خيال وفضيلة. لم أعد فاندياً من حيث الهوى، بل من حيث النبل فحسب.

ونقرأ فيها أيضاً:

لست من أناسكم الذين يعتمرون الطاقية الحمراء. ويصّرون على المقصلة، فبالنسبة للعديد من المبررين بعقلٍ بارد والذين يصوغون بعد فوات الأوان نظرية الإرهاب، كان عام ٩٣ عملية بتر فظة، ولكنه ضروري... فما نسميه مقصلة ليس إلاّ مبضعاً. هذا ممكن، ولكن ينبغي من الآن فصاعداً أن تعالج أمراض المجتمع، ليس بالمبضع، بل بتنقية الدم البطيئة والتدريجية.

وأيضاً: «إن عام٩٣، بالنسبة للطبقات الدنيا، هو العوز، وبالنسبة للطبقات الوسطى. هو الحد الأقصى من المشقة، وبالنسبة للطبقات العليا، هو المقصلة».

«بين العملاقين (ميرابو ونابوليون)، هناك، عام ٩٣، عامُ محشر الناس البسطاء..»

والشريرين والمقصلة، والمذابح، وعمليات الإغراق، ويصلح روبيسبيير، في عام ٩٣ ليقوم بذلك.

نجد الملاحظة نفسها في دراسة عن ميرابو (١٨٣٥): كان يمكن لعام ٩٣ أن يعدم بالمقصلة الخطيب الكبير (٩٣ ، نقطة سوداء في سماء٨٩ الزرقاء).

بالنسبة لذلك المتمتع بالخيال الواسع والذي لايرى في الأعداد أقل مما يرى في الظلمات، كائنات حية. فإن هذين الرقمين المجتمعين ٩٣ يأخذان بممارسة تأثير استحواذي عليه غير أن الأمر بعيد جداً عن أن يثير حماسته لهما. وفي السنوات التالية، ما ينفك تفكير هيغو بالقضايا السياسية والاجتماعية يزداد جرأة. فيكتب كلود غو (١٨٣٤)، ويبدأ بالتفكير بكتابة: «تعاسات» وبعد أن يعمل على تأدية مسرحية العامل الشهم، ماري تودور (١٨٣٥)، يؤلف عام ١٨٣٨ مسرحية ابن الشعب النبيل، روي بلاس. فكيف يصبح حينذاك حكمه التاريخي على الثورة؟ إنه لا يزال يتأثر في الواقع ، بذلك السعي الحقيقي إلى عدم الانحياز، والى سعة الفكر والذي يتجلى في آراء ف. هيغو منذ أن أخذ يحيد عن تحزبّه للملكية الشرعية في فترة شبابه، وهو الموقف الذي أخطأنا حين لم نرَ فيه أحياناً إلا الترددات، والتناقضات أو الأساليب البارعة؛ فهو يسترشد بنزعة تحرّرية (ليبرالية) على درجة كافية من الثبات بحيث لا تبدو صادقة كل الصدق، وإننا نلتقط تجلياً جديداً لها من خلال شهادة طالما أغفلت وهي: خطاب الاستقبال في الأكاديمية الفرنسية (١٨٤١). لقد حلّ هيغو مكان نيبوموسين لوميرسيية. وهذه مادة قاتمة. ولحسن الحظّ إلى حد كبير، فقد كانت سمتان في حياة سابقه تزودان الأكاديمي الجديد بموضوعات للاستطرادات: مواظبة لوميرسييه على جلسات المؤتمر الوطني، ومعارضته للإمبراطورية. ومن هنا تأتي قصيدته الغنائية عن الجمعية الثورية الكبرى، والتي هي صفحة أساسية في موضوعنا، إذ تعلن، بنوعٍ من الاستباق (المتكرر لدى هيغو)، قبل أكثر من ثلاثين عاماً، عن فصلٍ من فصول عام ٩٣، من حيث المضمون، وحتى من حيث الأسلوب:

كان ذلك، أيها السادة، موضوع تأملٍ قاتم، وكئيب ومرعب، ولكنه سام. فلنكن منصفين تجاه هذه الأمور المهيبة والمخيفة التي مرت على الحضارة البشرية والتي لن تعود بعد الآن. إنها، في تقديري مشيئة العناية الإلهية في أن

يكون على رأس فرنسا شيء عظيم. لقد كان ذلك مبدأ، في عهود الملوك القدماء، وفي عهد الإمبراطورية، كان ذلك رجلاً. وإبان الثورة، كان ذلك مجلساً. مجلساً حطم العرش وأنقذ البلاد، لقد ارتكب اعتداءات وقام بمعجزات، وبوسعنا أن نمقته، وبوسعنا أن نلعنه، ولكن يتوجب علينا أن نعجب به!

إننا نحسّ هنا بهاجس إبراز التلاوين الطفيفة، ومع ذلك، فقد ازداد فكره جسارة، وأطلق كلمات أساسية: كان المؤتمر الوطني عظيماً، ثمة شيء من العناية الإلهية في الثورات. ولقد تركت هذه القطعة أثراً محسوساً إلى حد كبير بحيث أن م. دوسالفاندي، المحافظ جداً في خطاب الرد الذي كان قاسياً على ف. هيغو حتى الوقاحة، لم يغفل إبراز ذلك، وبأية نبرة!

إن كتابات لوميرسييه تؤكد ذلك فلم يكن ينبغي في أية مرحلة من مراحل حياته، أن يجري الكلام معه عن عظمة ذلك العهد العبودي والمقيت. . ولم يكن ممكناً أن يوافق إضافة لذلك على أن يسمع من يلقي تبعة كل شيء على الله الذي لا يأمر بكلّ ما يسمح به. فهذه ذريعة محفوفة بالخطر، كما كان يمكن أن يقول لكم. . كلا كلا! فلا نحاول أن نربط بتلك السنة المشؤومة ١٧٩٣ هالة من المجد.

ولم يغفل عن أن يرفع صورة الجمعية التأسيسية (المجلس الرفيع الشأن حقاً) بمواجهة المؤتمر الوطني المقيت . هكذا كان م . دوسالفادي يتكلم، موبّخاً الشاعر. وهكذا كان يمكن أن يتكلم هيغو نفسه، قبل عشرين عاماً. وفي عام ١٨٤١، ولم يعد بإمكانه أكثر من ذلك أن يكتفي بموقف قاطع إلى هذا الحد، وهذا مالن يمنعه من أن يكتب أيضاً في السنة التالية في الخاتمة السياسية لكتابه: الرين:

(البريق القبيح لهذه الأرقام الأربعة المشؤومة: ١٧٩٣) إن هذه الترجّحات، ترجّحات فكرٍ يبحث عن ذاته، ويرفض أن يتصلّب في موقع مطلق، سوف نلتقيها إبان السنوات ١٨٤٥-١٨٥١، وهي سنوات التطوّر التي يجلس فيها ف. هيغو

في مجلس الأعيان، بعد أن استمالته السّياسة بصورة أكيدة، ثم يجلس، بعد أيام شباط، في ا لجمعية التأسيسة للعام ١٨٤٨، وفي المجلس التشريعي بين الأعوام ١٨٤٩-١٨٥١، وهي السنوات التي يقرر أثناءها الانحياز إلى الجمهورية، حسب شهادته، ويصبح في نهاية الأمر متجها أكثر (نحو اليسار) ومع ذلك، فهو لا ينضم إلى من يمدحون الماضي الثوري دون قيد ولا شرط. وإننا نتذكر إعلانه الشهير عن رأيه بتاريخ ٢٦ أيار ١٨٤٨، ونداءه إلى الناخبين والذي يستند فيه إلى التعارض بين الجمهوريتين، ورفضه الموجه إلى تلك الجمهورية التي: ستنصب تمثال مارا، وتفعل، بكلمة واحدة، وعلى نحو بارد ما فعله رجال عام ٩٣ بحمية، وبعد الشيء المرعب والعظيم الذي رآه أباؤنا سوف ترينا البشع والصغير.

ولسوف يذكّر هيغو، أثناء كلامه في الخامس من نيسان للعام ١٨٥٠ الموجه ضد قانون الإبعاد، سوف يذكر بكراهية مارا «رجل الإرهاب» في مقابل النمسوي هينو، جلاد الثوريين الهنغار لعام ١٨٤٨، ونصير الرجعية الظافرة:

أنا لا أقبل بسياسة المقصلة ولا بسياسة المشنقة.

وها هو يكون أكثر صراحة ايضاً بصدد حرية الصحافة (٩تموز ١٨٥٠):

أما عن خصومنا.. الذين تكمن كلّ ذريعة لديهم في معارضة رجال عام ٩٣ برجال عام ١٨٥٠ هذا مالدي لأقوله لهم: كفوا عن تأنيبنا بعهد الإرهاب وبتلك الأزمنة التي كان يقال فيها: قلب يسوع الإلهي، قلب مارا الإلهي! إننا لا نخلطُ يسوع بمارا أكثر مما نخلطه بكم! ولا نخلط الحرية بالإرهاب أكثر مما نخلط المسيحية بمجتمع لويولا.

وعشية انقلاب كانون الأول للعام ١٨٥١، فإن هيغو (الأحمر)، هيغو الذي كان بالزاك يعيب عليه (ديماغوجيته)[1]، قد تمكن فعلاً من أن يبتعد عن قناعات فترة شبابه وأحكامها المسبقة. إن أفكاره الاجتماعية والنزاعات التي جعلته

(١) الديماغوجية هي تملق الجمهور أو الدهماء إلخ.. (م: ز.ع)

يجابه يمين المجلس قد أمكنها أن تجعله يتآلف أكثر فأكثر مع الفكرة الثوريّة ، وأن يقبلها ويفهمها . ومع ذلك ، فالثورة ليست . في نظره ، وحسب الكلمة التي سيجعلها كليمانسو شهيرة ، ليست (كتلة واحدة) ينبغي التسليم بكل شيء فيها ، من غير خيارات أو استثناءات .

* * *

أفسحت أحداث العامين ١٨٥١-١٨٥٢ المجال لعدد كبير من أولئك الذين كانوا ضحاياها لمراجعة الكثير من المواقف والعديد من الأحكام التاريخية . فالحرية التي صودرت بسهولة كبيرة ، والإمبراطورية المستبدة التي أقيمت ، وتحالفُ القوى المحافظة والإكليروسية حول نظام قويّ ، والزلزال الشعبي الذي لا بدَّ منه ذات يوم لإسقاط كل ذلك ، أليسَ هذا ، كما كان المبعدون يرون ، هو ما يسوّغ الثورات ، وحتى في مراحلها الشرسة؟

وأثناء تأليف ف . هيغو لديوانه القصاص ، إنما سيستقر ـ منذ ذلك الوقت بلا عودة ـ على موقفه كجمهوري ساخط ، ومنتصب ضد كل (قوى الماضي) ولاعنٍ الكنائس والملوك . وفي مرافعته هذه ، التي تمتد إلى كل أنظمة التاريخ الملكيةِ ، أيَّ مكان يعطيه لعام١٧٨٩-١٧٩٢ وخصوصا لعام ١٧٩٣والتي يخضعها لإضاءة الوقائع المعاصرة؟ ففي السنوات الأولى من منفاه إذن ، إنما سيثبت هيغو ، وقد استحثته الأحداث ، فلسفته عن الثورات في سماتها النهائية . وخصوصاً عن الثورة الأكثر إدهاشاً وهي : الثورة الفرنسية .

أياً كانت الصورة التي نحكم بها على فلسفته ، فهي فلسفة خاصة به حقاً . وبرغم نقاط التماس ، فهي ليست فلسفة لامارتين ، ولا فلسفة ميشيله ، ولا فلسفة كينيه ، فكيف بالأحرى أن تكون فلسفة توكفيل وتيير أو تين . لم تكن فلسفة مرتجلة ، ولكننا نستشعرها في مواقف سابقة له ، وفي بعض ثوابت مزاج هيغو .

بيد أن الظروف قد أعطتها جوانب جديدة، وخصوصاً نبرة جديدة ـ إنها تصبح أكثر فأكثر ذات علاقة مع كل الأفكار التي كونها عن المجتمعات، والإنسان، والله، خلال سنوات المنفى.

منذ ذلك الوقت، تكثر النصوص. ويكفي أن نستقي، من بين الشهادات الأكثر تعريفاً، تلك الشهادات التي تطبع المراحل التي يلحظ المرء في نهايتها التخطيط الأولي، منذ ذلك الحين، لبناء الرواية الكبرى. رواية الأزمنة الثورية.

إن القطعة الاستهلالية في القصاص. nox الليل تقدم النص الحاسم.

إنها استلهام عام ٩٣ المشخص:

أيها الشّغيل الصّلب. أيها العامل شبه العاري.

أيها الحاصدَ المرسل من السماء نفسها، والآتي.

لتحصد في يومٍ واحدٍعشرة قرون من البؤس.

غير الهّياب، والعديم الشفقة، والحقيقي، والهائل، والمخلص،

والذي تعادل بقامتك الجبارَ الرومانيّ،

أنت الذي قهرت أوروبا، وأمسكت بيدك،

بالملوك وحطمت بعضهم فوق البعض الأخر،

والذي ولدت لتغلق الأزمنة التي خرجت منها أزمنتُنا،

أنتَ الذي أنقذت الحرية بالرعب،

أنت الذي تحمل هذا الاسم القاتم: الحتمية!

وفي التاريخ الذي تلتمع فيه مثل أتون،

فلتبق وحدك إلى الأبد ، أيها العام ٩٣ الجبار!

فقد لا يأتي بعدك شيء بعظمتك .

من جهة أخرى ، فقد ولدت من نظام كان يسيطر فيه الهلع ،

وكانت تربيتك تثقل رأسك الذي تحرر ،

وبالرغم عنك ، يا ابن الملكية الذي اغتذيت ،

بتعاليم وأمثلة سيئة ،

أهرقت الدّم مثلها ، ولم تكن تعرف

إلا ما كانت تعلّمك إياه ، الشر والشقاء

وشرعة الموت المختلطة بشرعة الكراهية

وإذْ أسقطت الطغاة ، والبرلمانات ، والملوك ، والكابيسين[1] ،

انتفضت ضدهم ، وضربت مثلما كانوا يضربون .

ونحن ، بفضلك ، أيّها العملاق الذي كسبت قضيتنا ،

نحن أبناء الحرّية ، نعرف شيئاً آخر .

ما تريده فرنسا إلى الأبد ، ومن الآن فصاعداً ،

وهو الحبُّ الساطع على قممها الوادعة .

وشرعة المسيح المقدسة ، والأخوّة الصافية . .

لقد اتخذ هيغو قراره هذه المرة ، فانضم إلى الرؤية التي كان يزدريها في عام ١٨٣٤ . أجل فإن عام ٩٣ ، بالنسبة للشاعر الذي يرى الأشياء من عل ، لم

(١) – نسبة إلى سلالة هوغ كابيه الملكيّة ، وكان لويس السادس يلقب ب كابيه . (م . : ز . ع) .

يكن عظيما فحسب بل ضرورياً. وهي ضرورة ليس لها على الإطلاق صفة حتميّات المادية التاريخية.

فلعله مامن شيء أكثرمخالفة من ذلك لمفهوم هيغو الذي سيؤكد خلال تلك المرحلة كلها إيمانه المثالي، ومعارضته للمذاهب العلمانية، ونزعته التأليهية الأساسية.

إن عام ٩٣ يتضمن شيئاً سماوياً (من العناية الإلهية)[1]

إنه رهيب، ولكن أثره حسن، لأنه قد قضى على ماضٍ مقيت، وفتح كل إمكانات المستقبل، لقد قام بمهمته كمنتقم وكمبشرّ، فضلاً عن أن العنف الذي يعاب عليه قد كان أيضاً إرثاً من الأزمنة الملكية، فليس هناك أيّ شك في أن هيغو قد اختار الثورة.

مع ذلك، فلنحذر من التحفظ الذي تتضمنه الأبيات الأخيرة، فليس مستحباً أن تعود مثل تلك العهود إلى الظهور. وشرعة الثأر تنتمي إلى الماضي: وينبغي أن تفسح المجال لشرعة الحبّ. إن عدوّ حكم الإعدام يتراجع أمام المقصلة، حتى وإن نصبت ضّد نظام مكروه. وهذا قيد رئيسٌ يؤكد على استمرار لرؤيته التي لم يكن هناك دوما من يرغب في أخذها بالاعتبار، والتي لن ننفك نعثر عليها في مؤلفاته اللاحقة كلها: فمن خلال هذه المؤلفات إنما سيحافظ المنفي، ورجل الآراء الحازمة، والعدوّ اللدود للنزعة الإرتيابية، والمواقف المترددة والمحايدة، سيحافظ في هذه المشكلات على موقف متفرّد برغم كل شيء هو: الثورة الإنسانية:

بين هذين القطبين سوف يحاول أن يقيم التوازن، بسعي للتوفيق فيما بينهما غالباً ما يكون عسيراً، مؤكّداً بشدة تارةً على جهة منهما وتارةً على الجهة الأخرى، من المؤكد أن المرء لا يدهشُ من إصراره، في السنوات التالية، أكثر مما كان يصرُّ غالباً فيما قبل عام ١٨٥١ بكثير، وأحياناً بعنفٍ غريب،

(١) الإيضاح بين قوسين من المترجم: (ز.ع).

على تقريظ الثورة. فلسوف تمر به ساعاتٌ من الغضب والانحياز. وهكذا ففي القصيدة الطويلة، في ديوان التأملات (٥و٣): «كتابة» في عام ١٨٤٦. وهذا العنوان، كما يثبت ذلك فيانيي، هو عنوان مختلق في جانب منه: فالقطعة قد جرى تأليفها في عام ١٨٥٤ غير أن المقصود بالنسبة لهيغو هو التضليل في موضوع تطوره السياسي المبكرّ أقل مما هو الرجوع إلى تلك اللحظة التي أخذ فيها هذا التطور بالتشكل، وإلى تلك المداخلة الأولى أمام مجلس الأعيان حول الشؤون البولونية، والتي جعلته في الحقيقة يقابل بالدّهشة والرفض، كما كان الأمر من قبل، مع خطابه الأكاديمي في عام ١٨٤١، كما رأينا. ، إن كتابةً في عام ١٨٤٦ هي نوع من رسالة جوابية على الرسالة الموضوعة في صدر الكتاب، وهي الرسالة التي كان صديقٌ قديمٌ لأسرة هيغو، هو المركيز ك. دي(كوريوليس ديسبينوس، بلاشك)، كان يتهم الشاعر فيها (بالديماغوجية الصّرفة، في أوج المد اليعقوبي). ويصوّر هيغو بصورةٍ ساخرة وجه هذا الأرستقراطي، ارستقراطيّ النظام القديم والعيّاب عن قصد منه، وغير المعارض للعام ٨٩ لأنه من أولئك:

الذين لم يفهموا منذ البدء الأمواجَ، والليلَ، وفرنسا، والذين ضحكوا.

ولهذا المركيز المتطلقّ، والذي يثوب إلى رشده ويغدو غاضباً، يشرح هيغو ما كان عليه (ارتدادُه) الخاص به:

ماذا: لأن والدتي في حرب الفانديه قديماً، قد أنقذت في يومٍ واحد حياة اثني عشر كاهناً،

ولأني بكيت ـ ولا أزال أبكي بسبب ذلك، من يدري؟

على ذلك الصغير المسكين لويس السابع عشر،

ولأني، إذْ كنت فتى، وكنت روحاً يقودونها في ضوء زائف.

كنت قد رأيت فرنسا أقل مما ينبغي، ورأيت حرب الفانديه أكثر مما ينبغي.

لأني قد امتدحتُ البطولة البروتانية،

امتدحت شوان وليس مارسو ، وستوفليه وليس دانتون ،

ولأن الفلاحين الكبار قد أخفوا عني الرّجال الكبار ،

ولأني قرأتُ قراءة سيئة جداً العصر الذي نحن فيه:

ولأني زعقت كالأطفال بأناشيد الملكية ،

فهل أكون مسمّراً في البلاهة باستمرار؟

هذه هي نبرةُ تسويغ حاسم وفظ . ومن المؤكد أن هيغولا يرفض دائماً أن يقدم التحية لبطولة الفلاّحين الذين انتفضوا من أجلِ الملك ، من خلال الإشارة المميزة جداً للذكرَى الأمومية ، ولحرب الفاندية . ألم يكن قد قال في قصيدة من قصائد مجموعته القصاص إن الإقدام (كان موجوداً في المعسكرين) غيرَ أن تفكيره في الأسباب قد قاده إلى فهم الثورة وإلى تسويغها ، حتى وإن كانت قاسية:

لقد قرأتُ ، وقارنتُ بين الفجر والليل الأسود ، وبين أعوام ثلاثة وتسعين ومذابح سان بارتيلمي .

لأن هذا العام ٩٣ الذي ارتعشتم فيه ، والذي كان لا بدَّ أن يكون . والذي لم يعدْ يمكن لشيء أن يجعله يبزغ .

هو ضوءُ الدّم الذي يمتزج بالفجر .

وما إن يشير إلى الموضوع :

إن الثورات التي تأتي لتثأر لكل شيء

تصنع خيراً أبدياً من خلال أذاها العابر .

حتى ينسقه غنائياً من خلال مقطع طويل من أربعين بيتاً والذي ينتهي إلى رؤيا تلك الهزات الاجتماعية الكبرى:

اندفاعات المدّ الهائلة

والمحيطات التي
صنعت من دموع الجنس البشري بكامله

نحسّ بأن الملحمة، إن لم نقل بعد رواية الثورة، على وشك أن تولد. ولسوف تكتب في السنة التي تلي نشر مجموعة التأملاّت في عام ١٨٥٧. إنها قصيدة عملاقة، ومرافعة رهيبة! ولن يمضي هيغو قط إلى أبعد من ذلك في إدانة الأزمنة الملكية.

إنه يلحق بميشليه، ويتخطاه تقريباً. ومن خلال تخييل غريب إنما تحملُنا الملحمةُ إلى باريس مدلهّمةٍ ومليئةٍ بالأهلاس، حيث تدبّ الحياةُ في الحجر، فيحيا، فتماثيل آل بوربونَ يجريّ إنزالها عن قواعدها، فتطوف في شوارع المدينة، وحينذاكَ تصدح أقنعة بون - نوف المنحوتة، والتي يفترض أن تمثل الشعب، بنشيد كراهية بلا حدود، وموجه إلى المتنزهين في الليل، فالملك الطيب هنري نفسه لا يُراعى فيه. ولقد كان لويس الثالث عشر جلاداً راجف اليد، ويتلخص عهد ملكية لويس الرابع عشر على النحو التالي:

مذبحةُ هائلة، وخراب للوطن، واعتداء وحشيّ على الضمير الإنساني. وحين يصل الشاعر إلى (الحبيب) فإن المنتقم لا يعرف نفسه... وحين يصل الملوك الأشباح، تحت هذا الوابل من الإهانات. (بضع مئات من الأبيات الشعرية) إلى السّاحة التي ينبغي أن ينصب فيها تمثال لويس الخامس عشر، لايرون إلا مشهداً مشؤوماً:

عمودان سودان يحملان مثلثاً كامداً

وفي السماوات . فإن هذا العدد:

عام ٩٣، رقمٌ لايعرفُ من أين أتى.

ويظهر فجأة رأسُ مقطوع، وينعقدُ حوار عجيب

- أنا حفيدُ حفيدك.

– ومن أين تأتي؟

– من العرش. أيها الملوك، إن الفجر رهيب.

أيها الشّبح، وما هذه الآلةِ الرهيبة، هناك؟

فقال الرأس ذو النظرة القائمة والرقيقة:

– إنها النهاية.

– ومن الذي بناها إذن؟

– أه يا آبائي، إنه أنتم.

هناك كانت تتوقف قصيدةُ عام ١٨٥٧، ويمكن لتلك الإدانة أن تكون كلمةً أخيرة.

مع ذلك، فلا ننسَ أن ملحمة الثورة هذه لن ترد في مجموعة: أسطورة القرون للعام ١٨٥٩، ولا في أسطورة القرون للعام ١٨٧٧. وحين تبصر النور في رياح الفكر الأربعة التي تشكل فيها وحدها الكتاب الملحميّ (١٨٨٢)، تتلوها خاتمة كتبت في عام ١٨٧٠ ويرفض فيها الشاعرُ اللعنة التي لا رجوع فيها:

فليكن. مهما كان ذلك شبيهاً بالكراهية

فهو ليس الخاتمة، والفجر مؤكدٌ...

فتعاسةُ الشرير، وحدادُ العدوّ

لا، ليس هذا هو الهدف...

في عام ١٨٦٢، ينشر هيغو البؤساء. ولم تكن هذه بعد هي رواية الثورة والتي يقدّمها باعتبارها ملحقة برواية العصر الوسيط التي كتبت قبل ثلاثين عاماً. إن البؤساء هي رواية العصور الحديثة، فالحدث فيها ينطلق في عام ١٨١٥. وما من شيء يزيد من إثارة الدهشة إلا أن نتبين أن الرّوائي قد حرص، تكراراً على أن يستذكر فيها عام ١٧٩٣، بصورة عرضية على الأقل. إن استحواذ

السنة العظيمة والرهيبة يتجلى أولاً في الفصل الهام جداً لموضوعنا وهو (الكتاب الأول، القسم: ١٠)، وهذا فصل غير موجود في الصياغة الأولى لكتاب «تعاسات» السابق لعام ١٨٥١، والذي أضافه هيغو من جديد، أثناء مراجعته العامة للرواية، إبان المنفى. إنه يقع بين الصفحات المكرسة لطباع المطران بيانفونو ميرييل، وفضائله وأعماله الخيرة، وهو المنقذ المقبل لسجين الأشغال الشاقة جان فالجان. وذات يوم، يلفى سيدنا ميرييل نفسه (في حضرة نورلم يختبره): وكان ذلك، خلال زيارة قام بها لشيخ محتضر، وهو عضو المؤتمر الوطني السابق. ج. والذي تخلى عنه الجميع وشنعوا عليه. وللمرة الأولى، يصور هيغو إذن نموذجاً مروياً للثوريّ، وقبالة المطران القدّيس الذي يرسم هيغو له الصورة الرائعة التي نعرفها، يمثل. ج. صورة ثانوية، ولكنها مثالية، والحوارُ الذي يدورُ بينهما يكون رمزياً تماماً. ويعلن. ج. (أن الثورة الفرنسية هي أعظم خطوة قام بها الجنس البشري منذ مجيء المسيح. إنها غير كاملة. أجل. ولكنها سامية). وإذ لا يتمالك سيدنا ميريل نفسه عن أن يحكم على عام ٩٣ بأنه (عديم الرحمة)، فهو يتلقى الرد الذي كانت النصوص المذكورة اعلاه تجعلنا نستشعره:

عديم الرحمة، ولكنّ الملكية بكاملها كذلك، يا سيدي؟ ولتحفظْ جيداً مايلي:

كان للثورة مسوغاتها. ولسوف يغفر لها المستقبل غضبها. أما سيدنا ميرييل الذي تزعزع كيانه، فيعترض أيضاً بذريعة أخيرة على عهد(كافر) و(ملحد). حينئذ يهتف ممثل الشعب العجوز، وعيناه شاخصتان في السماء (أنت أيها المثل الأعلى، أنت وحدك موجود.). ويسوغ مهمته الرسولية الإنسانية بقدر كبير من البلاغة بحيث ينحني المطران تحت تبركه المحتضر الرّبانية... وهذا مقطع يتجلى فيه على نحو مزعج المغالاةُ وانعدام الذوق،واللذان قلما كان هيغو يحسن اتقاءهما[1] ومع ذلك فالمشهد يظلّ محتفظاً بدلالته ورونقه وهو يظهر بالتأكيد

---

(١) لقد تعرض هيغو للوم على هذا المشهد بشكل شديد جداً، وخصوصاً على يد. ب. لاسير، الذي كان يكتب في كتابة (الرمنسية الفرنسيّة)عام (١٩٠٧) (ص: ٢٢٠-٢٢١) إن االمشهد الذي يجثو فيه سيدنا ميرييل أمام عضو شيخ في المؤتمر الوطني قاتل للملوك، ومناهض للمسيحية، ليطلب البركة منه يثير الاشمئزاز غير أن كلمة: قاتل الملوك غير صحيحة فلم يُقرأ هيغو دائما عن كثب إلى حد كاف.

إلى أي حدّ قد وصل هيغو في تسويغه للماضي الثوري . ولئن كان لا يرفض كلّ ذرائع مخالفه الرأي ، فإن دور اليعقوبي ليس أقل سهولة مع ذلك . ولكن لا نغفلن هذا التفصيل: يجري في النص تحديد" فعليّ بأن رجل المؤتمر الوطني .ج . لم يكن قد صوت على إعدام الملك . فكيف لا نلتقط هنا أيضاً هذا الفرق الثابت؟ فليس بوسع هيغو أن يسلم بإدانة فظائع عام ٩٣ من دون أن يأخذ الماضي والمستقبل بالاعتبار ، ومن غير أن يُجري مجابهةً بين عنف وعنف ، ومن غير أن يؤكد ، إذا ما أريد أن يكون الميزان عادلاً ، أنه لا بدَّ من الإقرار أيضاً بأن الشعب قد عاني زمناً أطول . ولكن الإرهاب وعقوبة المثل والاقتصاص لا يمكن أن يكون لها ، في نظره ، الكلمة الأخيرة . وكيف لم يكن ممكناً أن يدخل هذا التحفظ في رواية البؤس والتي هي أيضاً رواية الرحمة والفداء ، والتي أراد فيها بصراحة ألاّ تغيب السماء عن نظرة المرء قط ، هذه الرواية التي كان قد كتب لها مقدمة فلسفية[1] (وقد ظلت غير منشورة) وهي بحجم كتيب وتشكل إعلاناً للرأي نابضاً بمثالية متفائلة ودينية؟ ولن ندهش من أنه ، في تتابع الحبكة ، قد صنع من العجوز جيلنورمان ، ذلك الباقي على قيد الحياة من القرن الثامن عشر الملكيّ والمتأنق ، العدو اللدود (لقطاع طرق[2]) عام ٩٣ ، رجلاً طيباً وودوداً . وهو يغفرُ لحفيده ماريوس (الذي يمثل صورة هيغو نفسه ، من نواح عديدة) (ارتداده) الجمهوري والبونابارتي . إن المرء يميزُ في البؤساء ، وبرغم كلّ شيء حركة مصالحة ، وسعياً لعدم الانحياز لا تزال أحكامه الدائرة على الثورة تحمل هنا طابعهُ . من غير أن يخفي هيغو في مسعاه هذه المواقف التي تصبح منذ ذلك الحين مواقفه .

لننظر إلى الأفكار التي ستغذي وتحرك شخصيات حبكة عام٩٣ للمرة الأخيرة وقد جُمعت في حزمة شعرية: إنها القصيدة (التي لا تحمل تاريخاً) والتي صدرت في مجموعة القيثارة كلها بعد وفاة هيغو . وهي: المقصلة . ولعله يكون ضرورياً أن يكون بالامكان إيراد هذه المنظومة التي تسطع فيها مقطوعات رائعة ،

(١) نجد هذه المقدمة بكاملها في (بقايا) رواية البؤساء وهي من إصدار المطبعة الوطنية .

(٢) هكذا ، كان أنصار الملكية ينعتون أنصار الثورة الفرنسية . (م: ز . ع) .

من خلال صياغات فريدة، تبعث مغالاتها الساذجة على الابتسام. وقد يكون أمراً لا بدَّ منه تقريباً أن يعيد المرء قراءتها قبل أن يتناول العام٩٣. فكل شيء موجود فيها وهو: ثقل الماضي على عهد الإرهاب:

إن الثورات، تلك المنعتقات العظيمة،

مخيفةٌ، لأنها بنات الملكيات.

وصورة المؤتمر الوطني الملحمية:

أوه! أية صدامات بين الأسلحة المتعاضدة، وخطباء الشعب، والرايات! واستحضار الثوريين الكبار، والتناقضات الحية التي ينبغي أن نفهم طابعها المخيف والسامي في آن واحد: إنهم لا يرحمون بسبب رأفتهم.

وهكذا، فإن دانتون، ومارا نفسه الذي كان هيغو يسميه دائماً كما تتذكر، حين كان الأمر يتعلق بالتمثيل الرمزي للرعب الإرهابي، والذي ينتهي به الأمر إلى أن يقرَّ له برأفة بشريةٍ لا ندري ماهي، من خلال مقطع شعري طويل، ومن خلال بيت شعري منها خصوصا، والذي لم يكن بوسع ج. لومتر أن يمتنع عن الإعجاب به، رغماً عنه: كم يبكي بغضب لإغاثة المتألمين!

وأخيراً – وعلى الخصوص، فإن وسواس السنة الرهيبة يتجلى في هذه القصيدة:

حين صعد القرن الثامن عشر دَرَجة، درج السنوات، وبلغ الثمانين،

وكذلك ثلاث عشرة، الرقم الغريب، فأتى النهار!

وكل من يجرؤ على أن يحدق فيك

أيها المؤتمر الوطني، يافوهة البركان، يا إتْنا، أيها الهوةُ الداخنة،

وكل من يغمس المشعب في أتونك، وكل من يسبر هذه البئر: عام٩٣،

فلسوف يحس بأن عقله قد شبّ من مكانه، وتوارى،

ولكن أية خاتمة ؟

كلا ، الحسام ، والموت الذي يرد على الموت ،

كلاّ . . . . هذه ليست هي النهاية . . . كلاّ ، ليس ممكناً

أيها الرب أن تكون شرعتك كلها في تبديل الهدف ،

وفي تمرير القتل والكبائر

من أيدي الملك إلى أيدي الشعب المذهول

وتنتهي القطعة بإدانة شرعة الموت:

كلا ، مامن ثأرٍ أبداً! والحياة مقدسة . . . . .

□ □ □

إنه إذن فكرٌ يغتذي منذ أربعين عاماً بالتأمّلات الفكرية والصوّر المستوحاة من الثورة الفرنسية . والذي ما إن كاد يفرغ من البؤساء حتى شرع يعمل في عام ٩٣ .

يرى هيغو أن هذه المهمة تفرض نفسها عليه فرضاً يتصف بالضرورة . وهو يسرُّ بفكرتها إلى بول موريس في تشرين الأول ١٨٦٢ ، ويكتب إلى ناشره بول لاكروا ، في العاشر من كانون الثاني للعام١٨٦٣:

إني على عتبة مؤلَّفٍ كبير جداً ، وأتردد أمام اتساعه الهائل ، في الوقت نفسه الذي يجتذبني فيه .

إنه عام٩٣ ، ويكتب أيضاً إلى بول موريس في أيار للعام ١٨٦٣:

لقد تقدم بي العمر قليلاً لكي أحرّك هذه الجبال ، وأي جبل ! الجبل نفسه ، عام ٩٣ .

وتتيح الرّسائلُ، والملاحظات، والمسارات خلال السنوات التالية، متابعة التحضير البطيء للرواية التي لن تكتب إلا بعد عشرة أعوام. وذلك لأن هيغو، في تلك الأثناء قد تعين عليه أن ينهض بالمهّمات التي تتطلبها الظروف والناشرون من هذا الشغّيل الذي لا يكلّ من مثل: وليام شكسبير(١٨٦٣) وأغاني الطرق والغابات (١٨٦٥)، وعمال البحر (١٨٦٦)، ومقدمة لكتاب: باريس- الدليل (١٨٦٧) ففي تلك الفترة، إنما يتصور هيغو عام ٩٣ باعتباره خاتمة لنوع من ثلاثية روائية، ينبغي فيما بعد كتابة الكتابين الأولين منها: فأحدهما حول انكلترا لما قبل عام ١٦٨٨، أو حول الارستقراطية، والكتاب الآخر عن فرنسا لما قبل١٧٨٩، أو حول الملكية. هذا لأن هيغو خصوصاً، وحسب طريقته الدائمة، وقبل أن يبدأ التأليف، يكثر من المخططات، والمشاريع، ويفتح الملفات، ويملأ فراغات أعلى الصفحات في الكتب التي يراجعها، وينجز بتواتر متزايد في سرعته الملاحظاتِ التي سبق أن أخذها عن الثورة منذ ما يقرب من عشرين عاماً[1]، كان تفكير الروائي قد تشبث إذن بموضوعه بشدة. وبما أنه يعهدُ به إلى الصحافة الغرنيزية في كانون الثاني للعام ١٨٦٧- وستابفير هو الشاهد الذي يذكر بهذا القصد - فإن (مشروعه الرئيس) إبان تلك السنوات يكون حقاً هو روايته عام ٩٣. وفي الثالث من كانون الأول للسنة نفسها، يكتب إلى الناشر ألبير لاكروا:

(١) لم يُفَقد هذا العمل الإعدادي، وكما هي الحال بالنسبة لأعمال ف. هيغو الكبرى كلها، فإن قسم المخطوطات في المكتبة الوطنية يحفظ مجلداً صخماً من الملاحظات التي أخذت من أجل عام ٩٣ على أوراق من كل القياسات، والتي صنفت في ملفات. إنها تدور على ملاحظات وثائقية حول الفترة الثورية. وعلى تأملات، وقوائم تحتوي أسماء أو وقائع، ونجد فيها أيضاً مخططات إجمالية ومقاطع كبيرة الحجم أحياناً والتي لم يحتفظ بها في المؤلف النهائي. إن كلّ هذه المواد قد استُثمرت تقريباً في الرواية كما هي موجودة: ولسوف نشير إلى بعضها في طريقنا، من خلال ملاحظات هذه الطبعة. وكان البعض منها يفرض أن يستخدم بلا شك في الروايات التي يتعين أن تلي رواية عام ٩٣(انظر فيما بعد) أن طبعة: عام ٩٣ المسماة: طبعة المطبعة الوطنية قد قدمت انتقاء مهماً لهذه الملاحظات تحت عنوان بقايا (ص: ٣٥١-٤٣٦). وسوف تتوفر لنا الفرصة، على فترات، لأن نحيل القارىء إليها.

«إن عام ٩٣ هذا الذي يتعين علي تأليفهُ يخلق لي نوعاً من العبودية، وهي عبودية الواجب لأن ثمة واجباً في هذا الكتاب[١]».

في عام ١٨٦٩، تصدر رواية: الرجل الضاحك. إن هذه الرواية الباروكية[٢] غير المألوفة، والمتصفة بنزعة رومنسية جامحة، والمفعمة بالشطط والعبقرية على نحو متناوب، تشكل الطرف الأول في الثلاثية التي أعلن عنها: فانكلترا الأرستقراطية والرجعية الملكيّة بعد كرومويل يجري التشهير بهما بشراسة في الهجاء تؤكد مواقف هيغو تجاه قوى النظام القديم: النبلاء والملكية.

أما الرواية الثانية المتوقعة، أي فرنسا لما قبل ١٧٨٩، فلن تظهر قط، وعلى نحو أدق، سوف تندمج في التوليف الكبير لعام ٩٣ والتي سوف يتعزز تصميمها الإجمالي (وتتسرع صياغتها بلا شكّ) بسبب امتحان الأحداث.

من أيلول ١٨٧٠ إلى أذار ١٨٧١، يأتي سقوط الإمبراطورية، ونهاية المنفى، ورجوع هيغو إلى فرنسا، والغزو، ويحدث حصار باريس، والهزيمة، وموت شارل هيغو المفاجىء، ويغدو وجود هيغو في قلب الإعصار، وهذه هي الكومونة، في نهاية المطاف، أما هيغو الذي يذهب إلى بروكسيل، بعد موت شارل، مع كنّته (البلجيكية الأصل) والحفيدين جورج وجان، فلا يشهد على الأرض مأساة باريس المنتفضة، ولكن كيف له ألا يكون قد شعر بالاضطراب، والإنذار باتخاذ موقف أمام الانتفاضة التي كانت تجعل الفكرة الثورية ملموسة فجأة، وتحاكم الماضي، وكأنها تبشر في الوقت عينه، وفي مستقبل قريب، بثورة اجتماعية أشد هولاً أيضاً؟ إننا نعرف ماذا كان موقفه: إنه التعادل بين فيرساي وباريس، ونبذ أعمال العنف من الجانبين (هذه الكومونة تتصف بالحماقة بقدر مايتصف المجلسُ بالشراسة)، وهو رفض الثورة الدموية، وكل مذهب يصنع من «الرعب» (قوة)، ولكن الرفض الذي ليس أقل تأكيداً لتوجيه أدانة أحادية الجانب للمنتفضين، اليقين بأن الأخطاء ليست جميعها في معسكرهم، كل تفكيري

---

(١) مراسلات، طبعة المطبعة الوطنية، القسم الرابع. الصفحة: ٩٠.

(٢) ذات الاسلوب المخالف للاتباعية في التعبير والبناء (م: ز.ع).

يترجح بين هذين القطبين: الحضارة، والثورة. فحين تكون الحريّة في خطر، أقول: الحضارة، ولكن الثورة؛ وحين يكون النظام مهدداً، أقول: الثورة، بل الحضارة». إن هيغو يكتب في ٩ نيسان ١٨٧١ هذه الجملة التي نتعرف فيها (الترجّح) الذي يميز تفكيره، فكيف ندهش من موقفه حين هُزمت الكومونة، ومن صرخته: (لا أعمال انتقامية!) ومن الملجأ الذي يعرضه على الإتحادين[1]، الملاحقين (من غير أن يوافق على أعمالهم)، وهو العرضُ الذي يسبب له الإبعاد عن بلجيكا، والدهشة المستنكرة لعدد من أصدقائه بالذات، وهيهات أن يكون كلُّ ذلك غير متَّفِق مع ما كان يراه، ويقوله، ويكتبه منذ سنوات عديدة.

أما أن تكون هذه التجربة الأبرز قد أنجزت إنضاج الكتاب، فهذا أمر قلما يدعو إلى الشك. وقد كتب أحد أكبر شارحي هيغو الحديثي العهد، وهو السيد. ج، ب. بارير أن (هذه الرواية ترتبط ارتباطاً مباشراً بالصدمة الانفعالية التي أحدثتها على هيغو أحداث العامين: ١٨٧٠-١٨٧١. بيد أن هذه الأحداث لم تنتجْ فلسفة المؤلف، بل أكدتها فحسب.

لم يبقَ على هيغو لكي يكتب عام ٩٣ إلاّ أن يضع نفسه في أفضل ظروف العمل.

وبعد نشر كتابه: السنة الرهيبة (١٩ نيسان ١٨٧٢)، كان الهرب بعيداً عن باريس، والعودة إلى جيرسيه وغرينيزيه ونميّز (في آب ١٨٧٢)، التجدد المدهش لحيويته، وخياله، وطاقته الإبداعية والذي تلا ذلك هو إن الطبيعة والبحر (الحاضرين جداً في الرواية) كانا يفعلان فعلهما المعجز على تلك العضوية المقتدرة، وكذلك ـ ولم يغفل كتاب السيرة المحدثون هذا ـ الحب الحسي العابر لرجلٍ سبعينيّ للخادمة بلا نش والتي شاء البعضُ بشيء من الجرأة أن يتعرّفوا سمـاتها التي أُضفت عليها صفات ذكورية، في شخص البطل غوفان. وذلك هو عهدُ أبياتِ تيوفيل غوتييه العظيمة:

القبر، والعديد من الصفحات المخصصة للمجموعات التالية:

---

(١) الإتحاديون أو المتآلفون هم أنصار ثورة الكومونة العامية الفرنسية: ١٨٧١ (م: ز.ع).

تتمة أسطورة القرون، فنّ في أن تكون جداً، والمسرح المتحرر. وعلى الخصوص سنة رواية: عام ٩٣:

(أبدأ هذا الكتاب في هذا اليوم الواقع في ١٦ كانون للعام ١٨٧٢). وأنا في هو تفيل - هاوس- وأنهي هذا الكتاب اليوم، في ٩ حزيران للعام ١٨٧٣، في هو تفيل- هاوس، في المشغل الأسفل، السّاعة الثانية عشرة والنصف ظهراً.

بين الملاحظتين المدونتين في المخطوطة، يمتدُّ تأليف المؤلف والذي خضع لقانون معظم إبداعات هيغو الكبرى: التفكير البطيء والمديد، والتنفيذ دفعة واحدة.

بضعة أشهر من المراجعات والتصحيحات التي لا يكاد يقطعها، في حياة هذا الشغيّل المقدام، رجوعُه إلى باريس (٣١ تموز ١٨٧٣) وحدادٌ جديد هو موتُ ابنهِ الأخير فرانسو فيكتور (٢٦ كانون الأول ١٨٧٣)، ويصدرُ الكتاب في ثلاثة مجلات، لدى ميشيل ليفي، في ١٩ شباط ١٨٧٤.

* * *

تحمل الطبعة الأصلية عنواناً فرعياً هو: القصة الأولى. الحرب الأهلية. هكذا فإن عام ٩٣ الذي كان من المفروض أن تشكّل أولاً التأليفَ الأخير لنوعٍ من ثلاثية روائية، قد أصبحت، من خلال تغيُّرٍ في المنظور، الروايةَ الأولى في سلسلة. وهذا ما كان فيكتور هيغو قد أسّربه، لعدم وجودِ مقدمة قد عدل عن كتابتها (وقد بقيت منها مسوّداتها)، إلى بول موريس، من خلال رسالة ألمح له فيها بأن هذا (التأليف الأول الذي يصور عصراً) سوف تتلوه دراساتٌ أخرى ثورية. وهناك ملاحظات مدونة ومحفوظة في «بقايا» تؤكد هذا المشروع.

إن عام ٩٣ لن تكون لها تتمة. في واقع الأمر. فهل ينبغي أن نأسف لذلك؟ حين نقرأ الكتاب، لا يتكون لدينا انطباع بأنه قد ترك شيئاً يرتقبه القارئ.

بل علي العكس ، فإن هذه الشميلة الكبيرة التي طالما حلم بها يبدو أنها قد اكتملت حقاً. إن هذا العمل على الأفكار والذي حاولنا أن نصفه قد وصل إلى خاتمته بصورة نهائية، من خلال الاستطرادات الوفيرة في الرواية، وفي التصور الإجمالي أولاً - في الشخصيات والحدث.

لقد اختار هيغو كمركز للرواية ، حربَ الفانديه التي هي المواجهة الأكثر إثارة للانفعالات بين نظامين، وبين مثلين أعليين. غير أنه، إخلاصاً لموقفه الثابت ، قد أبى أن يصنع رواية (تاريخية) حصراً. فثمة تمييزٌ رئيسٌ هنا. فمنذ بدايات الرومانسية، كانت قد تجلت تقنيتان في الاستحضار الروائي للماضي: تقنيةُ فالتر سكوت الذي كان يبتكر شخصياته بأن يضعها في لحظة تاريخية محددة تحديداً شديداً، وتقنية فيني في - مقدمة الخامس من آذار (١٨٢٧) والذي كان يزدري تلك الطريقة، باعتبارها بالغة السهولة:

. . . فالحدث يوضع في شخصيات مبتدعة، ويجعلها المرء تتصرف كما يريد، في حين تمرّ، من بعيد، عند الأفق شخصيةٌ تاريخية عظيمة.

أما هو (فيني) فقد كان يؤثر تصوير الأبطال الحقيقيين ، مع احتمال أن يغير شكلها لكي تخدم الأطروحة. من مثل - ريشيليو، والخامس من آذار، ولويس الثالث عشر، وفي قسم ستيلّو (١٨٣٢) المكرّس للأزمة الثورية، كان المرء يشهد ظهور ثلاثة من أسرة شينييه: الوالد وابنيه، وايميه دو كوانسي، وروبيسبيير، في المستوى الأول. وعلى العكس من ذلك، ففكتور هيغو، اعتباراً من نوتردام باريس (١٨٣١)، كان قد اختار طريقة فالتر سكوت : أي شخصيات يبدعها خيال المؤلف، في مشهد أو مشهدين فقط، وشخصيات تاريخية (لويس الحادي عشر) كان حضورها العرضي يحدد تاريخ الكتاب. واستعملت الطريقة نفسها بالنسبة للجزء التاريخي من البؤساء (انتفاضة ١٨٣٢)، وقد كان هيغو يمكنه والحالة هذه أن يؤكد لناشره لا كروا، في عام ١٨٦٨أنه (لم يصنع قط) رواية تاريخية . إن الطريقة في عام ٩٣ تبقى هي نفسها: والمشهد الذي يتحاور فيه مارا وروبيسبيير ودانتون يتوافق بالضبط مع الحوار بين لويس الحادي عشر ومستشاريه في نوتردام باريس ويعهد بما تبقى من الحدث إلى شخصيات صادرة

عن خيال الروائي. فتقول ملاحظة مدونة في بقايا عام ٩٣ (إن الأسطورة زائفة وحقيقية كالتاريخ. إن الأسطورة هي التي أكتبها). وإننا نتذكر العبارة التي وردت في البؤساء: إن الفكرة تولد الشخصيّات. وهكذا، فمن الأفكار التي كان ذهنُ هيغو قد خلطها وهو يفكر بالثّورة، إنما ولد أبطال عام ٩٣، وهم الأبطال الذي يدمجون في ذاتهم الكثير من السمات المقتبسة عن شخصيات حقيقية من التاريخ، ولكنهم إذْ يعيشون برغم كلّ شيء حياةً أبدعها المؤلف، قد دُفعوا على يده إلى أن يكونوا نموذجاً، ورمزاً، حسب طريقة ليست بعيدة عن (النّماذج المفرّدة) عند بالزاك. هذا هو أوّلاً سيموردان الذي بصدوره سكبةً واحدة عن خيال الروائي، يجمعُ ويحملُ طباع هؤلاء (القساة) بأعلى درجة من التّوتر، وهم الذين استخدم هيغو بصددهم، في قصيدة المقصلة المذكورة أعلاه عبارة متناقضةً عن قصد منه، وتتضمّن بعضَ الغرابة: نمورٌ رحيمة! وخراف رهيبةٌ.

إذ دفع هيغو النّموذج إلى الحدّ الأقصى، بسبب نزوع طبيعيّ في عبقريته، فقد شاء أن يكون سيموردان كاهناً (والحقيقة أن التاريخ كان يقدّم له أكثر من نموذج لخالع إرهابيّ لثوبِ الرهبنة) وأنه قد حافظ، شأن رجل المؤتمر الوطنيّ في البؤساء على إيمانٍ بوحدانية الرّب. ليس في شخصيته أيّة خسّة، وأيّ ضعف، اللهّم إلا مودته نحو غوفان، وهي الزاوية الوحيدة في نفسه والتي لم (تغطس في الستيكس[1]) إنه ثوريٌّ مطلقٌ وصاف، وخليقٌ بضروب الإخلاص السّامية إلى أن جعلت منه أزمة ١٧٩٣ (الرّجلَ المرعبَ العادل) والذي يقسو انطلاقاً من إنسانيته، ويجسّد حتمية الإرهاب المدمّر للعالم القديم.

بمواجهه سيموردان، هناك لانتوناك. وقد كان تكوّن الشّوان العجوز أكثر تعقيداً. ولكي يجسّد هيغو النظام القديم الذي لا ينثني. كان قد فكرّ أولاً بنموذج من الرجال يمتعه، وكان قد قدّم، كما رأينا، صورته السّاخرة

(١) الستيكس: هو نهر في الجحيم يصبح من يغمر نفسه فيه عصياً على الانجراح، كما تقول الأسطورة الإغريقية. (م: ز. ع).

(الكاريكاتورية) الشعّرية في مجموعة التأمّلات[1] وهو الارستقراطي الطائش والمتطلق والذي تربكه الأحداث أخيراً وتحوله إلى معارض أعمى ومخيف. ذلك كان يمكن أن يكون بلا شك (دوق ريتيل ذاك)، البطل المحتمل للرّواية التي فكّر بكتابتها حول فرنسا لما قبل عام ١٧٨٩، وكان هيغو قد جمع مصّنفاً من السّمات والكلمات[2] التي كان يمكنه أن يعزوها إلى تلك الشخصيّة. وقد استبدل به، -كما يبدو، في فترة متأخّرة الشخصية المتعالية والأكثر تعبيريّة، شخصية البروتانيّ «الفولاذي»، الذي يجسّد تمرُّد الغرب ضدّ باريس، وهو المركيز دولانتوناك، والذي يشبه أحد أولئك «العتاق» الذين صورهم بالزاك، واستحضرهم شاتوبريان.

من المؤكدّ أن هذه الشخصيات كائناتٌ قد خُصّصت لكي تجسّد الفكرة إلى درجةٍ مفرطة بحيث لا يمكن إلاّ أن تبدو متصلّبة في عظمتها، ومدفوعةً إلى ما يفوق البشريّ. وربما لا يتعّين علينا أن نبحث لدى سيموردان عن تلك الفروق الدقيقة التي سيشير إليها أناتول فرانس، الرّوائي السّاخر والارتيابيّ للثورة في صورة شخصيّته اليعقوبية، شخصيّة إيفاريست غاملان[3]. فسيموردان ولانتوناك يجري تصويرهما بخطوطٍ عريضة، وبتعزيزٍ كبير من الصّور والعبارات التي يدهُشنا العديد منها مع ذلك.

خلف هذين الجبارين تتجمع النّماذج الشّعبيّة للمعسكرين المتنازعين. إن الرقيب رادو يمتلك لغة ملونة هي التهكم الباريسي، والحمية الجمهورية، حميّة جنديّ الكتائب (الزرقاء) ومن الجهة الفاندية، يجسد هالمالو، وشانت أن إيفير، والإيمانوس، المقاومة البروتانية التي تقف ضد جلادي لويس السادس عشر، وسجّاني الملك الصغير (الموجود في التامبل «المعبد[4]») يؤكد هيغو في

---

(١) انظر فيما سبق القصيدة المختارة من: التأملات.

(٢) إصدار المطبعة الوطنية، الصفحات: ٤١٧-٤٢١

(٣) الآلهة عطشى (١٩١٢).

(٤) دير قديم استخدم سجناً في الثورة (م: ز.ع)

التصوير للحظة من التاريخ على موقفه الإيديولوجي بصورة جلية ونهائية. أهذا عدم تحيز؟ ينبغي أن نتفق على الامر. لم يكن ممكناً أن يُكتبَ الكتابُ إلا على يد معجب بالثورة. ولن يخطىء تقدير ذلك أيُّ شخص عند قراءته له. ولا تدعُ التعليقاتُ وحدها، بل تصوير الشخصيات حتى ميله إليها يظهر من خلال ألف تفصيل. لدى هيغو جملٌ رهيبة، على طريقة ميشليه، حول جهل الفلاح الذي يحب (ملوكه وسادته الإقطاعيين، وكهنته، وقمله). وحول ضلال مقاومته والتي هي في نظره مؤامرةٌ مناهضة للوطن (لا يكون المرء بطلاً ضد بلاده). إن كلّ حماسة وشهامة الشعب الجمهوري قد انتقلا إلى نفس الرقيب رادو، أما أحقادُ ليمانوس الملكية فتجعل منه وحشاً.

وعلى أية حال، فإن الروائي لايمنع الاحتجاجات المتصلبة للفانديه من حقها في الكلام. ولا ينكر عليها العظمة، إن فانديي عام ٩٣ يشهرون مسبقاً النداء الذي سيوجهه هيغو إليهم في القصيدة الوحيدة التي تدور على العهود الثورية والتي تشكل جزءاً من أسطورة القرون (١٨٧٧)، وهي جان شوان:

أيها الفلاحون! أيها الفلاحونّ وأسفاه! لقد كنتم مخطئين،

غير أن ذكراكم لن تصغر فرنسا.

فقد كنتم عظماء في جهلكم الشرس والمشؤوم.

ولكن الإرهاب خصوصاً ـ ونجد هنا التقييد الأساسي – ليس له الكلمة الأخيرة، في عام٩٣ وفي نص قيّم، لا يشكل جزءاً من الرواية، بل الذي احتفظت لنا به البقايا[1] يستخرج هيغو، الدلالة من الكتاب:

لقد ارتكبت الثورة جرائم، ولنقل ذلك بوضوح. فلم نخفيه؟ . . . ونحن من أولئك الذين يتبينون كمية الشر المختلطة بكمية الخير. إن الخير غالبٌ

(١) ينبغي قراءة الصفحة بكاملها (الصفحات: ٣٩١ – ٣٩٢ من الطبعة: المطبعة الوطنية). ويمكن تقريبها من نصّ نشر في أوسيان ـ بروز(نثر المحيط رقم ١١)، طبعة: المطبعة الوطنية، ١٩٤٢. لم نعد شعب عام٩٣، ولم يعد علينا أن نقوم بذلك العمل الفظ وهو تصفية ثمانية قرون من الاضطهاد في غضون ثلاث أو أربع سنوات).

بنسبة لايمكن قياسها. وهذا حسن. ونحن لانرى أنه قد أصبح الإبقاءُ على المبادىء التي هي سماء الضمير أقل ضرورة نتيجة لذلك.

إنها أفكارٌ من هذا النوع، وقد تناولها هيغو مجدداً تحت العديد من الأشكال، منذ سنوات عديدة، وهي التي دفعته إلى إبداع البطل الثالث للرواية وهو غوفان. ولئن كان هيغو لايدين سيموردان، ولئن كان يؤثره على لانتوناك، ولئن تعرّف فيه على الطابع الضروري والخير لأزمة عام١٧٩٣، برغم كل شيء فإن ذلك لم يكن من غير تحفظات. كان سيموردان (يعرف كلّ شيء عن العلم ويجهل كل شيء عن الحياة). ومن هنا يأتي تصلّبه و(سلامة طويته العنيدة) ووهمه بأنه معصوم. وكم يرتقي غوفان إلى مكانة أعلى، وهو الارستقراطي الذي يُكسَب إلى القضية الشعبية، وهو الزعيم المقدام، ولكنه داعية الثورة الرحيمة! إن لانتوناك يحمل في ذاته كلّ روح الماضي الملكي والإقطاعي، ويجسد سيموردان تصلب الأزمنة الحالية الشرس، أما غوفان، المتحمس والداعي للتهدئة، فيبدو، في حلمه الرؤيوي للحضارة والحب، مبشراً بالمستقبل، والأكثر تبصراً من الجميع، إن وسامته الرمزية كرئيس ملائكة تتباين مع وجه شريكه القاتم. ويعطيه هيغو إسماً عزيزاً من بين كل الأسماء، وهو اسم جولييت درويه (التي هي غوفان بالولادة). وأفكاره، حتى في التفصيل[1]، هي أفكار مبدعها نفسها والذي يجعل الروح الجمهورية تسكنه حسب ميل قلبه.

لقد بحثنا، ووجدنا في الواقع التاريخي الشخصيات التي أمكن للروائي أن يستوحيها لكي يبدع ثلاثي أبطاله. ولا بدّ أن يكون أصل لانتوناك هو الكونت دو بويزاي والذي استثمر مذكراته، كما سنرى، استثماراً واسعاً في عام ٩٣ وليس من غير الممكن، كما أوحى البعض بذلك مؤخراً، أن تكون شخصيات سياسية، وثوريون يعرفهم هيغو، وكومونيون من الثورة (العلمية) قد زودوه ببعض سمات سيموردان. إن غوفان يشبه حقاً لازار هوش الذي كان هيغو قد

(١) انظر في هوامش هذا المجلد، وخصوصاً الصفحات(٤٧٣-٤٨١) في النص الأصلي بطبيعته الحال....

كتب تقريظاً له رسالة الرّين الثالثة عشرة. ولكن قلما للأمر أهمية في الواقع، فيمكن لتقريبات كهذه أن تمتد إلى جمهرة أخرى من الشخصيات الصامتة الحقيقية في التاريخ. وهذه هي حال كل إبداع لشخصيات نموذجية، فالأمر الجوهري هو في الفكرة التي تجسدها وتدفعها لكي تصبح رمزاً.

إن المجابهة بين سيموردان ولانتوناك وغوفان لم يكن بإمكانها أيضاً أن تكفي لتوضح دلالة عام٩٣ الإيديولوجية، فمقابل هؤلاء الأبطال الذين قد نقول إنهم(ملتزمون) كان لابدّ من تصوير البشرية المتواضعة، والغريبة عن الاهواء السياسية والإجتماعية، والتي ليست موجودة إلا لكي تشهد على المأساة، ولكي تعاني منها، أو لكي تضمد الجراح، هذه البشرية التي كان هاجسها يعادل في فكر هيغو الحمية الثورية، هاهي قد تجسدت أولاً في شخصية (الشحاذ) تيلمارش. إنها صورةٌ رمزية، من تصوير هيغو حقاً، وهي صورة ذلك (الفقير)، وذلك المتسول، وساكن الغابة، والنذل الخفيف الروح، والمحاط بهالة من نورٍ سماوي لا ندري ماهو، والذي يتقاسم وجاره مع الهاربين، ويعنى بالجرحى، ويتحقق من الجرائم التي ارتكبت من هذه الجهة الاخرى (أي من الجانبين)، ويصوغ إعلانه لرأيه على النحو التالي:

أنتم تدركون أني لاأدري ماذا يجري بالضبط، فهناك من يذهب، ويأتي، وتحدث أمور، وأنا هناك في العراء.

لقد أبدع هيغو ميشيل فليشار، بالروح نفسها. إن عام ٩٣ هي (رواية رجال)، كما قيل. ومع ذلك فإن إمرأة تشغل فيها مع ذلك مكاناً أساسياً. والحقّ أنه ليس المكان الذي يسنده التقليدُ الروائي بكل سهولة إلى المرأة، فالعاطفة الغرامية غائبة تماماً عن عام٩٣. ويبدو أن بعض المسودات من البقايا تدلّ على أن هيغو قد تردد قبل ذلك التخلي عن تلك المسالة. ولا شيء يميزه أكثر من هذا عن روائيي الثورة الاخرين، قبله وبعده.

أولاً عن بلزاك. فإن عام ٩٣ تستدعي بصورة طبيعية رواية الشوان التي سبقتها بما يقرب من نصف قرن؛ (١٨٢٩، فبالزاك، الذي كان قد اختار حرب

الفاندية موضوعاً له، كان أول من قدم بعض الأفراد (النموذجيين) الذين أمكن لهيغو أن يتذكرهم:

زعيم الزرّق، هيلو، والشوان – بيي– ميش ومارش أتير، والمركيز دومونتوران المدعو بـ (الفتى)، ولكن مغامرة حالمة كانت قد استمالته على يد الآنسة دوفير نوي، التي كانت الشرطة قد أرسلتها للقضاء على (الفتى)، فغدت مغرمةً به، وتسعى لإنقاذه، ثم ينتهي بها الأمر، بسبب الغيرة وعدم الحرص، إلى أن تخدم مقاصد أعدائه، فتقضي مع عشيقها، وحين يجري تناول الموضوع مجدداً، بعد هيغو، على يد إيلمير بورج في كتاب تحت الفأس (المقصلة) (١٨٨٥)، وهو كتاب ليس هناك شك في أثر رواية عام ٩٣ عليه، فلسوف تأتي قصة روزمانون لتؤزم المأساة الفاندية.

وسيعطي أناتول (فرانس) في: الآلهة عطشى رونقاً قوياً لغراميات اليعقوبي غاملان وايلودي بليز، ولم يختر هيغو هذا الشكل من الحب بل حباً أكثر فطرية وأكثر ابتدائية، كما يمكن أن يقال، وذلك لكي يتصدى للايديولوجيات (العقائد المذهبية) المتصارعة. فالفانديّة ميشيل فليشار تجسد الأم.

كان هيغو قد صنع من هذا النموذج الإنساني، منذ زمن طويل، صورةً ذات سمات بارزة: إنه نموذج مخيف وحيواني تقريباً. كذلك هي، في نوتردام باريس، (المعتزلة)، لا ساشيت. التي تنفجر بكلمات غير مترابطة، وبصرخات حيوانٍ تنتزعُ منه صغاره، في حين يجرّ الجلاد إلى المشنقة ابنتها التي تعرفتها للتو في شخص الغجرية إسميرالدا. وكذلك هي لا فليشار: منذ ان قتلوا زوجها من دون أن تعلم لماذا، إنها تهيمُ، مخبلة ومذهولة، ولا تدرك شيئاً مما يحدث، مع صغارها الثلاثة الذين صنعت الحرب منهم رهائن. إن أماً وأطفالاً، هم تجسيدٌ للبشرية البريئة والمعذبة، يستأثرون بالإشتراك مع الوجوه الثلاثة الرجولية الكبيرة باهتمام القارىء، ويبرزون مغزى الرواية كله، من خلال تحريكِ الحادث الأساسي الطارىء.

* * *

هذه الشخصيات النموذجية التي (ولدتها) الفكرة، حسب عبارة هيغو، سوف (تولّد) بدورها في الواقع فعلاً ذا دلالة.

وهنا يبرز من جديد الاختلاف مع بالزاك، فقد انساق روائيّ الشوان لتعقيدات حبكة بوليسية مشوشة بعض الشيء، ولفّت شبكتها العشيقين ببطء. أما هيغو فلا يحتاج إلى حبكة بارعة، فلإبراز الفكرة، كان يلزمه حدثٌ بسيط، في خطوطه الكبرى على الأقل، ووجيز، متوتّر وذو بنية محسوبة.

إن القسم الأول من الرواية يرسخ في ذهننا فكرة نزالٍ لا يرحم. ولكي يبرز الروائي الطابع الكورنيلي[1] الملموس من الاول إلى الآخر، فهو يوثق بين الابطال روابط الأسرة، والمودة والموقف: إن غوفان هو ابن أخ لانتوناك وقد ترعرع في كنفه كابن له، وسيموردان هو مربّ (وأبٌّ روحي) حقيقي لغوفان - إن لانتوناك هو زعيم التمرد الفاندي، وغوفان هو زعيم جمهوري مكلف بالقضاء عليه، أما سيموردان فهو منتدبٌ من المؤتمر الوطني لمساعدة غوفان (وحراسته) وفي غضون بضعة أسابيع، (فالحدث قصيرٌ جداً)، تتراكم التحدّيات، والمعارك، والقرارات، والأوامر الدموية، والمذابح. والفظاعات، وتدفع الأبطال الثلاثة من حادثة إلى حادثة للوصول إلى موقف أقصى، والذي يرمز إليه حصارٌ لا تورع (أكثر من ثلث الرواية): إن لانتوناك يحاصره سيموردان وغوفان في قلعة الأسرة القديمة، ويصبح مرصوداً للمقصلة، والأطفال الثلاثة يُحتجزون على أيدي الفانديين كرهائن، ويغدون معرضين للموت بين ألسنة النيران (الوحشية مقابل الهمجية). وبموازة الحبكة العسكرية، فإن الركض المضطرب للافلشار بحثاً عن أبنائها يقودها هي أيضاً إلى أمامٍ لا تورع في اللحظة الحاسمة. وفي الوقت الذي يصبح فيها اشتداد الوضع قريباً من حده الاقصى إنما ينفجر الانقلاب الفجائي، فلا نتوناك الذي كان قد وافق مسبقاً على التضحية بالرهائن، لا يصمد أمام صرخات الأم الجزعة. إن أكثر الثلاثة انعداماً للشفقة يصيبه نوعٌ من الرحمة. وتحت خطر خسارة القضية الفاندية، يلقي بنفسه في الأتون، وينقذ الأطفال، ويسلم نفسه لأعدائه، ويقبل المصير الذي ينتظره. لقد كانت البراءة أقوى من

(١) الكورنيلي: نسبة إلى المؤلف المسرحي الشهير كورنيي. (م: ز، ع)

الكراهية. وانتصرت الإنسانية على اللا إنساني. ومنذ ذلك الحين. تختفي لافليشار وصغارها من القصة، وهذه هي الخاتمة الأولى.

تضيق الحبكة الآن على الرجال الثلاثة، فقد حانت لحظة النزاعات الحاسمة.

إن سيموردان لا يتأثر ببادرة لانتوناك، ولا يرى فيها إلا فيها فرصةً لإنهاء الحرب بتسليم زعيم الشوان إلى المقصلة. أن المأساة تتركز في نفس غوفان. فتصميمُ عمه البطولي يحثه على أن يبزه شهامة أيضاً. أن بادرة لانتوناك كانت قد انبثقت غريزياً تقريباً، وفي الخطاب الذي سيوجهه إلى غوفان، لن يسعى إلى تفسيرها، ولن يشير إليها أية إشارة حتى. ولسوف يتلو تصميم غوفان، على العكس، أزمة طويلة، ونزاعاً داخلياً، يرتبّ على شكل مناجاة مأساوية يجري فيها التفكير في كل شيء ووزنه، حينذاك. وبرغم تهكمات وتأنيبات الملكي العجوز الذي تراخى أمام مبادرة تلقائية مفعمة بالرأفة الإنسانية، ولكنه لم ينكر شيئاً من قناعاته ومن أحقاده، فلسوف يسمح له غوفان أن يهرب، وسيأخذ مكانه في الزنزانة. وهذه هي المرحلة الثانية من الخاتمة.

هل نتصور أن سيموردان الذي تأثر بدوره، بنوع من العدوى، عدوى الشهامة، يعفو عن غوفان، مع احتمال أن ينتحر لأنه قد خان التعليمات الثورية؟ إن هيغو لم يقرّ بذلك. فطبع الإرهاب الذي لا يرحم ينبغي أن ينتصر في نفس سيموردان حتى النهاية. أما أن يكون متسامحاً، فلن يعود هو نفسه بعد ذلك. فضلاً عن أن هذا، أليس أمرُ المؤتمرِ الوطني قطعيّاً وهو: إعدام أيّ شخص يشجعّ على هرب الخصم؟ ومع ذلك، فإن سيموردان يحب غوفان. وفي بداية المعركة التي كان يعلم فيها أن تلميذه سوف يتعرض للخطر، لم يتردد (وهذه بادرة حدوثها قليل الاحتمال، من جهة أخرى) في أن يقدم نفسه كرهينة إلى البيض لكي يوقف المعركة في الحالة التي يقبل فيها هؤلاء بتسليم لانتوناك: لقد اكتمل الآن كلّ شيء، وأدت بادرة الشوان العجوز. من خلال تسلسلٍ منطقي، إلى قرار غوفان، وبلورت النزاع المستتربين الثورة التي لا ترحم والثورة المتسامحة، وبعد ليلة يجري فيها النقاش حول أفضل الجمهوريات، سوف يسلم سيموردان إذن تلميذه الحبيب إلى المقصلة المنصوبة للفاندي. أما غوفان فلسوف

يومىء بإشارة وداع ودية لمعلمه قبل أن يقدم رأسه إلى الجلادّ ، ولا يستقبل الموت حانقاً . وهذه هي المرحلة الثالثة .

هل ينبغي أن يتوقف كل شيىء هنا؟ فحين يموت غوفان ، هل يبقى لانتوناك وسيموردان وجهاً لوجه . كلاّ:ففي بضعة أسطر ، تنبثق الخاتمة العليا ، فانتحارُ سيموردان يرافقُ إعدام غوفان .

إن الشارحين الذين أخذوا (فلسفة) عام ٩٣ على محمل الجدّ إلى حدّ كبير ، والذين لم يخطئوا في ذلك ، قد تساءلوا عن مغزى تلك البادرة النهائية ، والتي يدعها فيكتور هيغو ، في النص المطبوع ، لحكمنا من غير تعليقات ، لقد امتثل سيموردان بعد كل حساب ، لواجبه وبوسعه أن يعيش ، ويتعين عليه حتى أن يواصل الحرب التي سوف يعيدُ إشعالها هرب لانتوناك ، لكي لا يسمح أن يكون عدوّ الجمهورية هو الوحيد الباقي على قيد الحياة من الثلاثة ، ويكون الفائز بالمغامرة . فلماذا هذا الانتحار؟ لقد استحضر البعض (بيريت وآخرون) انتحار جافير في البؤساء . غير أن الموقف مختلف تماماً . فجافير الشرطي ينتحر لأنه قد انتابه الضعف ، فعفا عن سجين الأشغال الشاقة السابق جان فالجان . إنه يعاقب نفسه على لحظة من الإنسانية تراخت فيها صرامة الواجب أمام شهامة شريكه . ولعل هذا الموقفَ يكون شبيهاً بعض الشيء بموقف سيموردان لو أنه قد عفا عن غوفان . والحال . فإنه قام بواجبه الثوري حتى النهاية ، برغم التماسات الجيش ، وسلم غوفان إلى الجلاد ، وإذن؟ إن الأشياء الباقية من عام ٩٣ تزودنا حول هذه النقطة بوثيقة قيمة وهي: قطعتان مخطوطتان لم يوردهما هيغو في النص ، وفي إحدى هاتين القطعتين ، يتحدث سيموردان:

مشيراً إلى المقصلة: – لقد أرضيت القانون – وممسكاً بمسدس: – والآن ، أنا أرضي العدالة – وأطلق النار على رأسه .

وفي القطعة الثانية ، يترك تسويغاً مكتوباً:

هناك أمران هما – القانون والعدالة . وكلاهما يجب إطاعتها . ان موت غوفان يرضي القانون ، وموتي يرضى العدالة ، بكلماتٍ أخرى ، فإن

سيموردان ، بعد تنفيذ الإعدام الذي يتم بأمر منه ، لم يقر لنفسه بالحق في الحياة . وموته (يرضي) فينا تطلباً يطلق عليه اسم إحدى أعلى الأفكار الأخلاقية شأناً .

إن هذا التفسير لايلقي الضوء على تصميم سيموردان فحسب . بل يأتي بجواب ، على السؤال الذي يطرحه القسم الأخيرُ من عام ٩٣ بأكمله ، وهو القسم الشديد التوتر ، والمؤلف تأليفاً قوياً جداً . فما هي دلالته العقائدية الحقيقية؟ وأي انطباعٍ ينبغي في نهاية المطاف أن يتركه لدينا هذا الإبداع الرفيع ، إبداع هيغو الروائي؟

يكتب رونوفييه[1] (إن الفكرة العامة للقدر تسيطر في هذه الرواية الأخيرة) وقدسبق للقدر أن كان الفكرة المفتاحية في: نوتردام . ويبدو الانتحار حينذاك وكأنه (الخاتمة العملية للمأساة) ، وهكذا ففي: عمال البحر وفي الرجل الضاحك ، قد ظن بعض الشارحين ، وهم يدفعون بهذا الاتجاه ، أنهم قد كشفوا في خاتمة عام ٩٣ عن نزعة تشاؤم أساسي ، وقد عزوه في جزءٍ منه إلى المرارة التي كان لا بدَّ للأزمة الحديثة العهد بين ١٨٧٠-١٨٧١ ان تتركها في نفس فكتور هيغو - يبدو لنا هذا التقويم أنه يتطلب لمسات جدية: أولاً - أنه على أية حال خاتمة سعيدة في عام ٩٣ ، إنقاذ الاطفال الذين يعادون إلى والدتهم . إنما وبرغم المأساة النهائية حتى ، لايمكن القول إنها مؤلف مفعمٌ باليأس . فكما هي الحال في البؤساء . حيث تكون الغلبة للتفاؤل أيضاً (فلا تغرب فيها السماء عن البال) ومن المؤكد أن الطبيعة الإلهية تدين بصفائها (السفاهة البشرية) . وهي تلفُ الماضي والحاضر ، والإرهاب ، والفاندية ، ولاتورع والمقصلة بنبذها بدرجة متساوية . وهكذا فإن تولستوي ، في بداية البعث ، سوف يمجد الطبيعة بمواجهة الحقارات البشرية (وظلَّ الربيع هو الربيع) . ومع ذلك ، ففي عام ٩٣ فإن الربّ ، رب هيغو ، يتجلى بصورة واضحة في الإنسان عن طريق الضمير الذي يحرر النفوس المحصورة بين جدران عقائدها ، وعن طريق الفعل الطوعي الذي يفتدي بقدرٍ معين الفظاعات والجرائم . إن لانتوناك الشرس ينتزع ثلاثة اطفال من الموت ، ويضحي غوفان بأعز مالديه من أفكار - وهو جمهوريّ من كل قلبه - وبسلامته

(١) فكتور هيغو الفيلسوف . (١٩٠٠) الفصل العاشر .

ووجوده لكي لا يدع خصمه يعدم بالمقصلة، وهو الخصم القمين بانتفاضة إنسانية كهذه، وأخيراً، فإن سيموردان، بعد قراره الفظيع والمنطقي، يتخلى عن الحياة لكي يكفرّ إذا صحّ القول عن العمل الذي جعله إخلاصُه للفكرة الثورية واحترامهُ للواجب الاجتماعي يرتكبه. إن الثلاثة جميعاً قد ظهروا بالتساوي صادقين، ومستقيمين، ومفعمين بالاقتناع، وعنيدين في أفكارهم، والثلاثة جميعاً كان لديهم متسعٌ من الوقت ليفصحوا عن أنفسهم من خلال مناجيات أو حوارات، وأن يسوغوا قراراتهم المتناقضة. والثلاثة جميعاً يجدون أنفسهم وقد تصالحوا في امتثالهم لضرورة قناعاتهم السياسية، بل ضرورة مثلٍ أعلى أخلاقي. ومن هنا فإن الموت المأسوي للزعيمين الجمهوريين، والمحنة نفسها، محنة غوفان الرائع لا يتر كان لدينا فقط شعوراً بقدرٍ مشؤوم. وقد كان رونوفييه أقرب إلى الحقيقة حين كان يرى أيضاً في هذه الخاتمة ظهوراً (لأطروحة الظفر النهائي للحب في النفوس الكبيرة).

* * *

إنها رواية من نسج الخيال إضافة إلى استحضارٍ موسَّع جداً للحظةٍ من لحظات التاريخ:

تلك كانت صياغة نوترام باريس، وهذه هي بنية عام ٩٣.

إن هيغو يجمع توثيقاً كاملاً، لكي يشكل الإطار التاريخي، ويخلق الجو: كان منذ فتوته يحب أن يتأنق في تبحرّه وتنقيبه، وهو تأنقُ عهدِ المسرحيات والروايات الأولى.

ولقد امتد العمل التحضيري لعام٩٣ لبضع سنوات. فمنذ عام ١٨٦٣، يمكن أن نتابع خطواته الأولى، في مراسلاته مع بول موريس. فهيغو يطلب وثائق:

تكرم بأن تشتري على حسابي. وأن ترسل لي الكتاب الذي تكلمني عنه وهو: الفنّ في ظلّ الثورة. وهل هناك صورة في مكانٍ ما، أو وصف تفصيلي

للقاعة التي حاكم فيها المؤتمر الوطني لويس السادس عشر ؟ . . . وما هو كتاب موتنيمير- تيرنو عن الإرهاب ؟

أما موريس ، بدوره ، فقد اقترح على صديقه أن يرجع إلى الفهرس المليء إلى حد كبير جداً بالمعلومات ، فهرس مكتبة لابيدوايير . . . . . ولديك كتاب ميشليه ، أليس كذلك؟ وأيضاً مذكرات غارا وآخرين؟

لقد قدمت شرائط الدلالة الورقية التي لاتحصى ، والمغطاة بالحواشي والتي درست في الكتب ، وعثر عليها في مكتبة غيرنيزيه ، قدمت مادة لدراستين هامتين :

تاريخ رواية عام ٩٣ ، في طبعة المطبعة الوطنية (الصفحات ٤٥١-٤٦٩) ، ومقالة بول بيريه في المجلة الجامعية لعام ١٩١٤ : كيف حضر ف . هيغو روايته التاريخية ، عام ٩٣ . وإننا نوجز هنا استنتاجاتها .

حسب طريقته ، يتمسك الروائي بثلاثة أو أربعة كتب أساسية يغترف منها موجزَ روايته وهي: مذكرات جوزيف دوبو يزاي ، النص الأصلي للانتوناك (١٨٠٣) ، والثورة الفرنسية للوي بلان (١٨٦٦) ، وتاريخ روبيسبيير لإرنست هاميل (١٨٦٥) . إنه يتفحصّ أو يتصفّح العديد من المؤلفات الأخرى . فما الذي يجنيه منها ؟ كثرة من الوقائع ذات الدلالة . ولسوف يتصرف على هذا النحو ، وإلى حد ما ، وغالباً مع المؤلفات نفسها(مورتيمير- تيرنو في عداد آخرين) ، تين وهو يحضرّ ، في الفترة نفسها التي يكتب فيها هيغو عام ٩٣ ، كتابه : أصول فرنسا المعاصرة ، وعلى مستوى مختلف تماماً ، وبروح أخرى تماماً ، إن هيغو ، الروائي والشاعر ، يؤثر التوقّف بشكلٍ طبيعي عند التفاصيل التصويرية ، وعند الكلمات ذات التأثير ، والمقاطع البعيدة المرمى . ويضيف إليها ذكريات عن حكايات شفوية ، وأحياناً تأملات شخصية تُلقى عَرَضاً فتتشكل على هذا النحو رزمةٌ من الملفات والتي نقلتها إلينا الأشياءُ الباقية . أتى وقتٌ كان فيه هذا البحث الواسع يدعو إلى الابتسام . ولم يكن تحفظ منه إلاّ النواقص ، وبعض الأخطاء المذهلة . أما الدراساتُ الحديثة فهي عموماً مؤيدة لهذا البحث . إن كل

هذه الوثائق التي أخصبها الخيال في عام٩٣ تعطي صورة جدّ مقبولة عن المأساة الفاندية . كما قدمها المؤرخون . كان بالزاك في الشوان مدركاً على الخصوص لتفاصيل الطوابع ، أما هيغو فيتمسك أكثر بالجوانب الكبرى للنـزاع . ومن خلال حوادث الرواية ، يستحضر حقاً مكان التمرد البروتوني في صراع أوربا ضدّ الثورة ، والآمال التي توقظها في انكلترا . ومراحل وسمات التمرد المختلفة . أرستقراطية كانت أم فلاحية ، والصفات الأصلية لتلك الحرب التي كان بالزاك قد أكد عليها من قبل بقوة في الشوان:

الكمائن ، والمباغتات ، ومعارك الغابات . وقتال الشوارع (إن مواجهة مدينة دوْل تاريخيةٌ إلى حدّ كبير) ، والأهواء المحتدة المتصارعة ، وشراسة المحاربيْن . وقد أتاحت أعمال البحث هذه لهيغو خصوصاً أن يضع في مركز الرواية ، من خلال قطع الحكاية تبعاً للتقنية المستخدمة سابقاً في نوتردام باريس ، العرضين الموسعين حول المؤتمر الوطني – الكتاب الثالث من القسم الثالث – وحول الفاندية – الكتاب الأول من القسم الثالث – ، إنها لوحاتٌ متضادة يمتزج فيها التاريخ والشعر ، وهي على الأقل استحضاراتٌ ساحرة . وتُبسطُ فيها العقيدة السياسية .

إن هيغو يشرح ويحكم . إن كل ما كان قد كتبه وفكر فيه عن الثورة منذ خمسين عاماً يُفضي إلى هذه الفصول التي تفسر تفسيراً واسعاً بعض العبارات المفتاحية (المؤتمر الوطني . . . يمكن أن يكون ذروة التاريخ . . . والفاندية . . . . هي جرحٌ يعتبر مجداً) ، وفي هذا الموضع إنما لم يصمد أمام (المشهد المطلوب تأليفه) وهو اللقاء بين روبيسبيير ودانتون . وهذه قطعةٌ تاريخية مرتبطةٌ بحدث الرواية برباطٍ دقيق إلى حدٍ كاف ، وهي حوارٌ واسع تظهر الشخصيات الثلاثة فيه وقد قادت كلٍّ واحدة منها فكرةٌ ثابتة ، فمارا تقودُه المكيدةُ الباريسية والتجسّس ، وروبيسبير هاجسُ الفاندية ، ودانتون الخطرُ الخارجي ، والثلاثة جميعاً يعادي كلٌّ منهم الآخر سراً ، وهم يجسدون ثلاثةَ جوانب من العبقرية

الثورية. وللتو سوف يقدم تين في كتابه: «أصول»، لوحاتٍ رمزيةً مماثلة أيضا، وبرغم إدعاءاته كمؤرّخ قحّ، فليست لوحاته بالضرورة حقيقية أكثر من البناء القوي عند هيغو.

ولكن هاكم الوجه السيء. إن هذا البحث الواسع الذي استخدمه شغيلٌ يتحلى بذاكرة قوية أيضاً، وبموهبة كلامية لا حدود لها تقريباً، مسؤول جزئياً عن الغزارة الفائضة التي تعذر قارئَ اليوم على حالات نفاذ صبره. فهل قام هيغو بالاختيار أيضاً؟ لقد سعى بشكلٍ جلي ليكون موجزاً في عام ٩٣، ولكي لايخلّ بتوازن الحدث، وقد ترك في الأشياء الباقية (ذخائر عام٩٣)، كمية من الشذرات، ودراسة كاملة، في عداد دراسات أخرى، حول مارا ودانتون وروبيسبيير. هناك عدد فائض من الصفحات يُعطي مع ذلك أيضاً الانطباع بوجود براعة لاترحم. فأن يستحضر شوارع باريس في ذلك العهد، وجلسات المؤتمر الوطني، والكلمات العظيمة أو الرهيبة التي تسقط عن تلك المنصة، ووجوه الخطابين الرئيسين، وسمات المركيز الفاندي، وأن يجعل لافيوفيل وبوابيرتولو ولانتوناك وهالمالو أو أعضاء المؤتمر الوطني الثلاثة يتحاورون. فهو يقوم بذلك بواسطة التعداد أو مراكمة التفاصيل التي يجمعها بثقة عنيدة. وهذا لا يعني أنه يكرر نفسه، بل على العكس من هذا، فنحن نذهل من تنوع طرق التعبير، والصوّر، والتوتّرات، ومن التمكنُّ الكلامي الذي يمزج به ويستجرّ الوقائع، والتواريخ، والتلميحات. ولكن غالباً جداً ما يبدو أن المؤلف وشخصياته يريدون أن يتركوا القراء ذاهلين بتأثير التاريخ التصويري، مثلما يحدث لهيغو أن يكون بالنسبة لمشاهدي المسرحيات الرومانسية.

* * *

فضلاً عن هذا، فإن الاستطراد بكل أشكاله يشغل مكاناً فيه مغالاة من حيث الاستخدام في عام ٩٣، كما في روايات هيغو كافة: إنه استطرادٌ تاريخيّ، ولكنه أيضاً اجتماعي، وأخلاقي، وفلسفي وغنائي. وإذا كان الأمر يتعلق بدراسة ضخمة، أو أفكار عابرة، فإن الروائي ينساق إلى التفسير المستمر، ولفرط رغبتَه في إبراز دلالة الأشياء، ويحدث له أن يبهظ ويثقل ما كانت

القصة بحد ذاتها توضحه إيضاحاً كافياً ، إن الفصل الشهير:هذا سيقتل ذاك في«نوتردام باريس» كان قد دشن هذا النوع من العروض الموسعة بأسلوب متعال وبراق . برغم سعي هيغو المؤكد للاقتضاب ، فهو لم يتخل عن ذلك . وحتى أن الشكل الذي يتبناه في مقطوعات مماثلة قد ازداد تفاقماً ، وغدا أكثر تصلباً إبان المنفى ، ويمكننا أن نستخرج من عام ٩٣ جدولاً كاملاً بالسمات التي تجعل الشكل قابلاً للتعرف من بين كل الأشكال الأخرى: عباراتٌ لاذعة ، وتناغمات مركبة وتعابير متضادة ، واستخدامٌ مستمر للاسم المجرد وللصفة الاسمية ، وجملٌ إضمارية بلا فعل (مثل لكمة خاطفة) ، ومقاطع مكررة بالأسطر ، وتساؤلات تتلوها إجاباتٌ حاسمة ، وتنويعات ، بالصور ، والاستعارات ، للفكرة التي لاتبدو قطّ أنها قد بُلغت بشكل كافٍ . إنها قريحةٌ خارقة ، فقد كان هيغو قادراً بمفرده ، في زمنه ، على مواصلة الجهد في براعةٍ كلامية مماثلة دون تردد . ولكن فلنعترف بأنه ما من شيء أبعد من هذا عن ميلنا (المفرط ربما بدوره) إلى الاعتدال ، وإلى الطريقة التلميحية . ويصح أن نقول إن عام ٩٣ تُظهِرُ أحياناً للقارىء ، أكثر مما هو في الروايات السابقة . تكتماً يترك له إمكانَ استخراج الفكرة أو الانفعال من القصة بنفسه ، من غير أن تخنقه بإيضاحات قاطعة : وتتبدى الصفحة الأخيرة على هذه الشاكلة . ويتمنى المرء لو أن الأمر قد كان كذلك في أغلب الأحيان ، في سياق الرواية ، وألا تكون هناك مقاطع جميلة جداً ، وأفكارٌ قوية جداً قد شوهها الإلحاح المفرط . ونلمس هذا التوتر بصورةٍ خاصة في المقاطع العقائدية (الإيديولوجية) من مثل: مرافعة لانتوناك ضدّ الثورة ، والنّقاش الرّفيع بين غوفان وسيموردان . إن تأمّل غوفان ، الجميل جدّاً بحدّ ذاته والنظير اللائق لفصل: «عاصفة تحت جمجمة في البؤساء» يشكو ، شأن تأمّل جان فالجان ، من الإسهاب الذي يضغط كثيراً على القارىء المعاصر . وليست معفاة من هذا الصّور والحكايات نفسها حتى . أما الفصولُ السّاحرة التي يوضع فيها على المسرح أطفالُ لا فليشار فتُثقلها تأمّلاتٌ مماثلة في الطفولة تذكرّ بشكل مفرط بالمجوسيّ «المتفكرّ» ، وتُنبىء ببعض القصائد المتبجّحة في «الفنّ في

أن يكون المرء جدّاً» . ولئن كان بين كلّ العبارات التي ابتكرها هيغو ، عبارات مؤثّرة أو رائعة غالباً ، فإن بعضها الآخر يبدو أنّه يحاكي نفسه بصورة ساخرة: فلنقرأ على سبيل المثال الوصف الأخلاقي لسيموردان .

* * *

إن هيغو السّبعينيّ ، في حقيقة الأمر ، يثبت نفسه أكثر من أيّ وقت مضى بسلطان العبقرية التي لا جدال عليها ، والتي يجب أن نقبلها كما هي ، بكاملها . إنّ تقنية الرّواية تجلب دليلاً آخر على هذا الثّبات الذي لا يهتز . وكان يمكن لقراء عام ٩٣ أن يقولوا في عام ١٨٧٤ إن (الرومانسية لم تمت) ، في حين أن الرواية قد انتقلت ، منذ عشرين عاماً إلى الواقعية ثم إلى الطبيعية . فلنكتف بالتذكير بأن عام ٩٣ تندرج ، من حيث تاريخها ، بين رواية التربية العاطفية لفلوبير والخمارة المريبة لزولا(١٨٧٧) ، إن الحدث ، كما قلنا ، لا يفتقر إلى البساطة في خطوطه الكبرى ، ففي التفصيل ، يستخدم كلَّ عبارات الزمن الماضي ، ويستجيب التقطيع إلى أقسام ، وكتب ، وفصول ، والتي تسبقها عناوين تصويرية ، وأليفة ، وظاهرية التناقض ، وملغزة ، يستجيب لميلٍ كان جلياً في نوتردام . إن الأحداث يجري توقّعها ، وتتسلسلُ ، وتصل إلى خواتيمها حسب تقنية الرواية أو المسرحية في سنوات ١٨٣٠ ، إن لم نقلْ المشجاة . وغالباً ما تعطي عام٩٣ ، المسلك المقصود لروايةٍ شعبية . إنها مسلية شأن رواية الكساندر دوما (وبأسلوبها إضافة لذلك) ، ومصنوعة بوسائل مماثلة: مباغتات مهيئة . منذ زمن طويل ، وتوقعات محسوبة للحكاية في لحظاتٍ مؤثرة . السلمّ والمقصلة اللذان يجولان عبر الريف واللذان لا يعلم إن كانا سيصلان ومتى وأين ، والباب السري الذي يراه المحاصرون الموشكون على الهلاك ينفتح في السور: وكمية من الملحقات المجربة . وهذه هي الرؤى غير المتوقعة ، واللقاءات الموفقة ، والحركات والحوادث المفاجئة ، فالمركيز دولانتولاك يمنح البحّار وساماً بطريقةٍ احتفالية لكي يسلمه بعد قليل إلى فصيل الإعدام ، ويصل سيموردان إلى دُوْل في اللحظة المناسبة تماماً لينقذ غوفان من ضربةٍ قاتلة ، ولاتعثر الأم ، بعد مطاردةٍ لاتنتهي ،

على أولادها. إلاّ حين تراهم محاصرين بألسنة اللّهب، ولانتوناك توقفه صرخةُ ميشيل فليشار، في اللحظة التي يستلم فيها مفتاح الحقول بالضبط .

كان سانت بوف، اعتباراً من عام ١٨٣٥، قد قدم تشخيصه لذلك العيب في الرواية الرومانسية، وذلك بصدد فيني، إذ قال :

. . . . نقصٌ معين في الواقعية، ومظهر معين لوهم شاعريّ. . . فمهما جرى ترتيبُ المشهد. . بكل الدراية، وكل المثابرة اللتيّن يستطيعهما الشاعر . . .، فإن المرء لايمكنه أن يركن إليهما كما يركن إلى الحقيقة نفسها، برغم الانفعال الذي يتلقاه منها. .

ثمة ما يغرينا بأن نكرّر ما قلنا بصدد الكثير من صفحات عام ٩٣: إن قصة الأطفال الثلاثة، الرهائن الذين ينتهي بهم الأمر إلى قلب الحرب الأهلية، والذين يتركز عليهم كلُّ اهتمام، وكلُّ إصرار، وكلّ رأفة المحاربين، هذه الحكاية الخيالية الأساسية في الرواية هل تقنعنا تماماً؟

إن هذه العناصر الرومانسية المتبقية أكثر بروزاً أيضاً في أحاديث الشخصيات، وفي الحوارات. وقد كان فلوبير مغتاظاً لذلك. وهو يكتب في الأول من آيار للعام ١٨٧٤ إلى السيدة روجيه دوجونيت، بعد قراءة عام٩٣ أية نماذج بشرية مصنوعة من خبز الأبازير. هذه النماذج! إنهم جميعاً يتكلمون كالممثلين المسرحيين . إن هذا العبقري يفتقر إلى موهبةِ صنعِ كائناتٍ بشريّة، ولو كانت لدى هيغو هذه الموهبة لبزّشكسبير. . . وبطبيعةَ الحال، كممثّلي مسرحيات هيغو. إنهم يمارسون، على غرار مبدعهم، المأثرة الكلامية، وإيراد الصور بكثرة. وحتى أن النماذج الشعبية لها أسلوب لا يمكن للمرء أن يخطىء في تعرّفه: ولنقارن كلام الرقيب رادو وقيّمةِ المطعم مع كلام شخصيات ستندال، في قصة واترلوا! فكيف لا نتعرف مؤلف هيرناني، وروي بلاس، والبورغراف، في هذه المؤثرات المؤكدة: هنا مقطعٌ طويلٌ مؤلفٌ من بضع صفحات ملأى بالقدح والطعن (لانتوناك الذي يوسع غوفان بالتأنيب في سجنه)

وذلك للوصول إلى هذا الرد الوحيد (أنت حرّ). وفي موضع آخر، هناك الرُّدود (العظيمة التأثير) أيها الجنود، انتزعوا أحذيتكم – ليس لدينا أحذية). والردود الطنانة: (يا سيدي! –والدك) – (أهذا أنت، أيها الكاهن! – أجل، هذا أنا أيها الخائن!) – (إنني أعتقلك، يقول سيموردان – فيقول لانتوناك: مع ذلك، إني أوافقك).

كانت عام٩٣ تستدعي النقّل ألى المسرح: فبول موريس يصنع منها، بإذن من هيغو، مسرحيةً يجري تمثيلها على مسرح لاغيتيه (المرح) في ٢٨ كانون الأول للعام ١٨٨١. حيث أخذت ماري لوران دور لافليشارد. وقد جعلتنا إذاعة سويسرا منذ قليل نستمع إلى هذا الاقتباس الذي كانت توحي به البنية المسرحية للرواية.

□ □ □

مع ذلك، فهيهات أن تمتد تهكمات فلوبير، في الرسالة المذكورة إلى الكتاب بأكمله، فقد كان يقرّ قائلاً: (عام ٩٣، للأب هيغو، تبدو لي أعلى من رواياته الأخيرة، وأنا أحبّ كثيراً نصف المجلّد الأوّل، وهو السير في الغابة، ونزول المركيز من القارب، ومذبحة سان بارتيملي، وكذلك الأمر بالنسبة لكافة المناظر) وهذا اختيارٌ يمكن للقارىء في أيامنا أن يوافق عليه. إن فن هيغو الوصفي والحكائي في عام٩٣ لا يأتي بتحديدِ ملموسٍ لطريقته. يل يواصل نهجه. هنا أيضاً. يبقى على أيّة حال نداً لنفسه، وينتمي المؤلفّ إلى سنةِ خصبة لا تخفت فيها قدرةُ الإبداع والتعبير لدى الشيخ.

كان الموضوع يفسح المجال للوصف، فقد ألهم البحر فيكتور هيغو، مرّة أخرى. فهو حاضرٌ، تحت مظاهر مختلفة، في كلّ الرّوايات التي كتبت منذ البؤساء. وفي عّمال البحر (الرّواية الأغنى بهذا الصّدد)، كان هناك وجود لصياد جيرسيه، وحوادث الغرق، وصخور البحر التي تلطمها الرّيح والأمواج، والمغائر الموجودة تحت الماء. والملأى بحياة زاخرة بالحركة، وألوان الصّخور، والحصباء، والشواطىء، ورائحة أعشاب الفوقس. كانت رواية

الرجل الضّاحك تروي ، في ماضٍ بعيد ، ملحمة السّفينة الشبّح ، سفينة مبتاعي الأطفال الذين انقضّت عليهم عواصفُ الثلج في عرض سواحل انكلترا . وُتعيدُ الحوادث الأولى في عام ٩٣ إحياء رحلة السّفينة الحربية كليمور ، التي تحمل الإنزال السّري للانتوناك ، وهي الرّحلة التي تقطعُها حوادثُ معينة ، كالمدفع المفكّك ، وظهور الأسطول المعادي ، وهروب زورق الإنقاذ ، والمعركة التي تقضي فيها السفينة كليمور ، شأن السفينة لوفانجور ، وشأن الفرقاطة لاسيريوز في قصيدة دوفينيي . إن هيغو يستثمر المفردات التقنيّة لحياة السّفن الحربيّة في زمن الثوّرة ، وهو يستحضر حول مأساة السّفينة الحرّاقة ، بلمسات انطباعيّة ، مشاهدَ المحيط ، والضّباب ، ومؤثّرات الضّوء ، والظّل ، وشفق الصّباح وغسق المساء ، وما يسميّه بكلمةِ مصوّر: (نموذج البحر المجسّم) .

أمّا تتمّةُ الحدث فإطارُها الأرضُ البروتانيّة ، فيغذّي هيغو هنا مقاطعه الوصفيّة بالذّكريات .

فقد كان جونُ أفرانش ، الذي يجعل لانتوناك ينـزل فيه ، يذكرّهُ برحلة ربيع العام ١٨٣٦ إلى بلد جوليبت درويبه . وكان قد احتفظ منها بالرّسائل الموجّهة إلى آديل هيغو ولويس بولانجيه ، مرفقةً برسوم رائعة ، وقد نشرت هذه الرسائل في المجموعة: خلال السّفر . فرنسا وبلجيكا ، (١٨٩٢) بعد وفاة هيغو .

في ٢٨ حزيران ، كان هيغو قد أرسل إلى زوجته من كوتانس وصفاً لمون -سان - ميشيل والذي كان يريد لأجله أن «يراكم صيغ التفضيل ، مثلما يكوّم الناس المباني على الصّخور»: (ذلك الهرم الرائع) الذي قاعدته (صحراء رملية حيناً مثل خوفو) (ولسوف تظهر المقارنةُ ثانية في الرّواية) (والبحر مثل تينيريف حيناً أخر) .

ثمّة صفحة وصفيّة تضاهي أجمل الصفحات في عام ٩٣ وهي الصفحة التي ينـزل فيها لانتوناك قريباً من لومون ، ويطوف على السّاحل الرّملي ، ويصعد إلى أعلى الكثيب ، ويتأمل السّهل الموشىّ بالقرى ، ويرى فجأةً الأجراس التي

تهتز وهي تدقّ ناقوس الإنذار الذي يعلن عن نزوله، ويجمع القوات المكلّفة بمطاردته، وذلك من غير أن يسمعها، في قباب الأجراس البعيدة. إن إضاءة المشهد، وهواءَ الأمداد الواسعة، ورعشة الرّعب التي تجول فيها، كلُّ شيء يكثّف طريقة هيغو الكبرى التي هي: إحساسات تُلتقطُ على طبيعتها، وتضخيمٌ رؤيويّ.

بعد الأرض البائرة، هناك الرّيف والغابة. إن حوادث عام ٩٣ المأسويّة تجري في إطار طبيعة ساطعة. وقد ظنّنا أن هذا الاستحضار قد أوحى به للرّوائي الرّبيع والصيف الغرنيزيين للعام ١٨٧٤. ولكن ملاحظاته عن سفرة ١٨٣٦ غنيّة بالانطباعات التي التقطها في البلد نفسه الذي يدورُ فيه حَدَث الرّواية في: فوجير، وإيرنيه، وأودران. (ساحة معركة الجيش الفانديّ الشهّيرة)، وهكذا كان قد كتب من فوجير، في ٢٢ حزيران. (الطرّق ساحرة: كلّ شيء خضرةٌ، وأدغالٌ، وأشجارٌ ضخمة، (وحقول قصبِ مزهر)، وأدخنةٌ ممتزجة بأريجِ زهر النّسرين. وهنا وهناك، حقلٌ من الشّوكران الذي تفوح منه رائحةُ حيوان وحشيّ، وجدارٌ مهدّم تنمو عليه فقاعات كبيرة بيضاء... ثمّ كلّ مايحيط بالطريق التي توشحّها بالذّهبي على نحوِ رائع جنبات الوزّال المزهرة).

كان لا بدّ لهذه الذّكريات أن تكفي لتوحي له بالصّفحات المخصّصة لغابة سودرية، ولمخابىء الفانديين الحرجيّة، وللمشهد النّهائي الذي يبرزُ فيه النّورُ، وروائحُ النهار الوليد، والمشهدُ المشبعُ تماماً بالألوهيّة، يُبرز بصورة متباينة، فظاعة الحرب الأهلية: ومن خلال ألوانِ وصف الطبيعة و(التأمّلات) التي تغذّيها، تتغلغل الغنائية في الرّواية.

يدهش المرءُ من أن هيغو لم يعط فوجير في عام ٩٣ مكاناً متميزاً فيما بين المدن البروتانيّة، وكان قد أرسل إلى لويس بولانجية لوحة مليئة بالحماسة عنها. ولعلّه لم يشأ أن يكرّر وصف بالزاك في بداية الشّوان. أمّا دُوْل، التي زارها أيضاً في عام ١٨٣٦، وكانت مسرحاً تاريخيّاً لمعركةِ بين الزّرق والبيض، فقد آثرها عليها.

غير أن النّجاح الباهر للوصف المعماريّ في عام٩٣ هو المعقل القديم. واللّقاء النّهائي لكافّة الشخصّيات ومركز الحدث.

* * *

شاهدتُ لاسّي، المدينة الساحرة الصّغيرة والوحشيّة جزئياً... والتي فيها ثلاثة قصور، وقد صوّرتُ اثنين رائعين منها. أما الثّالث، فلم يعد فيه إلاّ بعض الخرائب الواقعة بين الأشجار الأكثر جمالاً و الأكثر إثارة للخوف في العالم.

إن ذكريات ١٨٣٦هذه، وانطباعات أخرى سابقة أو أكثر حداثةً[1] قد اندمجت معاً لتبدع الباستيل البروتونيّ، والذي كان له أن يسمّى أولاً برج ميشانت (الشريّرة[2]) أو قصر موفيز (السّيئة)، بأبراجه (موفيز) و (بوانديكستر) و(فرويابان) قبل أن يسمّى ببساطة لاتور – غوفان (لاتورغ) الذي هو نظيرُ العديد من عمارات أخرى للرّوايات، والمسرحيات والقصائد – قلاعِ الرّين المحصّنة، وقصر هابنهيف في قادة القلاع[3] والبرج الرئيسي في كوربوس في ايفيرادنوس، وقلعةِ أو سبور التي يتحدّى منها ويلف المحاصرين، شأن لانتوناك. ولكي يستحضر هيغو كلّ قلعةٍ بطابعها الأصيل، فإنه يلعب بكلّ وسائل أسلوبه: المفردات الفنيّة، والتفاصيل المكدّسة، والصّور، فوصف لاتورغ مع ثغرته، وزنزاناته المؤبدة (ومحرز التحصُّن فيه) و(سلّمه اللولبيّ) ولوبون – شاتليه، والتي تتباين مع خشونة البرج، إنها صفحات عديدة يؤكدّ فيها هيغو تمكّنه الذي لانظير له في علم الآثار التصّويري.

---

(١) انظر الملاحظة الواردة على الصفحة: ٢٩٦ في النص الفرنسي، وفي ترجمتنا هذه الملاحظة: /٢٦٠/

(٢) الترجمة بين قوسين من المترجم لإيضاح الدلاّلة، مع أن الكلمتين أصبحتا (اسمي علم.. (م:ز.ع)

(٣) مسرحية لهيغو لم تلاق النجاح. (م:ز.ع).

على هذا الأساس من الزّخرفة (الدّيكورات)، تتتابع الحكايات، كما يتتالي في نوتردام باريس العصرُ الوسيط كلّه: فهنا تهيمن بالطبّع رؤى الحرب، وكلّ رؤيا بلونها، المعركةالبحريّة، والكمين، وحرب الشوارع، والهجوم على البرج. ولما كان تظرّفاً من هيغو ان يمتلك (عفو الأقوياء)، فإن المأساة تقطعها حادثةُ الأطفال الثلاثة الظريفة، والتي يمكن تقريبها من كثيرمن المشاهد التي هي من النوع نفسه في البؤساء، وفي الجدّة في المسرح الحرّ، وبخاصة من «الفن-في أن يكون المرء جدّاً» والتي يشرع فكتور هيغو في تأليفها بعد عام ١٨٧١. وما من شكّ في أن جورج وجانّ قد كانا نموذجاً حيّاً (وضعةً) لصغار ميشيل فليشار. وإذا ما وضعنا جانباً بعض ألوان العطف المتكلّف بعض الشيء، وبعض العبارات غير المجدية، فإن رينيه - جان وغروزالان وجورجيت يشكلّون أحد أفضل مجموعات الأطفال الصّغار الذين صوّرهم هيغو. فالاستيقاظُ في المكتبة، ومذبحة (كتاب) سان بارتيلمي والإنقاذ تسوّغ إعجابَ فلوبير بصحّة التّصوير وسحر القصة.

وأخيراً، وأكثر من أيّ وقت مضى، فإن هيغو هو سيّد الحكاية الملحمّية. ونحن نعلم ماذا ينبغي أن نفهم من ذلك: دقّة في التفصيل مرتبطة باستمرار بحياة الكلّ، وبعضُ التوسّع أيضاً والذي يريد أن يجعل مؤثرّات العظمة والرّعب مُدرَكةً لدينا، ونفحةٌ شعريّة تنقل الواقع إلى صور. والتّاريخ إلى أسطورة. هناك قصّاصون مغلقون على الملحمة، من مثل ميريميه وستندال. إن فنّ هيغو الذي ليس أعلى شأناً ولا أدنى من فنّهما، ولكنه مختلفٌ عنه قطعاً، يكثر في عام٩٣ الحوادث (الهوميريّة) أو (الدانتيّة): مذبحة ليرب - أن - باي، وهي صورة لغويا، وحوادث حصار لاتورغ، وهي معارك فريدة من نوعها، وهجمات جماعيّة. إن الواقعية يجري تخطيّها باستمرار. وهيغو يشعر بالارتياح في انعدام التّناسق والاشتداد. ففي دُوْل، تهزم كتيبة البونّيه - روج (القبعة الحمراء) التي تقلّصت إلى اثني عشر رجلاً، جيشاً من الفانديّين. وتعويضاً عن ذلك، فإن لانتوناك. مع ثمانية عشر ناجياً، يقاوم الآلاف من الأعداء، ويجد التطرّف

الكلاميّ استخداماً له هنا، فالرّاوي يجبرنا على نحو زائد عن الحدّ بعض الشيّء على أن نتخيّل (جبابرة) يصارعون (عمالقة)، وكنّا نفضّل أن يكون قد أوحى من غير أن يقول إن لانتوناك الذي نزل السّلم كان يشبه تمثال الآمر، ولكن أيّ تنوّع، وأيّ لون يعطيه تحرّكَ الرّجال هذا، في ذلك الإطارذي البنية الهذيانية، وأيّة (لقطات) إذا استخدمنا مصطلحاً يفرضُ نفسه على القارىء في أيّامنا!

لقد عرف هيغو على الدّوام كيف يجعل الشّيءَ الجامد مزوّداً بحياةٍ مرعبة وخارقة، ولعلّه لم يصنعْ شيئاً متفوّقاً من هذا النّوع في نوتردام باريس. أمّا عام٩٣ فيمكن أن تنسب لنفسها عن حقّ الحريقَ الذي يلتهم لاتورغ، والمدفعَ البحريّ الهائج بخاصّة: إنها صفحةُ منتقيات، وصفحةُ براعةٍ فائقة.

يتجمع كلُّ هذا الغنى الوصفي في المشهد الأخير. فهو ملموسٌ فيه خصوصاً وأن الفكرة تندمج فيه على نحوٍ أفضل في القصة، من غير أن يزخر بالاستطرادات المفرطة. إن المجابهةَ الرمزية بين (الوحشين)، تورغ والمقصلة، وسيرغوفان إلى عقوبة الإعدام. وانتحارَ سيموردان تعكس ألوان صورةٍ للأزمنة الثورية على رؤية من رؤى أسطورة القرون.

* * *

لقد كانت صفحة كهذه جديرةً بأن تضع نقطة النهاية، ليس للرّواية فحسب، بل للأعمال الكاملة لهيغو الرّوائي. إنها تلخصّ الانطباعَ المضاعفَ الذي يحتفظ به عن عام ٩٣، حين نغلق الكتاب: الاكتمال والعظمة، وثبات فنّ أمين لذاته، وتأثير الفكر والخيال على مادّة هائلة. إن هيغو الأقلّ كثافة منه في الرّوايات السّابقة، برغم كلّ شيء، يسيطر على موضوعه، وينهض بكل اتّساعه. لقد كان العنوان ينبىء بذلك: فليس هذا الموضوع حادثةً بسيطة من الحرب الأهلية، ولكنه عام٩٣، بكليّته. ولم يكن ينبغي أن تكون هناك محاولةٌ تثبت لهيغو أن أناس تلك السّنة قد كانوا صغاراً ودنيئين كما سيبذل تين قصارى جهده لإثبات ذلك. إن بالزاك، في الشّوان، وفيني في ستيلو كانا قد

ترجما بعض حوادث السّنوات الثوريّة إلى مشاهد قويّة. غير أن بالزاك يتمسّك اكثر بتصوير الطّباع، ويضع روايته، من جهة أخرى، بعد عهد الإرهاب، في عام ١٧٩٩. وقد كان فينيي، في استحضاره للفترة الروبسبييريّة مهتماً على الخصوص بإبراز الشاعر الضحيّة، أندريه شينييه، وبالحمل على جلاّديه. إن توليفة هيغو تبدو حقّاً على قدر تلك «السّنة الرّهيبة» والتي كانت أيضاً سنة ١٧٩٣. وإننا نتبيّن الأمر على نحوٍ أفضل إذا ما أعدنا قراءة تلك الرواية العظيمة أيضاً عن الإرهاب، والتي هي على النّقيض من طريقتها[1] وهي: الآلهة عطشى. التي هي كتابُ مؤلِّف ارتيابيّ، وهذا ما لم يكنه فيكتور هيغو إلى أية درجة، إن أنا تول فرانس يفكك كمحلّلٍ نفسَ (بطله) الإرهابي، ويحكم برأفة على ذلك السّريع التّصديق، والشغوف بالمطلق، والذي تحوّله الإيديولوجيا (العقيدة) التي هو خادمٌ لها وضحية في آن، إلى مجنونٍ دمويّ. إن الحياة تستمر بعد عبور هذا المحبّ المدمرّ للبشر، فالإنسانية التي كان على درجة من السّذاجة بحيث أراد تجديدها، تستأنف السّير دوماً في الدّروب نفسها: فقد هوت الحكمةُ تحت شفرة المقصلة في شخص بروتو[2]، قارىء لوكريس والمتأمّل البعيد عن الأوهام للدّمى البشريّة، كان روائي عام ٩٣ يرى الأشياء «بصورة مضخّمة» ربّما، وقد أُخذَ عليه هذا إلى حدّ كاف – ولكنه كان يرى بصورة أعظم أيضاً. ورؤيتُه ألاّ تتوافق بشكلٍ أفضل مع رؤيتنا للأشياء من بعض الجوانب، برغم كلّ ما يفصل روايته عن علم الجمال في أيامنا؟ إن هذه التماثيل الجبّارة (كان أندريه جيل يرسم بصورة هزلية مؤلّف عام ٩٣ كنحات للتماثيل النصفيّة) وهذه الشخصيات التي تخضع لنوعٍ من التبسيط الرّمزيّ، والبارزة، أليست، برغم تفخيمٍ كلاميّ عفاعليه الزمن، قريبة إلى حدّ كاف من إبداعات معاصرة مماثلة؟ لقد رأينا ثانية عدداً من تلك الكائنات التي تجسّد مُثلاً عليا متناقضة، ومطلقة هي أيضاً، وبسيطة، ولا مرونة فيها، لأنها بأكملها في خدمةِ فكرة، وهي رهيبة ومذنبة غالباً، ولكنها تشهد على فظاعة الوضع الإنساني وعظمته في آن.

---

(١) أي طريقة وأسلوب تناول عام ٩٣ (م: ز.ع).

(٢) بروتو: صانع ألعاب ودمى في رواية «الآلهة عطشى» لأنا تول فرانس. (م: ز.ع).

وحادثة عام٩٣ المفصليّة ، هذا الارتداد المعاكس الذي بدا للبعض مسرحيّاً أكثر مما هو قابل للحدوث ، وانتفاضة الإنسانيّة هذه التي تجعل المحازب المتعصّب يلين أمام البراءة ، أمن المتعذر أن نكتشف معادلاً لهما في الروايات والمسرحيات التي تصور صراعاتِ عصرنا المذهبية ؟ إن هيغو ، من خلال التفخيم والمغالاة ، يؤكد مرّة إضافية في عام٩٣ الفهم الذي كان لديه للحظات التاريخ السامية . واحترامه لمعارك الأفكار التي تتجابه فيها النفوس الفذة . إن غوفان يهيمن على الرواية بشهامته التي لاغبار عليها . أما لانتوناك وسيموردان ، الرجلان المتصلبان ، فيحافظان على قامتهما ، ويجدان لذلك تسويغاً من ناحية ما . وحتى في ذلك الوضع الذي يحاكمُ فيه الروائيٌّ وينتقد ويدين ، فهو لايبدي ازدراء . إن عقيدته التي ترجمت إلى ملحمة عظيمة ، تحتفظ بهذه المزّية . النادرة في نظرنا ، وهي عدم تصغير الإنسان قطّ .

جان بودو

* * *

ملاحظات

على حواشي هذه الطبعة

تكثر الإشارات التاريخية في عام ٩٣، فقد كان الموضوع صالحاً لذلك، من غير إساءة إلى ميل فيكتور هيغو إلى كل ما يصوّر لون عصرٍ معين، وإلى ثقته بالقدرة التعبيرية، الصوتية وشبه السحرية للأسماء، ولطريقته نفسها في الإعداد. هناك صفحات كاملة تتكدس فيها قوائم من أسماء العلم، ومدونات الوقائع، والتفاصيل النادرة أوالتصويرية: أسماء فانديين وأعضاء للمؤتمر الوطني، حوادث حربٍ أهلية، سماتٌ لأخلاق العصر. ويمكننا القول عن بعض القطع ما كان يقوله و. هوغيه عن الفصل الأول وحده في نوتردام باريس إنه (وثيقة في كلِّ جملة منه).

لا يمكن أن يتطلب الأمر هنا. أن نربط هذه الإحالات بالواقع التاريخي. فضلاً عن هذا، فإن عدداً من بينها لا يحتاج إلى التعليق عليه. إما لأن السياق يشرحها، وإما لأن المؤلف لا يأنف من إيضاحها. لقد قلنا من أين استمدّ الروائي هذه الوثائق. فلسوف يجد المرء في تاريخ عام ٩٣ (طبعة المطبعة الوطنية، الصفحات: ٤٥٣ – ٤٦٩) انتقاءً لمقاطع مستثمرة. وإننا نحيل إليها مرة أخيرة، مع احتمال الإشارة في الهوامش إلى بعض الطرائف. إنّ هيغو يغير شكل اسمٍ أو تفصيلٍ أحياناً، ويدخلها في أغلب الأحيان المعلومات كما زوّدته بها مصادرُه، وذلك بأن يضعها في المكان الذي يرى أنها قادرةَ فيه على إحداث أفضل تأثير.

بالمقابل، سوف نؤكّد على نوع آخر من الطّرائف وهي: إشارات أكثر خفاءً، ومقاصد تُفسَّر بتقريبها من نصّوص أخرى لفيكتور هيغو، وهي تعزز الإضاءة على هذه الحادثة أو تلك.

من جهة أخرى، فقد استخدم فيكتور هيغو، في عام ٩٣، كما في كلّ رواياته، مفرداتٍ متنوّعة للغاية. وكان قد طالب بشكلٍ مفرط بحقّ دخولِ كلّ الكلمات إلى العمل الأدبيّ إلى حدّ لا يمكن له إلاّ أن يستدعي به المفردات الخاصة والتقنيّة، وسواء تعلق الأمر بنباتاتٍ أو زهور توشي غابة، أو بتجهيزاتٍ وعمال سفينة حربيّة في نهاية القرن الثّامن عشر، أو بعمارة قلعةٍ محصّنة إقطاعية، فإن الروائيّ يعطي الانطباع بأنه يفرغ في جُمله فهرساً كاملاً من المصطلحات الخاصة. إن المؤلّف - يعطي أحياناً الإيضاح بنفسه، أو من خلال حاشية، ويضع القارئ على درب الكتاب الذي يشركه فيه. ولقد ترك أحياناً للمفسّرين ان يتلهوّا بالكشف عن المصدر. وغداة نشر عام ٩٣(انظر فهرس المراجع). اكتشف ل. ها فيه، وهو يطوّر أبحاثه حول نقطةٍ تفصيلية، اقتباسات ف. هيغو من المعجم الفرنسي - النورماندي، أو مجموعة الكلمات الخاصة بلهجة غيرنيزية، وبين علاقاتها الرّوميّة، والسلتية والجرمانية، وهو معجم من تأليف جورج ميتيفييه، وصادر في لندن - إدمبورغ في عام ١٨٧٠، وقد كان يقول ساخراً (إن السيد فيكتور هيغو يعدّ الطابع المحلي البروتاني بكلمات غرنيزية. . . إنه يتسلى بصورة جلية. . ويتلهى بسعة المعرفة).

يبدو أنه يمكن للمرء أن يقول أكثر من هذا. فالأمر يتعلق هنا، في الواقع، بطريقةٍ أسلوبية قام غ. لانسون بتحليلها على نحوٍ رائع في فصل من كتابه: فن النثر (الصفحات: ٢٢٧- ٢٣٣) حيث يدرس العناصر الفنية للجملة في القرن التاسع عشر. إننا لانفهم هذه الكلمات النادرة بالطبع دون أن نلجأ نحن أنفسنا إلى المعاجم، وحتى إلى المؤلفات الخاصة التي استمدت منها، إنما في الكثير من الحالات، يكاد لايكون ضرورياً أن نعرف دلالتها الدقيقة، فهي تشكل على

الأرجحّ مجموعة من العلاقات، واستدعاءً موجهاً إلى خيالنا. إنها تهدف إلى تغريبه، وإلى توجيهه إلى وجهةٍ معينة، وإلى تحريك ترتيبٍ معين من ردود الفعل المثيرة للذكريات، أثناء القراءة. إن هذه السمة الأسلوبيّة موجودة عند بالزاك وعند الواقعيين والطبيعيين، ويستخدمها فلوبير وزولا: لقد استخرج لانسون من سالامبو[1] ومن جيرمينال بعض الأمثلة النموذجية على هذا الجانب المثير في نثر القرن التاسع عشر. فليست هذه طريقة خاصة بفكتورهيغو وحده. غير أنه هو حقاً من يبدو أنه من قدم نموذجاً عنها، بدءاً من نوتردام باريس، والتي دفعته إلى حدود النشوة الكلامية.

ثمة اختيار يفرض نفسه هنا أيضاً بالنسبة لوضع الحواشي، فأحياناً يكون إيضاحٌ ما مرغوباً. وينبغي أن يكون بالإمكان أن نعفي أنفسنا منه في موضع آخر، تحت طائلة التأكيد على التظاهر بالمعرفة وزيادته. وهو الأمر الذي لم يحسن الروائي الذي أفرط في استخدام هذه الطريقة، الدفاع عن نفسه تجاهها دوماً.

ج. ب.

* * *

(١) على التوالي روايتان لكل من: فلوبير وزولا. (م: ز. ع)

عــام ٩٣

القسم الأول

في البحر

ملاحظة:

* إن الأرقام بين قوسين تحيلُ إلى التنويعات التي جُمعت في نهاية هذا المجلد (في النص الفرنسي) أما نحن(المترجم العربي) فسوف نستخدم الأرقام العربية المتسلسلة لضرورة فنيّة،

وهي: ١، ٢، ٣، ٤ إلخ...).

* إن الرسوم التي سنجدها في الكتاب مأخوذة من طبعة أوجين هوغ، باريس ١٨٧٦.

الكتاب الأول

غابة سوذرية

في الأيام الأخيرة من شهر أيار للعام ١٧٩٣[1] ، كانت إحدى الكتائب الباريسيّة التي جُلبت إلى بروتانيا عن طريق سانتير، تقوم بتفيتش غابة سوذْرية المرعبة[1] في أستيبيه[2]. ولم يكن عددها يزيد على ثلاثمئة، لأن الكتيبة قد

(١) يجري الحدث الخيالي للرواية في لحظة حاسمة مما كان في الواقع هو حرب الفاندية الحقيقية. وقد تشكلت الانتفاضة التي انطلقت منذ آذار للعام ١٧٩٣ تشكلاً متيناً في الرواية بداية شهر حزيران. وأحرز المتمردون نجاحاً كبيراً باحتلال سومور (٩حزيران). وقد تواصل القتال طوال الصيف بنتائج شتى (سجالاً). أما وصول «المايانسيين» في شهر آب، وهم فوج من النخبة، فقد جعل الميزان يميل لصالح الزرق. وكان الخريف غير مؤاتٍ للفانديين، وقد أنجزت معركتا مان وسافونيه حدوث كارثتهم في كانون الأول.

(٢) إن أستيبيه بلدة في مقاطعة مايين. ويجري حدث الرواية في المقاطعة البعيدة عن المنطقة الفاندية بحصر المعنى. غير أننا نتعرّف أن اسمي فاندية وفانديون، سرعان ما دلا على مجمل تمردّ الغرب.
إن مسرح حوادث عام ٩٣ هو منطقةٌ كانت إحدى البؤر الرّئيسة للتمرّد، على تخوم النّورماندي، وبروتانيا ولومين، بين جون مون – سان – ميشيل، ووادي كويسنون والهضاب التي تشرف على مجرى المايين. إن المراكز الرئيسة في المنطقة هي فوجير وانتران، وإيرنيه والتي غالباً مايدور الكلام عليها في القصّة. إنها منطقة رائعة جدّاً، وتكثر فيها الأحراش، وكان فيكتور هيغو قد زارها عام ١٨٣٦، كما قلنا. من جهة أخرى، وبصدد هذه الحادثة الأولى، يذكرُ الكتابُ الذهبّي لفيكتور هيغو، (الذي نُشر في عام ١٨٨٣، تحت إدارة إ. بليمون) (الصفحة ٢٤٧) حادثة الحملات العسكرية في الفاندية «مساعد النقيب» هيغو. «لقد أنقذ نساءً وتبنّى طفلاً، وترتّب عليه فيما بعد أن يثبّت حالته المدنية، فحصل منه على هذه الشهادة»، ويتلو ذلك نصّ حاشية مؤرّخة في نابولي، بتاريخ ٢٢ تموز للعام ١٨٠٦ والتي يشهد فيها والد فيكتور هيغو بأنه قد» اختطف بالقوّة» طفلاً يتراوح عمره بين عشرة واثني عشر عاماً، ومحكوماً بالإعدام رمياً بالرّصاص مع عددٍ من الفانديّين، وأنه» قد احتفظ=

تعرّضت للإبادة في تلك الحرب القاسية. وكان ذلك هو الزّمن الذي تبقىّ فيه، بعد معارك أرغون وجيماب وفالمي، سبعة وعشرون رجلاً من كتيبة باريس الأولى التي كانت تعدُّ ستمئة متطوّع، وثلاثة وثلاثين من الكتيبة الثانية، وسبعة وخمسين من الكتيبة الثالثة. إنه زمن الصّراعات الملحميّة.

كانت الكتائب المرسلة من باريس إلى الفاندية تعدّ تسعمئة واثني عشر رجلاً. وكان في كلّ كتيبة منها ثلاث قطع للمدفعيّة. وسرعان ما أُصبحت جاهزة. وفي ٢٥ نيسان، حين كان غوييه وزيراً للعدل وبوشوت وزيراً للحربيّة، كان مجلسُ الرأي السّديد (بون كونسيْ) قد اقترح إرسال كتائب من المتطوّعين إلى الفاندية، وكان قد أعدّ التقرير عضو مجلس العموم لوبان. وفي الأوّل من أيّار، كان سانتير مستعدّاً لتسيير اثني عشر ألف رجل، وثلاث قطعات ميدانية، وكتيبة من رماة المدافع. وهذه الكتائب التي تمّ تشكيلها بسرعة، قد أُعِدّت إعداداً جيّداً بحيث تُعتبر اليوم قدوةً يُحتذى بها. وبناءً على طريقة تشكيلها إنما تتشكّل اليوم جماعاتُ الجبهة، فقد جرى تغيير التناسب القديم بين عدد الجنود وعدد صفّ الضّباط.

في ٢٨ نيسان، كان مجلسُ عموم باريس قد أعطى متطوعي نانتير هذا الأمر: لاعفو، ولا مراعاة. وفي نهاية شهر أيّار، من أصل الإثني عشر ألفاً الذاهبين من باريس، كان قد مات ثمانية آلاف.

كانت الكتيبة المتوغّلة في غابة سودريه في حالة احتراس. ولم تكن تسرع الخطا مطلقاً، كانت تنظر في آن واحد إلى اليمين وإلى اليسار، وإلى أمامها وإلى خلفها؛ وقد قال كليبير: «للجنديّ عينٌ في ظهره».

كانت الكتيبة تسير منذ زمن طويل. فماذا يمكن أن تكون السّاعة؟ وفي أية

= به لديه، وجعله بعد بضع سنوات ينال شرف الخدمة في الكتيبة الثامنة لمنطقة الرين الأسفل والتي اندمجت لتشكيل الكتيبة الثامنة للجبهة، وأن هذا الطفل، الذي يُدعى جان برين. . . قد بقي في الخدمة حتى السّنة الثامنة (التقويم الثوري).

فترة من فترات النهار؟ كان من الصّعب قولُ ذلك؛ فقد كان هناك دوماً نوعٌ من الظلام في أدغالٍ يابسةٍ جدّ بريّة[٢]، ولا يكون المكان قطّ نيّراً في تلك الغابة.

كانت غابة سودْريه مأسويّة؛ ففي ذلك الحرش إنّما بدأت الحربُ ترتكب جرائمها، اعتباراً من شهر تشرين الثاني ١٧٩٢[١]، وكان موسكوتون، الأعرج الضّاري، قد خرج من تلك الكثافات المشؤومة؛ فكميّة أعمال القتل التي كانت قد ارتكبت هناك تجعل المرء يقشعرّ. لم يكن مكان أكثر إثارةً منه للذّعر. كان الجنود يتوغّلون[٣] فيها بحذر. كان كلُّ شيء مليئاً بالزّهور. وكان يُحيط بالمرء سورٌ مرتعشٌ من الأغصان تتحدّر منه نداوةُ الأوراق السّاحرة، وكانت أشعّة الشمس تثقّب في هذا المكان أو ذاك تلك الظلّمات الخضراء. وعلى الأرض، كانت سيفُ الغراب، وسوسنُ الغدران، ونرجس المروج، وزهرة الربيع هذه الزّهرة الصّغيرة التي تنبىء بالصّحو[٤]، والزّعفران الربيعيّ، تحيط ببساطٍ عميق من النّباتات وتزركشه، وهو البساط الذي يزخر بكلّ أشكال الطّحالب، بدءاً من ذلك الذي يشبه اليسروع وحتى ذلك الذي يشبه النجمة. وكان الجنود يتقدمون خطوة خطوة، بصمت، وهم يزيحون أشواك العليق بهدوء. وكانت العصافير تزقزق فوق الحراب[٢].

كانت لاسودريه أحد تلك الأدغال الغابية التي كان يجري فيها، في أوقات السّلام، ما يسمّى بالأويش - با، والذي هو صيد الطيور أثناء الليل. أمّا الآن، فكان يجري فيها صيدُ الرّجال.

كان الدّغل مليئاً بالبتولا والمرّان والسّنديان، أرضُه مسطّحة، ويُخمد الطّحلبُ والعشبُ الكثيفُ ضجّةَ الرّجال السّائرين، فما من معبرٍ ضيق، أو ثمة

---

(١) سوف يجري وصف هذه المرحلة الأولى من التمرد البروتاني في ما بعد على يد ج. لونوتر، في دراسته التاريخية: ماركيز المكر. (بيّران ١٨٩٩).

(٢) يحافظ هيغو على الإملاء القديم المطابق للاشتقاق فيكتب: Bayonnette بدلاً من Baïonnette

معابر ضيقة سرعان ما تختفي، وبهشيّاتٌ وأشجارُ برقوق شائكة، وسياجاتٌ من الشّبرق[1] وعوسجٌ طويل، وتتعذر رؤية إنسان بعد عشر خطوات.

أحياناً كانت يمرّ بين الأغصان مالكُ حزين، أودجاجةُ ماء يدلاّن على أن المستنقعات في الجوار.

كان الجنود يسيرون، ويمضون على غير هدى وهم قلقون، ولديهم خشية من أن يجدوا ما يبحثون عنه.

ومن وقت لآخر، كانوا يصادفون آثاراً لمعسكرات، وأماكن محترقة، وأعشاباً موطوءة بالأقدام، وعصيّاً صليبيّة الشّكل، وأغصاناً مضرّجة بالدّم، فهنا، كان الحساء قد أُعدّ، وهناك أُقيمُ القدّاسُ، وهنالك، ضُمّدت جراح الجرحى، غير أن أولئكَ الذين مرّوا قد تواروا. فأين كانوا؟ ربّما، بعيدين جدّاً. وربّما قريبين جداً من المكان، ومختبئين، وهم يمسكون ببندقية منفرجة (إسبنغولة). كانت الغابةُ تبدو خاليةً. وكانت الكتيبة تضاعفُ من احتراسها. العزلةُ تعني الرّيبة. لم يكن يُرى أحد، وهذا سببٌ إضافيّ للخشية من شخصٍ ما. فقد كانوا يواجهون غابةً سيّئة الصّيت.

كان وجودُ كمين محتملاً.

وكان ثلاثون من رماة القنابل، مفرزون على أنهم كشّافة ويقودهم رقيب، يسيرون في المقدّمة، على مسافةٍ كبيرةٍ إلى حدّ كافٍ من معظم أفراد الجماعة. وكانت بائعةُ مؤن الكتيبة ترافقهم. فبائعات المؤن يلتحقن بطلائع الجيش بكلّ سرور. إنهن يتعرّضن للمخاطر، ولكنهن سوف يرين شيئاً ما، فالفُضول هو أحد أشكال الإقدام الأنثوي»[٥].

---

(١) الشبرق نبات بقليّ ذو جذور شديدة المقاومة – وبصدد هذا التوثيق في مجال علم النبات، نجد في الصفحة ٤١٣ من مجلد هوامش عام ٩٣ المودع في المكتبة الوطنية، تدويناً لزهور بريّة: صعتر البرّ، والنعنع.... زهور الأفعى الزرقاء العالية.. والطوقريون، والسنطافس... وإننا نتذكر أيضاً وصف حديقة شارع بلوميه في البؤساء.

فجأة شعر جنودُ هذه الجماعة الصّغيرة الطليعيّة بتلك الرّعدة التي خبرها الصّيادون والتي تدلّ على أنهم قد لامسوا مخبأ. لقد سمعوا ما يشبه نفساً في وسط مشجّر متلبّد، وكأنهم قد سمعوا للتوّ حركةً بين الأوراق.

فتبادل الجنودُ الإشارات.

في هذا النوع من الرصد واقتفاء الطريدة[1]، والذي يوكل إلى الكشافة، ليس الضباط بحاجة إلى التدخل به، فما ينبغي فعله يجري من تلقاء نفسه.

بأقل من دقيقة، طُوّقت النقطة التي صدرت عنها الحركة، وأحاطت بها دائرةٌ من البنادق المصوبة، وجرى التسديد إلى النقطة المعتمة في الدغل الشائك من كلّ الجهات في آن، ولم يعد الجنود الذين وضعوا أصابعهم على الزناد، وعينهم على المكان المشبوه ينتظرون إلا أمرَ الرقيب لكي يرشوّه، ومع ذلك، فقد كانت بائعةُ المؤن قد خاطرت بالنظر من خلال العوسج، وفي اللحظة التي كان الرقيب سيصيح فيها: نار! صرخت المرأة: قف!

واستدارت نحو الجنود وهي تقول:

- لا تطلقوا. أيّها الرفاق!

وهرعت إلى الحرش، فتبعوها إليه.

كان هناك شخصٌ ما فعلاً.

في أكثر مواضع الدغل الشائك كثافةً، وعلى حافة إحدى تلك الفرجات الصغيرة الدائرية والتي تصنعها في الغابات حفرُ صناعة الفحم من خلال إحراق جذور الأشجار، وفي ضرب من فجوة في الأغصان، ونوع من غرفة من الأوراق مفتوحة جزئياً كمخدع النوم، كانت هناك امرأة جالسة على الطحّلب. وعلى ثديها طفلٌ يرضع، وعلى ركبتها رأسان أشقران لطفلين نائمين.

كان ذلك هو الكمين.

---

(١) هذا التعبيرُ، المستخدم في لغة صيد الوحوش بالكلاب، هو هنا إذن الكلمة الحقيقية فعلاً.

وصرخت بائعة المؤن:

- وماذا تفعلين هنا، أنت؟

فرفعت المرأة رأسها.

وأضافت بائعة المؤن غاضبة:

- هل أنت مجنونة لتكوني هنا!

وأردفت تقول:

- بعد قليل، كنت ستهلكين!

وأضافت بائعة المؤن وهي تتوجه إلى الجنود:

- إنها إمرأة .

فقال أحد رماة القنابل:

- بالطبع، نحن نرى ذلك جيداً!

فتابعت بائعة المؤن:

- أيأتي المرء إلى الغابات لكي يُذبحَ! هل يمكن تخيّلُ حماقاتٍ كهذه!

كانت المرآةُ المشدوهةُ، والمرتعبة، والمذهولة تنظر حولها، وكأنها في حلم، إلى تلك البنادق، وتلك السّيوف، وتلك الحراب، وتلك الوجوه المرعبة.

استيقظ الطفلان وصرخا:

قال أحدهما:

- أنا جائع.

وقال الآخر:

- أنا خائف .

وواصل الصّغير الرّضاعة .

ووجهت بائعةُ المؤن كلامها إليه قائلة:

- أنت الذي على حقّ .

كانت الأمّ بكماء من الذعر . فصاح بها الرّقيبُ:

- لا تخافي ، نحن كتيبة الطاقية الحمراء .

ارتعشت الأمّ من رأسها إلى قدميها[٦] ، ونظرت إلى الرقيب بوجهه القاسي الذي لم يكن يُرى منه إلا حاجباه وشارباه وجمرتان كانتا هما عينيه .

وأضافت بائعة المؤن:

كتيبة الصّليب الأحمر سابقاَ .

وتابع الرّقيب يقول:

- من أنت ، يا سيدتي ؟

كانت المرآة تتأمله مذعورة . لقد كانت نحيلةَ وشابّة وشاحبة الوجه ، وترتدي الأسمال: فقد كانت تلبس غطاء رأس الفلاّحات البروتانيات الضخم ، وتتدثّر بغطاء صوفيّ مربوط بخيط إلى عنقها . وكانت تدع ثديها عارياَ بعدمِ اكتراثِ أنثويّ ، وكانت قدماها اللتان لاترتديان جورباً ولاتنتعلان حذاءً ، تنزفان .

قال الرقيب:

- إنّها امرأة فقيرة .

ورددت بائعة المؤن بصوتها الجندويّ والأنثوي والرّقيق في ثناياه:

- ماذا تدعين ؟

فهمست المرأة بغمغمةً تكاد تكون غير واضحة:

ـ ميشيل فليشار .

ومع ذلك ، فقد كانت بائعة المؤن تداعب بيدها الضخمة رأس الرّضيع الصّغير .

وسألت:

–كم عمرُ هذا الولد الصّغير ؟

فلم تفهم الأمّ ، وألحت بائعة المؤن قائلة :

– أسألك عن عمر هذا .

فقالت الأم:

– آه ! ثمانية عشر شهراً .

فقالت بائعة المؤن:

– إنه كبيرٌ بالسن . لا ينبغي أن يرضع بعد الآن . يجب أن تفطمي لي هذا . ولسوف نعطيه حساءٍ .

بدأت الأمّ بالاطمئنان . وكان الصغيران اللذان استيقظا فضوليين أكثر مما هما مرتعبين . كانا ينظران بإعجاب إلى القنزعات . وقالت الأمّ:

– إنهما جائعان حقاً .

وأضافت:

لم يعد لديّ حليب .

فهتف الرقيب:

– سوف نقدم لهما الطعام ، وإليك أيضاً . ولكن هذا ليس كلّ شيء . فما هي آراؤك السياسية؟

نظرت المرأة إلى الرقيب ، ولم تجبْ .

- هل تفهمين سؤالي؟

فتمتت:

- لقد وضعوني في الدير وأنا صغيرة جداً، ولكنني تزوجت . وأنا لست راهبة . وقد علمتني الأخوات التكلم بالفرنسيّة . أحرقت قريتنا ، فهربنا سريعاً بحيث لم يكن لدي الوقت لأنتعل حذائي .

- إني أسألك ما هي آراؤك السياسية ؟

- لا أعرف هذا .

فواصل الرقيب قائلاً :

ذلك لأن هناك جاسوسات ، ونحن نطلق على الجاسوسات النار . هيا ، تكلمّي . ألست غجرية ؟

ماهو وطنك؟

استمرت تنظر إليه وكأنها لا تفهم ، فكرّر الرقيب:

- ما هو وطنك؟

فقالت :

- لا أدري .

- كيف لا تعرفين ما هي بلدك؟

- آه! بلدي . فهمت .

- حسناً! ما هي بلدك؟

فأجابت المرأة:

– إنها إكارة سيسكوانيار ، في خورنية آزيه .

أتى دور الرقيب ليكون مندهشاً ، فمكث متفكراً للحظة من الزمن ، ثم تابع :

– أنت تقولين؟

– سيسكوانيار .

– هذا ليس وطناً .

– هذه هي بلدي .

وأضافت المرأة ، بعد لحظة من التفكير :

– أنا أفهم ياسيدي ، أنت من فرنسا ، وأنا من بروتانيا .

– وإذن ؟

فليست البلد ذاتها .

فصاح الرقيب :

– ولكنه الوطن نفسه .

فاكتفت المرأة بأن تجيب :

ـ أنا من سيسكوانيار

فرد الرقيب سريعاً :

– فليكن سيسكوانيار ، وأسرتك منها .

– نعم .

وما هو عملها ؟

– لقد ماتت كلها ، لم يبق لي أحد .

أما الرقيب الذي كان بارعاً في الكلام بعض الشيء، فقد واصل استجوابه قائلاً:

– لديك أهل، ياللشيطان! أو كان لديك أهل[1]؟ من أنت؟ تكلمي.

أصغت المرأة وهي مذهولة لهذا التتابع: «ou on en a eu» الذي كان يشبه صوت حيوان أكثر مما يشبه كلاماً بشرياً.

شعرت بائعة المؤن بالحاجة إلى التدخل، فأخذت مجدداً تداعب الطفل الذي كان يرضع، وربتت على خدّي الولدين الآخرين. وسألت:

– ماذا تُدعى الرضيعة؟ فهذه فتاة.

فأجابت الأمّ:

– جورجيت.

– والبكر، لأن هذا الصّبي ذكر.

– رينيه – جان.

– والأصغر سناً؟ لأنه هو أيضاً رجل، وهو ممتلىء الوجه أيضاً.

فقالت الأم:

– غروزالان.

فقالت بائعةُ المؤن:

– إنهم لطفاء. هؤلاء الصّغار. وقد أصبحوا يبدون لك كالكبار.

ومع ذلك، فقد كان الرّقيب يصرّ قائلاً:

– تكلّمي، أيتها السّيدة، هل لك منزل؟

(١) في النص الفرنسي، هي: «Ou on en a eu» ومعنى الجملة: أو كان لديك أهل؟

- كان لي منزل .

- وأين كان ذلك؟

- في آزيه .

- لماذا لست في منزلك؟

- لأنهم أحرقوه .

- ومن فعل هذا؟

- لا أدري . معركة .

- ومن أين أتيت؟

- من هناك .

- وإلى أين تذهبين؟

- لا أدري .

- لنصلْ إلى الحقيقة . من أنتِ؟

- لا أدري .

- لا تعرفين من تكونين؟

- نحن أناس نهرب .

- ومن أي حزبٍ أنت؟

- لاأدري .

- هل أنت من الزّرق؟ هل أنت من البيض؟ مع من أنت؟

- أنا مع أطفالي .

مرّت فترة صمت ، فقالت بائعة المؤن:

– أنا ليس لدي أطفال . لم يتوفرّ لي الوقت لذلك .

فاستأنف الرقيب يقول:

– ولكن أهلك! عجباً ، ياسيدتي ، أعلمينا عن أهلك . أنا ، اسمي رادو ، وأنا رقيب ، وأسكن في شارع شيرش ميدي ، وكذلك كان والدي ووالدتي ، ويمكنني أن أتكلمّ عن أهلي ، فحدّثينا عن أهلك . وقولي لنا ماذا كان أهلُك .

–كانا آل فليشار ، هذا كلٌّ شيء .

– نعم ، آل فليشار هم آل فليشار ، كما أن آل رادوهم آل راود . ولكن لهم مهنة ًمعيّنة . ماذا كانوا يعملون؟ ماذا يعملون؟ ماذا كانوا يفلّشون ، أهلك آل فليشار؟

– كانوا فلاّحين . والدي كان عاجزاً ولم يكن يستطيع أن يشتغل بسبب ضربات العصيّ التي جعله يتلقاّها السّيد ، سيّده الإقطاعي ، سيّدنا ، وكان ذلك طيبةَ قلبٍ منه ، لأن والدي كان قد أخذ أرنباً . ولهذا فقد حُكم عليه بالموت ، ولكن السّيد عفا عنه وقال: اضربوه مئة ضربة بالعصا فقط ، فبقي والدي مقعداً .

– ومن ثمّ؟

–كان جدّي بروتستانتياً ، فأرسله السّيد الخوري إلى سجن الأشغال الشّاقّة .

وكنتُ صغيرة ًجدّاً .

– ومن ثم ّ؟

– كان والدُ زوجي مهرباً للملح . وقد أمر الملك بشنقه .

– وزوجك ماذا كان يعمل؟

– في هذه الأيام ، كان يحارب؟

من أجل من؟

– من أجل الملك .

– ومن ثمّ؟

عجباً! ، من أجل سيّده الإقطاعي . .

ومن ثمّ؟

– عجباً! ومن أجل السّيد الخوري .

فصاح أحدُ رماةِ القنابل:

– اللعّنة ألف مرّة على ذكر البهائم![1]

فصدرت عن المرأة انتفاضة ذعر .

وقالت بائعة المؤن بلطف:

–أنت ترين ، ياسيّدتي ، أننا باريسيّون .

فضّمت المرأة يديها وصاحت:

– ياإلهي الرّب يسوع!

فرّد الرقيب قائلاً:

– لا اعتقادات باطلة .

جلست بائعة المؤن إلى جانب المرأة ، وجذبت إلى مابين ركبتيها بكرَ الأطفال الذي انصاع لذلك . إن الأطفال قد اطمأنوا بقدر ما كانوا مذعورين

(١) شتيمة فظّة . (م: ز ، ع) .

من غير أن ندري لماذا، فقد كانت لديهم تنبيهات داخلية لا ندري ما هي، وقالت:

- يا عزيزتي المرأة المسكينة الطيبّة، ابنه هذه المنطقة، لديك أطفال صغار جميلون، هكذا هو الأمر دائماً. ويمكنني أن أخمّن أعمارهم، فالكبير عمره أربعة أعوام، وأخوه ثلاثة.

والطفلة الصغيرة التي ترضع، على سبيل المثال، شديدة الشرّه للغاية[٧].

آه! يا لها من وحش! هل تقبلين بألاّ تأكلي والدتك هكذا! أترين، ياسيّدتي، لا تخشي شيئاً[٨]. يتعيّن عليك أن تدخلي إلى الكتيبة، ولسوف تفعلين مثلي. فأنا أُدعى أوزارد: وهذا لقب. ولكني أفضّل أن أدعى أوزارد من أن أدعى الآنسة بيكورنو، مثل أمي. فأنا بائعة الكتيبة. أي مثلما يقال التي تقدّم الشرّاب حين يجري التراشق بالنار والتّذابح. أي الشيطان وقاطرته. إن لنا قياس القدمين نفسه تقريباً، ولسوف أعطيك أحد أحذيتي. وقد كنتُ في باريس في العاشر من آب. وقدّمت الشراب لويسترمان[١]. وسارت الأمور. وقد رأيت لويس السّادس عشر وهو يُعدم بالمقصلة، وكانوا يسمّونه لويس كابيه. ولم يكن يريد ذلك. أجل، عجباً، فلتسمعي إذن. والغريب أنه في ١٣ كانون الثاني، كان يشوي حبّات كستناء، وكان يضحك مع أسرته! وحين مدّدوه بالقوّة على الكرسي القلاّب، كما يسمّونه، لم يعدْ يلبس رداءً، ولا ينتعل حذاء، لم يكن يرتدي إلاّ قميصه، وسترةً مضرّبة، وسروالاً من الجوخ الرّمادي، وجواربَ حريريّة رماديّة. لقد رأيتُ ذلك، أنا. وكانت العربةُ التي أتوا به فيها مدهونة بالأخضر. أترين، تعالي معنا، إننا فتيان طيّبون في الكتيبة. ولسوف تكونين البائعة رقم اثنين، ولسوف أبيّن لك المهنة. أوه! إن الأمر سهل فعلاً! فالبائعة لديها صفيحتها وجُريسُها، وتمضي داخل ضجيج المعمعة، وبين نيران المفرزة، وبين طلقات المدفعيّة، ومن خلال الضّوضاء، وهي تصيح:

---

(١) كان ويسترمان الذي غالباً ما يدور عليه الحديث في عام ٩٣، قد لعب دوراً كبيراً في الهجوم على التويلري في ١٠ آب ١٧٩٢. وقد أحرز نجاحات عديدة أثناء حرب الفاندية، ومات على المقصلة في عام ١٧٩٤ مع أصدقائه الدانتونيين.

من يريد أن يشرب جرعة، أيّها الأبناء؟ لم يعد الأمر عسيراً إلى هذه الدّرجة أما أنا، فأسكب الشّراب للجميع، نعم، الحقيقة. أسكب للبيض كما للزّرق مع أني زرقاء. وزرقاء جيدة حتى. غير أني أسقي الجميع. فالجرحى يعطشون. وهم يموتون دون تمييز في الرأي. أمّا الناس الذين يموتون فلا بدّ أن نمسك لهم يدهم. أترين. أنا أبدو هكذا، ولكني امرأة طيبة، وإنسان شهم. لا تخشي شيئاً.

ما أن توقفّت بائعة المؤن عن الكلام، حتى همست المرأة:

– كانت جارتنا تدعى ماري ـ جانيت وخادمتنا تدعى ماري–كلود.

مع ذلك، فقد أخذ الرّقيب رادو يوّبخ رامي القنابل قائلاً:

– اسكت. لقد أخفت السّيدة. فلا أحد يشتم أمام السّيدات.

فردّ رامي القنابل:

– ذلك لأنه يعتبرُ، مع ذلك، ذبحاً حقيقياً لإدراك الإنسان الشّريف أن يرى غريبي أطوارٍ من الصّين قد أقعد حماهم السّيدُ الإقطاعي، وجدَّهم قد سجنه الخوري في الأشغال الشاقة، ووالدهم قد شنقه الملك، وهم يقاتلون، ياللتفاهة والصَّغار! وهم يحشرون أنفسهم في تمرّد[1]، ويُسَحقون من أجل السّيد الإقطاعي، والخوري، والملك!

فصاح الرقيب:

– صمتاً في الصّفوف!

فردَّ رامي القنابل:

– إننا نسكت، أيّها الرّقيب، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون من المزعج أن تتعرّض امرأةٌ حلوة مثل هذه للسّقوط من أجلِ سواد عينيّ مناصرِ للقسس.

(١) نلاحظ المقصد الجلي في هذا المشهد الأول، لإضفاء طابع الجهل والخبل على التمرد الفانديّ.

فقال الرّقيب:

– يا رامي القنابل ، لسنا هنا في نادي قسم المساجلة بالكلام . فلا تتفاصحْ .

واستدار نحو المرأة وقال:

– وزوجك ، يا سيدتي ، ماذا يفعل ، وماذا أُصبح؟

– أصبح لا شيء ، لأنه قد قتل .

– وأين ذلك؟

– على السّياج الشّائك .

– ومتى كان ذلك؟

– منذ ثلاثة أيّام .

– ومن فعل هذا؟

– لا أدري .

– كيف . لا تعرفين من قتل زوجك؟

– لا .

– هل هو أزرق؟ هل هو أبيض؟

– إنها طلقةُ بندقيّة .

– ومنذ ثلاثة أيام؟

– نعم .

– ومن أيّة ناحية؟

– من ناحية إيرنية. لقد سقط زوجي، هذا هو الأمر.

– ومنذ أن مات زوجك، ماذا تفعلين؟

– أمضي بصغاري.

– وإلى أين تمضين بهم؟

– إلى الأمام.

– وأين تنامين؟

– على الأرض.

– وماذا تأكلين؟

– لا شيء.

برطم الرقيب برطمةً عسكريّة جعلت شاربيه يلمسان أنفه، وقال:

– لا شيء؟

– أي حبّات برقوق شائك، وتوت من بين الأشواك، حين يكون قد تبقّى منها شيء من العام الماضي، وحبّات قمام آسيّ، وبراعم سرخس.

– نعم، وكأنك تقولين لا شيء.

أما بكرُ الأطفال الذي كان يبدو أنّه يفهم، فقد قال:

– أنا جائع.

سحب الرّقيب من جيبه قطعةَ خبز من المؤونة ومدّها إلى الأمّ. فقطعت الأمُّ الخبز إلى قطعتين وأعطتهما للطفلين، فأخذ الصّغيران يقضمانها بشراهة.

فدمدم الرّقيب:

– لم تبقِ لنفسها شيئاً منها.

فقال جنديّ:

- هذا لأنها ليست جائعة.

فقال الرّقيب:

- هذا لأنها الأمّ.

قطع الطفلان طعامهما. وقال أحدهما:

- أريد أن أشرب.

وردَّد الآخر:

- أريد أن أشرب.

فقال الرّقيب:

- أما من ساقيةٍ في هذه الغابة الشّيطانيّة؟

أمسكت بائعةُ المؤن بالقدح النحاسي الذي كان معلّقاً بحزامها إلى جانب جُريستها، وأدارت صنبور الصّفيحة التي كانت تتوشّح بها، وسكبت بضع قطراتٍ في القدح، وقرّبت القدح من شفاه الطفلين.

فشرب الأوّل منهما وكشّر.

وشرب الثاني وبصق.

فقالت بائعة المؤن:

- مع ذلك، فهو طيّب.

فسأل الرقيب:

- هذا من الشراب القاتل؟

- أجل، ومن أفضل الأنواع. ولكنّهم فلاّحون.

ومسحت قدحها .

وتابع الرقيب يقول :

– وهكذا ، يا سيّدتي ، فأنت تهربين؟

– لابدّ من هذا فعلاً .

– وعبر الحقول ، ودون اختيار لوجهتك؟

– أركض بكلّ قواي ، ثمّ أسير ، ثم أسقط .

فقالت بائعة المؤن:

– يا ابنة الرّعية المسكينة!

فتمتمت المرأة:

– إن الناس يتقاتلون . وأنا من كلّ مكان[٩] محاطة بطلقات البنادق . ولا أعرفُ ماذا يريد كلّ منهم من الآخر . ولقد قتلوا لي زوجي . ولم أفهم إلاّ هذا .

خبط الرّقيب الأرض بأخمص بندقيته ، وصاح:

– أيّة حربٍ غبيّة! ياللبلاهة!

فواصلت المرأة تقول:

– في الليّلة الماضيّة . نمنا في تجويف .

– الأربعة جميعاً ؟

– الأربعة .

– نمتم؟

– نمنا .

فقال الرّقيب:

- نمتم واقفين.

واستدار نحو الجنود. وقال:

- أيّها الرّفاق. إن شجرةً قديمة ضخمة ومجوّفة وميتة. ويمكن لرجل أن يحشر نفسه فيها كما في غمد، هؤلاء المتوحّشون يسمونها تجويفا. ماذا تريدون؟ إنهم ليسوا مجبرين لأن يكونوا من باريس.

فقالت بائعة المؤن:

- النّوم في تجويف شجرة، ومع ثلاثة أطفال!

واستأنف الرّقيب قائلاً:

- وحين كان الصّغار يزعقون، فلا بدّ أن الأمر قد كان غير مألوف أن يسمع الناسُ الذين يمرّون شيئاً من كلّ ذلك، أن يسمعوا شجرةً تصرخ: بابا، ماما!

فتنهّدت المرأة وهي تقول:

- لحسن الحظّ. أن الفصل صيف.

كانت تنظر إلى الأرض، باستسلام. وفي عينيها ذهولُ الكوارث.

أرملة، وثلاثةُ أيتام، والهروبُ، والتّركُ، والوحدةُ، والحربُ التي تزمجر من كلّ جهة في الأفق، والجوعُ والعطشُ، وما من غذاء آخر غير العشب، ومامن سقف آخر غير السّماء، اقترب الرقيب من المرأة وحدّق بالطفل الذي كان يرضع. فتركت الصّغيرة الثّدي، وأدارت رأسها رويداً، ونظرت بحدقتيها الزّرقاوين الجميلتين إلى الوجه المرعب الموبرّ، والمنتفش الشّعر، والوحشيّ الذي كان ينحني عليها، وأخذت تبتسم، رفع الرقيب رأسه، وشوهدت دمعةٌ كبيرة تتدحرج على وجنته، وتتوقّف عند طرف شاربه مثل لؤلؤة.

رفع صوتهُ وقال:

– أيّها الرّفاق ، من كل هذا أستنتجُ أن الكتيبة ستصير أباً . فهل اتفقنا على هذا ؟

إننا نتبنىّ هؤلاء الأطفال الثّلاثة .

فصاح رماة القنابل:

– عاشت الجمهوريّة!

فقال الرّقيب .

– لقد اتفقنا .

وبسط يديه فوق الأم والأطفال ، وقال:

– هاهم أطفال كتيبة البونّيه – روج (القبعة الحمراء)

فقفزت بائعة المؤن فرحاً ، وصاحت:

– ثلاثة رؤوس في قبّعة .

ثم انفجرت باكية ، وعانقت الأرملة المسكينة بشغفٍ ، وقالت لها:

– كم أصبحت الصّغيرة تشبه الصبّية الآن!

فردّد الجنود:

– عاشت الجمهورية!

وقال الرّقيب للأم:

– تعالي ، أيتها المواطنة .

* * *

الكتاب الثّاني

الحرّاقة[1] كليمور

I

انكلترا وفرنسا مجتمعتان(١٠)

في ربيع عام١٧٩٣ ، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تتعرّضُ للهجوم على كلّ الجبهات في آن ، وكانت لاهية بصورةٍ محزنة بسقوط الجيروندِيين[2] إليكم ما كان يجري في أرخبيل المانش.

ذات مساء، في الأوّل من حزيران، في جيرسيه، وفي جون بونّنوي الصّغير والمهجور[3]، وقبل مغيب الشمس بساعةٍ تقريباً، وفي إحدى تلك الحالات التي يكون فيها الطقّسُ مليئاً بالضّباب، والملائمة للهروب لأنّها محفوفة بالمخاطر عند الإبحار، كانت حرّاقة تقلع. يقود هذه السّفينة طاقمٌ فرنسي، ولكنها تشكلّ جزءاً من الأسطول الإنكليزيّ الصّغير الموضوع في حالةِ توقّف وكأنما للحراسة عند الطرّف الشرّقي للجزيرة. أما أمير لاتورد وفيرينا الذي كان من أسرة بويّون، فقد كان يقود الأسطول الإنكليزي الصّغير، وبناءً على أوامره،

(١) الحراقة: هي سفينة قديمة، وتسمى أيضاً بالغراب. (م: ز.ع).

(٢) في يومي ٣١ أيار و٢ حزيران.

(٣) في شمال الجزيرة، في الجهة المقابلة لمدينة سان ـ هيلييه الرئيسيّة..

ومن أجل مهمّة عاجلة وخاصّة، إنّما تمَّ فرزُ الحرّاقة. إن هذه الحرّاقة، المسجّلة في ترينيتي– هاوس[1]، باسم الكليمور، كانت في الظّاهر حرّاقة تحميل، غير أنها في الواقع حرّاقةٌ حربيّة. كان مظهرها الثقيل والمسالم يدلّ على أنها تجاريّة. ولم يكن ينبغي مع ذلك أن يجري الرّكون إلى هذا. فكانت قد بُنيت لغايتين: المكر والقوّة. للخداع، إذا كان ذلك ممكناً، وللقتال، إذا كان ضروريّاً. ومن أجل المهمة التي كان عليها القيام بها في تلك الليلة، فقد استُبدلت بالحمولة فيما بين السّطحين ثلاثون مدفعاً بحريّاً من العيار الكبير.

وهذه المدافعُ البحريّة كانت موضوعةً في مكان محصور، أيّ أنّها مربوطة بقوّة من الداخل بسلاسل ثلاثية، وفوهاتها مستندة إلى كوى السفينة[2] المسدودة، إمّا تحسُّباً لعاصفة، وإما بالأحرى لإعطاء صورة سليمة النيّة عن السّفينة. لم يكن شيء يُرى من الخارج، فقد كانت الكوى المربّعة معّماة، وكانت الفتحات مغلقة، كان ذلك أشبه ما يكون بقناع ألبسوه للحرّاقة، فحرّاقات المأموريّات ليس فيها مدافع إلاّ على سطحها. أما هذه فقد أُعدّت للمباغتة والمكيدة، وكان سطحها مجرّداً من السّلاح، وقد بُنيت بحيث تَستطيع أن تحمل، كما سبق أن رأينا منذ قليل مجموعةً مدفعيّة فيما بين السّطحين. كانت الكليمور من أنموذج ضخمِ الكتلة، ومربّع الشكل قصيره، ومع ذلك، فقد كانت تسير بشكلٍ جيّد، وكانت تمتلك الهيكلِ الأكثر متانة في البحريّة الإنكليزية. وفي المعركة كانت تضاهي فرقاطة تقريباً، مع أنه لم يكن فيها إلاّ صارٍ صغيرٍ وقلعٍ مربّع بسيط كصارٍ للمؤخّرة. وكان لدفّتها، ذات الشكل النادر والذي فيه

(١) المقصود هو الهيئة التي تأسّست في العصر الوسيط لمراقبة السّواحل، ولأعمال إغاثة من الأخطار البحرية، وفيما بعد، من أجل بناء المنارات، إلخ.

(٢) في قصة سفر الكليمور، سوف يلجأ هيغو إلى استخدام مفردات البحريّة (فلنقارن بالنسبة لهذه الطريقة، بعض قصائد: أسطورة القرون: كوصف التسليح في ايفيرونوس، على سبيل المثال). أما كوة السفينة فهي الفتحة التي يجري إحداثها في سطح السّفينة: ecoutille فالفتحات هنا مغلقة بواسطة سدادة، أما الكوّة المربعة (sabord) فهي فتحة في جدار السفينة نفسها من أجل مرور فوهة المدفع، وأبعد من ذلك، هناك القلع المربّع: brigantine وهو الشراع الذي يلائم عادة السفينة الثنائية الصواري، وهي مركبٌ من الحجم الصّغير، إلخ.

تفنّنٌ بارع، قفصٌ مقوّس وفريد من نوعه تقريباً، وكان قد كلّف خمسين جنيهاً استرلينياً في ورشات ساوثمبتون.

أما الطّاقمُ الفرنسيّ بكامله فكان مؤلَّفاً من ضباط مهاجرين ومن بحّارة فارّين وكان هؤلاء الرجال قد جرى انتقاؤهم: فما من أحدٍ منهم لم يكن بحّاراً جيّداً، وجنديّاً جيداً وملكيّاً جيّداً، كان لديهم تعصّب ثلاثي للسّفينة، والسّيف والملك.

كانت نصفُ كتيبةٍ من مشاة البحريّة قد تمّ دمجُه بطاقم السفينة، ويمكن عند الضّرورة أن يجري إنزاله.

كان قبطانُ الحرّاقة كليمور، أحد فرسان سان ـ لويس، وهو الكونت دوبوابيرتلو، وهو أحد أفضل ضبّاط البحريّة الملكيّة القديمة، وكان قبطانها الثاني هو فارس لافيوفيل الذي كان قد قاد في الحرس الفرنسيّ الجماعة التي كان هوش رقيباً لها، وكان ربّانها هوالقائد الأكثر بصيرة في جيرسيه: فيليب غاكوال.

كان المرءُ يستشفّ أن هذه السّفينة لديها شيء غير عاديّ لتقوم به، فإن رجلاً كان قد أتى في الحقيقة ليبحر فيها، وكان يبدو عليه تماماً أنّه يدخل في مغامرة. لقد كان عجوزاً طويلاً، منتصبَ القامة ومتين البنية، وذا سحنة قاسية الملامح بحيث كان يصعبُ على المرء أن يحدّد عمره، لأنه كان يبدو عجوزاً وشابّاً في آن. شأن أحد أولئك الرجال المثقلين بالسّنين والمفعمين بالقوّة[11]، والذين لهم شعرٌ أبيض علي جبينهم ولديهم وميضٌ في نظرتهم، ولهم أربعون عاماً من العمر بالنّسبة لقوة بأسهم، وثمانون عاماً بالنّسبة لسطوتهم. وفي اللحظة التي صعد فيها الحرّاقة، انفرج معطفُه البحريّ قليلاً، فأصبح من الممكن رؤيته مرتديا، تحت ذلك المعطف، سروالاً عريضاً يسمىّ Gou-bras bra –(*) وجزمة واقية للسّاق، وسترة من جلد الماعز تُظهر للعيان الجلد المزركش بالقيطاني، في جزئها الخارجي، والوبر المشرئب والوحشي، في جزئها الداخلي، وهي البذلة الكاملة للفلاح البروتانيّ.

(*) سروال بروتاني عريض جداً. (م:ز.ع).

لقد كانت تلك السّترات البروتانيّة مخصّصة لغايتين ، فتُستُخدمُ في أيام الأعياد كما تُستخدم في أيّام العمل ، وهي تُقلَبُ فتُبدي حسب رغبة المرء الجهة المفرّاة أو الجهة المطرّزة ، فيجري ارتداءُ جلود الحيوانات طيلة الأسبوع ، وملابس الاحتفال في يوم الأحد . كان اللباسُ الفلاحي الذي يرتديه ذلك العجوز مهترئاً عند الركبتين والمرفقين . ويبدو كأنما قد جرى ارتداؤه لفترة طويلة ، ويشبه معطفُه البحريّ المصنوعُ من قماش خشن ، سملاً من أسمال صياد سمك ، وكأن الغرضَ من هذا زيادةً في مشابهةٍ مطلوبة للحقيقة . كان ذلك العجوز يعتمر قبعةً مستديرة رائجة ، عالية الشكل ، وذات حواف عريضة ، وتبدو ذات مظهرٍ ريفيٍّ إذا ما خُفِضت ، وذات مظهرٍ عسكري ، إذا ما رُفِعت ببريمٍ له عقدة تزيينيّة ، كان يلبُس هذه القبعة المخفضة[١٢] على الطريقة الفلاحيّة ، من غير بريم وعقدة تزيينيّة . كان اللورد بالكارّا ، حاكمُ الجزيرة وأمير لاتور دوفيرنيا قد رافقاه شخصيّاً ، وجهّزا إقامته على ظهر السّفينة ، أمّا العميلُ السّري للأمراء ، جيلامبر[١] الذي كان حارساً شخصيّاً للسّيد الكونت دارتوا ، فكان قد أشرف بذاته على ترتيب قمريّته ، مبالغاً في الاهتمام والاحترام ، مع أنه على درجة جيدة في النبالة ، بحيث حمل حقيبة ذلك العجوز خلفه . حين ودّعه وهوينزل إلى الأرض ، حيّا السّيد دوجيلامبر ذلك الفلاحَ تحيّة بإحناء الرأس . وكان اللّورد بالكارا قد قال له: حظاً موفقاً ، أيها الجنرال ، وكان قد قال له لاتوردوفيرنيا: إلى اللقاء ، يا ابن عمي .

(الفلاّح) كان في الحقيقة ، هو الاسم الذي أخذ رجالُ الطّاقم يدلوّن به في الحال على مسافرهم ، من خلال الحوارات القصيرة التي كان يجريها رجالُ البحر فيما بينهم ، ولكن من غير أن يعرفوا عنه أكثر من ذلك ، فقد كانوا يدركون أن هذا الفلاّح لم يكن فلاحاً أكثر مما تعتبر الحرّاقة الحربيّة حرّاقة شحنٍ .

---

(١) إن الاسم الحقيقي لهذه الشخصية ، الخبيرة في دور مزدوج ، قد حوره هيغو ، لكي لا «يُحزن» العائلة التي ، كما كتب ، ربما لا تزال موجودة (انظر: طبعة المطبعة الوطنية ، ص: ٤٣٧).

كان هناك بعض الرّيح، فغادرت الكليمور بونّنوي، ومرّت من أمام (بولاي - باي).

وكانت لبعض الوقت في متناول النّظر، وتموّرت عدداً من المرّات، ثم غاصت في الظلمة المتزايدة، وتوارت.

بعد ذلك بساعة، أرسل جيلامبر، الذي رجع إلى منـزله في سانتيلييه، بالبريد العاجل، بريد ساوثمبون، إلى السّيد الكونت دارتوا في قيادة دوق يورك[1] العامّة السّطور الأربعة التّالية:

«ياسيدنا، لقد تمّ الرحيل منذ قليل. والنّجاح مؤكّد، فسوف يشتعلُ السّاحلُ بأكمله بعد ثمانية أيّام، من غرانفيل إلى سان مالو».

قبل ذلك، بأربعة أيّام، وبواسطة مبعوث سرّي، فإن النّائب بريور[2] دولامارن، الذي يقوم بمهمّة لدى جيش سواحل شيربور، والمقيم مؤقّتاً في غرانفيل، كان قد استلم الرّسالة التي سنقرؤها فيمايلي، والمكتوبة بالخطّ نفسه الذي كتبت به الرّسالة السّريعة السّابقة:

(أيها المواطنُ النائب، في الأول من حزيران، وفي ساعة المدّ، سوف تبحر الحرّاقة الكليمور، ذات التّسليح المدفعيّ المموّه لكي تُنزِلَ على ساحلِ فرنسا رجلاً أوصافُه هي التالّية: قامة طويلة، عجوزٌ وشعره أبيض، وملابس فلاّحية، ويدا أرستقراطيّ. وسوف أرسل إليك غداً تفاصيل أكثر. فلتأسرْ الحرّاقة، وتعدمْ الرّجل بالمقصلة).

* * *

(١) القائد العام للجيش الانكليزي في الفلاندر.

(٢) إن الاسم الذي يرد عدداً من المرات مكتوب تقريباً باستمرار في المطبعة الأصلية مع فاصلة بعد كلمة: Prieur (هنا اسم علم)، وفي المخطوط، لا تظهر الفاصلة بالتواتر نفسه.

II

ليلة على السّفينة وعلى المسافر[١٣]

بدلاً من أن تسير الحرّاقة جنوباً وتتوجّه نحو سانت كاترين، فقد أقلعت باتجاه الشمال، ثم استدارت إلى الغرب، واندفعت بتصميم فيما بين سيرك وجيرسيه، داخل الشّعبة البحريّة التي تسمّى لوباسّاج دولاديروت (معبر الاندحار)[١] ولم تكن حينذاك منارةٌ على أية نقطةٍ من هذين السّاحلين.

كانت الشمّس قد غابت حقاً، وكان اللّيلُ حالك السّواد، أكثر مما تكون عليه عادة ليالي الصّيف. كانت ليلةً مقمرة، ولكن غيوماً عريضة، في الانقلاب الربيعي أكثر مما هي في الانقلاب الصيفي، تسقفُ السّماء، ومن المرجّح ألا يكون القمر مرئياً إلاّ حين يلامس الأفق، في لحظة غيابه. وكانت بعض السّحب تتدلّى حتى البحر، وتغطيّه بالضّباب كانت هذه الظلمة كلهّا مؤاتية.

كان الرّبان غاكوال يقصدُ إلى إبقاء جيرسيه إلى شماله، وغيرنيزيه إلى يمينه، وإلى بلوغ جون ما في شاطىء سان مالو، وذلك من خلال سير جسور فيما بين هانوا ودوفر[٢] وهذه الطرّيق هي أقصر من الطريق التي تمرّ بالمنكَيية[٣]،

---

(١) كانت منطقة المانش التي تتحرك فيها الكليمور كلها مألوفة لهيغو منذ بداية المنفى، والأسماء التي يذكرها في هذا الفصل غالباً في قصائده، وخصوصاً في عمال البحر (١٨٦٦) وهي الرواية التي قد كتب لها مقدمة طويلة، جغرافية وتاريخية: أرخبيل المانش(المنشورة عام ١٧٨٨٣ فقط).

(٢) على صخور دوفر، وإلى الغرب كثيراً من جيرسيه إنما يحدث، في عمال البحر غرقٌ لمركب لادوراند وأحداث كدّ جليات لاستعادة الحطام.

(٣) مجموعة من الجزر الصغيرة إلى الجنوب من جيرسيه، في منتصف الطريق بين الجزيرة وسان مالو.

وأكثر أماناً، باعتبار أن التعليمات المعتادة للرّقابة البحرّية الفرنسيّة تتمثل في القيام بالرّصد بين سانتيلييه وغرانفيل.

فإذا ما كانت الريح مؤاتيةً، ولم يحدث شيء طارىء، فإن غاكوال، من خلال تغطيته للحراقة بالأشرعة، كان يأمل ببلوغ ساحل فرنسا عند بزوغ الفجر.

كان كلُّ شيء يسيرُ على ما يرام، وكانت الحرّاقة قد تخطّت غرونيه[1] حوالي السّاعة التاسعة، وبدا أن الطقس قد حرد، كما يقول البحّارة، إنما كانت هناك ريحٌ وتحرّكٌ للبحر. غير أن تلك الريح كانت طيّبة، وذلك البحر المتحرّك كان شديداً، من غير أن يكون عنيفاً. ومع ذلك، فببعض ضرباتٍ للموج[2] أخذت مقدّمةُ الحراقة تبحر.

أمّا الفلاّح الذي كان اللورد بالكارّا يدعوه بالجنرال. والذي كان أمير لاتور روفيرينا قد ناداه «بابن عمي» فقد كان ثابت الجأش، ويتجوّل على سطح الحرّاقة برصانةٍ هادئة. لم يكن يبدو عليه أنه يلاحظ اهتزازَ الحرّاقة الشّديد. ومن وقتٍ لوقت، كان يسحب من جيب سترته لوحاً من الشوكولاته ويكسر منه قطعة ويلوكها، فلم يكن شعره الأبيض يحول دون[14] أن يكون محتفظاً بكلّ أسنانه.

لم يكن يكلمّ أحداً، باستثناء القبطان، وعلى فترات، بصوتٍ خفيض وباقتضاب، وكان القبطان يصغي إليه باحترام، ويبدو أنه يعتبر هذا المسافر قائداً للسّفينة أكثر منه شخصيّاً.

حاذت الكليمور التي كانت تُقاد بمهارةٍ وهي غير مرئية في الضّباب، حاذت المنحدر الطويل الشمّالي لجيرسيه، وهي تلازمُ السّاحل عن كثب، بسبب صخور البحر المخيفة بيير دوليك التي كانت في منتصف

(١) في الرأس الشمالي- الغربي لجيرسيه.

(٢) هذه طريقة في التعبير يستخدمها هيغو باستمرار.

ذراع البحر، بين جيرسيه وسيرك. أما غاكوال، الذي كان واقفاً عند مقبض الدّفة، وهو يشير بالتناوب إلى لاغريف دوليك وغرونيه وبليمون[1]،

فقد كان يجعل الحرّاقة تنزلقُ بين تلك السّلاسل من الصّخور الكبيرة (الأرصفة)، على غير هدىً تقريباً، ولكن بيقين، مثل رجلٍ من أهل البيت يعرف كلّ كائنات المحيط. لم يكن في الحرّاقة تسليح عند مقدّمها خوفاً من أن يفتضح مرورُها في تلك البحار المراقبة. وكان الرّكبُ مغتبطاً بوجود الضباب. وقد تمّ الوصول إلى غراند إتياك، وكان الضباب سميكاً إلى الدّرجة التي لا يكاد المرء يميّز فيه شبح البرج العالي. وسُمعت السّاعة وهي تدقّ العاشرة في برج سانت اوين[2]. وهذه إشارة إلى أن الرّيح سوف تبقى ريحاً خلفيّة. كان كلّ شيء يستمرّ في كونه على مايُرام، والبحر يغدو أكثر تلاطماً بسبب مجاورته لجبال الكوربيير.

بعد السّاعة العاشرة بقليل، أوصل الكونت دوبوابيرتولو وفارس دولافيوفيل الرَّجل الذي يرتدي ملابس الفلاحين إلى قمريّته والتي هي غرفة القبطان الخاصّة. وقد قال لهما في اللحظة التي دخل فيها إليها وهو يخفض صوته:

– أنتم تعلمون، أيها السّادة أن السّرية مهمّة. فحافظوا على الصّمت حتى لحظة الانفجار، فأنتم وحدكم تعرفون اسمي.

فأجاب بوابيرتلو:

– سوف نحمله حتى القبر.

وردّ العجوز بسرعة:

– أمّا أنا، فلن أقوله، وإن كنت أمام الموت.

ودخل إلى غرفته.

---

(١) كانت رأس بليمون المنتصبة في الشمال الغربي للجزيرة على شكل شاطىء صخريّ، أحد الأماكن المشرفة التي يحبها المنفي: أيها الخليج! بليمون الذي تتحاشاه الغواصة! ويا قصور سيبيل العتيقة التي انهارت في البحر! «رياح الفكر الأربعة، الكتاب الغنائي ١٧× (١٤) جيرسيه».

(٢) في القسم الغربي من جيرسيه، إلى داخل الأراضي.

III

النّبالة والعاميّة مختلطتان[١٥]

صعد قائدُ السّفينة ومعاونُه إلى سطح السفينة ثانية ، وأخذا يسيران جنباً إلى جنب . وهما يتحادثان .

كانا يتكلّمان بطبيعة الحال عن مسافرهما ، وإليكم تقريباً الحوار الذي كانت الرّيحُ تبدّده في الظلّمات ،

دمدم بوابيرتولو همساً في أذن فيوفيل:

– سوف نرى إن كان هذا زعيماً .

فأجاب فيوفيل:

– حتى ذلك الوقت ، نعتبره أميراً .

– تقريباً .

– نبيلٌ في فرنسا . ولكنه أميرٌ في بريطانيا .

– مثل أسرة تريموال ، ومثل أسرة روهان .

– واللتين هو حليفهما .

فاستأنف بوابيرتلو:

– في فرنسا، من يستقل عربات الملك يكون مركيزاً مثلما أنا كونت. ومثلما أنت فارس.

فهتف لافيوفيل:

– العربات بعيدة! ولا زلنا في الطنبر.

هيمنت لحظة من الصّمت.

ورد بوابيرتولو سريعاً:

– إن لم يوجد أمير فرنسي، نتخذ أميراً بروتانيا.

– إن لم تكن هناك طيور السمنة – كلا، إن لم يكن هناك نسر، نرضى بالغراب.

فقال بوابيرتلو:

– أفضل بازيّاً.

وردّ لافيوفيل قائلاً:

– بالتأكيد! منقار ومخالب.

– سنرى.

فردد لافيوفيل:

– أجل، لقد حان الوقت ليكون هناك زعيم. وأني من رأي تنتينياك[1] الذي يقول: «زعيم وبارود! هيا»، أيها القائد، فأنا أعرف تقريباً كلّ الزعماء الممكنين وغير الممكنين، زعماء اليوم وزعماء الأمس، وزعماء الغد، فما من أحد منهم ليس ذي عقل حربي كالذي نحتاج إليه، وفي هذه الفانديه

(١) إن الطريقة التي تتمثل في الإكثار من الأسماء المستقاة من المصادر التي أشرنا إليها، ليست في أي مكان ملموسة أكثر مماهي هذا الحوار الطويل، المفعم بمقاصد الشخصيات والمؤلف وهو حوار مضجر إلى حدّ كاف.

الشيطانية، يلزمنا جنرال يكون في الوقت ذاته نائباً عاماً، فينبغي إزعاجُ العدو، ومنازعتُه الطاحون، والدّغل، والحفرة، والحصاة، والقيام بمشاجرات شريرة معه، والإفادة من كلّ شيء، ومراقبة كلّ شيء، وذبح أعداد كبيرة، وإجراء عقابات تكون عبرة للآخرين، وألاّ يكون هناك نومٌ ولا رأفة. وفي هذه السّاعة، هناك أبطال، في هذا الجيش، جيش الفلاحين، وليس هناك قادة. إن ديلبيه عاجز لا فائدة منه. وليسكور مريض، وبونشان يعفو، إنه طيّب القلب، وهذا أمرٌ غبيّ: أما (لاروشجاركلان) فهو ملازمٌ رائع، وسيلز ضابط أرضٍ مكشوفة، ولكنه لا يصلح للحرب المتعدّدة الوسائل، وكاتولينو هو سائق عجلة ساذج، وستوفليه خفيرُ صيد ماكر، وبيرار أخرق، وبولانفيلييه مثير للضّحك، وشارّيت فظيع. وأنا لا أتكلّم على الحلاّق غاستون، فما الفائدة MORDEMONBLEU(*) من مناصبة الثورة العداء، وأي فارقٍ بين الجمهوريين وبيننا إذا جعلنا النبلاء تحت قيادة باعةِ الشّعر المستعار؟

– ذلك لأن هذه الثورة اللعينة تصل إلينا.

– إنها جَرَبٌ أصاب فرنسا! فقال بوابيرتلو:

– إنه جربُ عامّةِ الشّعب، وإنكلترا وحدها يمكنها أن تخلّصنا من ذلك.

– سوف تخلّصنا من ذلك، فلا تشكّ بهذا أيها القبطان.

– حتى ذلك الحين، أجدُ الأمر قبيحاً.

– بالتأكيد، هناك سوقيون في كلّ مكان، فالملكية التي تنصب ستوفليه قائداً عاماً، والسّيد دوفولفربيه خفيراً للصّيد، ليس لديها ما تحسِد عليه الجمهورية التي تجعل باش وزيراً لها. وهو ابن حاجب الدّوق دوكاستري، وحرب الفاندية هذه. أية مواجهةٍ هي. فمن جهة، هناك سانتير صانع الجعة، ومن الأخرى غاستون الحلاّق! (المزيّن!).

(*) تعجب ودهشة (م:ز.ع).

– ياعزيزي لافيوفيل، إني أقدّر هذا الغاستون بعض الشيء! فهو لم يتصّرف على نحوٍ سيّء إطلاقاً في قيادته في غيمينيه، وقد أعدم بصورةٍ لطيفةٍ بالقريبنة ثلاثمئة أزرق، بعد أن جعلهم يحفرون حفرتهم بأنفسهم.

– حمداً لله، ولكنني قد أُحسن هذا العمل مثله تماماً.

– عجباً، لا شكّ في هذا، وأنا أيضاً.

وتابع لافيوفيل يقول:

– إن أعمال الحرب العظيمة تتطلّب النبل فيمن يقوم بها. وهذه أمورٌ يؤدّيها فرسان وليس حلاّقون.

وردّ بوابيرتولو قائلاً:

– ومع ذلك، فثمة رجال جديرون بالتقدير، بين عامة الشّعب، خذْ، مثلاً، صانع السّاعات جولي. لقد كان رقيباً في فوج الفلاندر، وقد غدا زعيماً فانديّاً، وقاد عصابة ساحلية: ولديه ابنٌ وهو جمهوري، وفيما كان والده يخدم في صفوف البيض، كان الابنُ يخدم في صفوف الزّرق، فتحدثُ مواجهةٌ ومعركة، ويأسرُ الوالدُ ابنه، ويقتله رمياً بالرصاص.

فقال لافيوفيل:

– ذلك الرّجل حسن.

فردّد بوابيرتولو:

– إنه بروتوس ملكيّ.

– هذا لا يمنع من أن يكون أمراً غير محتمل أن يكون المرء تحت قيادة أشخاص من أمثال كوكرو، وجان جان، ومولان، وفوكار، وبوجو، وشوب.

– يا فارسي العزيز، إن الغضب نفسه موجود في الجهة الأخرى، فلدينا العديد من البورجوازيين، ولديهم العديد من النبلاء. فهل تظنّ أن اللاّمتسرولين

مسرورون من أن يقودهم الكونت دو كانكلو والفيكونت دوميراندا ، والفيكونت دوبوهارنيه ، والكونت دوفالانس ، والمركيز دو كوستين ، والدّوق دوبيرون!

– يا للارتباك!

– والدّوق دوشارتر!

– ابن إيغاليتيه . أه هذا ، متى سيصيرُ هذا ملكاً؟

– أبداً[1] .

–إنه يصعد إلى العرش ، وتخدمه جرائمُه ،

فقال بوابيرتولو:

– وتُضرّبه عيوبِه .

هيمنت أيضاً لحظة من الصّمت ، واصل بعدها بوابيرتولو:

– ومع ذلك فقد أراد أن يجري مصالحة. وكان قد أتى ليرى الملك . وكنتُ هناك ، في فيرساي ، حين بصقوا في ظهره .

– من أعلى الدّرج الكبير .

أجل .

– حسناً فعلوا .

– كنّا ندعوه بوربون لوبوربو .

– إنه أصلع ، وفي وجهة بثراتٌ . وقاتلُ ملوك ، تفاً له!

وأضاف لافيوفيل:

(١) مقطع (ذو أثر مبهر) شديد الشّبه ببعض مقاطع مسرحيات دوما الأب: نعلم أن الدوق دوشارتر سوف يحكم تحديداً باسم لويس – فيليب .

– أنا ، كنت في أويسّان معه .

– على مركب دوسانت – إسبري–

– لو أنه امتثل للإشارة التي بعث بها إليه الأميرال أورفيلييه ليواجه الرّيح ، لمنع الانكليز من المرور .

– بالتأكيد .

–أصحيح أنه قد اختبأ داخل خزان السفينة ؟

– كلا ، إنما يجب قول هذا مع ذلك .

وقهقه لاڤيوڤيل .

وقال بوابيّرتولوسريعاً:

– هناك حمقى . عجباً ، إن بولانفيلييه هذا الذي نتحدث عنه ، يالافيوفيل ، قد عرفته ، ورأيته عن كثب . في البداية ، كان الفلاّحون مسلحين بالحراب . أفلم يحشر في رأسه فكرة أن يصنع منهم حملة حراب؟ كان يريد أن يعلمّ ممارسة الطّعن الموارب ، والطعن– الذي يسحب النصّل إلى الأمام . كان قد حلم بأن يحول هؤلاء المتوحشين إلى جنود على الجبهة . وكان ينوي أن يعلمّهم كيف يثلمون[1] زوايا مربع ويصنعون كتائب فارغة المركز . وكان يرطن لهم باللغة العسكرية القديمة ، فلكي يقول: رئيس زمرة كشافة ، كان يقول: رأس جماعة[2] وهذه كانت تسمية العرفاء في عهد لويس الرابع عشر . وكان يصر على تشكيل فوج من كلّ أولئك الصيادين المخالفين ، وكانت عنده جماعات نظاميّة يصطفّ رقبّاؤها دائرياًفي كل مساء لكي يتلقوا كلمة السر والكلمة الجوابية من رقيب الجماعة الرئيسة واللتين كان يقولهما همساً لرقيب الملازميّة والذي كان يقولها لجاره الذي كان ينقلها إلى الأقرب إليه ، وهكذا من أذن إلى أذن حتى الشخص

(١) كان ذلك هو المصطلح الدقيق للإشارة إلى العملية التي تتمثل في قطع زوايا المربع الأربع: بحيث يمكنه أن يجري تقابُلاً في كلِّ الجهات ، حين يشكل مثمناً .

(٢) كان يستخدم CAP d'escade بدلاً من chef d'escouade . (م:ز ، ع)

الأخير. ولقد كسر رتبته ضابطٌ لم ينهض حاسر الرأس لكي يتلقى كلمة السرّ من فم الرقيب وأنت تحكم كم نجح هذا الأمر، فذلك الواق لم يكن يدرك أن الفلاحين يريدون أن يُقادوا على الطريقة الفلاحية، وأنه لا يجري تكوينُ رجال الثكنات من رجال الغابات. أجل، لقد عرفت بولا نفيليه هذا.

ساروا بضع خطوات، وكلٌّ منهم يتفكرّ من ناحيته.

ثم استمرت المحادثة:

– بالمناسبة، هل يتأكد أن دامبيير قد قتل؟

– أجل، أيها الآمر..

أمام كونديه؟

– في معسكر بامار، بقذيفة مدفع.

فقال بوابيرتلو بحسرة:

– الكونت دودامبيير. واحدٌ أيضاً من جماعتنا، والذي كان من جماعتهم!

فقال لافيوفيل:

– مع السلامة.

– والسيدات[1]؟ أين هنّ؟

– في تريستا.

– باستمرار؟

– باستمرار

---

(١) ليست المقصودة هنا ابنة الملك التي كانت حينئذٍ أسيرة في التامبل، بل الكونتسة دو بروفانس، والكونتيسة دارتوا، بنات حمي لويس السادسَ عشر.

فهتف لافيوفيل:

– أه! أية جمهورية! كم من الأضرار بسبب أمرٍ ضئيل! حين نفكر بأن هذه الثورة قد أتت بسبب عجز قدرُه بضعة ملايين !

فقال بوابيرتلو:

– فلتحترسْ من نقاط الانطلاق الصغيرة ، واستأنف لافيوفيل يقول:

– كل شيء يسوء.

– أجل ، لقد مات لاروّاري ، ودودرسنيه أحمق. فيا لهؤلاء المطارنة جميعاً من قادة بائسين ، كوسي هذا ، مطران لاروشيل ، وبويوال سانت أوليرا هذا، مطّران بواتييه ، وميرسي هذا ، مطران لوسون ، وعشيق السيدة دوليشاسوري.

– والتي تدعى سيرفانتو ، فأنت تعلم ، أيها المقدّم أن: ليشاسوري هو اسم أرضي.

– وهذا المطران الزائف. مطران أغرا ، والذي هو خوريّ لما لا أعرف.

– لدوْل. إنه يدعى غيوّ دوفولفيل. وهو رجلٌ شهم ، فضلاً عن ذلك ، ويقاتل.

– هناك كهنة حين يلزم أن يكون هناك جنود! ومطارنةٌ ليسوا مطارنة! وجنرالات ليسوا بجنرالات!

فقاطع لافيوڤيل بوابيرتلو قائلاً :

– أيها المقدم ، هل عندك المونيتور(صحيفة المرشد) في قمريتك؟

– نعم.

فماذا يمثلون إذن في باريس ، في هذه اللحّظة؟

آديل وبولان ولا كافيرن (المغارة[1])

– أوّد مشاهدة ذلك .

– سوف تراه ، فلسوف نصبح في باريس بعد شهر .

ففكر بوابيرتلو للحظة من الزمن ، وأضاف:

– على أبعد تقدير ، فقد قال السّيد ويندهام ذلك إلى الميلورد هود[2]

– ولكن ، أيها الآمر ، ليس كلُّ شيء على هذه الدرجة من السوء؟

– كل شيء قد يسير على مايرام ، عجباً ، بشرط أن تُقاد حرب بروتانيا بشكل جيد .

فهز لافيوفيل رأسه ، واستأنف يقول:

– أيها الآمر ، هل ستنـزل مشاة البحرية؟

– نعم ، إذا كان الساحل لنا ، ولا ، إذا كان معادياً . وفي بعض الأحيان ، ينبغي أن تخلع الحرب الأبواب ، وأحياناً ينبغي أن تتسلل تسللاً ، فالحرب الأهلية ينبغي أن يكون في جيبها مفتاحٌ زائف ، فتفعل ماهو ممكن ، فالشيء المهمّ ، هو القائد .

وأضاف بوابيرتلو متفكراً :

(١) آديل وبولان هي مسرحية شعري في ثلاثة فصول لدلريو ، وقد مثلت في آب ١٧٩٣ في افتتاح المسرح الوطني . أما لاكافيرن (المغارة) فهي مسرحية نثرية مستوحاه من حادثة قطاع الطرق ، في «جيل بلا» للوساج . مع كلمات لدارسيْ ، وموسيقا للوسيور ، وقدمت في مسرح فيدو ، في شهر شباط١٧٩٣– إن كل هذه التدقيقات التي تهدف إلى استرجاع طابع ذلك العهد ، تنسجم مع روح الحوادث المسرحية بالضبط كما نجد في المسرحيات التي مثلت حوالي عام ١٨٣٠(هنري الثالث وبلاطهُ وماريون دولورم إلخ) .

(٢) كان يتعين على ويندهام ، معاون بيت أن يرتب بعد عامين إنزال كيبيرون– وكان هود يقود الأسطول الأنكليزي الذي حوصر أمام طولون في عام ١٧٩٣ .

– ما رأيك يالا فيوفيل بالفارس دوديوزي ؟

– الشاب .

– أجل .

– للقيادة ؟

–أجل .

أنه لا يزال ضابط ساحة ومعركة منظمة . أم الدّغل فلا يعرف إلا الفلاّح .

– إذن ، هل تنقاد للجنرال ستوفليه والجنرال كاتلينو؟

فتفكر لافيوفيل للحظةٍ وقال:

– يلزمنا أمير ، أميرٌ لفرنسا ، أميرٌ ذو محتدٍ ملكي ، أميرٌ حقيقي .

– لماذا؟ من يقلْ هذا أمير . . .

– يقلْ هذا جبان . أعلم ذلك ، أيّها الآمر ، ولكن لكي يؤثر على عيون الفتيان(GARS)الواسعة[1] الغبية .

– يا عزيزي الفارس ، لا يريد الأمراء أن يأتوا .

– سوف نستغني عنهم .

قام بوابيرتلو بتلك الحركة الآلية التي تتمثل في الضغط على الجبين باليد ، وكأنّما لإخراج فكرة منه ، وتابع يقول :

– وأخيراً ، فلنجرب هذا الجنرال .

---

(١) هذا هو الاسم الذي كان يطلقه المتمردون الفانديون على أنفسهم ، وبالزاك الذي كان يروق له أيضاً استخدام الاستطرادات ، كان قد قدم في الشوان دراسة كاملة حول أصل واستخدم الكلمة (التي تلفظ GA الفتيان) . . . . . والتي هي من بقايا اللغة السلتية .

- إنه نبيل عظيم.

- أتظن أنه سيكون كافياً؟

فقال لافيوفيل:

- بشرط أن يكون جيداً.

فقال بوابيرتلو:

- أي شرساً.

فنظر الكونت والفارس كلٌّ منهما إلى الآخر.

- أيها السّيد بوابيرتلو، لقد قلت الكلمة الصحّيحة: شرس. أجل، هذا ما يلزمنا. هذه هي حربٌ بلا رحمة. إنه زمن الدمويّين؛ فقتلة الملوك قد قطعوا رأس الملك لويس السادس عشر، ولسوف ننتزع الأطراف الأربع لقتلة الملوك. أجل، إن الجنرال الضروري هو الجنرال الذي لا يرحم؛ ففي الأنجو، وفي بواتو العليا، الزعماء يتظاهرون بالرحمة، ويتخبّطون بالشهامة، فلا يسير شيء حسناً. أما في لوماريه وفي منطقة ريتس[1] فالزعماء شرسون، وكل شيء يسيرُ حسناً. ولأن شارّيت شرس فهو يتصدى لبيرّان[16]

ضبع ضد ضبع.

لم يتوفر لبوابيرتلو الوقت للرّد على لافيوفيل. وقطعت كلام لافيوفيل فجأة صرخةٌ يائسة، وفي الوقت نفسه سُمعَ صوتٌ لم يكن يشبهُ أياً من الأصوات التي نسمعها. وكانت تلك الصرخة وتلك الأصوات تأتي من داخل السفينة.

---

(١) في منطقة ريتس، وفي جنوبي اللّوار، قريباً من نانت، إنما تقع في حقيقة الأمر بؤرٌ اتخذ التمرّد فيها الشكل الأكثر دمويّة. (ماشوكول).

هرع القبطان والملازم إلى مابين سطحي السفينة ، غير أنهما لم يتمكنا من الدخول إلى هناك . وكان سدنة المدفع يصعدون مضطربين .

إن شيئاً مرعباً قد حدث منذ قليل .

* * *

IV

Tormentum belli[1]

إن أحد مدافع الوحدة البحرية، وهو مدفعٌ من عيار أربعة وعشرين قد انفكت أربطته.

ولعل هذه هي إحدى الحوادث الأكثر إثارة للخوف في البحر. فما من شيء أكثر رعباً منها، ويمكن أن يحدث لسفينته حربيةٍ في البحر، وهي في أوج سرعتها.

إن مدفعاً يحطمّ قلسه يغدو فجأة حيواناً فائقاً للطبيعة لا ندري ما هو.

إنه آلةٌ تتحول إلى وحش؛ فهذه الكتلة تجري على دواليبها، وتقوم بالحركات التي تقوم بها كرةُ بلياردو، فتنحني مع الترنح، وتغوص مع تمّور السفينة من طرف إلى آخر كالسهم، وتستدير استدارة كاملة، وتتوارى، وتهرب، وتشبّ، وتصدم، وتثلم، وتقتل، وتبيد. إنها كبشٌ يخبط سوراً على هواه. ولتضيفوا ما يلي: الكبشُ حديديّ، والسوارُ خشبيّ. إنه ولوج المادة إلى الحريةِ، حتى لكأن هذا العبد الأبدي يثأر لنفسه. ويبدو أن الشرّ في ما نسميه الأشياء الجامدة قد خرج وانفجر فجأة.

---

(١) كانت العناوين باللاتينيّة هي إحدى ضروب التأنق عند هيغو الروائي، و: Tormentum belli معناها: آلة الحرب.

ويظهر أن ذلك الشيء قد فقد صبره، وأخذ يقوم بانتقام غريب وقاتم، فما من شيء عديم الرحمة أشدّ من غضب الشيء الذي لا حيّاة فيه. إن هذه الكتلة المسعورة تقوم بوثبات كوثبات الفهد، وهي تملك ثقل الفيل، وخفة الفأرة، وعنادَ البلطة، وفجائية اضطراب الموج، وضربات البرق الخاطفة، ووقرَ القبر. إنه يزنُ عشرة آلاف، وينبو مثل كرة الأطفال. إنها دورانات[1] تقطعها فجأة زوايا قائمة. فما العمل؟ وكيف التغلبّ على هذا الأمر؟ فالعاصفة تتوقفَ والإعصار يمرّ، والريح تهدأ، والصاري المحطمّ يُبدّل، ويُسدّ مجرى مائيّ، وينطفىء حريق. ولكن ما الحيلة مع هذا الوحش البرونزي الهائل؟ بأيّة وسيلة يمكن التعامل معه؟ فبوسعكم أن تعقلوا درواساً، وأن تُذهلوا ثوراً، وأن تفتنوا حية بوا، وأن تخيفوا نمراً، وأن تحننّوا أسداً، فما من وسيلة ناجعة مع هذا الوحش، إنه مدفعٌ منفلت. وليس بوسعكم قتله، فهو ميت، وهو يحيا، في الوقت نفسه. إنه يحيا حياةً مشؤومة تأتيه من اللاّنهائي. تحته أرضيته التي ترجحه. إن السفينة تحركه، ويحركها البحر الذي تحركه الريح. إن هذا المدمّر لعبة، فالسفينة، والأمواج، والعصف، كلّ ذلك يمسك به، ومن هنا تأتي حياته الفظيعة. فما العمل مع هذه الدّوامة؟ كيف يمكن إعاقة هذه الآلية الشيطانية، آلية الغرق. كيف يمكن الاحتياط من هذه الروحات والجيئات ومن هذه الرّجعات، وهذه التوقعات، وهذه الصدمات؟ إنّ كلّ واحدة[17] من هذه الضربات على تأزير السفينة يمكن أن تشقّها. فكيف يمكن التكهّن بهذه الحركات المتعرجة المريعة؟ إننا قذيفة تغير وجهتها، حتى لكأن لديها أفكاراً، وهي تبدّل اتجاهها في كل لحظة. فكيف يمكن إيقاف ما ينبغي تحاشيه؟ إن المدفع الرهيب يتعثر، ويتقدم، ويتراجع، ويضرب إلى اليمين، ويضرب إلى اليسار، ويهرب، ويمرّ، ويخيّب التوقعات، ويهرس العائق، ويسحق الرّجال كالذباب. إن رعبَ الموقف كلّه هو في حركته الأرضيّة. فكيف يمكنُ منازلة مستوٍ مائلٍ له نزواتُه؟ إن السّفينة تحمل في بطنها، تقريباً، الصاعقة السّجينة التي تسعى إلى الإفلات منها، إنها شيء أشبه ما يكون برعدٍ يقصفُ فوق هزّة أرضيّة.

(١) إن استخدام الاسم المجرد دائمٌ عند هيغو، خصوصاً في المؤلفات التي كتبها بعد المنفى، وهذه الفصول تقدم أمثلة على ذلك.

بعد لحظة من الزمن، كان الطاقم كلّه واقفاً. وكان الخطأ هو خطأ رئيس الجماعة الذي أهمل شدّ حزقة السّلسلة، سلسلة القلس، ولم يحسن إعاقة دواليب المدفع البحريّ الأربعة، وهذا ما كان يسمح لنعل المدفع ولأرضيّته بالحركة، وما جعل صحنيه يفقدان التوافق، وانتهى الأمر بفك رباط المدفع[1]. كان حَبْل جر المدفع قد تحطمّ بحيث أن المدفع لم يعد راسخاً من جهة الحاضن. أما الربّاط الثابت. الذي يمنع التراجع، فلم يكن قد أصبح بعد مستخدماً في ذلك العهد. وإذْ أتت كميّةٌ كبيرة من الماء لتضرب ثغرة الجدار، فقد أخذ المدفع البحريّ الذي لم يقلّس جيداً بالتقهقر، فحطمّ سلسلته، وشرع يشرد على غير هدى فيما بين سطحيّ السفينة بشكلٍ مرعب.

ولكي نأخذ فكرة عن هذا الانزلاق الغريب. لنتصوّر قطرة ماء تتدحرج على لوح زجاجيّ، في اللحظة التي انكسر فيها القلس، كان سدنة المدافع في وحدة التّسليح، بعضهم كان متجمعاً، وبعضهم الآخر متفرّقاً، وهم منشغلون بأعمال بحريّةٍ يقوم بها البّحارة احتياطاً للتحضير لمعركة. أمّا المدفعُ البحريّ الذي دفعه التموُّرُ، فقد أحدث فرجةً في ذلك التجمع من الرّجال، وسحق منهم أربعة بالضّربة الأولى، ثم أن التّرنحّ قد استعاده ولطمه، فقطع بائساً خامساً إلى اثنين، وانطلق ليصدمَ في جدار يسار السّفينة، أحدَ قطعِ الوحدةِ المدفعيّة التي فكّها. ومن هنا صدرت صرخة الاستغاثة التي سمعناها منذ قليل. كان كلّ الرّجال يتزاحمون على الدّرج - السّلمّ. وفرغت سريّة المدفعية بلمح البصر.

كان المدفعُ الهائل قد تُرك بمفرده. وأُسلم لذاته. كان سيّد نفسه. وسيّد السّفينة. وصار بمقدوره أن يصنع بها مايريد، إن كلّ ذلك الطّاقم الذي اعتاد على الضّحك[18] في المعركة كان يرتجف. أما التعبيرُ عن الذّعر فهو متعذّر.

---

(١) تراكم للمصطلحات الفنية. فالنعل هو اللوح الخشبي الذي يسند المدفع البحري، والأرضية تشكل جزءاً من الحاضن، والرباط هو الحبل الذي كان يستخدم في سحب المدفع البحري.

كان النقيب بوابيرتلو والملازم لافيوفيل، وهما رجلان غيرهيّابين مع ذلك، قد توقّفا في أعلى الدّرج، وكانا ينظران إلى مابين السّطحين وهما صامتان، وشاحبان، ومتردّدان فأبعدهما شخصٌ بمرفقه، ونـزل، لقد كان هو مسافرهما الفلاح، والرّجل الذي كانا يتحدثان عنه قبل ذلك بلحظة. وحين وصل إلى أسفل الدرّج – السّلم، توقف.

* * *

V

VIS ET VIR [1]

كان المدفع يروح ويجيء فيما بين السّطحين . حتى لكأنّه عربةٌ حيّةٌ من عربات نهاية العالم .

أما الفانوس البحري ، الذي كان يهتزّ تحت جؤجؤ (مقدّمة) المدفعيّة ، فقد كان يضيف إلى تلك الرؤيا تأرجحاً مدوّخاً للظّلّ والنّور . وكان شكلُ المدفع يمحّي من قوة سيره ، فكان يبدو أسود تارةً في النور ، وعاكساً التماعاتٍ بيضاء في الظلّمة ، تارةً أخرى .

كان يواصلُ القضاء على السّفينة ، وكان قد أنجز تحطيمَ أربعة مدافع أخرى ، وأحدث في الجدار صدعين فوق خطّ العوم لحسن الحظّ . غير أن الماء كان يدخل منه ، حين تصل فجاة عصفةٌ شديدة . وكان ينقضّ بصورة مهووسة على قفص السّفينة ، وكانت الدّعامات[2] الشّديدة المتانة تقاوم ، فالأخشاب المقوّسة ذات صلابة خاصّة ، لكن فرقعتها كانت تُسمعُ تحت تلك الهراوة المفرطة في ضخامتها ، والتي تضربُ ، بنوعٍ من الحضور الكليّ الخارق . ومن كلّ الجهات في آن ، فليس لحبّة رصاص يجري خضّها في زجاجة أصداءٌ تفوقها جنوناً وسرعة . كانت عجلاتُ المدفع الأربع تمرّ وتعاود المرور على الرّجال القتلى ، وتقطعهم ، وتفسّخهم ، وتمزّقهم ، فتصنع من الجثث الخمس ، عشرين

(١) (القوة الوحشية والإنسان) (باللاتينية أعلاه) .

(٢) قطع خشبية تدعم هيكل السفينة .

شقّة تتدحرج عبر وحدة المدفعية، وكانت الرؤوس الميّتة تبدو وكأنها تصرخ، وسواقٍ من الدّم تتلوّى على الأرضيّة تبعاً لتأرجُحِ الترنُّح.

أما ألواحُ التبطين[1] المعطوبة في بضعة أماكن، فقد بدأت تنفرج. وصارت السَّفينة كلّها ملأى بضجّة شيطانيّة.

كان القبطان قد استعاد رباطةَ جأشه سريعاً، وبناءً على أمرٍ منه، ألقي، من خلال المربّع، فيما بين السّطحين، كلّ ما يمكنه أن يضعفَ ويعيق الجريَ الجامحَ للمدفع، الفرشَ، والأسرّة المعلّقة، وأكياس الطاقم، وطرود الأوراق النقديّة المزيّفة[2] والتي كانت الحرّاقة تحمل حمولة كاملة منها، وهي ذلك العمل الانكليزي[3] الشائن الذي نظروا إليه باعتباره حرباً شرعيّة.

ولكن ماذا كان يمكن لكل تلك الخرق أن تفعل؟ وإذْ لم يجروٌ أحدٌ على النّزول لترتيبها كما ينبغي، فقد غدت مزقاً في بضع دقائق.

كان هناك ما يكفي تماماً من حركةِ البحر لكي يكون الحادثُ كاملاً بقدر الإمكان. وكان يمكن لعاصفة أن تكون مرغوبة، فكان يمكن لها ربّما أن تقلب المدفع، وما إن تصبح عجلاتُه الأربع في الهواء حتى يمكن السّيطرة عليه. ومع ذلك، فقد كان الخرابُ يتفاقم، وكانت هناك سحجاتٌ وحتى كسور في الصّواري التي ما إن اندمجت بهيكل عارضة القعر، حتى اخترقت طوابق السّفينة. وصنعت فيها ما يشبه دعامات ضخمة مستديرة. وتحت ضربات المدفع التشنجيّة، كان صاري الميزان في المقدّمة قد تشقّق، وكان الصّاري الكبير نفسه قد أصابه الضّرر. كانت الوحدةُ المدفعيّة تتفكّك. وصارت عشرة مدافع من أصل ثلاثين خارج المعركة. وأخذت تتزايد الشّقوق في بطانة القعر، وبدأت الحراقة تمتلئ بالماء.

---

(١) مجمل الألواح الخشبية التي تشكل الغطاء الداخلي للهيكل.

(٢) أوراق نقدية أصدرت أثناء الثورة الفرنسية (م:ز.ع).

(٣) المقصود هو الوسيلة التي تتمثل في تسريع تخفيض قيمة العملة الورقية في فرنسا، وإثارة الرأي بهذه الوسيلة ضد الحكومة الثورية. وهوغو يدين إدانة عابرة هذا الشكل من الحرب المالية.

كان المسافر العجوز الذي نزل إلى مابين السّطحين يبدو كأنّه رجلٌ حجريّ في أسفل الدّرج . لقد كان يُلقي على هذا الدّمار نظرةً صارمة . لم يكن يتحرّك ، فقد كان يبدو من المتعذّر أن يقوم المرء بخطوةٍ واحدة في الوحدة المدفعيّة .

كانت كلّ حركةٍ من المدفع البحريّ غير المقيّد تعدّ لانهيار السّفينة . فما هي إلاّ بضع لحظاتٍ حتى يصبح الغرق محتوماً .

كان لا بدَّ من الهلاك أو وضع حدّ للكارثة ، واتخاذ قرار ، ولكن ما هو؟

أيّ مقاتل هو هذا المدفعُ البحريّ!

كان لا بدَّ من إيقاف هذا المجنون المرعب .

كان المطلوب هو الإمساك بخناق هذا البرق .

كان المطلوب هو طرح هذه الصّاعقة أرضاً .

فقال بوابيرتلو للافيوفيل:

– هل تؤمن بالله ، أيها الفارس .

فأجاب لافيوفيل:

–أجل ، كلا . بعض الأحيان .

– وبالعاصفة ؟

– أجل وفي لحظات كهذه .

فقال بوابيرتلو:

– ليس هناك إلاّ الله من يمكنه أن يخرجنا من هنا .

كان الجميع ساكتين ، تاركين المدفع البحريّ يقوم بصخبه المرعب .

ومن الخارج، كان الموج الذي يلطم السّفينة يردّ على صدمات المدفع بضرباتٍ بحريّة حتى لكأنهما مطرقتان متناوبتان.

فجأة، وفي هذا النّوع من السّيركِ المنيع الذي كان المدفع المنفلت يثبُ فيه، رأينا رجلاً يظهر وهو يحمل قضيباً. كان هو صانع الكارثة، ورئيس الوحدة البحريّة المذنب بالإهمال، وسبب الحادث؛ وسيد المدفع البحريّ. فبعد أن أحدث الضرّر، كان يريد أن يصلحه، فقبض على قضيبِ عتلة[1] بإحدى يديه، وعلى حبل دولاب[2] ذي أنشوطه، باليد الأخرى وكان قد وثب من خلال المربّع إلى ما بين السّطحين.

حينذاك بدأ أمرٌ مرعب ومشهدٌ هائل، إنه قتال المدفع ضدّ المدفعيّ، إنه معركة المادّة والعقل ونزال الشيء ضدّ الإنسان.

كان الرّجل قد تمركز في إحدى الزّوايا، وقضيبُه وحبلُه في قبضتيه، وقد أسند ظهرهُ إلى لوح تدعيم[3] ورسّخ وقفته على عرقوبيه اللذين كانا يبدوان مثل دعامتين فولاذيتين، كان كامد الوجه، وهادئاً ومأسويّاً، وكأنه متجذّر في الأرضيّة، لقد كان ينتظر.

كان ينتظر أن يمرّ المدفعُ قريباً منه.

كان المدفعيّ يعرف مدفعه، وكان يبدو له أن لابدَّ أن يعرفه. فقد كان يعيش معه لفترة طويلة. فكم من مرّة أقحم يده في شدقه! لقد كان وحشه الأنيس. أخذ يخاطبه كما يخاطب كلبه، وكان يقول له:

– تعال.

فربّما كان يحبّه.

وكان يبدو أنه يتمنّى أن يأتي إليه.

---

(١) نوع من رافعة خشبية.

(٢) مجموع حبال.

(٣) قطعة من الخشب تقوي بناء السفينه.

ولكن، أن يأتي إليه كان معناه أن يأتي عليه. وحينذاك، يهلك. فكيف يمكنُه ان يتجنّب السّحق؟ إن المسألة كانت تكمن في ذلك، وكان الجميعُ ينظرون مرتعدين.

لم يكن هناك صدرٌ يتنفسّ بحريّة، ربما باستثناء صدر الرّجل العجوز الذي كان بمفرده فيما بين السّطحين مع المتحاربين، كشاهدٍ مشؤوم.

كان يمكن له شخصيّاً أن يسحقه المدفع. فلم يكن يتحرّك.

وكان الموج الأعمى تحتهم يدير المعركة.

وفي اللحظة التي أتى فيها المدفعيّ ليتحدّى المدفع، وقد قبل المجابهةَ الرهيبةَ جسماً لجسم، جعلت مصادفةٌ من تمايلات البحر المدفع البحريّ يبقى بلاحراك للحظة من الزّمن وكأنه منذهل، وكان الرّجل يقول له: (فلتأتِ إذن). وكان يبدو أنّه يصغي.

وفجأة وثب عليه، فتحاشى الرجلُ الصّدمة.

دار الصراع. صراعٌ خارق. فالهشُّ يمسك بخناقِ العَصيّ على الانجراح، ومروّضُ الوحوش المصنوع من اللحم يهاجمُ الحيوان المصنوع من البرونز. فمن جهة هناك قوّة، ومن الأخرى روح.

كان كلّ ذلك يجري في الغبش، وكأنه رؤيا غير واضحة لشيء خارق.

روح، إنه أمرٌ غريب، وكأن للمدفع روحاً، هو أيضاً، غير أنها روح من الحقد والغضب. كان يبدو أن لذلك العمى عينين. كان يظهر أن الوحش يراقب الإنسان.

كان ثمة مكرٌ في تلك الكتلة، يمكن للمرء أن يظنّ ذلك على أيّة حال، فقد كانت تختار أيضاً لحظتها. لقد كانت حشرة عملاقة من الحديد لا ندري

ما-هي، لها إدارة شيطان أو يبدو أن لها ذلك، فهذه الجرادة الجبّارة كانت تصدم سقف وحدة المدفعية الخفيض، ثم تهوي مجدّداً على دواليبها الأربعة مثل نمرٍ على مخالبه الأربعة، وتأخذ ثانية بالانقضاض سريعاً على الرّجل. أما هو، فقد كان يلتوي، بمرونته، وخفّته، ومهارته مثل حفثٍ تحت كلّ تلك الحركات الصّاعقة. كان يتحاشى اللقاءات، غير أن الضّربات التي كان يفلت منها، كانت تهوي على السّفينة، وتواصل تدميرها.

كانت قد بقيت قطعة من سلسلة مكسورة معلّقةً بالمدفع البحريّ، وهذه السّلسلة قد التفّت لاندري كيف داخل لولب أكرة المغلاق. وكان طرفُ السّلسلة مثبّتاً بالحاضن، أما الطّرفُ الآخر، الحرُّ، فقد كان يدوّم بشكلٍ مضطربٍ حول المدفع الذي كان يضخّم على نحوٍ مفرط كلَّ قفزاته الفجائية. كان اللّولبُ يمسك بالطّرف وكأنه يدٌ مطبقة، وتلك السّلسلة التي كانت تضاعف نطحات الكبش بضربات السّير الجلدية، كانت تصنع حول المدفع إعصاراً رهيباً، وسوطاً حديدّياً في قبضة برونزيّة. كانت تلك السّلسلة تعقدّ المعركة.

كان الرّجل يناضلُ مع ذلك. وحتى أن الرّجلِ هو الذي كان يهاجمُ المدفع، أحياناً، فقد كان يزحف على طول بطانة القعر، وبيده قضيبُه المعدنيّ وحبله، وكان يبدو على المدفع أنه يفهم، فكان يهرب، وكأنه يتكّهن بفخّ. أما الرّجلُ الرّهيب فقد كان يلاحقه.

إن أشياء كهذه لا يمكنها أن تستمّر طويلاً. وكأن المدفع يقول في نفسه فجأة:

هيا! ينبغي الانتهاء من الأمر! وتوقّف. ثمة إحساسٌ باقتراب الخاتمة، فالمدفعُ، وكأنه معلّقٌ، كان يبدو أن لديه، أو كان لديه، تفكرٌ مسبقٌ ضار، فبالنسبة للجميع كان يُعتبر كائناً. وفجأةً، اندفع نحو المدفعيّ. فتنحىّ المدفعيّ جانباً، وتركه يمرّ، وصرخ به ضاحكاً: «أعدْ الكرّة!». أما المدفع، وكأنه ساخط، فقد حطّم مدفع يسار السّفينة، ثم اندفع، وقد قبض عليه ثانية المقلاع

غير المنظور الذي كان يمسك به، اندفع إلى ميمنة السّفينة نحو الرّجل الذي هرب. انهارت ثلاثة مدافع بحرية تحت اندفاعة المدفع. حينذاك. وكأنه غدا أعمى ولم يعد يدري ماذا يفعل، أدار ظهره للرجل، وتدحرج من المؤخرة إلى المقّدمة، وعّطل جؤوُ السفينة، ومضى ليحدث ثغرةً في جدار الجؤجؤ. كان الرّجل قد لجأ إلى أسفل الدّرج، على بعد بضع خطواتِ من العجوز الشاهد. كان المدفعيّ يمسك بقضيب العتلة في حالة حذر. وبدا أن المدفع قد لمحه، ومن غير أن يكلّف نفسه عناء الاستدارة، فقد تقهقر باتجاه الرّجل بسرعةِ ضربةِ بلطة. أما الرّجل الذي حُشر في بطانة القعر فقد صار هالكاً. وأطلق الطاقمُ كلّه صرخة.

غير أن المسافر العجوز الذي كان حتى ذلك الوقت لا يبدي حراكاً، فقد اندفع بنفسه على نحو أسرع من كلّ تلك السّرعات المخيفة، وكان يمسك بطردٍ من الأوراق النقديّة المزيفة، وتحت خطر أن يتعرّض للسّحق، فقد نجح في أن يلقي بها بين عجلات المدفع البحريّ. لم يكن لهذه الحركة الحاسمة والمحفوفة بالخطر أن تنفّذ بإحكامٍ ودقةٍ أكبر على يد رجلٍ متمرسٍ بكلّ التمارين التي يصفُها كتاب ديروزيل حول: تحركَ المدفع البحري.

كان للطرد فعلّ كفعل السدادة: فالحصاةُ تعرقل كومة، وغصنُ شجرة يحول اتجاه ركام جرفيّ. لقد تعثرّ المدفع البحريّ. أما المدفعي بدوره، فإذ أمسك بهذا الفاصلّ المخيف، فقد غرز قضيبه الحديدي بين أشعة إحدى العجلات الخلفية. فتوقف المدفع.

كان منحنياً. أما الرجل. فبحركةِ أجراها بالقضيب، جعله يترجحّ، وانقلبت الكتلة الثقيلة بصوت جرسٍ يتقوّض. وإذ هجم الرّجل بلا تروِّ، وهو يقطر عرقاً، فقد مرّر الأنشوطة من حبلِ دولاب الوحش المصروع إلى عنقه البرونزية.

لقد انتهى الأمر، وانتصر الرّجل، لقد تغلبت الذبابة على المستودون[1] والقزم قد سجن الرعد.

(١) حيوان بائد شبيه بالفيل (م:ز،ع).

صفق الجنود والبحارة .

هرع الطاقمُ كلُّه حاملاً حبالاً وسلاسل ، فغدا المدفع مربوطاً بالقلس خلال لحظة من الزمن .

وحيا المدفعيُّ المسافَر ، وقال له:

– يا سيدي ، لقلد أنقذت حياتي .

كان العجوز قد استعاد موقفه الذي لا تأثر فيه ، ولم يجب .

* * *

VI

كفتا الميزان

كان الرجل قد انتصر، غير أنه كان يمكن أن يقال إن المدفع قد انتصر أيضاً، فالغرق المباشر قد تم تحاشيه، ولكن الحراقة لم يتمّ إنقاذها إطلاقاً. وكان يبدو تلفُ السفينة غيرَ قابلٍ للإصلاح. كان في بطانة الأرضيّة خمسة شقوق، منها شقٌّ كبير فعلاً في مقدّمتها، وكان عشرون مدفعاً بحرياً من أصل ثلاثين يضطجعون في مرقدهم القماشيّ. أما المدفع البحريّ الذي صودر ووُضع في السّلسلة فقد أصبح بحدِّ ذاته غير صالح للاستعمال، وكان لولبُ أكرة المغلاق قد كُسر، ونتيجة لذلك، فقد أصبح التسديد متعذّراً. لقد آلت وحدة المدفعيّة إلى تسع قطع، وأخذ القعر يمتلىء بالماء. وصار من المتوجّب في الحال الذّهاب سريعاً إلى مواضع التّلف وتشغيل المضخّات.

كان ما بين سّطحي السفينة مرعباً للناظر، وقد أصبحت مشاهدة[1] ذلك الآن ممكنة؛ فداخلُ قفصِ فيلٍ ساخط ليس أكثرَ تهدماً.

وأياً كانت، بالنسبة إلى الحرّاقة ضرورةُ ألاّ تكونَ مرئية، فقد كانت هناك ضرورة" وأكثر إلحاحاً أيضاً، وهي الإنقاذ الفوريّ. وكان لابدَّ من إنارة سطحها ببعض الفوانيس في هذا المكان أو ذاك، في بطانة القعر.

(١) إن هذا الترتيب للجملة (ضمير لا يتوسط فعلين) هو إحدى مخلّفات اللغة التقليدية والتي نجدها أيضاً حتى في مؤلفات هيغو، في فترة الشيخوخة، على النحو التالي:
on le pouvait regarder بدلاً من on pouvait le regarder (الإيضاح بالفرنسية منا. م: ز.ع).

ومع ذلك، ففي كلّ الوقت الذي استمرّ فيه هذا التّحويل المأسويّ للأنظار، ولأن الطاقم كان منهمكاً بمسألة حياة أو موت، فقلّما كان أحد يعلم ماذا كان يجري خارج الحرّاقة؛ فالضبّاب كان قد تكاثف، والطقّس قد تبدّل، وصنعت الرّيح بالسّفينة ما كانت تشاء: كانت الحرّاقة خارج المسار، ومكشوفة من جيرسية ومن غيرنيزية، ومتجهّة إلى الجنوب أكثر مما كان يلزم. كانت السفينة تجد نفسها أمام بحرٍ هائج. وكانت أمواجٌ ضخمة تأتي لكي تقبّل الجراح الفاغرة للحرّاقة، وهي قبلاتٌ مخيفة. كانت هدهدةُ البحر منذرةً بالخطر، نسيمُ البحر أصبح ريحاً شماليّة، وبدأت زوبعةٌ وربّما عاصفة تتشكّل، ولم يكن المرء يبصرُ على بعد أربع أمواجٍ أمامه.

وفيما كان رجالُ الطّاقم يصلحون على عجلٍ وبصورة مختصرة أضرار مابين السّطحين، ويسدّون المنافذ المائية، ويعيدون إلى الوحدة المدفعيّة القطع التي نجت من الكارثة، كان المسافر العجوز قد صعد إلى سطح السّفينة.

كان يستند إلى الصّاري الكبير.

قد أمر بوضع جنود مشاة البحرية على جانبي الصّاري االكبير في وضعٍ متوازٍ طولاً، واصطفّ البحارة المنشغلون بحركة السفينة واقفين على الدوقل، لدى سماعهم صافرة قائد الطاقم.

خلف القبطان كان يسير رجلٌ زائغ النظرات، ومبهور الأنفاس، بملابس غير مرتبة، وقد بدا مرتاحاً مع ذلك.

كان ذاك هو الشخص الذي ظهر تواً مقداماً كأنه مروّض، والذي سيطر على المدفع.

حيّا الكونت العجوز الذي يرتدي لباس فلاّح تحيّةً عسكريّة، وقال له:

– سيدي الجنرال، هذا هو الرّجل.

كان المدفعيّ واقفاً، وعيناه مخفضتان في وقفة جندي.

فتابع الكونت بوابيرتلو قائلاً:

– سيّدي الجنرال ، أمام ما فعله هذا الرّجل ، ألا ترون أن هناك شيئاً يعمله رؤساؤه ؟

فقال العجوز:

– أظنّ ذلك .

فقال بوابيرتلو بسرعة:

– فتفضلوا بإعطاء الأوامر .

– يتعيّن عليك أنت أن تعطيها . فأنت القبطان .

فردّ بوابيرتلو:

– ولكنك أنت الجنرال .

فنظر الشيخ إلى المدفعيّ . وقال:

– اقترب .

فتقدّم المدفعيّ خطوة .

استدار العجوز نحو الكونت بوابيرتلو ، ونزع صليب سان ـ لويس عن القبطان ، وعلقه على سترة المدفعيّ .

فصاح البحارة:

– هورّا!!

وقدم جنود البحريّة السّلاح . وإذْ أشار المسافرُ العجوز بإصبعه إلى المدفعيّ المبتهج ، فقد أضاف:

– والآن ، فليعدمْ هذا الرجل بالرصاص .

فأعقب الذهول الهتاف .

حينئذٍ ، وفي وسط صمت القبور ، رفع العجوزُ صوته قائلاً :

– إن إهمالاً قد عرّض هذه السفينة للخطر . وربما تكون آيلة إلى الغرق في هذه الساعة . وحين يكونُ المرء في البحر ، معناه أنه أمام العدو . أن سفينة تقوم برحلةٍ بحرية هي جيشٌ يخوض معركة . فالعاصفة تختبىء ، ولكنها لا تغيب . إن البحر بكامله كمين . إن حكماً بالإعدام ينزل بكل خطأ يحدث بوجود العدو ، فالشجاعة يجب أن تكافأ والإهمال يجب أن يعاقب عليه .

كانت هذه الكلمات تسقط واحدة إثر الأخرى . وببطء ولهجةٍ جادة ، وبنوعٍ من إيقاع لا رحمة فيه ، مثل ضربات بلطةٍ على سلسلة .

وإذ نظر العجوز إلى الجنود ، فقد أضاف :

– نفذوا .

أما الرجل ذو السترة التي كان يلتمع عليها صليب سان ـ لويس فقد أحنى رأسه .

نزل بحاران إلى ما بين السطحين ، بناء على إشارة من الكونت بوابيرتلو ، ثم رجعا وهما يحملان أرجوحة الكفن ، وكان يرافق البحارين مرشدُ السفينة الروحي ، والذي كان يصليّ منذ ذهابهما في مربع[1] الضباط . وأفرز الرقيب من خطّ القتال اثني عشر جندياً وقام بصفهم على نسقين . ستة في كل نسق . أما المدفعيّ ، فمن دون أن يقول كلمة ، أخذ مكانه بين الخطين . وتقدم المرشدُ الروحي حاملاً بيده صليباً . ووقف بجانبه ، فقال الرقيب :

(سرْ) – فتوجه الفصيل بخطى وئيدة نحو الأمام . وكان البحاران اللذان يحملان الكفن يتبعانهم .

---

(١) قاعة لاجتماع الضباط ومطعم ، على سفينة . (م:ز . ع) .

خيم صمت كئيب على الحراقة، وأخذت تهبّ عاصفة هوجاء من بعيد.

بعد بضع لحظات، دوى انفجارٌ في الظلمات، ومرّ ضوء، ثم سكت كلّ شيء، وسُمعَ الصوتُ الذي يحدثهُ جسم يسقط في البحر.

كان المسافر العجوز، المستندُ باستمرار إلى الصّاري الكبير، قد تكتفّ وهو يحلم.

أمّا بوابيرتلو فقد قال لفيوفيل بصوتٍ خفيض، وهو يدير نحو العجوز سبابة يده اليسرى:

– إن للفانديه زعيماً يقودها.

□ □ □

VII

من يقلع بسفينة يجربْ حظّه

ولكن ماذا سيكون مصير الحّراقة ؟

انتهى الأمر بالغيوم التي كانت تختلط بالأمواج أن انخفضت إلى درجة كبيرة بحيث لم يعد هناك أفق ، وأصبحَ البحر كأنه يلتف . فلا شيء إلاّ الضباب ، وهذا وضع يهدد بالخطر دائماً ، حتى بالنسبة لسفينة في حالة جيدة .

وكانت هناك الأمواج الصاخبة بالإضافة إلي الضباب ، كانت قد تمت الإفادة من الوقت ، وجرى تخفيف حمولة الحرّاقة بأن ألقي في البحر كلّ ما كان يمكن أن يرفع ركام الأضرار التي سببها المدفع البحري ، ومن مدافع مفككة ، وحواضن محطمة ، وأقفاص ملتوية اقتلعت مساميرّها ، وقطعٌ خشبية وحديدية مكسرة ، كان جرى فتحُ كوى السفينة ، ودُفعت الجثثُ والبقايا البشرية المغلّفة في وقاءات الخيش . على الألواح الخشبية وعلى الأمواج .

أخذ البحر يغدو غير محتمل بعد ذلك ، وليس لأن العاصفة قد أصبحت محدقة تماماً ، بل كان يبدو على العكس أنه يُسمع تناقصُ شدة العاصفة المدوية خلف الأفق ، وكانت الزوبعة تبتعد نحو الشمال ، غير أن الأمواج كانت تبقى عاليةً جداً .

وهذا ما كان يدلُّ على قاع بحرٍ سيء ، وبما أن الحراقة قد أصيبت ، فقد قلّت مقاومتها للهزات ، وكان يمكن للأمواج الكبيرة أن تكون قاضيةً عليها .

وقف غاكوال عند دفة التوجيه ، يمعن التفكير .

إن إبداء البشاشة عند سوء الطالع هو عادة القادة البحريين . أما فيوفيل الذي كان مرحَ الطّبع ، عند المصائب ، فقد دنا من غاكوال ، وقال:

– حسناً ، أيها الرّبان ، فإن العاصفة تخفق ، والرغبة في العطس لا تؤدي إليه . ولسوف نتخلص من الورطة ، ستكون الريح مؤاتية لنا ، وهذا كل ما في الأمر .

أما غاكوال الجديّ فقد أجاب:

– من معه الريح ، معه الموج .

ليس ضاحكاً، وليس حزيناً، ذلك هو البحار، فقد كان للرّدّ معنى مقلق . وبالنسبة إلى سفينة يتسربُ إليها الماء ، الحصول على الموج معناه الامتلاء سريعاً . كان غواكوال قد شدد على هذا التنبؤ بتقطب غامض لحاجيه ، فبعد كارثة المدفع والمدفعي ، ربما كان لافيوفيل قد قال كلمات مرحة وخفيفة ، في وقت أبكر مما ينبغي . إن هناك أموراً تجلب سوء الحظّ حين يكون المرء في عرض البحر . إن البحر خفيّ ، ولا يعرف المرء قطّ ماذا يخفي ، ينبغي أخذ الحذر .

شعر لافيوفيل بالحاجة إلى أن يعود إلى جدّيته ، فسأل:

– أين نحن ، أيها الرّبان؟

فأجاب الربان:

– نحن بين يديّ مشيئة الرّب .

إن الرّبان سيد السفينة ، وينبغي دوماً أن ندعه يتصرف ، وغالباً ما ينبغي أن ندعه يقول يشاء .

إضافة إلى هذا ، فإن هذا النوع من الرجال قليل الكلام ، فابتعد لافيوفيل .

كان لافيوفيل قد وجه سؤالاً إلى القائد ، فكان الأفق هو الذي رد عليه . انكشف البحر فجأة .

أما سحبُ الضباب التي كانت تنسحبُ على الأمواج فقد انجلت ، وانبسط اضطرابُ مياه البحر المعتم كلّه على مدى البصر ، تحت نورٍ خافت غسقيّ ، وهذا ما جرت مشاهدته:

كان للسماء ما يشبه غطاءٌ من الغيوم ، بيد أن الغيوم لم تعد تلمس البحر ، ففي الشرق كان يظهر بياضٌ هو شروقُ الشمس ، وفي الغرب ، كان يبهتُ بياضٌ آخرِ هو غروبُ القمر . وكان هذان البياضان يشكلان على الأفق ، وكلٌّ بمواجهة الآخر ، شريطين ضيقين من النور الباهت بين البحر المعتم والسماء القاتمة .

لقد ارتسمت على هاتين الإضاءتين قامتان سوداوان ، منتصبتان ولا تبديان حراكاً .

عند الغروب ، وعلى السماء التي كان ينيرها القمر ، كانت تبرز بوضوح ثلاثُ صخورٍ عالية ، وواقفة مثل بولفينات[1] سلتية .

وعند الشروق ، وعلى أفق الصباح الباهت ، كانت تنتصب ثمانية أشرعة مصطفة بنظام ، ومتباعدة على نحوٍ مخيف .

كانت الصخرات الثلاث مكسراً[2] خطراً: أما الأشرعة الثمانية فكانت أسطولاً . خلف الحراقة . كانت المانكييه ، وهي صخرةٌ سيئة الصيت ، وأمامها كانت المراقبةُ البحرية الفرنسية . وفي الغرب منها هوة الغرق ، وفي الشرق المذبحة ، كانت بين غرقٍ ومعركة . كان لدى الحرّاقة ، لمواجهة المكسر الخطر هيكلٌ مثقب ، وعدّة مفكّكة ، ومجموعة صوارٍ مزعزعة من أساسها . ولمواجهة المعركة ، كان لديها مدفعيةٌ قد تفكك منها واحدٌ وعشرون مدفعاً من أصل ثلاثين ، ومات أفضلُ مدفعييها .

---

(١) من اللغة البروتانية الدنيا: peulvan وكان هيغو قد زار كرنك ، أثناء رحلته الأولى إلى بروتانيا (١٨٣٤) . وقد كتب من فان ، في ١٢ آب . إلى آديل هيغو:
(أتذكرين؟ إن البولفين هو حجر قائم من مثل تلك الأحجار التي رأيناها معاً في أوتان) .

(٢) المكسر: هو نتوء صخري على سطح البحر ، شديد الخطورة إذا اصطدمت به السفن (م ز . ع) .

كان بزوغ الفجر ضعيفاً جداً، فكان المرء يرى قليلاً من العتمة أمامه. وكان يمكن لتلك الليلة أن تدوم أيضاً لفترة طويلة إلى حدّ غير قليل، لأن الغيوم خصوصاً هي التي شكلّتها، والتي كانت غيوماً عالية، وكثيفة وعميقة، ولها المظهر الصّلب، مظهر قبّة. كانت الريح التي انتهى بها الأمر لتذهب بسحبِ الضباب المنخفضة، تحوّل الحراقةَ باتجاه المانكييه.

وفي تلك الحال من الكلل المفرط والتلّف التي كانت عليها، لم تعدْ تستجيب تقريباً لدفة القيادة، بل كانت تتدحرج أكثر مما كانت تبحر، وإذْ تصفعها المياه، فقد كانت تنساق تحت تأثيرها.

كانت المانكييه. ذلك المكسر المأسوي، أكثر خشونة أيضاً في ذلك الزمن مما هي اليوم.

فبضعة أبراج من قلعة الهاوية تلك قد دكّها التقطيعُ المستمر الذي يقوم به البحر، إن المظهرَ الخارجي لهذه المكاسر يتبدل، وليس عبثاً أن تسمى الأمواج بالنصّال، فكل مدّ وجزر هو سحبةُ منشار.

أما المراقبة البحرية فقد كانت ذلك الأسطول، أسطول كانكال الذي غدا شهيراً تحت قيادة ذلك القبطان دوشيسن، والذي كان ليكينيو[1] يسميه الأب دوشين[2] كان الوضع حرجاً. وكانت الحرّاقة، دون أن تدري، خلال انفلات المدفع البحري، قد انحرفت وسارت باتجاه غرانفيل أكثر مما سارت باتجاه سان مالو. وحتى لو أنها قد تمكنت من أن تتقدم وتبحر، فإن المانكييه كانت تسدّ عليها طريق الرجوع إلى جيرسيه، وكانت الرقابة البحرية تسدّ عليها طريق الوصول إلى فرنسا.

فضلاً عن ذلك، فالعاصفة أمر ثانوي. إنما هناك مياه، كما كان يقول الربان. والبحر الذي كان يرعد تحت ريح شديدة وقعرٍ ممزق، كان وحشياً.

(١) نائب جبلي من الموربيهان. في المؤتمر الوطني.
(٢) إشارة إلى شخص شعبي باريس أطلق هيبير اسمه على صحيفة إرهابية شهيرة بعنفها.

إن البحر لا يقول قطّ ما يريده حالاً ، ففي اللجة هناك من كلّ الأشياء. وحتى المخاصمة حتى أنه يمكن القول تقريباً إن لديه نهجاً ، فهو يتقدم ويتراجع. ويقترح ويتخلىّ ، عن اقتراحه ، ويُعدّ زوبعة ، ويعدل عنها ، يعد باللجة ولا يفي بوعده ، ويهدّد الشمال ، ويضرب الجنوب. طيلة الليل ، كانت الحراقة الكليمور تسير في الضّباب ، وهي تخشى الإعصار. لقد كذب البحر نفسه للتو ، ولكن بصورة مرعبة ، فكان قد بدأ بإعداد العاصفة ، وحقق الاصطدام بالمكسر. وكان ذلك دوماً تحت شكلٍ آخر ، هو الغرق. وأخذ يضافُ إلى الهلاك على الصخور البارزة التدميرُ في المعركة. عدوّ يكمل[19] عدواً آخر.

وهتف لافيوفيل من خلال ضحكة الباسل:

غرق هنا ، ومعركة هناك. لدينا الخُماسة[1] من الجانبين.

* * *

(١) من باب السخرية ، ضربة الحظ (خمسة أرقام تخرج معاً في لعبة الحظ).

VIII

٩ = ٣٨٠

لم تعد الحراقة تقريباً إلا حطاماً.

ومن خلال الضوء الباهت المبعثر، وسواد السحب، وحركيات الأفق المشوشة، وتقطيبات الأمواج الغامضة، كانت هناك احتفاليةٌ رمسيّة. وباستثناء الريح التي كانت تهبُّ هبوباً عدائياً، كان كلّ شيء صامتاً. كانت الكارثة تخرج من اللجة بجلال. وهي تشبه تجلياً أكثر مما تشبه هجوماً. ولم يكن شيء يتحرك في الصخور، ولاشيء يتحرك في السفن. لقد كان صمتاً عظيماً غير محدد. فهل كانت هناك مواجهة مع شيء واقعي؟ كأن ذلك حلمٌ يمرّ على البحر. إن في الأساطير ما يشبه تلك الرؤى، ولقد كانت الحرّاقة تقريباً بين المكسر الشيطان، والأسطول الشبح[1].

أعطى الكونت ديبوابيرتلو أوامره همساً للافيوفيل الذي نزل إلى وحدة المدفعية، ثم أمسك القبطان منظاره وأتى ليجلس في الخلف. إلى جانب الرُّبان.

كان جهدُ غاكوال متركّزاً على إبقاء الحراقة قائمة في الماء، فقد كان يمكن لها أن تنقلب حتماً. لأنها قد أصبحت جانبياً تحت تأثير الريح والبحر.

قال القبطان:

(١) نتعرف هنا استخدام الاسم – الصفة (النعت)، وهو من الابتكارات الأصلية الخاصة بأسلوب هيغو.

– أين نحن ، أيها الربان ؟

– فوق المانكييه .

– من الجهة السيئة .

– في أيّ قعر؟

– الصخرة المصرصرة[1] .

– أيمكن أن نثبت؟

فقال الرّبان:

– الموت ممكن دوماً.

وجهّ القبطان نظارته المقربة باتجاه الغرب ، وعاين المانكييه ، ثم أدارها باتجاه الشرق ، وتأمل الأشرعة الموجودة في متناول النظر .

وتابع الربان وكأنه يتحدّث مع نفسه:

إنها المانكييه ، وتستخدم كمذبح للنورس الضّاحك[2] ، حين يذهب من هولندا ، وللزمّج الكبير ذي المعطف الأسود .

ومع ذلك ، فقد كان القبطان قد عدَّ الأشرعة .

كان هناك في الواقع ثماني سفن في حالة تشكيل صحيح ، وهي تديرُ إلى الماء واجهتها القتالية ، وكانت تُلاحَظ في الوسطَ القامةُ العاليةُ لبارجةِ ثلاثية السطح .

فسأل القبطان الربان قائلاً:

---

(١) في رواية عمال البحر (القسم الأول ، الفصل: ٣ ، ٤). يدور الحديث على المانكييه (الحصى السيئة جداً) .

(٢) نوع من النوارس يمتاز بألوانه «المبرقشة» .

- هل تعرف هذه الأشرعة؟

فأجاب غاكوال:

- بالتأكيد.

- وماهي؟

- إنها الأسطول.

- أسطول فرنسا؟

- أسطول الشيطان.

خيم الصّمت، وتابع القبطان:

- هل المراقبة البحرية كلها هنا؟

- ليس كلها.

في الثاني من نيسان، كان فالازيه في الواقع، قد أعلن في المجلس الوطنيّ، أن عشر فرقاطات وستّ بوارج حربية كبيرة كانت تجول في المانش. وقد خطرت هذه الذكرى في ذهن القبطان، فقال:

- إن الأسطول، في الحقيقة الأمر، يتألفُ من ست عشرة سفينة، وليس هناك إلا ثمان منها هنا.

وقال غاكوال:

- أما البقية فتتسكع هنالك، على طول السّاحل، وتتجسس.

وهمس القبطان وهو ينظر من خلال منظاره:

- بارجة ثلاثية السطوح، وفرقاطتان من المرتبة الأولى، وخمس من المرتبة الثانية.

فدمدم غاكوال :

– ولكني أنا أيضاً قد تجسّست عليها .

فقال القبطان :

– إنها سفن جيدة . ولقد تولّيتُ بعض الوقت قيادة كلّ هذه السفن .

وقال غاكوال:

– لقد رأيتها عن كثب . ولا أخلط بين واحدةٍ وأخرى ، فلديّ مواصفاتها في دماغي .

نقل القبطان ناظوره إلى الربان ، وقال:

– أيها الربان . هل تميز جيداً السفينة المتعددة السّطوح؟

– أجل ، ياسيدي القائد . إنها البارجة لاكوت دور[1] .

فقال القبطان:

– والتي غيروا اسمها . فقد كانت تسمى قديماً ليزيتا دوبورغونيا (ولايات بورغونيا)[2]

– إنها باخرة جديدة ، وفيها مائه وثمانية وعشرون مدفعاً .

وسحب من جيبه دفتراً صغيراً وقلم رصاص، وكتب على الدّفتر الرقم:(١٢٨) .

وواصل يقول:

– أيها الربان ، ماهي السّفينة الثانية على اليسار؟

---

(١) اسم مقاطعة فرنسية تشغل بورغونيا أكثرها ، ومن مدنها الهامة ديجون . (م:ز . ع) .

(٢) ترجمة أسماء السفن بقصد إيضاح دلالتها . (م:ز . ع) .

– إنها ليكسبير يمانتيه (المجرّبة)[1]

– إنها فرقاطةٌ من المرتبة الأولى ، وهي تحمل اثنين وخمسين مدفعاً ، وقد كانت تتسلح في بريست ، منذ شهرين .

سجل القبطان على دفتره الصغير الرقم: ٥٢ .

وتابع يقول:

– أيها الرّبان ، ما هي السفينة الثانية إلى اليسار؟

– لا درياد . (حوريةالغابات)[2]

– إنها فرقاطة من المرتبة الأولى ، أربعين مدفعاً من عيار ثمانية عشر ، وقد كانت في الهند ، ولها تاريخ عسكريّ جميل .

وكتب تحت الرقم ٥٢ الرقم ٤٠ ، ثم قال وهو يرفع رأسه:

– والآن ، إلى الميمنة .

يا سيدي القائد ، هذه جميعها فرقاطاتٌ من المرتبة الثانية ، وهناك خمس منها .

– ما هي الأولى اعتباراً من البارجة ؟

– لاريزولو . (موطّدة العزم)

–إنها تحمل اثنين وثلاثين مدفعاً من عيار ثمانية عشر ، والثانية؟

–لاريشمون

إنها تحمل التسليح ذاته ، وبعدها ؟

– لاتيه (الكافرة) ٨٣+٨٤

(١) ترجمة أسماء السفن بقصد إيضاح دلالتها . (م: ز . ع) .
(٢) محفوظات البحرية ، حالة الأسطول في آذار ، ١٧٩٣ (هامش لفيكتور هيغو) .

– اسم غير مألوف بالنسبة لمن يركب البحر ، وبعدها؟

– لا كاليبسو . (عروس بحر الأوديّسة[٨٣] الخ . .) .

– وبعدها؟

– لابرونوز (الآخذة أو القابضة)

– إنها خمس فرقاطات ، في كلّ منها اثنان وثلاثون مدفعاً .

كتب القبطان تحت الأرقام الأولى: ١٦٠ .

وقال:

– أيّها الرّبان إنك تتعرّفها جيّداً؟

فردّ غاكوال:

– وأنت ، يا سيدي القائد ، تعرفُها جيّداً ، فالتعرُّف له قيمة ، والمعرفة أفضل . كان القبطان يركزّ نظره في دفتره ويجمعُ بصوتٍ غير مسموع:

– مئة وثمانية وعشرون ، واثنان وخمسون ، وأربعون ، ومئة وستون في تلك اللحظة ، كان لافيوفيل على سطح السفينة . فصاح به القبطان:

– أيّها الفارس ، نحن أمام ثلاثمئة وثمانين مدفعاً[٢٠] .

فقال لافيوفيل:

– فليكن .

– أنت راجعٌ من التّفتيش ، يالافيوفيل : فكم هو بالتّأكيد عددُ القطعِ المدفعية الصّالحة التي لدينا لإطلاق النار؟

– تسع .

فقال بوابيرتلو بدوره:

- فليكن.

واستعاد المنظار من يديّ الرّبان، ونظر إلى الأفق.

كانت السّفن الثّمان الصّامتة والسّوداء تبدو غير متحرّكة، ولكنها كانت تكبر. كانت تقترب رويداً رويداً.

أدّى لافيوفيل التحيّة العسكريّة، وقال:

- أيّها القائد، هذا هو تقريري. لقد كنت أرتاب بهذه الحرّاقة كليمور. ومن المزعج دائماً أن تبحر فجأة على سفينة لا تعرفك أو لا تحبك. أنها سفينةٌ إنكليزية، فهي غادرة بالفرنسيين. وقد أثبت ذلك المدفعُ البحريّ الحقير. لقد قمت بمعاينة السفينة. إن مراسيها جيدة. إنها ليست مصنوعةً من الحديد المشوب[1]، وهي محددةٌ من قضبان جرى لحمها بالمطرقة المائية. أما زيزان[2] المراسي فقد كانت متينة. الحبال ممتازة، ويسهلُ قطعها، لأن طولها قانونيّ، وهو مئة وعشرين باعاً. والمؤنُ وافرةٌ. هناك ستةُ مدافع قد انتهى أمرها، ومئة وإحدى وسبعون طلقة يمكن لكلّ قطعة أن ترميها.

فهمس القبطان:

- لأنه لم يعد هناك إلاّ تسع قطع مدفعية.

ركز بوابيرتلو منظاره على الأفق. لقد كان الاقتراب البطيء للأسطول يتواصل.

لقد كان للمدافع البحرية ميزة تتمثل في أن ثلاثة رجال يكفون لتشغيلها، غير أن سيئتها هي في أن مداها البعيد أقل من مدى المدافع الميدانية وأقل دقةً، فكان من الواجب، والحالة هذه، أن يترك الأسطول ليصل إلى مدى المدفع البحريّ.

---

(١) حديد لايزال ممزوجاً بالخَبَث، وليس منقى بصورة تامة.

(٢) مطرقة كانت تستخدم لتحسين الحديد.

أعطى القبطان أوامره بصوت خفيض. وهيمن الصّمت في السفينة. ولم يقرع جرس الاستعداد القتاليّ. ولكنه نفّذ. وكانت الحرّاقة خارج المعركة ضدّ الرجال بقدر ما هي خارج الصّراع ضدّ مياه البحر. وجرت الإفادة الممكنة كلها من بقايا[*] هذه السفينة الحربية. وتمّ تكويمُ كلّ ما كان هناك من قلوس[1]، ومن حبال غليظة للتبديل، لتصليب مجموعة الصواري عند الحاجة، بالقرب من حبال الدواليب[2]، وعلى ممرّ السّفينة[3].

وجرى ترتيب مركز الجرحى. وتبعاً للأسلوب البحري المتبع آنذاك، تمّ وضعُ متاريس على سطح السفينة، وهذه ضمانةٌ ضدّ الرصاص، ولكن ليس ضدّ القنابل، وجُلبت معايرُ الرصاص، مع أن الوقت قد تأخرّ قليلاً للتحقُّق من العيارات، غير أنه لم يكن يُتوقع الكثير من الحوادث العارضة.

استلم كلٌّ بحارجعبة، ووضع في حزامه زوجاً من المسدسات وخنجراً، وجرى طيٌّ الهزازات[4]. وتسديدُ المدفعية، وهيئت رشاشُ إطلاق البنادق، ورتبت البلطاتُ والكابلاتُ، وحضّرت عنابرُ فشك المدافع ومستودعات القنابل. وفتح مستودعُ البارود. وأخذ كلٌّ رجلٍ موقعه. وكلّ ذلك من غير أن يقول كلمة، وكما في غرفةِ محتِضر، كان ذلك سريعاً وباعثاً على الغمّ.

ثم جرى تثبيتُ الحرّاقة، فقد كان فيها ستّ مراس هي: مرساةُ المراقبة الأمامية، ومرساة السحب[5] في الخلف، ومرساةُ الماء من جهة عرض البحر، ومرساةُ الجزر.

من ناحية المكاسر، والمرساة المشعبيّة[6] على الميمنة، والمرساة – الرّئيسة

---

(١) نوع من الحلقات – حبال تستخدم لتحريك دفة القيادة.
(٢) أنواع من الحبال الغليظة.
(٣) قسم من سطح السفينة العلوية، ويتيح «الانتقال» من جانب في السفينة إلى آخر.
(٤) أرجوحات معلقة لنوم البحارة.
(٥) المرساة التي تستخدم في «سحب» السفينة، أي في جرها إلى اتجاه معين، بواسطة حبال مثبتة بالمرساة.
(٦) بسبب وضعيةِ الحبال المثبّتة على المرساة «على شكل مشعب».

على الميسرة. أما المدافعُ البحريّة التّسعة التي بقيت على قيد الحياة فقد وُضعت على شكلٍ وحدةٍ مدفعيّةٍ جميعها من جهةٍ واحدة، هي جهةُ العدوّ.

وكان الأسطول، الذي لم يكن أقلّ صمتاً، قد أتمّ، هو أيضاً، مناورته، وأصبحت السّفن الثماني تؤلفّ حينذاك نصفَ دائرة تشكلّ المانكييه وترها. أمّا الكليمور التي احتجُزت في نصف الدّائرة هذا، التي قيّدتها، فضلاً عن ذلك، مراسيها الخاصّة، فقد كانت تستند إلى المكسر الصخري، أي إلى الغرق. كان ذلك أشبه ما يكون برهط ضُراة حول خنزيرٍ برّيّ لا يُحدثُ صوتاً بل يكشرُ عن أسنانه. كان يبدو من هَذه النّاحية أوتلك، أن كلّ جهةٍ تنتظرُ الأخرى. كان مدفعيّو الكليمور خلف قطعهم المدفعيّة.

وقال بوابيرتلو للافيوفيل:

– قد أحرص على البدء بإطلاق النار.

فقال لافيوفيل:

– إنها متعة الغانية.



IX

هروب شخص

لم يكن المسافر قد غادر سطحَ السفينة، وكان يراقب كلّ شيء، من غير تأثرٌ، فاقترب بوابيرتلومنه، وقال له:

– لقد أنجزت الاستعدادات. وها نحن قد أصبحنا الآن متشبثين بقبرنا، ولن نفلته. فنحن أسرى الأسطول أو المكسر الصخري. وليس لدينا خيارٌ آخر، فإما أن نسلم للعدوّ أو نغرق في المكاسر الصخرية. ويبقى لنا أن نلجأ إلى الموت. فالقتال أفضل من الغرق، وأؤثر أن أقتل بالرصاص على أن أغرق. وفيما يتعلق بالموت، أفضل النار على الماء. بيد أن الموت شأننا نحن، وليس شأنك أنت، فأنت الرجل الذي اختاره الأمراء، وعلى عاتقك مهمةٌ عظيمة، وهي إدارة حرب الفاندية، فمن دونك، ربما تضيع الملكية، فينبغي إذن أن تعيش. أما شرفنا نحن فهو في البقاء هنا، وشرفك أنت أن تخرج من هنا، ولسوف تغادر السفينة، يا سيدي الجنرال. ولسوف أعطيك رجلاً وقارباً. إن الوصول إلى الساحل ليس متعذراً بطريقٍ ملتفة. لم يطلع النهار بعد، والأمواج عالية، والبحر معتم، ولسوف تنجون، فثمة حالات يكون فيها الهربُ انتصاراً. قام العجوز بحركةٍ رزينة من رأسه، علامة على الموافقة.

فرفع الكونت دوبوابيرتلو صوته، وصاح:

– أيها الجنود والبحارة

توقفت كلُّ الحركات، ومن كل جهةٍ من جهات السفينة، استدارت الوجوه نحو القبطان. فواصل يقول:

- إن الرجل الموجود بيننا يمثل الملك، وقد عهد به إلينا، وينبغي أن نحافظ عليه، فهو ضروري لعرش فرنسا، ولسوف يكون، لعدم وجود أمير، قائد الفاندية، هذا هو توقعنا على أية حال. إنه ضابط حربي كبير. وكان من المفروض أن يبلغ شاطىء فرنسا معنا. ويجب أن يبلغه بدوننا. فإنقاذُ الرأس هو إنقاذُ كلّ شيء.

فصاحت أصوات الطاقمِ كلّها:

نعم! نعم! نعم!

وتابع القبطان يقول:

- سوف يتعرّض هو أيضاً لمخاطر جدّيّة، فبلوغُ الشّاطىء ليس سهلاً، وينبغي أن يكون القاربُ كبيراً لمجابهة مدّ البحر، وينبغي أن يكون صغيراً للإفلات من المراقبة البحرّية. فالمطلوبُ هو أن يذهب للرّسوّ في نقطةٍ معينة تكون مأمونةً، وأن تكون على الأصحّ من ناحية فوجير ومن ناحية كوتانس. ويلزمنا بحارٌ قويٌّ، يُحسنُ التجذيف والسّباحة، وأن يكون من المنطقة ويعرفُ معابرها. ولا يزال ثمّة مايكفي من العتمة حتى يتمكّن القاربُ من الابتعاد عن الحرّاقة من غير أن يلاحظه أحد. ثم أنه سوف يكون هناك دخانٌ ينجزُ مهّمة إخفائه. إن صغره سوف يساعده على الخروج من المياه الضّحلة. فحيثما يُقبضُ على الفهد، ينجو ابن عرس. فما من مخرجٍ لنا، وهناك مخرجٌ بالنسبة إليه. ولسوف يبتعد القارب بقوة المجاذيف، ولن تراه السّفن المعادية، ومن ناحيةٍ أخرى، فخلال ذلك الوقت، سوف نقوم، نحن هنا، بإلهائهم. هل نحن متّفقون على هذا؟

فصاح الطّاقم :

– نعم! نعم! نعم!

فتابع القبطان يقول:

– مامن دقيقة نضيعها ، فهل هناك رجلٌ مستعدٌ لهذه المهمة؟

خرج بحّار من بين الصّفوف في العتمة ، وقال:

– أنا .

* * *

X

هل ينجو؟

بعد بضع لحظات، كان أحدُ القوارب الصّغيرة التي نسمّيها جوجو والملحقة بخدمة القباطن بصورة خاصّة، كانت تبتعد عن السّفينة. وكان في هذا القارب رجلان: المسافر العجوز الذي كان في الخلف، والبحّار «المستعدّ» الذي كان في المقدّمة. كان اللّيلُ لا يزال معتماً جدّاً. وكان البحّار، تبعاً لتعليمات القبطان، يجذّف بقوّةٍ باتجاه المانكييه.

ولم يكن هناك، من ناحية أخرى، أيُّ مخرجٍ آخر ممكناً.

كانت قد أُلقيت في قاع القارب بعضُ المؤن هي كيسٌ من البسكويت، ولسان ثور مدّخن[٢٢] وبرميل ماء.

في اللحظة التي أبحر فيها الجوجو. انحنى لافيوفيل هازئاً أمام اللّجة، انحنى فوق سكان[١] دّفة قيادة الحرّاقة، وقال بلهجةٍ ساخرة مودّعاً القارب:

– هذا جيّد للهرب، وممتازٌ للغرق.

فقال الرّبّان:

– يا سيدي، لنكفّ عن الضحك.

---

(١) السَّكان هي: قطعةٌ خشبيةٌ تستندُ إليها دفّةُ القيادة.

جرى الابتعاد سريعاً، وأصبحت هناك بصورة عاجلة مسافةٌ جيدة بين الحرّاقة والقارب. وكانت الريحُ والموجُ متوافقة مع المجذف. وأخذ القاربُ الصّغير يهرب سريعاً، ويموج في الشفق وقد غطته تثنيات الأمواج الكبيرة.

كان هناك في البحر انتظارٌ قاتمٌ لاندري ما هو.

فجأة، وفي هذا الصمت[1] الواسع المليء بالصخب، صمت المحيط، ارتفع صوتٌ ضخّمهُ مكبرّ الصوت، وكأنه قناعٌ فولاذيّ في المأساة الإغريقية، فبدا صوتاً فائقاً للبشر تقريباً.

كان ذلك الصوت هو صوت القبطان بوابيرتلو الذي بدأ يتكلم، وقد صاح قائلاً:

- يا بحارة الملك، سمرّوا الرّاية البيضاء إلى الصاري الكبير، فلسوف نشهدُ شروقَ شمسنا الأخيرة.

وانطلقت قذيفةُ مدفع من الحراقة.

وصاح الطّاقم:

- عاش الملك! حينئذٍ، سمعت في أعماق الأفق صيحةٌ أخرى:

- عاشت الجمهورية!

وانفجر صوتٌ يشبه صوتَ ثلاثمئة صاعقةٍ في أعماق المحيط.

بدأ القتال.

وتغطى البحرُ بالدخان والنار.

ووخزت رشقاتُ الزبد التي تصنعها القنابل، أثناء سقوطها في الماء، وخزت الأمواج من كلّ ناحية.

---

(١) هل هذا التعبير هو مصدر جملة «الصخب المماثل للصمت» الشهيرة لبول ڤاليري؟

أخذت الكليمور تبصق اللهب على السفن الثمانية. وفي الوقت نفسه، كان الأسطول المتجمعُ بكامله حول الكليمور على شكل نصف دائري، يطلق النار من كافة وحداته المدفعية. اشتعل الأفق، وكأنه بركانٌ يخرج من البحر. وكانت الريحُ تقتل ذلك الأرجوان الهائل، أرجوانَ المعركة الذي كانت تظهر فيه السفن الأشباح. وفي المستوى الأول، كان هيكلُ الحرّاقة الأسود يرتسم على تلك الخلفية الحمراء.

كان المرء يميز في رأس الصاري الكبير الراية المزنبقة.

أما الرجلان اللذان كانا في القارب فقد كان ساكتين.

كانت أرضية المانكييه المثلثة، والتي هي نوعٌ من رؤوسٍ ثلاثية[1] تحت البحر، أوسع من موجات المد، والتي تبرز منها في الشمال الشرقي ستّ صخور ضخمة مصطفة على خطٍ مستقيم، والتي تبدو وكأنها سورٌ كبير متداع في هذا المكان أو ذاك.

إن المضيق بين الهضبة والمكاسر الصخرية الستة لايمكن أن يسلك إلا بالزوراق ذات المسحوب المائي الضعيف جداً. وفيما بعد المضيق، إنما يجدُ المرء البحر.

إن البحار الذي تكلّف بإنقاذ القارب قد أدخل الزورق إلى المضيق، فكان على هذا النحو يضع المانكييه بين المعركة والقارب. وقد سبح بمهارة في القناة الضيقة، متحاشياً صخور الشاطىء على الميسرة كما على الميمنة. كانت الصخور في ذلك الحين تموّه المعركة. وبدأ ضوء الأفق، وفرقعةُ القصف المدفعي المسعورة، يتضاءلان، بسبب المسافة التي كانت تتزايد، إنما كان يمكن، مع تواصل الانفجارات إدراكُ أن الحراقة كانت صامدة، وأنها كانت تريد أن تستنفد حتى الانفجار الأخير، رشقاتها المدفعية المئة والإحدى والتسعين[23].

(١) أشارة إلى اسم صقلية القديم وترينا –كريا الجزيرة ذات الرؤوس الثلاث.

بعد قليل ، ألفى القارب نفسه في مياه متحررة ، وخارج المكسر الصخري ، وخارج المعركة ، وخارج مدى القذائف .

أخذ مظهرُ البحر المتشكل يغدو أقل قتامة شيئاً فشيئاً ، واللوامعُ الغارقة فجأة في بقع سوداء صارت تتسع ، والرغوات المتشابكة تتكسرُ إلى انبثاقاتٍ ضوئية ، والبّياضات تطفو على مستويات الأمواج الوسيطة . فطلع النهار .

كان القاربُ في منجىً من العدو ، غير أن الأمر الأصعب قد تبقى أمامه ، فالقارب قد نجا من القذائف ، ولكن ليس من الغرق . كان في أعالي البحار ، هيكلاً غير ملحوظ ، لا سطح له ، ولا شراع ، أمام المحيط والإعصار ، وليس لديه وسيلة أخرى غير المجذاف ، مثل ذرةٍ تحت رحمة الجبابرة .

حينذاك ، وفي هذا المدى الهائل ، وفي تلك العزلة ، حدق الرجلُ الذي كان في مقدمة القارب بالرجل الذي كان في المؤخرة ، وهو يرفع وجهه الذي يجعله الصّباح شاحباً ، وقال له:

ـ أنا شقيق ذلك الذي أمرتَ بإعدامه بالرصاص .

* * *

الكتاب الثالث

هالمالو

I

الكلام هو كلمة الرّب

رفع العجوز رأسه ببطء.

كان الرجل الذي يكلمه في الثلاثين من عمره تقريباً. وكانت سمرةُ البحر تغطي جبينه.

كانت عيناه غريبتين، فقد كانت تلك هي نظرة البحار الثاقبة داخل حدقة الفلاح الصافية السريرة. كان يمسك المجذافين في قبضتيه باقتدار. وكانت هيئته وديعةً.

ظهر خنجرٌ في حزامه، ومسدسان ومسبحةٌ وردية.

قال العجوز:

– من أنت؟

– قلت لك ذلك للتوّ.

– وماذا تريد؟

ترك الرّجل المجاذيف، وتكتّف ثم أجاب:

– أن أقتلك.

فقال العجوز:

– كما تريد.

فرفع الرّجل صوته قائلاً:

– استعدّ.

– لأيّ شيء؟

– للموت.

وسأل العجوز:

– لماذا؟

حلّ الصمت، بدا الرجل للحظة مرتبكاً من السؤال وتابع:

– قلت لك أريد أن أقتلك.

– وأنا أسألك عن السبب؟

فأومضت عينا البحار، وقال:

– لأنك قد قتلت أخي.

فسارع العجوز إلى الرد بهدوء:

– لقد بدأتُ بإنقاذ حياته.

– هذا صحيح. لقد أنقذته أولاً ثمّ قتلته.

– ليس أنا من قتله.

– من قتله إذن؟

– خطيئته .

نظر البحار إلى العجوز ، وهو فاغُر الفم . ثم استعاد حاجباه تقطيبهما المخيف .

وقال العجوز:

– ماذا تُدعى؟

– أدعى هاًلالو . ولكنك لست بحاجةٍ إلى معرفة اسمي لكي تُقتل على يدي .

في هذه اللحظة ، أشرقت الشمس ، وسقط شعاعٌ على وجه البحار كله فأنار بشدة تلك السحنة الوحشية ، وكان العجوز يتأمله باهتمام .

كان القصف المدفعي الذي يستمر ، تشوبه الآن انقطاعاتٌ وارتجاجات احتضارية . وكان يتراخى على الأفق دخانٌ واسع . أما القاربُ الذي لم يعد المجذاف يديره ، فقد أخذ ينساق مع التيار .

أمسك البحارُ بيده اليمنى أحد مسدسات حزامه ، ومسبحته بيده اليسرى . فانتصب العجوزُ واقفاً ، وقال:

– هل تؤمن بالله؟

فأجاب البحار:

– أبانا الذي في السّموات .

ورسم إشارة الصّليب .

– هل والدتك موجودة ؟

– أجل .

ورسم ثانية إشارة الصّليب ، واستأنف يقول:

– اتفقنا . أعطيك دقيقة ، ياسيّدنا .

وصلى مسدسه .

– لماذا تدعوني بسيّدنا؟

– لأنك سيّد ، هذا واضح .

– هل لك سيّد ، أنت؟

– أجل ، وسيّد كبير . هل يعيش المرء من دون سيّد؟

– أين هو؟

– لا أعلم . لقد غادر المنطقة . ويُدعى السّيد المركيزدولانتوناك ، فيكونت فونتونيه ، وأمير بروتانيا . إنه سيد سيت – فوريه (الغابات – السبع) . أنا لم أره قطّ ، وهذا لا يمنع من أن يكون سيدي .

– وإذا رأيته ، هل تطيعه؟

– بالتأكيد . فإذا لم أطعْه ، أكنْ وثنياً إذن! إننا ندينُ بالطاعة للربّ ، ثم للملك . الذي هو كالربّ ، ثم للسيد الذي هو كالملك . ولكن الأمر ليس كل هذا ، فقد قتلت أخي ، ويجب أن أقتلك .

فرد العجوز:

– أولاً ، قتلتُ أخاك ، وقد أحسنتُ صنعاً .

فقلص البحار قبضته على مسدسه ، وقال:

– هيّا .

فقال العجوز :

- فليكن.

ثم أضاف بهدوء:

- أين الكاهن؟

فنظر إليه البحار، وقال:

- الكاهن؟

- أجل، الكاهن، لقد أعطيت أخاك كاهناً، وأنت مدينٌ لي بكاهن.

فقال البحار.

- ليس لديّ كاهن.

وتابع يقول:

- وهل لدينا كهنة في عرض البحر؟

وأخذت تُسمعُ الإنفجاراتُ المتشنجّة للقتال الذي يصبح أبعد فأبعد.

وقال العجوز:

- إن أولئك الذين يموتون هناك لهم كهنتُهم،

فهمس البّحار يقول:

- هذا صحيح، لديهم السّيد المرشد.

فتابع العجوز قائلاً:

- إنّك تُهلك نفسك، وهذا أمرٌ خطير.

خفض البّحار رأسه متفكرّاً.

واستأنف العجوز يقول:

- وبإهلاكك نفسي تهلك نفسك. اسمعْ إنّي أشفق عليك. وأنت ستفعل ما تشاء. أما أنا، فقد قمتُ بواجبي للتوّ، بإنقاذ حياة أخيك أوّلاً، ثم بانتزاعها منه. وأنا أقوم بواجبي حاليّاً بمحاولة إنقاذ روحك. فكرّ. إن الأمر عائد إليك.

فهل تسمع طلقات المدفعيّة في هذه اللحظة؟ ثمّة رجالٌ هناك يقضون، وثمّة رجال يائسون يُحتَضرون هناك، وأزواجٌ لن يروا نساءهم، وإخوة، مثلك، لن يروا أخاهم. ومن جرّاء غلطة مَنْ؟ ومن جراء غلطةِ أخيك أنت. أنت تؤمن بالله، أليس كذلك؟ حسناً، أنت تعلم أن الله يتألم في هذه اللحظة. الله يتألم من خلال ابنه المسيحيّ جدّاً، ملك فرنسا، والذي هو طفلٌ كالطفل يسوع، والذي هو في سجن برج لوتامبل. إن الرّب يتألّم من خلال كنيسته في بروتانيا، الرّبّ يتألّم من خلال كاتدرائيّاته المهانة، وأناجيله الممزّقة، ودورعبادته المنتهكة. إن الرّب يتألّم من خلال كهنته الذين اغتيلوا. ما الذي أتينا لنصنعه نحن، في هذه السّفينة التي تهلك في هذه اللحظة؟ لقد أتينا لكي ننجد الرّب. لو كان أخوك خادماً جيّداً، ولو قام بوظيفته كرجلٍ عاقلٍ وذي نفع، لما حدثت مصيبة المدفع البحري، ولما أصبحت الحرّاقة تسيرُ على غير هدىً، ولما ضلّت طريقها، ولما وقعت في هذا الأسطول المهلك، ولكنّا نبحر في هذه السّاعة إلى فرنسا، جميعاً كرجالٍ محاربين وبّحارة بواسل، سيفنا في قبضتنا، وعلمنا الأبيض منشور، وبأعدادٍ كبيرة، ومسرورين، وفرحين، ولأتينا لمساعدة فلاّحي الفاندية الشجّعان لكي ينقذوا فرنسا، وإنقاذ الملك، وإنقاذ الرّبّ. هذا ما أتينا لنفعله، وهذا ما يمكن أن نفعله. وهذا ما فعلته للتوّ، أنا الوحيد المتبقيّ. ولكنّك تعارضه. وفي هذا الصّراع، بين الكفرة والكهنة، في هذا الصّراع بين قتلةِ الملوك والملك، في هذا الصّراع بين الشيّطان والله، أنت إلى جانب الشّيطان. لقد كان أخوك هو المعاون الأوّل للشيّطان، وأنت الثّاني. لقد بدأ، وأنت تُنجز. إنك إلى جانب قتلة الملوك ضدّ العرش، أنت إلى جانب الكفرة ضدّ الكنيسة. إنك تنـزع من الرّبّ وسيلته الوحيدة. لأني لن

أكون موجوداً. أنا الذي أُمثّل الملك، ولسوف تستمّر الضّيع في الاحتراق، والعائلات في البكاء، والكهنة في النّزف، وبروتانيا في الالم، والملك في البقاء في السجّن، والمسيح في أن يكون في ضيق. ومن الذي يكون قد فعل هذا؟ أنت، فامض، أنت المسؤول عن ذلك. لقد كنتُ اعتمد عليك في ما يناقضُ هذا تماماً. وقد أخطأتُ. أجل، هذا صحيح. إنّك على حقّ، لقد قتلتُ أخاك. وكان أخوك شجاعاً، وقد كافأته، وكان مذنباً، وقد عاقبته. لقد أخلّ بواجبه، ولم أخلّ بواجبي. إن ما فعلته، سوف أفعله أيضاً. وإني أقسم بسانت آن دوري العظيمة التي تنظر إلينا. في مثل هذه الحالة، أنه مثلما أمرتُ بإطلاق النّار على أخيك، فإني آمر بإطلاق النار على ابني. والآن. أنت السّيد، أجل، وأنا أرثي لحالك. لقد كذبت على قبطانك، أنت المسيحيّ. أنت بلا إيمان، أنت، البروتاني، أنت لا شرف لك، وقد عهدوا بي إلى استقامتك، وقد قبلتَ بذلك غدراً منك. إنك تعطي موتي أولئك الذين وعدتهم بحياتي. فهل تعلم من الذي تهلكه هنا؟ إنّه أنت.

إنك تأخذ حياتي من الملك، وتعطي الشيطان أبديّتك. هيا، ارتكبْ جريمتك، هذا جيد. إنك تبيع حصّتك من الجنة بثمن رخيص. وبفضلك، سينتصر الشيّطان، وبفضلك، سوف تهوي الكنائس، وبفضلك سوف يستمّر الكافرون في إذابة الأجراس، وصناعة مدافع منها. ولسوف يرشوّن الناس بما كان يخلّص الأرواح. في هذه اللحظة التي أكلّمك فيها، فإن الجرسَ الذي قرع يوم معموديّتك يقتل والدتك ربّما. امضِ، وعاون الشيطان، ولاتتوّقف. أجل، لقد حكمت على أخيك. ولكن اَعلم هذا، إني أداة في يد الرّبّ. آه! إنك تحكم على وسائل الرّب! ولسوف تبدأ إذن في الحكم على الصّاعقة الموجودة في السّماء، أيّها الشّقيّ!

سوف تحاكَم على يدها. فاحترسْ ممّا ستفعله، وهل تعلم فقط إن كنتُ في حالة نعمة؟ كلاّ امضِ مع ذلك. إن هلاكنا كلينا هو في يدك. والمسؤول أمام الرّب سيكون أنت. إننا وحدنا ومتواجهان في الهوّة. تابعْ، وأكملْ، وأنجزْ. فأنا عجوز وأنت شاب. وأنا بلا سلاح، وأنت مسلحّ، فاقتلني.

في حين كان العجوز يقول هذه الكلمات، واقفاً، وبصوت أعلى من صخب البحر، كانت تموّجاتُ الموج تجعله يظهر في الظّلّ تارةً، وفي الضوّء تارة أخرى، وكان البّحار قد غدا كامد الوجه، وكانت تسقطُ على جبينه قطراتٌ كبيرة من العرق، وكان يرتجفُ مثل ورقة، ويقبّل مسبحته الورديّة أحياناً، وما إن انتهى العجوز من كلامه، حتى رمى مسدسه وسقط جاثياً على ركبتيه، وصاح:

– العفو، يا سيدي! اغفرْ لي. إنك تتكلّمّ كالإله الرّحيم. أنا مخطىء. وكان أخي مخطئاً. وسأفعل كلّ شيء للتكفير عن جريمته. احكم عليّ، ولتأمرْني، فسوف أمتثل.

فقال العجوز:

إني أعفو عنك.

* * *

II

ذاكرة الفلاّح تضاهي علم القبطان

لم تكن المؤن التي في القارب بلا فائدة:

فقد استغرق الهاربان ، اللّذان أُجبرا على القيام بانعطـافاتٍ طويلة ، ستَّ وثلاثين ساعة للوصول إلى السّاحل . لقد أمضيا ليلةً في البحر ، ولكن الليّل كان جميلاً ، إضافة إلي قدرٍ زائدٍ من ضوء القمر مع ذلك بالنّسبة إلى أناسٍ يسعون إلى التّواري عن الانظار .

لقد تعيّن عليهما أوّلاً الابتعادُ عن فرنسا ، ثم الاتّجاه إلى عرض البحر نحو جيرسيه .

سمعا القصفَ المدفعيّ النهائيّ للحرّاقة المصعوقة ، مثلما يسمعُ المرء الزّئيرَ الأخير للأسد الذي يقتله الصّيادون في الغابات ، ثمّ حلّ السّكون في البحر .

لقد زالت تلك الحرّاقة «الكليمور» بالطريقة ذاتها التي زالت بها « لوفانجور» . ولكن المجدِ قد تجاهلها ، فلا يكون المرء بطلاً إذا كان ضدّ بلاده .

كان هالمالو بّحاراً مدهشاً ، وهو يقوم بمعجزاتٍ في المهارة والذّكاء ، فقد كان ذلك الارتجالُ لمسارٍ من وسط المكاسر ، والأمواجِ ، ورصد العدوّ ، عملاً رائعاً ، لقد خفّ هبوبُ الرّيح وأصبح البحرُ مطواعاً . تحاشى هالمالو نتوءات

المانكييه ، ودار حول لاشوسّيه – أو – بو ، واحتمى بها لكي ينال بضع ساعاتٍ من الرّاحة في الجون الصّغير الذي تشكّل فيه ، من جهة الشمّال في فترة الجزْر ، وإذْعاد إلى النزول باتجاه الجنوب ، فقد وجد وسيلةً للإنتقال بين غرانفيل وجزر شوزيه ، من غير أن يلحظه رصدُ غرانفيل . لقد دلف إلى شرم سان – ميشل ، وهذا يُعدُّ جسارةً بسبب مجاورته لكانكال ، الذي هو مكان رسوّ المراقبة البحرّية .

في مساء اليوم الثّاني ، أي قبل غيابِ الشمّس بساعةِ تقريباً ، خلّف وراءه جبل سان ميشيل ، وأتى ليرسو على شاطىءٍ رمليّ خالٍ دائماً ، لأنّه خطر ، ويغوصُ المرء في رماله[1] .

لحسن الحظ ، كان هناك مدٌّ عال .

دفع هالمالو القارب إلى الأمام بقدر استطاعته ، وجسّ الرّمل فوجده قاسياً ، فأوقف القاربَ برمله وقفز إلى الأرض .

أما العجوز فقد تخطىّ خلفه حافّة القارب ، وتفحّص الأفق ، فقال هالمالو:

– يا سيّدي ، نحن هنا عند مصبّ الكويسنون . فهذه بوفوارعلى الميمنة ، وهويسن على الميسرة . أما قبّة الجرس التي أمامنا ، فهي أرديفون .

انحنى العجوز على القارب ، وأخذ منه قطعة من الكعك وضعها في جيبه ، وقال لهالمالو:

– خذْ الباقي .

وضع هالمالو في الكيس ما تبقىّ من اللّحم . مع كلٍّ ما تبقى من الكعك ، وحمل الكيس على كتفه . وما إن فعل هذا ، حتى قال:

– يا سيّدي ، هل ينبغي أن أقودك أو أن أتبعك؟

(١) تعيد إلى الذاكرة لوحة الغوص الشهيرة في البؤساء (القسم الخامس ، الكتاب الثالث) .

- لا هذا ولا ذاك .

فنظر هالمالو إلى العجوز مذهولاً .

وتابع العجوز يقول:

- يا هالمالو ، سوف نفترق ، إن وجودنا معاً لا يفيد في شيء. وينبغي أن نكون ألفاً . أو واحداً .

قطع كلامه ، وأخرج من جيوبه عقدةً من الحرير الأخضر ، تشبه شارة وطنيةً إلى حدٍّ كاف ، وقد طُرِّزت في وسطها زهرةُ زنبقٍ ذهبيّة ، وتابع يقول:

هل تعرف القراءة؟

كلاّ .

حسناً . إن الرّجل الذي يقرأ مزعج . وهل لك ذاكرةٌ جيّدة؟

- أجل .

- حسناً ، اسمع يا هالمالو . سوف تتجّه إلى اليمين وأنا إلى اليسار . فأمضي من جهة فوجير ، وأنت من جهة بازوج . واحتفظْ بكيسك الذي يجعلك تبدو فلاّحاً . فخبّىء أسلحتك . واقتطع لنفسك عصا من الأغصان الشائكة ، وازحف بين نباتات الشيّلم العالية . وتسلّل من وراء الأسيجة ، وتخطّ العوائق الحقلية[1] لكي تذهب عبر الحقول . لتبق على مسافة من المارّة . وتحاشَ الطرّق والجسور . ولا تدخل إلى بونتورسون . آه! سوف يكون عليك أن تجتاز نهر لوكوينون . فكيف ستجتازه ؟

- سباحة .

- حسناً . ثم أن هناك مجازة ، فهل تعلم أين هي؟

---

(١) الأسيجة التي تصنعها أغصان الشّجر .

– بين أنسيه وفيوفييل .

– حسناً . أنت فعلاً من المنطقة .

– ولكن الليلَ يحلُّ ، فأين سينامُ سيّدي؟

– أتكفّل بنفسي ، وأنت ، أين ستنام؟

– ثمة صدوع أشجار[1] وقبل أن أكون بّحاراً ، كنت فلاّحاً .

– ارمِ قبعّة البحار التي تعتمرها فقد تشي بك ، ولسوف تجد في مكانٍ ما قلنسوة ضد الرّيح .

– أوه!UN TAPABOR[2] تاپابور . تجدها في كلّ مكان . إن أوّل صيّادٍ بحريّ سيبيعني قلنسوته .

– حسناً . والآن ، اسمع . هل تعرف الغابات ؟

– كلها .

– في المنطقة كلّها ؟

– من نوار موتيه إلى لافال .

– هل تعرف أسماءها أيضاً ؟

– أعرف الغابات ، أعرف الأسماء ، أعرف كلّ شيء .

– لن تنسى شيئاً ؟

– لا شيء .

– حسناً . والآن ، انتبه . كم فرسخاً يمكنك أن تسير يوميّاً ؟

---

(١) لقد شرحت الكلمات أعلاه علي يد الرقيب رادو ، في نهاية الحلقة الأولى (غابة سودرية) . (وهي أن الصدوع فجواتٌ في الأشجار الميتة . م: ز . ع)

(٢) tapabor و Carapousse هي نوع من قلنسوة يمكن إنزال حوافها للاحتماء من الريح .

– عشرة، خمسة عشر، ثمانية عشرة، عشرين إن لزم الأمر.

– سيكون هذا لازماً. فلا تُضعْ كلمة مما سأقوله لك. ولسوف تذهب إلى غابة سان أوبان.

– بقرب لامبال؟

– أجل. وعلى تخمِ المسيل الموجود بين سان – ريول وبليد يلياك، ثمة شجرةُ كستناء ضخمة. فتتوقف هناك. ولن ترى أحداً.

– وهذا لا يمنع من أن يكون هناك أحدٌ ما. أعلم ذلك.

– فتنادي، هل تحسن المناداة؟

نفخ هالمالو وجنتيه، واستدار إلى ناحية البحر، فسُمِعت صرخةُ هو – هو البوم.

يخيّل للمرء أن ذلك كان يأتي من الأعماق الليليّة، أنه مُحاكٍ للصّرخة ومشؤوم.

فقال العجوز:

– حسن. لقد توصّلت إلى ذلك.

ومدّ إلى هالمالو عقدة الحرير الأخضر.

– هذه عقدة قيادتي. خذْها. ومن المهم ألا يعرف أحدٌ اسمي بعد. غير ان هذه العقدة تكفي. إن زهرة الزّنبق قد طرّزتها السّيدة الملكيّة[1] في سجن لوتامبل.

جثا هالمالو بإحدى ركبتيه إلى الأرض. واستلم بإرتعاش العقدة الزّنبقيّة، وقرّب منها شفتيه، ثم سأل، وهو يتوقّف وكأنه مصعوقٌ من تلك القبلة:

---

(١) ابنة لويس السادس عشر.

– هل يمكنني هذا؟

– أجل ، بما أنك تقبّل الصّليب .

فقبّل هالمالو الزّهرة الزنبقيّة .

قال له العجوز:

– انهض .

نهض هالمالو ووضع العقدة في صدره .

تابع العجوز يقول:

– اسمعْ هذا جيّداً . إليك الأمر: انتفضوا ، ولا تعفوا عن أحد . إذن ، فعلى تخوم غابة سان أوبان ، تطلق النّداء . وتطلقُه ثلاث مرّات . وفي المرّة الثالثة ، سترى رجلاً يخرج من الأرض .

– من حفرةٍ تحت الأشجار . أعلم هذا .

– هذا الرّجل ، هو بلانشونو . والذي يُدعى أيضاً كوردوروا (قلب الملك) . سوف تُريه هذه العقدة ، ولسوف يفهم . ثمّ تذهب بعد ذلك ، عبر الدّروب التي تعثر عليها ، إلى غابة أستيييه ، ولسوف تجد فيها رجلاً رجلاه قفداوان يُكنّى بموسكوتون وهو لا يرحم أحداً . سوف تقولُ له إني أحبّه . وأن يحرّك كلَّ الخورنيّات . ثم تذهب إلى حرش كويسبون الذي يقع على بعدِ فرسخٍ من بلوويرميل . تطلق نداء البوم ، فيخرج رجلٌ من حفرة ، إنه السّيد تووّو ، قهرمان (وكيل الاقطاعي) بلوويرميل والذي كان مما يدعى بالجمعية التأسيسيّة ، ولكن من الجهة الحسنة . فتقول له بأن يسلحّ قصرِ كويسبون الذي هو للمركيز دوغير ، المهاجر ؛ فالوديان والغابات الصغيرة ، والأرض غير المستوية هي موضعٌ جيد . إن السّيد تويو هو رجلٌ مستقيم وذو نباهة .

ثم تذهب إلى سانت أوين – ليه – تروا ، وتتكلّم مع جان شوان[1] الذي هو في نظري الزّعيم الحقيقيّ . ثم تذهب إلى غابة فيل – أنغلوز ، وترى فيه غيتير الذي ندعوه سان مارتان ، وتقول له أن يراقب شخصاً اسمه كورمينيل والذي هو صهر غوبيل دوبريفيلن العجوز ، والذي يقود يعقوبيّة أرجانتان . احفظ كلّ شيء جيّداً . فأنا لا أكتب شيئاً ، لأنّه لاينبغي أن أكتب شيئاً . فقد كتب لاروّاري قائمة ، وأضاع ذلك كلَّ شيء . ثم تذهبُ إلى غابة روجوفو حيث ميليت الذي يقفز فوق الوديان مثبّتاً قدميه على عصاً طويلة .

– هذا يسمىّ . Une Ferte

– هل تُحسن استخدامها؟

– لاأكون إذن بروتانياً ولا أكون إذن فلاّحاً ، إذا لم أستخدمها . زانة الإجتياز ، هي صديقتنا . إنها تضخمّ سواعدنا ، وتطيل ارجلنا .

– أي أنها تصغّر العدوّ وتقصّر الطريق . إنها آلة جيّدة .

– ذات مرّة بزانةِ الاجتياز التي لي ، قاومتُ ثلاثة جباةٍ لضريبة الملح[24] وكانوا يحملون سيوفاً .

– ومتى كان ذلك؟

– منذ عشرة أعوام .

---

(١) أثارت هذه الشخصيةُ بصورة خاصة اهتمام فيكتور هيغو . وهو غالباً ما يذكرها في عام ٩٣ . وكان قد احتفظ لديه بعدد كبير من المعلومات التي قدمتها الرسائل حول أصل حركة الشوّان لدوشومان – ديسيبو ، التي صنعت منه ، كما ذكرنا ، بطل قصيدة هي: جان شوان (في أسطورة القرون في ١٨٧٧ ، الفصل ٢١ ، الزمن الحاضر) . إن الفانديّ ينجز فيها عملا أريحياً ليس منقطوع الصلة بمأثرة لانتوناك الذي ينقذ الأطفال . فلكي يحمي امرأة ، تائهة في عز المعركة ، يظهر نفسه أمام طلقات الجمهوريين ، ويهتفُ واقفاً – أنا المدعو جان شوان!
وحين يرى أن المرأة قد أصبحت منذ ذلك الحين بعيدة عن الخطر ،
يهمس جان شوان: حسناً !
ويسقط ميتاً .

– في عهد الملك؟

– أجل .

– لقد قاتلتَ في عهد الملك إذن؟

– أجل .

– ضدّ من ؟

– الحقيقة ، لاأعرف . كنت مهرّباً للملح .

– حسناً .

– كانوا يسمّون ذلك القتالَ ضدَّ ضرائب الملح . فضرائبُ الملح . هل هي نفسُها الملك؟

– نعم ولا . ولكن ليس من الضّروري أن تفهم هذا .

– أطلبُ الصّفح من سيدي ، لأنني وجهت سؤالاً لسيّدي .

– لنواصل . هل تعرف لاتورغ ؟

– إن كنت أعرفُ لاتورغ . إني منها .

– كيف؟

– أجل ، بما أنني من بارينييه[1]

– فعلاً . لاتورغ تجاور بارينييه .

– إن كنت أعرف لاتورغ ! القُصير الضخم المستدير الذي هو قصر عائلة سارتي! هناك بابٌ ضخم حديديّ يفصل البناء الجديد عن البناء القديم الذي لايمكن كسرُه بالمدفع . ففي البناء الجديد! إنما نجد الكتاب الشهير عن سان

(١) على بعد ١٠ كم من فوجير .

بارتيلمي الذي أتينا لنراه بدافع الفضول. هناك ضفادع في العشب. ولقد لعبت مع هذه الضفادع وأنا طفلٌ صغير. والمعبر السّردابي! إني أعرفه. ربما لايكون هناك من يعرفه أكثر مني.

- أيّ معبرٍ سردابيّ؟ لا أعرف ماذا تعني.

- كان ذلك قديماً. في الزّمن الماضي، حين كان لاتورغ محاصراً. وكان بإمكان الناس بداخله أن يهربوا إلى الخارج مروراً بمعبرٍ تحت الأرض ويؤدّي إلى الغابة.

- فعلاً، هناك معبر سردابيّ من هذا النّوع في قصر جوبيلبير، وفي قصر لاهينوديه، وفي برج شامبيبون، ولكن ليس هناك شيء مماثل في لاتورغ.

- حقاً ياسيّدي. إني لاأعرف هذه المعابر التي يتكلمّ عليها سيّدي. ولاأعرف إلاّ معبر لاتورغ، لأني من المنطقة، وأيضاً مامن أحد تقريباً يعرف هذا المعبر غيري. لم يكن أحدٌ يتحدّث عنه. كان ذلك ممنوعاً، لأن هذا المعبر قد اسُتخدم في زمن حروب السّيد دوروهان. وكان والدي يعرف السّر، وقد أراني إياه. إني أعرف سرَّ الدّخول وسرّ الخروج. فإذا ماكنت في الغابة، بإمكاني الذّهاب إلى البرج. وإذا ماكنت في البرج، يمكنني الذّهاب إلى الغابة، دون أن يراني أحد. وحين يدخل الأعداء، لايعود هناك أحد. هذا ماهو عليه لاتورغ. آه! إني أعرفه.

مكث العجوز صامتاً للحظةٍ من الزّمن.

- إنك مخطىء بالطبع، فلو كان هناك سرّ كهذا لعرفتُه،

- ياسيّدي، أنني متأكدّ. وهناك حجرٌ يدور.

- هكذا إذن! أنتم الفلاحين، أنتم تؤمنون بالحجارة التي تدور، وبالحجارة التي تغني، وبالحجارة التي تمضي لتشرب ليلاً من السّاقية المجاورة. ركام من الحكايات.

– ولكن ، بما أني جعلته يدور ، فالحجر . .

– كما سمعه آخرون يغني ، أيّها الرّفيق . إن لاتورغ حصنٌ أماميّ مأمونٌ وقويّ ، ويسهلُ الدّفاع عنه ، غير أن الذي يعتمد على مخرجٍ سردابيّ لكي ينجو يكون ساذجاً .

– ولكن ، ياسيّدي . . . .

هزّ العجوز كتفيه وقال:

– لانضيعنّ الوقت ، ولنتحدثْ عن مهامّنا .

وضعت هذه النّبرة الحاسمة حدّاً لإصرار هالماهو:

وتابع العجوز يقول :

– لنواصل . اسمع . سوف تذهب من روجوفو إلى غابة مونشيفرييه والتي يمكث فيها بينيديسيتيه وهو قائد الاثني عشر (لي – دوز) . وهو أيضاً جيد . والذي يتلو صلاة تبركته في حين يطلق النّار على الناس بالقربينة ، ففي الحرب ، مامن حساسيةٍ زائفة . ومن مونشيفرييه ، تذهب إلى . . .

وتوقفّ وهو يقول:

– لقد نسيت النقود .

أخذ من جيبه صرّة نقود ومحفظة ، ووضعهما بين يدي هالمالو .

– هذه ثلاثون ألف فرنكاً في هذه المحفظة على شكل أوراق نقديّة ، ماتعادل ثلاث ليرات وعشرة قروش . لابدّ أن أقول لك إن الأوراق النقديّة مزيّفة ، ولكن الأوراق الحقيقية تعادلها بالضّبط . وهذه ، في هذه الصّرة ، انتبه ، مئة لويسيّة ذهبيّة . إني أعطيك كلّ مالديّ . لم أعد بحاجة إلى شيء هنا . فضلاً عن أنّه من الأفضل ألاّ يمكن إيجادُ نقودٍ معي . أكرّر . أنت تذهب من مونشيفرييه إلى أنتران حيث ترى السّيد دوفروتّيه ، ومن أنتران إلى لاجوبيلير ،

حيث ترى السّيد دوروشكوت ، ومن لاجويلليير إلى نواريو حيث ترى رئيس الدّير بودوان . هل ستتذكرّ كلّ هذا؟

– كما أتذكرّ أبانا .

– سترى السّيد ديبوا – غي في سان – بريس – أن – كوغل ، والسّيد دوتوربان ، في موران والتي هي دسكرةٌ محصّنة ، والأمير دوتالمون في شاتوغونتييه .

– هل سيكلمّني أمير؟

– بما أني أكلّمك .

فنـزع هالمالو قبعّته .

– سوف يستقبلك الجميع استقبالاً جيّداً حين يرون هذه الزهرة الزنبقية ، زهرة السّيدة . ولاتنسَ أنه يتعيّن عليك الذّهاب إلى مناطق فيها جبليّون وجراء غليظة الأرجل[1] فتتخفّى . وهذا أمرٌ سهل ، فهؤلاء الجمهوريّون أغبياء إلى درجة أن المرء بلباس أزرق ، وقبّعة مثلّثة الزّوايا ، وشعار مثلث الألوان ، يمكنه المرور إلى أيّ مكان . فلم تعدْ هناكَ فيالقَ ، ولم تعد هناكَ أزياء موحّدة ، وليس للوحدات أرقام ، وكلّ إنسانٍ يرتدي السّمْل الذي يشاء ، وتذهب إلى سان - ميرفيه ، وترى فيه غولييه المدّعو غران- پيير . وتذهب إلى مكان إقامة بارنيه حيث يقيم الرّجال ذو الوجوه التي اسودّت . إنهم يضعون حصى في بنادقهم وتذخيراً مضاعفاً من البارود لكي يُحدثوا صوتاً أعلى . وهم يحسنون في ذلك . ولكن قلْ لهم على الخصوص أن يقتلوا ، وأن يقتلوا ، وأن يقتلوا . وتذهب إلى معسكر لافاش- نوار الذي يقع على مرتفع من الأرض ، في وسط غابةِ دولاشارني ، ثم إلى معسكر دولافوان ، ثم إلى المعسكر الأخضر(فير) ، ثم إلى معسكر دي فورمي . وتذهب إلى غران – بورداج والذي يسمّونه أيضاً لو– أو– دي– بريه[25] ، والتي تسكنه أرملةٌ قد تزوّج تريتون ، المدعو بالإنكليزي ، ابنتها ،

(١) اسم يطلقه متمردو الشوان على الجمهوريين .

أما غران – بورداج فهو في خورنية كولين. وتزور إيبينو – لو – شيفروي، وسيليّه – غليوم، وباران، وكلّ الرّجال الموجودين في كلّ الغابات. ويكون لك أصدقاء وترسلهم إلى تخوم المين الأعلى والأسفل، وترى جان تريتون في خورنيّة فيج، وسان – ريغريه في بينيون، وشامبور في بونشان، والإخوة كوربان في ميزونسيل ولوبوتي – سان – بور، في سان – جان – سير – أيف.

وهو نفسه الذي يُدعى بوردوازو. وبعد أن تفعل كلّ ذلك وما إن تعمّم الشعار تمرّدوا، ولاتعفوا عن أحد، في كلّ مكان، حتى تلتحق بالجيش الكبير، الجيش الكاثوليكي والملكي حيث يكون موجوداً. وترى السّادة ديلبيه ودلوسكور ودولاروشكي كلان، والقادة الذين يعيشون حينذاك.. وتريهم عقدة قيادتي. فهم يعرفون ماهي: أنت لست أكثر من بحّار، ولكن كاتلينوليس أكثر من سائق عجلة، ولسوف تقول لهم من طرفي مايلي: لقد حان الوقتُ للقيام بالحربين معاً، الحرب الكبيرة الصّغيرة[1].

فالحربُ الكبيرةُ تحدث صخباً أكبر، والحربُ الصّغيرة تحقّقُ عملاً أكبر. إن الفاندية جيدة، وتمرّد الشّوان أسوأ. وفي الحرب الأهليّة، الحرب الأسوأ هي الأفضل. وجودة حربٍ مايُحكمُ عليها من خلال كميّةِ الأذى الذي تحدثه.

وتوقف عن الكلام، ثم قال:

ياهالمالو، إني أقول لك كلّ هذا، ولكنك تدركُ الأمور، فقد وثقت بك حين رأيتك تقود القارب. إنك لاتفهم الهندسة، وتقوم بحركاتٍ في البحر مدهشة، إن من يحسنُ قيادةَ قاربٍ يمكنه إن يكون مرشداً لانتفاضة، وأؤكّد، بناءً على الطرّيقة التي أدرت بها مغامرة البحر أنك ستتدبّر أمرك جيداً في كلّ مهمّاتك. أكرّر قولي. ستقول إذن للقادة ذلك تقريباً كما تستطيع، وسيكون

(١) اتخذت الفاندية تاريخياً هذا المظهر المضاعف؛ فقد حاول المتمردون أولاً القيام بعمليات ذات حجم كبير (الزحف على نانت وغرافيل، وعبور اللوار). وقد أنهت كوارث كانون الأول ١٧٩٣ عملياً تلك العمليات الستراتيجية. وانطلاقاً من هذه اللحظة وحتى تهدئة عام ١٧٩٥ حدثت «الحربُ الصغيرة» التي يحدّد لانتوناك تاكتيكها بدقّة.

هذا جيّداً. إني أفضّل حربَ الغابات على حرب السّهول، فأنا لست حريصاً على أن أصفّ مئةَ ألفِ فلاّحٍ تحت قذائف الجنود الزّرق وتحت مدفعيّة السيد كارنو. وقبل مرور شهرٍ، أريد أن يكون لديّ خمسمئة ألف قاتلٍ كامنٍ في الغابات. إن الجيش الجمهوري هو طريدتي. فالاصطياد السّري هو خوض الحرب. إني مخطِّطُ الأدغال الشّائكة. حسناً. هذه كلمة أيضاً لن تفهمها، والأمرُسيّان، فلّسوف تفهم مايلي: لاعفو عن أحد! وكمائنُ في كلّ مكان! أريد أن أقوم بهجماتٍ على طريقة الشّوان أكثر مما أقوم بها على طريقة الفاندية. ولسوف تضيف أن الانكليز معنا. ولنجعل الجمهورية بين نارين، فأوروبا تساعدنا، ولننتهِ من الثوّرة. إن الملوك يشنّون عليها حربَ الممالك، فلنشنّ عليها حرب الخورنيّات. ستقول هذا. هل فهمت؟

– أجل، يجب أن نخرّب كلّ شيء.

– هذا هو الأمر.

– وما من عفو.

– عن أيّ شخص، هذا هو الأمر.

– وأن أذهب إلى كلّ مكان.

– واحترس. لأنه من السّهل في هذه المنطقة أن يموت المرء.

– الموت. هذا لايعنيني، فمن يقوم بخطوته الأولى ربّما يستهلك حذاءه الأخير.

– أنت مقدام.

– وإذا ماسُئلت عن اسم سيّدي؟

– لاينبغي معرفته حتى الآن. ستقولُ إنك لاتعرفه، وسيكون ذلك هو الحقيقة.

– وأين سألتقي سيّدي ثانية؟

– حيث أكون .

– وكيف أعرف ذلك؟

– لأن كلّ الناس سيعرفونه . فقبل مرور ثمانية أيام سوف يتحدّثون عنّي ، وسوف أقدمّ أمثلة ، فأثأر للملك وللديّن ، وسوف تتحقّق فعلاً من أنهم عني إنّما يتحدّثون .

– أفهم هذا .

– لاتنسَ شيئاً .

– كن مطمئناً .

– امض الآن . وليرشدْك الرّب . اذهبْ .

– سوف أفعل كلَّ ماقلته لي . سأمضي ، سأتكلّم ، وسأطيع ، وسآمر .

– حسناً .

– وإن نجحت . . . .

– سوف أجعلك فارس سان ـ لويس .

– مثل أخي ، وإذا لم أنجحْ ، تأمر بقتلي بالرّصاص .

– مثل أخيك .

– اتفقنا ، ياسيّدي .

خفض العجوزُ رأسه وبدا أنه يغرق في تفكرٌ شاقّ . وحين رفع عينيه ، كان بمفرده ، ولم يعدْ هالمالو سوى نقطة سوداء غارقةً في الأفق .

كانت الشمس قد غابت للتوّ .

وأخذت طيورُ زمج الماء والنّوارس ذات البرنس تؤوب .

فالبحر هو الخارج .

كان المرء يحسّ في الفضاء ذلك النوّع من القلق الذي يسبق الليل ، وأخذت ضفادع الشجر تنقّ ، والدجاج الأخرس يطيرُ من الغدران وهو يصفر ، وكانت القبّرات وطيور الغداف وزرازير الكاربان ، وغربان القيظ تحدث صخبها المسائيّ ، وتنادي طيور الشاطىء بعضها بعضاً ، ولكن ما من صوت بشري ، فقد كانت العزلةُ عميقة ، ومامن شراعٍ في الجون ، وما من فلاحٍ في الرّيف . وعلى مدى النظر كان هناك امتداد مقفر . وكانت ترتعشُ أشواكُ الرّمال الكبيرة . وكانت سماءُ الشّفق البيضاء تُلقي على الشّاطىء الرّملي ضوءاً واسعاً كابياً ، وفي البعيدَ تشبه مستنقعاتُ السّهل القاتم صفائح القصدير الموضوعة بصورةٍ مستوية على الثرى ، وكانت الرّيح تهبّ من عرض البحر .

* * *

الكتاب الرّابع

تيلمارش

I

أعلى الكثيب

انتظر العجوز حتى توارى هالمالو، ثم شدّ معطفه البحريّ حول جسمه، وبدأ يسير. كان يمشي بخطا بطيئة وهو يفكرّ. وأخذ يتجّه نحو هويسن، في حين كان هالمالو يمضي باتجاه بوفوار.

ووراءه كان ينتصبُ، مثلَ مثلثٍ هائلٍ أسود، وبكاتدرائيّته التي تُتوّجُه، ودرع حصنه، وببرجيه الضخّمين من الشّرق، المستدير منهما، والمرّبع واللذين يعينان الجبل على حمل ثقل الكنيسة والقرية، كان ينتصبُ جبل سان – ميشيل الذي هو بالنسبة إلى البحر مثلما هو خوفو بالنسبة للصحّراء[1] إن الرّمال المتحرّكة رمال جون سان – ميشيل تحرّك كثبانها من مكانها بصورةٍ غير محسوسة. وكان في ذلك العهد ثمة كثيب عالٍ جداً، بين هويسن وأرديفون. وقد تلاشى الآن. وهذا الكثيبُ الذي سوّاه انقلابٌ ربيعيّ، يتصّف بشيء نادر هو قدمُه،

(١) لقد تحدثنا عن الانطباع الذي كانت قد تركته زيارة مون(جبل) سان – ميشيل في عام ١٨٣٦ لدى فيكتور هيغو. وقد فرضت المقارنة مع الإهرام الكبير نفسها على خياله حالاً، ولسوف يوردها ثانية في قصيدته: رياح الفكر الأربعة (الكتاب الغنائي، ٤، بقرب أفرانش): كان سان – ميشل ينبثق، وحده على المياه المريرة، مثل خوفو الغرب، إهراماً للبحار.

وبأنه يحمل في قمّته حجراً ألفيّ السّنين ، ومشيّداً في القرن الثاني عشر ، تخليداً للمجمع الذي عُقِد في أفرانش بين قتلة القديس توما دو كانتوربيري[1].

ومن أعلى ذلك الكثيب ، كانت المنطقة كلها تنكشفُ أمام المرء ، ويمكنه أن يتوجّه فيها.

سار العجوز نحو ذلك الكثيب ، وصعد إليه.

حين أصبح على القمّة ، استند إلى الحجر الألفيّ ، وجلس على أحد تخومه الأربعة التي كانت تحدّد زواياه ، وأخذ يعاين ذلك النّوع من الخارطة الجغرافيّة الذي كان تحت قدميه. كان يبدو أنه يبحث عن طريقٍ في بلدٍ يعرفه مع هذا. وفي ذلك المنظر الواسع ، المشوّش بسبب الشّفق ، لم يكن هناك شيء محدّد إلاّ الأفق الأسود ، في السّماء البيضاء.

كانت تُلَحظُ فيه مجموعاتٌ من سطوحِ الدّساكر والقرى الإحدى عشرة ، ويُميّز فيه على مسافة بضعة فراسخ كلّ قباب أجراس السّاحل التي هي جدّ عالية لكيْ تستخدم عند الحاجة كنقاط استدلال للناس الذين يركبون البحر.

بعد بضع ثوان ، بدا العجوز أنه قد وجد في هذا الضّوء الخافت ما كان يبحث عنه.

وتوقّف بصره عند أرضٍ مسوّرة بالأشجار ، والجدران ، وما تُسقف به السّطوح المرئية تقريباً في وسط السّهل والغابات ، والتي كانت إكارة. وهزّ رأسه هزّةً تدلّ على رضى رجل يقول في نفسه ذهنياً: إنّه هنا ، وأخذ يرسم بإصبعه في المكان مخططاً لمسارٍ عبر الأسيجه الشّائكة والأراضي المزروعة. ومن وقت لوقت ، كان يتفحّص شيئاً لا شكل له ، وقلّما هو واضح ، يتحرّك فوق السّطح الرئيسيّ للإكارة ، وكان يبدو أنه يتساءل: ماهذا؟ لقد كان ذلك شيئاً لالونَ له ومشوّشاً بسبب تلك السّاعة من النهار ، لم يكن دوّارة هواء ، إذْ كان يخفق ، ولم يكن هناك أيّ مسوّغ لكي يكون علماً.

---

(١) إشارة إلى «جريمة قتل في الكاتدرائية» لتوماس بيكيت ، في ٢٩ كانون الأول: ١١٧٠.

كان متعباً ، وقد بقي عمداً جالساً على ذلك التخّم الذي كان فيه ، وانساق إلى ذلك النّوع من النسيان الغامض الذي تعطيه أوّلُ دقيقةٍ من الرّاحة الناسَ المتعبين .

ثمّة فترةٌ من فتراتِ النّهار يمكن أن ندعوها غيابَ الضّجيج ، إنّها فترةُ الصّفاء ، وفترةُ المساء . وكان يعيش تلك الفترة ، وهو يستمتع بها ، كان ينظر ، ويصغي ، ولأي شيء؟ للسّكينة . إن المخيفين أنفسهم لديهم لحظة كآبة . وبغتة ، غدا ذلك الهدوء غير معكرّ ، بل متزايداً بسبب الأصوات التي كانت تمّر ، إنها أصواتُ نساء وأطفال . فهناك أحياناً في الظلّ ضروبٌ من ذلك الضّجيج الفرح غيرالمتوقعّ . ولم تكن ترى ، بسب أشواك الغابات ، تلك الزّمرة التي تصدر عنها الأصوات ، بيد أن هذه الزّمرة التي كانت تسير في أسفل الكثيب ، كانت تمضي إلى السّهل والغابة . كانت تلك الأصواتُ تصعد واضحةً وطريّة وصولاً إلى العجوزِ الغارق في التفكرّ . كانت قريبةً جداً بحيث لم يُضِعْ شيئاً منها .

كان صوتُ امرأة يقول :

– لنسرع ، يالافليشارد . أمن هنا ؟

– لا ، من هناك ،

وكان الحوار يتواصل بين الصّوتين ، العالي منهما والآخر الخجول .

– ماذا تدعى هذه الإكارة التي نقطنها الآن؟

– ليرب – أن – بيل .

– ألا زلنا بعيدين؟

– على بعد ربع ساعة .

– فلنسرع في تناول الحساء .

– الحقيقة أننا قد تأخّرنا .

– يجب أن نسرع . ولكن صغارنا متعبون . ولسنا إلاّ امرأتين . ولا نستطيع أن نحمل الأطفال الثلاثة . ثم أنك تحملين واحداً ، أنت ، يالافليشارد . إنه رصاص حقيقيّ . لقد فطمتها ، هذه الشرّهة ، ولكنك لاتزالين تحملينها . يا لها من عادة سيّئة . فاجعلي هذه تمشي . آه ! تبّاً ، سوف يبرد الحساء .

– آه ! ياله من حذاء جيّد هذا الذي أعطيتني إياه . وكأنّه قد صُنع لي .

– هذا أفضل من أن يسير المرء حافي القوائم .

– أسرع إذن ، يارينيه – جان .

– ومع ذلك فهو الذي أخرّنا . يجب أن يتكلّم مع كلّ الفلاّحات الصّغيرات اللواتي نلتقيهن . هذا يصنع منه رجلاً .

– أيتها السّيدة . إنه لم يبلغ الخامسة بعد .

– قلْ إذن ، يارينيه – جان . لماذا تحدّثت مع تلك الصّغيرة في القرية؟

فأجاب صوتُ طفل وكأنه صوت صبيّ :

–لأنها واحدة أعرفها .

فتابعت المرأة:

– وكيف تعرفها؟

فأجاب الصّبي الصّغير:

– نعم ، لأنّها أعطتني حيوانات هذا الصّباح .

فهتفت المرأة:

– إنه أمرٌ مدهش! لسنا في المنطقة إلاّ منذ ثلاثة أيّام ، وهذا الصّبي بحجم قبضة اليد ، وقد أصبح لديه حبيبة!

ابتعدت الأصوات ، وتوقفت كلُّ ضجّة.

* * *

II

Aures habet, et non audiet [1]

ظلّ العجوزُ بلا حراك. لم يكن يفكرّ، وبصعوبة كان يحلم. كان كلُّ شيء حوله صفاءً، وتهويماً، وثقة، وعزلة، وكان قد تقدّم النهار أيضاً على الكثيب، غير أنه قد حلّ الليل في السّهل تقريباً، وهبط تماماً في الغابات. كان القمر يصعد في الشرق، وبضعُ نجوم تثقب الأزرق الباهت في سمت السّماء. كان هذا الرّجل يغرق في وداعة اللاّنهاية العصّية على الوصف، مع أنه مفعمٌ بانشغالات الذّهن العنيفة. كان يحسّ بذلك الفجر الغامض والرّجاء يصعد في نفسه، إذا كانت كلمة رجاء يمكن أن تنطبق على توّقعات الحرب الأهلية. حاليّاً، كان يبدو له أنه حين خرج من ذلك البحر الذي كان لتوّه بلا رحمة، وحين وطيء الأرض أن كلَّ خطرٍ قد تلاشى، لم يكن أحدٌ يعرف اسمه، وكان وحيداً. وضائعاً بالنسبة للعدو، من دون أثر خلفه، لأن سطحَ البحر لايحتفظ بشيء، كان مختبئاً، ومجهولاً، ولم يكن حتى مشتبهاً به، كان يحسّ بتهدئةٍ علياً لا يدري ما هي. وبعد قليل، كان يمكن أن يغفو.

بالنسبة لذلك الرجل الذي هو فريسةٌ، في داخله كما في خارجه للكثير من الصّخب، إن ما كان يضفي على تلك الفترة التي يجتازها، سحراً غريباً، إنّما هو، على الأرض، كما في السّماء، سكونٌ عميق.

(١) وصل إلى أذنه، ولم يسمعه. (باللاتينية: م: ز.ع).

لم يكن يُسمع إلاّ الرّيح التي تأتي من البحر ، يبدو أن الرّيح جهيرٌ خفيض متواصل ، وتكفّ تقريباً عن أن تكون ضجّة ، لشدّة ما تغدو عادة .

فجأة ، انتصب واقفاً .

لقد استيقظ انتباهه فجأةً للتوّ ، وتأمّل الأفق ، وكان شيءٌ ما يعطي نظرته ثباتاً خاصّاً .

إن ما كان ينظر إليه ، كان قبّة جرس كورموريه التي كانت أمامه في أعماق السّهل . ولا ندري أيّ شيء غير اعتيادي كان يجري في قبة الجرس . تلك في الحقيقة .

كان شبحُ قبة الجرس تلك يبرز بوضوح ، وكان يُرى البرج والأهرام . وقفص الجرس ، المربّع ، والمفرّغ . والذي ليس له مصدّ للريح ، وهو مفتوح على الأنظار من الجهات الأربع ، وهذا ما يعدُّ جرياً على دُرْجةِ قباب الأجراس البروتانية .

والحال ، فإن ذلك القفص كان يتبدّى مفتوحاً ومغلقاً بالتّناوب ، على فترات متساوية ، وكانت نافذته العليا ترتسم بيضاء تماماً ، ثم سوداء تماماً وكانت السّماء ترى من خلالها ، ثم لا تعودُ ترى ، كان فيها إضاءة ثم احتجاب ، ويتعاقب الفتحُ والإغلاق من لحظةٍ إلى أخرى بانتظام المطرقة على السّندان .

كانت قبةُ الجرس هذه أمام العجوز ، على مسافة فرسخين تقريباً ، فنظر على يمينه إلى قبة جرس باغير – بيكان ، والتي هي على خطّ مستقيم على الأفق ، فقد كان قفص جرس تانيس ينفتح وينغلق مثل قفص كورموريه .

نظر على يساره إلى قبّة جرس تانيس ، فقد كان قفصُ قبّة تانيس ينفتح وينغلق مثل قفص باغير – بيكان .

نظر إلى كافّة قباب الأجراس في الأفق ، الواحدة بعد الأخرى ، على يساره ، قباب أجراس كورتيك ، ودوبريسيه ، وكرولون ، ولاكروا أفرانشان ،

وعلى يمينه، قباب أجراس را - سير -كوينون، ودومورديه ودي - با، وبمواجهته، قبّة جرس بونتورسون. كان قفص كلّ قباب الأجراس هذه أسود وأبيض بصورةٍ متناوبة.

ماذا كان يعني هذا؟

كان هذا يعني أن كلّ الأجراس تهتزّ.

ولكي تظهر وتختفي على ذلك النّحو، كان لابدّ أن تكون قد هُزّت بشدّة.

فماذا كان ذلك إذن؟ بالطبّع، إنه ناقوس الخطر.

كانوا يدّقون ناقوس الخطر، وكانوا يقرعونه بصورة مسعورة. كانوا يقرعونه في كلّ مكان. وفي كلّ قباب الأجراس، وفي كلّ الخورنيّات، وفي كلّ القرى، ولم يكن يُسمَعُ شيء.

كان ذلك يرجع إلى المسافة التي تحول دون أن تصلِ أصواتُ القرع، وإلى ريحِ البحر التي كانت تهبُّ من الجهة المقابلة والتي تحملُ كلَّ أصوات الأرض إلى ما وراء الأفق.

لم يكن هناك شيء أكثر شؤماً من كلِّ هذه الأجراس التي تنادي من كلّ مكان، ومن هذا السُّكون في الوقت عينه.

كان العجوز ينظر ويصغي.

لم يكن يسمع ناقوسَ الخطر، وكان يراه. أما أن يرى ناقوس الخطر، فذلك إحساسٌ غريب.

فعلى من تحقد هذه الأجراس؟

وضدّ مَن يقرع ناقوس الخطر هذا؟

* * *

III

فائدة الأحرف الكبيرة

من المؤكدّ أن شخصاً ما كان ملاحقاً.

من هو ؟

صدرت رعشة عن هذا الرّجل الفولاذيّ.

لا يمكن أن يكون هوالمطارد. فلم يكن أحد قد استشف وصوله، وكان من المستحيل أن يكون قد أُعلم بذلك ممثلو الحكومة المرسلون، فقد نزل لتوّه إلى البرّ. وكانت الحرّاقة قد غرقت بطبيعة الحال من غير أن ينجو منها أيّ رجل. وفي الحراقة نفسها، لم يكن أحدٌ يعرف اسمه، باستثناء بوابيرتلو ولافيوفيل.

واصلت قبابُ الأجراس قرعها المخيف، وكان يعاينها، ويعدّها بصورة آلية، أما أحلام يقظته التي تندفع من فرضيةٍ إلى أخرى فقد كان في ثناياها ذلك التقلّب الذي يتيح الانتقال من أمانٍ عميقٍ إلى يقين مخيف. ومع هذا فإن ناقوس الخطر هذا، في المحصّلة، يمكنّ أن يُفسَّر بطرق كثيرة، وانتهى به الأمر إلى طمأنة ذاته وهو يردّد في نفسه (إجمالاً، لا أحد يعرف بوصولي، ولا أحد يعرف اسمي).

أخذت تحدث، منذ بضع لحظات، ضجّةٌ خفيفةٌ فوقه ووراءه. وكانت هذه الضجّة تشبه حفيف ورقة شجرةٍ مهتزّة. لم يعرها اهتماماً في البداية، ثم انتهى به الأمر، حين استمرّت الضجّة، وألحّت، كما يمكن القول، إلى

الالتفات. فلقد كانت ورقةً في الحقيقة، ولكنها ورقةٌ من الورق. فقد كانت الرّيح على وشك نزع إعلان عريض ملصقٍ على حجرٍ عسكري، فوق رأسه. كان ذلك الإعلان معلقاً منذُ بعض الوقت، لأنه كان لا يزال رطباً ويتعرّض للرّيح التي أخذت تتلاعبُ به وتنزعه. كان العجوزُ قد تسلّق الكثيب من الجهة المعاكسة ولم يرَ ذلك الإعلان لدى وصوله.

صعد على التّخم الذي كان جالساً عليه، ووضع يده على زاوية لوحة الإعلانات التي كانت الريح ترفعها، كانت السّماء صافية، وأوقاتُ الشفق طويلة في حزيران، وأما أسفل الكثيب فكان معتماً، ولكن أعلاه كان مضاءً، وكان جزءٌ من الإعلان مطبوعاً بحروف ضخمة، و لا يزال هناك ما يكفي من نور النهار لكي يمكن للمرء أن يقرأها. وقد قرأ ما يلي:

الجمهورية الفرنسيّة، واحدة لا تقسّم

« نحن، بريوردولامارن، ممثّل الشعب المكلّف بالعمل لدى جيش كوت ـ دو ـ شيربور ـ نأمر: ـ باعتبار المذكور المركيز دولانتوناك، فيكونت فونتونيه، والمدعو بأمير بروتانيا، والذي نزل خفيةً على ساحل غرانفيل، باعتباره خارجاً على القانون ـ وقد وضعت جائزةٌ ثمناً لرأسه ـ ولسوف يُدفع لمن يسّلمه، حيّاً أو ميتاً، مبلغ ستين ألف ليرة ـ ولا يُدفعُ هذا المبلغ بأوراقٍ نقديّة، بل ذهباً ـ إن كتيبةً من جيش كوت ـ دو ـ شيربور سوف ترسل فوراً للقاء المركيز المذكور دولانتوناك، وللبحث عنه ـ ويطلب من البلدات تقديمُ المعونة العسكرية ـ حرّر في بيت العامّة في غرانفيل، بتاريخ ٢ حزيران ١٧٩٣ ـ

التوقيع

(بريّور دولامارن)

وفوق هذا الاسم ، كان هناك توقيعٌ آخر مكتوب بحروف أصغر بكثير ، ولم يكن بالإمكان قراءتهُ بسبب القليل الذي تبقىّ من ضوء النّهار .

خفض العجوز قبعته على عينيه ، وشبك دثاره البحري وصولاً إلى ماتحت ذقنه ، ونزل الكثيبَ سريعاً . وكان من غير المفيد بالطبّع أن يطيلَ المكوث على تلك القمة المضاءة .

إن أعلى القمّة قد كان ، منذ وقتٍ بعيد جدّاً ربّما ، هو النّقطة الوحيدة التي بقيت مرئيّة من المنظر .

حين أصبح العجوز في الأسفل ، وفي العتمة ، أخذ يتمّهل .

كان يتوجّه في المسار الذي رسمه لنفسه نحو الإكارة ، لأنه من المحتمل أن تكون لديه مسوّغات أمنيّة من تلك النّاحية .

كان كلُّ شيء مقفراً . وكان ذلك هو الوقت الذي لايعودُ فيه عابرون . وراء نبات العليّق ، توقّف ، وحلَّ معطفه ، وقلب سترته إلى الوجه الموبر ، وربط بعنقه معطفه الذي كان سملاً معقوداً بحبل ، واستأنف المسير .

كان القمرُ منيراً .

وصل إلى تفرّعٍ لدربين ينتصب فيه صليبٌ حجري . وعلى قاعدة الصّليب . كان المرءُ يميّز مربّعاً أبيض يمكن أن يكون إعلاناً شبيهاً بالإعلان الذي قرأه للتوّ ، فاقترب منه . وقال له صوت:

- إلى أين تذهب؟

فاستدار .

كان هناك رجلٌ في الأسيجة الشائكة ، طويل القامة مثله ، وعجوز مثله ، وشعره أبيض مثله ، ويلبس أسمالاً أكثر رثاثة منه أيضاً ، وكأنه يشبهه .

كان ذلك الرّجل يتّكئ على عصا طويلة .

فردّد الرّجل:

- أسألك إلى أين تذهب.

فقال بهدوء متعالٍ تقريباً:

- أين أنا أوّلاً؟

فأجاب الرّجل:

- أنت في إقطاعة تانيس. وأنا المتسوّل فيها. و أنت سيّدها؟

- أنا؟

- أجل، أنت، المركيز دولانتوناك.

* * *

IV
LE CAIMAND (الشّحاذ)

أجاب المركيزُ دولانتوناك بجدية، ولسوف نسميّه من الآن فصاعداً، باسمه.

– فليكن. سلمّني.

فتابع الرّجل يقول:

– نحن كلانا في موطننا هنا ، أنت في القصر. وأنا في الدّغل.

فقال المركيز:

– لننته من الأمر. فلتفعلْ، سلمّني.

فتابع الرّجل:

– كنتَ ذاهباً إلى إكارة ليرب – أن – باي – أليس كذلك؟

– أجل.

– لا تذهبْ إليها.

– لماذا؟

– لأن الزّرق فيها.

– منذ متى؟

– منذ ثلاثة أيام .

– وسكّان المزرعة والضّيعة هل قاوموا ؟

– لا . لقد فتحوا كلّ الأبواب .

فقال المركيز:

– أه! (عجباً)

أشار الرّجل بإصبعه إلى سطح الإكارة التي كانت تُلحظُ من مسافةٍ معينة ، من فوق الأشجار .

– هل ترى السّطح ، يا سيّدي المركيز ؟

– نعم .

– هل ترى ما فوقه ؟

– الذي يرفرف ؟

– نعم .

– إنه علم .

فقال الرّجل .

– ثلاثيّ الألوان .

كان ذلك هو الشيء الذي استرعى انتباه المركيز . حين كان في أعلى الكثيب .

وسأل المركيز:

– ألا يُقرَعُ ناقوسُ الخطر ؟

– أجل .

– وبسبب ماذا؟

– بسببك بالطبّع .

– ولكننا لا نسمعه

– إن الرّيح هي التي تحول دون ذلك .

وتابع الرّجل:

– هل رأيت إعلانك؟

– أجل .

– إنهم يبحثون عنك .

وإذْ ألقى نظرةً من جهة الإكارة . فقد أضاف:

– هناك نصف كتيبة .

– من الجمهورين؟

– الباريسيّين .

فقال المركيز:

– حسناً ، فلنسرْ .

وخطا خطوة باتّجاه الإكارة ، فأمسك الرَّجل بذراعه وقال:

– لا تذهبْ إليها .

– وأين تريدُ أن أذهب؟

إلى منزلي .

فنظر المركيز إلى المتسوّل[1].

– اسمع، يا سيدي المركيز. ليس منـزلي جميلاً، ولكنّه مأمون. إنه كوخٌ أخفض من قبو، فأرضيّتُه مفرشٌ من نبات الفوقس البحريّ، وسقفُه من أغصان الشّجر والعشب. تعال، ففي الإكارة سوف يقتلونك بالرّصاص، وفي منـزلي، ستنام. لابدَّ أنك مرهق، وغداً صباحاً، يكون الزّرقُ قد استأنفوا السّير، فتذهب حيث تشاء.

كان المركيز يتأمل ذلك الرّجل.

وسأله المركيز:

– إلى جانب من أنت إذن؟ هل أنت جمهوريّ؟ هل أنت ملكيّ؟

– أنا فقير.

– لا ملكيّ، ولا جمهوريّ.

– لا أظنّ.

– هل أنت إلى جانب الملك أم ضدّه؟

– ليس لديّ الوقت لهذا.

– ما رأيك في ما يجري؟

– ليس لديّ ما أعيش به.

– ومع ذلك، فأنت تأتي لنجدتي.

– رأيت أنك خارج على القانون. فما هو هذا الشّيء، القانون؟ ويمكن

---

(١) لقد أوحت باللقاء مع الشحاذ قراءة: مذكرات الكونت جوزيف دوبويزاي الذي يروي الليلة التي قضيت في كوخ متسول رحيم. غير أن فيكتور هيغو قد ضخم حسب طريقته صورة تيلمارش. تلك الصّورة الرمزية (للفقير) (انظر: الحوارات التالية). وقد ظهر توسعٌ مماثل في قصيدة المتسول في مجموعة: التأملات.

للمرء إذن أن يكون خارجه. لا أفهم هذا. أما بالنسبة لي، فهل أنا داخل القانون ؟ هل أنا خارج القانون؟ لا أعلم عن ذلك شيئاً. فأن يتضّور المرء جوعاً، هل هذا معناه أن يكون داخل القانون؟

– منذ كم من الوقت وأنت تتضوّر جوعاً؟

– طيلة حياتي.

– وأنت تنقذني ؟

– أجل.

– لماذا؟

– لأني قلت: هذا إنسان أفقر منّي أيضاً. فأنا لي الحقّ في أن أتنّفس، وليس له هذا الحقّ.

– هذا صحيح، وأنت تنقذني؟

– بلا شكّ. هانحن أخوان، يا سيّدي، فأنا أطلب الخبز، وأنت تطلب الحياة، فنحن متسوّلان.

– ولكن هل تعلم أن هناك جائزة لرأسي؟

– نعم.

– وكيف تعرف ذلك؟

– لقد قرأت الإعلان.

– أنت تحسن القراءة.

– نعم. والكتابة أيضاً. فلماذا أكون بهيمة.

– وإذن، فبما أنك تحسن القراءة، وبما أنك قد قرأت الإعلان، فأنت تعلم أن الرّجل الذي يسّلمني يكسب ستين ألف فرنكاً؟

– أعلم ذلك .

– وليس بأوراق نقديّة .

– أجل ، أعرف ، ذهباً .

– هل تعلم أن ستين ألف فرنكاً هي ثروة .

– نعم .

– وأن شخصاً يسلّمني – يجني ثروة؟

– حسناً ، وبعد؟

– هي ثروته!

– هذا بالضبّط ما فكرّت به . وحين رأيتك ، قلت في نفسي: مادمت أرى أن شخصاً ما يسلّم هذا الرّجل يكسب ستين ألف فرنكاً ، ويجني ثروة! فلنسرع إلى تخبئته[1] .

تبع المركيز الرّجل الفقير .

دخلا إلى مشجّر ، وكان وجارُ المتسوّل هناك . لقد كان ضرباً من غرفة جعلت سنديانةٌ كبيرة عتيقة ذلك الرّجل يصنع منزله لديها ، كانت محفورة من تحت جذورها ، ومغطاة بأغصانها . كانت معتمة ، ومنخفضة ، وغير مرئية ، وكان فيها مكانٌ لإثنين .

وقال المتسوّل:

– لقد توقّعت أن يكون بإمكاني استقبال ضيف .

(١) إنها كلمة (سامية) وهي إلى حدٍ ما كلمة المؤلف . ونجد سواها في كلام تيلمارش .

إن هذا الضّرب من المسكن تحت الأرض، الأقلّ ندرةً في بروتانيا مما نظنّ، يسمّى باللغة الفلاّحية: carnichot وينطبق هذا الاسم أيضاً على المخابىء التي يجري إحداثها في سماكة الجدران.

إنّه مؤثثٌ ببضع أوانٍ، وبسرير حقيرٍ من القشّ، وبأشنةِ الغمون المغسولة والمجفّفة، وبغطاءٍ ثخين من المصوّف[1]، وبعض ذبالاتِ الشحّم وقدّاحةٍ وسوقٍ مجوّفة من الـ brane-ursine [2] كأعواد ثقاب.

انحنيا وزحفا قليلاً وولجا إلى الغرفة التي تقطعّها جذور الشّجرةِ الضخمة إلى حجيرات غريبة، وجلسا على كومة من الطحالب الجافة التي تشكّل السّرير. إن الفجوة مابين جذرين والتي كان المرء يدخل منها وتُستعمل كباب، كانت تعطي بعض الضّوء.

كان الليلُ قد حلّ، إلاّ أن النظر يتناسب مع النّور، وينتهي الأمر بالعثور دوماً على قليل من الضّوء في العتمة. إن انعكاساً لضوء القمر كان يبيّض المدخل بصورة غير واضحة.

وكان هناك في إحدى الزّوايا جرّةُ ماء، وفطيرةٌ من الحنطة السّوداء وحبّات كستناء.

قال الفقير:

– لنتعشّ.

اقتسما حبات الكستناء، وأعطي المركيز الفقير قطعة البسكويت التّي يحملها، وقرضا كلاهما قرصَ الخبز الأسود نفسه، وشربا من الجرّة أحدهما بعد الآخر.

وتحدّثا.

---

(١) نسيج صوفيّ مشبك.

(٢) اسم شعبيّ للأقنثة.

أخذا المركيز يسأل ذلك الرّجل .

– وهكذا ، فكلّ ما يحدث وما لا يحدث هو بالنسبة لك سيّان ؟

– تقريباً . أما أنتم فسادة ، وهذه أمورٌ تخصّكم .

– ولكن في نهاية الأمر ، فما يجري . . . .

– يجري فوق .

– وأضاف المتسوّل:

– ثم أن هناك أشياء تجري أعلى أيضاً ، الشّمسُ التي تُشرقُ والقمر الذي يكبر ويصغر ، فبهذه الأشياء إنّما أهتّم .

شرب جرعةً من الجرّة وقال:

– يا للماء البارد الطيّب .

وتابع يقول:

– كيف تجد هذا الماء ، ياسيّدي ؟

فقال المركيز:

– ماذا تدعى؟

– أُدعى تيليمارش . ويسمونني بـ: le caiman (الشحّاذ)

– أعلم . وإن caiman هي كلمة محليّة .

– والتي تعني متسوّل . ويلقبّونني أيضاَ بالعجوز .

وتابع يقول:

– ها قد مرّت أربعون عاماً وهم يسموّنني بالعجوز .

- أربعون عاماً! ولكنك كنت شابّاً ؟

- لم أكن شابّاً قط. أما أنت فقد كنت كذلك دوماً، ياسيّدي المركيز. لديك ساقا رجلٍ شابّ في العشرين، وتتسلّق الكثيب الكبير. أما أنا، فقد بدأت أجد صعوبة في المشي، وبعد أن أسير ربعَ فرسخ، أُحسّ بالإنهاك، ومع ذلك، فنحن من عمر واحد. ولكن الأغنياء يتفوقون علينا بميزة معيّنة. فهم يأكلون كلَّ يوم. والطّعام يحفظ.

تابع المتسوّل، بعد لحظة صمت:

- الفقراء، والأغنياء، إنها مسألة مرعبة. هذا ما يُنتجُ الكوارث. وعلى أيّة حال، فهذا ما يترك لديّ هذا الشعور، فالفقراء يريدون أن يصبحوا أغنياء، والأغنياء لا يريدون أن يكونوا فقراء. أظن أن الأساس هو هنا إلى حدّ ما،. فأنا لا أتدخّل في الأمر. إن الأحداث هي الأحداث، وأنا لستُ إلى جانب الدّائن، ولا إلى جانب المدين. أعلم أن هناك ديناً وأنه يجب أن يُدفع. هذا كلُّ شيء. أفضّل ألاّ يُقتل الملك، غير أنه قد يكون من الصّعب عليَّ أن أقول لماذا. وبعد هذا. يجيبونني: ولكن، قديماً، كانوا يعلّقون الناس على الأشجار بسبب لاشيء يذكر! عجباً! فأنا قد رأيت شنق رجلٍ كانت له امرأة وسبعة أطفال لأنه أطلق عياراً نارّياً مؤذياً على يحمورٍ عائد للملك. هناك مايمكن قوله من النّاحيتين.

وسكت أيضاً ثم أضاف:

- أتفهم، لاأدري بالضبّط. يروح الناس، ويرجعون، وتجري أشياء، أما أنا، فهنا، في العراء.

وقطع تيلمارش حديثه مرّة أخرى متفكّراً، ثم تابع يقول:

- إني أقوم بالتجبير بعض الشيء، وطبيب بعض الشّيء، فأنا أعرف

الأعشاب، وأفيد من النباتات. ويراني الفلاحون منتبهاً أمام شيء لا قيمة له، وهذا ما يجعلني أبدو ساحراً[1] ولأني أتفكر، يظنّون أني أعرف.

قال المركيز:

– هل أنت من المنطقة؟

– لم أخرج منها قطّ.

– وهل تعرفني؟

– بلا ريب. المرّة الأخيرة التي رأيتك فيها كانت عند آخر مرورلك، منذ عامين. وقد ذهبت من هنا إلى انكلترا. ومنذ قليل، لمحتُ رجلاً في أعلى الكثيب، رجلاً طويل القامة. إن الرّجال الطّوال القامة نادرون، فهذه منطقةُ رجالِ قصار القامة، منطقة بروتانيا. ولقد نظرتُ جيّداً، وقرأت الإعلان، فقلتُ: عجباً! وعندما نزلتَ، وكان القمر مضيئاً، تعرّفتك.

– ومع ذلك، فأنا لا أعرفك.

– لقد نظرت إليّ، ولكنك لم ترني.

وأضاف تيليمارش المتسوّل:

– كنت أراك أنا، مثلما يرى متسوّلٌ عابرَ سبيل، فالنظّرةُ ليست ذاتها.

– هل سبق لي أن التقيتك قديماً؟

– غالباً. لأني كنت متسوّلك. فقد كنت ذلك الفقير الموجود في أسفل الطريق إلى قصرك. وأعطيتني صدقة في ذلك الظرّف، غير أن الذي يعطي لا ينظر، وذلك الذي يتلقى يعاين ويلاحظ. فالمتسوّل يعني المتجسّس، وأما

(١) ليس تيليمارش عديم الشبه بجيليات في (عمال البحر)، وبأورسوس في الرّجل الضاحك وزينب العجوز في (هل سيأكلون؟) في المسرح الحرّ: أي الكائن البسيط، والفقير، والمحسن الذي (يتفكر) ويبدو وكأنه غريبُ الأطوار.

أنا ، مع أنني غالباً ما أكون حزيناً ، فأحاول ألاّ أكون متجسّساً سيّئاً . كنت أمدُّ يدي ، ولم تكن ترى إلاّ اليد ، وكنت تُلقي فيهابالحسنة التي كنت بحاجة إليها لكي لا أتضوّر جوعاً في المساء . كنت أبقى بعض المرات أربع وعشرين ساعة بلا طعام . ويصبحُ فلسٌ واحدٌ هو الحياة . إني مدينٌ لك بحياتي ، وأنا أردّ ذلك إليك .

– هذا صحيح ، إنك تنقذني .

– نعم ، إني أنقذك ، ياسيدي .

وغدا صوتُ تيلمارش جاداً ، فقال:

بشرط :

وماهو؟

هو ألاّ ترجع إلى هنا لكي تفعل الشرّ .

فقال المركيز:

– أتيت إلى هنا لكي أفعل الخير .

فقال المتسوّل:

– فلننمْ .

رقدا جنباً إلى جنب على سرير الطحّالب . وقد أغفى المتسوّل حالاً . أما المركيز ، فمع أنه مرهقٌ جدّاً ، فقد بقي للحظة حالماً ، ثم نظر إلى الرجل الفقير في تلك الظلمة ، ورقد ، إن التمدّد على ذلك السّرير كان كالتمدُّد على الأرض ، فأفاد من ذلك ليلصق أُذنه بالأرض ، وأصغى . كان ثمّة طنينٌ قاتم تحت الأرض . ونحن نعلم أن الصّوت ينتشر إلى أعماق الثرى ، وكان يُسمع ضجيج الأجراس .

كان ناقوسُ الخطر يدقّ .

فنام المركيز

V

التّوقيع غوفان

حين استيقظ ، كان النّهار قد طلع .

كان المتسوّل واقفاً ، ليس في الوجار ، لأنه ليس بالإمكان أن يقف المرءُ فيه ، ولكن خارجاً ، على العتبة . كان يتوكأ على عصاه ، وأشعّة الشمس تسقط على وجهه .

قال تيلمارش:

– يا سيّدي ، لقد دقّت الساعة منذ قليل أربع دقّات صباحيّة في قبّة جرس تانيس . وقد سمعتُ الضّربات الأربع . فالرّيح قد بدّلت اتّجاهها إذن ، وهذه هي ريح الأرض ، فأنا لاأسمع أيّ صوت آخر ، وتوقّف إذن ناقوس الخطر عن القرع . وكلّ شيء هادىء في الإكارة وفي ضيعة إيرب – أن – بيل . فالزّرق نائمون أو أنهم قد ذهبوا . وقد زال الخطرُ الأكبر ، ومن الحكمة أن نفترق . فهذا هو الوقت الذي أذهب فيه .

وأشار إلى نقطةٍ في الأفق:

– أنا ذاهبٌ من هنا .

وأشار إلى النقطة المعاكسة وقال:

– أما أنت ، فاذهبْ من هنا .

حيّا المتسوّل المركيز تحيّة رصينةً بيده، وأضاف وهو يدلُّ على ما تبقّى من العشاء.

– خذْ معك حبّات كستناء، إن كنت جائعاً.

وماهي إلاّ لحظة حتى توارى تحت الأشجار.

نهض المركيز، ومضى من الجهة التي أشار تيلمارش إليه بها.

كانت تلك هي الفترة السّاحرة من النّهار والتي تسميّها اللغـة الفلاّحيةُ القديمة النّورماندية بـ (شبّابة النّهار) فقد تُسمع فيها les cardounettes[1] وعصافير دوري السّياج تعقعق. لقد سلك المركيز الدّرب الضيّق الذي كانا قد أتيا منه في الليلة السابقة. وخرج من المشجّر فألقي نفسه عند تفرُّغ طرق محدّد بصليب حجريّ. وكان الإعلان موجوداً فيه، أبيض اللّون وكأنه فرحٌ بالشمّس المشرقة. وتذكرّ أنه كان هناك في أسفل الإعلان شيء لم يستطع أن يقرأه في اليوم السّابق بسبب دقة الحروف وقلّة ضوء الفجر الذي كان متوفرّاً. لقد ذهب إلى قاعدة الصّليب. وكان الإعلان ينتهي، في واقع الأمر، وتحت التّوقيع التالي: بريور دولامارن بهذين السّطرين المكتوبين بحروفٍ صغيرة:

– التوقيع: قائد الكتيبة، قائد طابور الحملة، غوفان.

فقال المركيز:

– غوفان!

وتوقّف متفكرّاً بعمق، وعينه محدّقة بالإعلان، وردّد:

– غوفان!

استأنف السّير، واستدار، ونظر إلى الصّليب، ثم نكص على عقبيه، وقرأ الإعلان مرّة أخرى.

---

(١) الحساسين والكلمة موجودةٌ في المعجم الفرنسي النور ماندي الذي استثمره ف. هيغو، فضلاًعن معجم ليتريه أيضاً، وهي تقابل (CHARDONNERETS).

ابتعد بعد ذلك بخطا وئيدة. ولو كان هناك أحدٌ يمكن أن يكون قريباً منه لسمعه يهمس بصوت خافت: (غوفان!).

من سافلة الدّروب الضّيّقة والمتعرّجة التي كان يلجُ إليها. لم تكن تُرى سطوحُ الإكارة التي تجاوزها على شماله. كان يسير بجانب ربوة شديدة التّحدّر، ومغطّاة تماماً بالجولق المزهر، وبذلك النّوع المسمّى بالشّوكة الطّويلة. وقد كان لهذه الرّبوة قمّة هي إحدى تلك الرّؤوس التّرابيّة التي تسمّى في المنطقة (الرأس المذبوح). وكان النظر يمتدّ من أسفل الرّبوة فيتيهُ تحت الأشجار حالاً.

وكانت أوراق الأشجار وكأنها مخضلّة بالنور، وكان لدى الطّبيعة بأكملها فرحُ الصّباح العميق.

فجأة غدا هذا المشهد رهيباً. وكأنّ شركاً قد انفجر، ولا ندري أيَّ إعصارٍ أحدثته صرخاتٌ وحشيّة، وطلقاتُ بندقية، قد انقضّ على تلك الحقول وتلك الغابات المفعمة بالضّياء، وشوهد دخانٌ كبير يرتفع من الجهة التي كانت تقع فيها الإكارة، وتقطعها ألسنة اللهّب الصّافية، وكأنّ الضّيعة والمزرعة قد أصبحتا حزمة من القشّ المشتعل، وانفجاراً للجحيم في عزّ الفجر، والرّعب الذي لاتمهيد له. كان القتال يجري من جهة إيرب – أن – بيل. فتوقفّ المركيز.

إن الفضول أقوى من الخطر، ومامن إنسانٍ لايحسّ بذلك في مثل هذه الحالة. إنه يريد أن يعلم، وإن تعيّن عليه أن يموت، فصعد المركيز إلى الرّبوة التي كان يمرّ من تحتها الدّربُ الضيّق والمتعرّج. ومن هناك يمكن له أن يُرى، ولكنه يرى. فأصبح على القمة (الرأس المذبوح) وبعد بضع دقائق أخذ ينظر. كان هناك، في الحقيقة، إطلاق نار وحريق. وكانت تسمع جلبة، وتُرى نار.

وكانت الإكارة وكأنها كارثة لايدري المرء ما هي. فما كان ذلك؟ فإكارة إيرب – أن – بيل هل هوجمت؟ وعلى يدِ من؟ هل كانت تلك معركة؟ ألم تكن تنفيذاً لإعدام عسكريّ بالأحرى؟ إن الزّرق، وهذا ماكان يأمرهم به مرسومٌ ثوريّ، غالباً جدّاً ماكانوا يعاقبون المزارع والقرى المتمرّدة، بإحراقها.

فقد كان يجري إحراقُ كلِّ إكارة وكلّ ضيعةٍ لم تسدّ الطرق بجذوعِ الأشجار المقطوعة التي يفرضها القانون، والتي لم تفتحْ، ولم تشقّ في المشجّرات معابر للخيّالة الجمهوريّة، وذلك ردعاً لها. وهكذا، فقد جرى خصوصاً تنفيذ ذلك. منذ عهدٍ قريب، بخورنيّة بورغون، بقرب إيرنيه. فهل كانت إيرب - أن - بيل في الحالة نفسها؟ فقد كان من الجليّ أنّه مامن خرقٍ استراتيجيّ يأمرُ به المرسوم قد جرى في الأسيجة اليابسة والأراضي المسوّرة في تانيس وإيرب - أنْ - بيل. فهل ذلك هو القصاص؟ وهل وصل أمرٌ للطّليعة التي كانت تحتلّ الإكارة بذلك؟ والطّليعة ألم تكن تشكّل جزءاً من طوابيرالحملات التي تسمّى: الطّوابيرالجهنميّة؟

كان مشجّرٌ جدُّ شائك وجدّ وحشيّ يحيطُ من كلّ ناحيةٍ بالرّبوة التي كان المركيز قد أخذ مكانه في قمتّها مراقباً. وهذا المشجرّ الذي كان يُدعى حُريج إيرب - أن - بيل، والذي كانت له مع ذلك أبعادُ غابةٍ، ينبسط حتى الإكارة، ويخفي، شأن كلّ الأسيجة اليابسة البروتانية، شبكةً من الوديان، والمسالك الضّيقة والطرق الوعرة، والمتاهات، التي كانت تتيه فيها الجيوشُ الجمهوريّة.

إن تنفيذ الإعدام، إن كان ذلك تنفيذ إعدام، لا بدّ أنه قد كان قاسياً، لأنه كان مقتضباً. وقد كان، شأن كلّ الأمور الفظة، يجري تنفيذه حالاً. إن فظاعة الحروب الأهليّة تحوي مثل تلك الأعمال الوحشيّة. وفي حين كان المركيز، الذي يكثرُ من الافتراضات، ويتردّد في النزول، ويتردّد في البقاء، يصغي ويراقب، توقّفت لعلعةُ الإبادة، أو تبعثرت على الاصحّ. وتبيّن المركيز في السّياج الشائك مايشبه تفرُّق زمرةِ جندٍ هائجةٍ وفرحة. وحدث تجمهرٌ مخيف تحت الأشجار، ومن الإكارة، كان يجري الاندفاعُ إلى الغابات. كانت هناك طبولٌ تدقّ دّقة الهجوم. ولم تعد تُطلقُ نارُ البنادق. وأصبح ذلك يشبه آنذاك غارة، كان يبدو أنهم يفتّشون، ويلاحقون، ويطاردون، وكان من الجليّ أنهم يبحثون عن شخصٍ ما، وكان الضّجيج منتشراً وعميقاً. كان خليطاً من الكلام الغاضب والظّافر، وضوضاء مكوّنة من صراخ صاخب، ولم يكن يُميَّز

فيها شيء، وفجأة، ومثل ملمح يرتسمُ في دخان، غدا شيء ما ملفوظاً ومحدّداً في ذلك الصّخب، كان اسماً، اسماً ردّده ألفُ صوت، وسمع المركيز بوضوح هذه الصّيحة:

- لانتوناك! لانتوناك! المركيز دولانتوناك!.

كان هو من يبحثون عنه.

* * *

VI

أحداث الحرب الأهليّة

فجأة امتلأ المشجرّ. من حوله، ومن كلّ الجهات في آن، امتلأ بالبنادق، والحراب، والسّيوف. وانتصب علمّ مثلث الألوان في الغبش، وانفجرت صيحةُ لانتوناك! في أذنه، وعند قدميه، ومن خلال الأشواك والأغصان، وظهرت وجوه عنيفة. كان المركيز وحده، واقفاً على قمّة، ومرئيّاً من كلّ مناحي الغابة. وكان هناك ألفُ بندقيّة في الغابة، فقد كان مثل هدفٍ لها. إنّه لم يكن يميّز شيئاً في الحرجة إلاّ حدقاتٍ مضطرمة تحدّق به.

نزع قبعته، ورفع حوافها، واقتلع شوكة طويلةً جافّة من جولقة[1]، وسحب من جيبه عقدةً شعاريّة بيضاء، وثبّت بالشّوكة الحافّة المرفوعة، والعقدة الشعاريّة على قالب القبّعة، وإذْ اعتمر مجدّداً القبعة التي كانت حافتّها المرفوعة تبرز جبهته وعقدته الشعاريّة، فقد قال بصوتٍ عال وهو يتحدّث إلى الغابة كلّها في آن:

– أنا الرّجل الذي تبحثون عنه، أنا المركيز دولانتوناك. فيكونت فونتونيه، والأمير البروتاني، والقائد العام لجيوش الملك. فلننته من الأمر. سدّد! نار[2]!

وإذْ أبعد بيديه سترته المصنوعة من جلد الماعز، فقد أظهر صدره العاري.

---

(١) نبات شوكي من فصيلة القرنيات الفراشية (م:ز.ع).

(٢) سيكون ذلك هو موقف جان شوان في القصيدة الواردة في أسطورة القرون التي كرست له.

خفض عينيه باحثاً بنظرته عن البنادق المصوّبة، فألفى نفسه محاطاً برجالاً جاثين وارتفعت صيحة هائلة: (عاش لانتوناك! عاش سيّدنا! عاش الجنرال!) وفي الوقت نفسه، كانت هناك قبعاتٌ تقفز في الهواء، وسيوفٌ تحوّم بفرح، وكانت تُرى في الحرجة كلّها عصيّ تنتصب، وفي طرفها تهتزّ قلنسواتٌ من الصّوف البنيّ.

إن ماكان يراه حوله هو عصبة فانديّة.

كان هذه العصبة قد جثت حوله حين رأته.

وتروي الأسطورة أنه قد كانت في الغابات القديمة التورنجية[1] كائناتٌ غريبة متحدرّة من سلالة عمالقة تُعدُّ كالبشر زيادة ونقصاً. وكان الرّومان يعتبرونهم حيواناتٍ مرعبة، والجرمان تجسّداتٍ إلّهية، وهم يجربون حظهّم، حسب المصادفة، في أن يبادوا أو يُعبدوا.

أحسّ المركيز بشيء مماثل لما كان يفترض أن يحسّ به أحدُ هذه الكائنات عندما كان يُعامل فجأة وكأنه إله، في حين كان يتوقع أن يُعامل كوحش.

كانت كلُّ تلك العيون الملأى بوميض مخيف تحدّق بالمركيز بنوع من الحبّ الوحشيّ. كانت تلك الجمهرةُ مسلحّةً بالبنادق، والسّيوف، والمناجل، والعصيّ الطّويلة[26]، والهراوات. وكانوا يعتمرون جميعاً لبديّاتٍ كبيرة أو قلنسوات بنية، وعقداً شعاريّة بيضاء، ويحملون ورديّات، وتعاويذ، ويرتدون سراويل عريضة مفتوحة من عند الرّكبة، وستراتٍ فرسان من الوبر، وواقيات ساق جلديّة، وكان مأبضُ ساقهم عارياً. وشعورُهم طويلة، وبعضهم ذو مظهر شرس، وكلّهم ذوو هيئة[27] ساذجة.

اخترق فتى جميل المحيّا الناس الجاثين، وصعد بخطاً واسعة إلى المركيز. وكان هذا الرّجل، كالفلاحين، يعتمر لبديّة ذات حافّة مرفوعة وعقدة شعاريّة

---

(١) منطقة في شرق ألمانيا قديماً (م:ز.ع).

بيضاء، ويرتدي سترة فارس من الوبر، بيد أن يديه كانتا بيضاوين، ويرتدي قميصاً ناعماً، ويلبس فوق سترته وشاحاً من الحرير الأبيض يتدلّى منه سيفٌ ذو قبضة ذهبيّة. ما إن وصل إلى أعلى الرّبوة، حتى رمى قبعّته، وحلّ وشاحه، ووضع إحدى ركبتيه على الأرض، وقدّم الوشاح والسّيف إلى المركيز، وقال:

– كنّا نفتش عنك في الحقيقة. وهذا هو سيفُ القيادة. هؤلاء الرجال الآن هم لك. لقد كنتُ قائدهم. وقد ارتقيت في الرّتبة، وأنا جنديّ لديك.

فتقبل تحيتنا، ياسيّدي، ولتصدرْ أوامرك، ياسيّدي الجنرال.

ثم قام بإشارة، فخرج من الغابة رجالٌ كانوا يحملون علماً مثلث الألوان. وصعد هؤلاء الرّجال وصولاً إلى المركيز، ووضعوا العلم عند قدميه، وكان ذلك هو العلم الذي كان يلمحه للتوّ من خلال الأشجار.

قال الشّاب الذي قدّم إليه السّيفَ والوشاح:

– يا سيّدي الجنرال، هذا هو العلم الذي استولينا عليه للتوّ من الزّرق والذين كانوا في مزرعة إيرب – أن – بيل. ياسيّدي، أنا أدعى غافار، وقد كنت تابعاً للمركيز دولاروّاري.

فقال المركيز:

– حسناً.

وتزنرّ بالوشاح، بهدوء ورصانة.

ثم سحب السّيف، ولوّح به مجرّداً من فوق رأسه، وقال:

– وقوفاً، وعاش الملك!

وقف الجميع.

وسمعت في أعماق الغابة صيحةٌ مهتاجة وظافرة:

عاش الملك! عاش مركيزنا! عاش لانتوناك!

واستدار المركيز نحو غافار وقال:

– وكم عددكم إذن؟

– سبعة آلاف.

وتابع غافار يقول وهو ينزل من الرّبوة، فيما كان الفلاحون يُبعدون الجولق من أمام خطا المركيز

– يا سيّدي، لا شيء أبسط من هذا. إن هذا يُفسَّر بكلمة. ولم يكن تُنتظرُ إلاّ شرارة. إن إعلان الجمهوريّة، بكشفه عن وجودك، قد أثار المنطقة من أجل الملك. وفضلاً عن ذلك، فقد أعلمنا خفيةً عمدةُ غرانفيل والذي هو رجلٌ من جماعتنا، وهو نفسه الذي أنقذ رئيسَ الدّير أو ليفييه. وفي تلك الليلة قُرِع ناقوسُ الخطر.

– من أجل من؟

– من أجلك.

فقال المركيز:

– آه!

وردّد غافار:

– وها نحن هنا.

– وأنتم سبعة آلاف؟

– اليوم، وسوف نكون خمسة عشر ألفاً غداً. هذه هي حصيلةُ المنطقة. وحين مضى السّيد هنري دولارو شجاكلان إلى الجيش الكاثوليكي، قُرِع ناقوسُ الخطر، وفي ليلةٍ واحدة جلبت له ستُّ خورنيات هي إيزيرنيه، وكوركو

وليزيشوبروانيه ، وليزوبييه ، وسانت أوبان ، ونوبي ، عشرة آلاف رجل . لم تكن هناك ذخائر . وقد عثر عند أحدُ البنّائين على ستين ليبرةً من بارود الألغام ، وقد مضى السّيد دولار وشجار كلان مع ذلك ، وكنّا نظنّ أنك لابدّ أن تكون في مكانٍ ما ، في تلك الغابة ، وكنّا نبحث عنك .

– وقد هاجمتم الزّرق في مزرعة إيرب – أن – بيل؟

–كانت الريح قد منعتهم من أن يسمعوا ناقوس الخطر ، ولم يكونوا يرتابون بشيء ، أمّا أهل الضّيعة الذين كانوا ساذجين ، فقد أحسنوا استقبالهم . وفي هذا الصّباح ، حاصرنا المزرعة ، وكان الزّرق نائمين ، وفي لحظة ، أنجزنا الأمر ، وأصبح لديّ حصان ، فتفضّلْ بقبوله ، ياسيّدي الجنرال؟

– نعم .

وأتى فلاحٌ بحصانٍ أبيض مسرج بصورةٍ عسكريّة . أما المركيز ، فمن دون أن يستخدم المساعدة التي كان يقدّمها له غافار ، فقد امتطى الجواد .

صاح الفلاحون:

– هورّا!

لأن الصّيحات الإنكليزية كانت جدّ مستخدمة على السّاحل البروتانيّ – النّورماندي ، في تعاملهم المستمرّ مع جزر المانش .

قدّم غافار التحيّة العسكريّة وسأل:

–أين ستكون قيادتك العامة ، ياسيّدي؟

– في غابة فوجير أوّلاً .

– إنها واحدة من غاباتك السّبع ، ياسيّدي المركيز .

– يلزمنا كاهن .

– لدينا كاهن

– ومن هو؟

– لدينا وكيل لاشاييل – إيربريه.

– أعرفه. لقد سافرمن جيرسيه.

خرج كاهنٌ من بين الصّفوف، وقال:

– ثلاث مرّات.

فأدار المركيز رأسه.

– صباح الخير، ياسيّدي الوكيل، سوف يكون لديك عمل.

– نعم الأمر، ياسيّدي المركيز.

– سوف يكون لديك الكثير من الناس الذين يعترفون. أولئك الذين يودّون ذلك.

إننا لا نجبر أحداً.

فقال الكاهن:

– ياسيّدي المركيز. إن غاستون، في غيمينيه، يجبر الجمهوريين على الاعتراف.

فقال المركيز:

– إنه حلاّق وبائع شعر مستعار، ولكن الموت يجب أن يكون اختياراً حرّاً.

أما غافار الذي كان قد ذهب ليعطي بعض الأوامرفقد رجع، وقال:

– سيّدي الجنرال، أنتظر أوامرك.

– أوّلاً ، اللقاء يكون في غابة فوجير ، فلتتفرّقوا وتذهبوا إليها .

– لقد أعطي الأمر .

– ألم تقلْ لي إن أهل إيرب – إن – بيل قد أحسنوا استقبال الزّرق ؟

– أجل ، ياسيّدي الجنرال .

– وهل أحرقتم المزرعة ؟

– أجل .

– هل أحرقتم الضّيعة ؟

– كلاّ .

– احرقوها .

– حاول الزّرق أن يدافعوا عن أنفسهم ، ولكنهم كانوا مئةً وخمسين ، وكنّا سبعة آلاف .

– ومن هم هؤلاء الزّرق؟

– زرقٌ من سانتير .

– وهم من أمروا بقرعِ الطبّول فيما كان يجري قطعُ رأس الملك . إنهم كتيبةٌ من باريس؟

– نصف كتيبة؟

– وماذا تسمّى هذه الكتيبة؟

– ياسيّدي الجنرال ، مكتوب على علمها: كتيبة دوبونّيه – روج .

– حيوانات متوحّشة .

– ماذا يجب أن نصنع بالجرحى .

- أجهزْ عليهم .

- وماذا يجب أن نفعل بالأسرى؟

- أطلقوا عليهم النار .

- هناك امرأتان .

- كذلك .

- هناك ثلاثة أطفال .

- اجلبهم ، وسنرى ماسنفعله بهم .

ودفع المركيز حصانه .

* * *

VI

ما من رحمة (شعار الكوّمونة)

ما من عفو (شعار الأمراء)

فيما كان ذلك يحدثُ بقرب تانيس ، كان المتسوّل ماضياً باتّجاه كرولون . كان قد توغّل في الوديان ، وتحت المخابىء الشجريّة الواسعة المكتومة الصّوت ، غير منتبه لأيّ شيء ، ومنتبه للاشيىء ، مثلما كان نفسه يقول ، حالماً أكثر مما هو متفكرّ ، لأن المتفكرّ له غاية ، والحالم ليس له غاية ، فهو تائه ، ومتجوّل ، ومتوقّف ، يأكل في هذا المكان أو ذاك برعمَ حميّض برّي ، ويشرب من الينابيع ، ويرفع رأسه أحياناً لسماع لعلعاتٍ بعيدة ، ثم يدخل إلى فتنة الطبّيعة المبهرة ، ويعرض أسماله للشّمس ، ولعلّه يسمّع جلبَة البشر ، ولكنه يصغي إلى غناء العصافير[1] .

كان عجوزاً وبطيئاً ، ولم يكن بوسعه أن يمضي بعيداً ، وكما كان قد قال للمركيز دولانتوناك ، فإن ربع فرسخ كان يتعبه . ولقد قام بجولة قصيرة باتجاه لاكروا - أفرانشان - وكان المساء قد حلّ حين قفل راجعاً .

فيما بعد ماسيه بقليل ، كان المسلكُ الضيّق الذي سار فيه يقوده إلى نوع من ذروةٍ مجرّدة من الأشجار ، ومنها يُرى من بعيد ، منها يُكتَشف الأفقُ كلهّ ، أفق الغربَ حتى البحر .

---

(١) إن طابع المتسول الرمزي يتأكد : إنه (إنسان الطبيعة) .

استرعى دخانٌ انتباهه .

ما من شيء أكثر رقّة من دخان ، ومامن شيء أكثر رعباً . فهناك الأدخنة الوادعة ، وهناك أدخنة أثيمة . إن دخاناً ما ، وكثافة ولون دخانٍ ما ، إنّما هو ذلك الفرق ، بين الحرب والسّلم بأكمله ، وبين الأخوة والكراهية ، وبين حسن الوفادة والقبر ، وبين الحياة والموت . إنّ دخاناً يتصاعد بين الأشجار يمكن أن يعني ماهو أكثر سحراً في العالم ، وهو المنزل ، أو ما هو الأكثر شناعة ، وهو الحريق ، وكلّ سعادة الإنسان ، ككلّ شقائه ، كامنان أحياناً في هذا الشيء الذي تبدّده الرّيح .

كان الدّخان الذي ينظر إليه تيلمارش مقلقاً .

كان أسود مع التماعاتٍ حمراء فجائية ، وكأن المجمر الذي كان يتصاعد منه يتعرّض لتقطّعات وينتهي به الامر إلى الانطفاء ، وكان يتصاعدُ فوق إيرب - أن - بيل . حثّ تيلمارش الخطا ، وتوجّه نحو ذلك الدّخان ، وكان متعباً حقاً ، غير أنه كان يريد أن يعرف ما الأمر .

وصل إلى قمّة هضبة كانت تتكىءُ عليها الضّيعة والإكارة .

لم تعد هناك لا إكارة ولا ضيعة .

كانت مجموعةٌ من الأكواخ تحترق . وفي ذلك المكان إنّما كانت إيرب - أن - بيل . وهناك شيء أكثر إيلاماً من رؤية قصرٍ يحترق ، إنه كوخ يحترق . إن كوخاً يحترق أمرٌ يثير الشّفقة ، إنه الدّمار الذي ينقضُ على البؤس ، والنسّر الذي يهجم بضراوةٍ على دودة الأرض ، ففي ذلك شيء مخالفٌ للمنطق يجعل القلبَ ينقبضُ ولاندري ماهو .

وإذا ما أخذ المرء بالأسطورة التوراتية ، فإن حريقاً يُنَظرُ إليه يحوّل مخلوقاً بشريّاً إلى تمثال . وقد صار تيلمارش للحظةٍ من الزّمن هو ذلك التمثال . والمشهد الذي كان تحت ناظريه قد جعله بلا حراك . وكان ذلك التدمير يتمّ بصمت ،

فلم تكن ترتفع أيّة صرخة، وما من تنهيدة بشريّة تختلط بذلك الدّخان. كان ذلك الآتون يعمل وينجز التهام تلك القرية من غير أن يُسمع صوتٌ آخر غير طقطقة الصّقالات وفرقعة قشّ الأكواخ. كان الدّخان يتمزّق أحياناً، والسّطوح المنهارة تُري الغرف الفاغرة، وكان المجمرُ يُبرز كلّ ياقوتاته، فأسمالٌ قرمزيّة، وأثاثٌ عتيقٌ، وفقيرٌ بلون الأرجوان، كانت تنتصب في تلك الدّواخل العقيقيّة، فانبهر تيلمارش انبهاراً مشؤوماً بهذه الكارثة.

وكانت تحترق بضعُ شجراتٍ من بستان كستناء مجاور وتتوّهج.

كان يصغي، ويحاول أن يسمع صوتاً، أونداء، أوجلبة، فلم يكن شيءٌ يتحرّك، عدا ألسنة اللّهب. كان كلّ شيءٍ صامتاً، عدا الحريق. فهل هذا يعني إذن أن الجميع قد هربوا؟

أين كانت تلك الجماعة الحيّة والعاملة، جماعة إيرب – أن – بيل؟ ماذا حدث لكلّ ذلك الجمهور الصّغير؟

نزل تيلمارش من الهضبة.

كان أمامه لغزٌ مأتميّ. وكان يقتربُ منه دون تعجّل ونظرته محدّقة. كانت يتقدّم نحو ذلك الخراب ببطء خيال، وكان يحسّ بأنه شبحٌ في ذلك القبر. وصل إلى ماكان باباً للإكارة، ونظر في الباحة التي لم يعدْ فيها الآن جدران، وهي تختلط بالضّيعة المتجمّعة حولها.

ماراَه لم يكن شيئاً، لم يكن قد لمح بعد إلاّ المخيف، فتبدّى له المرعب.

في وسط الباحة، كان ثمّة كدسة سوداء، يُشكلّها من إحدى الجهات اللهبُ على نحو غير واضح، والقمرُ من الجهة الأخرى. كانت تلك الكدسة كومةً من الرّجالّ، وكان أولئك الرّجال موتى.

حول تلك الكدسة، كان ثمّة بركة يتصاعدُ منها الدخان قليلاً، وكان الحريقُ ينعكس في تلك البركة، غير أنها لم تكن بحاجة إلى النار لكي تكون حمراء، كانت بركة من الدّم.

اقترب تيلمارش ، وأخذ يعاين تلك الأجساد الرّاقدة ، واحداً بعد الآخر . كانت جميعها جثثاً .

كان القمر مضيئاً ، والحريق أيضاً .

كانت تلك الجثث جنوداً ، وكانوا حفاة جميعاً ، فقد أُخذت منهم أحذيتُهمّ ، كما أخذت منهم أيضاً أسلحتهم ، وكانوا لايزالون يرتدون بزّاتهم الموحّدة الزرقاء . وكان المرء يميّز في هذا المكان أوذاك ، في الكومة أطرافاً ورؤوساً ، وقبّعات مثقّبة عليها عقدٌ شعاريّة مثلثة الألوان . لقد كانوا جمهوريين . وهم أولئك الباريسيون الذين كانوا لايزالون بالأمس أحياء جميعاً . ويتمركزون في مزرعة إيرب – أن – بيل . كان هؤلاء الرّجال قد نفّذ بهم الإعدام ، وهذا ماتدلّ عليه سقطةُ الأجسام المتماثلة . كانوا قد صُرعوا في مكانهم ، وبعناية . وكانوا جميعاً موتى ، ومامن حشرجة كانت تخرج من الكدسة . استعرض تيلمارش تلك الجثث ، من غير أن يستثني أيّة جثة ، فقد كانت جميعُها مثقّبة بالرّصاص .

إن أولئك الذين رشوّهم بالرّصاص ، ربّما كانوا متعجلين ليمضوا إلى مكان آخر ، فلم يتمهّلوا لكي يدفنوهم .

وفيما كان يهمّ بالابتعاد ، وقعت عيناه على جدارٍ منخفض كان في الباحة ، فرأى أربعة أقدام تبرز من خلف زاوية ذلك الجدار .

كانت تلك الأقدام تنتعلُ أحذية ، وكانت أصغر من الأقدام الأخرى ، فاقترب تيلمارش . لقد كانت أقدام نساء .

كانت امرأتان راقدتين جنباً إلى جنب ، خلف الجدار ، وقد أطلقت عليهما النار أيضاً .

انحنى تيلمارش عليهما ، كانت إحدى هاتين المرأتين ترتدي نوعاً من بزّة عسكريّة ، وكانت إلى جانبها مطرة محطمّة ومفرّغة ، فقد كانت بائعة مؤن ، وقد أصيبت بأربع رصاصاتٍ في رأسها ، وكانت ميتة .

عاين تيلمارش المرأة الثانية ، كانت فلاّحة ، وكانت ممتقعة الوجه ، وفاغرة الفم . كانت عيناها مغمضتين . ولم يكن في رأسها أيّ جرح . أما ملابُسها التي كانت ألوانُ التعب قد جعلت منها بلا شكّ أسمالاً ، فقد انفتحت عند سقوطها ، وكشفت جذعها العاري جزئياً . فأكمل تيلمارش إزاحة هذه الأسمال ، ورأى في أحد كتفيها جرحاً دائرياً أحدثته رصاصة ، وكانت الترقوّة مكسورة . نظر إلى ذلك الثّدي الكامد ، وهمس:

– أمٌّ ومرضعة .

لمسها ، فلم تكن باردة ، لم تكن لديها إصابة أخرى غير التّرقوة المكسورة والجرح في الكتف . وضع يده على القلب ، وشعر بنبضٍ ضعيف ، فلم تكن ميتة .

انتصب تيلمارش واقفاً ، وصاح بصوتٍ رهيب:

– أما من أحدٍ هنا إذن؟

فرّد عليه صوت جدُّ خفيض بحيث لا يكاد يُسمَع .

وفي الوقت نفسه ، خرج رأسٌ من ثغرةٍ في الخراب .

ثم ظهر وجةٌ آخر من كوخٍ آخر .

كانا فلاحين مختبئين ، وهما الوحيدان اللذان نجيا .

كان صوت المتسوّل المعروف قد طمأنهما وجعلهما يخرجان من الزّوايا المخفيّة التي كانا يكمنان فيها .

اقتربا من تيلمارش ، وهما لايزالان يرتجفان بشدّة .

كان تيلمارش قد استطاع أن يصرخ ، ولكنه لم يكن بمقدوره أن يتكلّم ، فالانفعالات العميقة هي على هذا النّحو .

دلهّما بإصبعه على المرأة الممدّدة عند قدميه .

قال أحد الفلاّحين:

– ألا تزال على قيد الحياة؟

فأومأ تيلمارش برأسه أنْ نعم.

وسأل الفلاّح الآخر:

– والمرأة الأخرى، هل هي حيّة؟

فأومأ تيلمارش برأسه أن لا.

أما الفلاّح الذي برز أوّلاً، فقد تابع يقول:

– إن الآخرين قد ماتوا جميعاً، أليس كذلك؟ وقد رأيتُ ذلك، وكنت في قبوي.

فكم يشكر المرء الله في مثل هذه اللّحظات لأنه ليس لديه أسرة! كان بيتي يحترق. أيها الرّب يسوع! فلقد قتلوا كلّ شيء. وكان لتلك المرأة أطفال. ثلاثة أطفال، جدّ صغار! كان الأطفال يصرخون: أمي! وكانت الأمّ تصرخ: أبنائي! لقد قتلوا الوالدة، وأخذوا الأطفال. لقد رأيت ذلك، يا إلهي! يا إلهي! إن أولئك الذين ذبحوا الجميع قد ذهبوا. وقد كانوا مسرورين. أخذوا الصّغار وقتلوا الوالدة. ولكنها لم تمتْ. أليس كذلك، لم تمتْ؟ فقلْ إذن، أيها المتسوّل، هل تظن أنه يمكنك إنقاذها؟ وهل تريد ان نساعدك على حملها إلى مخبئك المحفور.

فأومأ تيلمارش أنْ نعم

كانت الغابة تجاور المزرعة، وسرعان ماصنعوا محملاً من أوراق الأشجار والسّرخس. ووضعوا على المحمل المرأة التي ظلت بلا حراك، وأخذوا يسيرون في السّياج اليابس، فالفلاّحان يحملان المحمل، أحدهما من عند رأسها والآخر من عند قدميها، ويسند تيلمارش ذراع المرأة وهو يجسّ نبضها.

كان الفلاّحان يتحدّثان أثناء سيرهما، من فوق المرأة المضّرجة بدمائها والتي كان القمر يضيء وجهها الشّاحب. وكانوا يتبادلون عبارات التعجّب المذعورة.

– قتل كلّ شيء!

– إحراق كلّ شيء!

– أه! أيّها الرّب الإله! هل سنصبحُ الآن هكذا؟

– إن ذلك الرّجل العجوز الطويل هو الذي أراد ذلك.

– أجل، هو الذي كان يأمر.

– لم أره عندما قاموا بالإعدام. هل كان هناك؟

– كلاّ، كان قد مضى ولكن الأمر سّيان، فقد جرى كلُّ شيء بناءً على أمرٍ منه.

– كان قد قال: اقتلوا! احرقوا، ولا تعفوا عن أحد!

– إنه مركيز.

– أجل، فهو مركيزنا.

– وماذا كان اسمه إذن؟

– إنه السيد دولانتوناك.

رفع تيلمارش عينيه إلى السّماء وقال بصوت خفيض وغير مسموع:

لو كنت أعلم!

* * *

القسم الثاني

في باريس

الكتاب الأوّل

سيموردان

I

شوارع باريس في ذلك الزمن[1]

كان الناسُ يعيشون في العلن، فيأكلون على طاولاتٍ تُنْصبُ أمام الأبواب، وكانت النساء الجالسات على أدراج مداخل الكَنائس يصنعن أضمدةً وهن ينشدن المارسيلييز. وأصبح منتزهُ مونسو[2] واللوكسمبورحقلي مناورات، وكان في كلّ مفترقات الطرّق أماكنِ لتجارة وصنع الأسلحة في أوج نشاطها، فكان يجري تصنيعُ البنادقُ أمام أنظار المارّة الذين يصفقون، ولم تكن تسمع إلاّ هذه الكلمة في كلّ الأفواه: الصبر، إننا في ثورة. وكانوا يتبسمون ببطولة. وكانوا يذهبون إلى العرض المسرحي كما كانت الحال في أثينا إبّان حرب البيلوبونيز، وكانت تُرى في زوايا الشوارع إعلاناتٌ ملصقة عن

(١) يذكرّ قطع القصة بهذه الصفحات الطويلة التي تستحضر التاريخ بنية(نوتردام – باريس) التي يقطعُ الحبكة الروائية فيها بحثٌ في فنّ العصر الوسيط. – أما الفصل الأول، من خلال عرضِ هوامشه التي تتعاقب بعدم انتظام محسوب، ومسهب. من أجل خلق الجوّ، فهو مبني تماماً على طريقة الفصل المعنون سنة ١٨١٧ في البؤساء (الأول، الكتاب الثالث) – أن التوثيق صادرٌ بطبيعة الحال عن كافة المؤلفات التي رجع إليها فكتور هيغو عن الثورة أثناء سنوات تحضير الرّواية وهي: الثورة الفرنسية للويس بلان، وتاريخ روبيسبيير لإرنست هامبل. وباريس خلال الثورة (١٧٨٩–١٧٩٨) لسيباستييان ميرسييه. إلخ.

(٢) هذه هي الكتابة الحقيقية لاسم قرية قديمة: le parc monceaux (روشغود وديمولان: الدليل العملي عبر باريس القديمة، الصفحة: ٢٦٥).

مسرحيّات:

حصار تيونفيل – ربّة الأسرة التي أُنقذت من الحريق – نادي الخليّين – جانّ أولى البابوات النّساء – الفلاسفة الجنود – فنّ الحبّ في القرية – كان الألمان على الأبواب، وسرت شائعة بأن ملك بروسيا قد أمر بحجز شرفات في الأوبرا. كان كلّ شيء مخيفاً، ولم يكن أحدٌ خائفاً، وكان تشريعُ المشبوهين السّري، والذي هو جريمة ميرلان دودواي، يجعل المقصلة منظورة فوق كلّ الرّؤوس. وثمّة مفوّضٌ قضائيّ يُدعى سيران، وقد تمّ الإبلاغُ عنه، ينتظر أن يأتوا لتوقيفه، وهو يرتدي مبذله، وينتعل خفّه، ويعزف على النّاي عند نافذة منزله. لم يبدو أن أحداً لديه متّسع من الوقت، فكان الجميع في عجالةٍ من أمرهم، ومامن قبّعة لم تكن تحمل شعاراً، وكانت النّساء يقلن: إننا جميلاتٌ تحت القلنسوة الحمراء. وكانت باريس تبدو زاخرةً بنقلٍ للرّياش، وباعةُ السّقط من الأثاث كانوا تحت زحمة الأكاليل، وتيجان الأساقفة، والصّولجانات الخشبيّة المذهّبة وزهور الزّنبق، وسقط متاع البيوتات الملكيّة. لقد كان تقويضُ الملكية المطلقة هو الذي يجري. وكانت تُرى لدى الرّثاثين غفّاراتٌ كهنة، وكتوّناتُ رجال دين للبيع في متجر الثياب القديمة. وفي بورشورون وفي محلّ رامبونّو[1] كان ثمّة رجال يتلفّعون بغرابة بدروع كهنة وبطارش، ويمتطون حميراً مجلّلة بحللٍ بلا أكمام، يطلبون أن يُسكبَ لهم نبيذُ الحانة في حُقق قربان الكاتدرائيات. وفي شارع سان – جاك، كان هناك مبلّطون حفاة يوقفون نقّالة بائع جوّال يعرض أحذية للبيع، يشتركون لشراء خمسة عشر زوجاً من الأحذيةِ التي كانوا يرسلونها إلى المؤتمر الوطني من أجل جنودنا. وكانت التّماثيلُ النّصفيّةُ لفرانكلين، وروسّو وبروتوس، ولا بدّ من إضافة مارا، تتوفرّ بكثرة. وتحت أحد تلك التماثيل النّصفية لمارا، في شارع كلوش – بيرس. كانت تعلّق تحت الزّجاج، في إطار من الخشب الأسود، مرافعةٌ ضدّ مالويه، مع وقائع داعمة، وهذين السّطرين على الهامش (أعطيتُ هذه التفاصيل على يد عشيقة سيلفان بايي، المواطنة الجيّدة التي لها أفضالٌ عليّ – التوقيع: مارا) وفي ساحة باليه روايّال، كانت لوحتان كبيرتان مرسومتان بألوان

(١) البورشورون هي ضيعة صغيرة في الضاحية الباريسيّة في ذلك العهد(في حيّ سان – لازار) مشهورة بحاناتها التي من بينها حانة رامبونوّ. (١٧٤٢–١٨٠٢)

مائية، وتمثّل إحداهما كاييّه(دفتر) دوجيرفيل[1] وتشهرّ في الجمعية الوطنية بإشارة انضمام (المشاكسين) في آرل[2] وتمثل الأخرى منهما لويس السّادس عشر حين أُرجع من فارين بعربته الملكيّة، وتحت تلك العربة لوحة خشبية مربوطة بحبال تحمل في طرفيها راميي رمانات والحربة منصوبة على بندقيتهما، كانت هاتان اللوحتان تحجبان الكتابة التّالية على المنهل:

Quantos effundi in usus[3] كان هناك عددٌ قليل من الحوانيت الكبيرة مفتوحة وتتجوّل تجارةُ خرداوات وُطرَق متنقّلة تجرُّها نساء، وتنيرُها شموع، فيذوب شحمها على البضائع، وثمّة دكاكين في عزّ الريح تديرها راهباتٌ سابقات يعتمرن شعراً مستعاراً أشقر، فهذه مرّقعة ثياب تقوم برتق الجوارب في حانوت صغير، وقد كانت كونتيسّة، وهذه الخيّاطة قد كانت مركيزة. وكانت السّيدة دوبوفلير تسكن مستودعَ غلال ترى منه قصرها. وكان هناك منادون يركضون وهم يعرضون (أوراق الأخبار). وكانوا ينعتون الذين يخفون ذقونهم في ربطة عنقهم بمسلولي الغدد. أما المغنوّن الجّوالون فكانوا وفيري العدد، وكان الجمهورُ يطارد بصياحه السّاخربيتو، القوّال الملكيّ الجسور من جهة أخرى، فقد سُجن اثنتين وعشرين مرّة. وحوكم في المحكمة الثوريّة لأنه قد خبط على أسفل خاصرتيه وهو يلفظ كلمة: مواطنيّة. وإذ رأى أن رأسه في خطر، فقد هتف: ولكن عكس رأسي هو المذنب! وهذا ما أضحك القضاة وأنقذه. كان بيتو هذا يسخرُ من النّاس بأسماء يونانية ولاتينيّة، وكانت أغنيته المفضلة تدور على إسكافيّ كان يسميّه كوجوس cujus وكان يسمّي أمرأته بالسّيدة كوجوس: cujusdam. لقد كان الناس يؤدّون دورات لرقصة الكارمانيول، ولم يكونوا يقولون: الخيّال والسّيدة، بل يقولون: (المواطن والمواطنة). وكانوا يرقصون في الأديرة المهدّمة، ويضعون فوانيس على المذابح، وعِصوين على شكل صليب يحمل أربع شمعات على القبّة، وأضرحة

---

(١) محام سابق في محكمة باريس العليا، ووزير للداخلية في عام (١٧٩١).

(٢) كان(المشاكسون) هم الحزب المضاد للثورة، والمقتدر في آرل، حتى الحملة (التأديبية). التي نظمها اليعاقبة ضد المدينة (انظر بين، الثورة رقم ٣)

(٣) كم من الأشياء معروضة للاستعمال! (باللاتينية).

تحت الرّقص –كانوا يرتدون ملابسَ طاغيةٍ زرقاء، ويصنعون دبابيس للقمصان (على قلنسوة الحرّية) مصنوعة من حجارةٍ بيضاء وزرقاء وحمراء. وكان شارعُ ريشيليو يسمّىٰ شارع القانون. وكانت ضاحية سانت – أنطوان تسمّى ضاحية النصّر، وقد كان على ساحة الباسيتل تمثال الطبّيعة، وكانوا يشيرون إلى بعض المارّة المعروفين من مثل شاتليه، وديديه، ونيكولا، وغارنييه دولونيه والذين كانوا يحرسون باب النّجار دوبلاي، وفولاّن الذي لم يكن يتوانى يوماً واحداً عن حضور إعدام بالمقصلة، ويتبع حمولات عجلات نقل المحكومين، والذي كان يسمّي ذلك (الذّهاب إلى القداس الأحمر)، ومونفلامبير، المحلّف الثّوري والمركيز والذي كان يسمّي نفسه العاشر من آب: dix - aout. كان الناس ينظرون إلى تلاميذ المدرسة العسكريّة وهم يسيرون في رتل، والذين أهّلتهم مراسيم المجلس الوطني (كمرّشحين في مدرسة مارس) كما أهّلهم الشعب في صفحات روبيسبير) وكانوا يقرؤون بلاغات فريرون[1] التي تشهّر بالمشبوهين بجريمة(النزعة المساومة). وكان (الشبّاب الأنيقون) الذين يقومون بالتحريض عند أبواب دور العمدة، يسخرون من الزّيجات المدنيّة، ويتجمّعون عند مرور العروس والزّوج، ويقولون إنهم (متزوّجو البلديّة). وكانت تماثيل القدّيسين والملوك في الإنفاليد تعتمر قلنسوةً فريجيّة. وكانوا يلعبون بالورق على تخوم مفترقات الطرّق. وكانت ألعاب الورق في حالة تغيّرٍ كامل هي ايضاً؛ فبالملوكُ كان تُستبَدلُ العبقريّات، وبالبنات الحريّات، وبالصّبيان المساويات، وبالواحدات (الآس) الشّرائع[2] كانوا يحرثون الحدائق العامّة، وكان المحراث يشتغل في التّويلري. وكان يَختلطُ بكلّ ذلك، وخصوصاً في أوساط الأطراف المهزومة، تعبٌ من الحياة متعجرفٌ لاندري ما هو. وكان هناك رجلٌ يكتب في فوكييه – تانفيل:

---

(١) لويس – ماري – ستانيسلاس فريرون (١٧٥٤–١٨٠٢). ابن الصّحفي المناوىء لفولتير وللفلاسفة، هو الذي نظمّ الإرهاب في جنوب فرنسا، قبل أن يصبح أحد صانعي الرجعية التيرميدوريّة.

(٢) سوف يفيد أناتول فرانس في روايته: الآلهة عطشى من هذا التفصيل في العادات بصدد قصة البائع العجوز بروتو ديزيليت.

(تفضّلوا بأن تخلّصوني من الحياة. وها كم عنواني) وكان شانسانتز[1] قد اعتقل لأنه قد هتف في وسط الباليه روايّال: «إلى متى ثورةُ تركيا؟ أودّ أن أرى الجمهوريّة عند الباب» إن الصّحف في كلّ مكان. وصبيانُ صانعي الشّعر المستعار يجعّدون علناً شعوراً نسائية مستعارة في حين كان ربُّ العمل يقرأ صحيفة المونيتور بصوتٍ عال، وآخرون يعلّقون في وسط مجموعات من الناس، وبحركاتٍ كثيرة، على صحيفة انتاندون – نو (لنتفاهم)، صحيفة ديبوا –كرانسيه[28]، أولاترمُبيت دوبير بيلروز (نفير الأب بيلّروز). لقد كان الحلاّقون خنازيريّين في الوقت نفسه. وكانت ترى أفخاذُ خنزير، ومصارين سجق معلقةً إلى جانب لعبة تعتمرُ شعراً مذهباً. وكان هناك باعةٌ يبيعون على الطّريق العامة (خموراً جلبها مهاجرون)، وكان أحدُ الباعة يعرضُ خموراً من اثنين وخمسين نوعاً، ويرتزق آخرون من ساعاتٍ دقاقة على شكلٍ رباب، ومن أرائك بأسلوب الدّوقات، وكان أحد صانعيّ الشعر المستعار يضع (الشعّار التّالي) أحلقُ للإكليروس، وأمشط النبلاء، وأريح عامّة الشّعب. وكان الناس يسعون للتنبؤ بالورق على يد مارتان، في الرقم ١٧٣، شارع أنجو الذي كان دوفين سابقاً. كان هناك نقصٌ بالخبز، ونقصٌ بالفحم، نقصٌ بالصابون. وكانوا يرون مجموعاتٍ من الأبقار الحلوب تصل من الأرياف. وفي لافاليه، كان لحمُ الخروف يُباع بخمسة عشر فرنكاً لليبرة الواحدة . وكان هناك إعلان من الكومونة (الحكومة العامية) يخصِّص لكلّ فم ليبرةً من اللحم في كلّ عشارية[2] وكانوا يقفون في الصف أمام الباعة، وقد أصبح أحد تلك الصفوف أسطورياً، فكان يمتد من بابِ أحد البقالين في شارع بوتي كارو حتى منتصف شارع مونتورغوي. أما الوقوف في الصف فقد كان يسمى (الإمساك بالخيط) بسبب حبل طويل كان يمسك به باليد، والواحد منهم وراء الآخر، أولئك الذين كانوا في الرّتل[3] وكانت النساء في ذلك البؤس باسلات ورقيقات. وكنّ يمضين الليل في انتظار دورهن للدخول

(١) الفارس شانسانتز (هو مجادل مناهض للثورة، ومشارك في أعمال الرسل) وقد أعدم في عام ١٧٩٤.
(٢) أي الأسبوع الثوري المؤلف من عشرة ايام.
(٣) لقد زود الرّتل امام المخابز اناتول فرانس بمشهد هو من أكثر المشاهد تصويرية في روايته الآلهة عطشى.

إلى محل الخباز[1]. وكانت المساعي الملتوية تنجح في الثورة، فقد كانت الثورة تثير ذلك الكرب الواسع بوسيلتين محفوفتين بالمخاطر وهما: الأوراق النقدية (السندات) والحدّ الاقصى، فقد كانت الأوراق النقدية هي الرافعة، والحدّ الأقصى[2] هو نقطة الإرتكاز. لقد أنقذت هذه التجريبيّة فرنسا. وكان العدو، أكان عدوّ كوبلنتز، أم عدوّ لندن، يضارب مالياً بالأوراق النقدّية. وثمّة فتيات كنّ يذهبن ويجئن، ويعرضن ماءَ اللاّوند، وربطات السّاق، وضفائرَ الشعّر[3] ويقمن بالمضاربة (أي ربح الفرق بين الصّرف الورقيّ والمعدنيّ، المترجم: ز، ع). وكان هناك مضاربو بيرّون في شارع فيفيين، بأحذيتهم الموحلة، وشعورهم الدّهنيّة، وقلنسوتهم الوبريّة من ذيل الثعلب، وأشياع القديس مايول، في شارع فالوا بجزمانهم المدهونة بالشمع، والمسواك في أفواههم، والقبعة الوبرية على رؤوسهم، والذين تخاطبهم الفتيات بلا كلفة.

لقد كان الشعّب يطاردهم كما يطارد اللّصوص، ويسميهم الملكيّون بـ (المواطنين الفاعلين)[4] فيكون هناك، فضلاً عن ذلك، القليل جدّاً من أعمال السّرقة. إنه إملاقٌ مخيف، ونزاهة رواقيّة. كان الحفاةُ والجياع يمرّون وعيونهم مخفضة بوقار أمام واجهات باعة مجوهرات الباليه - إيغاليتيه. وفي زيارة منزليّة قد قام بها قسمُ أنطوان إلى بيت بومارشيه، قطفت امرأة زهرة

---

(١) من المحتمل أن يكون فيكتور هيغو قد فكر هنا بمشهد جعلته الأحداث القريبة شاهداً عليه: وهو: الأرتال على باب التجار إبان حصار باريس. وكان قد أنشد قبل ذلك بقليل في (السنة الرهيبة)١٨٧٢ مقرضاً بطولة النساء الباريسيات:

إنهن يقبلن كلّ شيء، نساء باريس، انطفاء موقدهن،
واقدامهن التي جرحها الجليد،
والانتظارات الليلية عند عتبة اللحامين السوداء.
(رسالة إلى إمرأة).

(٢) التشريع الذي كان يثبت الأسعار القصوى، أسعار المواد الغذائية، والذي كانت نتيجته هو إخفاء الأقوات و(السّوق السّوداء) في ذلك العهد.

(٣) مشتقة من كلمة cadenet (في عهد لويس الثالث عشر) وهو الشعر المضفور المستعار.

(٤)من باب الإشارة التهكمية للتمييز الذي يقيمه الدّستور في عام ١٧٩١ بين (المواطنين السلبيين)، و(المواطنين الفاعلين) وهم الذين كانوا يتمتعون بحق التصويت في الانتخابات، بناء على ثروتهم.

من الحديقة، فلطمها الجمهور. لقد كان الحطبُ يكلّف أربعمئة فرنكاً فضيّاً للحزمة، وكان يُرى في الشوارع أناسٌ ينشرون حطب سريرهم، شتاء، وكانت المناهل تتجمّد، ويكّلف الماء عشرين فلساً للخطّ[1] وكان كلّ الناس يعملون كناقلين للماء (سقّائين). وكان اللوّيسيّة الذّهبيّة تساوي ثلاثة آلاف وتسعمئة وخمسين فرنكاً. إن جولةً بعربة الجياد كانت تكلّف ستمئة فرنكاً وبعد يوم من الجولات بعربة الجياد، كان يُسمع هذا الحوار: - (أيّها الحوذيّ، بكم أدين لَك؟ - بستة آلاف ليرة. إن بائعة أعشاب كانت تبيعُ بما يعادل ألف فرنكاً في اليوم. وكان متسوّلٌ ما يقول: حسنةً منكم، أغيثوني! فينقصني مئتان وثلاثون ليرة لكي أدفع ثمن حذاءِ لي) وعند مدخل الجسور، كانت تُرى تماثيلٌ ضخمة وملوّنة لدافيد، وكان ميرسييه يشتمها قائلاً إنّها: دمىً تهريجيّة ضخمة من الخشب. وتلك التماثيل كانت تصوّر الائتلاف والتكتّل اللذين تمّ إسقاطهما. فما من خورٍ يصيب هذا الشعب. إنه الفرح القاتم بالانتهاء من العروش. وكان المتطوّعون يتدفقون، وهم يقدّمون صدورهم. وكلّ شارع كان يعطي كتيبة. وكانت أعلامُ المناطق تروح وتجيء، وكلٌّ منها يحمل شعاره. وعلى عَلَم منطقة الكبوشيين، كان يُقرأ: لن ينتصر علينا أحد. وعلى علم آخر: مامن نبلٍ إلاّ في القلب. وعلى كلّ الجدران، كانت هناك ملصقاتٌ إعلانّية، كبيرة، وصغيرة، بيضاء، وصفراء، وخضراء، وحمراء، مطبوعة ومخطوطة، ويُقرأ عليها مايلي: عاشت الجمهورية! وكان الأطفال الصّغار يتمتمون قائلين: سوف نتقدم.

هؤلاء الأطفال الصّغار كانوا هم المستقبل الهائل.

فيما بعد، أعقبت المدينةَ المأسويةَ المدينةُ الوقحة، فكان لشوارع باريس جانبان ثوريّان جدّ متميّزين، قبل وبعد التاسع من تيرميدور. إن باريس سان - جوستِ تفسح المجال لباريس تاليان، وفي ذلك، تضادّا الرّب المستمرّان، فبعد سيناء تبدّت فوراً لاكورتيْ[2]، إنه إفراطٌ في الجنون العام، هذا واضحٌ

(١) أي كمية الماء التي كان يمكن أن تملأ سطلين من سطال السقائين، أي ثلاثين ليتراً.
(٢) حديقة بيلفيل الشهيرة ذات الحانات الريفيّة.

للعيان. وكان ذلك قد شوهد قبل أربعة وعشرين عاماً. وقد خرج الناس من عهد لويس الرابع عشر كما خرجوا من عهد روبيسبيير، وهم في حاجة كبرى لتنفّس الصّعداء، ومن هنا أتى عهدُ الوصاية على العرش الذي استهلّ القرن، وعهدُ حكومة المديرين الذي يختتمه، احتفالا قصفٍ بعد عهدي إرهاب.

إن فرنسا تمسك بمفتاح الأرياف، خارج الدّير المغلق المتزمّت، وخارج ديرِ الحكم الملكي، بفرحِ الأمّة المنعتقة.

بعد التّاسع من تيرميدور، كانت باريس فرحة، في جوٍّ من المرح الضّالّ. إن فرحاً غير صحّي يطغى. ويعقب هوسَ الموت هوسُ العيش، وتحتجبُ العظمة. فكان هناك تريمالسيون[1] الذي يُدعى غريمود دولا رينيير[2] وحصل الجمهورعلى روزنامة ذواقة الطعام. لقد جرى تناولُ العشاء على صوت الابتهاجات في الطّابق المسروق (فوق الطّابق الأرضي، م:ز.ع). للباليه روايّال مع جوقاتِ نسائيةٍ تقرع الطبّل بالبوق، فقد هيمنت رقصةُ الرّيغودينييه[3] وتمّ تناولُ العشاء (على الطّريقة الشّرقيّة) في مطعم ميو، في وسط صحيفة المقبّلات المفعمة بالرّوائح العطرة. وكان بوز يصوّرُ فتياته البريئات والسّاحرات بوجوههن التي تبدو في السادسة عشرة من العمرَ، على هيئة (مُعدَمات بالمقصلة)، أي مكشوفات الرقبة والكتفين ومرتديات قمصاناً حمراء. وأعقبتَ الرّقصاتِ العنيفة في الكنائس المهدّمة الحفلاتُ الراقصة لروغجييري، ولوكية، وفنزيل ومودويت ولامونتانزييه، وأعقبت المواطنات الرّصيناتِ اللواتي كن يصنعن الضّمادات، السّلطاناتُ، والمتوحّشاتُ، وعرائسُ البحر، ويعقب أقدامَ الجنودِ الحافيةَ المغطّاة بالدّم، والوحل والغبار، والأقدامُ الحافية لنساءِ متزيّنات بالماسات. وفي

(١) غالباً ما أورد هيغو شخصية يقدمها بيرون على مسرح السّاتيريكون (القرن الأول بعد يسوع المسيح): إنها قصة «مأدبة التريمالسيون» قد بدت له خصوصاً بعد عام ١٨٥١ شاهداً نموذجيا على القصف عند محدثي نعمة الإمبراطورية.

(٢) ذواقة الطعام الذي لم تظهر روزنامته في الواقع إلا في زمن نابوليون.

(٣) الكلمة موجودة في كتاب الغونكور «تاريخ المجتمع الفرنسي في عهد حكومة المديرين» ١٨٥٥ الفصل الثالث، تحت شكل: ريغودونييه، العازف الذي أشاع رقصته «الريغودون» الشعبية جداً في القرن الثامن عشر.

الوقت نفسه الذي عاد فيه إلى الظهّور عدمُ الحياء وعدم النّزاهة، كان هناك في الأعلى المقاولون، وفي الأسفل «فئة اللّصوص الصّغار». إن تجمهراً للنشّالين يملأ باريس، وكان لزاماً على كلّ شخص أن يحرص على «son luc» أي على محفظة نقوده، فإحدى التّسليات الخفيفة كانت تتمثل في الذهاب إلى ساحة باليه دوجوستيس، لرؤيةِ السّارقات على المرقاة. وقد اضطرّوا أن يوثقوا لهن تنانيرهن، عند الخروج من المسارح. فقد كان هناك صبيان يعرضون عربات وهم يقولون: أيها المواطن والمواطنة، هناك مكان لإثنين. لم يعودوا يصرخونَ: الراهب الفرنسيسكاني العجوز وصديق الشعب. بل كانوا يصرخون رسالة الدمية وعريضة الصّبيان الوقحين. كان المركيز دوساد يرئسُ قسم الحراب، في ساحة فاندوم. وكانت الرّجعية جذلة وشرسة: وقد بُعِث تنانين الحرّية لعام ٩٢ تحت اسم فرسان بوانيار. وفي الوقت نفسه، ظهر فجأة على المسرح هذا النّموذج المسمّي جوكريس[١] وكانت هناك «النّساء الأنيقات المتطرّفات». وفيما يتعدّى الانيقات، وكانت هناك «الخارقات». وكان المرء يقسم بكلمته التي ضحّي بها[٢٩]، وبكلمته المستقاة من أرغته. وقد جرى التراجع من ميرابو حتى بوبيش[٢]. هكذا كانت باريس تروح وتجي، فهي السّاعة الدّقّاقة الهائلة للحضارة. إنها تلامس دوريّاً أحد القطبين والقطب الآخر، التيرموبيل وعمّوره. لقد اجتازت الثورة عام ٩٣ إخفائية فريدة، فبدا القرن أنه قد نسي أن يُنهي ما كان قد بداه، ولاندري أيَّ قصف قد تدخّل، فأخذ المحلّ الأوّل، وجعل القيامة المرعبة تتراجعُ إلى المحلّ الثّاني، تلك هي الرّؤيا المفرطة، ولقد قهقه هذا القصف بعد الذعر، وتلاشت المأساةُ في المحاكاة السّاخرة، وفي أعماق الأفق، محا دخانُ عيدِ المساخر ميدوز[٣] بصورة مبهمة.

---

(١) كان جوكريس، في الحقيقة الأمر، نموذجاً لأحمق سبق للقرن السّابع عشر أن عرفه، لو تظاهر بأنه جوكريس، لما أحببته أبداً. وهكذا تقول مارتين في مسرحية: النساء العالمات. ولكن الصّحيح أن تمثليات دورفيني (١٧٤٢–١٨١٢) الهزلية الخفيفة قد أدخلته تماماً في درْجة نهاية القرن الثامن عشر.

(٢) أن نموذج بوبيش، بهلول المعارِض، قد أبدع في عهدِ الإمبراطورية الأول.

(٣) قنديل البحر المضيء، وفي الأسطورة إحدى الغورغونات التي يقطع رأسها بيرسيه لكي تقدّم إلى أثينا. (م: ز، ع).

أما في عام ٩٣ الذي نحن فيه، فقد كان لايزالُ لشوارع باريس كلّ مظهرها العظيم والمخيف، مظهر البدايات. لقد كان لها خطباؤها، من أمثال فارليه الذي كان يطوف بتخشيبة متدحرجة، ويخطب من أعلاها في المارّة باستفاضة، كما لها أبطالها الذين كان يسمّى أحدهم «قبطان العصيّ المحدّدة»، وأثيروها، من أمثال غوفروا، مؤلفّ رسالة هجائية هي روجيف. ولقد كان بعضُ هؤلاء المتمتّعين بالشّعبيّة ذوي تأثيرٍ ضارّ، وكان آخرون منهم ذوي تأثيرٍ سليم. وكان واحدٌ من بين الجميع نزيهاً وحاسماً: إنه سيموردان.

* * *

II

ســيموردان

كان سيموردان ذا ضمير صاف. ولكنّه قاتم. كان يحملُ المطلق في داخله. كان كاهناً، وهذا أمرٌ خطير. فالإنسان يمكنه. شأنَ السّماء، أن يمتلك صفاءً معتماً. ويكفي أن يصنع الظلام في نفسه شيءٌ ما. كان الكهنوتُ قد صنع الليلَ عند سيموردان. ومن كان كاهناً يبقى كذلك[1] دائماً.

إن ما يصنع فينا الليلَ يمكن أن يترك لدينا النّجوم. وقد كان سيموردان مليئاً بالنّجوم والحقائق ولكنها النجوم والحقائق التي كانت تلمع في الظلّمات.

كانت قصته موجزة، فقد كان خوريّاً لقرية، ومرّبياً في بيت أناسٍ أكابر، ثم أتاه ميراث صغير، فغدا متحرّراً.

كان فوق كلّ شيء رجلاً عنيداً. وكان يستخدم التأمّل كما يستخدم المرء كمّاشة. ولم يكن يظنّ أن له الحقّ في أن يترك فكرةً إلاّ ذا وصل إلى نهايتها. وكان يفكرّ بمثابرة. ويعرف كلَّ لغات أوروبّا، وعدداً قليلاً من اللغات الأخرى. كان هذا الرّجل يدرس بلا توقّف، وهذا ما كان يعينُه على احتمالِ عفّته، غير أنّه مامن شيء أكثر خطورة من كبتٍ[2]، كهذا.

(١) إن هذا النّوع من التأملات، وهذا الأسلوب، يذكران بالصفحات التي تدور على الأديرة في البؤساء (القسم الثاني، الكتاب السادس والسابع).

(٢) سمة تذكر بكلود فرولو، كاهن نوتردام باريس – أما عن استخدم كلمة: كبت، بالمفهوم الذي أصبح سائداً، فهو استخدام لافت في ذلك الزمن. وليتريه لم يشر إلى هذا المعنى.

كان، باعتباره كاهناً قد تقيّد بنذوره، من باب الكبرياء أو الصّدفة أو سمّو النفس، غير أنه لم يكن بمقدوره الحفاظ على معتقده. وكان العلمُ قد هدم إيمانه، وتلاشت العقيدةُ في نفسه. حينذاك، عندما يتفحّص ذاته، كان يحسّ بأنه مبتور، وإذْ لم يستطع أن يتخلّص من كونه كاهناً، فقد أخذ يعمل على أن يعيد بناءَ نفسه إنساناً، ولكن بطريقة صارمة، كانوا قد انتزعوا منه الأسرة، فتبنّى الوطن، وحرموه من المرأة، فتزوّج بالبشريّة. إن هذا الامتلاء الهائل، في جوهره، هو الخواء.

كان والداه الفلاّحان، حين جعلاه كاهناً. قد أرادا أن يخرجاه من صفوف الشّعب، فانخرط في الشعب.

ولقد رجع إليه بحماسة. وكان ينظر إلى المتألّمين بعطفٍ مخيف. وتحوَّل من كاهنٍ إلى فيلسوف، وإلى فيلسوفٍ مصارع. وكان لويس الخامس عشر لايزال حيّاً، حين أخذ سيموردان يحسّ أنّه جمهوريّ بصورة غامضة بعض الشيء. ومن أيّة جمهورية؟ ربّما من جمهورية أفلاطون، وربّما أيضاً من جمهورية دراكون[1] وبما أنّه قد حظر عليه أن يحبّ، فقد أخذ يكره. كان يكره الأكاذيب، والحكم الملكيّ، والحكم الدّيني (التيوقراطي) ولباسه الكهنوتيّ. لقد كان يكره الحاضر، وينادي المستقبلِ بصيحات عظيمة، فقد كان يستشعره، ويستشفّه مسبقا، ويتكهّن به مرعباً ورائعاً، كان يتصوّر، بالنسبة إلى خاتمة البؤس البشريّ الذي يدعو إلى الرّثاء، شيئاً شبيهاً بمنتقم يكون محرِّراً. كان مولعاً بالكارثة إلى حدّ كبير. في عام ١٧٨٩، أتت هذه الكارثةُ. فوجدته مستعدّاً. كان سيموردان قد ألقى بنفسه في ذلك التجدُّد البشريّ بصورة منطقيّة. أي، بالنّسبة إلى فكرِ من جبلّته، على نحو لايرحم، فالمنطقُ لايلين. كان قد عاش السّنوات الثوريّة العظيمة، وأحسّ بارتعاشاتِ كلّ تلك الضّروب من العصف: عام ٨٩، وسقوط الباستيل، ونهاية عذاب الشّعوب، وعام ٩٠،

(١) غالباً جداً ما. يورد هيغو المشرِّع الأثينيّ من القرن السابع قبل الميلاد على أنه نموذجُ «المتصلب» بسبب العقوبات الصارمة التي يستنها.

والرابع من آب[٣٠]، ونهاية الإقطاعيّة، وعام ٩١، وفارين، ونهاية الملكيّة، وعام ٩٢، وإقامة الجمهوريّة، كان قد شهد نهوضَ الثّورة: ولم يكن رجلاً يخاف من تلك العملاقة. وبعكس ذلك، فقد كان ذلك النّمو لكل شيء قد أنعشه، ومع أنه قد أخذ يشيخ إلى حد ما -كان في الخمسين من عمره- ويشيخُ الكاهن على نحوٍ أسرع من أيّ إنسان آخر، فقد أخذ ينمو، هو أيضاً. ومن سنةٍ إلى سنة، كان قد نظر إلى الأحداث وهي تكبر، وقد كبر مثلها. كان يخشى في البداية أن تجهض الثورة، وكان يراقبها، فكانت على صواب وعلى حقّ، وكان يطلبُ أن تُحرز النجاح أيضاً. وبقدرما كانت ترعبُ، بقدَر ما كان يحسُّ بالاطمئنان.

وكان يريد أن تكون هذه المينرفا المكلّلة بنجوم المستقبل أن تكون أيضاً بالآس، وأن يكون ترسُها هو قناع الحيّات[١] كان يريد أن تتمكن عينه الإلهيّة من أن ترمي الشيّاطين عند الحاجة بالضّوء الجحيمي وأن تبادلها الرّعب بالرّعب. وهكذا وصل إلى عام ٩٣.

إن عام٩٣ هو حربُ أوروبا ضدَّ فرنسا، وحربُ فرنسا ضدَّ باريس. فما هي الثّورة؟

إنّها انتصارُ فرنسا على أوربا، وانتصارُ باريسٍ على فرنسا. ومن هنا تأتي جسامةُ هذه الدّقيقة المرعبة، ٩٣، الأضخم من كلِّ بقيّة القرن.

ما من شيء أكثر مأسوية، فأوروبا تهاجم فرنسا، وفرنسا تُهاجم باريس[٣١] إنها مأساةٌ لها قامة الملحمة.

إن عام ٩٣ هو سنة شديدةُ الحدّة. فالعاصفةُ ماثلةُ فيها بكلّ غضبها وبكل عظمتها. وكان سيموردان يشعربأنه مرتاح فيها. فهذا الوسطُ المهتاجُ والمتوحّشُ والبهيّ كان يلائم أبعاده الواسعة. كان لدى ذلك الرّجل، شأن نسرِ البحر،

---

(١) أن مينيرفا إلهة الميثولوجيا اللاتينينية، ترمز في نظر هيغو إلى الحكمة، وبالآس، الإلهة الإغريقية التي تجري مماثلة مينرفابها، تمثل بالاولى الألوهية الحربية التي كان يحمل ترسها رأس ميدوز الذي يعتمر الحيات.

هدوءٌ داخليٌّ عميق، يُضاف إلى ميلٍ لديه للمخاطرة من الخارج. إن بعض الطّباع المجنّحة، والمخيفة والهادئة، معدّةٌ للريّاح العظيمة. إن النفوس العاصفة هي شيء موجود.

كانت لديه رأفةٌ خاصّة، مخصّصةٌ للبؤساء فقط. ويُبدي إخلاصاً أمام ذلك النّوع من المعاناة الذي يبعث على الرّعب، ولم يكن هناك ماينفرّه، فقد كان ذلك هو نوعُ طيبته. كان مُغيثاً بصورة مقززّة وعلى نحو مطلق بكماله. كان يبحث عن القروح لكي يقبّلها. إن الأفعال الحميدة والقبيحة المنظر هي أصعبُ الأعمال التي نقوم بها، وقد كان يؤثرُ تلك الأعمال. وذات يوم في لوتيل - ديو(المشفى)، كان هناك رجلٌ مشرف على الموت. وقد خنقه تورّم في الحنجرة، وهو خرّاجٌ نتنٌ، ومقزّزٌ، وربّما مُعْد وكان ينبغي تفريغه في الحال. وكان سيموردان موجوداً هناك. فطبّق فمه علَى التورّم وامتصّه، وبصق ثانيةً ماكان فمهُ قد امتلأ به، وأفرغ الخرّاج، وأنقذ الرّجل. وبما انه كان لايزال يرتدي في ذلك الوقت رداءه الكهنوتيّ، فقد قال له أحدهم:

- لوصنعت هذا للملك، لأصبحت مطراناً - فردّ سيموردان قائلاً: - لن أفعل هذا للملك. فجعلهُ العمل والرّدُّ شعبيّاً في أحياء باريس القاتمة. بحيث كان يصنع من أولئك الذين يتألّمون، والذين يبكون والذين يتوعّدون، مايشاء. وفي عهد مشاعر الغضب ضدّ المحتكرين، وهي مشاعرُغضب خصبةٌ بالأغلاط، وكان سيموردان هو الذي منع بكلمةٍ منه نهب مركب محّملٍ بالصّابون في ميناء سان - نيكولا، وهو الذي شتّت التّجمّعات السّاخطة التي توقف العربات عند حاجز سان - لازار.

وكان هو الذي قاد الشّعب، بعد يومين من العاشر من آب، ليطرح أرضاً تماثيل الملوك. وحين سقطت، وقُتلت في ساحة فاندوم، امرأة هي: رين فيوليه، وقد سحقها لويس الرابع عشر الذي كانت قد وضعت في عنقه حبلاً كانت تسحبه. وقد ظلّ تمثال لويس الرابع عشر هذا منتصباً لمئة عام، فكان قد أُقيم في ١٢ آب لعام ١٦٩٢، وأسقط في ١٢ آب ١٧٩٢ وفي ساحة الكونكورد، فإن الرَّجل المدعوَّ غانغيرلو الذي نعت المهدّمين بكلمة: أوغاد!

قد صُرع على قاعدة تمثال لويس الخامس عشر، أما التمثال فقد حُطِمّ تحطيماً. وفيما بعد صنعوا منه فلوساً. وقد نجت الذّراع وحدها: وكانت هي الذّراع اليمنى التي كان لويس الخامس عشر يبسطها بحركة امبراطور رومانيّ وبناءً على طلب سيموردان إنما أعطى الشعّب هذه الذراع إلى لاتود، الرجل الذي دفن سبعة وثلاثين عاماً في الباستيل. وعندما كان لاتود يتعفّن حيّاً. في أعماق ذلك السّجن، والغلّ في عنقه، والأصفاد حول بطنه. بأمرٍ من ذلك الملك الذي يشرف تمثاله على باريس، كان يمكن أن يقول له إن ذلك السّجن سوف يسقط، وأن ذلك التمثال سوف يهوي، وإنه سيخرج من المدفن، وتدخل الملكيةُ إليه، وإنه هو السّجين، سيكون سيّداً على تلك اليد البرونزيّة التي وقعّت على حبسه، وإنه لن يتبقى من ذلك الملك الخسيس إلاّ تلك اليد البرونزيّة(١).

كان سيموردان من هؤلاء الرّجال الذين يمتلكون صوتاً في داخلهم، وهم يصغون إليه. فيبدو أن هؤلاء الرّجال ذاهلون. إطلاقاً، إنهم يقظون.

كان سيموردان يعرف كلَّ شيء ويجهل كلَّ شيء. كان يعرفُ كلَّ شيء عن العلم. ويجهل كلَّ شيء عن الحياة. ومن هنا يأتي تصلّبُه. كانت عيناه معصوبتين مثل تيميس هوميروس. وكان لديه اليقين الأعمى، يقينُ السّهم الذي لا يرى إلاّ الهدف الذي يمضي إليه. وفي الثوّرة. لا شيء أكثر إثارة للخوف من الخطّ المستقيم. وكان سيموردان يسير إلى الأمام، بصورة محتومة.

كان سيموردان يظنّ أن النقطة القصوى هي الأرضية الصّلبة، في التكوّنات الإجتماعية، وهذا خطأ خاصّ بالعقول التي تستبدل بالعقل المنطق. كان يتخطى المؤتمر الوطنيّ، وكان يتخطىّ الكومّونة (الثورة العمالية)، لقد كان من الأسقفيّة. كان الاجتماع، الذي يسمّى الأسقفيّة، لأنه يعقد جلساته في قاعة القصر القديم الأسقفيّ، كان تركيبةً معقدة من الرّجال أكثر مما هو اجتماع.

---

(١) إن هذا المقطع، من حيث الفكرة كما من حيث النبرة، يذكر بقصيدة: ثورة رياح الفكر الأربعة. والتي تكلمنا عليها في المقدمة، وخصوصاً ضروب القدح السّاخطة ضدّ لويس الخامس عشر.

فهناك، كانت يحضر، كما في مجلس الكومونة، هؤلاء المتفرّجون الصّامتون والمعبّرون والذين كانوا يحملون معهم كما يقول غارا (عدداً من المسدسات بقدر ما لديهم من جيوب). كانت الأسقفيّة[1] خليطاً غريباً متعدّد الاجناس وباريسيّاً، وهذا غير متناقص، لأن باريس هي المكان الذي ينبض فيه قلبُ الشّعوب[2] وهناك كان التوهّجُ العاميُّ الكبير. وبقرب الأسقفيّة، كان المؤتمر الوطني بارداً والكومّونة فاترة، فالأسقفية كانت إحدى التّشكيلات الثوريّة الشبيهة بالتشكّلات البركانية، كانت الأسقفيّةُ تحتوي كلّ شيء، الجهلَ، والحماقةَ، والنزاهةَ، والبطولةَ، والغضبَ، والشرّطةَ، وكان لبرونشفيك عملاء فيها. وكان فيها رجالٌ جديرون بأسبارطة، ورجالٌ يستحقّون سجنَ الأشغال الشّاقة. كان معظمُهم غضوبين ونزيهين. والجيروند، بلسان إيسنار، الرئيس المؤقت للمؤتمر الوطني، كان قد قال كلمة شيطانيّة: – احترسوا، أيها الباريسيّون. لن يبقى حجرٌ علي حجرٍ في مدينتكم، ولسوف يبحثون عن المكان الذي كانت باريس فيه يوماً – ولقد خلقت هذه الكلمة الأسقفيّة. أحسّ رجالٌ، وقد قلنا هذا منذ قليل، رجالٌ من كلِّ الأمم، أحسّوا بالحاجة[32] إلى الاحتشاد حول باريس. وكان سيموردان قد انضمّ إلى هذه الجماعة.

كانت هذه الجماعة تعملُ ضدّ المعاكسين. وكانت قد ولدت من تلك الحاجة العامة إلى العنف الذي هو الجانبُ المخيف والغامضِ للثورات. إن الأسقفيّة التي تعضدُها هذه القوّة، قامت بقسطها في ذلك حالاً. وفي هزّات باريس، كانت الكومّونة هي التي تطلقُ المدفع، وكانت الأسقفيّة هي التي تقرعُ ناقوسَ الخطر. كان سيموردان يظنّ، من خلال بساطته العنيدة، أن كلّ شيء إنصافٌ في خدمة الحق، وهذا ما كان يجعله جديراً بأن يسيطر على الأحزاب المتطرّفة. لقد كان الأنذالُ يشعرون أنه شريفٌ، وكانوا مسرورين لذلك. فهناك جرائمُ تتشجّعُ لأن فضيلةً ما تتصدّرُها. إن هذا يضايقهم ويروق لهم. فبالوّا، المعمارُ

(١) كان تيير وميشليه، في كتب التاريخ التي كتبا فيها عن الثورة، قد تكلما طويلاً على الأسقفية «فمن هناك» كما يكتب تيير، إنما كانت تنطلق الإقتراحات (الطروحات) الأشد إثارة.

(٢) تذكر هذه الجملة بمقدمة باريس – الدليل التي كتبها هيغو عام١٨٦٧ (انظر فيما بعد الحاشية في الصفحة: ٤٧٣ (الأصل الفرنسي طبعاً. م: ز. ع).

الذي كان قد استغلّ تدمير الباستيل، حين باع حجارته لحسابه، وإذْ كُلّف بتكليس زنزانة لويس السادس عشر، فقد غطّى، حماسةً منه، جدار العوارض بسلاسل وأغلال، وغرونشون، الخطيبُ المشبوه في ضاحية سانت - أنطوان والذي عُثر فيما بعد على قسائم مخالصةٍ له، وفورنييه، الأمريكي، الذي كان قد أطلق في ١٧ تموز، طلقة من مسدّسه مدفوعة الأجر، على لافاييت، وكما كان يُقال، من جيب لافاييت، وهنريو الذي نشأ في بيسّيتر، والذي كان خادماً، ومشعوذاً، وسارقاً، وجاسوساً، قبل أن يكون جنرالاً، ويصوّب المدافع على المؤتمر الوطنيّ، ولاريني، النائب الأسقفيّ السّابق لشارتر، والذي كان قد استبدل بكتابِ صلواته بيردوشيسن (الأب دوشيسن[1]) إن كلّ هؤلاء الرّجال كانوا محطّ احترام سيموردان، وفي بعض الأحيان، ولكي يمنع الأكثر سوءاً فيما بينهم من أن يتعثروا، كان يكفي أن يشعروا بأن ذلك الصّفاءَ المخيفَ الواثق منتصبٌ أمامهم، وعلى هذا النّحو إنما كان سان - جوست يُرعبُ شنايدر. وفي الوقت نفسه، كانت أكثريةُ الأسقفيّة المؤلّفة خصوصاً من أناس فقراء ومن رجالٍ عنيفين كانوا طيّبين، كانت تؤمن بسيموردان وتتبعه. وكان وكيلُه أو مرافقُه، كما نشاء، ذلك الكاهن الجمهوريّ الآخر، دانجو، الذي كان الشّعب يحبّه لقامته الطوّيلة، والذي كان قد عمّد رئيس الدير سي - بييه. وكان يمكن لسيموردان أن يصحب أينما يريد ذلك القائدَ غير الهيّاب، والذي كانوا يسمّونه جنرال لابيك (العميد الرّمح). وتريشون الجسور هذا، المدعو لوغران نيكولا، والذي كان قد أراد إنقاذ مدام دولامبال، والذي قدّم لها ذراعه، وجعلها تتخطىّ الجثث، وهذا ماكان بالإمكان أن ينجح بغضّ النظر عن المزاحة الشرّسة للحلاّق شارلو.

كانت الكومّونةُ تراقب المؤتمرَ الوطني، والأسقفيّةُ تراقب الكومّونة. أما سيموردان، ذلك العقل المستقيم، والذي ينفر من الدّسيسة، فكان قد حطمّ أكثر من خيطٍ خفيّ في يد باش، والذي كان بورنونفيل يسميّه (الرّجل الأسود). أما سيموردان، في الأسقفيّة، فقد كان على مستوى واحد مع الجميع. وكان

(١) أسقف وعلامة فرنسي، ومؤلف دراسات على تاريخ الكنيسة القديم (١٨٤٣-١٩٢٢). (م:ز.ع)

يستشيره دوبسان ومومورو. كان يتكلم بالإسبانية مع غوسمان، وبالإيطالية مع بيو، وبالإنكليزية مع أرتور، وبالفلمنكية مع بيريرا، وبالألمانية مع النمّساوي برولي، الإبن غير الشرعي لأمير. كان يخلق الوفاق بين التّنافرات. ومن هنا، يأتي وضعٌ له غامضٌ وقويّ. وكان هيبير يخشاه.

كان سيموردان يحوز، في تلك الأوقات. وضمن تلك المجموعات المأسوية، على قوّة المتصلبّين. فقد كان متشدّداً ويظنّ أنه معصوم. ولم يكنِ أحدٌ قد رآه يبكي. وهذه فضيلةٌ لايمكن بلوغهُا وهي جليديّة. لقد كان الرّجلَ المرعبَ العادل.

مامن موقف وسط في الثورة بالنسبة لكاهن. لم يكن باستطاعة كاهن أن يهب نفسه للمغامرة العجيبة الفاضحة في جلائها إلاّ للبواعث الأكثر دناءة أو الأكثر علوّاً، كان لا بدَّ أن يكون سافلاً أو سامياً. وكان سيموردان سامياً، ولكنه سام في العزلة، وفي الوعورة، وفي الدّكنة غير المضيافة، سام في محيط من الجروف. فالجبال الشّامخة تمتلك تلك العذريّة المشؤومة.

كان لسيموردان مجلى رجلٍ عاديّ. وهو يرتدي ملابس أيّاً كانت، وذات مظهر فقير. وحين كان شابّاً، كان مكلّل الرأس، وحين شاخ، أصبح أصلع، والشّعر القليل الذي بقي له كان شائباً[1] كانت جبهته عريضة. وعلى تلك الجبهة، كانت هناك علامةٌ يراها الملاحظ. وكانت لسيموردان طريقة في الكلام، مفاجئة، ومتحمّسة، واحتفاليّة. وصوتٌ آمرٌ، ونبرة حاسمة، وفمٌ حزين ومرير، ونظرةٌ صافية وعميقة، وعلى وجهه بكامله هيئةٌ ساخطة لاندري ماهي. كان ذلك هو سيموردان.

لا يعرف أحدٌ اسمَه اليوم. والتاريخُ يتضمّنُ مغمورين رهيبين من أمثاله.

* * *

---

(١) مظهرٌ جسماني يذكرّ أيضاً بكلود فرولّو، في رواية: نوتردام.

III

زاوية غير مبلّلة في السّتيكس[1]

هل كان رجلٌ كهذا إنساناً؟ وهل كان يستطيعُ خادمُ الجنسِ البشريّ أن يحمل مودّةً ما؟ ألم يكن روحاً إلى درجة مفرطة بحيث لا يمكنه أن يكون قلباً؟ وهذا العناقُ الهائلُ الذي كان يقبلُ كل شيء والجَميع، هل كان يمكنه أن يكرّس نفسه لأحدهم؟ هل كانت باستطاعة سيموردان أن يحبّ؟ لنقلْ ذلك. أجل.

حين كان شابّاً ومربّياً في منزلِ أميريّ تقريباً، كان لديه تلميذ، هو ابن المنزل ووريثه. وكان يحبّه. إن محبّة طفلٍ أمرٌ سهل جدّاً. فأيّ شيء لا نغفرة لطفلٍ؟ إننا نغفر له أن يكون سيّداً إقطاعيّاً، وأميراً، وأن يكون ملكاً. إن براءة العمر تجعل المرء ينسى جرائم السّلالة. وضعفَ الكائن يجعله ينسى المغالاة في المرتبة. وإنه من الصّغر بحيث يغفرُ المرءُ له كونه من كبار القوم. فالعبدُ يغفر له أن يكون السّيد. إن الشيّخ الزّنجي يعبد الصّبي الأبيض. لقد شغف سيموردان بتلميذه. فالطفولة تحتوي هذا الشيء الذي لا يوصف والذي يمكن أن تُفرَغ فيه كلّ ضروب المحبّة. إن كلّ ما كان بإمكانه أن يحبّ في نفس سيموردان قد وقع، تقريباً، على ذلك الطفلّ. لقد غدا هذا الكائنُ الرّقيقُ والبريءُ نوعاً من طريدة لذلك القلب المحكوم بالعزلة، كان يحبّه بكلّ أنواع الحنان في آن، كأب، وكأخ، وكصديق، وكخالق. لقد كان ابنه، الابن الذي ليس من جسده، بل من فكره. لم يكن الوالد، ولم يكن صنيعته، بل كان الأستاذ

---

(١) في الأساطير اليونانية: نهر في الجحيم، يلفها سبع مرّات، وتجعلُ مياهه من يُغمر فيه غير قابلٍ للانجراح. (م: ز. ع)

وكان هو رائعته. فمن ذلك السّيد الإقطاعيّ الصّغير، قد صنع رجلاً، ورجلاً عظيماً ربّما، فمن يدري؟ لأن هذه هي الأحلام، ومن غير علم العائلة - فهل يحتاج المرءُ، إلى إذن لكي يخلق عقلاً، وإرادةً، واستقامة؟ - كان قد نقل إلى الفيكونت الشابّ، تلميذه، كلّ التقدّم الذي أحرزه في ذاته، كان قد طعّمه بذلك الفيروس الرّهيب، فيروس فضيلته، وكان قد نفث في عروفه قناعته، ووعيه، ومثله الأعلى، وفي ذلك الدّماغ الأرستقراطيّ، كان قد سكب روحَ الشّعب.

الفكرُ يُرضِعُ، والعقلِ ثديٌ. ثمّة مماثلةٌ بين المرضع التي تعطي حليبها والمربّي الذي يعطي فكره. وأحياناً يكون المرّبي أباً أكثر من الأب، كما تكون المرضع غالباً أمّاً أكثر من الأمّ.

كانت تلك الأبوّة الرّوحيّة العميقة تربط سيموردان بتلميذه. وكان مجرّد رؤيته لذلك الطفل يثير حنانه.

لنضفْ ما يلي: إن استبدال الأب كان سهلاَ، فالطفّل لم يعدْ له أب. كان يتيماً، وكان والده ميتاً، وكانت والدته ميتة، ولم يكن له من يرعاه إلاّ جدّة عمياء، وشقيقُ جدٍّ غائب. ماتت الجدّة، أمّا شقيقُ الجدّ، ربّ العائلة، فرجلٌ مقاتل، وسيدٌ اقطاعيّ كبير، ومكلّف بمهمات في البلاط، وكان يهرب من برج العائلة القديم، ويعيش في فيرساي[1] ويمضي إلى القتال، ويترك اليتيم وحيداً في القصر المنعزل. فكان المربيّ هو السّيد إذن، بكلّ ما للكلمة من معنى. ولنضفْ أيضاً مايلي: كان سيموردان قد شهد ولادة الطّفل الذي كان تلميذه. والطّفل، الذي كان يتيماً وهو صغير جدّاً، قد تعرّض لمرض خطير، فأخذ سيموردان يسهرعليه نهاراً وليلاً، في ذلك الخطر المميت. إنه الطّبيب الذي يعالج، والممرّضُ الذي ينقذ، وقد أنقذ سيموردان الطّفل. فلم يكن تلميذُه يدين له بتربيته، وتعليمه، وعلمه فحسب، بل كان يدين له بالنقاهة والصّحة. ولم

(١) من خلال ذلك الماضي، ماضي رجل البلاط، يحتفظ لانتوناك بشيء من سيماء «الدوق دوريتيل» الذي كان هيغو قد فكرّ فيه في البداية لكي يجسد فرنسا في النظام القديم (انظر: مقدمتنا).

يكن تلميذه يدين له بأفكاره فحسب، بل يدين له بحياته. إننا نتولعّ بأولئك الذين يدينون لنا بكل شيء، وكان سيموردان مولعاً بذلك الطفل.

لقد حدث الابتعادُ الطبّيعي، ابتعادُ الحياة، فما إن انتهت التّربيةُ، حتى كان يتعيّن على سيموردان أن يدعَ الطفلَ ليصبح شابّاً. فبأية برودة وقسوة غير واعية تجري تلك الفراقات! وبأيّ ارتياح تصرِفُ العائلاتُ المربيَّ الذي يترك فكره لدى طفل، والمرضع التي تترك فيه صدرها! إن سيموردان الذي دُفعت له أجورُه وطُرد، كان قد خرج من عالم عليّة القوم، ورجع إلى العالم الأدنى، فلقد انغلق مجدّداً الحاجزُ بين الكبار والصّغار، والسّيد الإقطاعي الشابّ الذي كان ضابطاً بالمولد؛ فعيّن نقيباً دفعة واحدة، كان قد مضى إلى موقع عسكريّ ما، أما المربيّ المتواضع، الذي كان لا يزال في أعماق قلبه كاهناً متمرّداً. فقد أسرع في الدخول ثانية إلى ذلك الطّابق السّفلي المعتم للكنيسة، والذي كان يسمّى طابق صغار الكهنة، فانقطع سيموردان عن رؤية تلميذه.

جاءت الثّورةُ، واستمرّت ذكرى ذلك الكائن الذي صنع منه رجلاً كامنةً لديه، ومخبوءة. وليست مخمدةً بسبب ضخامة القضايا العامّة.

إن تشكيل تمثال وإعطاءه الحياة هو شيءٌ جميل، وتشكيل عقلٍ. وإعطاءه الحقيقة أكثر جمالاً أيضاً. لقد كان سيموردان هو بيغماليون(نحاتَ وصانع[1]) روحٍ معينة.

إن فكراً معيناً يمكن أن يكون له ابن.

هذا التلميذ، وهذا الطفل، وهذا اليتيم، كان الكائنَ الوحيدَ الذي أحبّه على الأرض. ولكن، حتى في مودّةٍ كهذه، هل كان رجلٌ كهذا قابلاً للانجراح؟

سوف نرى ذلك.

* * *

(١) الإيضاح بين قوسين من المترجم: (ز، ع).

الكتاب الثّاني

حانة شارع دوبان

I

مينوس وإياكويه ورادامانت[1]

كان هناك في شارع دوبان[2] حانة يسمونها مقهى، وكان لذلك المقهى غرفة خلفية أصبحت اليوم تاريخية، وفيها إنما كان يلتقي سراً تقريباً، في بعض الأحيان، رجالٌ مقتدرون إلى حدٍّ كبير، ومراقبون بحيث كانوا يترددون في التحادث فيما بينهم علناً.

إنما جرى تبادلُ قبلةٍ شهيرة، في ٢٣ تشرين الأول للعام ١٧٩٢ بين الجبل والجيروند علناً. وهناك، إنما أتى غارا بناء على معلوماتٍ في تلك الليلة الكئيبة، مع أنه لا يوافق على هذا الكلام في مذكّراته، وأوقف عربته على بون - روايال ليصغي إلى ناقوس الخطر[3].

---

(١) في الميثولوجيا الإغريقية: قضاة الجحيم الثلاثة، وأبناء زوس.

(٢) قريباً من مدرسة الطب الحالية، وكان مارا يقطن ليس بعيداً عن ذلك المكان، في شارع الكورديلييه.

(٣) إن كلّ إشارات هذا الفصل للصراعات في داخل المؤتمر الوطني تتبع قصص مؤرخي الثورة. (تيير ومشليه، ومذكرات غارا. إلخ) وكان غارا وزيراً للداخلية. وكان كلافيير يمسك بالماليه، باعتباره أول وزير جيروندي. وقد اعتقل في ٢ حزيران مع أصدقائه، فانتحر. «إن الليلة الكئيبة» هي الليلة التي سبقت سقوط الجيرونديين (٣٠-٣١ أيار) إلخ.

وفي ٢٨ حزيران للعام ١٧٩٣ ، رجال يجتمعون حول طاولة ، في تلك الغرفة الخلفية. لم تكن كراسيهم تتلامس ، وكانوا جالسين ، كلّ منهم إلى إحدى زوايا الطاولة ، تاركين الزاوية الرّابعة خالية. كانت السّاعة هي الثامنة مساءً تقريباً. وكان لايزال هناك ضوء في الشارع ، ولكن الغرفة الخلفية كانت معتمة ، وثمة مسرجة معلقة بالسّقف ، وهي تَرَفّ حينذاك ، تنيرُ الطاوّلة.

كان أوّل هؤلاء الرّجال شاحباً ، وشابّاً ، ورصيناً بشفتيه الرّقيقتين ونظرته الباردة. وكان لديه في خدّه عرّةٌ عصبيّة لا بدّ أنها تسبّب له الضيّق حين يتبسّمُ. كان يضع البودرة ، ويلبسُ قفازاً ، وثيابه منظفّة بالفرشاة ومزرّرة ، وكان رداؤه الأزرق الفاتح لا يحتوي ثنيةً واحدة. وكان يرتدي سروالاً من النانكين ، وجوربين أبيضين ، وعقدة عنق عالية ، وُصدْرةً مثنّاة ، وحذاء ذا أبازيم فضيّة. وكان الرّجلان الآخران ، أحدهما ضربٌ من عملاق ، والآخر ضربٌ من قزم. أما الطوّيل منهما ، الذي كان مكشوف الصّدر في رداءٍ من الجوخ القرمزيّ ، ورقبته العارية داخل عقدةِ عنق محلولة ، والسّاقطة إلى أخفض من الصُّدرة. وسترته المفتوحة بأزرارها المنتزعة ، فقد كان يحتذي جزمةً ذات طيّة ، وكان شعرُه منتصباً تماماً ، مع أن المرء يرى فيه بقيةً من تسريحةٍ معدّة ، وكان ثمة عفرة في شعره المستعار. كان على وجهه أثرُ الجدري ، وجعدةُ غضب بين حاجبيه ، وثنيةُ طيبة في زاوية فمه ، كانت شفتاه سميكتين ، وأسنانه كبيرة ، وله قبضةُ حمّال ، ونظرةٌ لامعة. أما القصيرُ فقد كان رجلاً أصفر اللون ، ويبدو ، وهو جالسٌ ، وكأنه مشوّه ، كان رأسه منقلباً إلى الخلف ، وعيناه محتقنتين بالدّم. ولديه بقع داكنة على الوجه ، ومنديلٌ معقود على شعرهِ الدّهني والسّابل. وليس له جبين ، بل فم هائل ومخيف. كان يرتدي سروالاً يصل إلى القدمين وبابوجاً[٣٣] ، وصدرةً يبدو أنها مصنوعة من السّاتان الأبيض ، وفوق الصّدرة وشاحٌ كان خطّ قاسٍ ومستقيم يجعل المرء يخمن في ثنياته وجودَ خنجر.

كان أوّل هؤلاء الرّجال يُدعى روبيسبيير ، والثاني دانتون والثالث مارا.

كانوا وحدهم في تلك القاعة، وكان أمام دانتون قدحٌ وزجاجةُ نبيذ مغطاةٌ بالغبار تذكرّ بكأس بيرة لوتير، وأمام مارا فنجان قهوة، وأمام روبيسبيير أوراق.

بقرب الأوراق، وكان المرء يرى إحدى تلك المحابر الثقيلة الرّصاصيّة، المستديرة والمضلّعة والتي يتذكرّها أولئك الذين كانوا تلاميذ في بداية ذلك القرن، وكانت هناك ريشة ملقاة إلى جانب ظرف أدوات الكتابة، وكان ختمٌ ضخمٌ نحاسيّ موضوعاً على الأوراق، ويقرأ المرء عليه palloy fecit (صنع بالوا) ويمّثل نموذجاً صغيراً دقيقاً للباستيل.

كانت خريطة لفرنسا مبسوطةً في وسط الطّاولة.

عند الباب، وفي الخارج، كان يقف كلبُ حراسةِ مارا، هذا المدعوّ لوران باس، مفّوض الرّقم ١٨ لشارع الكورديلييه والذي قيض له، في ١٣ تموز. أي بعد ذلك الثّامن والعشرين من حزيران بحوالي خمسة عشر يوماً، أن يوجّه ضربة كرسيّ إلى رأسِ امرأةِ اسمها شارلوت كورداي، والتي كانت في ذلك الوقت في كان، وتتفكّرُ بصورةٍ مبهمة. إن لوران باسّ قد كان حاملَ تجاربِ طبع كتاب، صديق الشّعب (لمارا. م: ز.ع). وقد أتى به سيّده. في ذلك المساءَ إلى مقهى شارع الطّاووس (ري دي بان)، وكانت تعليماته تأمره بأن يُبقي القاعة التي كان فيها مارا ودانتون وروبسبيير مغلقةً. وألاّ يدع أحداً يدخل إليها، إلاّ إذا كان من لجنة الخلاص الوطني، أو الحكومة البلدّية أو الأسقفيّة.

لم يكن روبيسبيير يريد أن يغلق الباب دون سان - جوست، ولم يكن دانتون يريدُ أن يغلقه دون باش، ولم يكن مارا يريد أن يغلقه دون غوسمّان[1].

كانت الجلسةُ قد استمرت وقتاً طويلاً حتى ذاك. وكان موضوعَها الأوراقُ المبسوطة على الطّاولة والتي كان روبسبيير قد تلاها. وأخذت الأصواتُ تتعالى. وكان ثمة أمرٌ يشبه الغضب الذي يدوّي بين هؤلاء الرّجال الثلاّثة. وكان المرءُ

(١) باش، عمدة باريس، وغوسمان رجلٌ إسباني لعب دوراً هاماً في اللجان التمردية (الثورية).

يسمع من الخارج أحياناً انفجارات كلاميّة. وكان يبدو، في ذلك العهد، أنّ عادة المنابر الشّعبيّة قد أسّست حقّ الإصغاء. وكان ذلك هو الوقت الذي كان ينظرُ فيه كاتبُ المحكمة فابريسيوس باريس من ثقبِ القفل إلى ما كانت تفعلُه لجنةُ الخلاص العام. وهذا، ولنقل ذلك بلا إلحاح، مالم يكن عديم النّفع، فباريس هو الذي حذّر دانتون في ليل ٣٠ إلى ٣١ آذار للعام ١٧٩٤[1] كان لوران باش قد طبّق أذنه على باب القاعة الخلفيّة التي كان فيها دانتون ومارا وروبيسبيير. فقد كان لوران باسّ يخدم مارا، ولكنه كان من الأسقفيّة.

* * *

(١) في ٣١ آذار إنما اقترح سان - جوست، في تقرير إلى لجنة الخلاص العام، توقيف الدانتونيين وهو التوقيف الذي نفذ في الليلة التالية.

Magna Testantur voce per umbras[1]

كان دانتون قد نهض للتوّ، وأرجع كرسيّه بسرعة، وصاح:

- اسمعوا. ليس هناك إلاّ أمرٌ واحد ملحّ، فالجمهوريةُ في خطر، ولاأعرف إلاّ شيئاً واحداً هو تخليصُ فرنسا من العدوّ. ولأجل هذا، كلّ الوسائل صالحة. كلّها! كلّها! كلّها! وحين يكون عليّ أن أتعامل مع كلّ المخاطر، ألجأ إلى كلّ الموارد. وحين أخشى كلّ شيء، أتصدّى لكلّ شيء. إن تفكيري كالاسد[2] وليس فيه معاييرنصفيّة. فما من تحشّمٍ في الثوّرة.

إن نيميزيس[3] ليست متعفّفة. فلنكن مرعبين ومفيدين. وهل ينظر الفيل إلى المكان الذي يضع فيه قائمته؟ لنسحقْ العدوّ.

فأجاب روبيبسبيير بهدوء:

- أنا موافق.

وأضاف:

---

(١) Admont, et magna testatur Voce Per umbras. (صوته العظيم المدّوي عبر الظلمات وقد رأينا أعلاه أن هيغو قد أطلق على شخصياته الأسماء القديمة لقضاة الجحيم الثلاثة).

(٢) كانت لغةُ أعضاء المؤتمر الوطني جذابة ومليئة بالصور. غير أنه لن يكون من الصّعب أن يتبين المرء، على مدى هذا الحوار، أن الشخصيات الثلاث تدين بالكثير أيضاً لمخيلة المؤدّي اللفظية. إن بقايا عام ٩٣ تشكل بضع صفحات لم يدمجها فيكتور هيغو في كتابه، وهي مخصصةٌ للتحليل المفصل لشخصيات أعضاء المؤتمر الوطني الكبار الثلاثة.

(٣) نيميزيس: إلهة الانتقام والعدالة التوزيعية الإغريقية.

– إن المسألة في أن نعرف أين هو العدوّ .

فقال دانتون:

– إنه في الخارج ، فقد طردته .

قال روبيسبير

– إنّه في الدّاخل ، وأنا أراقبه .

فردّد دانتون:

– سوف أطرده أيضاً .

– لا نطرد العدوّ من الداخل .

– ماذا نفعل إذن؟

– نبيده .

فقال دانتون بدوره:

– أنا موافق على ذلك .

وتابع يقول:

– أقول لك إنه في الخارج ، ياروبيسبير .

– يادانتون ، أقول لك إنه في الدّاخل .

– يادانتون ، إنه في الفانديه .

فقال صوتٌ ثالث:

– اهدأ ا ، إنّه في كلّ مكان . وقد هلكتم .

كان مارا هو الذي يتكلّم .

نظر روبيسبيير إلى مارا ثمّ سارع إلى القول بهدوء:

– لنكفّ عن التعميمات. إني أحدّد بدقة. وهذه هي الوقائع.

فدمدم مارا قائلاً:

– متحذلق!

وضع روبيسبير يده على الأوراق المبسوطة أمامه وتابع يقول:

– لقد قرأت لكما للتوّ رسائل بريور دولامارن، وأبلغتكما للتوّ بالمعلومات التي قدّمها هذا المدعوّ جيلامبر. اسمع، يادانتون، إن الحربَ مع الأجنبي ليست شيئاً، والحربُ الأهليّة هي كلّ شيء. إن الحرب مع الأجنبيّ سحجٌ في المرفق، والحرب الأهليّة هي القرحة التي تلتهم كبدك. من كلّ ماقرأته لكما للتوّ، ينتج مايلي: إن الفاندية المشتّتة حتى هذا اليوم بين بضعة زعماء هي بصدد التجمّع، ولسوف يكون لها من الآن فصاعداً قائدٌ وحيد . . .

فهمس دانتون:

– قاطع طريق مركزيّ.

وواصل روبيسبيير يقول:

– إنه الرّجل الذي نزل من مركب، بقرب بونتورسون في الثّاني من حزيران. وقد رأيتما من هو، لاحظا أن هذا النّزول يتزامن مع توقيف الممثلين المرسلين في مهمة، بريور دولاكوت دور، وروم في بايّو، على يد هذه المقاطعة الغادرة، مقاطعة الكالفادوس. في الثاني من حزيران، في اليوم نفسه.

فقال دانتون:

– ونقلهم إلى قصر كان.

فاستأنف روبيسبيير يقول:

– أتابع تلخيص الرسائل الرسمّية ، إن حرب الغابات تتنظم على مستوى واسع . وفي الوقت نفسه ، يتحضّر نزولٌ إنكليزي . الفانديّون والإنكليز . إنها بريطانيا مع بروتانيا ، إن أفظاظ[1] الفينيستير يتكلّمون اللغة نفسها التي يتكلّمها توبينامبو كورنواي[٣٤] ، ولقد وضعت أمام عيونكما قراءة اعتراضيّة لبويزاي يُقال فيها إن : «عشرين ألف رداء أحمر قد وزّعت على المتمرّدين سوف تجعل مئة ألفٍ منهم تتمرّد» . وحين يصبحُ التمرُّد الفلاّحيّ كاملاً ، يجري النّزول الإنكليزي هذه هي الخطّة ، فتابعاها على الخريطة .

وضع رويسبيير إصبعه على الخريطة ، وتابع يقول:

– للانكليز حرّية اختيار مكان النّزول ، من كانكال إلى بامبول ، كان كريغ يفضّل جون سان – بريو ، وكورنواليس جون سان – كاست . هذا تفصيل . فالضّفّة اليسرى لنهر اللوّار يحرسُها الجيشُ الفانديّ المتمرّد ، أمّا الفراسخ الثّمانية والعشرين التي لا حماية لها بين آسوني وبونتورسون ، فإن الأربعين خورنيّة النّورماندية قد وعدت بالدّعم . إن النّزول سيجري على ثلاثِ نقاط هي: بليران وإيفينياك وبلينوف ، ومن بليران ، سيذهبون إلى سان – بريو ، ومن بلينوف إلى لامبال ، وفي اليوم التّالي ، سيصلون إلى دينان التي فيها تسعمئة سجين انكليزيّ ، وسوف يحتلّون في الوقت نفسه سان – جوان وسان ميان ، فيتركون فيها خيّالة وفي اليوم الثالث ، سيتوجّه رتلان . أحدُهما من جوان إلى بيديه ، والآخر من دينان إلى بيشريل والتي هي قلعةٌ طبيعيّة ، والتي سيركزّون فيها وحدتي مدفعيّة (بطاريّتين) ، وفي اليوم الرابع ، يكونون في رين ، وهي مفتاح بروتانيا ، فمن يحصل على رين ، يحصل على كلّ شيء . وحين يجري احتلال رين ، تسقط شاتونوف وسان – مالو ، وفي رين ، هناك مليون خرطوشة وخمسون قطعةِ من مدفعيّة الميدان . . .

---

(١) التوبينامبو وليس التوبينامبور (كذا) كما تطبعها بعض الطبعات ، كانوا هنوداً من البرازيل وكان اسمهم يعني . في القرن الثامن عشر ، الجهل ، وبلادة الذهن ، المقارنة موجودة فيما سبق من خلال قصيدة هجائية شهيرة لبوالو ضدّ بيرو (١٦٨٧) . التي قيض لذكراها أن ترجع إلى هيغو أثناء قراءته لتجارب الطبع (انظر ، تنويعات منتقاة) : هل كان ذلك عند الأفظاظ ، وعند التوبينامبو؟

فهمس دانتون:

– ينهبونها.

وتابع روبسبيير:

– إني أنهي كلامي. فمن رين سوف تنقضُّ ثلاثةُ أرتال (طوابير):

الأوّل منها على فوجير، والآخر على فيتريه، والآخر على رودون.
وبما أن الجسور ستقطع، فإن الأعداء سوف يتزوّدون بالمؤن. وقد شهدتما هذه الواقعة المحدّدة، واقعة الجسور العائمة والرّوافد الخشبيّة، ولسوف يكون لديهم مرشدون بالنسبة للنقاط التي يمكن للخيالة عبورها. ومن فوجير، سوف ينتشرون إلى أفرانش، ومن رودون إلى أسوني، ومن فيتريه إلى لافال، ولسوف تستسلم نانت، فتستسلم بريست، وتسلّم رودون كلّ مجرى الفيلين، وفوجير، وتفتح فوجير طريق النّورماندي، وتفتح فيتريه طريق باريس. وبعد خمسة عشر يوماً، يكون لديهم جيشٌ من قطّاع الطرّق قوامُه ثلاثمئة ألف رجل، وتصبح بروتانيا بكاملها لملك فرنسا.

فقال دانتون:

– أي لملك بريطانيا.

– كلاّ، لملك فرنسا.

وأضاف روبسبيير.

– إن ملك فرنسا أسوأ، فيلزمُ خمسة عشريوماً لطردِ الأجنبي، وألف وثمانمئة عام للقضاء على الحكم الملكي.

وضع دانتون الذي عاد إلى الجلوس مرفقيه على الطّاولة، ورأسه [٣٥] بين يديه متفكرّاً.

قال روبسبيير:

– أترون الخطر . إن فيتريه تعطي الطّريق للانكليز .

رفع دانتون جبهته، وهوى بيديه الضّخمتين المتشنّجتين على الخريطة، كما على سندان .

– ياروبيسبيير، ألم تكن فيردان تفتح الطرّيق للبروسيين .

– وإذن؟

– وإذن . فلسوف نطرد الانكليز كما طردنا البروسيين .

ونهض دانتون مجدّداً .

وضع روبيسبيير يده الباردة على قبضة دانتون المحمومة .

– يادانتون، إن الشمّبانيا لم تكن مع البروسيّين، واستعادةُ فيردان ليست حرباً مع الأجنبيّ، أما استعادة فيتريه فهي حربٌ أهليّة .

وهمس روبيسبيير بنبرةٍ باردةٍ وعميقة:

– اختلاف جدّي .

واستأنف يقول:

– عدْ إلي الجلوس، يادانتون، وانظرْ إلى الخريطة، بدلاً من أن تضربها بقبضتك . غير أن دانتون كان غارقاً في تفكرّه . وهتف:

– ياله من أمر صعب! أن يرى المرءُ الكارثة في الغرب فيما هي في الشرّق . ياروبيسبيير، إني أوافقُ معك على أن انكلترا تقف على المحيط، ولكن إسبانيا تقف على البيرينيه . أما إيطاليا فتقف على الألب، وألمانيا تقف على الرّين، والدّبُّ الرّوسي الضخّم في العمق، ياروبيسبيير . إن الخطر دائرة ونحن داخلها . ففي الخارج، هناك الائتلاف، وفي الداخلِ هناك الخيانة . وفي الجنوب، يشقّ سيرفان باب فرنسا لملك إسبانيا . وفي الشّمال، ينتقلِ ديموريه إلى صفوف العدو . فضلاً عن ذلك، فلطالما كان يهدّد هولندا أقلّ مما يهدّد باريس . إن

نيرويند تمحو جيماب وفالمي. أما الفيلسوف رابو سانت – إيتيين الخائن باعتباره بروتستانتيّاً، فيتوافقُ مع رجل البلاط مونتسكيو. لقد أُبيد الجيش، وما من كتيبةٍ تضمّ اليوم أكثر من أربعمئة رجل، وقد استحال فوج دو ـ بون الباسل إلى مئة وخمسين رجلاً. وقد جرى تسليمُ معسكر بامار. ولم يبقَ في جيفيه إلّا خمسمئة كيس من الطحّين. ونحن نتراجع نحو لانداو. إن فورمسر يطارد كليبير، وما يانس تخسرُ المعركة ببسالة، وكونديه بجبن، وكذلك فالنسيين. وهذا ما لايمنع شانسيل الذي يدافع عن فالنسيين، والعجوز فيرو الذي يدافع عن كونديه من أن يكونا بطلين، وكذلك مونييه الذي كان يدافع عن مايانس، غير أن الآخرين جميعاً يخونون، فدارفيل يخون في إكس – لا– شابيل، وما هون يخون في بروكسيل، وفالانس يخون في بريدا، ونويي يخون في لمبور، وميراندا يخون في مايسترخت، وستينغل خائن، ولانو خائن، وليغونييه خائن، ومينو خائن، وديّون خائن، هذه هي عملة ديموريه المقزّزة. ولا بدَّ من إيراد أمثلة. إن نكوصات كوستين تثير الشبّهة لدي، فأنا أظن أن كوستيين يؤثر الاستيلاء المريح على فرانكفورت على الاستيلاء المفيد على كوبلينتز، ففرانكفورت يمكن ان تدفع غرامة حربية قدرها أربعة ملايين، وليكن ذلك. فماذا يعدّ هذا إلى جانب وكرالمهاجرين المخرّب؟ أقول إنه خيانة. لقد مات مونييه في ١٣ حزيران. وها قد أصبح كليبير بمفرده. وفي أثناء ذلك، يتضخّم برونشفيك ويتقدّم، ويرفع العلم الالماني على كافّة السّاحات الفرنسيّة التي يستولي عليها. إن حاكم براندبور العسكريّ (مارغراف) هو اليوم حَكمُ أوربا، إنّه يضع في جيبه مقاطعاتنا، ولسوف يلزَّمُ بلجيكا، ستريان، ويقول إننا نشتغل من أجل برلين، فإذا ما استمرّ هذا، وإذا لم نصلحْ الأمور، فإن الثورّة الفرنسيّة ستكون قد حدثت لصالح بوتسدام، وستكون لها نتيجة وحيدة هي تكبيرُ دولة فريدريك الثاني الصّغيرة، وسنكون قد قتلنا ملك فرنسا في سبيل ملك بروسيا[1].

فانفجر دانتون ضاحكاً بشكل مرعب.

(١) النموذج الكامل (درس التاريخ). حسب طريقة هيغو. ويخطر في ذهننا روي بلاس الذي يصف للوزراء انحدار إسبانيا، وقصائد عديدة من أسطورة القرون.

وجعل ضحكُ دانتون مارا يبتسم وهو يقول:

- لكلّ منكما فكرة ثابتة، أنت يادانتون. بروسيا، وأنت، ياروبيسبيير، الفاندية. ولسوف أكون دقيقاً، وأنا أيضاً. إنّكما لاتريان الخطر الحقيقي هذا هو: المقاهي والبيوت المشبوهة. إن مقهى شوازول يعقوبيّ، ومقهى باتان ملكيّ، ومقهى راندي - فو (اللّقاء) يهاجم الحرس الوطنيّ، ومقهى بورت سان - مارتان يدافع عنه، ومقهى ريجانس ضدّ بريسّو، ومقهى كورازامعه. إن مقهى بروكوب يحلف بديدرو، ومقهى التياتر فرانسيه يحلف بفوليتر، وفي الرّوتوند، يمزّقون النّقد الورّقي، ومقاهي سان - مارسو ساخطة، ومقهى مانوري يحرّك مسألة الطحيّن، وفي مقهى فوا، هناك ضوضاء ولطمات، وفي بيّرون هناك طنينُ زنابير المال. هذا هو الأمرُ الجدّي.

لم يعد دانتون يضحك، أما مارا فكان يبتسم دائماً. إنّها ابتسامة قزم، وهي أسوأ من ضحكة جبّار.

وزمجر دانتون:

- هل تسخر يامارا؟

فصدرت عن مارا تلك الحركة التشنّجيّة من وركه والتي كانت شهيرة، وكانت ابتسامته قد تلاشت.

- أه! إني انتقم منك، أيّها المواطن دانتون. فأنت فعلاً من أطلق عليّ تسمية: «الشّخص مارا» في قلب المجلس الوطنيّ. اسمع، إني أسامحك. فنحن نجتاز مرحلة حمقاء. أه! هل أسخر؟ وفي الحقيقة، أيّ رجلٍ أنا؟ لقد شهّرت بشازو، وشهّرت ببيتيون، وشهرت بكيرسان، وشهّرت بموريتون، وشهّرت بدوفريش - فالازية وشهّرت بليغوينيه، وشهّرت بمينو، وشهّرت ببانفيل، وشهّرت بجانسونّيه، وشهّرت ببيرون، وشهّرت بليدون وشامبون، فهل أخطأتُ؟ إني أشتمُّ الخيانة في الخائن، وأجدُ من المفيد أن أشهّر بالمجرم قبل الجريمة. وقد اعتدتُ على أن أقول في اليوم الفائتْ ماتقولونه أنتم في اليوم

التّالي. أنا الرّجل الذي عرض على المجلس التشريعيّ خطةً كاملة للتشريع الجنائي. فماذا فعلتُ حتى الآن؟ لقد طلبت إعلامَ الأقسام من أجل تدريبها على الثوّرة. وسعيت لرفعِ الأختام عن العلب الكرتونية الإثنتين والثلاثين، وطالبت بالماسات الموضوعةَ في يدي رولان. وقد أثبتّ أن آل بريسّوتان قد أعطوا لجنة الأمن العام مذكرّات توقيف بيضاء، وأشرتُ إلى أعمال الحذف في تقرير لينديه عن جرائم كابيّه، وصوتّتُ على تنفيذ الحكم بالطّاغية بعد أربعة وعشرين ساعة. وقد دافعتُ عن كتائب المونكونسييْ والرّيبوبليكان، ومنعتُ قراءة رسالة ناربون ومالويه، وأعددت مذكرّة عن الجنود الجرحى، وسعيت لإلغاء لجنة السّتة، وتكهنّتُ مسبقاً بخيانة ديموريه في قضيّة مونس، وطلبتُ أن يؤخذ مئةُ ألف من أهل المهاجرين كرهائن عن المفوّضين المستسلمين للعدو، واقترحتُ أن يُعلنَ خائناً كلّ ممثل يجتاز الحواجز، وكشفتُ القناع عن الزّمرة الرّولاندية في اضطرابات مرسيليا، وأصررت على وضع جائزة لرأس إيغاليتيه[٣٦] الإبن، ودافعت عن بيسون، وتوخّيت التفقّد الإسمي لطرد إيسنار من مقعد المجلس، وسعيت للإعلان عن أن الباريسييّن قد اشتُهروا بخدمة وطنهم، وهذا هو السّبب في أنني قد عوملت على يد لوفيه باعتباري متقلّباً. ويطلب الفينيستير طردي، وتتمنى مدينة لودون نفيي. وترغب مدينة أميان أن تكمّمني، ويريد فوبور توقيفي، ويقترح لوكوانتر – بويرافو على المجلسُ الوطنيّ إعلاني مجنوناً. وإذن! أيّها المواطن دانتون، لماذا أتيت بي إلى اجتماعك السّريّ، إن لم يكن ذلك للحصول على رأيي؟ هل كنت أطلب إليك أن أكون فيه؟ على العكس من ذلك، فليس لديّ أيّ ميلٍ نحو المحادثات الثنائية مع مناوئي الثوّرة من مثل روبيسبيير ومن مثلك. فضلاً عن ذلك، فكان يتعيّن عليّ أن أتوقعّ هذا، إنكما لم تفهماني، لم تفهمني أنت أكثر من روبيسبيير، ولا روبيسبيير أكثر منك. فما من رجلِ دولةٍ هنا إذن؟ يجب أن نجعلكما والحالة هذه تتهجيّان السّياسة. يجب أن توضع لكما النقاط على الحروف. إن ماقلته لكما كان يعني مايلي: إنكما مخطئان كلاكما. والخطر ليس في لندن، كما يظنّ روبيسبيير. ولا في برلين. كما يظنّ دانتون. إنّه في باريس. إنه في غيابِ الوحدة، وفي

حقّ كلّ واحد في أن يسحب الأمور إلى ناحيته، بدءاًمنكما كليكما، وفي سحق العقول، وفي فوضى الإرادات. .

فقاطعه دانتون قائلاً:

- الفوضى! من يصنعها، إن لم يكن أنت ؟

ولم يتوقّف مارا عن الكلام:

- ياروبيسبيير، ويادانتون، إن الخطر هو في هذا العدد الكبير من المقاهي، وهذا العدد الكبير من المقامر، وهذا العدد الكبير من النّوادي، نادي السّود، ونادي الإتّحاديين، ونادي السّيدات، ونادي غير المنحازين والذي يرجع في تاريخه إلى كليرمون - تونيّر، والذي كان النادي الملكي لعام ١٧٩٠، والنادي الاجتماعي الذي ابتكره الكاهن كلود فوشيه، ونادي قلنسوات الصّوف الذي أسّسه الصّحفي برودوم إلخ. هذا بصرف النّظر عن ناديكم، نادي اليعاقبة، ياروبيسبييرو وناديكم، نادي الكورديلييه، يادانتون. إن الخطر في المجاعة التي تجعل ناقل الأكياس بلين يعلّق بمصباح البلدية فرانسوا دوني، خبّاز سوق بالو، وفي القضاء الذي شنق حامل الأكياس بلين لأنّه شنق الخبّاز دوني. الخطر في النّقد الورقيّ الذي تتدنىّ قيمته، ففي ري - دوتامبل، إن الورقة النّقدية من ذات المئة فرنك قد هوت إلى الأرض، وقد قال أحد المارّة، وهو رجلٌ من الشّعب. إنها لا تساوي عناءَ التقاطها. المضاربون والمحتكرون هذا هو الخطر. أما رفعُ العلم الأسود على دار البلديّة، فياله من تقدّم! إنكم توقفون البارون دوترينك، وهذا لايكفي. فلتقوموا بليّ عنق هذا الدّساس العجوز. دسّاس السّجون. هل تظنّون أنكم قد تخلّصتم من المأزق لأن رئيس المجلس الوطني يضع إكليلاً وطنيّاً على رأس لابيرتيش والذي أصيب بأربعين ضربة سيف في جيماب، والذي يوجهّه شينييه؟ مهازل وانتقالات بالقوارب. آه! إنكم لاتنظرون إلى باريس! آه! إنكم تبحثون عن الخطر بعيداً، في حين أنه قريب. فما فائدةُ شرطتكم، ياروبيسبيير؟ فلديكم جواسيسكم، بييان، في الحكومة البلديّة، وكوفينال،

في المحكمة الثورية، ودافيد، في لجنة الأمن العام، و كوتون، في لجنة الخلاص الوطني. أنتم ترون أنني مطّلع. حسناً، فتعلموا مايلي: إن الخطرُ فوق رؤوسكم، والخطرُ تحت أقدامكم. إنهم يتآمرون، ويتآمرون، ويتآمرون. إن المارة في الشوارع يقرؤون الصّحف بعضهم للبعض الآخر، ويهزّ كلّ منهم رأسه للآخر. إن ستة آلاف رجل، لا يحملون بطاقاتِ مواطنة، مهاجرين، وعائدين، وأنيقين[٣٧] وmathevons[١] مختبئون في الأَقبية، وفي مخازن الغلال، وفي الأروقة الخشبيّة للباليه روايّال. إن النّاس يقفون في الطّابور عند الخبّازين، والنّساء المسنّات يضمّمن أيديهن، على عتبة الأبواب، ويقلن: (متى نحصل على السّلام ؟ ومهما حاولتم أن تغلقوا على أنفسكم، لتكونوا بين أنصاركم، في قاعة المجلس التنفيذي، فنحنُ نعلمُ ماتقولون فيه، والدّليل، ياروبيسبيير، أن هذه هي الكلمات التي قلتموها لسان – جوست مساء الأمس: «إن باربارو يأخذ بالتكرّش، وهذا ماسيعيقه في هروبه». أجل إن الخطر في كلّ مكان، وخصوصاً في الوسط. ففي باريس[٣٨] السّابقون يتآمرون، والمواطنون يسيرون حفاة، والأرستقراطيّون الذين اعتقلوا في التاسع من آذار قد أخلي سبيلهم، وخيول التّرف التي ينبغي أن تُقطر بها المدافع على الحدود تلطخّنا برشاشها في الشوارع، ورغيف الخبز الذي يزن أربع ليبرات يكلّف ثلاثة فرنكات واثني عشر فلساً، والمسارح تقدّم مسرحيّاتٍ ملوّثة، ولسوف يسعى روبيسبيير لإعدام دانتون بالمقصلة.

فقال دانتون:

– هذا لا أصدّقه!

كان روبيسبيير ينظر إلى الخريطة باهتمام، فهتف مارا فجأة:

– مايلزمنا هو ديكتاتور. ياروبيسبيير أنت تعلم أنني أريد ديكتاتوراً.

---

(١) هذا الاسم الذي يطلق على مناهض الثورة: mathevon يرد في: تاريخ المجتمع الفرنسي إبان حكم المديرين (١٨٥٥) عند غونكور والذي أوردناه سابقاً، إلى جانب تسمية، «فهراوة المزعجين» chiffonistes تثأر للدم، وسكين الـ mathevon يثأر للدم. . (الفصل الرّابع عشر).

فرفع روبيسبيير رأسه وقال:

– أعلم، يامارا، أنت أو أنا.

فقال مارا:

– أنا أو أنت.

فدمدم دانتون بصوتٍ مكتوم!

– الدّكتاتوريّة، اقتربا منها!

رأى مارا تقطيبَ حاجب دانتون، فاستأنف يقول:

– عجباً، جهدٌ أخير. فلنتّفق. إن الوضع يستحقّ العناء. ألم نتّفق من قبل على يوم الحادي والثلاثين من أيار؟ إن المسألة الإجمالية هي أكثر خطورةً أيضاً من الجيرونديّة التي هي مسألة تفصيليّة. هناك جانب صحيح في مايقوله، ولكن الصّحيحَ كلّه، والصّحيحَ الحقيقيّ، هو ما أقوله. ففي الوسط، هناك الفيدرالية (الاتحادية)، وفي الغرب، هناك الملكيّة، وفي باريس، هناك النّزال بين المؤتمر الوطنيّ والحكومة البلديّة، وعلى الحدود، هناك تقهقرُ كوستين وخيانةُ ديموريبه. فما كلُّ هذا؟ إنّه تقطيع الأوصال. فما الذي يلزمنا؟ الوحدة، ففيها الخلاص، ولكن، فلنسرع. ينبغي أن تمسك باريس بحكومة الثّورة. فإذا أضعنا ساعة، يمكن للفانديين أن يكونوا في أورليان غداً، وللبروسيين أن يكونوا في باريس. إني أوافق لكم على هذا، يادانتون، وأتنازل لك عن ذلك، ياروبيسبيير. فليكن. حسناً، فإن النتيجة هي الدّكتاتورية. فلنأخذ الدكتاتوريّة، فنحن الثلاثة. نمثّل الثورة. نحن رؤوس سيربير[1] الثلاثة. ومن هذه الرؤوس الثلاثة، أحدُها يتكلّم، وهو أنت، ياروبيسبيير، والآخر يزمجر، وهو أنت، يادانتون..

وقال دانتون:

(١) كلبٌ يحرس الجحيم، ثلاثي الرؤوس، في أساطير الإغريق. (م:ز، ع)

– والآخر يعضّ ، وهو أنت يامارا .

فقال رويسبيير:

– ثلاثتها جميعاً تعضّ .

خيّم صمت ، ثم استؤنف الحوارُ مجدّداً مفعماً باهتزازاتٍ قاتمة .

– اسمع ، يامارا ، قبل أن يجري الزّواج ، ينبغي أن يتمّ التّعارف ، فكيف علمت بالكلمة التي قلتها بالأمس لسان – جوست؟

– هذا يعنيني ، يارويبيسيير .

– مارا!

– إن واجبي هو في الاستنارة ، وعملي في أن أستعلم .

– مارا!

– أحبّ أن أعرف .

– مارا!

– ياروبيسبيير ، أعلم ماتقوله لسان – جوست ، كما أعلمَ مايقوله دانتون للاكروا ، كما أعلم مايجري في رصيف تياتان ، في فندق لابريف ، وهو الوكر الذي تتردّد إليه جنيّات الهجرة ، كما أعلم مايجري في منزل آل تيل ، بقرب غونيس ، والذي هو في فالمرانج ، الإدارة السّابقة لمراكز البريد ، والتي كان يذهب إليها قديماً موري وكازاليس ، والتي ذهب إليها منذ ذلك الحين سييس وفيرنيو ، والتي يجري الذهاب إليها ، والآن ، مرّة في الأسبوع .

حينَ لفظت هذه الـ « . . يجري» ، نظر مارا إلى دانتون .

فهتف دانتون:

– لو كان لديّ قدرٌ ضئيل من السّلطة ، لكان ذلك رهيباً .

وواصل مارا يقول:

- أعرف ماتقوله، ياروبيسبيير، كما أعلم ما كان يجري في برج ديتامبل، حين كانوا يسمّنون فيه لويس السّادس عشر، بحيث أن الذئب والذئبة والجراميز قد أكلوا ست وثمانين سلّة من الدرّاق، في شهر أيلول وحده. خلال ذلك الوقت، كان الشعب جائعاً[1] أعلم هذا، كما أعلم أن رولان قد اختبأ في مسكنٍ يطلّ على باحةٍ خلفيّة، في شارع لاهارب، كما أعلم أن ستمئة من رماح ١٤ تموز كان قد صُنعت على يد فور، حدّاد الدّوق دورليان، كما أعلم مايصنعونه في منزل سانت إيلير، عشيقة سيلرّي، ففي أيام الرّقص، إنّ العجوز سيلّري هو الذي يفرك بنفسه، بالحوّار، الأرضيات الخشبيّة، أرضيّات قاعة الاستقبال الصّفراء لشارع نوف - دي - ماتوران. وكان بوزو وكيرسان يتناولان فيه العشاء، وقد تعشى فيه سالادان في السابع والعشرين منه. ومع من، مع روبيسبيير؟ مع صديقك لاسورس.

فهمس روبيسبيير:

- هذا هذر. إنّ لاسورس ليس صديقي.

وأضاف متفكرّاً:

- وفي الانتظار، هناك ثمانية عشر معملاً للأوراق النّقدّية المزوّرة.

تابع مارا بصوتٍ هادىء، ولكن برجفةٍ خفيفة كانت مرعبة:

---

(١) نقل رمزي للشخصية، حيث نلتقط موضوع التوسع الكبير المدرج في قصيدة: القيثارة كلها والتي أشرنا إليها: هل تسمعون مارا الذي يصيحُ في قبره؟
إن عضته للطغاة تمضي لتقبل العبد. . . .
إنه يقبض على العالم القديم، ويكشف جرحه. . .
إنه يشهر، ويسلم ويواسي، إنه يلعن
فالحرية المقدسة هو قاطعُ الطريق القاسي. .
فقيرٌ في حداد يؤثرّ فيه، وملكٌ مضرجٌ يفتنه
إن سخطه يحبّ، ويذرف دمعة رهيبة، إلخ.

– أنتم عصبةُ الرّجال المهميّن . أجل ، أنا أعرف كلّ شيء ، برغم مايسمّيه سان – جوست صمت الدّولة . . . . .

شدّد مارا على هذه الكلمة بنبرته ، ونظر إلى روبيسبيير ، وتابع :

– أعلم مايقال على مائدتك في الأيّام التي يدعو لوبا فيها دافيد ليأتي ويأكل من الطّبخ الذي تعدّه خطيبته ، إليزابيت دوبلاي ، زوجة أخيك المقبلة ، ياروبيسبيير أنا عين الشعب الهائلة ، ومن أعماق قبوي ، أنظر . أجل ، أنا أرى ، أجل ، أنا أسمع ، أجل ، أنا أعلم . إن الأمور الصّغيرة تكفيكم ، وأنتم معجبون بأنفسكم . إن روبيسبيير . يجعل السّيدة دوشالابر تتأمّله ، وهي ابنة المركيز دوشالابر الذي يلعب الويست (لعبة ورق) مع لويس الخامس عشر ، في المساء السّابق لإعدام داميان . أجل ، إن الرأس مرفوع ، وسان – جوست يسكن في ربطة عنق . ولوجاندريرتدي ملابس لائقة ، لاويّةً جديدةِ وصديريّاً أبيض ، وصدرة لكي يجعل الناس ينسون مئزره . إن روبيسبيير يتصوّر أن التاريخ سوف يرغب في أن يعرف أنه كان يرتدي سترةً طويلةً زيتية اللون في الجمعيّة التأسيسيّة ، ورداءً أزرق سماويّاً في المؤتمر الوطني . ولديه صورةٌ على كلِّ جدران غرفته . .

قاطعه روبيسبيير بصوتٍ أكثر هدوءاً من صوتِ مارا أيضاً ، وقال :

– وأنت ، يامارا ، لديك صورتُك في كلّ المجاري .

وواصلوا الكلام بنبرةِ محادثةٍ يزيد بطؤُها من عنفِ الرُّدور السّريعة ، ويضيــف إلى الوعيد سـخريةً لا ندري ما هي .

– ياروبيسبير ، لقد وصفت أولئك الذين يريدون قلب العروش بـ دون كيشوتات الجنس البشريّ .

– وأنت يامارا ، بعد الرابع من آب ، في العدد رقم٥٥٩ من صديق الشعب . آه . لقد حفظت الرّقم ، فهذا مفيد . وقد طلبت أن تُعاد إلى النبلاء ألقابهم ، وقلت : إن الدّوق يظلّ دوقاً دائماً .

– ياروبيسبيير، في جلسة السّابع من كانون الأوّل، دافعتَ عن المرأة رولان ضدّ فيار.

– كما دافع عنك أخي، يامارا، حين هاجموك عند اليعاقبة، ماذا يعني هذا؟ لا شيء.

– ياروبيسبيير، إننا نعرف غرفة مشاورات التويلرّي حيث قلت لغارا: أنا متعبٌ من الثورة.

– يامارا، في هذه الحانة إنما قبلّت باربارو، في ٢٩ تشرين الأوّل.

– ياروبيسبيير، لقد قلتَ لبوزو: الجمهورية، مامعنى هذا؟

– يامارا، في هذه الحانة نفسها إنما دعوتَ على الغداء ثلاثة مرسيليين من كل جماعة.

– ياروبيسبيير، إنك قد جعلت حمّالاً من سوق الهال مسلّحاً بعصا يحرسك.

– وأنت، يامارا، عشية العاشر من آب، طلبت إلى بوزو أن يساعدك في الهرب من مرسيليا متنكرّاً بهيئة جوكي.

– أثناء مقاضيات أيلول، اختبأت، ياروبيسبيير.

– وأنت، يامارا، أظهرتَ نفسك.

– ياروبيسبيير، لقد ألقيتَ على الأرض بالقلنسوة الحمراء.

– أجل، حين يعتمرها خائن. فما يزين ديموريه يدنّس روبيسبيير.

– ياروبيسبيير، لقد رفضت، أثناء مرور جنود شاتوفيو، أن تغطيّ بنقاب رأس لويس السّادس عشر.

– صنعت أكثر من تغطية رأسه، قطعته له.

تدخّل دانتون، ولكن كما يتدخّل الزّيت في النّار.

وقال:

– ياروبيسبيير، ويامارا، اهدأا .

لم يكن مارا يحبّ أن يُذكر اسمُه في المرتبة الثّانية، فاستدار وقال:

– بأيّ شيء يتدخل دانتون ؟

فثار دانتون، وقال:

– بماذا أتدخّل؟ بهذا: بأنه لا ينبغي أن يَكوَن هناك تقاتلُ بين الإخوة، وبأنه لاينبغي أن يكون هناك صراعٌ بين رجلين يخدمان الشّعب، وبأنه كفانا حرباً مع الأجنبي، وكفانا حرباً أهليّة، وسيكون أمراً مفرطاً أن تكون هناك حربٌ منزليّة، وبأني أنا مع صَنَعَ الثورة، وأني لا أريد أن تقوَّض. هذا هو الأمر الذي أتدخّل فيه.

فردّ مارا من غير أن يرفع صوته:

– تدخّل في تأدية حساباتك.

فصاح دانتون:

– حساباتي! اذهبْ لتسأل عنها في شعاب الأرغون، وفي الشمبانيا المحرّرة، وفي بلجيكا المغلوبة، وفي الجيوش التي قدّمتُ صدري أربع مّرات لرشق الرصّاص فيها! إذهب لتسأل عنها في ساحة الثورة، وفي مشنقة ٢١ كانون الثاني، في العرش الذي أُسقط، وفي المقصلة، تلك الأرملة. . .

فقاطع مارا دانتون:

– المقصلة عذراء، يرقدُ المرء عليها ولا يُخصبها.

فردّ دانتون قائلاً:

– وما يدريك عن ذلك، فقد أُخصبُها، أنا.

فقال مارا:

– سنرى .

وابتسم .

فرأى دانتون الابتسامة .

وصاح:

– يامارا ، أنت الرّجل المختبىء ، وأنا رجلُ الهواء الطلق ، ورأد الضّحى . وأكره الحياة الزاحفة . فلايناسبني أن أكون متوحّداً كذابة . إنك تسكن قبواً ، وأنا أسكن الشارع . وأنت لاتتواصل مع أحد ، وأنا ، يمكن لأي شخصٍ يمرّ أن يراني وأن يكلّمني .

فدمدم مارا:

– أيها الصّبيّ الجميل ، هل تريد أن تصعد إلى منـزلي؟

وإذْ كف عن الابتسام ، فقد استأنف بلهجةٍ حاسمة:

– يادانتون ، قدّم حساباً عن ثلاثة وثلاثين ألف ريال ، من النقود المعدنية ، والتي دفعها لك مونيموران باسم الملك ، بذريعة تعويضك عن منصبك كنائبٍ مفوض في الشّاتليه .

فقال دانتون بتعالٍ:

– لقد كنت من رجال ١٤ تموز .

– ومستودع الأثاث؟ وما سات التّاج؟

– كنت من رجال ٦ تشرين الأوّل .

– وسرقات صديقك الموثوق ، لاكروا ، في بلجيكا؟

– كنت من رجال ٢٠ حزيران .

– والقروضُ التي منحت للامونتا نسييه؟

– كنت أدفع الشّعب إلى العودة من فارين .

– وقاعة الأوبرا التي بُنيت بالنقود التي قُدّمت من عندك؟

– لقد سلحتُ أقسام باريس .

– والمئة ألف ليرة من الاعتمادات السريّة لوزارة العدل؟

– لقد صنعتُ العاشر من آب .

– ومليونا النفقات السّريّة للمجلس والتي أُخذت ربعها؟

– لقد أوقفتُ العدوّ وهو يتقدّم . ومنعتُ(٣٨) الملوك المتحالفين من العبور

فقال مارا:

– أيّها العاهر!

فانتصب دانتون بصورةٍ مرعبة ، وصرخ:

– أجل ، إنني مومس ، فقد بعتُ بطني . ولكنني أنقذتُ العالم .

كان روبيسبيير قد أخذ يقضم أظافره مجدّداً ، ولم يكن يستطيع أن يضحك وأن يبتسم ، فالضحكُ الخاطف عند دانتون ، والابتسام القارصُ عند مارا كانا ينقصانه . واستأنف دانتون يقول:

– أنا كالمحيط ، ولديّ مدي وجزري ، فحين يكون الجزرُ ، ترى أعماقي ، وحين يكون المدّ ، ترى أمواجي ،

فقال مارا:

– زبدُك .

فقال دانتون :

عاصفتي .

كان مارا قد نهض في الوقت ذاته الذي نهض فيه دانتون ، فقد انفجر هو أيضاً . وغدا الحفث فجأة تنيناً ، وصاح:

– أه! أه! ياروبيسبيير! أه! يادانتون! إنكما لا تريدان الإصغاء إليّ! حسناً ، إني أقول لكما إنكما هالكان . وسياستكما تؤدّي إلى استحالات الذهاب إلى أبعد ، ليس عندكما مخرج ، وأنتما تقومان بأمورٍ تغلق أمامكما كل الأبواب ، باستثناء باب القبر .

فقال دانتون:

– هذه هي عظمتُنا .

وهز كتفيه .

فتابع مارا يقول:

– يادانتون ، احترسْ ، فإن فيرنيو أيضاً له فمٌ واسع ، وشفتان سميكتان ، وحاجبان غاضبان ، وفيرنيو أيضاً مجدورٌ مثل ميرابو ومثلك . وهذا لم يمنع الواحد والثلاثين من أيار . أه! أنت تهز كتفيك . إن هزّ الكتفين يجعل الرأس يهوي أحياناً . إني أقول لك ، يادانتون ، إن صوتك الضخم ، وربطة عنقك الرّخوة[٣٩] وجزمتك الطرّية . ووجبات عشائك الصغيرة ، وجيوبك الكبيرة ، كل ذلك يخصّ لويزيت .

كان لويزيت هو الاسم المحبب الذي يطلقه مارا على المقصلة .

وواصل يقول:

– أما أنت ، ياروبيسبيير ، فأنت معتدل ، غير أن هذا لن يفيدك في شيء . فاذهبْ ، وضع البودرة ، ورتب شعرك ، ونظّف ثيابك بالفرشاة ، وازْدَهِ ،

لتكن لديك بَدَلات قطنية ، وكن متكلفاً ، ومتموّج الشعر ، مجعّده ، فتبقى مع ذلك قادراً على الذهاب إلى ساحة غريف ، واقرأ تصريح برونشفيك ، فلسوف تُعامَل مثل داميان ، قاتلِ الملك مع ذلك ، وتتأنق في لباسك بانتظار أن تجرّك أربعة خيول .

فقال روبيسبيير بصوتٍ خافت:

- صدى كوبلينتز!

- ياروبيسبيير ، أنا لست صدىً لأي شيء ، وأنا صرخة كل شيء . آه! إنكما شابان ، أنتما . فكم عمرك يادانتون؟ أربعة وثلاثون عاماً . وكم عمرك ياروبيسبيير؟ ثلاثة وثلاثون ، حسناً ، فلطالما كنت حيّاً ، فأنا المعاناة البشرية القديمة ، وعمري ستة آلاف عام .

فردّ دانتون قائلاً:

- هذا صحيح ، فمنذ ستة آلاف عام ، احتفظ قايين بحقده كالضفدع في الحجر ، وحين تنكسرُ الكتلة ، يقفز قايين بين البشر ، فيكون مارا[1] .

فصاح مارا:

- وإذن ، ماذا ؟

هكذا كان يتكلم هؤلاء الرجال المخيفون الثلاثة . في شجارٍ كقصف الرعود . .

* * *

(١) تذكر الجملةُ بإحدى التفصيلات الموسعة لقصيدة في ديوان: التأملات: مايقوله فمُ الظلام .

III

ارتعاد الأعصاب العميقة

مرَّ الحوار بفترةٍ هدنة؛ وعاد كلٌّ من هؤلاء الجبابرة للحظةٍ من الزمن إلى تأمُّله .

إن الأسود تقلق من الأفعوانات . وكان روبيسبيير قد غدا شديد الشحّوب ، ودانتون شديد الإحمرار . وأحسّ كلٌّ منهما برعدة . وكانت حدقةُ مارا الوحشيّة قد انطفأت . وارتسم الهدوءٌ مجدداً على وجه ذلك الرّجل الذي يهابه المخيفون ، وهو هدوء قهري .

كان دانتون يشعر أنه مغلوب ، ولكنه لم يكن يريد أن يرضخ ، فاستأنف يقول:

– إن مارا يتكلم عالياً جدّاً على الدّكتاتورية والوحدة ، غير أنه ليس لديه إلا قدرة وحيدة ، وهي التفكيك .

وأضاف روبيسبيير ، وهو يرخي شفتيه الضّيّقتين:

– أنا ، أوافق أناكارسيس كلوتس رأيه ، وأقول: لا رولان ، ولا مارا .

وردّ مارا:

– وأنا أقول: لا دانتون ، ولا روبيسبيير .

وحدّق بهما كليهما ، وأضاف:

– دعاني أعطيكما نصيحة، يا دانتون. أنت مغرم، وتفكّر بالزّواج[1] فلا تتدخلْ بالسياسة بعد الآن، وكن عاقلاً.

وحياهما تحيّة مخيفة، وهو يتراجع خطوةً نحو الباب ليخرج، ويقول:

– وداعاً، أيها السّادة.

فأحسّن دانتون وروبيسبيير برعشة.

وفي تلك اللحظة، ارتفع صوتٌ من داخل القاعة، وقال:

– أنت مخطىء، يا مارا.

استدار الجميع. وأثناء انفجار غضب مارا، ومن دون أن يلاحظوا ذلك، كان أحد الأشخاص قد دخل من الباب الداخلي.

قال مارا:

– هذا أنت، أيّها المواطن سيموردان؟ صباح الخير.

كان ذلك هو سيموردان فعلاً.

وردّد قائلاً:

– أقول إنك مخطىء، يا مارا.

فاخضّر لونُ مارا، وكانت ذلك هو أسلوبه في الشحوب.

وأضاف سيموردان:

– أنت مفيد، ولكن روبيسبيير ودانتون ضروريان. فلماذا تهددهما؟ الاتحاد! الاتحاد، أيّها المواطنون! إن الشعب يريد أن نتّحد.

(١) لقد فكر هيغو ربما بصفحات ميشليه الفريدة حول زواج دانتون مجدّداً (تاريخ الثورة، الكتاب: الحادي عشر، الفصل الثالث).

أحدث هذا الدخول تأثيراً كالماء البارد، وشأن وصول غريبٍ إلى مشاجرةٍ عائلية، فقد هدّأ، إن لم يكن الأعماق، فالسطح على الأقلّ.

تقدم سيموردان نحو المنضدة.

كان دانتون وروبيسبيير يعرفانه، وغالباً ماكانا يلاحظان في المنصّات الشعبية للمؤتمر الوطني ذلك الرّجل المقتدر الغامض الذي كان الشعب يحييه، ومع ذلك، فإن روبيسبيير، الشكلاني، قد سأل:

– أيها المواطن، كيف دخلت؟

فأجاب مارا بصوتٍ يحسُّ فيه المرءُ امتثالاً غير محدّد:

– إنه من الأسقفية.

كان مارا يجترىء على المؤتمر الوطني، ويقود الحكومة البلدية، ويخشى الأسقفية. هذا قانون لديه.

يحسّ بمارا يتحرك، ومارا يحسّ بهيبير يتحرك. وهيبير يحسّ ببابوف يتحرك. وطالما كانت طبقات ماتحت الأرض هادئة، يمكن للرجل السياسي أن يسير؛ غير أنه تحت الرّجل الأكثر ثورية، هناك ماتحت التربة، ويتوقف أكثر الناس جسارةً قلقين، حين يشعرون تحت أقدامهم بالحركة التي أحدثوها فوق رأسهم[1]. إن عبقرية الثوريين الكبار وفضيلتهم تكمن في معرفة التمييز بين الحركة التي تأتي من المطامع والحركة التي تأتي من المبادىء، ومحاربة الأولى، ومساندة الثانية منها.

رأى دانتون أن مارا ينثني. وقال:

– أوه! إن المواطن سيموردان ليس إضافةً زائدة.

ومدّ يده إلى سيموردان.

---

(١) فكرة أوحت بها دون شك الأحداث القريبة العهد، أحداث كومونة ١٨٧١.

ثم قال :

– تباً ! لنشرح الوضع للمواطن سيموردان فهو يصل في الوقت المناسب . إني أمثل الجبل ، وروبيسبيير لجنةَ الخلاص الشعبيّ ، ويمثّل مارا الحكومةَ البلديّة ، وسيموردان يمّثل الاسقفيّة ، ولسوف يفصل فيما بيننا .

فقال سيموردان بجدّية وبساطة:

– فليكنْ! فعلى ماذا يدور الأمر؟

فأجاب روبيسبيير:

– على الفاندية .

فقال سيموردان .

– الفاندية؟

ثم تابع يقول:

– إنها التّهديد الكبير؛ فإن تمُتْ الثورة ، تمت على يد الفانديه . إن الفانديه تخيف أكثر من عشر دول كألمانيا . ولكي تعيش فرنسا ، يجب قتل الفانديه .

جعلته هذه الكلمات المعدودة يكسب روبيسبيير إلى صفّه . ومع ذلك ، فقد طرح روبيسبيير السّؤال التالي:

– ألست كاهناً سابقاً؟

إن هيئة الكاهن لم تكن تفلتُ من روبيسبيير ؛ فقد كان يتعرّف من خارجها ما كانت تتضمّنه في داخلها .

وأجاب سيموردان:

– نعم ، وهتف دانتون:

– وما معنى هذا ؟ حين يكون الكهنةُ جيّدين ، فهم يفضلون الآخرين .

وفي زمن الثّورة ، ينصهر الكهنةُ إلى مواطنين ، كما تنصهرُ الأجراس إلى نقودٍ وإلى مدافع .

– فدانجو كاهن ، ودونو كاهن . وتوماس ليندبه هو مطران إيفرو . وأنت يا روبيسبيير ، تجلس جنباً إلى جنب ، مع ماسيّو ، مطران بوفيه ، في المؤتمر الوطني . وقد كان فوجوا ، نائب الأسقف في لجنة انتفاضة العاشر من آب . وشابو كبّوشي . ودوم جيرل هو الذي أعدّ قَسَم ملعبِ الرّاحيّة ، ورئيس الدّير أودران هو الذي سعى إلى إعلان الجمعية الوطنية أعلى سلطة من الملك ، ورئيس الدير غوت هو الذي طلب من المجلس التشريعي نزع مظلة مقعد لويس السّادس عشر؛ ورئيس الدير غريغوار هو الذي حرض على إلغاء الملكية .

فقال مارا هازئاً :

– مدعوماً من المؤرخ كولو ديربوا؛ فكلاهما أنجزا العمل ، لقد قلب الكاهنُ العرش ، وأسقط الممثل الهزلي الملك .

قال روبيسبيير:

– لنعد إلى الفانديه .

فسأل سيموردان:

– حسناً! ماذا هناك؟ ماذا تفعل تلك الفانديه؟

فأجاب روبيسبير:

– ما يلي: إن لها زعيماً ، ولسوف تصبح مرعبة .

– من هو هذا الزعيم ، أيها المواطن روبيسبيير؟

– إنه المدعو بالمركيز السابق لانتوناك ، والذي يسمى نفسه بالأمير البروتانيّ .

وصدرت حركةٌ عن سيموردان ، وقال:

– إني أعرفه، فقد كنت كاهناً عنده.

وفكرّ للحظةِ من الزمن، ثم تابع يقول:

– لقد كان زير نساء[1] قبل أن يكون محارباً.

فقال دانتون:

–مثل بيرون الذي كان من أسرة لوزون.

وأضاف سيموردان متفكراً:

– أجل، لقد كان رجلَ ملذاتٍ سابقاً، ولابد أنه مخيف.

فقال روبيسبيير:

– فظيع. إنه يحرق القرى، ويجهز على الجرحى، ويذبحُ الأسرى، ويعدمُ النساء بالرّصاص.

– النّساء؟

– أجل. لقد أعدم بالرّصاص في عداد آخرين أمّاً لثلاثة أطفال. ولانعلم ما حدث للأطفال، فضلاً عن ذلك، فهو زعيم عسكري، ولديه معرفة بالقتال.

فردّ سيموردان:

– حقّاً. لقد حارب في هانوفر[2] وكان الجنود يقولون: ريشليو فوقنا، ولانتوناك تحته. إن لانتوناك هو الذي كان الجنرال الحقيقيّ. تكلموا عن ذلك إلى دوسّو، زميلكم.

مكث روبيسبيير متفكرّاً للحظةٍ من الزّمن، ثم استؤنف الحوارُ بينه وبين سيموردان.

---

(١) إشارة أيضاً تذكر بشخصية الدوق دوريتيل الذي كان هيغو قد فكر به.

(٢) في عامي١٧٥٧ – ١٧٥٨، في بداية حرب الأعوام السّبعة.

– حسناً، أيّها المواطن سيموردان، إن هذا الرجل موجودٌ في الفاندية.

– منذ كم من الوقت؟

– منذ ثلاثة أسابيع.

– يجب وضعه خارجاً على القانون.

– تمّ ذلك.

– يجب وضع جائزة ثمناً لرأسه.

– تم ذلك.

– ينبغي تقديمُ الكثير من المال لمن يقبضُ عليه.

– تمّ ذلك.

– ليس بالنّقد الورقيّ.

– تمّ ذلك.

– بل ذهباً.

– تمّ ذلك.

– ويجب إعدامه بالمقصلة.

– سيتمُّ ذلك.

– على يدِ من؟

– على يدك.

– على يدي؟

– أجل. ستكون مفوّضاً عن لجنة الخلاص الوطني بصلاحيّات تامّة.

فقال سيموردان:

– أقبل .

كان روبيسبيير سريعاً في خياراته ؛ وهي صفة من صفات رجلِ الدولة ، فأخذ من الملفّ الذي كان أمامه صحيفة من الورق الأبيض كان يُقرأ عليها هذا العنوان المطبوع:

الجمهورية الفرنسية، الموحّدة وغير المنقسمة. لجنة الخلاص الوطنيّ .

وتابع سيموردان يقول:

– أجل ، أقبل . مرعبٌ ضدّ مرعب . إن لانتوناك شرس ، ولسوف أكون كذلك . قتال حتى الموت مع ذلك الرّجل . لسوف أخلّص الجمهورية منه . إن شاء الله . وتوقف ، ثم استأنف يقول:

– أنا كاهن ، والأمر سيّان ، فأنا مؤمنٌ بالرّب .

قال دانتون:

– لقد شاخ الرّب .

فقال سيموردان بعدمِ تأثّر:

– أؤمن بالرّب .

وافق روبيسبيير المخيف ، بإشارةٍ من رأسه .

وأكمل سيموردان يقول:

– سأكون مفوّضاً لدى من؟

فأجاب روبيسبيير:

– لدى قائد طابور الحملة العسكرية المرسلة ضدّ لانتوناك . ألاّ أنني أخطرك بأنه أحد النبلاء .

فهتف دانتون:

- هذا ما لا آبهُ له أيضاً. رجل نبيل ؟ حسناً، وبعد ذلك ؟ إن الأمر بالنسبة للنبيل كما بالنسّبة للكاهن. حين يكون جيداً، يكون ممتازاً، فالنبالةُ رأيٌ مسبق، ولكن لاينبغي لهذا الحُكم أن يكون موجوداً لدى المرء في معنىً ما أكثر مما هو في معنى آخر، ولا أن يكون ضدّ أحد أكثر مما يكون لصالحه. ياروبيسبيير، أليس سان - جوست نبيلاً ؟ وفلوريل دوسان - جوست، تبّاً! إنّ كارسيس كلوتس بارون وصديقنا شارل هيس الذي لاتفوتُه جلسة من جلساتِ الكورديلييه هو أمير وشقيق الأمير الألماني (لاندغراف) الحاكم في هيس - روتنبور. ومونتو، الصّديق الحميم لمارا هو مركيز مونتو. وهناك في المحكمة الثّورية محلَّفٌ هو كاهن، واسمه فيلات، ومحلّفٌ هو نبيل، واسمه لوروا، وهو مركيز مونفلابير، وكلاهما موثوقان.

وأضاف روبيسبيير:

- إنك تنسى رئيس لجنة المحلّفين الثّوريّة. . .

- أنتونيل؟

وقال روبيسبيير:

- والذي هو مركيز أنتونيل.

وتابع دانتون:

- وثمة نبيل هو دامبيير الذي قتل منذ قليل أمام كونديه من أجلِ الجمهوريّة، وثمّة نبيلٌ هو بوربير الذي فضّل الانتحار بالرّصاص على أن يفتح أبوابَ فيردان للبروسيّين.

ودمدم مارا:

- هذا لا يمنعُ من أنه في اليومِ الذي قال فيه كوندورسيه: كان آل غراك نبلاء. صاح دانتون بكوندورسيه: كلّ النبلاء خونة، بدءاً من ميرابو وانتهاءً بك.

فارتفع صوتُ سيموردان الخفيض:

- أيّها المواطن دانتون، أيّها المواطن روبيسبيير. ربما تكونان على حقّ في ثقتكما، ولكن الشعب يرتاب، وليس مخطئاً في ريبته. فحين يكون كاهنٌ هو المكلف بمراقبة نبيل، تكون المسؤولية مضاعفةً وينبغي أن يكون الكاهنُ صارماً.

فقال روبيسبيير:

- بالتأكيد.

وأضاف سيموردان:

- ولا يرحم.

فتابع روبيسبيير:

- لقد قيل هذا حقاً، أيها المواطن سيموردان، فلسوف تواجه شاباً، وستكون لك سطوةٌ عليه، لأن عمرك هو ضعف عمره؛ وينبغي توجيهه، بل مراعاته. فيبدوأن لديه مواهب عسكرية، وكافة التقارير مجمعة على هذا. إنه في عداد فيلقٍ جرى فرزه من جيش الرّين ليمضي إلى الفاندية. وهو يصل من الحدود التي كان فيها مدعاةً للإعجاب في ذكائه وإقدامه. وهو يقود بصورة متفوقة طابور الحملة العسكرية. ومنذ خمسة عشر يوماً، يقوم بإفشال ذلك المركيز العجوزلانتوناك. إنه يردعه ويطردُه، ولسوف ينتهي به الأمر إلى حصره باتجاه البحر، ورميه فيه. أما لانتوناك فلديه مكرُ جنرالٍ عجوز. ويمتلك جرأة نقيبٍ شاب. لقد أصبح لهذا الشاب أعداء وحاسدون. فمساعد الجنرال ليشيل يغارمنه..

فقاطعه دانتون: ليشيل هذا، يريد أن يكون جنرالاً قائداً، وليس لديه إلا توريةٌ واحدة هي:«لابد من لشيل للصعود إلى شارّيت[1] وفي الانتظار، فإن شاريت يتغلب عليه».

(١) تلاعب بالكلمات، أي: لابد من السلم(l'echelle) للصعود إلى العربة (charette) (م ز، ع).

وتابع روبيسبيير:

- وهو لا يريد أن يتغلب على لانتوناك أحدٌ غيره. إن شقاءَ حرب الفاندية هو في هذه التنافسات. فجنودُنا ماهم إلاّ أبطالٌ ذوو قيادة سيئة. إن نقيباً بسيطاً في الخيالة، هو شيران[40]، يدخل إلى سومور مع نافخ بوق وهو يدقّ: سنمشي قدماً، ويحتلّ سومور، ويمكنه أن يتابع ويستولي على شوليه، إنما ليس لديه أوامر، فيتوقف. ينبغي تعديلُ كلّ قيادات الفانديه. وتجري بعثرةُ فيالق الحراسة، وتشتيتُ القوى؛ إن جيشاً مبعثراً هو جيش مشلول. إنه كتلةٌ نصنع منها غباراً. وفي معسكر باراميه، لم يعدْ هناك إلا الخيام. وبين تريغيه ودييان هناك مئة مركز صغير لافائدة منه، ويمكن أن تصنع منها فرقة وتغطيه السّاحل كلّه. إن ليشيل، مدعوماً من باران، يفرّغ السّاحل الجنوبي، ويفتح فرنسا للانكليز بهذه الصورة؛ فنصفُ مليون من الفلاحين المتمرّدين، ونزولٌ لانكلترا في فرنسا، تلك هي خطّة لانتوناك. إن القائد الشابّ لطابور الحملة العسكرية يضعُ السّيف في خاصرة لانتوناك، ويحصرُه، ويتغلّبُ عليه، من غير إذنٍ من ليشيل؛ والحال، فإن ليشيل رئيسه، لذلك فإن ليشيل يشي به. وقد انقسمت الآراء حول ذلك الشابّ، فليشيل يريد أن يعدمه بالرّصاص، وبريور دولامارن يريد أن يجعله مساعد جنرال.

فقال سيموردان:

- يبدو لي أن لهذا الشّاب صفاتٍ عظيمة.

- ولكن لديه نقيصة!

وأتت المقاطعةُ من عند مارا.

وسأل سيموردان:

- وما هي؟

فقال مارا:

- الرّحمة.

وتابع مارا يقول:

- إنه حازمٌ في المعركة، وليّنٌ بعدها. إنّه مؤمنٌ بالتّسامح، وهو يغفر، ويعفو، ويحمي الرّاهبات والمترهّبات، وينقذ النّساء والبنات الأرستقراطيّات، ويطلقُ سراح الأسرى، ويُفرج عن الكهنة.

فهمس سيموردان:

- خطأ فادح.

وقال مارا:

- جريمة.

وقال دانتون:

- أحياناً.

وقال روبيسبيير:

- غالباً.

واستأنف مارا:

- دائماً تقريباً.

وقال سيموردان:

- حين نواجه عدوَّ الوطن، دائماً.

فاستدار مارا نحو سيموردان، وقال:

- وماذا تفعل إذن بقائدٍ جمهوريّ يُخلي سبيل زعيمٍ ملكيّ؟

- أوافق ليشيل الرأي، وآمرُ بإعدامه بالرّصاص.

وقال مارا:

– أو بالمقصلة.

فقال سيموردان:

– اختيارياً.

فأخذ سيموردان يضحك، ويقول:

– أحبّ إحدى الطرّيقتين كما أحبّ الأخرى.

فدمدم مارا:

– أنت متأكدّ من الحصول على إحداهما أو على الأخرى.

أما نظرته التي تركت دانتون، فقد رجعت إلى سيموردان.

– وهكذا، أيّها المواطن سيموردان، إذا ما كبا زعيم جمهوريّ، فلسوف تقطعُ رأسه؟

– في غضون أربع وعشرين ساعة.

وأجاب مارا بسرعة:

– حسناً. إني أوافق روبسبيير الرأي، يجب إرسال المواطن سيموردان مفوضاً منتدباً من لجنة الخلاص الوطنيّ لدى قائد طابور الحملة العسكرية لجيش السواحل. فماذا يدعى هذا القائد؟

فأجاب روبسبير:

– إنه رجل سابق، ونبيل.

وأخذ يتصفّح أوراق الإضبارة.

وقال دانتون:

– فلنعط الكاهنَ للنبيل لكي يقوم برعايته، فأنا أرتاب بكاهنٍ يكون بمفرده، وأرتابُ بنبيلٍ يكون بمفرده، وحين يكونان معاً، لا أخشاهما، فكلٌّ منهما يراقب الآخر، ويسيران.

تزايد الغضبُ الخاص بحاجب سيموردان، ولكنه لم يستدر إطلاقاً نحو دانتون، فقد وجد أن الملاحظة صحيحة في أساسها، ورفع صوته العنيف قائلاً:

– إذا قام الآمر الجمهوريّ الذي عُهد به إليّ بخطوةٍ خاطئةٍ، فعقابُه الموت.

قال روبيسبيير وعيناه على الملفّ:

– هذا هو الاسم، أيها المواطن سيموردان. إن الآمر الذي ستكون لك عليه صلاحياتٌ كاملة هو فيكونت سابق، ويدعى غوفان.

شحب وجه سيموردان، وهتف:

– غوفان!

ورأى مارا شحوب سيموردان.

وردّد سيموردان:

– الفيكونت غوفان!

فقال روبيسبيير:

– أجل.

وقال مارا وهو يحدّق بسيموردان:

– وإذن!

مرت لحظةُ توقُّف، استأنف بعدها مارا:

– أيها المواطن سيموردان. بالشروط التي أشرت إليها أنت نفسك، هل تقبل مهمّة مندوبٍ مفوض لدى الآمر غوفان؟ هل اتفقّنا؟

فأجاب سيموردان:

– اتفقنا.

وأصبح شاحباً أكثر فأكثر.

أمسك روبيسبيير بالرّيشة التي كانت بجانبه، وكتب بخطه البطيء واالمضبوط أربعة أسطر على صحيفة الورق التي تحمل العنوان: لجنة الخلاص الوطني، ووقّع، ومرّر الورقة والريشة إلى دانتون، فوقّع دانتون. أما مارا، الذي لم يكن يزيح ناظريه عن وجه سيموردان الكامد، فقد وقّع بعد دانتون.

وإذْ استعاد روبيسبير الورقة، فقد وضع لها تاريخاً وسلّمها إلى سيموردان الذي قرأ:

العام الثاني للجمهورية

(تمنح صلاحياتٌ مطلقة للمواطن سِيموردان المفوض المنتدب من لجنة الخلاص الوطني لدى المواطن غوفان، آمر طابور الحملة العسكرية لجيش السّواحل).

«روبيسبير ـ دانتون ـ مارا».

وتحتها التواقيع:

«٢٨ حزيران ١٧٩٣»

لم يكن التقويمُ الثّوري، المسمّى بالتقويم المدني، موجوداً بصورة قانونية في ذلك العهد، وما كان للمؤتمر الوطني أن يتبنّاه، بناءً على اقتراحِ روم، إلاّ في الخامس من تشرين الأوّل ١٧٩٣.

بينما كان سيموردان يقرأ، كان مارا ينظر إليه.

وقال مارا هامساً كأنه يحدث نفسه:

- سوف يتعين علينا أن نعمل على تحديد ذلك كلّه بمرسوم من المؤتمرِ الوطنيّ، أوبقرارٍ خاصّ من لجنةِ الخلاص الوطنيّ. ويبقى شيءٌ ينبغي عملهُ.

وسأل روبيسبيير:

- أيّها المواطن سيموردان، أين تقطن؟

- في كوردو كوميرس (ساحة التجارة).

فقال دانتون:

- عجباً! وأنا أيضاً، فأنت جاري.

وتابع روبسبيير:

- ليس لدينا لحظة نضيعها. وغداً، سوف تتلقى مهمتك حسب الأصول، وموقعةً من كلّ أعضاء لجنة الخلاص الوطني. وهذا تأكيدٌ من اللجنة يجعلك معتمداً بصورة خاصة لدى ممثلينا المكلفين بمهمة من أمثال فيليبو، بريور دولامارن، ولوكوانتر، وألكييه، والآخرين. إننا نعلم من تكون. وسلطاتك لا حدّ لها، ويمكن أن تعين غوفان جنرالاً أو أن ترسله إلى المشنقة. سوف تحصل على مهمتك غداً في الساعة الثالثة. فمتى ستذهب؟

قال سيموردان:

- في الساعة الرابعة.

وافترقوا.

عندما رجع مارا إلى منزله، أعلم سيمون إيفرار بأنه سيذهب إلى المجلس الوطني في اليوم التالي.

* * *

الكتاب الثالث

المؤتمر الوطني - I -

المؤتمر الوطني

- ١ -

إننا نقتربُ من الذرّوة الكبرى [٤١] .

هذاهو المؤتمر الوطني[١] .

إن النظر يصبح محدّقاً أمام هذه القمّة .

ولم يتبدّ شيء أكثر علوّاً منها في أفق البشر .

هناك الهيمالايا ، وهناك المؤتمر الوطني .

إن المؤتمر الوطنيّ ، قد يكون نقطة الأوج في التاريخ .

---

(١) في «تاريخ الثورة» لميشليه (١٨٤٧- ١٨٥٣) ، هناك العديدُ من المقاطع عن المؤتمر الوطني والتي قد يكون ثمة ما يغرينا بمقارنتها (بالنسبة للفكرة وبالنسبة للأسلوب) بذلك الاستذكار الملحمي . ولقد أشرنا من جهة أخرى إلى أن ف . هيغو قد كان هنا هو مصدره الخاص . وإعتباراً من عام ١٨٤١ ، يبدو المقطع الطويل حول المؤتمر الوطني في خطاب القبول في الأكاديمية ، يبدو وكأنه مخطط أوليّ لهذه الصّفحات .

في حياة المؤتمر الوطني، فمجلسٌ ما له حياة معيّنة، لم يكن أحدٌ يدرك ماكان عليه. وما كان يُفلت من معاصريه كانت عظمتُه تحديداً، فقد كان ثمة رعبٌ مفرط إلى درجةٍ تمنع الانبهارِ به. فكلّ ما هو عظيم يتضمّن هولاً مقدّساً. إن الإعجاب بالوضعاءِ والهضاب أمرٌ يسير، أما ما هو شديدُ العلوّ، أما عبقريةٌ ما مثلها مثل جبلٍ، ومجلسٌ ما مِثله مثل عملٍ رائع، إذا ما نُظر إليهما عن كثب، فهما يسببان الذّعر[1]. إن كلَّ ذروة تبدو مبالغة، والتسلقّ يُتعب، فينبهرُ المرء عند المسالك الوعرة، وينزلقُ عند المنحدرات، ويصابُ بالجروح عند التضاريس التي هي جمالات، فالسُّيولُ وهي تزبدُ، تشي باللّجج، والغيوم تخفي القمم، والصّعود يرعبُ بقدر السّقوط. ومن هنا يكون الذعر أكبر من الإعجاب. إن المرء يحسّ بذلك الشعور غير المألوف، شعور النفور من العظيم، فيرى المرء الهوى، ولا يرى مواطن السّمو؛ يرى المسخ، ولا يرى الخارق. لقد حُكم على المؤتمر الوطني في البداية على ذلك النّحو. وجرى قياسُ قامة المؤتمر الوطني بأعين قصيري النّظر، وهو المؤتمر الذي خُلق لكي تقيس قامته النسّور.

وها نحن ننظر إليه الآن عن بعد، إنه يرسُم على السّماء العميقة، ومن خلال ماضٍ بعيد صافٍ ومأسوي، الصّورة الهائلة للثورة الفرنسيّة.

* * *

(١) إنها نظرية العبقرية التي كان هيغو قد عرضها خصوصاً في كتابة: وليام شكسبير (١٨٦٤) والتي غالباً مارجع إليها برضى عن الذات يمكن تفسيره بدرجة مفرطة.

II

كان الرابع عشر من تموز قد حقّق الخلاص .

والعاشر من آب قد سحق . .

أما الحادي والعشرون من أيلول فقد أسّس .

الحادي والعشرون من أيلول ، الاعتدال ، والتوازن[1] . Libra أي الميزان .

وحسب ملاحظة روم ، فإن الجمهورية قد أُعلنت تحت ذلك الشّعار ، شعار المساواة والعدالة . وقد أعلنته كوكبةٌ معيّنة .

إن المؤتمر الوطني هو التحوّلُ الأوَّل للشّعب ، فعلى يد المؤتمر الوطنيّ ، إنما انفتحت الصّفحةُ الكبيرةُ الجديدة ، وبدأ مستقبلُ الزّمن الحاضر .

كلُّ فكرة يلزمها غلافٌ مرئيّ ، وكلُّ مبدأ يلزمه مسكن ، فالكنيسةُ هي الرّبّ بين أربعة جدران ، وكلُّ عقيدة يلزمها معبدٌ . وعندما وُجد المؤتمرُ الوطنيّ ، كانت هناك مشكلةٌ أولى ينبغي حلُّهاَ هي إسكانُ المؤتمر الوطنيّ .

أخذوا في البداية لومانيج (مضمار الفروسّية) ، ثم التويلّري ، ونُصبت فيه سقيفةٌ ، وزخرفٌ ، ولوحةٌ ترميديّة صوّرها بالألوان دافيد ، ومقاعدُ متناظرةٌ ، ومنصّةٌ مربّعة ، وأعمدةٌ جدرانيةٌ متوازية ، وقواعدُ أعمدة شبيهة بقرمات الأشجار ، وصدورُ سفنٍ طويلة مستقيمة ، ونخاريبُ مستطيلة كانت تتدافع إليها الحشود ، وكانوا يسمّونها المنابر العامة ، وخباءُ مدرج روماني ، وأجواخ إغريقية . ففي هذه الزوايا المستقيمة وفي تلك الخطوط المستقيمة . إنما أقيم المؤتمر

(١) (باللاتينية ومعناها الكلمة التي تليه) الميزان: (م: ز ، ع) .

الوطني. في تلك الهندسة، وُضعت العاصفة. وعلى المنصة. كانت القلنسوة الحمراء مصبوغة بالرمادي. لقد بدأ الملكيّون يضحكون من تلك القلنسوة الحمراء الرّمادية، ومن تلك القاعة المستعارة، ومن تلك الآبدة الكرتونية، ومن ذلك المحراب الورقي الممضوغ، ومن ذلك المجمع، مجمع الأرباب الطيّني والبصاقي. كم كان لا بدَّ لذلك أن يختفي سريعاً! كانت الأعمدة مصنوعة من أضلاع البراميل، وكانت القبابُ من ألواح الأردواز، والنقيشات من الملاط، والسطوح المعمّدة من السرو، وكانت التّماثيل من الجصّ، وكان الرّخام من الدهان، والجدران من النسيج الكتاني. وفي هذا المؤقّت، صنعت فرنسا الأبديّ. أما جدرانُ قاعة المانيج فقد كانت، حين أتى المؤتمر الوطني ليعقد فيها اجتماعاً، مغطاةً بكاملها بإعلانات كانت تزخرُ باريس بها، في عهد الرجوع من فارين. وكان يُقرأ على إحداها: – الملك يرجع. ليضرب بالعصا من يصفق له، وليشنق من يشتمه – وعلى إعلان آخر: الهدوء. القبعات على الرؤوس. سوف يمرّ أمام قضاته – وعلى إعلان آخر: – لقد صوّب الملك سلاحه على الأمة، وأطلق النار طويلاً، وعلى الأمة أن تطلق الآن – وعلى إعلان آخر: – القانون! القانون! وبين تلك الجدران إنما حكم المؤتمر الوطني على لويس السادس عشر، في التويلري، حيث أتى المجلس الوطني ليجتمع في العاشر من أيار ١٧٩٣. والذي كان يسمى ب لوباليه – ناسيونال، كانت قاعةُ الجلسات تشغل كلّ الفسحة القائمة بين جناح لورلوج المسماة بافيون – إونيتيه. وجناح مارسان المسمى بافيون – ليبيرتيه.

وكان جناحُ دوفلوريسمى بافيون – إيغاليتيه. وعبر الدّرج الكبير، درج جان بولان إنما كان يجري الصّعود إلى قاعة الجلسات. وتحت الطابق الأول الذي يشغله المجلس، كان كلّ الطابق الأرضي للقصر نوعاً من قاعة طويلة للحرس، ومزدحمة بإهرامات من أسرّة عسكرية لجنود من كافة الأسلحة، والذين كانوا يقومون بالحراسة حول المؤتمر الوطنيّ. وكان لدى المجلس حرسُ شرف كان يسمى «رماة رمانات المؤتمر الوطنيّ».

كان ثمة شريط مثلث الألوان يفصل بين القصر الذي كان فيه المجلس والحديقة التي كان الشعب يذهب ويروح فيها.

III

لننه كلامنا بالقول إن كلَّ شيء يثيرُ الاهتمام في ذلك المكان الرّهيب الذي كان قاعةَ الاجتماعات.

إن الذي كان يسترعي النّظر، أثناء الدّخول، في المقام الأوّل، كان تمثالاً للحرية بين نافذتين عريضتين.

اثنان وأربعون متراً طولاً، وعشرة أمتار عرضاً، وأحد عشر متراً ارتفاعاً، تلك كانت أبعاد ما كان مسرح الملك، وما غدا مسرح الثوّرة. إن القاعة الأنيقة والفخمة والتي بناها فيغاراني[1] من أجل رجال البلاط قد زالت تحت هيكل البناء الوحشيّ الذي قُدّر له في عام ٩٣ أن يحتمل ثقل الشعب. إن هيكل البناء ذاك الذي كانت تُجهّز عليه المنابرُ العامة كانت له نقطةُ استنادٍ وحيدة هي عمود واحد، وهذا تفصيلٌ ذكرُه يستحقُّ العناء. وكان هذا العمودّ من قطعةٍ واحدة، ويمتدّ على عشرة أمتار. إن عدداً قليلاً من تماثيل العُمُد النسائية قد أدّت مثل عمل هذا العمود، فقد أسند على مدى سنوات اندفاعَ الثوّرة القاسي، فحمل الهتافَ، والحماسة، والشّتمَ، والضجّيجَ، والصّخبَ، وبلبلة ضروبِ الغضب الهائلة، والهياج الشّعبي. إنه لم ينثنَ. وبعد المؤتمر الوطني، شهدَ مجلسَ الشّيوخ، وأعقبه الثامنُ عشر من برومير.

حينذاك، استبدل بيرسييه بالدّعامة الخشبيّة أعمدةً رخاميةً دامت فترة أقصر.

---

(١) غاسبار فيڤاراني (١٥٨٦-١٦٦٣) معمارُ مسارح، وقد بنى عام ١٦٥٩، مع ابنيه، قاعة شارع فوجيرار، واشتغل أيضاً في مسرح التويلري.

إن المثل الأعلى للمعمارين فريدٌ أحياناً، فقد كان لمعمار شارع ريفولي مثالٌ هو مسارُ قنبلةِ مدفع[1]، وكان للمعمار كارلسروش مثالٌ هو مروحة. وجارورُ صوان عملاقَ، وذلك يبدو أنه قد كان مثالَ المعمار الذي بنى القاعة التي أتى المؤتمر الوطنّي ليعقد فيها جلساته، في ١٠ أيّار ١٧٩٣؛ فلقد كان طويلاً، وعالياً ومسطحّاً، وعلى أحدِ الأضلاع الكبيرة لمتوازي الأضلاع كان يستندُ على نصف مدرج واسع، وهو مدرج مقاعد الممثلين، من غير طاولات ولا قماطر، أما غارانّ كولون الذي كان يكتبُ كثيراً، فقد كتب على ركبته أنه قبالة المقاعد، هناك المنبر، وأمام المنبر، تمثالُ لوبيلوّتييه – سان – فارجو النصفيّ، ووراء المنبر، كرسيّ الرّئيس.

كان رأس التمثال النصفي يتجاوز قليلاً حافة المنبر، وهذا ما أدى إلى رفعه من هناك فيما بعد.

كان المدرج يتألف من تسعة عشر مقعداً نصف دائري، مصطفاً بعضُها خلفَ البعض الآخر، وكانت أقسامٌ جزئيّة من المقاعد تمدُّ ذلك المدرّج من الزّاويتين.

في الأسفل، كان يقفُ الحُجّاب، في أسفل المنبر على شكلِ هلال.

من جهة أخرى من المنبر، وفي إطارٍ من الخشب الأسود، كانت تلصق على الجدار لافتةٌ ارتفاعُها تسعةُ أمتار، وتحملُ على صفحتين منفصلتين،

(١) يطلق هيغو بصورة عابرة سخرية لاذعة ضدّ المعمارين الحديثين الذين كان قد سخر منهم على نحوٍ واسع في فصل: باريس على خطّ مستقيم في رواية نوتر – دام (الكتاب:٣ الفصل:٢)، وقد أثار قريحته بصورة خاصّة شارع ريفولي:«لنضفْ إليها العديدَ من الشوارع الجميلة، الممتعة والمتنوّعة، من مثل شارع ريفولي، هكذا كان يقول بالأسلوبِ التهكمّي، أسلوبِ – نوتر – دام». ولسوف يعودُ إلى ذلك في قصيدة ممتعة، قصيدة: السّنوات المشؤومة (مجموعة منشورة بعد وفاته)، حيث يسخر فيها من باريس أو سمان، ومن تقنيّة الشّوارع المستقيمة:

فيدياس ليس أكثر من أحمق قياساً إلى الشّاقول.
فكم هذا جميل! فمن بانتان نرى حتى غرونيل!
باريس العتيقة هذه لم تعد إلاّ شارعاً أبدياً
يتمطّى، أنيقاً وجميلاً مثل حرف i
وهو يقول: ريفولي! ريفولي! ريفولي!

وبواسطة ضرب من صولجان إعلان (٤٤) حقوق الإنسان ، ومن الجهة الأخرى ، فقد كان هناك مكان خالٍ شغله فيما بعد إطارٌ مماثل يحتوي دستورَ العام الثّاني ، ويفصل بين صفحتيه سيفٌ . وفوق المنبر ، فوق رأس الخطيب ، كانت ترتعشُ ثلاثةُ أعلام هائلةٌ ثلاثيةُ الألوان ، وأفقية تقريباً ، ومستندةٌ على هيكل كانت تقرأ عليه هذه الكلمة: القانون ، وخارجةٌ من شرفة عميقة ذات حجرتين وملأى بالنّاس . . وخلف ذلك الهيكل ، كان ينتصب ، شأن حارسِ الكلمة الحرّة ، هرمٌ رومانيّ مركّبٌ مرتفع مثل عمود . وكان ثمّة تماثيل جبّارة ومستقيمة بحذاءِ الجدار تواجه المندوبين . وكان ليكورغ على يمين الرئيس ، وسولون على يساره ، وفوق الجبل ، كان هناك أفلاطون .

كانت قواعدُ تلك التماثيل مكعّباتٍ بسيطةً موضوعة على إفريز نافر يدور حول القاعة ويفصل الشعب عن المجلس . وكان المشاهدون يّتكئون على ذلك الإفريز .

أما الإطارُ الخشبيّ الأسود ، إطارُ لوحة إعلان حقوق الإنسان فقد كان يرتفع حتى الإفريز ، ويقتطع من رسم البرزة ، وهذا كسرٌ للخطّ المستقيم كان يجعل شابو يهمس ويقول لفاديه – هذا قبيح .

على رؤوس التماثيل ، كانت تتناوبُ أكاليلٌ من السّنديان والغاز .

كانت ستارةُ جوخ خضراء تصوَّرُ فيها بالأخضر الأكثر قتامةً الأكاليلُ نفسُها ، تنزل بثنيات ثخينة مستقيمة للإفريز المحيطيّ ، وتفرش كلّ الطّابق الأرضي للقاعة التي يشغلها المجلس . وفوق ستارة الجوخ هذه ، كان الجدارُ أبيض وبارداً . وفي ذلك الجدار ، كان هناك طابقان للمنابر العامّة محفورين ، ومقطوعين وكأنما بأداة نزع ، من غير بروز ، ولا زخارف ملتفّة ، فغرفُ الجلوس في الأسفل والعسس في الأعلى؛ حسب القاعدة المتبّعة ، لأن فيتروف[1] لم يكن قد عُزل عن مكانته ، وكانت العقودُ المقولبةُ متوضّعةً فوق الأعتاب[2] كان

(١) يُذكرَ نحاتُ عهد أوغست على أنه نظريّ الانسجام الكلاسيكي – وكلُّ هذا الوصف يصوّر بكثير من الدّقة قاعة الجلسات ، جلسات المؤتمر الوطني كما نراها في صور ذلك العهد .

(٢) عوارض مرتكزة على عمود . (م: ز . ع) .

هناك عشرةُ منابر على كلّ ضلعٍ من الأضلاع الكبيرة للقاعة ، وفي كلّ طرفٍ من الطرفين ، هناك شرفتان مفرطتان في اتساعهما ، وهذه بمجموعها أربعة وعشرون . وهناك كانت الحشود[1] تتكدّس .

كان مشاهدو المنابر الدنيا يتجاوزون كلّ الحواف ويتجمعون على كلّ نتوءات العمارة. وكان قضيبٌ حديديّ طويل مثبتٌ بشكلٍ متين على ارتفاع الاستناد يستخدم كحاجزٍ للمنابر العالية ، ويحمي المشاهدين من ضغط جمهرة المحتشدين الذين يصعدون الأدراج ، ومع ذلك ، فإن رجلاً قد دفع نحو المجلس ، وقد سقط بعض الشيء على ماسيو ، مطران بوفيه ، ولم يُقتل . وقد قال: عجباً! إن المطران يفيد في شيء إذن!

كانت قاعةُ المجلس الوطنيّ يمكن أن تتّسع لألفيّ شخص ، وفي أيام الانتفاضة إلى ثلاثة آلاف .

كان المجلسُ الوطنيّ يعقد جلستين ، إحداهُما نهاراً ، والأخرى مساءً .

كان مسندُ مقعدِ الرّئيس دائرياً وذا مسامير ذهبيّة. وكانت منضدتهُ مستندةً إلى أربعة مسوخ مجنّحة ذات قائمة واحدة ، وكأنّها خارجةٌ من القيامة لحضور الثورة . وكان يبدو أنها قد حُلّت من عربة حزقيال لكي تأتي وتجرُّ طنبر سانسون[2]:

على منضدة الرّئيس ، كان هناك جُريسٌ ضخم ، هو جرسٌ تقريباً ، ومحبرةٌ عريضة نحاسيّة ، ودفتر على شكل نصفية مجلدّ بالرّق ، وهو الذي كان دفتر المحاضر الرسميّة .

رؤوسٌ مقطوعةٌ ، ومحمولةٌ على رأس حربة ، قد قطرت دماً على تلك المنضدة .

---

(١) إن بقايا رواية عام ٩٣ تحتوي بضع صفحات عن المنابر العامة والتي لم تجد مكاناً لها في الزاوية المنشورة ، ولم يتبق منها إلا مقطع صغير . (الفصل : ٨) .
(٢) العربة التي تحمل المحكومين الذين سيسلّمون إلى جلاّد عهد الإرهاب ، سانسون .

كان يجري الصّعود إلى المنبر عن طريق سلمّ من تسع درجات . وكانت تلك الدرجات عالية ، وشديدة الانحدار ، ويصعب صعودها إلى حدّ غير قليل . وقد جعلت جانسونيه الذي يرتقيها يعثرُ ذات يوم ويقول: إنه سلّم مشنقة! فصاح به كارييّه: تدرّب على ذلك .

وفي ذلك الموضع الذي كان الجدارُ قد بدا فيه خالياً إلى حدّ مفرط ، في زوايا القاعة ، كان المعمارُ قد طبَّق ربطاتٍ من الأسلحة ، والبلطة من الخارج على أنها زخرفات .

وعلى يمين وشمال المنبر ، كانت هناك دكّاتُ أعمدةٍ تحملُ شمعدانين ارتفاعهما اثنتا عشرة قدماً ، وفي أعلاهما أربعةُ أزواج من المسارج . وكان في كلّ شرفةٍ عامّة شمعدانٌ مماثل . وعلى دكات هذه الشّمعدانات كانت قد نحتت دوائرُ كان الشعب يسميها (أطواق المقصلة) .

كانت مقاعد المجلس ترتفع تقريباً حتى إفريز المنابر ، وكان المندوبون والشعب يمكنهم إجراءُ حوار فيما بينهم .

كانت أبوابُ خروج المنابر تخلي عابريها في متاهة من الأروقة الملأى[٤٢] أحياناً بضوضاء مرعبة .

كان المؤتمر الوطنيّ يزحمُ القصر ، وينحسرُ حتى الدّور المجاورة ، كدار لونغفيل ، ودار كوانيي . وفي دار كوانيي ، وبعد العاشر من آب ، وإذا ما أخذنا برسالةِ اللورد براد فورد ، إنما جرى نقلُ الأثاث الملكيّ . وقد (لزم) شهران لتفريغ التّويلّري .

كانت أللجان تقيم حول القاعة ، وفي جناح إيغاليه ، التشريعُ ، والزراعةُ ، والتجارةُ ، وفي جناح – ليبيرتيه ، البحريةُ ، والمستعمراتُ ، والمالية ، والأوراقُ النقدية ، والخلاصُ الوطني ، وفي جناح – أونيتيه ، الحربيةُ .

إن لجنة الأمن العام كانت تتصل مباشرة بلجنة الخلاص الوطني عن طريق ممرّ معتم، ومضاء ليلاً ونهاراً بشمعدان يروح فيه ويجيء جواسيس كلّ الأحزاب. ولم يكن يجري فيه كلام.

كان قد جرى نقلُ موضع حرم المؤتمر الوطني بضع مرّات. وكان في العادة على يمين الرئيس.

في طرفي القاعة، كان الحاجزان اللذان يغلقان من الجهة اليمنى ومن الجهة اليسرى أنصافُ الدوائر المتراكزة للمدرج، يدعان بينهما وبين الجدار ممرين ضيّقين وعميقين وينفتح عليهما بابان معتمان مربّعان. كان يجري الخروجُ والدخولُ من هناك.

كان المندوبون يدخلون مباشرة إلى القاعة عبر باب يُطلّ على شرفة الفويّان[1].

إن هذه القاعة، التي تنيرها إنارةٌ قليلة نوافذُ باهتةٌ في النهار، وسيئة الإضاءة حين تحل ساعة الشفق بمشاعل داكنة، كان فيها شيء ليلي غير محدّد. وكانت تلك الإنارة الجزئية تضاف إلى عتمات المساء؛ أما الجلسات على المصابيح فقد كانت باعثة على الكآبة. لم يكن الناس يبصر بعضُهم بعضاً، ومن أحد طرفي القاعة إلى الطرف الآخر، ومن اليمين إلى الشمال، كانت هناك جماعاتٌ ذات وجوه مبهمة تتبادل الشتائم. كانوا يلتقون من غير أن يتعرف بعضُهم البعضَ الآخر. وذات يوم يصطدمُ لينيولو بأحد الأشخاص، وهو يسرعُ إلى المنبر، في ممرّ النزول، فقال له: – عفواً، ياروبيسبير. فرد صوت أبحّ: – من تظنني؟ فقال لينيولو: – عفواً، يامارا.

وفي الأسفل، على يمين وعلى شمال الرئيس، كان هناك منبران محجوزان؛ لأنه كان هناك، وهذا أمرٌ غريب، مشاهدون من ذوي الامتياز في المؤتمر الوطنيّ، وقد كانت تلك المنابر هي الوحيدة التي فيها ستائر من الجوخ.

(١) الفويّان: هم الملكيون الدستوريون (م: ز.ع).

وفي منتصف العتب، كان ثمة شرّابتان ذهبيتان تبرزان تلك الستارة الجوخية. أما منابر الشعب فقد كانت مجردة.

كان كلّ ذلك المجموع عنيفاً، ووحشياً، ومنتظماً. كان هو اللائق ضمن المخيف. إنه الثّورة بكاملها بعض الشيء. وكانت قاعة المؤتمر الوطني تقدّم العيّنة الأكثر كمالاً لما أسماه الفنانون منذ ذلك الحين «بعمارة ميسّيدور» كانت عمارة مسمطةً، ونحيلة. أما بُناة ذلك العهد فكانوا يعتبرون الجميلَ هو المتناظر. وكانت آخرُ كلمات النهضة قد قيلت في عهد لويس الخامس عشر، وحدثت ردّةُ فعل، فكان النبيلُ قد جرى دفعه وإيصالهُ إلى التّافة والمسيخ، ودفُع النّقاء حتى الضّجر. إن التحشّم موجودٌ في العمارة. وبعد العربدات المبهرة في الشّكل وفي اللون، عربداتِ القرن الثّامن عشر، فقد اتّبع الفنّ حمية، ولم يعد يسمحُ لنفسه إلاّ بالخطّ المستقيم. وقد أفضى هذا النّوع من التّقدم إلى القباحة. إن الظاهرة تتمثّل في أن الفن يؤول إلى قالب جافّ. وهذا هو ضررُ هذه الضرّوب من الحكمة والتقشّف، فيصبحُ الأسلوبُ على درجةٍ من البساطة بحيث يغدو هزيلاً[1].

بعيداً عن كلّ انفعالِ سياسيّ، وبحصرِ النّظر بالعمارة، فإن رعشةً ما كانت تنبعثُ من تلك القاعة. وقد كان المرءُ يتذكّرّ بشكلٍ مشوّش المسرح القديم، والشّرفاتِ المتوّجة بالزّهور، والسّقف اللاّزوردي والأرجوانيّ، والثّريّا المضلّعة، والشّمعدانات المشعّبة ذات الالتماعات الماسيّة، والسّجف المتموّجة الألوان، وكثرة رسوم العشّاق والحوريات على السّتارة، وعلى الستائر الجوخيّة، وقصيدة الحب الرّقيق الملكيّ والغزليّ، والتي جرى رسمُها ونحتُها وطليها بالذهب، والتي كانت قد ملأت بابتسامتها ذلك المكان الصّارم، وكان المرءُ ينظر في كلّ مكان حوله إلى تلك الزّوايا القاسية المستقيمة. والباردة والقاطعة كالفولاذ، فقد كان ذلك أشبه ما يكون ببوشية الذي أعدمه دافيد على المقصلة.

(١) استطرادٌ جديد يعبّر فيه هاوي العمارة أيضاً عن بعض تصوّراته الأثيرة لديه، فما من شيء كان يثير حنق هيغو أكثر من مديح«البساطة (التقشف)» في الفن، ونلاحظ بالمقابل ميله المؤكدّ للباروك. وللأشكال القريبة منه.

IV

من كان يرى المجلس، لا يعود يفكّر بالقاعة. ومن كان يشاهد المأساة لايعود يفكرّ بالمسرح، فما من شيء أكثر تشوُّهاً من هذا، وما من شيء أكثر سمّواً من ذاك[1]. عددٌ كبير من الأبطال، وقطيعٌ من الجبناء. وحوشٌ على جبل، وزواحفُ في مستنقع. هناك كان يتجمهرُ، ويتلازمُ، ويتبادلُ الاستفزاز، والتهديد، ويناضلُ، ويحيا كلُّ أولئك المقاتلين الذين أصبحوا اليوم أشباحاً.

إنه تعدادٌ هائل[2].

على اليمين، هناك الجيروند، وهم جحفلٌ من المفكّرين: وعلى اليسار، الجبل، وهم جماعةٌ من الرّياضيين. من جهة، هناك بريسّو الذي كان قد استلم مفاتيح الباستيل، وباربارو الذي كان المرسيليّون يطيعونه، وكيرفيليغان الذي كانت تحت يده كتيبةُ بريست التي تحلّ في ثكنة ضاحية سان – مارسو، وجانسونيه الذي كان قد وطّد هيمنة المندوبين على الجنرالات، وغاديه المشؤوم الذي كانت الملكة، ذات ليلة قد جعلته يرى، في التوّيلّري، وليّ العهد وهو نائم، لقد قبّل غاديه جبين الطفل، وأسقط رأس والده؛ وسالْ، الواشي الوهمي

(١) تضادّ قد سبقت الإشارةُ إليه في خطاب الأكاديمية للعام ١٨٤١ (انظر: المقدّمة).

(٢) إن التّعداد الواسع الذي يبدأ هنا يجري على الطريقة الملحمية الهوميريّة (النشيد: ٣. من الإلياذة) أو على طريقة هيغو في «الأسطورة». إن المصادر، في الصّفحات التالية، قد استثمرت استثماراً واسعاً (لويس بلان، إرنست هاميل، غوستاف بونان. إلخ). كما أن الرّوائيّ قد ضحّى بالكثير من التّفاصيل.

شأن غوتون، مُقعَد اليسار، وأوز - دوبيريه الذي، ما إن وصفه أحد الصحفيين «بالغادر»، حتى دعاه إلى العشاء وهو يقول له: (أعلم أن كلمة «غادر» تعني ببساطة الرّجل الذي لايفكر مثلنا). ورابو - سانت - إيتين الذي كان قد بدأ نبوءته لعام ١٧٩٠ بهذه العبارة: **انتهت الثورة**؛ وكينيت، أحد أولئك الذين أهلكوا لويس السادس عشر، أما الجانسيني كامو الذي كان يصوغ الدستور المدنيّ للإكليروس، فقد كان يؤمن بمعجزات باريس، نائب الكاهن، ويسجد في كلّ ليلةٍ أمام تمثالٍ للمسيح ارتفاعه سبع أقدام، ومسمّرٍ إلى جدار غرفته، وفوشيه الكاهن الذي كان قد صنع ١٤ تموز، مع كاميل ديمولان، وإيسنار الذي ارتكب جريمة حين قال: ستدمّر باريس، في اللحظة نفسها التي كان برونشفيك يقول فيها: سوف تُحرق باريس، وجاكوب ديبون الذي كان أوّل من صرخ قائلاً: أنا ملحد. والذي ردّ عليه روبيسبيير: الإلحاد أرستقراطيّ، ولانجوينيه، ذلك الرأس البروتانيّ القاسي والنافذ البصيرة، وديكو الذي هو أوريال[1] بواييه - فونفريد، وريبيكي الذي هو بيلاد[2] باربارو. وقد قدّم ريبيكيّ استقالته لأنه لم يتمّ بعد إعدامُ روبيسبيير بالمقصلة، وريشو الذي كان يكافح ضدّ استمرار الأقسام، ولاسورس الذي كان قد أطلق هذا القول المأثور: الويل للأمم المعترفة بالجميل! والذي قُدّر له، في أسفل المشنقة أن يناقضَ نفسه بهذه الكلمات التي يلقي بها إلى الجبليين: نموت لأن الشعب ينام، وسوف تموتون لأن الشّعب سيستيقظ، وبيروتو الذي سعى إلى إقرار إلغاء الحصانة، وكان على هذا النحو، ومن دون أن يدري، حدّاد شفرة المقصلة، وقد نصب المشنقة لنفسه، وشارل فيلات[43] الذي خبأ ضميره تحت هذا الاحتجاج: لا أريدُ أن أصوت تحت السكاكين، ولوفيه مؤلف فوبلا الذي تعين عليه أن ينتهي به الأمر مكتبياً في باليه -روايّال مع لودويسكا على مبسط المكتبة، وميرسييه، مؤلف: صورة باريس، والذي كان يهتف قائلاً: لقد أحس جميع الملوك بالحادي والعشرين

(١) عضو المؤتمر الوطني وحكومة المديرين (١٧٤٧ - ١٨١٦).
(٢) ابن عم أوريست وصديقه في الميثيولوجيا الإغريقية (م:ز.ع).

من كانون الثاني على قذالهم، وماريك الذي كان هاجسه هو: (مراقبة الحدود القديمة)، والصّحافي كارّا الذي قال للجلاد، في أسفل المشنقة: – إني متضايقٌ من الموت، فقد كنت أريد رؤية تتمة الأمر، وفيجيه الذي كان يُلقب برامي رمانات في الكتيبة الثانية لمايين – إي – لوار، والذي كان يهتفُ، وهو يتعرض لتهديد المنابر العامة: أطلب، عنداُول همسة من المنابر، أن ننسحب جميعاً، وأن نسير إلى فيرساي، حاملين السّيوف! وبوزو المنذور للموت جوعاً، وفالازيه، الموعود بخنجره الخاص، وكوندورسيه الذي كان مقدّراً له أن يقضي في بور[٤٤] – لا – رين والتي أصبحت بور – إيغاليتيه، وكان قد وشى به كتاب هوراس الذي كان في جيبه، وبيتيون الذي كان مصيرُه أن يعبده الجمهور في عام ١٧٩٢، وأن تلتهمه الذئاب في عام ١٧٩٣. وهناك عشرون آخرون أيضاً، هم: بونتيكولان، وماربوز، وليدون، وسان – مارتان، ودوسو، مترجم جوفينال والذي قام بحملة هانوفر، وبوالو، وبيرتران، وليستيرب – بوفيه، ولوساج، وغومير، وغارديان، ومينيفيل، ودوبلانتييه، ولاكاز، وأنتيبول، وفي مقدمتهم بارناف الذي كان يسمى بفيرنيو.

ومن الجهة الأخرى، أنطوان – لوي – ليون فلوريل دوسان – جوست، الشاحب الوجه، والمنخفض الجبين، والشكل الجانبي المنتظم، وذو النظرة الغامضة والحزن العميق، والذي عمره ثلاثة وعشرون عاماً، وميرلان دوتيونفيل والذي كان الألمان يسمونه فويرتوفيل (شيطان النار) وميرلان دودواي المعدّ المذنب لتشريع المشبوهين، وسوبراني الذي طلبه جمهورُ باريس في الأول من بريريال ليكون جنرالاً، والخوريّ السابق لوبون الذي يمسك حساماً باليد التي كانت قد رشت الماء المقدس، وبيّو – فارين الذي كان يستشفّ هيئة قضاء المستقبل، فما من قضاةٍ، بل محكّمون. وفابرديغلانتين الذي قام بابتكارٍ لطيف هو التقويم الجمهوريّ، كما أتى لروجيه دوليل إلهامٌ رائع هونشيد المارسيلييز، بيد أنهما كليهما لم يعاودا الكرّة، ومانويل، مفوض الحكومة البلدية. والذي كان قد قال: لا ينقصُ رجلٌ إذا مات ملك، وغوجون الذي كان قد دخل

إلى تريبشتادت ، وإلى نيوشتادت وإلى سبير ، وشهد هروب الجيش البروسيّ ، ولاكروا ، المحامي الذي تحول إلى جنرال ، وأصبح فارس سان – لويس قبل ستة أيام من العاشر من آب ، وفريرون تيرسيت ، ابن فريرون زوئيل ، وورول[٤٥] ، المفتش الذي لا يرحم لخزانة الحديد المخصصة مسبقاً للانتحار الجمهوريّ الكبير ، والذي قدّر له أن ينتحر في اليوم الذي تموت فيه الجمهورية ، وفوشيه ، الرّوح الشيطانية ، والوجه الجيفيّ ، وكامبولا ، صديق الأب دوشيسن ، والذي قال لغيوتان: أنت من نادي الملكيين الدستوريين (الفويّان) ، ولكن ابنتك من نادي اليعاقبة ، وجاغو الذي كان يردّ على أولئك الذين يشكون من عري السّجناء بهذه الكلمة المخيفة [٤٦]: السّجن رداءٌ من الحجر ، وجافوغ ، نابش قبور سان – دوني المرعب ، وأوسّلان ، المُبعدُ الذي كان يخبيء عنده مُبعَدةً هي مدام شارّي ، وبينتابول الذي كان يشيرُ إلى المنابر لتصفّق أو لتصيح ساخرة ، عندما كان يترأس الجلسات ، والصّحفي روبير ، زوج الآنسة كيرالو والتي كتبت: لا يأتي إلى منزلي لا روبيسبيير ولا مارا ، وسوف يأتي إليه روبيسبيير حين يشاء ، أما مارا فلا يأتي مطلقاً ؛ وغاران – كولون الذي كان قد طلب بفخر ألاّ يتنازل المجلس لقراءة رسالة ملكٍ إلى ملك ، حين تدخّلت إسبانيا في قضيّة لويس السادس عشر ، وغريغوار المطران الجدير أولاً بالكنيسة الفطرية ، ولكنه ، فيما بعد ، في عهد الامبراطورية . محا الجمهوري غريغوار ليستبدل به الكونت غريغوار ، وأمار الذي كان يقول : إن الأرض بكاملها تدين لويس السادس عشر . فمن نحكم إذن؟ الكواكب . ورواييه الذي كان قد اعترض في ٢١ كانون الثاني على إطلاق مدفع بون – نوف ، وهو يقول : لا ينبغي أن يُحْدِثَ رأسُ ملكٍ وهو يسقط ضجةً أكبر من تلك التي يحدثها رجل آخر . وشينييه ، شقيق أندريه ، وفادييه ، أحد أولئك الذين كانوا يضعون مسدّسات على المنبر ، وبانيس الذي كان يقول لمودو: - أريد أن يتعانق مارا وربيسبيير على مائدتي . في منزلي – أين تسكن؟ في شارانتون – وكان مومورو يقول: – لو كان في مكان آخر ، لأدهشني الأمر ، ولو جاندر الذي كان جزّار ثورة فرنسا ، كما كان برايد جزّار ثورة

قائلاً: اعمل أولاً على إصدار قرار بأنني ثور، وكولّوديربوا، ذلك الممثل الهزليّ المحزن الذي يضع على وجهه القناع القديمَ ذا الفمّين اللذين يقولان نعم ولا، والذي يوافق بأحدهما على ما كان يلومه بالآخر، فيفضح كاريبه في نانت، ويؤلّه شاليبه في ليون، ويرسل روبيسبيير إلى المشنقة ومارا إلى البانتيون (مدفن العظماء)، وجينيسو الذي كان يطلب حكم الإعدام لأيّ إنسان يحمل ميدالية لويس السّادس عشر الشّهيد، وليونار بوردون، معلّم المدرسة الذي كان قد قدّم منزله إلى شيخ مون – جورا، وتوبسان البحّار، وغوبّيو، المحامي، ولوران لوكوانتر، البائع، ودوهيم، الطبّيب، وسيرجان، صانع التماثيل، ودافيد، الرّسام، وجوزيف إيغاليتيه، الأمير. وآخرون أيضاً: لوكوانتر بويرافو الذي كان يطلب أن يصدر مرسوم يعلن أن مارا «في حالة جنون»، وروبير ليندية، المبتكر المقلق لذلك الاخطبوط الذي كان رأسه هو لجنة الأمن العام والذي كان يغطّي فرنسا بأذرعه الإحدى والعشرين، والتي كانت تسمّى باللّجان الثوريّة، ولوبوف الذي قال فيه جيريه – دوبريه في كتابه: ميلاد الوطنيين الزائفين، هذا البيت الشعّري:

رأى لوبوف[1] لوجاندر، وخار ؟

وتوماس باين، الأمريكي والمتسامح، وأنا كارسيس، كلوتس، الألماني، والبارون، والمليونير، والملحد، والهيبيرتي[2]، والسّليم النّية، ولوبا النّزيه، صديق دوبلاي، وروفير، أحد الرّجال النادرين الخبثاء من أجل الخبث، لأن الفنَّ للفنّ موجودٌ أكثر ممّا نظنّ، وشارلييه الذي كان يريدُ أن نقول أنتم للأرستقراطيين، وتاليان، الرّثائي والشرّس، والذي سيصنع التاسع من تيرميدور

---

(١) لوبوف تعني الثور، ومن هنا اللعبة اللفظية. (م:ز.ع).

(٢) تفسير لقصيدة من مجموعة: القصاص (٩، ٤): أولئك الذين يعيشون، هم أولئك الذين يناضلون. . . .
هؤلاء يعيشون، ياإلهي! أما الآخرون، فأنا أرثي لهم.
لأن العدم يسكرهم بضجره المبهم.
لأن العبء الأشدّ وطأة هو أن يكون المرء موجوداً من غير أن يعيش.

من باب المحبّة، وكامباسيريس، النائب المفّوض الذي سيصبح نمراً، ولابلانش الذي سيهتف ذات يوم: أطلب الأولوية لمدفع الإنذار، وتوريو الذي كان يريد أن يصّوت محلفو المحكمة الثورية علناً، وبوردون دولواز الذي كان يدعو شامبون إلى المبارزة، ويشي بباين، والذي وشى به هيبير: وفايّو الذي كان يقترح «إرسال جيشٍ يشعلُ الحرائق» في الفاندية، ونافو الذي كان وسيطاً تقريباً بين الجيروند والجبل، وفيرنييه الذي كان يطلب أن يذهب زعماء الجيروندين وزعماء الجبليين ليخدموا بصفة جنود فقط، وريفبيل الذي انزوى في مايانس، وبوربيت الذي قتل جواده تحته في احتلال سومور، وغامبيرتو الذي كان يقود جيش كوت دوشيربور، وجار بارنفيلية الذي قاد جيش كوت دولاروشيل، ولوكاربانتييه الذي قاد أسطول كانكال، ورويبرجو الذي كان ينتظره كمين راستاردت، وبريور دولامارن الذي كان يضع في المعسكرات كتفيّته غير المشرّبة القديمة كقائد سرّية، ولوفاسّور دولاسارت الذي كان بكلمة يجعل سيّران، قائد كتيبة سانت - أرمان، ينتحر، وروفيرشون، ومور، وبرنار دو سانت، وشارل ريشار، ولوكينيو، وعلى رأس هذه المجموعة رجلٌ كميرابو وكانوا يسمّونه دانتون.

خارج هذين المعسكرين، كان يقف رجلٌ يوقفهما عند حدّهما، وهو روبيسبيير.

* * *

V

في الأسفل كان الذّعرُ الذي يمكن أن يكون نبيلاً، والخوفُ الذي هو خسيس كانا يطأطئان. وتحت الأهواء، وتحت ضروب البطولة، وتحت ألوان الإخلاص، وتحت أشكال السّخط، كانت هناك جمهرةُ المُغْفلين الكئيبة. وكان قاعُ المجْلس يسمّى بالسّهل. وكان هناك كلّ ما يطفو، الناسُ الذين يشكّون، والذين يتردّدون، والذّين يتراجعون، والذين يؤجّلون، والذين يترصّدون، وكلّ واحدٍ منهم يخشى شخصاً آخر. أما الجبلُ، فقد كان نخبة، والجيروند كان نخبةً، أما السّهل فهو الجمهور. كان السّهل يتلخّص ويتكثّف في شخص سييس.

إن سييس رجلٌ عميق وقد غدا أجوف، فتوقّف عند الطبقة الثالثة، ولم يستطع أن يصعد حتى الشّعب. لقد خُلقت بعضُ العقول لكي تبقى في منتصف الجنب. كان سييس يسميّ روبيسبيير بالنّمر، وروبيسبيير يسميّه بالخلد. كان ذلك الميتافيزيائي قد أفضى به الأمر، ليس إلى الحكمة، بل إلى الحذر. كان رجلَ بلاط وليس خادماً للثوّرة. كان يأخذ رفشاً ويذهب، مع الشّعب، ليشتغل في شان دومارس، ويرتبط بالطنبر نفسه الذي يرتبط به ألكسندر دوبوارنيه. كان ينصح بالعزم الذي لم يكن يستنفده. وكان يقول للجيرونديين: ضعوا قانون حزبكم، وهناك المفكرّون الذين هم مناضلون، وقد كان هؤلاء، من مثل كوندورسيه، مع فيرنيو، أومن مثل كاميل ديمولان، مع دانتون. وهناك

مفكرّون يريدون أن يعيشوا[1]، وكان هؤلاء مع سييس. إن للدّنان الأكثر جودة حثالتها، وتحت السّهل حتى، هناك المستنقع. إنّه الرّكود المقزّز الذي يظهرُ شفافيّات الأنانيّة. وهناك، يرتعدُ الانتظارُ الأخرس، ارتعادُ المرتجفين. فما من شيء أكثر حقارةً من ذلك، هناك كلُّ ألوان الخزي، وما من خجل، هناك الغضبُ الكامن، والتمرّدُ في ظلّ العبوديّة. لقد كانوا مرتعبين بشكلٍ وقح، وكانوا يمتلكون جميعاً كلّ ضروب شجاعة الجبن، كانوا يؤثرون الجيروند ويختارون الجبل، وكانت الخاتمة ترتبط بهم، وكانوا يودعون جهودهم في الجهة التي تكسب، ويسلمون لويس السّادس عشر إلى فيرنيو، وفيرنيو إلى دانتون، ودانتون إلى روبيسبيير، وروبيسبيير إلى تاليان. كانوا يشهّرون بمارا وهو حيّ، ويؤلّهون مارا وهو ميت. كانوا يساندون كلَّ شيء حتى ذلك اليوم الذي يقلبون فيه كلّ شيء، كانت لديهم غريزةُ الدّفعة الحاسمة التي يعطونها كلَّ ما يترجحّ. وبما أنهم قد وضعوا أنفسهم في مجال الاستخدام بشرط أن يكون استخداماً متيناً. فإن الترجحّ يعني خيانتهم. لقد كانوا العدد، وكانوا القوّة، وكانوا الخوف. ومن هنا تأتي جرأتهم في الأعمال الخسيسة[2] ومن هنا فإن ٣١ آذار، و١١ جيرمينال و ٩ تيرميدور[3] هي مآسٍ عقدها العمالقة، وفكَّ عقدتها الأقزام.

* * *

(١) إن اندفاع هيغو السّاخط هذا ضدّ المتردّدين، والمعتدلين، والفاترين هو إحساسٌ متبقّ من غضبه حين كان منفياً على الأرجح. وهو على كلّ حال متطابق مع تفكيره العميق، وخصوصاً منذ عام ١٨٤٨ و ١٨٥١.

(٢) سقوط الجيرونديين، وسقوط الدانتونيين، وسقوط روبيسبيير.

(٣) هو أحد المطالب التي يصّر عليها مؤلّفُ: اليوم الأخير لمحكوم بالإعدام: (أي هيغو. م ز.ع)

VI

كان يختلطُ بهؤلاء الرّجال المفعمين بالأهواء رجالٌ مفعمون بالأحلام . كان الوهمُ الطّوباوي موجوداً هناك تحت كافّة أشكاله ، وتحت شكله الحربي الذي كان يقرّ منصّة الإعدام ، وتحت شكله البريء الذي يلغي حكم الإعدام . إنه شبحٌ من جهة العروش ، وملاكٌ من جهة الشّعوب . وقبالة الأذهان التي كانت تكافح ، كانت هناك الأذهان التي تستتر . كان في رأس الأولى منها الحرب ، وفي رأس الثانية السّلام . كان عقلٌ مثل كارنو يولدّ أربعة عشر جيشاً ، وعقلٌ آخر ، مثل جان دوبري ، كان يتفكرّ باتحاد ديمقراطيّ عالميّ . ومن بين تلك الفصاحات الخانقة ، ومن بين تلك الأصواتً الصّائحة و المزمجرة ، كانت هناك ضروبٌ من الصّمت خصبة . كان لاكانال ساكتاً ، وهو يرتبّ في تفكيره التربية العامّة الوطنّية ، وكان لانتيناس ساكتاً ، ويبتكرُ المدارس الابتدائية . وكان ريفيلبير ليبوساكتاً ، ويحلم برفع الفلسفة إلى مقام الدّين . وكان آخرون يهتمّون بمسائل تفصيليّة أصغر وأكثر عمليّة ، وكان غيتون - مورفو يدرس تطهيرَ المشافي ، وميرِ إلغاءَ العبوديّات الحقيقيّة ، وجان - بون - سانت - أندريه إبطال السّجن بسبب الدّيون وسجن المدين ، وروم اقتراحَ شابّ ، وديبو ترتيبَ المحفوظات ، وكورين - فوستييه إنشاءَ غرفة التشريح ومتحفَ التّاريخ الطبّيعي ، وغيومار الملاحةَ النّهرية ، وسدَّ الإيسكو . وكان للفنّ متعصّبوه وحتى مهووسوه الأحاديّون . وفي ٢١ كانون الثاني ، وفي حين كان رأسُ الملكيّة يسقط في ساحة الثورة ، فإن بيزار ، مندوبَ منطقة الواز ، كان ذاهباً لرؤيةِ لوحةٍ لروبينز عُثر عليها في كوخٍ في شارع سان - لازار . إن فنّانين ، وخطباء ،

ورجالاً جبابرة من مثل دانتون ، ورجالاً – أطفالاً من مثل كلوتس ، ومجالدين وفلاسفة ، كانوا جميعاً يمضون إلى الهدف نفسه ، إلى التّقدم . وما من شيء يبلبلُهم . وكانت عظمةُ المؤتمر الوطنيّ هي في البحث عن حجم الواقعيّ الموجود في ما يسمّيه البشر بالمستحيل . وفي أحدِ طرفيه ، كانت عينَ روبيسبيير مثبّتة على الحقّ . وفي الطّرف الآخر ، كانت عين كوندورسيه مثبتةً على الواجب . كان كوندورسيه رجلَ تفكرٍ ووضوح ، وكان روبيسبيير رجلَ تنفيذ ، وفي بعض الأحيان ، في الأزمات النّهائيّة للمجتمعات الشّائخة ، تعني كلمة تنفيذ ، الإبادة . إن للثّورات منحدرين ، صاعداً ونازلاً ، وهي تحملُ على هذين المنحدرين كلَّ الفصول على شكل منضّد ، بدءاً من الجليد وصولاً إلى الزّهور . وكلُّ منطقة من هذين المنحدرين تنتج الرّجال المناسبين لمناخها ، بدءاً من أولئك الذين يعيشون في الشمّس ، وحتى أولئك الذين يعيشون في الصّاعقة .

* * *

VII

كان الناس يدلُّ بعضُهم البعضَ الآخر على ذلك المكان المنعزل في الرّواق الأيسر الذي كان روبيسبيير قد همس داخله في أذن غارا، صديق كلافيير بالعبارة المخيفة التّالية: لقد تآمر كلافيير في كلِّ مكان تنفسّ فيه. وفي تلك الخلوة نفسها التي تلائم المحادثاتِ على انفراد، وألوانَ الغضب بصوت خفيض، كان فابرديغلانتين قد تشاجر مع رومّ، وكان يأخذ عليه أنه قد شوّه تقويمه بتغيير فيرفيدور إلى تيرميدور. وكان الناس يدلُّ بعضُهم البعضَ على الزّاوية التي كان ممثلو لاهوت - غارين يعقدون فيها اجتماعاتهم، وهم يتلامسون بالمرفق، والذين كانوا أوّل من دُعوا لإبداء رأيهم في الحكم على لويس السّادس عشر، وكانوا قد أجابوا على النّحو التالي، وكلّ منهم بعد الآخر: مايل ب: الموت – وديلما ب: الموت – وبروجان ب: الموت – وكاليس ب: الموت – وإيرال ب: الموت – وجوليان ب: الموت – وديسابي ب: الموت. إنه ردّ فعلٍ أبديّ يملأ التّاريخ كلّه، وطالما كان، منذ أن وجدت العدالة البشريّة، قد وضع صدى القبر على جدار المحكمة، كانوا يشيرون بالأصبع، من خلال معترك الوجوه الصّاخب، إلى كلّ هؤلاء الرّجال الذين كانت تصدرُ عنهم جلبةُ التصويتات المأسويّة، فكان باغانيل قد قال: الموت، فما من ملك مفيد إلاّ بموته. وميلو الذي كان قد قال: اليوم، لولم يكن الموتُ موجوداً، لوجب ابتكاره. وكان العجوزُ رافرون دوترويه قد قال: الموت سريعاً! وغوبيّو الذي كان قد صاح: منصّة الإعدام في الحال. إن البطء يجعلُ الموتَ خطيراً، وسييس الذي قال بهذا الاقتضاب المأتمي: الموت، وتوريو الذي كان قد رفض النداء الذي اقترحه بوزو

على الشّعب: ماذا! المجالس الإبتدائية! ماذا! أربع وأربعون ألف محكمة! إنها قضيةٌ لا تنتهي. وسيكون لرأس لويس السّادس عشر الوقت لكي يبيضّ قبل أن يسقط، وأوغوستان - بون روبيسبيير الذي كان قد هتف، بعد أخيه: لاأعرف الإنسانية التي تذبح الشّعوب وتغفر للطغاة. الموت! إن طلب وقف للتنفيذ معناه أن يُستبدَل بنداء الشعب نداءَ للطغاة، أمّا فوسّدوار، بديل برناردان دوسان - بيير، فكان قد قال: إني آنف من إهراق الدّم البشريّ، غير أن دم ملك ليس دم إنسان: الموت. وجان - بون - سانت - أندريه الذي كان قد قال: ما من شعب حرّ من غير طاغيةٍ ميت، ولافيكونتري الذي كان قد أعلن هذه العبارة: طالما يتنفسّ الطّاغية، الحرّية تختنق. الموت. وشاتونوف - راندون، الذي كان قد أطلق هذه الصّرخة: موت لويس الأخير! وغياردان الذي عبّر عن هذه الأمنية: فليعدم في باريير - رانفيرسيه! وباريير - رانفيرسيه كانت حاجز العرش، وتيلييه الذي كان قد قال: للإطلاق على العدوّ، فليتمّ تصنيعُ مدفع بعيار رأس لويس السّادس عشر. والمتساهلون وهم: جانتي، الذي كان قد قال: فليحبسْ مؤبّداً. فإذا ماصنعنا شارل الأوّل، نصنع كروميل، وبانكال الذي كان قد قال: النّفي، أريد أن أرى أوّل ملك في الكون محكوماً بأن يمارس مهنة ما لكي يكسب عيشه، وألبوي، الذي كان قد قال: الإبعاد. فليذهب هذا الشبّح الحيّ ليجول حول العروش. وزانجيا - كومي الذي كان قد قال: الإعتقال، ولنحافظ على كابّيه حيّاً مثل فزّاعة، وشايّون الذي كان قد قال: فليعش. لاأريد أن أُميت شخصاَ ستصنع منه روما قدّيساً. وفيما كانت تلك الأحكام تتساقطُ من تلك الشّفاه المتشدّدة والتي تتبعثر في التّاريخ، واحداً فواحداً، كانت هناك نساءٌ في المنابر يكشفن عن أكتافهنّ ويتجمّلن، ويقمن بعدّ الأصوات، وهن يحملن قائمة في أيديهن، ويغرزن دبابيس تحت كلّ تصويت.

إن الهول والرأفة يبقيان حيث دخلت المأساة.

إن رؤية المؤتمر الوطني، في أية مرحلة كانت من حكمه، كان معناها رؤية محاكمةِ آخر أسرة كابّيه من جديد. وكأنّما كانت أسطورة الواحد والعشرين من

كانون الثاني قد اختلطت بكلّ أعماله، فلقد كان المجلسُ المخيفُ مفعماً بتلك الأنفاس المشؤومة التي مرّت على المشعل الملكي العجوز، والمضاء منذ ثمانية عشر قرناً، فأطفأته. إن القضية الحاسمة لكلّ الملوك في ملك واحد قد كانت أشبه ما تكون بانطلاقة الحرب العظيمة التي كان يخوضها على المجلس الماضي[1]، وأياً كانت جلسة المؤتمر الوطني التي يجري حضورها، فقد كانُ يُرى فيها انعكاسُ الظلّ الذي تلقيه منصّةُ إعدام لويس السّادس عشر. كان المشاهدون يروي بعضهم لبعض استقالة كيرسان، واستقالة رولان، ودوشاتيل[٤٧] مندوب دي دو – سيفر. الذي حمل مريضاً على سريره ومحتضراً، وصوّت إلى جانب الحياة للملك . وهذا ما أضحك مارا، وكانوا يحثون بالنظر عن المندوب الذي نسيه التاريخ اليوم، والذي سقط من الإرهاق ومن النعاس على مقعده، وبعد جلسة دامت سبع وثلاثين ساعة. فأيقظه مُحضرُ الجلسة، حين أتى دوره للتصويت، ففتح عينيه جزئياً، وقال: الموت! ثم أغفى من جديد.

في اللحظة التي حكموا فيها على لويس السّادس عشر بالموت، كان روبيسبيير لا يزال أمامه ثمانية عشر شهراً ليعيش، ودانتون خمسة عشر شهراً، وفيرنيو تسعة أشهر، ومارا خمسة أشهر وثلاثة أسابيع، ولوبيليتييه –سان – فارجو يوم واحد. فياالنَفَس الأفواه البشرية القصير والمخيف!

* * *

(١) كان ذلك، كما رأينا، موضوع القصيدة الملحمية الكبرى: الثورة، والتي كتبت علم ١٨٥٧! ، ونشرت في عام ١٨٨١، في «رياح الفكر الأربعة».

VIII

كانت لدى الشّعب نافذةٌ مفتوحةٌ على المؤتمر الوطنيّ، وهي المنابر العامّة، وحين لاتكفي النافذة، كان يفتح الباب، فيدخلِ الشارع إلى المجلس، إن تلك الاقتحامات التي قام بها الجمهور إلى مجلس الأعيان هذا هي إحدى الرؤى المدهشة في التاريخ. وكانت تلك المفاجآت عادة ودية. فقد كان الشارع يتآخى مع كرسي القضاء الأعلى. ولكنها يُخشى منها، فهي مودّة شعبٍ كان قد استولى على مدافع الإنفاليد، وعلى أربعين ألف بندقية، ذات يوم، وفي غضون ثلاث ساعات. ففي كلّ لحظة، كان موكبٌ يقطع الجلسة، إنهم وفودٌ أُدخلت إلى حرم المحكمة، وعرائضٌ، وتحياتٌ، وتقدماتٌ. وقد دخل إلى القاعة شعارُ شرف ضاحية سانت - أنطوان والذي تحمله النساء. وكان عددٌ من الانكليز يقدمون عشرين ألف زوج من الأحذية لأقدام جنودنا الحافية. «كانت صحيفة المونيتور تقول إن المواطن أرنو، خوري أوبينيان، وقائد كتيبة لادروم، يطلب التقدم إلى الحدود، وأن يتم الحفاظ على عمله ككاهن». وكان مندوبو الأقسام يصلون حاملين على النقّالات أطباقاً، وصواني، وكؤوساً، ومعارض للقربان المقدس، وأكداساً من الذهب، والفضة، والفضة المذهبة يقدمها للوطن ذلك الحشدُ الذي يرتدي الأسمال، وكانوا يطلبون كمكافأة لهم الإذن بأداء رقصة الكارمانيول أمام المؤتمر الوطني. كان شينار وناربون وفالبيير يأتون ليغنوا مقاطع غنائية على شرف الجبل. وكان قسمُ مون - بلان قد جلب تمثالاً نصفياً للوبيليتييه، ووضعت إمراةٌ قلنسوةَ حمراء على رأس الرّئيس الذي كان يقبّلها، «وكانت مواطنات قسم ماي» ينثرن الزهور «على المشرّعين» وكان

(تلاميذ الوطن) يأتون، تتقدّمهم الموسيقا، ليشكروا المؤتمر الوطني لأنه قد «أعدّ ازدهار القرن» وكانت نساءُ قسم الحارسات – الفرنسيات يقدمن الورود، وتقدّم نساء قسم الشانزيليزية إكليلاً من السنديان، ونساءُ قسم تامبل يأتين إلى حرم المحكمة ليقسمن «على ألاّ يقترنّ إلا بجمهوريّين حقيقيين» ويقدم قسم موليير ميدالية فرانكلين التي علقتَ بمرسوم، على إكليل تمثال الحرية، وكان الأطفال اللّقطاء، الذين أعلنوا أطفالاً للجمهورية، يتتابعون، وقد ارتدوا اللباس الوطني الموحد، وتصلُ فتيات قسم إثنين وتسعين بفساتينهن الطويلة البيضاء، وفي اليوم التالي كانت صحيفة المونتيتور تحتوي هذا السطر: «الرئيس يتلقى باقةً من اليدين البريئتين لحسناء شابة»، وكان الخطباء يحيّون الحشود، ويتملقونها أحياناً، وكانوا يقولون للحشد: –«إنك معصوم، ولا مأخذ عليك، إنك سام» – إن للشعب جانباً طفولياً، وهو يحبّ الملاحظات. وفي بعض الأحيان، كان الهياجُ الشعبي يخترقُ المجلس، فيدخل إليه ساخطاً. ويخرج منه مطمأناً، مثل نهر الروّن الذي يجتاز بحيرة ليمان، فيكون مليئاً بالوحل حين دخوله إليها وباللازورد حين خروجه منها.

كانت الأمور أحياناً أقلّ هدوءاً [٤٨]، وكان هنريو قد أمر بأن تحضر أمام باب التويلري أدواتُ تعذيب لجعل كرات المحكومين تحمّى حتى الاحمرار.

* * *

IX

في الوقت نفسه الذي كان ذلك المجلسُ ينبثقُ فيه عن الثورة، كان يُنتج الحضارة[1]. إنه أتون، بل مصهر الحديد. وفي ذلك الحوض الذي يغلي فيه الرّعب. كان التقدمُ يختمر، ومن هذا العماء المظلم، ومن ذلك الهروب الصاخب للغيوم، كانت تخرج أشعةٌ هائلة من الضوّء تتوازى مع القوانين الدّائمة. إنَّها أشعةٌ تمكث في الأفق، وتظلُّ مرئيةٌ أبداً في سماء الشّعوب، فأحُدها هو العدالة، والآخر هو التسامح، والآخر هو الطيّبة، والآخر هو العقل، والآخر هوالحقيقة، والآخر هو الحبّ.

كان المؤتمر الوطني يبشرّ بهذا القول العظيم المأثور: حرّية المواطن تنتهي حيث تبدأ حرّية مواطن آخر. وهذا ما يلخص بسطرين الألفة الاجتماعية بكاملها. كان يعلنُ أن الفاقة مقدسة، وكان يعلن أن العاهة مقدسة عند الضرير وعند الأصم - الأبكم واللذين يغدوان ربيبي الدّولة، وأن الأمومة مقدّسةٌ عند الفتاة - الأمّ التي تواسيها الدّولة وتُنهضُها[2] وأن الطفولة مقدّسة عند اليتيم فكان يجعل الوطن يتبنّاه، وأن البراءة مقدّسة عند المتّهم المبرّأ فيعوّض عليه. وكان يفضح تجارة السّود، ويلغي العبوديّة. كان يبشرّ بالتضّامن المدنيّ. ويُصدرُ مرسوماً بأن التعليم مجّاني، وينظمّ التربية الوطنية عن طريق دار المعلمين في باريس، والمدرسة المركزيّة في مركز المحافظة، والمدرسة الابتدائية في البلدة، وكان ينشىءُ المعاهدَ الموسيقية والمتاحف، ويصدرُ مراسيمَ في وحدة المدوّنات

(١) نقطة رئيسية في نظر هيغو، وتقدم التسويغ للمؤتمر الوطني (انظر: مقدمتنا).

(٢) تلك هي، بدرجة واسعة، الموضوعات التي عالجتها رواية: البؤساء، والتي هي بصورة عامة، الاهتمامات الأساسية لهيغو الكاتب «الاجتماعيّ».

القانونيّة ، ووحدة الأوزان والمكائيل ، ووحدة الحساب في النّظام العشريّ . وقد أسّس ماليّة فرنسا ، وأعقب الإفلاس الملكيّ الطويل الأمد بالثّقة بالدّولة ، وجعل البرق متداولاً ، ومنح الشيخوخة الملاجىءَ الموقوفة ، والمرضَ المشافي المطهّرة ، والتّعليمَ المدرسةَ المتعدّدة الفنون ، والعلمَ ديوانَ خطوط الطوّل ، والفكرَ البشرّي المجمعَ . وفي الوقت نفسه الذي كان فيه وطنيّاً ، كان عالمياً . ومن أصل أحد عشر ألفاً ومئتين وعشرة مراسيم صدرت عن المؤتمر الوطنيّ ، كان لثلثها هدفٌ سياسيّ ، وللثّلثين الآخرين هدفٌ إنسانيّ . كان يعلن الأخلاق الشّاملة أساساً للمجتمع ، والضمير الشّامل أساساً للقانون . وفي كلّ ذلك ، تُلغى العبوديّة ، ويُبشّر بالإخاء ، وتُحمى الإنسانيّة ، ويُصحَّح الضمّيرُ الإنساني ، ويُحوَّلُ قانونُ العمل إلى حقّ ، ويصبح مسعفاً بعد أن كان باهظاً ، وتتوطدّ الثرّوة الوطنيّة ، وتنوّرُ الطفولةُ وتُساعد ، وتُنشَرُ الآدابُ والعلوم ، ويُشعَلُ النّور على كلّ القمم ، وتقدّمُ المعونةُ لكلّ ضروب البؤس ، ويُبشَّرُ بكلّ المبادىء ، كان المؤتمر الوطنيّ يفعلُ هذا ، وفي أحشائه ذلك الأفعوان ، الذي هو الفاندية ، وعلى كتفيه ذلك العددُ الكبير من النّمور وهو: الملوك[1] .

* * *

(١) في مقاطع كهذه ، يصبح هيغو قريباً جدّاً من ميشليه .

X

مكانٌ فسيح . وكلُّ النماذج البشرّية ، وغير البشرّية ، والفائقة على البشر كانت موجودةً هناك . إنه تجّمعٌ ملحميّ من التّناقضات؛ فغيوتان يتجنّب دافيد ، وبازير يشتم شابو ، وغاديه يسخر من سان – جوست ، وفيرنيو يزدري دانتون ، ولوفيه يهاجم روبيسبيير ، وبوزويشهّر بإيغاليتيه ، وشامبون يفضح باش ، والجميع يمقت مارا . وكم من الأسماء ينبغي أن تسجلّ أيضاً! أرمونفيل المسمى بالقلنسوة – الحمراء (بونيه – روج) ، لأنه لم يكن يجتمع إلا بقلنسوة فريجية[1] وهو صديق روبيسبيير ، وكان يريد (بعد إعدام لويس السّادس عشر بالمقصلة ، أن يعدم روبيسبيير) ، انطلاقاً من ميله إلى التوازن ، وماسيو ، زميل وشبيه ذلك الطيّب لاموريت[2] المطران الذي خلق ليترك اسمه لقبلة عابرة . وكان ليهاردي دي موربيهان يندّد بكهنة بروتانيا ، وبارّير ، رجل الأكثريات الذي كان يرئس المحكمة ، عندما ظهر لويس السّادس عشر في حرم المحكمة ، والذي كان بالنسبة لباميلا مثلما كان لوفيه للودويسكا ، وعضو الجمعية الدينية دونو الذي كان يقول : لنكسب الوقت ، ودييوا – غرانسيه الذي كان ينحني مارا على أذنه ، والمركيز دو شاتونوف ، ولاكلو ، وهيرودوسيشيل الذي كان يتقهقر أمام هنريو وهو يصيح : أيها المدفعيون . إلى مدافعكم! وجوليان الذي كان يشبه الجبل بالتيرموبيل ، وغامون الذي كان يريد منبراً عاماً مخصصاً للنساء فقط ، ولا لوا الذي خصّ المطران غوبيل الذي أتى إلى المؤتمر الوطني ليتخلى عن تاجه

(١) قلنسوة حمراء كان يعتمرها الفريجيون في أسيا الوسطى ، وهي شعار للانعتاق والحرية (م ز . ع) .

(٢) كلمة لاموريت تعني: الحبّ العابر . (م: ز . ع) .

الأسقفي ويعتمر القلنسوة الحمراء، خصّه بتشريف الجلسة، ولوكونت الذي كان يهتف: هناك سباق إذن على من يتخلى عن كهنوته! وفيرو الذي سيحيّي رأسه بوسّي – دانغلا، تاركاً للتاريخ هذا السؤال:– هل حيّا بواسي – دانغلا الرأس، أي الضحية، أم الرّمح أي القتلة؟ – والأخوان ديبرا اللذان أحدهما جبليّ والآخر جيرونديّ، واللذان كانا يتباغضان شأن الأخوين شينييه[١].

لقد قيلت على ذلك المنبر أقوالُ مدوّخة من تلك التي تتضمن أحياناً، ومن غير أن يدري هذا الذي يتلفظ بها، نبرةَ الثورات التنبّئية، والتي تبدو الوقائع المادية على إثرها وقد اكتسبت فجأة شيئاً يدل على الاستياء والانفعال، وكأنها قد أخذت الأمور التي جرى سماعها على محمل السّوء؛ إن ما يجري يبدو حانقاً مما يقال؛ وتحدث الكوارثُ بغتة عاصفةً، وكأنها ساخطة من جراء كلام الناس. وهكذا فقد كان صوتٌ واحد في الجبل كافياً لكي يفصل الرّكام الجرفيّ. إن كلمةً زائدةً يمكن أن يتلوها انهيارٌ معين. ولولم يكن هناك كلام، لما حدث ذلك؛[٢] فيقال أحياناً إن الحوادث سريعة الغضب.

بهذه الطريقة، وبمصادفة كلمةٍ لخطيب قد أسيء فهمه إنما سقط رأس السّيدة إليزابيت.

وفي المؤتمر الوطني، يعتبر التطّرف الكلاميّ مشروعاً.

كانت التهديدات تنطلق سريعاً، وتتقاطع في النقاش مثل الشرر في الحريق – بيتيون: ياروبيسبيير، انتقل من القول إلى الفعل – روبيسبيير: الفعل، هو أنت –، يابيتيون –، سأنتقل إليه، ولسوف ترى – صوت: الموت لمارا – مارا: في اليوم الذي يموت فيه مارا، لن تعود هناك باريس، وفي اليوم الذي

(١) لقد اعترض فينيي على ذلك «البغض بين الأخوين شينييه»، وذلك في كتابه ستيلو، الذي كان يظهر فيه ماري – جوزيف وهو يبذل جهده لانقاذ أندريه.

(٢) قدرة الكلمة كانت قد أُنشدت في قصيدة شهيرة من «التأملات».

علّق كلمةً منتقمة على خاصرة عالم بكامله

والعالم الذي يسحب الترس، والحسام، ومنصة الإعدام،

وشرائعه، وعاداته، وآلهته، ينهارُ تحت الكلمة.

تقضي فيه باريس، لن تعود هناك جمهورية – بيو – فارين يقف ويقول: نريد. – فيقاطعه بارير قائلاً: إنك تتكلم مثل ملك – وفي يوم آخر، يقول فيليبو: لقد استلّ أحدُ الأعضاء سيفهُ عليّ – أودان: أيّها الرئيس، استرع القاتل إلى النّظام – الرئيس انتظر. بانيس: أيها الرئيس، أنا أسترعيك إلى النظامَ، أنا– وكانوا يضحكون بقسوة أيضاً: لوكوانتر: إن خوري شان – دو – بو يشكو من فوشيه، مطرانه، والذي يمنعه من الزّواج. – صوت: أنا لا أرى لماذا يريدُ فوشيه الذي له خليلات، أن يمنع الآخرين من أن تكون لهم زوجات – صوتٌ آخر: أيها الكاهن، اتّخذلك زوجة! – كانت المنابر تتدخّل في الحديث. وكانت تخاطبُ المجلس بصيغة المفرد. وذات يوم، يصعد المندوب روپامب إلى المنبر. وكان له «ورك» اضخم بكثير من الورك الآخر. فصاح به أحد المشاهدين: – أدر هذا إلى جهة اليمين، لأن لك «خدّاً» على طريقة دافيد! – تلك كانت هي الأمور التي يتجاسرُ عليها الجمهور مع المؤتمر الوطنيّ. ومع ذلك، فإن الرّئيس قد أوقف ذات مرّة أحد مقاطعي المنابر، في بلبلة الحادي عشر من نيسان للعام ١٧٩٣.

ذات يوم، كان شاهدُ الجلسة هو العجوز بيوناروتّي[1]. فيتكلّم روبيسبيير لمدّة ساعتين، وهو ينظر إلى دانتون، ويحدّق به حيناً، وهذا ما كان خطيراً، وبصورة مواربة حيناً، وهذا ما كان أسوأ. إنه يصعق عن كثب. وينهي كلامه بانفجارغاضب، مفعم بكلمات مفجعة: – إننا نعرف الدّساسين، ونعرف المفسدين والفاسدين، إننا نعرف الخونة. إنهم في هذا المجلس، وهم يسمعوننا، ونحن نراهم، ولا يغيبون عن ناظرنا. فلينظروا فوق رؤوسهم، وسيرون سيفَ القانون، ولينظروا في ضميرهم، وسيرون فيه عملهم الشّائن، فليحذروا من أنفسهم – وحين انتهى روبيسبيير، قلب دانتون رأسه إلى الخلف، وصار وجهُه بمواجهة السّقف، وعيناه نصف مغمضتين، وذارعه متدلّية من فوق مسند مقعده، وسمع وهو يدندن:

كاديه روسيل يقدّم خطابات

ليست طويلة، حين تكون قصيرة

---

(١) الثوريّ الإيطاليّ (١٧٦١– ١٨٣٧) سليل ميكيل أنجلو.

وأخذت اللّعنات الرّدّ على عاتقها – أيها المتآمر! – أيّها القاتل! – أيّها الأثيم! – أيّها المتمرّد! – أيّها المعتدل! – وكان كلٌّ واحدٍ يشي بالآخر عند تمثال بروتوس النّصفي الذي كان هناك. تأنيبات، وشتائمٌ، وتحدّيات، ونظراتٌ ساخطة من جانبٍ إلى آخر، وتهديدات بالقبضات، ومسدّسات يُستَشفّ وجودها، وخناجرُ مسحوبةٌ جزئياً. إنه توهجٌ هائل للمنبر. كان البعضُ يتكلّمون وكأنهم يستندون إلى المقصلة. كانت الرّؤوسُ تتموّجُ مذعورةً ورهيبة. جبليّون، وجيرونديّون، وفويّان (ملكيّون دستوريون)، وأنصار الاعتدال، وإرهابيون، ويعاقبة، وكورديليّون[٤٩]، وثمانية عشر كاهناً قاتلاً للملوك.

* * *

XI

عقولٌ في مهبِّ الرّيح .

غير أن هذه الرّيح كانت ريحاً خارقة .

فأن يكون المرءُ عضواً في المؤتمر الوطني ، كان معناه أن يكون موجةً في المحيط . وهذا ما ينطبق على الاعظم شأناً . لقد كانت قوّةُ الدّفع تأتي من الاعلى . ففي المؤتمر الوطني ، كان ثمّة إرادة هي إرادة الجميع ، ولم تكن إرادة أحد . وكانت هذه الإرادة فكرة ، وهي فكرة لا يمكن كبحُ جماحها ، وهي تتجاوز الحدود ، وتهبُّ في العتمة من أعالي السّماء . ونسمي ذلك بالثورة . وحين كانت تمرُّ تلك الفكرة ، كانت تسُقط هذا وترفع ذاك ، وكانت تجرف هذا مع الزّبد ، وتحطّم ذاك بصخور البحر . كانت هذه الفكرة تدري إلى أين تمضي ، وتدفع باللّجة أمامها . فأن نعزو الثورة إلى الناس معناه أن نعزو المدّ إلى الأمواج[1] .

إن الثورة من فعل المجهول . ولتسمّوها فعلاً حسناً أو فعلاً سيئاً . تبعاً لما تتطلّعون إليه في المستقبل أو في الماضي ، ولكن دعوها لذلك الذي صنعها . إنها تبدو نتاجاً مشتركاً بين الاحداث والاشخاص العظماء مجتمعين ، ولكنها في واقع الأمر نتيجة الأحداث . إن الأحداث تُنفق ، والناسُ يدفعون . الحوادث تملي ، والنّاس يوقعّون . إن الرابع عشر من أيلول يحملُ توقيع كاميل ديمولان ، والعاشر من آب يحملُ توقيع دانتون ، والثاني من أيلول يحملُ توقيع مارا ،

(١) نقل نثري للقصيدة التي تحدثنا عنها (ص:XII في الأصل طبعاً) .

والحادي والعشرين من أيلول يحملُ توقيع غريغوار، والحادي والعشرين من كانون الثاني يحملُ توقيع روبيسبيير، ولكن ديمولان، ودانتون، ومارا، وغريغوار وروبيسبيير ليسوا أكثر من كتّاب محكمة. ولهذا المحرّر الهائل والمخيف لتلك الصّفحات الكبيرة اسم هو، اللّه، وقناعٌ هو القدر. ومن المؤكدّ أن روبيسبيير كان يؤمن باللّه.

إن الثّورة شكلٌ من الظّاهرة الحضوريّة التي تضغطُ علينا من كلّ جهةٍ والتي نسمّيها بالضّرورة.

أمام هذا التعقيد الغامض للحسنات والآلام تنتصبُ لماذا التّاريخ.

لأنّ. وهذا الجوابُ، جوابُ ذلك الذي لا يعرف شيئاً هو أيضاً جوابُ ذلك الذي يعلمُ كلّ شيء.

أمام هذه الكوارث الحرجة التي تدمّر وتحيي الحضارة، يتردّد المرء في الحكم على التّفصيل. هل يلومُ الناسَ أم يمتدحُهم بسبب النتيجة، فهذا أشبه ما يكون تقريباً بامتداح او لوم الأرقام بسبب المجموع. إن ما ينبغي أن يحدث سيحدث، وما ينبغي أن يهبّ سيهبّ. إن الصّفاء الأبديّ لا يحتمل رياح الشمّال هذه. وفوق الثورات تظلّ الحقيقةُ والعدالةُ كالسّماء المرصّعة بالنّجوم فوق العواصف.

* * *

XII

هكذا كان ذلك المؤتمر الوطنّي الذي يتجاوز الحدود ، إنه معسكر محّصن للجنس البشريّ . وتهاجمه كلُّ الظلّمات في آن ، ونيرانٌ ليليّة لجيشٍ من الأفكار المحاصرة ، ومخيّم هائل للعقول فوق منحدرِ لجّة . ما من شيء في التاريخ يشبه تلك المجموعة التي هي مجلس أعيان ، ودهماء في آن ، واجتماع كرادلة وملتقى أوباش ، ومجمع حكماء وساحة عامة ، ومحكمة ومتّهم .

كان المجلس الوطنيّ يحني الرأس دوماً أمام الريح ، غير أن هذه الريح كانت تخرجُ من فم الشعب ، وكانت نفس الله .

واليوم وبعد مرور ثمانين عاماً ، وفي كلِ مرة يظهر فيها المؤتمرُ الوطنيّ أمام تفكيرِ رجلٍ ما ، سواء كان مؤرخاً أم فيلسوفاً ، فإنّ هذا الرجل يتوقف ويتأمل؛ فمن المستحيل ألا يكون المرء متنبهاً لذلك العبور العظيم ، عبور الأشباح(٥٠) .

* * *

ـ ٢ ـ

مارا في مؤخّر المسرح

كما كان مارا قد أعلن لسيمون إيفرار ، ذهب إلى المؤتمر الوطني في اليوم التالي من لقاء شارع دوبان ، وكان في المؤتمر الوطني مركيز من أتباع مارا ، هو لويس دومونتو ، وهو ذلك الذي قدم للمؤتمر الوطني فيما بعد رقّاصَ ساعة عشريّاً يعلوه تمثال لمارا .

في اللحظة التي كان مارا يدخل فيها ، كان شابو قد اقترب من مونتو . وقال:

– السابق . . .

رفع مونتو عينيه:

– لماذا تسميّني السابق؟

– لأنك كذلك .

– أنا؟

– لأنك كنت مركيزاً .

– أبداً

– عجباً!

– كان والدي جندياً وجدي نسّاجاً.

– أي كلامٍ فارغ تقول لنا هنا يا مونتو.

– بمَ تُدعى إذن؟

– أُدعى مارييون.

قال شابو:

– هذا سيان بالنسبة لي في واقع الأمر.

وأضاف بصوتٍ غير واضح وخفيض:

– هناك تسابق على من لا يكون مركيزاً.

كان مارا قد توقف في الممر الأيسر، وهو ينظر إلى مونتو وشابو.

وفي كلّ مرةٍ كان يدخل فيها مارا، تكون هناك جلبة، ولكن بعيداً عنه، وحوله كان الناس يلتزمون الصمت. ولم يكن مارا ينتبه لذلك؛ فقد كان يزدري «نقيق المستنقع».

وفي الظلّ الخفيف، ظلّ المقاعد التي تحت، كان هناك كونبيه[٥١] من الواز، وبرونيل، وفيلار، المطران الذي أصبح فيما بعد عضواً في الأكاديمية الفرنسية، وبوترو، وبوتي، وبيلشار، وبونيه، وتيبودو، وفالدروش يدلّون عليه بالأصبع.

– عجباً، مارا!

– إنه ليس مريضاً إذن؟

– بلى، بما أنه يرتدي مبذلاً.

– مبذلاً؟

– نعم، بالتأكيد!

– إنه يجيز لنفسه كلَّ شيء .

– ويجروُ أن يأتي هكذا إلى المؤتمر الوطني!

– لأنه أتى إليه ذات يوم وهو يعتمرُ إكليل الغار ، فيمكنه حقّاً أن يأتي إليه بمبذله!

– وجهٌ نحاسيّ وأسنانٌ زنجاريّة .

– يبدو مبذله جديداً .

– ومِمَ هو؟

– من نسيج الأثاث .

– المخطّط .

– أنظر إلى الثّنيات .

– إنّها من الجلد .

– من جلد النمر . كلاّ ، من جلد القاقم .

– المزيّف .

– وجوارب .

– هذا غريب .

– وحذاء له أبازيم .

– من الفضّة .

– هذا ما لن يغفره له قبقاب كامبولا .

علي مقاعد أخرى ، كانوا يتظاهرون بأنهم لا يرون مارا ، وكانوا يتحدّثون عن شيء آخر . وكان سانتوناكس يدنو من ديسّو ، ويقول:

– أتعلم يا ديسو؟

– ماذا؟

– الكونت السّابق دوبيين؟

– الذي كان في لافورس مع الدوق السّابق فيلّوروا؟

– أجل.

– لقد عرفتهما كليهما، وإذن؟

– لقد كانا شديدي الخوف بحيث كانا يحيّيان كلّ القلنسوات الحمراء في كلّ كوى التسّليم، وبحيث انهما رفضا ذات يوم أن يلعبا مباراةً في لعبةِ ورق لأنّه قُدّمَ إليهما ورقُ لعب فيه ملوك وملكات.

– وإذن؟

– لقد أُعدِما بالمقصلة بالأمس.

– كلاهما.

– كلاهما.

– إجمالاً، كيف كانا في السّجن.

– جبانين.

– وكيف كانا على منصّة الإعدام؟

– غير هيّابين.

وألقى ديسو بهذا الهتاف:

– الموتُ أسهل من الحياة.

كان بارّير منهمكاً في قراءة تقرير: وكان يدورُ على الفانديه. كان تسعمئة رجل من الموربيهان قد ذهبوا بالمدفعية لنجدة نانت. وكانت رودون معرضةً لتهديد الفلاحين. وهوجمت بامبوف. وكان هناك مركزٌ بحري يجول في ماندران لكي يمنع هجماتِ الإنزال. ومن إنغراند حتى مور، كان كلّ السّاحل الأيسر من اللّوار قد نُصبت فيه سرايا مدفعية ملَكيّة. كان ثلاثةُ آلاف فلاّح يسيطرون على بورنيك. وكانوا يهتفون قائلين: عاش الانكليز! وكانت هناك رسالةٌ من سانتير إلى المؤتمر الوطني ويقرؤها بارّير، وتنتهي على النّحو التالي: «هاجم سبعة آلاف فلاّح فان. وقد قمنا بصدّهم، وتركوا أربعة مدافع تقع في أيدينا...».

وقاطعه صوتٌ قائلاً:

– وكم من الاسرى؟

فتابع بارّير... – حاشية الرّسالة:

«ليس لدينا أسرى، للأننا لم نعدْ نأخذ أسرى[1]».

أما مارا الذي كان لا يُبدي حراكاً أبداً، فلم يكن يصغي، وكأنه مستغرقٌ بانشغالٍ شديد الجدّية.

كان يمسكُ في يده، ويدعكُ بين أصابعه ورقةً كان يمكنُ لشخص يبسطُها أن يقرأ هذه السّطور التي كانت بخطّ مومورو، ولعلّها كانت ردّاً على سؤالٍ طرحه مارا:

«– لا شيء يمكن فعلُه ضدّ السّلطان المطلق للمفوّضين المندوبين، وخصوصاً ضدّ مندوبي لجنة الخلاص العام. ومهما قال جينيسيو في جلسة السّادس من أيار: «إن كلّ مفوّض أكبر من ملك»، فإن قوله لم يغيرّ من الأمر شيئاً. فلديهم سلطة على الحياة والموت، فما سّاد في أنجية، وترولار في سانت – أمان، ونيون لدى الجنرال مارسيه، وبارّان في جيش ديسّابل، وميلييه في جيش نيور، لهم سلطان

(١) صحيفة «المونيتور»، الجزء: ١٩، الصفحة: ٨٤ (حاشية لفيكتور هيغو).

مطلق. وقد وصل الأمرُ بنادي اليعاقبة إلى تسمية باران قائد لواء. إن الظرّوف تحلّ كل شيء. ومندوبٌ للجنة الخلاص العام يمنعُ قائداً عاماً من العمل».

انتهى مارا من دعكِ الورقة، ووضعها في جيبه، وتقدّم ببطء نحو مونتو وشابو اللذين كانا يواصلان الحديث ولم يكونا يريانه.

كان شابو يقول:

– مارييون أو مونتو، اسمع هذا: إني خارج من لجنةِ الخلاص العام.

– وماذا يفعلون فيها؟

– إنهم يكلّفون فيها كاهناً بمراقبة نبيل.

– عجباً!

– نبيل مثلك...

فقال مونتو:

– يُكلّف به كاهنٌ...

– مثلك.

فقال شابو:

– أنا لست كاهناً.

وأخذا يضحكان كلاهما.

وسارع مونتو إلى القول:

– ارو القصة بدقّة.

– إليك ما حدث. ثمّة كاهن يّدعى سيموردان هو مندوبٌ كاملُ الصّلاحيات لدى فيكونت يُدعى غوفان؛ وهذا الفيكونت يقودُ طابورَ حملةِ

عسكرية في جيش دي كوت (السّواحل). والمطلوبُ هو منعُ النبيل من الغشّ والكاهن من الخيانة.

فردّ مونتو:

- هذا أمر سهلٌ حقاً، ولا يتطلّب إلاّ استخدام الموت في المغامرة.

فقال مارا:

- إني آتٍ من أجل هذا.

ورفعا رأسيهما.

وقال شابو:

- صباح الخير، يامارا، إنك نادراً ما تحضرُ جلساتنا.

فردّ مارا قائلاً:

- يوصيني طبيبي بإجراء مغاطس.

فاستأنف شابو يقول:

- ينبغي عدمُ الرّكون إلى المغاطس، فقد مات سينيك في مغطس[1].

فابتسم مارا وهو يقول:

- يا شابو، ما من نيرون هنا.

فقال صوتٌ خشن:

- هناك أنت.

كان ذلك هو دانتون. الذي يمرُّ ويصعد إلى مقعده.

ولم يستدر مارا.

---

(١) استباق تنبّئي ومصطنع لـ . . . «حمام مارا» ولطعنة خنجر شارلوت كورداي في الثالث من تموّز التّالي.

أحنى رأسه بين وجهي مونتو وشابو.

– اسمعا، لقد أتيت من أجل أمرٍ جديّ، فينبغي أن يعرضَ أحدٌ منّا نحن الثّلاثة اليوم مشروعَ مرسومٍ في المؤتمر الوطنيّ.

فقال مونتو:

– ليس أنا، فهم لا يصغون إليّ، فأنا مركيز.

وقال شابو:

– وأنا، لا يصغون إليّ، فأنا كبّوشيّ.

وقال مارا:

– وأنا لا يصغون إليّ، فأنا مارا.

وخيّمت فترةٌ من الصّمت بينهم.

لم يكن من السّهل توجيه سؤالٍ إلى مارا الذي كان منشغل الذّهن، ومع ذلك، فقد خاطر مونتو بسؤال:

– يا مارا، ما هو المرسوم الذي ترغب فيه؟

– مرسوم يعاقب بالإعدام كلَّ قائدٍ عسكريّ يجعلُ متمرّداً أسيراً يفرّ.

فتدّخل شابو:

– هذا المرسوم موجود، وقد جرى التّصويت عليه في نهاية شهر نيسان.

فقال مارا:

– وإذنْ فكأنه غيرُ موجود. ففي كلّ مكان، في الفانديه بكاملها، يتسابقون على من يجعل الأسرى يهربون، ولا يجري عقابُ من يقدّم ملجأً لهم.

– هذا، يامارا، لأن المرسومَ قد أُهمل تطبيقُه.

– ينبغي ، ياشابو ، جعله ساري المفعول من جديد .

– بلا شكّ .

– وأن يجري الكلامُ على ذلك في المؤتمر الوطنيّ .

– إن المؤتمر الوطني يا مارا ليس ضروريّاً ، ولجنة الخلاص العام تكفي .

وأضاف مونتو:

– يتمّ بلوغُ الهدف ، إذا ما عملت لجنة الخلاص العام على تعليق المرسوم في كلّ بلدات الفاندية ، وتقديم مثلين أو ثلاثة .

فكرّر شابو قائلاً:

– من الرؤوس الكبيرة ، من الجنرالات .

فدمدم مارا:

– سيكون هذا في الحقيقة كافياً .

فردّ شابو بسرعة:

– اذهب بنفسك يا مارا وقلْ ذلك للجنة الخلاص العام .

نظر مارا إليه بين عينيه ، وهذا ما لم يكن مريحاً ، حتى بالنسبة لشابو ، وقال:

– إن لجنة الخلاص العام لدى روبيسبيير ، وأنا لا أذهب إلى عند روبيسبيير .

فقال مونتو:

– أنا أذهب .

فقال مارا:

حسناً .

في اليوم التّالي، أُرسِل في كل الاتجاهات أمرٌ من لجنة الخلاص العام يلزم بإلصاق المرسوم الذي يتضمّن عقوبة الإعدام في كافّة مدن الفاندية وقراها، وبتنفيذه بصورة صارمة بحقّ كلّ تواطؤ مع أعمالِ هروبِ قُطّاع الطرق، والمتمردين الأسرى.

لم يكن هذا المرسومُ إلاّ الخطوة الأولى؛ فقد كان يتعّين على المؤتمر الوطني أن يمضي إلى أبعد من ذلك أيضاً. وبعد بضعة أشهر، وفي ١١ من برومير للعام الثّاني (تشرين الثاني للعام ١٧٩٣)، وفيما يخصّ لافال التي كانت قد فتحت أبوابها للفانديين الهاربين، أصدر المؤتمر الوطني مرسوماً بأن كلَّ مدينة تمنح اللجّوء للمتمردين ستُقوَّض وتُهدّم.

ومن جهتهم، فإن أمراء أوروبا، وفي بيان الدّوق دوبرونشفيك، المستوحى من المهاجرين، والذي صاغه المركيز دولينون، معتمد الدّوق دورليان، كان قد أعلن أن كلّ فرنسي يُقبَضُ عليه وهو يحملُ السّلاح يُعدم بالرّصاص، وأنه إذا ما سقطت شعرة من رأس الملك، فإن باريس سوف تدكّ.

الوحشيّة ضدّ الهمجّية.

* * *

القسم الثالث

في الفانديه

الكتاب الأوّل

الفانديه

I

الغابات

آنذاك كان في بروتانينا غابات مرعبة. والفانديه هي التمّرد – الكهنوتي. وكان لذلك التمرّد مساعدٌ هو الغابة: فالظلّمات تتعاضد[1].

كانت غاباتُ بروتانيا السّوداء السّبع هي غابةُ فوجير التي تسدُّ المرور بين دُوْل و أفرانش، وغابة برينسيه التي يبلغ محيطها سبعة فراسخ، وغابة بامبون، الملأى بمجاري السّيول والسّواقي والتي لا يمكن الوصول إليها تقريباً من جهة بينيون، مع انكماشٍ سهل باتجاه كونكورنيه التي كانت دسكرةً ملكيّة، وغابة رين التي كان يُسمعَ منها ناقوسُ الخطر الآتي من الخورنّيات الجمهورية، الكثيرة العدد دائماً بقرب المدن، وهناك إنّما خسرت بويزاي[52] فوكار، وغابة ماشكول التي كان حيوانها المتوحش هو شارّيت، وغابة غارناش التي كانت لأُسَرِ تريموال وغوفان وروهان، وغابة بروسيلياند التي كانت للجنيّات[2].

(١) جملةٌ هجائية ساخرة وتكشف عن موقف هيغو (انظر: المقدمة).

(٢) إنهّا الغابة الأسطورية في روايات الطّاولة المستديرة والسّاحر ميرلان، وتتماهى أحياناً بغابة بامبون. وتقرأ من جهة أخرى، في «بقايا رواية: عام ٩٣» حاشية ف. هيغو التالية: «غابة بروسيلياند التي تسّمى بامبون اليوم».

كان أحدُ نبلاء بروتانيا يحملُ لقب سيّد الغابات السّبع ، وكان هو الفيكونت دوفونتوني ، الأمير البروتانيّ .

ولأن الأمير البروتانيّ كان موجوداً ، ومتميّزاً عن الأمير الفرنسي ، فآل روهان ، قد كانوا أمراء بروتانيين . ويصف غارنييه دوسانت ، في تقريره حول المؤتمر الوطني ، بتاريخ ١٥ نيفوز للعام الثاني ، يصف الأمير دوتالمون على النحو التالي: «كابيه قطّاع الطرق هذا ، وعاهل لومين والنورماندي» .

إن تاريخ الغابات البروتانية من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨٠٠ يمكن أن يُروى بشكلٍ مستقلّ ، ويختلط بمغامرة الفانديه الواسعة باعتباره أسطورة[1] . للتاريخ حقيقتهُ ، وللأسطورة حقيقتها . أما الحقيقة الأسطوريّة فهي من طبيعة أخرى غير الحقيقة التاريخية . إن الحقيقةُ الأسطورية هي الابتكار الذي نتيجته الواقع . ومع ذلك فإن للتاريخ والأسطورة الهدف نفسه ، وهو تصوير الإنسان الأبدي تحت ستار الإنسان المؤقت .

لايمكن للفانديه أن تُفسَّر تفسيراً كاملاً ، إلاّ إذا كانت الأسطورة تكملُ التاريخ ، فلا بد من التّاريخ من أجل المجموع ، ومن الأسطورة من أجل التفصيل .

ولنقل إن الفانديه تستحق العناء ، فالفانديه أمرٌ خارق .

إن حرب الجهلة هذه الشّديدة الغباء ، والشديدة البهاء ، والبغيضة والرائعة ، قد خرّبت فرنسا وأشعرتها بالزهو . إن الفانديه جرحٌ هو مجد .

للمجتمع البشري . في بعض الأوقات ، ألغازُه ، وهي ألغازٌ تحلُّ بالنور ، بالنسبة للحكماء ، وهي ظلمة بالنسبة للجهلة ، فيكون حلُّها هو العنف والبربريّة . إن الفيلسوف يتردّد في الاتهام . ويأخذ باعتباره الاضطراب الذي تحدثه المشكلات . إن المشكلات لا تمرّ أبداً من دون أن تلقي تحتها ظلاً كالغيوم .

(١) إن المصدر الأساسي ، في الصفحات التالية ، هي: رسائل حول أصل حركة الملكيين (الشوان) لدوشومان – ديسيبّو .

وإذا ما أراد المرء أن يفهم الفانديه ، فليتصور ذلك التناقض: فمن جهة الثورة الفرنسية، ومن الجهة الأخرى الفلاح البروتاني[1]. وبمواجهة هذه الأحداث التي لا مثيل لها، والتهديد الهائل لكلّ المنافع في آنٍ واحد، ونوبات غضب الحضارة، وضروب الشطط في التقدم المسعور، والتحسّن الفائق عن الحدّ، وغير المفهوم، لنضعْ هذا المتوحش الرّصين والفريد، هذا الإنسان ذا النظرة الصافية، والشعر الطويل، والذي يقتات بالحليب والكستناء، والمحدود بسطح كوخه المصنوع من القشّ، وسياجه وحفرته، والذي يميز كلّ ضيعة صغيرة تجاوره من صوت جرسها، والذي لا يستعمل الماء إلاّ ليشرب، ويرتدي على ظهره سترةً من الجلد عليها زخرفاتٌ من الحرير، وغير مرتبة ومزركشة، والذي يشم ملابسه كما كان أسلافه السلتيون يشمون وجوههم، ويحترم سيده من خلال جلاّده، ويتكلم لغة ميتة، وهذا ما يعني أنه يسكن قبراً في فكره، وينخس ثيرانه، ويشحذ منجله، ويعزق قمحه الأسود، ويعجن فطيرته المصنوعة من الحنطة السوداء، والذي يبجل محراثه أولاً، وجدّته بعد ذلك، والذي يؤمن بالعذراء القديسة، وبالسيدة البيضاء، والورع أمام المذبح، وأمام الحجر العالي والغامض والمنتصب في وسط الأرض البائرة، والحرّاث في السهل، وصيّاد الأسماك في الساحل، والصّياد المخالف في الدّغل، والمحبّ للملوك، وسادته الإقطاعيين، وكهنته، وقمله، والمتأمّل، والذي غالباً مايقف بلا حراك لساعات كاملة على الشاطىء الرّملي المقفر، والمصغي الكئيب للبحر، ولنتساءل إن كانّ بوسع هذا الأعمى أن يتقبل ذلك الضياء.

* * *

(١) كانت الرسائل التي كتبها هيغو أثناء رحلاته في العام ١٨٣٦ تعبر عن حماسته أمام المناظر الطبيعية، ولكنها كانت تفتقر إلى اللطف تجاه الفلاح البروتاني والحياة البروتانية. وإننا نجد إلى حدّ ما الروح نفسها في هذه الصفحة.

II

الرّجال

للفلاح مرتكزان: حقله الذي يطعمه، والغابة التي تخبئه.

أما ما كانت عليه الغابات البروتانية، فأمرٌ قد يصعب تصوره، لقد كانت مدناً[1]. فما من شيء أكثر بهمة وأكثر صمتاً وأكثر وحشية من تلك التشابكات الشديدة التعقيد، تشابكات الأشواك والأغصان، كانت أشواك الغابات الواسعة مآوٍ لعدم الحركة والصمت، فما من عزلة ظاهرية أكثر موتاً وأكثر محاكاة للقبور منها، فلو كان بالإمكان، وبغتةً بضربةٍ واحدةٍ تشبه البرق، أن تُقطع الأشجار، لرأينا في ذلك الظلّ جمهرةً من الرجالَ.

آبار مستديرة وضيقة، ومموّهة من الخارج بأغطية حجرية وبأغصان، عمودية ثم أفقية، كانت تتوسع تحت الأرض على شكل أقماع، وتُفضي إلى غرف معتمة. هذا ما عثر عليه كامبيز في مصر، وما عثر عليه ويسترمان في

(١) كانت الصفحات الأولي من رواية «الشوان» لبلزاك قد عرضت من قبل استطراداً حول بروتانيا وغاباتها، ويبشر أسلوبها وحتى نفسها بهذه الفصول من رواية عام ٩٣، وعلى نحو غريب: «كانت الأسيجة الكثيرة الإزهار لتلك الوديان تخفي حينذاك معتدين غير منظورين، وكان كلُّ حقل آنئذ حصناً، وكل شجرة تدبر فخا، وكل جذع عتيق لصفصافة مجوفة يحرس حيلة... إن الدين، أو على الأصح، عبادة الأوثان لدى تلك الكائنات الجاهلة كان يجرد عملية القتل من ندامتها. وهكذا، فحين جرى خوض ذلك القتال، غدا كل شيء في البلد خطراً، الضجة كالصمت، والنعمة كالرعب، ومنزل الأسرة كالطريق العامة، وكانت هناك قناعة بتلك الخيانات الغادرة، كان هناك متوحشون يخدمون الرب والملك...» إلخ.

بروتانيا، كان ذاك في الصحراء، وكان هذا في الغابة، وفي أقبية مصر، كان هناك موتى، وفي أقبية بروتانيا، كان هناك أحياء. وكانت إحدى أكثر فُرَج غابة ميسدون وحشية، والمثقّبة كلها بالسراديب والصوامع التي يروح فيها ويجيء شعبٌ غامض، كانت تسمى (المدينة الكبرى). وثمة فرجةٌ أخرى، ليست أقل منها عزلةً من فوقها، وليست مأهولةً أقل منها من تحتها، وكانت تسمى(السّاحة الملكية).

كانت هذه الحياة السردابية عريقة في بروتانيا. وكان الإنسان فيها هارباً أمام الإنسان على الدوام. ومن هنا تأتي أوكار الزواحف المحفورة تحت الأشجار[٥٣]، كان يعود ذلك إلى عهد الدرويديين، وكان بعض تلك الأقبية قديماً قدم نصُب ماقبل التاريخ (الدوّلمن). إن أشباح الأسطورة، ومسوخ التاريخ، كلها قد عبرت في هذه البلاد السّوداء، توتاتيس[١]، وقيصر، وهوويل، ونيومين، جوفروا انكلترا، والينغانان – دو – فير، وبيير موكلير، وسلالة بلوا الفرنسية، والسلالة الإنكليزية، ودمونفور، والملوك، والدوقات، وبارونات بروتانيا التسعة، وقضاء ليغران – جور (الأيام الكبرى)، وكونتات نانت الذين يخاصمون كونتات رين، والسّلابون، وقطاع الطرق، وعصابات المأجورين الكبرى ورنبيه الثاني، فيكونت روهان، والحكام باسم الملك و(دوق

---

(١) إن هيغو، باليقين نفسه الذي يستعرض به آنفاً مراحل الثورة، يعدد الآن مراحل التاريخ البروتاني فتوثاتيس، الإله الغالي، يذكر بالمرحلة السابقة على الغزو الروماني، فلقد انتصر قيصر عام ٥٦ ق. م على المقاومة البروتانية، وهوويل ونيومن (أونومينوويه) كانا من بين زعماء الحرب، أو التيروس والذين أخضعوا البلاد بعد سيطرة روما عليها، وجوفروا، ابن هنري الثاني بلانتاجونيه، قد اصبح دوق بروتانيا في نهاية القرن الثاني عشر وبيير موكلير، كونت درو، والامير ذوالدم الملكي قد تزوج بابنة جوفروا، بناء على تشجيع فيليب– أوغست الذي كان يحضر للسيطرة على بروتانيا بهذه الطريقة، وشارل دوبلو وجان الرابع دومونفور قد تنازعا حكم البلاد في القرن الرابع عشر، وقد غدا رينبيه دورروهان سيد مونتيفي في القرن الخامس عشر، وكانت الأيام الكبرى قد شكلت قضاءها، في عهد الملكية الفرنسية، والذي كان يقيم محاكمة لمعرفة الحكم النهائي لقضاء المدنية والجنائية – كان هناك السلابون وقطاع الطرق، وهي أسماء كانت تطلق في العصر الوسيط على عصابات الأشقياء – ولسوف تكون هذه التفسيرات كافية لتبين في هذا المجال أيضاً، ميل هيغو الشديد للدقة التاريخية ولمراكمة الأسماء الموحية إنها إحدى عناصر إعادة تشكيله الملحميّة للتاريخ.

شولن الطيب) الذي يعلق الفلاحين تحت نوافذ مدام دوسيفينييه[1] ومذابح السادة الإقطاعيّين في القرن الخامس عشر وحروب الدين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وفي القرن الثامن عشر، الكلاب الثلاثون ألفاً المدربة على مطاردة الناس، فتحت ذلك الوطء الرهيب بالأقدام، كان الشعب قد اتخذ موقفه في التواري، فدورياً كان ساكنو الكهوف يتوارون ليفلتوا من السلتيين، والسلتيون ليفلتوا من الرومان، والبروتانيون ليفلتوا من النورمانديين، والهوغنوتيون (البروتيستانت الفرنسيون) ليفلتوا من الكاثوليك، والمهربون ليفلتوا من محصلي ضريبة الملح، كانوا قد لجؤوا في البداية إلى الغابات، ثم إلى تحت الأرض. وهذه وسيلة الحيوانات، وهناك إنما كان الطغيان يسحق الأمم. ومنذ ألفي عام، كان الاستبداد، تحت كافة أشكاله، والغزو، والاقطاعية، والتعصب، والضرائب، تلاحق بروتانيا البائسة والمضطربة تلك؛ وكأنه نوع من المطاردة التي لاترحم، والتي لا تتوقف تحت شكلٍ معين لتبدأ من جديد تحت شكلٍ آخر. فأخذ الناس يختفون تحت الأرض.

كان الذُّعر، الذي هو ضرب من الغضب. جاهزاً تماماً في النفوس، وكانت الأوكار مُعدةً تماماً في الغابات، عندما اندلعت الجمهورية الفرنسية.

ثارت بروتانانيا. فقد ألفت نفسها مضطهدةً على يد ذلك التحرير القسري، وهذا هو سوء فهم معهود عند العبيد.

---

(١) إشارة إلى رسائل المركيزة دوسفينييه حول التمرد البروتاني في عام١٦٧٥، والذي حرّضت عليه الضرائب وبؤس الفلاحين. نحن نعلم أن مدام دوسفييه قد تحدثت عن القمع الرهيب الذي أعقب التمرد بنوع من التطلق (لقد قبضوا على ستين بورجوازياً، وفي الغد، يبدأ الشنق. إن هذه المقاطعة قدوة حسنة للأخريات، وخصوصا لاحترام حكام الملك ...) ولم يغفر لها هيغو تلك النبرة. وكان قد كتب في إحدى مقطوعات ديوان التأملات والتي غالباً ما أوردناه: كتاب في عام ١٨٤٦:

ليس أكثر من سيفينييه، المركيزة المثقفة،
التي لم يدهشها أن ترى، وهي المرأة الرقيقة الحالمة.
الفلاحين الذين شنقهم ذلك الدوق الطيب دوشولن،
وهم يشحبون في ضوء القمر، ويرتعشون في الريح،
على أشجار الطرق، بين الأوراق الصفراء....

III

تواطؤ الرّجال والغابات

استعادت الغابات البروتانية المأسوية دورها القديم ، فصارت خادمة لذلك التمرد وضالعة فيه ، كما كانت في كافة التمردات الأخرى .

كان باطن أرض غابة كهذه نوعاً من مرجان متشعب محفور ، وتخترقه في كلّ الاتجاهات شبكة طرقٍ خفية مكونةٌ من خنادق وصوامع وممرّات . وكانت كلّ واحدة من تلك الصوامع تخفي خمسة أو ستة رجال . أما الصّعوبةُ فيها فكانت التنفس . ولدينا بعض الأرقام الغريبة التي تجعلنا نفهم هذه القوة التنظيمية للتمرد الفلاحي الواسع . ففي إيل - إي - فيلين ، وفي غابة بيرتر ، وملجأ الأمير دوتالمون ، لم يكن يسمع نفس ، ولم يكن يجد المرء أثراً بشرياً ، وكان هناك ستة آلاف رجل مع فوكار ، وفي الموربيهان ، في غابة مولاك ، لم يكن المرء يرى أحداً ، وكان هناك ثمانية آلاف رجل . إن هاتين الغابتين ، لوبيرت ومولاك ، لم تكونا مع ذلك في عداد الغابات البروتانية الكبيرة . وكان الأمر رهيباً ، إذا ماسار المرء فوقها ، فتلك الأدغال المخادعة ، الملأى بالمقاتلين القابعين في نوعٍ من المتاهة[٥٤] التحتية كانت أشبه ماتكون بإسفنجات هائلة ومعتمة كانت تنبثق منها الحرب الأهلية تحت ضغط القدم العملاقة .

كانت هناك كتائبُ غير منظورة تقوم بالرصد . وأخذت تلك الجيوش الغامضةُ تتلوى[٥٥] تحت الجيوش الجمهورية ، وتخرج من الأرض فجأة ، وترجع إليها ، وتقفز بأعداد لا تحصى ، وتتلاشى وقد تمتعّت بحضورٍ كليّ وقدرة على

التفرق ، مثل جرف صخري يتحول إلى غبار ، ومثل الجبابرة التي وُهبت القدرة على التصاغر ، ومثل عمالقة في القتال ، وأقزام في التواري ، إنهم نمور مرقطة لها طبائع مناجذ .

لم يكن هناك الغابات فحسب ، بل كانت هناك الأحراش؛ فكما أن هناك تحت المدن قرى ، كانت هناك أشواك حرجية تحت الغابات . وكانت الغابات ترتبط فيما بينها بمتاهة الأحراش المتناثرة في كل مكان ، والقصور القديمة التي كانت قلاعاً ، والضيعات الصغيرة التي كانت مواقع محصنة ، والمزارع التي كانت أراضي مسورة مجهزةً بالكمائن والأفخاخ ، والإكارات المخدّدة بالحفر والمسيّجة بالأشجار ، كانت حلقات في تلك الشباك التي وقعت فيها الجيوش الجمهورية .

كان ذلك المجموع هو الذي يسمونه الحريج .

كان هناك حرشُ ميسدون الذي يتوسطه مستنقعٌ ، ويسيطر عليه جان شوان ، وكان هناك حرشُ جين الذي يسيطر عليه تايوفير ، وكان هناك حرش ويسري الذي يسيطر عليه غوج – لو – برويان ، وحرش شارني الذي يسيطر عليه كورتييه – لوباتار والمكنّى بالرسول سان – بول ، قائد موقع فاش – نوار ، وحرش بورغو الذي كان يسيطر عليه ذلك السّيدُ الغامض جاك الذي تُقدّر له نهايةٌ تكتنفها الأسرار في ديماس جوفاردوي ، وكان هناك حرش شارو ، الذي سيقوم فيه بيموس وبوتي – برنس اللذان يتعرضان لهجوم حامية شاتونوف بالإمساك برماة قنابل من بين صفوف الجمهوريين وبجلبهم أسرى ، وهناك حرش دولا أوروزوري ، الذي شهد اندحار موقع لونغ – فاي ، وحرش دولولن الذي كان يجري منه رصد الطريق بين رين ولافال ، وحرش دولاغرافيل الذي كان قد بلغه أميرٌ من تريموال مخاطراً بحياته ، وحرش دولورج في ليكوت – دي – نور الذي سيطر فيه شارل دوبواهاردي ، بعد بيرنار دوفيلنوف ، وحرش بانيار بعد فونتونيه الذي عرض فيه ليسكور القتال على شالبوس الذي قبله لأنه قتالُ واحد ضد خمسة ، وحرش ديروندیه الذي تنازع عليه قديماً ألان لوريدور وهيريسبو ، ابن شارل لوشوف ، وحرش كروكلو ، على تخوم تلك الأرض

البائرة التي كان كوكرو يجز فيها الأسرى، وحرش لاكروا - باتاي الذي شهد الشتائم الهوميرية لجامب ـ دارجان ضد مورير، ومورير ضد جامب - دارجان، وحرش سودرية الذي شهدنا كتيبة باريسية تقوم بتفتيشه. وأحراشٌ أخرى كثيرة.

في عدد من تلك الغابات والأحراش، لم يكن هناك فقط قرى سردابية متجمّعة حول جحر القائد بل كانت هناك أيضا ضيعٌ صغيرة حقيقية من الأكواخ الواطئة المختبئة تحت الأشجار وهي كثيرة العدد بحيث كانت الغابة تمتلىء بها أحياناً. وغالباً ما كانت الأدخنة تفضحها. وقد بقيت ضيعتان صغيرتان من ضيع بواد دو ميسدون ذائعتي الصّيت وهما لوريير، بقرب ليتان، ومن جهة سان - كان - لي - توا، ومجموعة الأكواخ المسّماة لارو - دو - بو.

كانت النساء يعشن في الأكواخ والرّجال في السّراديب. وكانوا يستخدمون في سبيل هذه الحرب الممرات السّريةَ والخنادق السلتية القديمة. ويجري إحضار الطعام للرجال المختبئين. وكان البعضِ منهم قد جرى نسيانهُ، فمات من الجوع. وقد كانوا من جهة أخرى رجالاً خرِقاً لم يعرفوا كيف يعيدون فتح آبارهم، كان الغطاء المصنوع من الطحلّب والأغصان مصنوعاً في العادة بشكلٍ فني إلى حدّ كبير بحيث يتعذر تمييز العشب من الخارج. وكان من السهل جداً فتحهُ وإغلاقُه من الداخل. لقد كانت تلك المخابئ محفورة بعناية. وكانوا يمضون إلى أي مستنقعٍ مجاور ليلقوا فيه التراب الذي كان يُرَفع من البئر. كان الجدار الداخلي والأرضية مفروشين بالسرخس والطحلب. وكان يسمون ذلك المعزل «المقصورة». ويشعر المرء بالراحة فيه غير أنه يكون، بلا نور، ولانار ولا خبز ولا هواء.

أما الصعود بلا حذر إلى الأحياء، والخروج من الأرض في وقت غير مناسب، فقد كان خطراً. ومن الممكن أن يجد المرء نفسه بين ارجل جيش يسير. أحراشٌ مرعبة، وأفخاخٌ مزدوجة الشرك، فالزرق لم يكونوا يجرؤون على الدخول، والبيض لم يكونوا يجرؤون على الخروج.

* * *

IV

حياتهم تحت الأرض

كان الرجال في أقبية الحيوانات هذه يحسون بالضّجر. وفي الليل، كانوا يخرجون أحياناً، عند كل خطر، ويذهبون ليرقصوا في الأرض البائرة المجاورة. أو كانوا يصلّون لكي يقتلوا الوقت، وكان بوردوازو يقول: كان جان شوان يجعلنا نؤدي صلاة المسبحة كل يوم.

كان من المستحيل تقريباً، حين يحل الموسم، أن يمنع أولئك الذين من با – مين من الخروج لكي يذهبوا إلى فيت دولا جيرب (عيد الغُمر). وكان للبعض أفكار خاصة بهم، وكان تراش – مونتانييه يقول إن دوني كان يتنكر على شكل امرأة لكي يذهب لحضور الملهاة في لافال، ثم يعود إلى وكره.

بشكل مفاجىء. كانوا يمضون إلى مقتلهم، فيغادرون الصومعة إلى القبر. كانوا يرفعون أحيانا غطاء حفرتهم. ويصغون إن كان هناك قتال في البعيد، ويتابعون المعركة بآذانهم. وكان إطلاقُ نارِ الجمهوريين منتظماً، وإطلاق نار الملكيين متفرقاً. وكان ذلك يرشدهم؛ فإذا ما توقفت بغتةً نيران المفرزة، يكون ذلك علامة على أن الملكيين قد غلبوا على أمرهم، وإذا كانت النيران المتقطعة تتواصل وتختفي في الأفق، فقد كان ذلك علامة على أن لهم الغلبة. كان البيضُ يقومون دوماً بالملاحقة، أما الزّرق فلا على الإطلاق، لأن المنطقة ضدّهم.

كان هؤلاء المحاربون السردابيون مطّلعين على الأمور بشكل رائع؛ فما من شيء أسرع من تواصلاتهم، وما من شيء أكثر غموضاً. كانوا قد قطعوا كلّ الجسور، وفككوا كلّ العربات، ويجدون وسيلة ليقول بعضهم لبعض كلّ شيء، وليحذر بعضُهم البعضَ بكلّ شيء، وكانت أبدال المرسلين تقام من غابة إلى غابة، ومن قرية إلى قرية، ومن مزرعة إلى مزرعة، ومن كوخ من القشّ إلى كوخ، ومن دغلِ شجيرات إلى دغل شجيراتٍ.

إن فلاحاً ما يبدو عليه الغباء كان يمر حاملاً رسائل رسمية في داخل عصاه التي كانت مجوفة.

وكان عضوٌ سابق في الجمعية التأسيسية هو بويتيدو يزودهم، من أجل أن يروحوا ويجيئوا من أحد طرفي بروتانيا إلى الطرف الآخر، بجوازات سفر من النموذج الجديد مع مكان فارغ للأسماء، وكان ذلك الخائن يمتلك كدسات منها. وكان من المستحيل ضبطها، وقد قال بويزاي[1] إن أسراراً قد سلمت لأكثر من أربعمئة ألف فرد، وحوفظ عليها بدقة.

كان يبدو أن رباعيّ الأضلاع المغلق هذا من الجنوب بخط ليسابل في توار، ومن الشرق بخط توار في سومور، وبنهر توويه، ومن الشمال بنهر اللوار، ومن الغرب بالمحيط، كان يبدو أن له جهازاً عصبياً واحداً، وأنه لم يكن ممكناً أن ترتعش نقطة من تلك الأرض من غير أن يتخلخل كلّ شيء. وفي طرفةِ عين، كان يتمّ الاستلام عن نوار مواتييه في ليسون، وكان موقع لالوّيه يعلم بما يفعله موقع لاكروا - مورينو. وكأن الطيّور كانت تتدخل في ذلك، وكان هوش يكتب في ٧ ميسّيدور للعام٣: يظن المرء أن لديهم أجهزة برق.

كانوا جماعات عشائرية، كما هو الأمر في اسكوتلندا، وكان لكلّ خورنيةٍ قائدٌ عسكريّ، فقد خاض والدي هذه الحرب، ويمكنني أن أتكلمّ عليها[2].

---

(١) المجلد الثاني، ص: ٣٥ (هامش لفيكتور هيغو).

(٢) انظر المقدمة ص: (النص الفرنسي).

V

حياتهم في الحرب

الكثيرون لم يكن لديهم إلاّ رماحٌ قصيرة. وكانت قربيناتُ الصّيد الجيدة متوفرة، فما من رماة أكثر مهارة من مزاولي الصيد المحرم في البوكاج (الحرش الصغير) ومن مهربي لورو. لقد كانوا مقاتلين عجيبين، وفظيعين وغيرهيّابين، وكان مرسومُ تجنيدِ الثلاثمة ألف رجلٍ قد جعل ناقوس الخطريقرعُ في ستمئة قرية. واندلعت فرقعة الحريق في كلّ الأماكن في آن واحد. لقد انفجرت بواتو وأنجو في اليوم نفسه.

ولنقل إن الهدير الأول قد سُمع اعتبارا من عام ١٧٩٢، في الثامن من تموز، قبل العاشرمن آب بشهر، على أرض كيربادير البائرة. أما ألان ريدلير، الذي يجهله الناس الآن. فقد كان سلف لاروشجاكلان وجان شوان. وكان الملكيّون يجبرون كلّ الرّجال الصحيحي الجسم على المسير، تحت طائلة الموت. ويصادرون المرابط. والعربات، والأقوات. وقد جمع سبينو على الفور ثلاثة آلاف جندي، وكاتلينو عشرة آلاف، وستوفليه عشرين ألفاً، وأصبح شاريت مسيطراً على نوار موتييه. وحرّك الفيكونت دوسيبوالتمرد في لوهو تانجو، والفارس دوديوزي أنتر-فيلين-إي-لوار، وتريستان ليرميت لوباميين، والحلاق غاستون مدينة غيمينيه، ورئيس الدير بيرنييه كلّ ماتبقى. فلكي يجري تحريضُ تلك الحشود. كان يكفي أمرٌ يسير. فيضعون في بيت القربان العائد لخوريّ محلّف، لكاهن يقسم اليمين، كما كانوا يقولون، قطاً ضخماً أسود يقفز بغتة

إلى الخارج أثناء القداس- وكان الفلاحون يصرخون: إنه الشيطان! فتثور منطقة بكاملها. ويصدر عن كراسي الاعتراف نفسٌ حماسيّ. لقد كانوا يحملون، لمهاجمة الزرق واجتياز الوديان، عصاهم الطويلة والتي يبلغ طولها خمسة عشر قدماً والمسماة la ferte وهي سلاحُ قتالٍ وهروب. وحين تشتد المعارك إلى الحدّ الأقصى، عندما كان الفلاحون يهاجمون التشكيلات المربعة الجمهورية، كانوا يلتقون في ساحة المعركة صليباً أو مصلى، فيجثون جميعاً ويتلون صلاتهم تحت القذائف، وبعد أن ينهوا التسبيح، كان أولئك الذين ينهضون مجدداً، ينقضون على العدّو. فيالهم من عمالقة، واأسفاه[1]! لقد كانوا يحشون بنادقهم وهم يعدون، فتلك هي موهبتهم. لقد كانوا يوهمونهم. بما كانوا يريدونه منهم، فكان الكهنة يرونهم كهنةً آخرين قد جعلوا أعناقهم محمرة بواسطة خيط مشدود، ويقولون لهم: إنهم مُعدمون بالمقصلة وقد أُحيوا. وكانت تصيبهم اندفاعات تدل على فروسية، فقد بجلوا فيسك الذي كان حامل راية جمهورياً، وقد ضربته السيوف من غير أن يفلت العلم الذي يحمله. وكان هؤلاء الفلاحون يتهكّمون. ويسمون الكهنة المتزوجين الجمهوريين بـ: اللامتقلنسين الذين أصبحوا لا متسرولين. لقد بدؤوا خائفين من المدافع، ثم انقضوا عليها بالعصيّ، واستولوا على عدد منها[2]. فاستولوا في البداية على مدفع جميل من البرونز وأطلقوا عليه تسمية المبشّر، ثم على آخر يعود تاريخه إلى الحروب الكاثوليكية، وقد حفرت عليه أسلحة ريشيليو وصورة العذراء، وقد سمّوه: ماري - جانّ. وحين خسروا فونتونيه، خسروا ماري - جان، والذي سقط حوله ستمئة فلاح بلا تذمر، ثم استعادوا فونتونيه بهدف استعادة ماري - جان، وأتوا به تحت العلم المزنبق وهم يغطونه بالزهور، ويجعلون النساء اللواتي يعبرن يقبلنه. ولكن مدفعين كانا شيئاً قليلاً. كان ستوفليه قد استولى على ماري -جان، أما كاتلينو الذي أحس بالغيرة. فقد انطلق من بان - إن - مانج، وشن هجوماً في

---

(١) هذه مسبقاً حركة(وفكرة) خاتمة قصيدة جان شوان:
أيها الفلاحون! أيها الفلاحون! واأسفاه! لقد كنتم على خطأ..

(٢) إن رواية طبعة المطبعة الوطنية (ص: ٤٦٨) تشير في عنوان لوي بلان إلى المقطع الذي استمدّ منه هيغو هذه التفاصيل عن استيلاء الفانديين على المدافع.

جاليه، واستولى على مدفع ثالث، وهاجم فوريست سان - فلوران واستولى على مدفع رابع. وهناك نقيبان آخران هما شوب وسان - بول قد فعلا أكثر من ذلك، فعملا على تشكيل عدد من المدافع من جذوع أشجار مقطوعة، وعدد من المدفعيين من تماثيل الأشخاص، وبتلك المدفعية التي كانا يتهكمان عليها بشجاعة، جعلا الزرق يتراجعون إلى ماروي. فهناك ذاع صيتهما. وفيما بعد، وعندما هزم شالبو لامارسونيير، ترك الفلاحون وراءهم في ساحة المعركة المخزية اثنين وثلاثين مدفعاً لقوات انكلترا. وكانت انكلترا حينذاك تموّل الأمراء الفرنسيين. وقد كتب نانتيا في ١٠ أيار ١٧٩٤ أنهم كانوا يرسلون: «اعتمادات مالية لسيّدنا لأنه قد قيل للسيّد بيت أن ذلك كان أمراً لائقاً». أما ميلينيه. فقد قال في تقرير له بتاريخ ٣١ آذار إن «هتاف المتّمردين قد كان: عاش الانكليز!» كان الفلاّحون يطيلون أمد النهب؛ فهؤلاء الأتقياء كانوا سارقين(٥٦). فللمتوحشين نقائصهم. ومن هذه الجهة إنما ستقيّمهم الحضارة فيما بعد. كان بويزاي يقول في المجلد الثاني، الصفحة ١٨٧: «لقد حميت دسكرة بيلان من النهب عدّة مرات». وفي موضع آخر، على الصفحة ٤٣٤ يمتنع عن الدّخول إلى مونفور: (قمتُ بسير طويل لكي أتجنب نهب منازل اليعاقبة). لقد نهبوا شوليه، وسلبوا شالان. وبعد أن أخفقوا في الوصول إلى غرانفيل، نهبوا فيل - ديو. وكانوا يطلقون تسمية الجمهور اليعقوبي على أولئك الذين انضموا إلى الزرق من بين الرّيفيين، وكانوا يقومون بإبادتهم أكثر مما يبيدون الآخرين. لقد كانوا يحبون الذبح كالجنود، والمجزرة كقطاع الطرق. وكان يروق لهم إطلاق النّار على «البلداء» أي البورجوازيين وكانوا يصفون ذلك (برفع الصوم الكبير). وفي فونتونيه، صرع أحد كهنتهم، الخوري باربوتان رجلاً شيخاً بضربة - سيف. وفي سان - جيرمان - سير إيل[١] قتل أحد نقبائهم، وهو نبيلٌ، وبطلقة بندقية، مفوض البلدة، وأخذ ساعته. وفي ماشكول، فرضوا خوّةً على الجمهوريين، بالقضاء على ثلاثين يوماً. وقد دام ذلك خمسة أسابيع، وكلّ سلسلة من ثلاثين رجلاً كانت تسمى (السبحة). وكانوا يسندون كلّ سلسلة إلى حفرة قاموابحفرها ويطلقون النار، وكان المصابون بالرصاص يسقطون في الحفرة

---

(١) بويزاي المجلد الثاني، ص: ٣٥. (هامش لفيكتور هيغو).

وهم أحياء أحياناً، فيطمرونهم بالتراب مع ذلك. وقد رأينا ثانية مثل تلك التصرفات[1] وقد حُزّت قبضتا جوبير، رئيس المنطقة. فكانوا يضعون في أيدي الأسرى الجمهوريين أغلالاً قاطعة، صنعت خصيصاً لذلك. وكانوا يصرعونهم في السّاحات العامة وهم يطلقون صيحة الهجوم النهائي. أما شاريت الذي كان يوقع كالتالي: إخاء، الفارس شاريت، والذي كان يعتمر، شأن مارا، منديلاً معقوداً على حاجبيه، فقد أحرق مدينة بورنيك، والسكان في منازلهم. وأثناء ذلك الوقت، كان كاريه مرعباً. وكان الإرهاب يرد على الإرهاب. وكان للمتمرد البروتاني تقريباً صورة المتمرد الإغريقي، فيرتدي سترة قصيرة، ويتوشّح ببندقيته، ويلبس واقيتي ساق، وسروالاً واسعاً يشبه التنورة اليونانية الرجالية. كان الفتى منهم يشبه اللص اليوناني. وقد مضى هنري دولا روشجاكلان في الواحد والعشرين من عمره حاملاً عصاً وزوجاً من المسدسات. كان يصل عدد الجيش الفاندي إلى مئة وأربع وخمسين فرقة. وكانوا يقومون بحصارات حسب الأصول، فقد أبقوا بريسوير محاصرة لثلاثة أيام. وفي أحد أيام الجمعة العظيمة قصف عشرة آلاف فلاح مدينة ديسابل بقذائف حمراء. وحدث لهم أن دمّروا في يوم واحد أربعة عشر معسكراً جمهورياً، من مونتينييه إلى كوربفيي. وفي توار، سمع على السورالعالي، هذا الحوار المتعجرف بين لاروشجاكلان وأحد الفتية: - ياكارل!

- هاأنذا - كتفيك حتى أصعد عليهما - افعل - وبندقيتك - خذها - وقفز لاروشجاكلان إلى المدينة، وجرى الاستيلاء على تلك الأبراج التي كان دوغيسكلان قد حاصرها. كانوا يؤثرون خرطوشة على لويسية ذهبية. وكانوا يبكون حين تغيب عن ناظرهم قبّة جرسهم. وكان الهروب يدولهم بسيطاً، فقد كان القادة يصيحون حينذاك: ارموا نعالكم، واحتفظوا ببنادقكم! وحين كانت الذّخائر تعوزهم، كانوا يتلون صلاة سبحتهم ويمضون للحصول على البارود من عربات ذخيرة المدفعية الجمهورية، فيما بعد طلب ديلبيه من الإنكليز تزويده بها. وحين كان العدو يقترب، ويكون لديهم جرحى كانوا

(١) إشارة محتملة إلى «الأسبوع الدامي» الذي حدد نهاية الكومونيين في أيار ١٨٧١.

يخبئونهم بين سنابل القمح العالية، وفي نباتات السرخس البكر. وحين ينتهي الأمر يأتون لاستعادتهم، وهم لا يرتدون زياً موحداً البتة. كانت ملابسهم تتلف، فالفلاحون والنبلاء كانوا يرتدون أوّل الأسمال الواصلة إليهم. وكان روجيه مولينييه يرتدي عمرةً ومعطفاً حربياً حصل عليه من مخزن لبزات مسرح دولافليش، وكان الفارس دوبوفيلييه يمتلك رداء مفوض، وقبعة نسائية فوق قلنسوة صوفية. وكانوا جميعاً يرتدون الوشاح والحزام الأبيض. وتتميز الرتب بشرائط معقودة[٥٧]. وكان ستوفليه يحمل شريط عقدة أحمر ولارشجاكلان شريط عقدة أسود، وفيمبن، نصف الجيروندي الذي لم يخرج فضلاً عن ذلك من النورماندي، كان يرتدي ساعدة كارابو[١] كان. وكانت لديهم نساء بين صفوفهم، من مثل مدام ليسكور التي أصبحت فيما بعد السيدة دولاروشجاكلان، وتيريز دو موليان. عشيقة لاروّاري والتي أحرقت قائمة قادة الخورنية، والسيدة دولاروشفوكو، الجميلة، والشابة، والتي حملت السيف، وانضمت إلى الفلاحين في أسفل برج قصر بوي - روسو الضخم، وتلك المدعوة أنطوانيت آدامز، والملقبة بفارس آدامز والتي هي على درجة كبيرة من البسالة بحيث أنها عندما قبض عليها، جرى إعدامها بالرصاص، ولكن وهي واقفة احتراماً لها. كان ذلك الزمن الملحمي قاسياً. وكان أناسه هائجين. وكانت السيدة دوليسكور تجعل حصانها يسير عمداً على الجمهوريين الراقدين خارج المعركة، موتى، كما كانت تقول أو ربما جرحى. لقد خان الرجال أحياناً أما النساء فلم يخنّ قط. وانتقلت مدوموازيل فلوري الممثلة في المسرح الفرنسي (تياتر- فرانسية). من لارواري إلى مارا، ولكن بدافع الحب. وغالباً ما كان النقباء جهلة كالجنود؛ فالسيد دوسبينو لم يكن يعرف الإملاء، وكان يكتب «قد يكون لدينا من ناحيتنا[٢]» كان الزعماء يكره بعضهم البعض الآخر، فيهتف قادة المستنقع: ليسقط الذين في المنطقة العليا! وكانت خيالتهم قليلة العدد ويصعب تشكيلها. ويكتب بوايزاي: إن رجلاً يعطيني بفرح ابنيه يغدو بارداً إذا

---

(١) الكارابو هم الثوريون النورمانديون الذي انضموا إلى قضية الجيرونديين ضد الجبليين.

(٢) يكتب بالفرنسية «ORIONS ، و CAUTE و COTE» (م: ز.ع).

ماطلبت منه أحد خيوله. إن العصي القتالية والمشاعب، والمناجل والبنادق القديمة منها والجديدة، وسكاكين الصيد المحرم، والأسافين، والهراوات المحددة والمسمرة، كانت تلك هي أسلحتهم. وكان بعضهم يحمل بشكل متصالب صليباً مصنوعاً من عظمتي رجلٍ ميت. كانوا يهاجمون مطلقين صرخات كبيرة، ويخرجون بصورةٍ مباغتةً من أي مكان، من الأحراش، والهضاب، ومن نوامي الأشجار، ومن الدروب الضيقّة والمتعرجة، ويتفرّقون، أيّ يقومون بالتشذيب، فيقتلون، ويبيدون، ويصعقون ويتبدّدون، وحين كانوا يجتازون دسكرةً جمهورية، كان يقطعون شجرة الحرية ويحرقونها وهم يرقصون في حلقة حول النار. كانت كلّ تحرّكاتهم ليلية. أما قاعدة الفاندي[٥٨]. فهي: أن يكون دوماً مفاجئاً[١]. كانوا يقطعون خمسة عشر فرسخاً بصمت، من غير أن يحنوا نبتة عشب أثناء مرورهم. وحين يأتي المساء، وبعد أن يتحدد فيما بين القادة في مجلسٍ حربي، المكان الذي سيباغتون فيه، في اليوم التالي، المراكز الجمهورية، كانوا يحشون بنادقهم، ويتمتمون صلاتهم، ويخلعون نعالهم وينطلقون بأرتالٍ طويلة عبر الأحراش، وهم حفاة على جنيبة الخلنج وعلى الطحلب، بلا ضَجة، ومن غير أية كلمة وأي نَفَس. إنه مسير القطط في العتمة.

* * *

(١) كان بالزاك قد وصف في روايته المسير الصامت والاقتحامات المفاجئة لاثنين من الشوان (الثوار وهما بي – ميش ومارش – أ – تير).

VI

روح الأرض تنتقل إلى الإنسان

لا يمكن أن تقدر الفاندية المتمردة بأقل من خمسئة ألف رجل، وامرأة، وطفل. نصف مليون مقاتل، هذا هو الرقم الذي أعطاه توفان دولا روّاري.

كان الاتحاديّون يساعدونها، وكانت الجيروند شريكة للفانديه. وقد أرسلت اللّوزيرثلاثين ألف رجل إلى البوكاج (الحرش الصغير)، وقد جرى ائتلاف بين ثماني مقاطعات، خمس منها في بروتانيا، وثلاث في النورماندي. أما إيفرو التي تآخت مع كان، فقد تمثلت في التمرد بشومون، عمدتها، وغاردامبا، الوجيه. وكان بوزو وغورساس وباربارو في كان، وبريسّوفي مولان، وشاسّان في ليون، ورابو- سانت -إيتيين في نيسم. وميلان ودوشاتيل في بروتانيا، وكلّ هذه الأفواه كان تنفخ في الأتون. كانت الفانديه اثنتين، الفانديه الكبرى التي كانت تخوض حرب الغابات، والصُّغرى التي تخوض حرب الأدغال، وهنا الفارق المميز الذي يفصل بين شاريت وجان شوان. كانت الفانديه الصُّغرى ساذجة وكانت الكبرى فاسدة، فالصُّغرى كانت أفضل. لقد عين شاريت مركيزاً، ونائباً عاماً لقيادة جيوش الملك، وحائزاً على صليب القديس لويس الكبير، أما جان شوان فقد بقي جان شوان. إن شاريت يقارب قاطع الطريق، وجان شوان يقارب الفارس التائه.

أما هؤلاء القادة الشهام، بونشان، وليسكور، ولاروشجاكلان، فقد كانوا مخطئين. وكان الجيش الكاثوليكي الكبير مجهوداً غير حصيف. وكان

لا بدَّ للكارثة أن تعقبه. فهل يتصوّر المرء عاصفةً فلاحية تهاجم باريس، وائتلافاً بين قرى تحاصر البانتيون، ورهطاً يردد بضراوة أناشيد الميلاد، والتضرّعات النابحة حول المارسيلييز، وجمهرةً مشاغبةً من النعال التي تنقض على جحفل العقول؟ وقد اقتصّت لومان وسافوني من ذلك الجنون. لقد كان عبور اللوار مستحيلاً على الفانديه، فقد كان بوسعها أن تفعل كلّ شيء، باستثناء ذلك التخطيّ. فالحربُ الأهلية لا تُخضِعُ مطلقاً. إن عبور الرّين يكمل قيصر، ويكبر نابوليون، أما عبور اللوار فيقتل لاروشجاكلان[1]. إن الفانديه الحقيقية هي في موطنها، فهي، هناك، أكثرمن منيعة، ومن المتعذر الإمساك بها، إن الفاندي في بلده مهرّبٌ، وحرّاثٌ، وجنديّ، وراع، ومزاولٌ للصيد المحرم، وقناصٌ، وراعي ماعز، وقارعُ أجراس، وفلاحٌ، وجاسوسٌ، وقاتلٌ، وخادمُ كنيسةٍ، وحيوانُ أحراش.

ليس لاروشجاكلان إلا أخيل، أما جان شوان فبروتيه[2].

لقد اخفقت الفانديه. ونجحت تمرداتٌ أخرى، سويسرا على سبيل المثال. فهناك ذلك الاختلاف بين متمرّد الجبل كالسويسريّ، ومتمرد الغابة من مثل الفاندي، بحيث أن هناك دوماً على وجه التقريب ذلك التأثير المحتم للمكان؛ فالأول يقاتل في سبيل مثل أعلى، والآخر في سبيل أحكام مسبقة[3]، الأول منهما يحلّق والآخر يزحف، الأول يقاتل من أجل الإنسانية، والآخر من أجل الانفراد، الأول يتوخّى الحرية والآخر يتوخى العزلة. الأول يدافع عن البلدة، والآخر عن الخورنية. لقد كان أبطال مورا[4] يهتفون: البلدات! البلدات! الأول

(١) انظر الملاحظة على هامش رقم: ١٠٤.

(٢) إله بحري أخذ عن بوزيدون والده موهبة التنبؤ، وهويغير شكله ومشيئته.

(٣) لطالما كان لدى هيغو ميل (جدّ شائع من ناحية أخرى في القرن التاسع عشر) لهذه الشروحات اللامعة بقدر ما هي معقولة ظاهرياً. ونجد من مثلها قبلاً في بحث في الثورات لشاتو بريان. وهي وفيرة في الخاتمة السياسية لكتاب الرين (١٨٤٢). والتي هي عرض هائل باسماء وإشارات جغرافية وتاريخية. وكان هيغو يؤكد فيها: «أن كل الجمهوريات التي زالت كانت في السهل أو في البحر، والوحيدة التي بقيت(سويسرا) كانت في الجبل، إن الجبال تحافظ على الجمهوريات».

(٤) القلعة المحصنة التي انتصر فيها السويسريون على شارل لوتيميرير (م:ز، ع).

يواجه اللجّج، والآخر المستنقعات الموحلة، الأول هو رجلُ السيول والزبد، والآخر هو رجل الغدران الآسنة التي تخرج منها الحمّى، الأول يعلو رأسه اللازورد والآخر العليق. الأول على قمة، والآخر في عتمة.

إن التربية ليست واحدة على الاطلاق، سواء صنعتها القمم أم صنعتها القيعان. إن الجبل قلعة، والغابة كمين، فالأول منهما يوحي بالجرأة، والأخرى بالفخ، لقد كانت الأزمنة القديمة تضع الآلهة على الذرى، والسّتير[1] في الأسيجة اليابسة. والسّتير هو المتوحش الذي نصفه إنسان ونصفه حيوان. إن لدى البلدان الحرّة جبال الأبنين، والألب، والبيرينيه وجبل الأولمب. إن البرناس جبل. والجبل الأبيض قد كان معيناً جباراً لغليوم تيل[2] وفي أعماق وفوق نضالات العقول ضدّ الظلام والتي تملأ أشعار الهند[3]، نلمح الهيمالايا. إن صورة اليونان، وإسبانيا وإيطاليا، وهيليفتيا (سويسرا) هي الجبل، وسيمريا وجرمانيا أو بروتانيا صورتها هي الحرش، إن الغابة همجية.

إن شكل الأرض يرشد الإنسان إلى العديد من الأفعال[4] فهو شريكٌ له محرض أكثر ممّا يظن. وبوجود بعض المناظر الشرسة، ثمة ما يَغري المرء بأن يعفي الإنسان ويجرّم الخليقة. ويحس باستفزاز الطبيعة الخفي. إن الصحراء غير صحية أحياناً للوعي، وخصوصاً للوعي المستنير قليلاً، فيمكن للوعي أن يكون عملاقاً. وهذا مايصنع سقراط ويسوع. ويمكن أن يكون قزماً، وهو يصنع أتريه ويهوذا. إن الوعي الصغير سرعان ما يصبح زاحفاً؛ فالأشجار الضخمة

---

(١) الستير: شخص خرافي عند الوثنتين، نصفه الأعلى بشر، والأسفل ماعز. (م: ز، ع).

(٢) حين ينطلق هيغو على هذا المسار يكثر من التقربات على هينه، وموضوع الجبل الحامي للحريات هذا يجعلنا نفكر بمقدمة «حماة القلاع» ١٨٤٣، وخصوصاً بقصيدة كتيبة البارون مادروس التي تكون سويسرا بطلتها، في ملحمة «أسطورة القرون».

(٣) قصائد الهند التي احتفل بها إدغار كتينيه في عبقرية الأديان(١٨٤١) ومشليه في «كتاب البشرية المقدس»١٨٦٤ كانت تغذي إلهام لوكونت دوليل (قصائد همجية، ١٨٦٢).

(٤) نلتقط هنا أحد مصادر العجيب عند فيكتور هيغو وهو: مفهومه الهلعي والإحيائي للطبيعة (الآثيمة) الذي يذكر بمثل هذه الابيات المستمدة في مجموعة الاسطورة في قصيدة ملك غاليس الصّغير، على سبيل المثال: يبدو الشعب غادراً والشجرة تبدو شريرة. وهي تنبىء بالرؤى الاهلاسية في القصائد الكبرى التي نشرت بعد موت هيغو: الله ونهاية الشيطان. .

الغسقية، وضروب العوسج والأشواك، والمستنقعات تحت الأشجار هي مجال مشؤوم ليتردد عليه هذا الوعي. إنه يحتمل التسرّب الخفي للاقتناعات السيئة إن الخداعات البصرية والسرابات غير المعللة، وارتعابات الوقت والمكان، تلقي بالإنسان في ذلك النوع من الذعر، نصف الديني ونصف الحيواني الذي ينُتج المعتقدات الباطلةَ في الزمن العادي، والوحشية في الفترات العنيفة. إن الأهلاس تمسك بالمشعل الذي ينير درب جريمة القتل؛ فثمة دوار لدى قاطع الطريق؛ فالطبيعة الخارقة ذات اتجاه مضاعف يبهر العقول العظيمة ويعمي الأرواح المتوحشة، وحين يكون الإنسان جاهلاً وحين تكون الصحراء رؤيوية، تضاعف عتمة الوحدة إلى عتمة العقل. ومن هنا تأتي انفتاحاتٌ على اللجج في الإنسان. إن بعض الصخور، وبعض الوهاد وبعض المنسغات النامية، وبعض المناور المخيفة في المساء، ومن خلال الأشجار تدفع الإنسان إلى الأعمال الجنونية والفظيعة، لعله يمكننا ان نقول تقريباً إن هناك أمكنة أثيمة.

كم من الأشياء المأسوية قد شهدتها الهضبة التي تقع بين بينيون وبيلان! إن الآفاق الواسعة تقود الروح إلى الأفكار العامة، والآفاق المحصورة. تولدّ الأفكار الجزئية، وهذا ما يحكم أحياناً على بعض القلوب أن تكون عقولاً صغيرة والشاهد على هذا جان شوان.

إنها الأفكار العامة التي تكرهها الأفكار الجزئية، وفيها يكمن صراع التقدم نفسه.

البلدُ والوطن، هاتان الكلمتان تلخّصان حربَ الفاندية بكاملها، النزاعَ بين الفكرة المحلية والفكرة الشاملة، بين الفلاحين والمواطنين.

* * *

VII

أنهت الفاندية بروتانيا

بروتانيا متمردةٌ قديمة. وفي كل مرة كانت تتمرّدُ فيها منذ ألفي عام، كانت على حق؛ وفي المرة الأخيرة، كانت على خطأ. ومع ذلك، فالحرب التي كانت تخوضها بروتانيا على الدوام هي الحرب نفسها، في الأساس، ضد الثورة، كما ضد الحكم الملكي، ضد المندوبين المبعوثين في مهمة، كما ضدّ الحكام الدوقات والأعيان، وضد لوح السندات النقدية، كما ضد جباية ضريبة الملح، وايا كانت الشخصيات المقاتلة، نيكولا رابان، أو فرانسوا دولانو أو القائد بلوفيو وسيدة الغارناش[1]، أوستوفليه، أو كوكرو وليشاندولييه دوبييرفيل، وفي عهد السيد دورهان ضد الملك، وفي عهد السيد دولاروشجاكلان في سبيل الملك، إنها حربُ الفكرِ المحليّ ضد الفكر المركزي.

كانت تلك المقاطعات القديمة مستنقعاً، فالجريان ينفّر ذلك الماء الراكد، والرّيحُ التي تهبّ لم تكن تنعشها، بل كانت تثيرها. ففي فنيستير[59]، إنما هناك كانت تنتهي فرنسا، والمجال الذي أعطي للإنسان ينتهي، ويتوقف تقدم الأجيال. قف! هكذا كان المحيط يصيح بالأرض، والهمجية بالحضارة، وفي كل مرة، كان المركز باريس يعطي فيها دفعةً، سواء أتت هذه الدفعة من الملكية أومن الجمهورية، وسواء كانت باتجاه الاستبداد أم باتجاه الحريّة، يكون ذلك تجديداً، تنتصب بروتانيا غاضبة (وقائلة) دعونا بسلام. ماذا يراد منا؟ ويمسك

(١) في فترة حروب الدين إنما يرجع هيغو إلى نيكولا راباب١٥٤٠ - ١٦٠٨ الذي ولد في مونتوناي - لو - كونت وكان أحد مؤلفي: هجائية مينيبيه فرانسوا دولانو١٥٣١ -١٥٩١ قد جرح في مونتناي - لو - كونت ولقب بالبروتستانتي بيار وغارناش هواسم قلعة فانديه تنازعها الكاثوليك والبروتستانت وجرى دكها في عهد لويس الثالث عشر.

المستنقع بمشعبه، ويمسك الحريج بقربينته. إن كلّ محاولاتنا، ومقترحاتنا في التشريع وفي التربية، وموسوعاتنا، وفلسفاتنا، وعبقرياتنا، وأمجادنا تأتي لتخفق أمام الهورو، ويهدد ناقوس خطر بازوج الثورة الفرنسية، وتتمرد أرض فاو البائرة ضدّ ساحاتنا العامة العاصفة، وجرس أو- دي - بريه يعلن الحرب على لاتوردي لوفر.

إنه صممٌ رهيب.

إن التمرّد الفانديّ هو سوء فهم كئيب.

صدامٌ جبار. ونزاعٌ بين العمالقة، وعصيان مفرط، ومكرس لئلا يترك في التاريخ[٦٠] إلا كلمة، هي الفانديه، وهي كلمة ذائعة الصيت وسوداء، وهي تنتحر من أجل أناس غائبين[١]، والمخلصة للأنانية، والتي تُمضي الوقت في عرض النذالة على أنها إقدام هائل، وهي لا تحسب الأمور، ولا استراتيجية لها ولا تكتيك، ولا خطة، ولا هدف، ولا زعيم، ولا مسؤولية. وتظهر إلى أية درجة يمكن للإرادة أن تكون عجزاً، إنها فروسية ومتوحشة. إنها منافاة العقل في حالة نزو، والتي تبني ضدّ النور حاجزاً من الظلمات، وهي الجهل. الذي يواجه الحقيقة، والعدالة، والحق، والعقل، والخلاص، بمقاومة طويلة غبية ومتعجرفة، فذعرُ ستّ سنوات، ودمارُ أربع عشرة منطقة، وتلفُ الحقول، وسحقُ الحصاد، وحرق القرى، وخرابُ المدن، وسلب المنازل، وذبح النساء والأطفال، وإشعال النار بأكواخ القش، وغرز السيف في القلوب، والذعر من الحضارة، ورجاء السيد بيت[٢]، هذا ما كانت عليه تلك الحرب، هذه المحاولة غير الواعية لقتل الأهل.

إن الفانديه إجمالاً، ومن خلال إثباتها لضرورة فتح ثغرة، بكل الاتجاهات، في العتمة البروتانية العتيقة، وخرق تلك الأشواك المتشابكة بكل أسهم النور في آن، قد خدمت التقدم. فللكوارث أسلوبٌ قاتمٌ في ترتيب الأشياء.

---

(١) أي المهاجرين الذين تجري معاملتهم بقسوة في هذه الجملة.

(٢) نقرأ في أحد هوامش البقايا: «السيد بيت يعطي السيد كرو، الأمين الأول لمجلس التنسيق الأمر بالسعي لفتح ترسانة لاتور في لندن، في كل الأوقات، للكونت دوبويزاي لكي يتمكن من تحديد الأسلحة المطلوب إرسالها من انكلترا إلى ملكيي فرنسا».

الكتاب الثاني

الأطفال الثّلاثة

I

Plus quam civilia bella[1]

(الحروب الأكثر من أهليّة)

كان صيف عام ١٧٩٢ ممطراً جداً ، و صيف عام ١٧٩٣ شديد الحرارة[٢] . وبسبب الحرب الأهليّة ، لم يعد هناك تقريباً دروب في بروتانيا . و مع ذلك ، فقد كانوا يسافرون فيها ، بفضل جمال الصيف . وكانت أفضل الطرق هي الأرض القاحلة .

في نهاية نهار صاف من شهر تموز ، وبعد ساعة تقريباً من غياب الشمس ، توقف رجل يمتطي جواداً ، ويأتي من ناحية أفرانش ، توقف أمام نزل يسمّونه

---

(١) (باللاّتينية و الترجمة تحتها) . هذا هو جزء من البيت الشعري الأوّل من الحرب الأهليّة للوكان و هو أحد الشعراء اللاتين الأثيرين عند هيغو (٣٩–٦٥ م)

Bell per Emathios plos quam civilian campos Jusque clatum Sceleri Canimus ..

(نحن نغني الحروب الأكثر من أهلية التي اجتازت سهول ايماتيا ، و الحق المعطى للجريمة . . .)

(٢) سوف يتذكر كلوديل هذا التفصيل في الرهينة ، حين ينسب إلي شخصية تورلو اليعقوبي السابق قطعة طويلة غنائية عن عام ١٧٩٣ : «قلما كان يتعلق الامر بمسوغ لتلك الشّمس الجميلة . في ذلك الصيف الجميل للعام الأول (لثورة)! و لتكون حبات الخوخ الأخضر طيّبة المذاق في تلك السّنة . . . . ولأن يكون الطقس حارّاً !» .

لا كروا برانشار ، وكان يقع في مدخل بونتورسون ، وتحمل لافتته هذه الكتابة التي كان المرء لا يزال يقرأ عليها لبضع سنوات خلت[1] (٦١): خمرٌ تفاح جيّد للترسيب والتعبئة .

وكان الطقسُ حاراً طيلة النهار ، غير أن الرّيح بدأت في الهبوب .

كان ذلك المسافر متلفّعاً بمعطف طويل يغطي ردف جواده . وكان يعتمر قبعة واسعة ذات شارة مثلثة الألوان ، وهذا لا يخلو من الجرأة في تلك المنطقة الملأى بالحواجز ، وطلقات البنادق ، وحيث تكون شارةٌ ما هدفاً ، كان المعطف المعقود بالعنق يتباعد ليترك الساعدين طليقتين ، وكان يمكن للمرء أن يستشفّ تحته حزاماً مثلث الألوان لتُفيحتي مسدسين يخرجان من الحزام ، وكان سيفٌ يتدلّى ويتجاوز المعطف .

انفتح باب النزل على جلبة الحصان الذي كان يتوقف ، وظهر صاحب النزل ، وهو يحمل مصباحاً ، وكان الوقت متوسّطاً بين النهار على الطريق ، والليل في المنزل . نظر المضيفُ إلى الشارة ، وقال:

– أيها المواطن ، هل تتوقف هنا ؟

– لا .

– إلى أين تذهب إذن؟

– إلى دُول .

– في هذه الحالة ، عد إلى أفرانش أوابق في بونتورسون .

– لماذا؟

– لأن هناك قتالاً في دول .

فقال الخيال

(١) من ذكريات رحلة عام ١٨٣٦ .

– آه!

ثم استأنف يقول:

– أعط حصاني شوفاناً.

أتى المضيف بالمزود، وأفرغ فيه كيساً من الشوفان، وحلَّ رباط الحصان الذي أخذ ينفخ ويأكل.

واستمر الحوار.

– أيها المواطن، هل هذا حصانٌ مصادر؟

– لا.

– إنه لك؟

– نعم، اشتريته ودفعتُ ثمنه.

– من أين أنت؟

– من باريس.

– ليس مباشرةً

– لا

– أصدّق ذلك. و هناك من يعترض الطرق. أما البريد فلا يزال يعمل.

– حتى ألانسون. فقد غادرت المحطة هناك.

– آه! لن تكون محطات بريد في فرنسا بعد قليل، فلن يعود هناك خيول. إن حصاناً بثلاثمائة فرنكاً، يُدفع ثمنهُ ستمئة فرنكا. أما الأعلاف فباهظة الثمن، لقد كنت رئيسَ محطّة بريد، وها أنذا صاحب مطعم حقير، ومن أصل ألف وثلاثمئة وثلاثة عشر رئيس محطة بريد، كانوا موجودين، قدّم مئتان منهم استقالتهم، أيّها المواطن، هل سافرت حسب التعّرفة الجديدة؟

– تعرفة الأول من أيار ، أجل .

– مقابل عشرين فلساً عن كلّ مكان في المركبة ، واثني عشر في العربة ذات العجلتين ، وخمسة فلوس في المقطورة . فهل اشتريت هذا الحصان من ألانسون؟

– أجل .

– هل كنت تسير اليوم طيلة النهار؟

– منذ الفجر

– والأمس؟

– وقبل الأمس .

– ألاحظ ذلك لقد أتيت عن طريق دومورتان .

– وأفرانش .

– صدقني ، أيها المواطن ، وخذ قسطاً من الراحة ، فلا بدّ أنك متعب؟ إن جوادك متعب .

– للخيول الحقّ في أن تتعب ، أما الرجال فلا .

حدّق المضيف من جديد بالمسافر؛ فقد كان ذا وجه رصين وهادئ وصارم ، و يؤطره شعرٌ أشيب .

ألقى صاحب النـزل نظرة على الطريق التي كانت مقفرة على مرمى البصر ، وقال:

– وتسافر وحدك على هذا النحو؟

– لديّ مرافقة .

– وأين هي؟

– سيفي ومسدساتي.

مضى صاحب النزل ليجلب سطلاً من الماء، وسقى الحصان، وفي حين كان الحصان يشرب، كان صاحب النزل يتأمل المسافر ويقول في دخيلته:

– الأمر سيّان، إن له هيئة كاهن.

وتابع الخيّال يقول:

– أنت تقول أن هناك قتالاً في دُوْل؟

– ولا بد أن هذا قد بدأ في هذه اللحظّة.

– من الذي يقاتل؟

– سابق ضد سابق.

– ماذا تعني؟

– أقول أن رجلاً سابقاً إلى جانب الجمهورية يتقاتل مع رجلٍ سابق إلى جانب الملك.

– ولكن لم يعد هناك ملك.

– هناك الملك الصغير.

– العجيب هو أن السابقين قريبان.

كان الخيّال يصغي باهتمام. فتابع صاحب النزل:

– إن أحدهما شاب والآخر عجوز، فابن ابن الأخ يقاتل شقيق الجّد. فأخو الجد ملكي، وحفيد الأخ وطني. أخو الجد يقود البيض، وحفيد الأخ يقود الزرق. آه! لن تأخذ أحداً منهما الرّحمة بالآخر. هيا. إنها حربٌ حتى النهاية.

– حتى النهاية؟

– أجل ، أيها المواطن فانظر هل تريد أن ترى المجاملات التي يلقي بها كلٌّ منهما على رأس الآخر؟ هذا إعلانٌ ملصق يجد العجوز الوسيلة لتعليقه في كل مكان ، وعلى كل المنازل ، وعلى كل الأشجار ، والتي أمر بإلصاقها على أحد مصراعي بابه . وبما أن الإعلان كان مكتوباً بحروفٍ كبيرة جداً ، فقد أمكن للخيال أن يقرأ من أعلى جواده:

– «المركيز دولانتوناك له الشرفُ أن يُعلمَ حفيده ، السيد الفيكونت غوفان بأنه ، إذا حالف الحظ السيد المركيز بالقبض عليه شخصياً ، فلسوف يطلق نار القربينة بكل لطفٍ على السيد الفيكونت» .

وتابع صاحب النزل يقول:

– وإليك الردّ .

استدار وأضاء بمصباحه إعلاناً آخر ملصقاً قبالة الإعلان الأول على المصراع الآخر للباب . فقرأ المسافر:

«إن غوفان يخطر لانتوناك بأنه إذا ما قُبض عليه ، فلسوف يطلق عليه النار»

قال المضيف:

– بالأمس ، أُلصق الإعلان الأول على بابي ، وهذا الصباح ، الثاني . ولكن الردّ لم يتأخر .

– أجل ، إنّها أكثر من الحرب داخل الوطن ، إنها الحرب داخل العائلة ، وهذا ضروريّ وهو أمرٌ جيد ، فإن تجدُّداتِ شباب الشعوب تجري لقاء هذا الثمن .

وحيّاه المسافر وهو يرفع يده إلى قبعته ، ويحدّق بالإعلان الثاني .

– فتابع المضيف يقول:

أترى، أيها المواطن هذه هي القضية؛ ففي المدن والدّساكر الكبيرة، نحن إلى جانب الثورة، وفي الريف هم ضدها، يعني أن الناس فرنسيون في المدن، وبروتانيون في القرى. إنها حربٌ بين البورجوازيين (أهل المدن) والفلاحين. إنهم يسموننا بالبليدين، ونسميهم بالأفظاظ. أما المسافر فقد تلفّظ همساً، وكأنّه يتحدث مع نفسه، بهذه الكلمات المعدودة التي سمعها صاحب النـزل من غير أن يفهمها كثيراً.

– إن النبلاء والكهنة إلى جانبهم. فقاطعه الخيال قائلاً:

– ليس جميعهم.

– بلا ريب أيها المواطن، فلدينا هنا فيكونت ضد مركيز.

وأضاف على انفراد:

– وبما أني أظن حقاً أنني أتحدث مع كاهن.

وتابع الخيال يقول:

– ومن الذي له الغلبة بينهما؟

– الفيكونت حتى الآن. ولكنه يجد مشقّة في ذلك؛ فالعجوز قاس. وهؤلاء الناس هم أسرة غوفان، وهم نبلاء هذه المنطقة. إنها أسرة ذات فرعين؛ الفرع الكبير الذي يدعى زعيمه المركيز دولانتوناك، والفرع الصغير الذي يدعى زعيمه الفيكونت غوفان، واليوم يتقاتل الفرعان. إن ذلك لا يشاهد عند الأشجار بل يُشاهد عند البشر. إن هذا المركيز دولانتوناك كليُّ القدرة في بروتانيا. وهو أميرٌ في نظر الفلاحين. وفي اليوم الذي نزل فيه إلى الساحل، كان لديه في الحال ثمانية آلاف رجل؛ وفي غضون أسبوع، ثارت ثلاثمئة خورنيّة. لو كان بإمكانه أن يستولي على زاويةٍ من زوايا الساحلِ، لقام الإنكليز بالنزول فيها. ولحسن الحظ، فإن غوفان هذا قد كان موجوداً هناك، وهو ابن ابن أخيه، فيا لها من مغامرة غريبة. إنه قائدٌ جمهوريّ، وقد صدّ أخا جدّه بعنف. ثم أن حسن الحظ شاء أنّ لانتوناك ذاك قد أعدم بالرصاص امرأتين، حين وصوله، وذبح جمهرةً

من الأسرى ، وكان لإحدى هاتين المرأتين ثلاثة أطفال تبنتهم كتيبةٌ من باريس . حينذاك ، صنع ذلك كتيبةً رهيبة . وهي تُدعى كتيبة بونّيه -روج (القلنسوة الحمراء) . لم يبقَ الكثير من هؤلاء الباريسيّين إلا أنهم مقاتلون شديدو الاندفاع . وقد جرى دمجهم بطابور القائد غوفان . وما من شيء يقف في وجههم . إنهم يريدون الثأر للمرأتين ، واسترجاع الأطفال . ولا ندري ماذا صنع العجوز بهؤلاء الصغار . وهذا ما يغيظ رماة القنابل الباريسيين . ولو لم يتورط هؤلاء الأطفال فرضاً في هذه الحرب ، لما كان لها أن تكون على ماهي عليه . إن الفيكونت شابٌ طيبٌ وشهم . ولكن العجوز مركيز مرعب . ويسمي الفلاحين ذلك بحرب القديس ميخائيل ضدّ بعلزبوت . فأنت تعلم أن القديس ميخائيل هو ملاك المنطقة . وثمّة جبل مخصص له في جَون ، في وسط البحر . ويعتبرون أنه قد صرع الشيطان ودفنه تحت جبلٍ آخر قريب من هنا ويسمّى تومبلين .

فهمس الخيال قائلاً:

- أجل تومبا بيليني ، قبر بيلينوس ، أوبيلوس ، أوبيل ، أوبيليال أو بعلزبوت .

- أرى أنك على اطّلاعٍ بالأمر .

وقال المضيف في نفسه على انفراد:

- إنه يعرف اللاتينية بالتأكيد .

ثم استأنف قائلاً:

- حسناً ، أيها المواطن فإن تلك الحرب هي التي تستأنف ، ومن نافلة القول أن القديس ميخائيل ، في نظرهم هو القائد العام (الجنرال) الملكي ، وأن بعلزبوت هو القائد الوطني؛ بيد أنه إذا كان هناك شيطانٌ ، فهو لانتوناك حقاً . وإن كان هناك ملاك فهو غوفان . ألا تأخذ شيئاً أيها المواطن؟

- لدي مطرة ماء وقطعة خبز . ألا تقول لي ماذا يجري في دول؟

– هذا هو الأمر إن غوفان يقود طابور حملة الساحل، وكان هدف لانتوناك هو تثوير كل شيء، ودعم لاباس – بروتانيا (بروتانيا السفلى) ضد لاباس نورماندي (نورماندي السفلى)، وفتحَ باب لبت، ومساندةَ الجيش الفاندي الكبير بعشرين ألف انكليزياً ومئتي ألف فلاّح. وقد قطع غوفان الطريق على هذه الخطة. إنه يسيطر على الساحل، ويدحر لانتوناك في الداخل، والانكليز في البحر. كان لانتوناك هنا، وقد أخرجه من المنطقة؛ واستعاد منه لوبونتوبو، وطرده من أفرانش، وطرده من فيل – ديو، ومنعه من الوصول إلى غرانفيل. وهو يناور لكي يطرده إلى غابة فوجير، ويطوّقه فيها.

– كان كلُّ شيء يسير على ما يرام بالأمس[٦٢]. وكان غوفان موجوداً هنا مع طابوره. وفجأة، تحدث حالةٌ مفاجئة: فالعجوز الماهر قد قام بغارة؛ ونعلم أنه قد زحف على دُول. فإذا ما استولى على دُول، وركز وحدةً مدفعية على مون – دول، لأن لديه مدافع وتلك نقطة على الساحل يمكن للإنكليز أن يرسوا فيها، فيضيع كلُّ شيء. وهذا هو السبب في أنّ غوفان الذي هو رجل عنيد، وبما أنه لم تتبقّ دقيقة واحدة يمكن إضاعتها، لم يستشر إلا نفسه، ولم يطلب وينتظر أمراً من أحد، وقد قرع دقّة الإسراج، وقطر مدفعيته، وجمع جنوده، واستلّ سيفه، وفي حين ينقض لانتوناك على دول، هاهو غوفان ينقض على لانتوناك. وفي دول إنما ستتصادم هاتان الجبهتان البروتانيتان. ولسوف يكون اصطداماً ينضح بالشهامة، وهم الآن في خضمّه.

– كم يلزم من الوقت للوصول إلى دول؟

– لجيشٍ يمتلك قوافل نقل، ثلاث ساعات على الأقل؛ ولكنهم موجودون فيها.

أصاخ المسافر السمع، وقال:

– أجل أيها المواطن. والتراشق بالرصاص. إنهم يقتتلون بشدة، ويتعين عليك أن تمضي الليل هنا، فما من شيء جيد يرجى في تلك الناحية.

– لا يمكنني التوقّف. ينبغي أن أواصل طريقي.

– أنت مخطىء فأنا لا أعرف مشاغلك ، ولكن المخاطرة كبيرة ، إلا إذا كان الأمر يتعلق بأعزّ ما لديك في الدنيا . . .

فرد الخيال بقوله:

– الأمر يتعلق بذلك في الحقيقة .

– . . . بشيء مثل ابنك . . .

فقال الخيال :

– على وجه التقريب .

فرفع المضيف رأسه وقال لنفسه:

– إن هذا المواطن يبدو لي مع ذلك أنه كاهن .

ثم وبعد لحظة تفكّر:

– بعد كل هذا فالكاهنُ له أطفال .

وقال المسافر:

– ألجمْ حصاني من جديد ، بكم أدين لك؟

ودفع .

رتّب المضيف المزود والسّطل على طول الجدار . ورجع إلى المسافر .

– بما أنك عزمت على الذهاب ، اسمع نصيحتي ، من الواضح أنك ذاهب إلى سان مالو . حسناً ، فلا تذهبْ عن طريق دول . فهناك طريقان ، طريق عبر دُول ، وطريق بمحاذاة البحر ، وليس أحدهما أقصر من الآخر إلا بقليل ، أما الطريق بمحاذاة البحر فيمر عبر سان – جورج دوبريينيا ، وشيرّويه ، وإيريل – لو – فيفييه . فدع دول إلى جنوبك ، وكانكال إلى شمالك ، وسوف تجد ، أيها المواطن ، في نهاية الشارع تفرّع طريقين ، طريق دول على اليسار ، وطريق سان

جورج – دوبريينيا على اليمين . أصغ إلي جيداً ، إذا ما ذهبت عن طريق دُول ، فلسوف تقع في المجزرة . وهذا هو السبب في أنك لن تذهب إلى اليسار ، بل اذهب باتجاه اليمين .

قال المسافر:

– شكراً .

وهمز حصانه .

كان الظلام قد حلّ ، فاختفى في الليل . وغاب عن ناظر صاحب النزل .

حين أصبح المسافر في نهاية الشارع ، عند تفرع الطريقين ، سمع صوت صاحب النزل الذي كان يصيح به من بعيد:

– توجه إلى اليمين!

فتوجه إلى اليسار .

* * *

II

دُوْل

دُوْل، إحدى مدن فرنسا الإسبانية، في بروتانيا، كما كانت تصفها السجلات الكنسيّة، ليست بمدينة، إنها شارع[1]، شارع قوطيّ كبير وقديم، تحيط به من كل جانب منازل ذات دعائم وغير مصطفّة، وهي تشكل نتوءات وعقفات في الشارع، زدْ على ذلك أنه شارع شديد الاتساع، أما باقي المدينة فليس أكثر من شبكة من الأزقة المتصلة بهذا الشارع الكبير المحوري، وتفضي إليه مثلما تصب السواقي في نهر، إنها مدينة بلا أبواب، ولا أسوار، مفتوحة، ويشرف عليها مون – دول[2] ولا يمكنها أن تصمد أمام الحصار غير أن الشارع يمكنه أن يصمد أمام الحصار، إن نتوءات المنازل الشامخة التي كانت لا تزال ترى فيها منذ خمسين عاماً، والرّواقين اللذين لا دعائم لهما. واللذين يحيطان بها يجعلان منها مكاناً للقتال شديد الصلابة، وشديد الصمود. فبقدر ما كان هناك من منازل، بقدر ما كان هناك من قلاع، وكان لا بدَّ من الاستيلاء عليها، واحداً بعد الآخر، وكان سوق الخضار (الهال) القديم في منتصف الشارع تقريباً.

(١) كان هيغو قد زار المدينة في عام ١٨٣٦ ولم يتذوق كاتدرائيّتها، غير أن الجانب الأثري للشوارع قد بقي في ذهنه؛ إن وصفه لها دقيق وصحيح.

(٢) مون – دول، الكتلة الصخرية الواقعة على بعد ٣ كم من المدينة، تشرف على امتداد واسع، وخصوصاً على سبخة دول التي تفصل الجبل عن المدينة، وكان هوغو قد استذكر هذا المنظر في الملك الصغير، ملك غاليسيا في أسطورة القرون، حيث يهتف رولان: آه يا دوراندال! بعد أن قطعت دول بروتانيا...

كان صاحب نزل لاكروا – برانشار قد قال الحقيقة ؛ فإن اشتباكاً ضارياً كان يملأ دُول في اللحظة التي كان يتكلم فيها[1]. إن تراشقاً ليلياً بين البيض الذين وصلوا صباحاً، والزرق الذين ظهروا بغتة في المساء قد اندلع في المدينة، وكانت القوى غير متكافئة، فكان البيض ستة آلاف، والزرق ألف وخمسمئة، بيد أنّه كان هناك تعادل في الاستبسال، والأمر اللافت هو أن الألف والخمسمئة رجل هم الذين هاجموا الستة آلاف.

كان هناك جمهرة من جهة، وكتيبة منظمة من جهة أخرى، من جهة ستمئة فلاح، يضعون شاراتِ قلب يسوع على ستراتهم الجلدية، وشرائط بيضاء على قبعاتهم المستديرة، وشعاراتٍ مسيحيةً على ساعداتهم، وسبحات على نطاقاتهم، ويحملون من المشاعب أكثر مما يحملون من السيوف ومن القربينات التي لا حراب لها، ويجرون مدافع مقطورة بحبال، وهم سيئو التجهيز وسيئو التنظيم، وسيئو التسليح، ولكنهم شديدو الاندفاع.

ومن الجهة الأخرى، ألف وخمسمئة جندي يعتمرون القبعات المثلثة ذات الشعار الوطني المثلث الألوان، ويرتدون لباساً ذا أذيالٍ كبيرة، وثنيات كبيرة، وحمّالة سيف متصالبة، ويحملون سيوفاً قصيرةً ذواتٍ قبضة نحاسية، وبنادق ذوات حراب طويلة، وهم مدرّبون ومصطفون باتّساق، ومطيعون، ومخيفون، ويعرفون الانقياد للأشخاص الذين يحسنون القيادة، وهم أيضا متطوعون، ولكنهم متطوعون للوطن، وفضلاً عن ذلك، فهم يرتدون ثياباً بالية، ولا أحذية في أقدامهم. فإلى جانب الحكم الملكي، هناك الفلاحون الفرسان التائهون، وإلى جانب الثورة الأبطال المتشردون. وكان لكل جيش منهما قائد هو روحه؛ للملكيين عجوز، وللجمهوريين شاب. من جهة لانتوناك، ومن الأخرى غوفان.

---

(١) نقلّ لحادثةٌ حقيقية من حوادث الحرب في الفانديه. وتيير، في كتابه: تاريخ الثورة قد روى بالتفصيل معركة دُول التي اختصم فيها الجمهوريون الذين يقودهم ويسترمان، وكليبير، ومارسو، والفانديون الذين يقودهم ستوفليه ولاروشجاكلان (٢١ تشرين الثاني ١٧٩٣) إلا أن المعركة الحقيقية قد انقلبت إلى هزيمة للزرق.

إلى جانب الوجوه الشابة العملاقة التي كانت للثورة، من أمثال دانتون، وسان - جوست، وروبيسبيير، كانت لها وجوهها الشابة المثالية، من أمثال هوش ومارسو. وكان غوفان أحد هذه الوجوه.

كان غوفان في الثلاثين من عمره، ذا رقبة هرقلية. له نظرة نبيّ رصينة، وضحكة طفل[1]، لم يكن يدخّن، ولم يكن يشرب، ولم يكن يجدف، وكان يحمل إبان الحرب صندوقاً يلزمه للتزيُّن، فقد كان يعنى كثيراً بأظافره، وأسنانه وشعره الذي كان داكناً ورائعاً؛ وفي فترات التوقف، كان ينفض بنفسه في الريح لباسه كقائدُ والذي كان مثّقباً بالرصاص ومبيضّاً من الغبار، إنه يندفع إلى المعارك دوماً بعنف ولم يُصَب بجرحٍ قطّ.

كان لصوته الشديد العذوبة في الوقت المناسب انفجارات القيادة المفاجئة، وكان يقدم المثل في النوم على الأرض، تحت ريح الشمال، وتحت المطر، وفي الثلج متدثراً بمعطفه ورأسه الجميل مستنداً إلى حجر، لقد كان روحاً بطولية وبريئة. وكان السيف في قبضته يبدل ملامحه كانت له تلك الهيئة الأنثوية التي تغدو مخيفة في المعركة.

وكان إلى هذا مفكراً، وفيلسوفاً، وحكيماً شاباً. وكان ألسيبياد[2] بالنسبة لمن يراه، وسقراط بالنسبة لمن يسمعه.

وفي ذلك الارتجال الهائل الذي هو الثورة الفرنسية، أصبح ذلك الفتى في الحال قائداً حربياً.

إن طابوره الذي شكّله بنفسه كان شبيهاً بالجحفل الروماني، وكان ضرباً من جيش كامل، وكان يتألف من مشاة وخيالة وكان فيه كشافةٌ وروادٌ وجنودُ هندسة وجنودُ تجسير، وكالجحفل الروماني كان فيه مجانق، ولديه مدافع وكانت ثلاث قطع مدفعية مقطورة جيداً تقوّي الطابور بأن تجعله طيع القيادة.

---

(١) نموذج البطل كما كان هيغو يحب أن يصفه. إن غوفان يشبه هوش ومارسو الذين أتينا على ذكرهما في المقطع السابق، ولكنه يذكر خصوصاً بقائد المتمردين أنجولرا، في رواية: البؤساء.

(٢) مغامر أثيني وتلميذ سقراط، وقائد حملات عسكرية ضد صقلية الخ . . . (م:ز.ع).

كان لانتوناك أيضاً قائداً حربياً أسوأ أيضاً. كان في آن أكثر تفكيراً وأكثر جسارة. إن الأبطال الشيوخ الحقيقيين لديهم قدرٌ من البرودة أكبر مما لدى الشبان، لأنهم بعيدون عن الفجر، وقدرٌ من الجرأة أكبر لأنهم قريبون من الموت. فماذا لديهم ليخسروه؟ شيءٌ جدّ قليل. ومن هنا تأتي تحرّكاتُ لانتوناك المتهورة، والماهرة في الوقت نفسه. ولكن غوفان إجمالاً وبصورة دائمة تقريباً كانت له الغلبة في تلك المجابهة المستمرة بعناد.

كان ذلك قَدَراً أكثر من سواه. فكل النجاحات حتى النجاح المخيف هي جزء من الشباب، والنصر هو ابن الشباب نوعاً ما.

كان لانتوناك مغتاظا من غوفان، أولاً، لأن غوفان كان يحرز الغلبة عليه، ثم لأنه كان قريبه، فأية فكرة خطرت له ليكون يعقوبياً، غوفان هذا! هذا الولد العفريت! وريثه، لأن المركيز لم يكن له أولاد، فهو ابن ابن أخيه، وحفيده تقريباً! كان ذلك الجدّ تقريباً يقول:

- آه! إن أضعْ يدي عليه، أقتلْه مثل كلب!

فضلاً عن ذلك كانت الجمهورية على حقّ في أن تقلق بشأن ذلك المركيز دولانتوناك هذا؛ فما أن نزل إلى الساحل حتى أخذ يزرع الخوف. كان اسمه يسري بسرعة في التمرد الفاندي مثل نثار البارود. وأصبح لانتوناك في الحال مركزاً له. وفي تمرُّدٍ من هذا النوع، حيث يتحاسد الجميع، ولكل واحدٍ دغله أو واديه، فإن شخصاً عالي الشأن يظهر فجأة، يقوم بلمِّ شمل الزعماء المبعثرين المتساويين فيما بينهم. إن كل القادة في الأحراش كانوا قد انضموا إلى لانتوناك، وهم يمتثلون لأوامره من قريب أو من بعيد، وقد تركه واحدٌ منهم وهو أول من انضم إليه، إنه غافار، فلماذا؟ ذلك لأنه كان رجلاً مؤتمناً. كان لدى غافار كل الأسرار، وقد تبنى كل خطط المنهج القديم للحرب الأهلية، والتي أزاحها لانتوناك منذ قليل واستبدل بها سواها، إن الرجل المؤتمن لا يورث شيئاً، ولم يكن بإمكان حذاء لاروراي أن يلبس قدم لانتوناك، فمضى غافار لينضم إلى بونشان.

إن لانتوناك كرجل حرب قد كان من مدرسة فريدريك الثاني؛ وكان ينوي التوفيق بين الحرب الكبرى والصغرى، فلم يكن يرغب في «الكتلة المشوشة» من مثل الجيش الكاثوليكي والملكي الضخم. وهي الجمهرة المخصّصة للسحق، ولا في تبعثر في الأسيجة اليابسة، والحرجات الصغيرة والتي تصلح لمناوشة الخصم، وتعجز عن صرعه. إن حرب الأنصار لا تُنجز أو تنجز بشكل سيء، فيبدأ الأمر بمهاجمة جمهورية، وينتهي بسلب عربة مسافرين، لم يكن لانتوناك يفهم هذه الحرب البروتانية كلها في أرض مكشوفة، مثلما يفهمها لاروشجاكلان، ولا كلها في الغابة، كما يفهمها جان شوان، فلا هي فاندية، ولا هي شوانية؛ بل كان يريد الحرب الحقيقية؛ إنها استخدام الفلاح، ولكن بجعله يستند إلى الجندي، كان يريد عصابات في التخطيط العام (الإستراتيجية) وأفواجاً في الخطط المرحلية (التاكتيك) ومن أجل الهجوم كان يجد الكمين والمفاجأة، والجيوش القروية التي تجتمع فجأة، وتتفرق فجأة، كان يجدها ممتازة، غير أنه كان يحس أنها جدّ مائعة، لقد كانت في يده كالماء، فكان يريد في هذه الحرب العائمة والمنتشرة أن ينشئ نقطةً صلبة؛ كان يريد أن يضيف إلى جيش الغابات المتوحش، جماعةً نظامية تكون محورا لتحرك الفلاحين، إنه تفكير عميق ومرعب، ولو قيّض له النجاح، لكانت الفانديه منيعة.

ولكن أين يجد جماعةً نظامية؟ أين يجد جنوداً؟ أين يجد أفواجاً؟ أين يجد جيشاً جاهزاً؟ في إنكلترا. ومن هنا أتت فكرة لانتوناك الثابتة: إنزال الإنكليز إلى البلاد. وهكذا ترضخ الأطراف المشاركة في سريرتها؛ فالشعار الأبيض كان يخفي عنها الرداء الأحمر[1] ولم تكن لدى لانتوناك إلا فكرة واحدة وهي: الاستيلاء على نقطة من نقاط الساحل، وتسليمها إلى بيت، وهذا هو السبب في أنه إذْ رأى دُول بلا حماية، انقضّ عليها لكي يحصل من خلال دُول على مون - دول، ومن خلال مون - دُول على الساحل.

(١) هو اللباس الموحد لإنكليز ذلك العصر «الأردية الحمراء» هكذا يصيح الجنود الذين يحيطون بفابريس في رواية: دير بارما (لستندال) وهم يلاحظون جثث أعدائهم، ويستذكر هيغو في «التكفير» أسر نابليون في سانت - هيلين: رداء احمر عند العتبة، والبحر في الأفق.

كان اختيار المكان جيداً فتكسح المدفعية لوفرينوا من جهة، ومن الجهة الأخرى سان بريلاد وتبعد المراقبة البحرية عن كانكال، وتجعل الشاطئ خالياً من أجل الإنزال، من را - سور - كويسنون إلى سان - ميلوار- ديزوند.

من أجل إنجاح تلك المحاولة الحاسمة، كان لانتوناك قد جلب معه أكثر من ستة آلاف رجل بقليل، وأقوى ما كان لديه من العصابات التي كانت تحت تصرفه، ومدفعيته كلها، عشرة مدافع قديمة من طراز ستة عشر، ومدفع هجين من طراز ثمانية، وقطعة مدفعية للفوج ذات قذائف تزن أربع ليبرات، وكان ينوي تركيز سرية مدفعية قوية على مون - دول، بناءً على المبدأ القائل بأن ألف طلقة ترميها عشرة مدافع تؤدي عملاً يفوق ما تؤديه ألف وخمسمئة طلقة تطلقها خمسة مدافع.

كان النجاح يبدو مؤكداً، وكان هناك ستة آلاف رجل، لم يكن هناك ما يخشى منه، باتجاه أفرانش، إلا غوفان ورجاله الألف وخمسمئة، وباتجاه دينان إلا ليشيل.

صحيح أن ليشيل كان لديه خمسة و عشرون ألف رجل، ولكنه كان على بعد عشرين فرسخا. فكان لانتوناك مطمئناً إذاً، من ناحية ليشيل، بسبب المسافة الكبيرة مقابل العدد الكبير، ومن ناحية غوفان، بسبب العدد الصغير مقابل المسافة القليلة، فلنضف أن ليشيل أحمق، وأنه، فيما بعد، جعل رجاله الخمسة وعشرين ألفا يتعرّضون للسحق في براحات لاكروا - باتاي، وهو الإخفاق الذي دفع ثمنه بانتحاره.

كان لانتوناك والحالة هذه في أمان تام. وكان دخوله إلى دول مباغتاً وقاسياً. فسُمعةُ المركيز دولانتوناك فظةٌ قاسية، وكان معروفا بانعدام رحمته. فلم تجرِ أية مقاومة له. ولقد تمترس السكان المذعورون في منازلهم. وأقام الفانديون الستة آلاف في المدينة بفوضاهم الرّيفية، وكأنهم تقريبا في ساحة معرض[٦٣]. من غير محاسبي تجهيزات، ولا مساكن محددة، وهم يخيمون في

العراء بلا تبصّر، ويطبخون طعامهم في وسط الريح، وينتثرون في الكنائس، ويتركون بنادقهم ليتلوا صلوات مسابحهم (ورديّاتهم). لقد مضى لانتوناك على عجل مع بعض ضباط المدفعية لاستطلاع مون - دول، تاركاً نيابة القيادة لغوج - لو - برويان الذي سماه رقيب المعركة.

لقد خلّف غوج - لو - برويان هذا أثراً غامضا في التاريخ. وكان له لقبان: بريز - بلو (محطم الأزرق) بسبب مذابحه للوطنيين، وليمانوس لأنه قد كان في دخيلته شيء مرعب يتعذر وصفه وغير محدد، وهو مشتق من إيمانيس التي هي كلمة قديمة من النورماندية المحرَّفة والتي تعبر عن قباحة فائقة على البشر، وشبه إلهيّة من حيث دلالتها على الذعر والشيطان، السّتير والغول. ويقول مخطوط قديم: d' mes daeux iers j' vis l' imannus. (يعني الاثنين رأيت، ليمانوس: م: ز.ع) وشيوخ البوكاج (الحريج) لم يعودوا يعرفون اليوم ما هو غوج - لو - برويان، ولا ما يعنيه بريز - بلو؛ غير أنهم يعرفون ليمانوس بصورة مبهمة. إن ليمانوس يختلط بالاعتقادات الباطلة المحلية. ولا يزال الناس يتكلمون على ليمانوس في تريموريل وفي بليموغا، وهما قريتان ترك فيهما غوج - لو- برويان أثر قدمه المشؤومة. وفي الفاندية كان الآخرون هم المتوحشين، وكان غوج - لو - برويان هو البربري. لقد كان ضربا من شيخ قبيلة مكسيكيّ موشوم بصليب الرب وبزهرة الزنبق، وكان على وجهه الوميض المقزز، والفائق للطبيعة تقريبا لنفس لم تكن تشبهها أية نفس بشرية. لقد كان جهّنمياً في إقدامه في المعركة، ثم فظيعاً. كان قلبا مليئا بالمآلات المعوجّة، ونزاعاً إلى كل دروب الإخلاص، وميالاً إلى كلّ الاندفاعات. فهل كان يتفكر؟ أجل، ولكن مثلما تزحف الحيّات، بصورة لولبية. كان ينطلق من البطولة ليصل إلى الاغتيال. كان من المستحيل أن يخمن المرء من أين كانت تأتيه قراراته التي تكون أحياناً عظيمة لفرط وحشيتها، لقد كان يستطيع أن يقوم بكل الأمور المرعبة غير المنتظرة. وكانت شراسته ملحمية. ومن هنا يأتي اللقب المشوّه ليمانوس.

كان المركيز دولانتوناك يثق بقسوته.

القسوة، كان ذلك صحيحاً؛ فليمانوس كان بارعاً فيها، أما في الإستراتيجية والتكتيك، فقد كان أقل تفوقاً. وربما كان المركيز قد أخطأ حين عينه رقيباً للمعركة. ومهما يكن من أمر، فقد ترك وراءه ليمانوس مكلّفاً إياه بالحلول محله وبمراقبة كل شيء.

إن غوج – لو – برويان، الرجل المحارب أكثر منه العسكري، كان يصلح لذبح عشيرة أكثر مما يصلح لحراسة مدينة. ومع ذلك فقد وضع فرق حرس للحماية.

ما إن حل المساء، وإذْ كان المركيز دولا نتوناك يقفل راجعا باتجاه دول، بعد أن استطلع موقع سرية المدفعية التي ينوي تركيزها، سمع المدفعية فجأة. فنظر. كان دخانٌ أحمر يتصاعد من الشارع الكبير. كانت هناك مباغتة واقتحام، وهجوم. لقد كان يجري قتال في المدينة.

مع أنه كان من الصعب أن يدهش، فقد ذهل؛ فهو لم يكن ينتظر شيئاً مماثلاً. فمن يمكن أن يكون ذلك؟ لم يكن غوفان بالطبع. فلا يمكن الهجوم بواحد ضد أربعة. هل كان ليشيل؟ ولكن أي سير حثيث في هذه الحال! إن ليشيل غير محتمل، وغوفان غير ممكن.

أطلق لانتوناك حصانه، وأثناء طريقه، التقى سكانا يهربون، فسألهم، فكانوا قد جنّوا من الخوف وكانوا يصيحون: الزّرق! الزّرق! وحين وصل، كان الوضع سيّئاً. وهذا ما حدث.

* * *

III

جيوش صغيرة و معارك كبرى

عندما وصل الفلاحون إلى دول ، كما رأينا منذ قليل ، تفرقوا في المدينة ، وتصرف كلّ واحد منهم على هواه ، مثلما يحدث عندما «تكون الطاعة من باب المحبة» . كان ذلك هو تعبير الفانديين . إنه نوع من الطاعة يصنع أبطالاً ، ولكن ليس جنوداً . كانوا قد أودعوا مدفعيتهم ومتاعهم تحت قباب الهال القديم . وإذْ تعبوا ، وشربوا ، وأكلوا ، «وتلوا صلوات مسبحتهم» ، فقد رقدوا بلا نظام في الشارع الكبير بصورة معترضة ، فكان يزدحم بهم أكثر مما هو تحت حراستهم . وعندما حلّ الليل ، نام معظمهم ، ورؤوسهم على أكياسهم ، ونساء بعضهم إلى جانبهم ، فغالباً ما كانت الفلاحات يتبعن الفلاحين في الفانديه . وكانت النساء الحوامل يستخدمن كجواسيس . كانت تلك الليلة هي إحدى ليالي تموز اللطيفة؛ وكانت كوكبات النجوم تتلألأ في زرقة السماء المعتمة العميقة . أخذ كل هذا المخيم القائم في العراء ، والذي كان توقفاً لقافلة أكثر مما هو مخيم عسكري ، أخذ يغفو بهدوء . فجأة ، وعلى ضوء الشفق ، رأى أولئك الذين لم يغمضوا أعينهم بعد ثلاثة قطع مدفعية مسدّدة في مدخل الشارع الكبير .

كان ذلك هو غوفان . لقد باغت فرق الحرس . وكان موجودا في المدينة ، وهو يستولي على رأس الشارع بطابوره .

انتصب فلاح وصاح: من هناك؟ وأطلق طلقةً من بندقيته ، فردّت عليه طلقة مدفع . ثم انفجرت طلقة رصاص حانقة . فنهضت الجمهرةُ النعسانة مذعورة . فيا للصدمة القاسية أن ينام المرء في العراء ، ويستيقظ تحت رشقات الرصاص .

كانت اللحظة الأولى مخيفة . فما من شيء مأساوي كازدحام جمهور يتعرض للتدمير ، لقد انقضوا على أسلحتهم . كانوا يصرخون ، ويعدون ، ويسقط العديد منهم .

أما الفتيان فلم يعودوا يعرفون ما يفعلون ، ويطلق بعضهم نار قربيناته على البعض الآخر . وكان هناك أناس مذهولون يخرجون من المنازل ، ثم يرجعون إليها ، ثم يخرجون ثانية ، ويهيمون في ضجيج المعمعة مضطربين . كانت هناك عائلات تتنادى ، إنها معركة محزنة تدخل فيها النساء والأطفال . كان الرصاص الذي يئز يمزق الظلمة . وكان تراشق الرصاص ينطلق من كل الزوايا المعتمة . كان كل شيء دخاناً وضجيجاً ، ويضاف إليه تشابك المقطورات والناقلات . وكانت الخيول ترفس ، والناس يسيرون على الجرحى ، وتسمعُ صرخاتٌ على الأرض . ذعرٌ عند هؤلاء ، وذهول عند أولئك . وكان الجنود والضباط يفتش بعضهم عن البعض الآخر . وفي وسط كل ذلك ، عدم اكتراث كئيب . كانت هناك امرأة ترضع وليدها ، وهي جالسة على شقة جدار يستند إليها زوجها الذي كسرت رجله ، وفيما كان دمه يسيل . كان يحشو بهدوء قربينته ، ويطلق النار بلا تبصر ، فيقتل من يمر أمامه في العتمة . وكان هناك رجال يطلقون النار من خلال عجلات العربات . وكان الصوت الضخم ، صوت المدفع يغطي كل شيء . كان ذلك مرعباً .

كان ذلك شبيهاً باقتطاع الأشجار(٦٤)؛ فكان الجميع يسقطون بعضهم على البعض الآخر . وكان غوفان الكامن يطلق رشقاته على نحو مؤكد ، ويهلك القليل من الناس .

مع ذلك ، فإن فوضى الفلاحين غير الهيّابة قد انتهى بها الأمر إلى التزام

حالة الدفاع؛ فانكفؤوا إلى ما تحت الهال، ذلك المعقل الواسع، وغابة الدعائم الحجرية.

هناك استعادوا ثباتهم؛ فكلّ ما يشبه الحرش كان يمنحهم الثقة. وأخذ ليمانوس يعوض غياب لانتوناك بقدر استطاعته. كانت لديهم مدفعية، إلا أنهم لم يكونوا يستخدمونها إطلاقاً، أمام دهشة غوفان الكبرى. وكان ذلك يرجع إلى أن ضباط المدفعية إذ كانوا قد ذهبوا مع المركيز ليستطلعوا مون - دول، فإن الفتيان لم يكونوا يحسنون إلا استعمال المدافع القديمة والهجينة، لكنهم كانوا يخرقون بالرصاص الزرق الذين يقصفون بالمدافع. كان الفلاحون يردون برشقات البنادق على القذائف. وأصبحوا الآن هم المحتمين. كانوا قد راكموا عجلات النقل، والطنابر والأمتعة، وكل مجموعات براميل الهال القديم، وأقاموا بصورة مرتجلة متراساً عالياً ذا فتحات تمر منها قربيناتهم. وكان إطلاقهم للنار قاتلاً عبر تلك الثقوب. جرى كل ذلك سريعاً. وفي غضون ربع ساعة، أصبحت في الهال جبهة منيعة.

بدأ ذلك يغدو خطيراً على غوفان؛ فأن يتحول ذلك الهال فجأة إلى قلعة كان أمراً غير متوقّع. لقد كان الفلاحون هناك، محتشدين وراسخين، كان غوفان قد نجح في المباغتة، وأخفق في التراجع كان قد ترجّل وأخذ ينظر إلى تلك العتمة كلها بانتباه حاملاً سيفه في قبضته تحت ذراعيه المكتفتين، وواقفاً تحت ضوء مشعلٍ ينيرُ وحدة مدفعيته.

كانت قامته المديدة تجعله مرئياً في ذلك الضوء لرجال المتراس. كانت هدفاً ولكنه لم يكن يفكر في ذلك. كانت رشقات الرصاص التي يرسلها المتراس تتهاوى حول غوفان الغارق في التفكير، غير أنه كانت لديه المدفعية ضد كلّ تلك القربينات؛ فالأمر يفضي بالقذيفة دوماً لتكون لها الغلبة. من يملك المدفع يملك النصر. وكانت سريّة مدفعيته التي تخدم بشكل جيد تؤمّن له التفوق.

فجأة انبثق برقٌ من الهال المليء بالعتمة. وسُمع ما يشبه قصفة الصاعقة، وأتت قذيفةٌ لتثقب منزلاً فوق رأس غوفان.

أخذ المتراس يرد على المدفعية بالمدفعية . فما الذي كان يحدث ؟ .

كان هناك شيء جديد . لم تعد المدفعية الآن من جانب واحد . تلت قذيفةٌ ثانية القذيفة الأولى . وأتت لتنغرس في الجدار على مقربة من غوفان .

ورمت قذيفة ثالثة قبعته على الأرض . كانت تلك القذائف ذات عيارات كبيرة؛ فالمدفع الذي يرمي كان من عيار ستة عشر .

صاح المدفعيون:

إنهم يستهدفونك أيها القائد . وأطفؤوا المشعل .

أما غوفان المتفكّر فقد التقط قبعته . كان هناك شخص يصوب على غوفان . إنه لانتوناك .

كان المركيز قد وصل لتوه إلى المتراس من الجهة المعاكسة . وقد هرع إليه ليمانوس ، وقال:

– لقد بوغتنا سيدي .

– على يد من؟

– لا أدري .

– هل طريق دينان خالية؟

– أظن ذلك .

– ينبغي أن نبدأ بالانسحاب .

– لقد بدأ . وهرب الكثيرون حتى الآن .

– لا ينبغي الهروب ، بل ينبغي الانسحاب ، فلماذا لا تستخدمون المدفعية .

– لقد أضعنا رشدنا ، ثم أن الضباط لم يكونوا موجودين .

– أنا ذاهب لأقوم بذلك .

– يا سيدي لقد أرسلت باتجاه فوجير كل ما استطعت إرساله من أمتعة ، والنساء . وكل ما ليس مفيداً . فما نفعل بالأسرى الصغار الثلاثة ؟

– أه! هؤلاء الأطفال؟

– نعم .

– إنهم رهائننا . فلتقتدهم إلى لاتورغ .

ما إن قال هذا حتى مضى المركيز إلى المتراس . وحين وصل القائد تغير وجه كل شيء .

فكان المتراس معدّاً إعداداً سيئاً للمدفعية . ولم يكن هناك مكان إلا لمدفعين؛ فوضع المركيز في الوحدة مدفعين من عيار ستة عشر وصنعت لهما فتحتان . وماإن انحنى على أحد المدفعين مراقباً وحدة المدفعية المعادية من الفتحة ، حتى لمح غوفان ، وصاح:

– إنه هو .

حين ذاك ، أمسك بنفسه طمار المدفع ومنظفته ، ولقّم المدفع ، وركّز جبهيّة التسديد وصوب . ركز التصَويب على غوفان ثلاث مرات وأخطأه ، ولم تُفلح الطلقة إلا في نزع قبعته . وهمس لانتوناك:

– أيها الأخرق ! إلى الأسفل قليلاً ، وكنت سأصيب الرأس .

فجأة انطفأ المشعل ، ولم تعد أمامه إلا العتمة . فقال:

– فليكن .

وإذ استدار نحو المدفعيين الفلاحين فقد صاح:

– إلى قذائف الشظايا!

أما غوفان من ناحيته، فلم يكن أقل جدية، وأخذ الوضع يتفاقم. وبدأت ترتسم مرحلة جديدة من المعركة. ووصل المتراس إلى قصفه بالمدفعية. فمن يدري إن كان لن ينتقل من الدفاع إلى الهجوم؟.

كان أمامه وهو يسقط من الحساب الموتى والهاربين، خمسة آلاف مقاتل على الأقل، ولم يتبقَ معه منهم إلا ألف ومئتا رجل قابل للاستخدام. فما يحدث للجمهوريين إذا ما لاحظ العدو عددهم القليل؟ قد تنقلب الأدوار، فيكون المرء مهاجماً، ويصبح متعرضاً للهجوم. وإذا ما قام المتراس بغارة، يمكن لكل شيء أن يضيع.

ما العمل؟ لم يكن ينبغي التفكير بمجابهة المتراس مواجهةً؛ لقد كان هجومٌ عنيفٌ مستحيلاً؛ فألف وخمسمئة رجل لا يزيحون خمسة آلاف رجلٍ من مواقعهم، كانت المباغتة متعذرة، والانتظار قاضياً. كان لا بدَّ من إنهاء الأمر. ولكن كيف؟.

كان غوفان من المنطقة ويعرف المدينة. ويعرف الهال القديم الذي كان الفانديون متمترسين خلف فتحاته، يستند إلى متاهةٍ من الأزقّة الضيقة والمتعرجة.

استدار نحو مساعده الذي كان ذلك القائد الجسور غيشان – والذي اشتهر فيما بعد بتطهير غابة كونسيز التي ولد فيها جان شوان، وبالحيلولة دون الاستيلاء على بور – نوف حين قطع على المتمردين الحاجز المائي لمستنقع دولاشين، وقال له:

– يا غيشان إني أسلمك القيادة. أطلق كل النيران التي تستطيعها، واخرق المتراس بطلقات المدفعية. واشغِل لي كل هؤلاء الناس (٦٥).

فقال غيشان:

– هذا مفهوم.

– اجمع الطابور كله بأسلحته الملقمة، واجعله جاهزاً للهجوم .

وأضاف بضع كلمات في أذن غيشان ، فقال غيشان:

– اتفقنا .

واستأنف غوفان يقول:

– هل ضاربو الطبول لدينا متأهبون؟

– أجل .

– لدينا تسعة . احتفظ باثنين منهم وأعطني سبعة .

أتى ضاربو الطبول السبعة بصمت ليصطفوا أمام غوفان .

حينذاك ، صاح غوفان:

– إلي بكتيبة البونية – روج (القلنسوة الحمراء)!

اثنا عشر رجلاً منهم رقيبٌ ، خرجوا من بين الجماعة .

فقال غوفان:

– أنا أطلب الكتيبة كلها .

فأجاب الرقيب:

– هذه هي

– أنتم اثنا عشر .

– بقينا اثني عشر .

فقال غوفان:

– حسناً .

كان ذلك الرقيب هو العسكريّ الطيب والشديد رادو ، والذي كان قد تبنىّ باسم الكتيبة الأطفالَ الثلاثةَ الذين التقوهم في حرش سودريه .

نتذكر أن نصف الكتيبة فقط قد جرت إبادتها في إيرب – أن – بيل ، وكانت مصادفةً طيبة أن رادو لم يكن في عدادها .

كانت مقطورة من العلف على مقربة منهم ، فدلّ غوفان الرقيب عليها ، وقال:

– أيها الرقيب ، اجعل رجالك يصنعون أربطة من القشّ . وليفتل هذا القش حول البنادق ، بحيث لا يُسمع صوتٌ حين تتصادم .

ما إن انقضت دقيقة من الوقت حتى نفذ الأمر بصمت ، وفي العتمة . قال الرقيب:

– نفذ الأمر .

وتابع غوفان يقول:

– أيها الجنود ، انزعوا أحذيتكم .

وقال الرقيب:

– ليس لدينا أحذية .

وصل العدد ، إضافةً إلى ضاربي الطبول السبعة ، إلى تسعة عشر رجلاً ، وكان غوفان هو العشرين . .

وصاح:

– على رتلٍ أحادي اتبعوني . وضاربو الطبول ورائي . والكتيبة بعدنا . أيّها الرقيب ستقود أنت الكتيبة .

سار في مقدمة الرتل. وفيما كان القصف المدفعي يتواصل من الجانبين، فإن هؤلاء الرجال العشرين الذين ينسلّون كالأخيلة، أخذوا يتوغلون في الأزقة الخالية[1].

ساروا على هذا النحو لبعض الوقت وهم يتعرجون بمحاذاة المنازل. وكان كلّ شيء يبدو ميتاً في المدينة. وكان أهل المدينة قد تكوّروا في أقبيتهم، فما من بابٍ لم يجرِ سدّه، وما من مصراعٍ لم يغلق، ولم يعد هناك ضوءٌ في أي مكان.

كان الشارع الكبير يُحدِث في ذلك الصمت فرقعةً غاضبة. وكانت المعركة تتواصل بالمدفعية؛ فسرية المدفعية الجمهورية والمتراس الملكي، كان كل منهما يقذف الآخر بشظاياه بشكل مسعور.

بعد مسيرٍ متعرج لعشرين دقيقة وصل غوفان الذي كان يتقدم بثقة في تلك العتمة، إلى طرف زقاقٍ يرجعون منه إلى الشارع الكبير. إلا أنه كان في الناحية الأخرى من الهال.

كان الوضع يتّخذ اتجاهاً آخر؛ فمن تلك الناحية لم يكن هناك تخندق؛ وهذا هو عدمُ تبصُّر بناةِ المتاريس الدائم، فقد كان الهال مفتوحاً، ويمكن الدخول إليه من تحتِ الدعائم، التي قُطرت فيها بعضُ عربات الأمتعة المعدة للرحيل، كان أمام غوفان ورجاله التسعة عشر، الخمسة آلاف فانديّ، ولكن من الظّهر، وليس مواجهة.

تكلم غوفان مع الرقيب بصوتٍ خفيض؛ فحلّوا القش المعقود حول البنادق، واتخذ الرماة مواقعهم القتالية خلف زاوية الزقاق، ووقف ضاربو الطبول السبعة، رافعين مقرعتهم وهم ينتظرون.

(١) نقلٌ جديد (انظر الملاحظة على الهامش: ٢٣٧) وقد وجد هيغو لدى ديشومان - ديسيبو قصة تلك الحيلة الحربية، ولكن جماعة من الجنود الفانديين قد نفذوها ونجحوا فيها.

كانت طلقات المدفعية متقطعة. وفجأة، خلال فترة فاصلة بين انفجارين، رفع غوفان سيفه، وصاح بصوت بدا في ذلك الصمت، وكأنه دويٌّ بوق:

- مثنا رجل من اليمين، ومثنا رجل من اليسار، وكلّ الباقي في الوسط!

انطلقت الطلقات الاثنتا عشرة. وقرعت الطبول نفير الهجوم. وأطلق غوفان صيحة الزرق المرعبة:

- إلى الحراب! لنهجم!

كان تأثير ذلك خارقاً.

أحست كل تلك الكتلة الفلاحية أنها قد أُخِذت من الخلف، وتصورت أن جيشاً جديداً في ظهرها. وفي الوقت نفسه، فإن الرتل المتمركز في أعلى الشارع الكبير ويقوده غيشان قد تزعزع، حين سمع قرع الطبول، ودقّ نفير الهجوم من ناحيته، واندفع عدواً إلى المتراس؛ ورأى الفلاحون أنفسهم بين نارين، فالذعر تضخيمٌ للأمور، وفي الذُّعر تُحدِث طلقةُ مسدسٍ صوتَ طلقة مدفع، وتغدو كلُّ جلبة شبحاً، ويبدو نباح كلب زئير أسد. لنضف أن الفلاح يخاف مثلما يشتعل قشّ السقوف، وبالسهولة نفسها التي تصبح فيها نار القش حريقاً، إن خوف الفلاح يغدو هزيمة. وكان ذلك هروباً يتعذّر وصفه.

أصبح الهال خالياً بعد بضع لحظات، فقد تشتت شملُ الفتيان المذعورين، ولم يعد هناك شيءٌ يفعله الضباط، وَقتلَ ليمانوس بلا فائدة هاربين أو ثلاثة، ولم تكن تُسمعُ إلا تلك الصيحة: الهرب! الهرب!. وهذا الجيش قد تفرق في الريف، عبر شوارع المدينة وكأنه يتبدد من خلال ثقوب غربال، بسرعة السحاب الذي يحمله إعصار.

هرب البعض باتجاه شاتونوف ، والبعض الآخر باتجاه بليرغيه ، وآخرون باتجاه أنترين .

رأى المركيز دولانتوناك ذلك الاندحار ، فسمّر المدفع بيده ، ثم كان آخرَ من انسحب ببطء وبرودة أعصاب ، وقال: إن الفلاحين لا يصمدون بالتأكيد ، ويلزمنا الانكليز .

* * *

IV

هذه هي المرّة الثّانية

كان النصر تاماً

استدار غوفان نحو رجال كتيبة البونية – روج (القلنسوة الحمراء) وقال لهم:

– أنتم اثنا عشر ولكنكم تساوون ألف رجل.

إن كلمة القائد كانت تعني وسام صليب الشرف في ذلك الزمن.

أما غيشان الذي دفع به غوفان إلى خارج المدينة، فقد لاحق الفارين وقبض على كثيرين منهم.

أشعلت مشاعل، وجرى تفتيشُ المدينة.

إن كل من لم يتمكن من الهرب قد استسلم، وأُضيء الشارع الكبير بأوان زخرفية ذات شعلة. وكان الشارع مغطى بالموتى والجرحى. تنتهي كل معركة بصعوبة دائماً، فقد كانت هناك مجموعات يائسة تقاوم في هذا المكان أو ذاك، وقد حوصرت، فألقت أسلحتها.

كان غوفان قد لاحظ في اختلاط الهزيمة الجامح رجلاً مقداماً، هو نوعٌ من حيوانٍ رشيق ومتين البنية، وكان قد حمى هروبَ الآخرين، ولم يهرب، كان ذلك الفلاح قد استخدم قربينته بمهارة، قاذفاً بالمدفع، صارعاً بالأخمصِ، بحيث أنه قد كسره؛ أما الآن فلديه مسدسٌ في قبضته وسيفٌ في القبضة الأخرى، ولم يكن يجروُ أحدُ على الاقتراب منه، فجأة رآه غوفان وهو

يترنّح ، ويستند إلى إحدى دعائم الشارع الكبير . فذلك الرجل كان قد جُرح للتوّ . ولكنه لايزال يحمل في قبضتيه سيفه ومسدّسه ، وضع غوفان سيفه تحت ذراعه وذهب إليه ، وقال:

- استسلم!

حدّق الرجل به ، وكان الدّم يسيل تحت ملابسه من جرحٍ قد أُصيب به ، ويشكّل بركةَ دمٍ عند قدميه .

واستأنف غوفان يقول:

- أنت أسيري .

ظلّ الرّجل صامتاً

- ماذا تُدعى؟

- أُدعى دانس - ألومبر .

قال غوفان:

- أنت رجل مقدام .

ومدَّ يده إليه .

فردّ الرّجل:

- عاش الملك!

وإذْ استجمع ما تبقى له من قوّة ، ورفع ذراعيه الاثنتين في آن ، فقد أُطلق على صدر غوفان طلقة مسدّس ، ووجّه لرأسه ضربة سيف .

قام بذلك بسرعة نمر ، غير أن شخصاً كان أسرع منه أيضاً . وقد كان رجلاً يمتطي جواداً ، ووصل لتوّه ، وكان موجوداً هناك منذ بضع لحظات من غير أن ينتبه أحدٌ إليه . فحين رأى هذا الرجل الفانديّ يرفع سيفه ومسدّسه ،

رمى بنفسه بينه وبين غوفان. ولولا هذا الرجل لكان غوفان ميتاً. تلقّى الجوادُ طلقة المسدس، وتلقى الرجل ضربة السيف، فسقطا كلاهما. وقد حدث كلٌّ شيء في الوقت الذي تستغرقه صرخة.

كان الفاندي من جهته قد انهار على الأرض المبلّطة.

كانت ضربة السيف قد أصابت الرجل في وسط وجهه، فأصبح على الأرض مغشياً عليه. وقُتِلَ الحصان.

اقترب غوفان وقال:

– من هو هذا الرجل؟

تأمّله. وكان دمُ الشّجّة يغرِقُ الجريح، ويصنعُ له قناعاً أحمر. وكان من غير الممكن تمييز وجهه. وكان المرء يتبين شعره الأشيب.

وتابع غوفان يقول:

– لقد أنقذ هذا الرجل حياتي. فهل يعرفه أحدٌ من هنا؟ فقال أحد الجنود:

– أيها القائد، لقد دخل هذا الرجل إلى المدينة للتوّ، وقد رأيته يصل. وكان آتياً من طريق بونتورسون.

هرع الجراح النقيب حاملاً عدّته. وكان الجريح لا يزال غائباً عن الوعي، فعاينه الطبيب وقال:

– شجّة بسيطة، لا شيء يذكر، ويمكن لأمُها، وفي غضون ثمانية أيام، سيكون واقفاً على قدميه. إنها ضربة سيف ماهرة.

كان الجريح يرتدي معطفاً وحزاماً ثلاثي الألوان ويحمل مسدّساً وسيفاً، وقد مددوه على نقالة. ونزعوا ثيابه. وجلبوا سطلاً من الماء البارد، فغسل الجرّاح الجرح، فبدأ الوجه يظهر. وكان غوفان ينظر إليه باهتمام شديد.

سأل غوفان:

- هل يحمل معه أوراقاً؟

جسّ الجرّاح الجيب الجانبيّ وسحب منه محفظةً مدّها إلى غوفان.

مع ذلك أخذ الجريح الذي أنعشه الماء البارد يستعيد حواسه. وبدأت أجفانه تهتز اهتزازاً مبهماً.

أخذ غوفان يفتش المحفظة؛ فوجد فيها قطعة ورق مثنيّة مرّتين، ففتحها وقرأ:

- «لجنة الخلاص الوطني. المواطن سيموردان...»

فأطلق صرخة وهو يقول:

- سيموردان!

جعلت هذه الصرخة الجريح يفتح عينيه.

كان غوفان مضطرباً.

- سيموردان! هذا أنت! هذه هي المرة الثانية التي تنقذ فيها حياتي.

كان سيموردان ينظر إلى غوفان. ووميض فرح لا يوصف يضيء وجهه المضرَّج بالدماء.

جثا غوفان أمام الجريح وهو يهتف:

- سيّدي!

فقال سيموردان:

- والدك!

* * *

V

قطرة الماء البارد

لم يكونا قد التقيا منذ سنين عديدة، غير أن قلبيهما لم يفترقا قط، وتعرف كلٌّ منهما على الآخر، وكأنهما قد تباعدا بالأمس.

تم بلا استعداد تجهيزُ مستوصفٍ نقّال في مشفى مدينة دُول. وحُمل سيموردان على سرير إلى غرفة صغيرة ملاصقة للقاعة الكبيرة المشتركة للجرحى. أما الجرّاح الذي كان قد لأمَ الشّجّة فقد وضع نهايةً لمناجيات هذين الرجلين، وارتأى أنه ينبغي ترك سيموردان ينام، وكان غوفان فضلاً عن ذلك مطلوباً لألف اهتمامٍ، هي واجباتُ النصر وهمومُه.

لقد ظل سيموردان وحده، ولكنه لم ينم؛ فقد كان مصاباً بحمّيين، حمّى جرحه، وحمّى فرحه، لم ينم، ومع ذلك لم يكن يبدو له أنه مستيقظ. فهل كان هذا ممكناً؟ لقد تحقق حلمه.

كان سيموردان من أولئك الذين لا يؤمنون بالخُماسة[1]. وقد حصل عليها، وعثر على غوفان، كان قد تركه طفلاً، والتقاهُ رجلاً، التقاهُ كبيراً، ومرهوباً، وغير هياب، التقاه ظافراً، وظافراً في سبيل الشعب. لقد كان غوفان في الفانديه مرتكز الثورة، وكان هو سيموردان الذي شكّل طابور الجمهورية هذا. وكان هذا المنتصر هو تلميذه. وما كان يراه يتألق من خلال ذلك الوجه الشاب المكرس ربما لمدفن عظماء الجمهورية، كان فكرته، الخاصة

(١) انظر الملاحظة الواردة على الهامش رقم: ٨٢.

به هو سيموردان، إن تلميذه وابن فكره قد غدا من الآن بطلاً، ولسوف يكون عن قريب امرأً شهيراً، كان يبدو لسيموردان أنه يرى مجدداً روحه الخاصة وقد تحولت إلى نابغة. لقد رأى بعينيه للتو كيف كان غوفان يخوض الحرب. لقد كان مثل شيرون الذي رأى أخيل يقاتل، إنها علاقة غامضة بين الكاهن والقنطور، لأن الكاهن ليس إنساناً إلا نصفياً.

كانت كلُّ مصادفات هذه المغامرة الممتزجة بالأرق الذي يسببه جرحه، تملأ سيموردان بنوع من نشوة غامضة. إن مصيراً فتياً كان ينهض رائعاً، والذي كان يزيد فرحه العميق هو أنه كانت له سلطة تامة على هذا المصير. نجاحٌ آخر مثل هذا النجاح الذي شهده للتو، ولن يكون على سيموردان إلا أن يقول كلمة لكي تعهد الجمهورية إلى غوفان بجيش، لا شيء يُبهر العين كالدهشة التي تبديها حين ترى كل شيء ناجحاً. كان ذلك هو الزمن الذي يمتلك فيه كل فرد حلماً عسكرياً، فكلّ شخص يتوخى صناعة قائد (جنرال)؛ فدانتون كان يريد أن يصنع فيسترمان؛ ومارا يريد أن يصنع روسينيول؛ وهيبير يريد أن يصنع رونسان، وروبيسبيير يريد أن يبطل صناعتهم جميعاً؛ وكان سيموردان يقول لنفسه: فلم لا يكون غوفان؟ وكان يحلم. لقد كان غير المحدود أمامه، وكان ينتقل من فرضية إلى أخرى. وكلّ العوائق كانت تتلاشى! فما أن يكون المرء قد وضع قدمه على ذلك السلم، حتى لا يعود يتوقف؛ إنه الصعود الذي لا ينتهي؛ ينطلق المرء من كونه إنساناً حتى يصل إلى النجمة ؛ إن جنرالاً كبيراً ليس إلا قائد جيوش؛ والزعيم العسكري الكبير هو رئيس أفكار؛ وكان سيموردان يحلم بجعل غوفان زعيماً عسكرياً كبيراً. وكان يبدو له، فأحلام اليقظة تمر سريعاً، أنه يرى غوفان فوق المحيط وهو يطرد الإنكليز، وعلى الرّين وهو يقتصّ من ملوك الشمال، وفي البيرينيه وهو يدحر إسبانيا، وفي الألب وهو يشير إلى روما لكي تنهض، كان في شخص سيموردان رجلان، رجلٌ رقيقٌ، ورجلٌ قاتم، وكان كلاهما مسرورين. لأن التصلب كان مثله الأعلى، وفي الوقت نفسه الذي يرى فيه غوفان شامخاً، كان يراه رهيباً، كان سيموردان يفكر في كل شيء كان ينبغي تدميره قبل البناء، ومن المؤكد، كما كان يقول لنفسه، أن

الوقت ليس وقت العطف واللين[٦٦] ولسوف يكون غوفان «ابن بجدتها» حسب قول ذلك الزمن. وكان سيموردان يتصور غوفان وهو يسحق الظلمات بقدمه، مدرعاً بالنور، وضوء شهاب في جبينه، فاتحاً أجنحة العدالة الكبيرة، أجنحة العقل والتقدم، وهو يحمل سيفاً بيده، ملاكاً، ولكنه ملاكٌ مدمر.

سمع في أوج أحلام يقظته تلك والتي كانت انخطافاً تقريباً، ومن خلال الباب المنفرج قليلاً، أنهم كانوا يتحدثون في قاعة الإسعاف الكبرى، المجاورة لغرفته، فتعرف صوت غوفان، وقد بقي هذا الصوت وبالرغم من سنوات الغياب، يتردد دوماً في أذنه، وصوت الطفل يبقى ماثلاً في صوت الرجل، فأصغى وكان بعض الجنود يقولون:

- ياسيدي القائد، إن هذا الرجل هو الذي أطلق النار عليك، وفي حين لم نكن نراه، كان قد زحف إلى أحد الأقبية، وقد عثرنا عليه، وهذا هو.

حينئذٍ سمع سيموردان هذا الحوار بين غوفان والرجل:

- هل أنت جريح؟

- إني في حالٍ لا بأس بها تتيحُ لي أن أعدم بالرصاص.

- ضعوا هذا الرجل في سرير، ضمّدوه واعتنوا به، واشفوه.

- أريد أن أموت.

- سوف تعيش لقد أردت أن تقتلني باسم الملك وأنا أعفو عنك باسم الجمهورية.

مرَّ ظلٌّ من القلق على جبين سيموردان، وكأنه قد استيقظ مذعوراً،[٦٧] وهمس بنوع من الضنى المشؤوم:

- في الحقيقة إنه من الرّحماء.

* * *

VI

صدرٌ شافٍ وقلبٌ نازف

شفيت الشجّة بسرعة ، غير أنه كان هناك شخص في مكان ما جريحاً على نحو أكثر خطورة من سيموردان . وكان ذلك هو المرأة التي أُطلقت عليها النارُ والتي التقطها المتسول من بركة الدم الكبيرة في مزرعة إيرب – أَن – ييل .

كانت ميشيل فليشار في خطرٍ أكبر مما كان يظنه تيلمارش؛ فالثقب الذي كان فوق صدرها ، كان يقابله ثقب في عظم الكتف ، في الوقت نفسه الذي كانت رصاصةٌ فيه تكسر عظم الترقوة ، وقد أمكنها أن تشفى ، لأن الرئة لم تصب . كان تيلمارش «فيلسوفاً»[٧١] وهذه كلمة يستخدمها الفلاحون وتعني طبيباً بعض الشيء ، وجراحاً بعض الشيء ، وساحراً بعض الشيء . لقد عالج الجريحة في وكره الحيواني على سرير حقير من فوقس البحر ، بتلك الأشياء الغامضة التي يسمونها « غير المركبّة أو البسيطة» وقد عاشت بفضله .

التحمت الترقوة وانغلق ثقبا الصدر والكتف ، وبعد بضعة أسابيع ، أصبحت الجريحة في فترة نقاهة .

ذات صباح تمكنت من الخروج من المخبأ المحفور متكئةً على تيلمارش ، وذهبت لتجلس تحت الأشجار في الشمس ، كان تيلمارش يعرف عنها الشيء القليل ، فجروح الصدر تتطلب الصمت ، وأثناء شبه الاحتضار الذي سبق

شفاءها، لم تكد تتفوه ببضع كلمات، وحين كانت تريد أن تتكلم، كان تيلمارش يسكتها، غير أنها كانت غارقةً بعناد في أحلام يقظتها، وكان تلمارش يلاحظ في عينيها ذهاباً وإياباً قاتمين لأفكارٍ ممضّة، وفي ذلك الصباح، كانت قوية، وباستطاعتها أن تسير بمفردها تقريباً؛ فالعلاجُ هو الأبوة، وكان تيلمارش ينظر إليها سعيداً. لقد بدأ هذا الرجل العجوز الطيب يبتسم. وقد كلمها قائلاً:

– إننا واقفون ولم يعد لدينا جرح.

فقالت:

– إلا في القلب.

وتابعت تقول:

– وإذن فأنت لا تعرف إطلاقاً أين هم ؟. فسأل تيلمارش: من هم؟

– أطفالي.

كانت كلمة «إذن» تعبر عن عالم من الأفكار. وكانت تعني: «بما أنك لاتكلمني عنهم، وبما أنك بجانبي منذ أيّام عديدة، وأنا لا أفتح فمي، وبما أنك تسكتني في كل مرة أريد أن أقطع الصمت، وبما أنك تبدو خائفاً من التكلم عن الأمر، فهذا معناه أنه ليس لديك ما تقوله عن ذلك». أثناء الحمى والشرود والهذيان، غالباً ما كانت تنادي أطفالها، وقد لاحظت جيداً أن الرجل العجوز لم يكن يجيبها؛ فالهذيان يبدي ملاحظاته. ذلك لأن تيلمارش لم يكن يدري ماذا يقول لها؛ فليس من اليسير أن يتكلم المرء مع أمّ عن أطفالها الضائعين، ثم أنه ماذا كان يعرف؟ لا شيء. كان يعلم أن أماً قد أطلقت عليها النار، وأنه قد عُثر على تلك المرأة وهي على الأرض، وأنها حين التقطها كانت جثةً تقريباً، وأن تلك الجثة كانت لديها ثلاثة أطفال، وأن المركيز دولانتوناك، بعد أن أمر بإطلاق النار على الأم، كان قد ذهب بالأطفال. لقد كانت كلُّ معلوماته تتوقف عند هذا الحد. فما الذي حدث لهؤلاء الأطفال. وهل لا يزالون أحياء؟

وقد اقتصر استعلامه عنهم على معرفته بوجود صبيين منهم ، وفتاة صغيرة لم تكد تُفطم ، ولا شيء أكثر من ذلك . وكان يطرح على نفسه بصدد هذه الجماعة السيئة الحظ جملةً من الأسئلة ، ولكنه لم يكن يستطيع الإجابة عليها . كان أهل البلد الذين سألهم يكتفون بهز الرأس ، وكان السيد لانتوناك رجلاً لا يتحدث المرء معه بسهولة . لم يكن الناس يتكلمون بسهولة عن لانتوناك؛ ولم يكونوا يتكلمون بسهولة مع تيلمارش ، فقد كان تيلمارش المتسول رجلاً مقلقاً ، فما خطبه لينظر دوماً إلى السماء؟ ماذا كان يفعل؟ وبم كان يفكر في ساعات جموده الطويلة ؟ لقد كان غريباً بالتأكيد . في هذه المنطقة التي هي في غمرة الحرب ، وفي وسط الاشتعال ، وفي قلب الاحتراق ، والتي لم يكن لكل الناس فيها إلا همّ واحدٌ هو الخراب ، وشغلٌ واحدٌ هو المذبحة ، والتي يتسابقون فيها على من يحرق منزلاً ، ويذبح أسرة ، ويبيد موقعاً حربياً ، وينهب قرية ، ولا يفكرون فيها إلا لينصب بعضهم الكمائن لبعض ، ويجتذب بعضهم بعضاً إلى الأفخاخ ، وبالاقتتال فيما بينهم ، فإن هذا المتوحّد المستغرق في الطبيعة وكأنه مغمور في هدوء الأشياء الهائل ، قاطفاً الأعشاب والنباتات ، والمنشغل بالزهور والطيور والنجوم فحسب ، قد كان رجلاً خطراً[1] بطبيعة الحال . فظاهراً لم يكن يمتلك عقله؛ ولم يكن يكمن خلف دغلٍ فتي ، ولم يكن يطلق على أحدٍ طلقات[69] بندقية . ومن هنا يأتي نوع من الخشية يحيط به .

كان المارّة يقولون:

– هذا الرجل مجنون .

لقد كان تيلمارش أكثر من رجل منعزل ، كان رجلاً يجري تحاشيه .

لم يكن أحد يطرح عليه أسئلة . وقلّما كانوا يجيبونه ، فلم يكن بمقدوره أن يستعلم بقدر ما يشاء . كانت الحرب قد انتشرت في مواضع أخرى . ومضى

(١) كانت تلك هي أيضاً أحكام الناس المسبقة في سان – سامبسون ضد جيليات الطيّب في رواية «عمال البحر» .

الناس ليتقاتلوا في أمكنة أبعد. وكان المركيز دولانتوناك قد توارى عن الأفق، وفي الحالة الذهنية التي كان تيلمارش فيها لكي يتبين الحرب، كان لا بدَّ أن تطأه بقدمها.

بعد هذه الكلمة – أطفالي – كان تيلمارش قد كف عن الابتسام، وأخذت الأم تفكر. فما الذي كان يجري في تلك النفس؟ لقد كانت وكأنها في قعر هاوية. وفجأة، نظرت إلى تيلمارش، وصرخت من جديد بنبرةٍ غاضبةٍ تقريباً:

– أطفالي!

خفض تيلمارش رأسه وكأنه مذنب.

كان يفكر بذلك المركيز دولانتوناك الذي لم يكن بالتأكيد يفكّر به، والذي لم يعد يدري ربما أنه موجودٌ حتى، لقد كان يدرك ذلك ويقول في نفسه:

– السيد الإقطاعي حين يكون في خطر يعرفك، وحين يكون خارج الخطر لا يعود يعرفك.

وكان يتساءل: – ولكن لماذا إذن أُنقذت هذا السيد؟

وكان يرد على نفسه قائلاً: – لأنهُ إنسان.

كان يتفكر في هذا الأمر لبضع الوقت، ويتابع قائلا في نفسه: – هل أنا متأكدّ من ذلك؟

ويردد لنفسه عبارته المريرة: – لو كنت أدري!

كانت كل تلك المغامرة تضنيه، لأنه كان يرى في ما كان قد فعله ضرباً من لغز، فكان يتأمل تأملاً موجعاً. إن عملاً جيداً يمكن أن يكون عملاً سيئاً. فمن ينقذ الذئب يقتل الخراف. ومن يضمّد جناح النسر مسؤول عن مخلبه.

كان يحس في الحقيقة أنه مذنب؛ فقد كان غضب تلك الأم غير الواعي محقاً، ومع ذلك، فإنقاذه لتلك الأم كان يواسيه عن إنقاذه للمركيز.

ولكن الأطفال؟

كانت الأم تفكر. وكان هذان التفكيران يسيران جنباً إلى جنب، من غير أن يقول أحدهما ذلك للآخر، ولعلهما يلتقيان في ظلمات أحلام اليقظة.

مع ذلك فقد حدقت من جديد بتيلمارش بنظرتها التي كان الليل في أعماقها.

وقد قالت:

– مع ذلك فهذا لا يمكن أن يجري على هذا النحو.

قال تيلمارش وهو يضع إصبعه على فمه:

– صه!

وتابعت تقول:

– لقد أخطأت بإنقاذي. وإني غاضبة منك. فأنا أفضّل أن أكون ميتة. لأني متأكدة بأنني كنت سأراهم، وأعلم أين هم. قد لا يرونني، ولكن قد أكون قريبة منهم. إن الميتة لابدَّ أن تكون قادرة على الحماية.

أمسك بذراعها وأخذ يجسُّ نبضها.

– هدئي من روعك، فأنت تجعلين الحمى تعاودك.

فسألته بقسوة تقريباً:

– متى يمكنني أن أذهب؟

– أن تذهبي؟

– أجل أن أمشي .

– إطلاقاً ، إذا كنت عاقلة ، وغداً إذا كنت حكيمة .

– ما الذي تعنيه بكلمة حكيمة؟

– أن تثقي بالرّب .

– الرّب! أين وضع أطفالي؟

كانت كالتائهة ، وقد غدا صوتها شديد الرقّة .

وقالت له:

– أتفهم . أنا لا أريد أن أبقى على هذه الحال . لم يكن لديك أطفال . أما أنا فلديّ أطفال . وهناك فرق في هذا؛ فلا يمكن للمرء أن يحكم على أمر حين لا يدري ما هو . لم يكن لديك أطفال يوماً أليس كذلك؟

فأجاب تيلمارش:

– كلاّ .

– أنا ليس لدي إلا هم؛ فبدون أطفالي هل لي وجود ؟ أود أن يشرحوا لي لماذا ليس أطفالي معي . أشعر فعلاً بأن شيئاً يجري ، بما أني لا أفهم . فقد قتلوا زوجي وأطلقوا النار علي . ولكن هذا سيان فأنا لا أفهم .

قال تيلمارش:

– عجباً ها هي الحمى تعاودك . كفّي عن الكلام .

نظرت إليه وسكتت . لقد امتثلت لطلب تيلمارش أكثر مما كان يريد . وكانت تمضي ساعاتٍ طويلة جاثية عند أسفل شجرة قديمة ، وهي مذهولة . كانت تفكر وتلتزم الصمت؛ فالصمت يقدم ملجأ لا ندري ما هو للنفوس البسيطة

التي عانت من تعمّق الألم المشؤوم . وكان يبدو أنها قد صرفت النظر عن الفهم ، فاليأس في درجة معينة ، يغدو غير مفهوم لدى اليائس .

كان تيلمارش يتفحصها بتأثّر ؛ ففي حضرة هذه المعاناة ، أصبح لدى هذا الرجل العجوز أفكار امرأة . وكان يقول لنفسه: - أوه ، أجل إن شفتيها لاتتكلمان ، ولكن عينيها تتكلمان . وألاحظ فعلاً ما بها ، إنها فكرة ثابتة ، أن تكون المرأة أماً ، ثم لا تعود كذلك! أو أن تكون مرضعة ، ولا تعود كذلك! أليس بإمكانها أن ترضخ للأمر . إنها تفكر بابنتها الصّغرى . التي كانت ترضعها منذ وقت ليس بالبعيد . إنها تفكر بها ، وتفكر بها ، وتفكر بها .

في واقع الأمر ، لا بدَّ أن يكون من الرائع أن يحسّ المرء بفم صغير ورديّ يسحب روحك من داخل جسمك . وبحياتك التي هي لك يصنع الفمّ حياة لنفسه . كان من جهته يلتزم الصّمت . مدركاً عجز الكلام ، أمام ضنىً من هذه الشاكلة . إن صمت الفكرة الثابتة رهيب . وما العمل لإلزام امرأة جادّة الصواب عن فكرتها الثابتة؟ إن الأمومة أمر لا خلاص منه . ولا يمكن مجادلته . إن ما يجعل أماً ما جليلةً ، هو أنها ضرب من كائن بهيميّ؛ فالغريزة الأمومية حيوانية بكمال مطلق . إن الأم لا تعود امرأة بل تغدو أنثى[٢٤٦] .

إن الأطفال هم الصغار .

ومن هنا يأتي أن في المرأة شيئاً أدنى وأعلى من المحاكمة العقلية . إن للأم حاسة تمييز للأمور؛ وفي داخلها إرادةُ خلقٍ [٧٠] هائلة وغامضة ، وهي تقودها . وهذه الحاسة مفعمة بالتبصّر من غير رؤية .

كان تيلمارش يريد الآن أن يجعل هذه المنكودة تتكلّم؛ ولم يكن ينجح في ذلك . وقد قال لها ذات مرة:

- لسوء الحظ أني عجوز ، ولم أعد أمشي . ولقد وصلت إلى نهاية قوتي بشكل أسرع مما وصلت فيه إلى نهاية طريقي . وبعد ربع ساعة ، تخرن ساقاي ، وينبغي أن أتوقف ، وإلاّ لكان بإمكاني مرافقتك . وفي واقع الأمر ، فلعلّه يكون

أمراً جيداً ألاّ أستطيع ذلك. فقد أكون بالنسبة إليك أكثر خطورة مما أكون مفيداً. إنهم يتسامحون معي هنا؛ غير أني مشبوه عند الزرق كفلاح، ومشبوه عند الفلاحين كساحر.

انتظر ما ستجيبُه به، فلم ترفع حتى عينيها.

إن فكرةً ثابتة ما تؤدي إلى الجنون أو إلى البطولة، ولكن لأية بطولة يمكن لفلاحة مسكينة أن تكون أهلاً؟ ليس لأية بطولة. يمكنها أن تكون أماً، وهذا كل شيء. كانت تغرق كلّ يوم في أحلام يقظتها أكثر. وكان تيلمارش يلاحظها.

سعى إلى إشغالها؛ فجلب لها خيطا وإبر خياطة، وقمعاً. وقد أخذت تخيط في الحقيقة، وهذا ما راق للمتسوّل المسكين. كانت تفكّر، إلاّ أنها كانت تشتغل وهذا دلالة على الصحة. كانت قواها تعود إليها شيئاً فشيئاً. وقد أصلحت من شأن بياضاتها، وملابسها، وحذائها، ولكن حدقة عينها بقيت كابية. وكانت أثناء الخياطة تغني همساً أغنيات مبهمة. كانت تهمس بأسماء، ربّما تكون أسماء أطفال، وليست واضحة على نحوٍ كافٍ لكي يسمعها تيلمارش. فكانت تقطع عملها وتصغي إلى الطيور وكأن لديها أخباراً تعطيها إيّاها. كانت تنظر إلى حالة الطقس، فترتعش شفتاها. كانت تكلم نفسها بصوت خفيض، وتصنع سلةً وتملؤها بالكستناء. وذات صباح، رآها تيلمارش وهي تبدأ بالسير، و نظرتها محدقةٌ بلا تبصر بأعماق الغابة، فسألها:

- إلى أين تذهبين ؟

فأجابت:

- سأبحث عنهم.

ولم يحاول أن يستبقيها.

* * *

VII

قطبا الحقيقة

بعد مضي بضعة أسابيع ملأى بكلّ روحات وجيئات الحرب الأهلية، لم تسرِ شائعة في منطقة فوجير إلا عن رجلين يناقض كلٌّ منهما الآخر، واللذين يقومان مع ذلك بالعمل نفسه، أي أنهما يحاربان جنباً إلى جنب في المعركة الثورية الكبرى.

كان النِّزال الفاندي الوحشي يتواصل، غير أن الفاندية كانت تتقهقر. وفي ليل - إي فيلين خصوصاً، وبفضل القائد الشاب الذي قام في دول بهجوم مضاد في وقت جدّ مناسب على جرأة ستة آلاف ملكيّ بجرأة ألف وخمسمئة وطنيّ، فإن الانتفاضة قد خمدت، أو على أية حال تضاءلت وحوصرت كثيراً. إن عدداً من الضربات الموفّقة كانت قد تلت تلك الضربة، ونشأ من هذه النجاحات المتزايدة موقف جديد.

كانت الأمور قد تبدلت، إلا أن تعقيداً فريداً من نوعه قد ظهر فجأة.

في كل ذلك القسم من الفاندية، كانت الغلبة للجمهورية. كان ذلك أمراً لا شكّ فيه، ولكن أية جمهورية؟ في الانتصار الذي كان يرتسم، كان هناك شكلان حاضران من الجمهورية. جمهورية الإرهاب وجمهورية التسامح؛ فالأولى منهما تريد أن تنتصر بالتشدد والأخرى بالرقة. فأيتهما سترجح كفتها؟

وكان هذان الشكلان، الشكل المصالح والشكل الشرس. يتمثلان برجلين لكلٍّ منهما نفوذه وسلطته، أحدهما قائد عسكريّ، والآخر مفوض مدني؛ فلمن ستكون الغلبة من هذين الرجلين؟ كان أحد هذين الرجلين، المفوّض منهما، يستند إلى مرتكزات مخيفة، وكان قد وصل حاملاً توجيه حكومة بلدية باريس لكتائب سانتير: «لا غفران عن أحد ولا عفو عن أحد». وكان لديه، لكي يخضع كل شيء لسلطته، مرسوم المؤتمر الوطني الذي يتضمن «الحكم بالإعدام على أي شخص يطلق سراح قائد متمرد أسير، أو يجعله يهرب»، وكانت لديه سلطاتٌ كاملة صادرة عن لجنة الخلاص الوطنيّ، وإيعاز بإطاعته هو كمفوض، وبتوقيع من روبيسبيير، ودانتون، ومارا. أما الآخر، الجندي، فلم تكن لديه إلاّ تلك القوة. التي هي الرأفة.

لم يكن لديه إلا ساعده الذي كان يضرب الأعداء، وقلبه الذي كان يعفو عنهم. وحين ينتصر، كان يظن أن لديه الحق في أن يعفو عن المغلوبين.

ومن هنا يأتي نزاعٌ مستتر، ولكنه عميق، بين هذين الرجلين. فقد كانا كلاهما ضمن سحب مختلفة، فكلاهما كانا يحاربان التمرد، ولكل منهما صاعقته الخاصة، الأول منهما النصر، الآخر الإرهاب.

لم يكن يجري الكلام إلا عليهما، في لوبوكاج (الحريج) بأكمله. وهذا ما كان يزيد قلق النظرات المحدقة بهما من جهة، ولأن هذين الرّجلين، المتعارضين تعارضاً مطلقاً، كانا في الوقت عينه متحدين اتحادا وثيقاً. كان هذان المتناحران صديقين، وما من تعاطف قد قرّب بين قلبين قطّ بشكلٍ أكثر علوّاً وأكثر عمقاً مما قرّب بينهما. كان المخيف قد أنقذ حياة طيب القلب، فتسبب له ذلك بشجة في الوجه. كان هذان الرجلان يجسد أحدهما الموت، والآخر الحياة، كان أحدهما المبدأ الرهيب، والآخر هو المبدأ المسالم. وكانا متحابين. إنها مشكلة غريبة. فلنتصوّر أوريست رحيما وبيلاد غير متسامح، لنتصوّر أن أريمان هو شقيق أورميس.

لنضف أن ذلك الذي كان يدعى من بينهما «الشرس» كان في الوقت ذاته أكثر الرجال ودّية؛ فكان يضمّد الجرحى، ويعالج المرضى، ويمضي أياماً ولياليَ في المستوصفات النقالة والمشافي، ويترفق بالأطفال الحفاة، ولم يكن يحتفظ بشيء لنفسه، ويعطي الفقراء كل شيء. وحين كان يجري القتال، كان يمضي إليه. وكان يسير في مقدمة الأرتال، في إبان المعركة، وهو مسلح، لأنه كان يحمل في حزامه سيفاً ومسدسين، وحين يكون أعزل، لأنه لم يكن قد رآه أحد قط وهو يسحب سيفه ويمد يده إلى مسدسيه. كان يتصدى للضربات، ولا يردها. ويقال إنه كان كاهناً.

كان أحد هذين الرجلين هو غوفان، وكان الآخر هو سيموردان. كانت الصداقة قائمة بين الرجلين، غير أن الكراهية كانت قائمة بين المبدئين. كان ذلك مثل روح مقطوعة إلى نصفين وموزعة؛ فكان غوفان، في الحقيقة، قد تلقى نصف روح سيموردان، ولكن النصف الرقيق. وكان يبدو أن غوفان قد حصل على نصف الدائرة الأبيض، وأن سيموردان قد احتفظ لنفسه بما يمكن أن يدعى بالنصف الأسود من الدائرة. ومن هنا يتأتى خلاف ضمني بينهما. ولم يكن بالإمكان ألاّ تندلع هذه الحرب الخفية. وذات صباح، بدأت المعركة.

قال سيموردان لغوفان:

– أين وصلنا.

فأجاب غوفان:

– أنت تعرف ذلك جيداً بقدر ما أعرف. لقد شتتّت عصابات لانتوناك. ولم يعد لديه إلا بضعة رجال. وهاهو قد تراجع إلى غابة فوجير ولسوف يحاصر في غضون ثمانية أيام.

– وبعد خمسة عشر يوماً؟

– سوف يقبض عليه.

– ومن ثمّ[٧١]؟

– لقد رأيت إعلاني؟

– أجل وإذن؟

– سوف يعدم بالرصاص.

– تساهل أيضاً. يجب أن يعدم بالمقصلة.

– أنا إلى جانب الإعدام العسكري.

فرد سيموردان.

– وأنا إلى جانب الإعدام الثوري.

ونظر إلى غوفان مواجهة وقال له:

– لماذا أطلقت سراح راهبات دير سان – مارك – لو– بلان أولئك؟

فأجاب غوفان:

– أنا لا أخوض الحرب ضد النساء.

– هؤلاء النساء يبغضن الشعب. والمرأة الواحدة تعادل في الكراهية عشرة رجال. ولماذا رفضت أن يرسل إلى المحكمة الثورية كل هذا الجمع من الكهنة الشيوخ المتعصبين الذين قبض عليهم في لوفينييه؟

– أنا لا أخوض الحرب ضد المسنين. إن كاهناً عجوزاً هو أسوأ من كاهن شاب. والتمرد أشد خطورة حين يبشّر به الشعر الأبيض. إن الناس يؤمنون بالتجاعيد. فلا ترأف رأفة زائفة، ياغوفان، فقتلة الملوك هم المحرِّرون. ولتركز نظرك على برج دوتامبل.

– برج دوتامبل سوف أخرج منه ولي العهد، فأنا لا أخوض الحرب ضد الأطفال.

غدت نظرة سيموردان قاسية وقال: اعلم يا غوفان أنه ينبغي محاربة المرأة حين يكون اسمها ماري – أنطوانيت، والعجوز حين يكون اسمه بيوس السادس، البابا، والطفل حين يكون اسمه لويس كابيّه.

– يا سيدي، أنا لستُ رجلاً سياسياً.

– حاول ألاّ تكون رجلاً خطراً. فلماذا صرخت: افتحوا الصفوف ودعوه يمّر؟ عند الهجوم على مركز كوسيّه، وحين هجم المتمرد جان تريتون بمفرده، وسيفه في قبضته، على طابورك كله، بعد أن حوصر وانتهى أمره.

– لأنه لا يتصدى ألف وخمسمئة رجل لقتل رجلٍ واحد.

– ولماذا في الكابيّتري داستييه، حين رأيت أن الجنود سيقتلون الفاندي جوزيف بيزييه الذي كان جريحاً والذي كان يزحف، لماذا صرخت: تقدموا، سأتكفل به! وهل أطلقت رصاصة مسدسك في الهواء؟

– لأننا لا نقتل رجلاً وقع على الأرض.

– وقد أخطأت في ذلك، فهما الآن كلاهما رئيسا عصابة؛ وجوزيف بيزييه هو موستاش، وجان تريتون هو جامب دارجان[1] فحين أنقذت هذين الرجلين أعطيت للجمهورية عدوّين.

– من المؤكد أنني أودّ أن أعطيها أصدقاء وليس أن أعطيها أعداء.

– ولماذا لم تأمرْ بإعدام فلاحيك الثلاثمئة الأسرى بالرصاص، بعد الانتصار في لانديان.

– لأنه بعد أن عفا بونشان عن الأسرى الجمهوريين، أردت أن يقال أن الجمهوريّة تعفو عن الأسرى الملكيين.

– وإذن فإذا قبضت على لانتوناك، فهل تعفو عنه؟

– لا.

---

(١) إن حكاية رواية عام «٩٣» في طبعة المطبعة الوطنية، تذكر ملاحظات عديدة أخذها هيغو حول هذه الشخصية.

– لماذا؟ بما أنك قد عفوت عن الفلاحين الثلاثمئة؟

– الفلاحون جهلة ، أما لانتوناك فيعرف ما يفعل .

– ولكن لانتوناك قريبك؟

– فرنسا هي القريبة الكبرى .

– ولانتوناك عجوز .

– إن لانتوناك أجنبي وليس له عمر . إن لانتوناك يستدعي الإنكليز ، إن لانتوناك هو الغزو ، لانتوناك هو عدوّ الوطن ، والنزال بيني وبينه لا يمكن أن ينتهي إلا بموته أو بموتي .

– ياغوفان تذكّر هذا الكلام .

– لقد قلته .

خيمّ صمت ، ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر .

واستأنف غوفان يقول:

– سيكون تاريخاً دامياً ، تاريخ العام ۹۳ الذي نحن فيه .

فهتف سيموردان:

– احترس . إنَّ الواجبات الرهيبة موجودة؛ فلا تتهم إطلاقاً ما لا يمكن اتهامه . فمنذ متى كان المرض هو ذنب الطبيب؟ أجل إن ما يميز هذه السنة الهائلة ، هي أنها بلا رحمة ، فلماذا؟ لأنها السنة الثورية الكبرى ، إن هذه السنة التي نحن فيها تجسّد الثورة . وللثورة عدّو هو العالمُ القديم ، وهي بلا رحمة تجاهه ، وكما للجراح عدوٌ هو الغنغرينا ، فهو بلا رحمة تجاهها ، إن الثورة تستأصل الملكيةَ في شخص الملك ، والأرستقراطية في شخص النبيل ، والاستبدادَ في شخص الجندي ، والاعتقادَ الباطل في شخص الكاهنِ ، والهمجيةَ في شخص القاضي ،

وبكلمة، كلّ ما هو طغيان في كل ما هو طاغية، إن العملية مرعبة، والثورة تقوم بها بيد موثوقة، أما عن كمية اللحم البشري السليم الذي تضحّي به، فاسأل بويرهاف[1] عن رأيه في ذلك. فأي ورمٍ ينبغي قطعه لا يستدعي فقداً للدم؟

وأي حريق يجب إخماده لا يتطلب حصّةً للنار؟ إن هذه الضرورات المخيفة هي شرط النجاح نفسه. إن جرّاحاً ما يشبه لحاماً، والمعالج الشافي يترك انطباعاً بأنه جلاد. إن الثورة تنذر نفسها لمهمتها الحتمية. إنها تبتر. ولكنها تنقذ. ماذا! أنت تطلب منها أن تعفو عن الفيروس! هل تريد أن تكون رحيمة بما هو سامّ! إنها لا تصغي. إنها تمسك بالماضي ولسوف تجهز عليه. وهي تُحدثُ في الحضارة البشرية قطعاً عميقاً، ستخرج منه صحة الجنس البشري، أنت تتألم؟ بالتأكيد. فكم من الوقت سيدوم ذلك؟ لوقت العملية. ثم تعيش. إن الثورة تبتر العالم، ومن هنا يأتي النزيف، عام ٩٣.

فقال غوفان:

– إن الجراح هادئ والناس الذين أراهم عنيفون.

فرد سيموردان:

– إن الثورة تريد لمساعدتها عمالاً مخيفين، إنها تصدّ كل يدٍ ترتجف ولا تثق إلا بذوي الصلابة. فدانتون هو المخيف، وروبيسبيير هو الذي لا ينثني، وسان – جوست هو الذي لا يتحول، ومارا هو الذي لا يرحم. فحذار ياغوفان. إن هذه الأسماء ضرورية، وهي تعادل جيوشاً في نظرنا؛ ولسوف ترهب أوروبا.

فقال غوفان[2]:

---

(١) بويرهاف ١٦٦٨ – ١٧٣٨ الطبيب الهولندي الكبير، الأستاذ في ليد، ومؤلف مجموعتين طبيتين.

(٢) يمرّر هيغو من خلال هذا النقاش كل أفكاره عن الفكرة الثورية (أنظر المقدمة. . ونقرأ أيضاً هذه الملاحظة التي تركها في «بقايا عام ٩٣» «هل كان غوفان عاشقاً؟ أجل للرحمة؛ فالعفو قد كان مثله الأعلى، وليس عاشقاً للمرأة. كان يبدو أنه ليس لديه إلا فكرة في تلك الأزمنة الرهيبة: جعل الحرب الأهلية مفعمة بالرأفة».

- ولربّما المستقبل أيضاً.

وتوقف ثم سارع إلى القول:

- فضلاً عن هذا يا سيدي، فأنت مخطئ وأنا لا أتهم أحداً. وفي رأيي أن وجهة النظر الحقيقية للثورة هي اللامسؤولية؛ فلا أحد بريء، ولا أحد مذنب، ولويس السادس عشر خروف ألقي به بين أسود. إنه يريد أن يهرب، يريد أن يخلّص نفسه، ويسعى إلى الدفاع عن نفسه، ولو استطاع لعضّ. ولكن لايصبح أسداً من يشاء. إن ضعف إرادته يبدو جريمة. وهذا الخروف الغاضب يكشر عن أسنانه، هذا الخائن! هكذا تقول الأسود. وتأكله. وحين يتم ذلك تتقاتل فيما بينها.

- الخروف حيوان.

- والأسود ما هم؟

جعل هذا الرّد سيموردان يتفكّر.

ورفع رأسه وقال:هؤلاء الأسود هم ضمائر. هؤلاء الأسود هم أفكار. وهؤلاء الأسود هم مبادئ.

- إنهم يصنعون الإرهاب.

- ذات يوم ستكون الثورة تسويغاً للإرهاب.

- فلتكن خشيتك من أن يكون الإرهاب افتراءً على الثورة[1]. واستأنف

(١) ملاحظة تركها هيغو في «بقايا رواية عام ٩٣»: كان «الإرهاب» حتمياً بكل معاني الكلمة، أي ضرورياً ومشؤوماً. كان ضرورياً، لأنه حاصل جمع، ومشؤوماً لأنه بدون الإرهاب كان يمكن لدول أوربا الموحدة أن تؤسس اليوم، والإرهاب هو الذي كبح، وأغرق في الصدور توق الشعوب إلى الجمهورية البشرية الكبرى.. وبدون الإرهاب لا تكون هناك أية ذريعة للحروب الكلامية، فقد كان الإرهاب هو الذريعة التي لا تنفد، وعليها إنما استند الافتراء الملكي الهائل. والآن هل كان يمكن أن يجري تحاشي الإرهاب؟ إنه سؤال عميق، وبأية نسبة يرتبط الإرهاب بالقوانين الحركية؟ (قوانين تصرفات البشر، وآلياتها).

غوفان يقول: حرية، عدالة، إخاء، هذه هي عقائد السلام والانسجام، فلماذا نعطيهم جانباً مرعباً؟ ماذا نبتغي، أن نكسب الشعوب إلى الجمهورية العالمية؟. وإذن؛ لا نرعبهم. بمَ يفيد التخويف؟ والشعوب لا تجتذبها الفزاعة أكثر مما تجتذب الطيـور. لا ينبغي أن نصنع الشر لكي نصنع الخير. ونحن لا نقلب العرش لنترك منصّة الإعدام قائمة. فالموت للملوك والحياة للأمم. فلنسقط التيجان ولنعفُ عن الرؤوس. إن الثورة هي الوفاق وليس الذعر. والأفكار اللطيفة يخدمها غير المتسامحين خدمة سيئة. إن الغفران في نظري هو أجمل كلمة في اللغة البشرية. لا أريد أن أهرق دماً إلا إن خاطرت بدمي، فضلاً عن هذا، فأنا لا أعرف إلا القتال وما أنا إلا جندي. وإذا كان لا يمكن أن نعفو، فلا حاجة لتحقيق الغلبة. ولنكن أثناء المعركة أعداء أعدائنا، وبعد النصر إخوتهم.

فردد سيموردان للمرة الثالثة:

– احترس، ياغوفان فأنت بالنسبة لي أكثر من ابني، احترس!.

وأضاف متفكراً:

– في أوقاتٍ مثل أوقاتنا، يمكن للرأفة أن تكون شكلاً من أشكال الخيانة.

حين يسمع المرء هذين الرجلين يتكلمان يظن أنه يسمع حوار السيف والبلطة.

* * *

VIII

DOLOROSA*

«الأم المتألّمة»

مع ذلك فقد كانت الأم تبحث عن صغارها .

كانت تتقدم . وكيف كانت تعيش؟ من غير الممكن الإجابة على ذلك . ولم تكن هي ذاتها تعرف . لقد سارت أياماً وليالي؛ فتسولت ، وأكلت العشب ، ورقدت على الأرض ، ونامت في الهواء الطلق ، في أشواك الغابات ، وتحت النجوم ، وأحياناً ، تحت المطر وريح الشمال .

كانت تطوف من قرية إلى قرية ، ومن إكارة إلى إكارة ، مستعلمةً عن أبنائها . فتتوقف عند العتبات . وكان ثوبها أسمالاً ممزقة . وكانوا يستقبلونها أحياناً ، وأحياناً يطردونها . وحين لم تكن تستطيع أن تدخل إلى المنازل ، كانت تذهب إلى الأحراش .

ولم تكن تعرف المنطقة ، وتجهل كل شيء باستثناء سيسكوانيار ، وخورنية آزيه .

ولم يكن لديها خطّ سير ، فترجع على أعقابها ، وتسير مجدداً في طريق كانت قد جابتها ، فتقطع مسافة لا فائدة منها . كانت تتبع الأرضية المبلّطة

(*) المتألمة أو الحزينة ، كلمة تستخدم في الفنّ للدّلالة على تصوير أو تمثيل للسيدة العذراء المحزونة ، بعد صلب السيّد المسيح (م: ز . ع) .

حيناً، وأخدودَ عربةٍ حيناً، والشعابَ المتجهة داخل الحرجات الفتية حيناً آخر. وفي هذه الحياة التي تعيشها على غير هدى، كانت قد أبلت ثيابها البائسة، ومشت في البداية منتعلةً حذاء، ثم حافية، وبعد ذلك بقدمين تقطران دماً.

كانت تمضي عبر الحرب، وعبر طلقات البنادق من غير أن تسمع شيئاً، ومن غير أن ترى شيئاً، ومن غير أن تتحاشى شيئاً، باحثةً عن أطفالها، وبما أن التمرد قد عمّ البلد، فلم يعد هناك دركيون، ولا عمدٌ ولا سلطة. ويقتصر اتصالها على المارّة، كانت تكلمهم وتسأل:

– هل رأيتم في أي مكان ثلاثة أطفال صغار؟

وكان المارّة يرفعون رؤوسهم.

وكانت تقول:

– صبيين وفتاة.

وتتابع قائلة:

– رينيه–جان، وغروزالان، وجورجيت؟ ألم تروا هؤلاء؟ وتواصل: البكر منهم عمره أربعة أعوام ونصف، والصغيرة عشرون شهراً.

وتضيف:

– هل تعلمون أين هم؟ لقد أخذوهم مني.

كانوا ينظرون إليها، وهذا كل شيء

وإذ رأت أنهم لا يفهمونها فقد كانت تقول:

– ذلك أنهم أولادي، هذا هو السبب.

كان الناس يمضون في طريقهم. حينئذٍ، كانت تتوقف، ولم تعد تقول شيئاً. وتمزق صدرها بأظافرها.

مع ذلك فقد أصغى إليها فلاحٌ ذات يوم ، فأخذ الرجل الطيب يفكر ، وقال:

– انتظري قليلاً . ثلاثة أطفال؟

– نعم .

– صبيان ؟

– وبنت .

– هذا ما تبحثين عنه؟

– نعم .

– سمعتهم يتكلمون على سيّدٍ إقطاعي قد قبض على ثلاثة أطفال صغار وأخذهم معه .

فصرخت:

– أين هو ذلك الرجل ؟ وأين هم؟ فأجاب الرجل: اذهبي إلى لاتورغ

– هل أجد هناك أطفالي ؟

– ربما تجدينهم فعلاً .

– أنت تقول؟ . . .

– لاتورغ .

– ماذا يكون لاتورغ هذا؟

– إنه مكان .

– هل هو قرية؟ أو قصر؟ أو إكارة ؟

– لم أذهب إليه قطّ.

– هل هو بعيد؟

– ليس قريباً

– من أي ناحية ؟

– من ناحية فوجير.

– من أين يذهبون إليه؟

فقال الفلاح: أنت في فانتورت؛ فتتركين إيرنيه على شمالك، وكوكسيل على يمينك، وتمرّين، عبر لونشان، وتجتازين لورو.

ورفع الفلاح يده باتجاه الغرب، وقال:

– تسيرين مباشرة إلى الأمام متجهةً من الناحية التي تغيب فيها الشمس.

قبل أن يخفض الفلاح ذراعه، كانت قد أخذت تسير.

فصاح الفلاح:

– ولكن احترسي فهناك قتالٌ يدور.

ولم تستدر لترد عليه، وواصلت مسيرها إلى الأمام.

* * *

IX

باستيل الرّيف*

I

لاتورغ

إن المسافر الذي دخل، منذ أربعين عاماً إلى غابة فوجير من جهة لينيوليه، كان يخرج منها من ناحية بارينييه، ويلتقي على تخوم تلك الغابة العميقة شيئاً مشؤوماً، وحين كان ينفذ من السياج اليابس، كان يجد أمامه فجأة لاتورغ.

إنه ليس لاتورغ الحيّ، بل لاتورغ الميت، لاتورغ المتصدع، والمغرق[1]. والمشجوج، والمهدم. إن الدمار بالنسبة للبناء كالشبح بالنسبة للإنسان؛ فما من رؤية أكثر إثارة للكآبة أكثر من لاتورغ؛ فما يبصره المرء كان برجاً عالياً مستديراً ومنفرداً في زاوية الحرش مثل شقيّ جانٍ. إن هذا البرج، المنتصب على كتلة صخرية عامودية، كان له تقريباً منظرٌ روماني لفرط ماكان مضبوطاً وصلباً، ولفرط ما كانت فكرة الاقتدار ممتزجة، في تلك الكتلة المتينة، بفكرة السقوط. لقد كان بعض الشيء رومانياً، لأنه كان من طراز روميّ، وقد بدئ العمل

(*) الباستيل: هو القلعة ـ السجن (م: ز. ع)

(١) هذه الكلمة «'Saborde» التي تشير عموماً إلى العملية المتمثلة في ثَقبِ هيكل سفينةٍ يُراد إغراقها من القعر، تستخدم هنا استخداماً جزئياً لوصف السور المثقوب للمعتقل، ولسوف يقول هوغو فيما بعد، من ناحية أخرى، «الكتاب الرابع، الفصل السابع»: «إن برجاً في بلد مكشوف يشبه سفينة في عرض البحر».

به في القرن التاسع ، وأنجز في القرن الثاني عشر ، بعد الحرب الصليبية الثالثة . إن أرجل عقود فتحاته[1] ذات العرى كانت تنطق بعمره ، كان المرء يقترب ويتسلق الانحدار ، ويلاحظ ثغرة ، فيخاطر بالدخول ، فيصبح في داخل بوق حجري منصوب بصورة قائمة على الأرض . ومن الأعلى إلى الأسفل . ليس هناك حاجز ولا سطح ولا سقوف وأرضيات ، بل اقتلاعات للقباب والمداخن ، وفتحات لفراخ الصقر[2] ، وعلى ارتفاعات شتى ، شريطيات غربان[3] صوانية ، وعدد من الرافدات العرضانية التي تحدد الطوابق ، وعلى الرافدات ، سلح الطيور الليليّة ، والسور الجبّار والذي تبلغ سماكته خمس عشرة قدماً واثنتي عشرة عند القمة . وفي هذا المكان أو ذاك صدوعٌ وثقوبٌ كانت أبواباً ، كان يمكن للمرء أن يرى من خلالها أدراجاً في الداخل المعتم للجدار ، إن عابر السبيل الذي يدلف مساءً إلى هناك كان يسمع صيحات طيور الخبل ، وطيور رضاع الماعز ، وواق الشجر[4] ، والضفادع الطائرة ، ويرى تحت قدميه نبات العليق والحجارة والزواحف ، وفوق رأسه ومن خلال استدارةٍ سوداء هي أعلى البرج والذي يبدو مثل فوهة بئر هائلة يرى النجوم[72] .

---

(١) أرجل العقود هي الحجارة النافرة التي تحمل بداية تقوس رواق مقنطر . والعرى ، بهذه الدلالة الخاصة «مصطلح تدعيم» لها استخدام ورد في معجم ليتريه باعتباره يخص لغة القرن السادس عشر «مثال مستمد من عند أغريبا دوبينييه» وفيكتور هيغو سوف يستخدم لوصف لاتورغ ، الدقة الفنية والمليئة بالصور في آن والتي غالباً ما استعملها لوصف القلاع الرينانية في قصة سفره «الريّن» ١٨٤٢ إن وصف لاتورغ قد اغتنى من ناحية أخرى بشكل كبير أثناء صياغة المخطوط .

(٢) فراخ الصقور كانت عبارة عن أنواع من المدفعية . وقد أوحى استخدام هذا المصطلح لهيغو بهامش «بحثي» بالنسبة للفصل السادس من القسم الثاني من مسرحيته البورغراف ١٨٤٣ في الموضع الذي يهدف فيه ماغنوس: «سلحوا المجانق» فإن المؤلف كان يتوقع بصورة مشفقة – على جهل الجمهور بهذه المواد: « إن الممثل سيتصرف بحكمة إذ يقول: سلحوا فراخ الصقور! ولم يكونوا يعرفون فراخ الصقور في القرن الثاني عشر . ولكن ما أهمية ذلك؟ فلا يزال بين الجمهور . . العديد من الناس الطيبين الذين لا يقبلون بكلمة المجانق .

(٣) حجارة تشكل نفوراً .

(٤) أنواع من الطيور طويلات الساق .

كان تقليداً في المنطقة أن تكون في الطوابق العليا من ذلك البرج أبواب سرية مصنوعة، شأن أبواب مقابر ملوك اليهودية، من حجرٍ ضخم يدور على محور، وينفتح ثم ينغلق، متوارياً في السور، وهو نمطٌ معماري جُلب مع الحروب الصليبية، مع القوس القوطية، وحين تكون تلك الأبواب موصدة، يكون من المتعذر العثور عليها لفرط ما تكون مختلطة بشكلٍ جيد بحجارة الجدار الأخرى. ولا نزال نرى اليوم عدداً من هذه الأبواب في المدن الغامضة في منطقة لبنان الشرقية والتي نجت من زلزال المدن الاثنتي عشرة في عهد تيبير[1].

* * *

(١) حادثة رواها تاسيت في الكتاب الثاني من الحوليات «الفصول: ٤٠- ٥٣».

II

الثغرة

كانت الثغرة التي يجري الدخول منها إلى الخربة اختراقاً أحدثه لغم . وفي نظر أحد المطلّعين ، والمقرب من إيرار وساردي وباغان[١] ، فإن هذا اللغم قد صنع بمهارة وكانت حجرة النار التي هي على شاكلة قلنسوة الكاهن متناسبة مع قدرة البرج الرئيس الذي كان عليها أن تبقره ، وكان لا بدّ أن تحتوي على الأقل كنتالين من البارود ، وكان يجري الوصول إليها عن طريق قناة متعرجة ، والتي هي أفضل من القناة المستقيمة ، وكان التهدم الذي نجم عن اللغم يُظهر بوضوح أنبوبة البارود[٢] داخل تمزُّق الحجر ، والتي كانت لها القياس المراد لبيضة دجاجة . كان الانفجار قد أحدث في السور جرحاً عميقاً كان يتعين على المهاجمين أن يتمكنوا من الدخول عبره . وكان ذلك البرج قد دعم في مختلف العهود ، حصارات حقيقية نظامية ، وكان مثقباً برشقات المدافع ولم تكن تلك الرشقاتُ كلّها قد أُطلقت في الوقت نفسه؛ إن لكل قذيفة طريقتها في ترك أثرٍ على السور .

---

(١) جان إيرار (١٥٥٤- ١٦١٠) كان أحد كبار متعهدي التحصين في عهد هنري الرابع ، ومؤلف مقالة عام ١٦٠٠ كان نجاحها هائلاً - والإيطالي ساردي قد ألف في القرن الخامس عشر مؤلفاتٍ في الفن العسكري - وباغان ١٦٠٤ - ١٦٦٥ كان يمثل مرحلة إنتقالية بين إيرار وفوبان . أما مقالته في التحصينات فتعود إلى عام ١٦٤٦

(٢) شحنة من البارود معدة على شكل لفيفة ضمن نسيج كتّاني .

وكل هذه القذائف كانت قد تركت على البرج الرئيس ندبتها، ابتداءً من القنابل الحجرية في القرن الرابع عشر، حتى القنابل الحديدية في القرن الثامن عشر.

كانت الثغرة تسمح بالولوج إلى ما كان أشبه بالطابق الأرضي. وبمواجهة الثغرة في جدار البرج، كانت تنفتحُ كوّة قبوِ مقبرةٍ منحوت في الصخر، ويستطيل في أسس البرج وصولاً إلى قاعة الطابق الأرضي.

إن قبو المقبرة هنا والذي طُمرت ثلاثة أرباعه، قد رُفعت أنقاضُه في عام ١٨٥٥ بإشراف السيد أوغست بريفو[1]، العالم الأثري في بيرنيه.

* * *

(١) عالم الآثار لوبريفو ١٧٨٧ - ١٨٥٩ نائب بيرنيه والعضو غير الملتزم بأكاديمية المدونات، والذي كان إطار أبحاثة منطقة لور، ويبدو جدياً أن هيغو، حسب طريقته، قد جعل من قلعة غوفان التي يحدد موضعها قريباً من فوجير، من أجل حدث روايته، قد جعل منها تأليفاً بين القصور المهدمة التي زارها (ورسمها غالباً) أثناء سفره، وفي عام ١٨٣٥، كان هيغو قد رأى بروفان وبرجها الرئيس «سوف يفيدني كثيراً «هكذا كتب إلى أديل هيغو» ورأى كوسي وبيرفون: «وهما برجان جميلان» في كوربي. «وبرجاً كبيراً متصدعاً» في بوف، بقرب أميان. وفي عام ١٨٣٦، كما قلنا كان قد زار خرائب أخرى في منطقة فوجير نفسها، وعلى رسم بيده محفوظ في متحف فكتور هيغو، نقرأ: «لاتورغ في عام ١٨٣٥» ونعرف من رحلته إلى البلدان الرينانية عن ١٨٣٩ و ١٨٤٠ أيّة رؤى لقلاع مهدمة قد رواها، ويكفي أن نحيل إلى مشاهد الوصف التي قدمها للرين ١٨٤٢. إن ذكريات حديثة العهد أكثر قد أمكن لها أن تتنضّد فوق تلك الانطباعات البعيدة: ذكريات رحلات جرى القيام بها في اللوكسمبور وفي البلدان الرينانية، خلال فترة المنفى، وخصوصاً في الأعوام: ١٨٦٣ - ١٨٦٤ - ١٨٦٥، وخصوصاً ذكريات عام ١٨٧١. (انظر الملاحظة التالية).

III

الزنزانة المظلمة

(زنزانة النسيان)

كان قبو المقبرة هو زنزانة النسيان؛ وكان لكلّ برجٍ رئيس زنزانته. وشأن الكثير من الأقبية العقابية في العهود نفسها، كان في قبو المقبرة هذا طابقان؛ وكان الطابق الأول الذي يتم الولوج إليه من الكوّة، حجرةً مقببةً واسعة إلى حدّ كاف، وهي على مستوى واحد مع قاعة الطابق الأرضي. وكان يُرى على الحائط الداخلي لتلك الحجرة ثلمان متوازيان وعمودان يمتدان من جدار إلى الجدار الآخر، مروراً بالقبة التي كانا يرتسمان فيها بعمق، ويوحيان بأنهما أخدودين. وقد كانا أخدودين بالفعل؛ فهذان الثلمان كانا قد حفرا بواسطة دولابين. وقديماً، في العهود الإقطاعية، في تلك الحجرة إنما كان يجري الفسخ، بطريقة أقلّ صخباً من الخيول الأربعة. كان هناك دولابان قويان جداً وكبيران جداً، بحيث يلامسان الجدران والقبة. وكانت توثق بكل واحد من هذين الدولابين إحدى ذراعي المحكوم وإحدى ساقيه؛ ثم كان يجري تدوير الدّولابين باتجاه معاكس، وهذا ما يقتلع أطراف الإنسان. كان لا بدَّ من مجهود يبذل؛ ومن هنا حدثت الأخاديدُ المحفورة في الحجر الذي كان الدولابان يمسّانه. ولا نزال نرى اليوم حجرة من هذا الطراز في فياندن[1].

---

(١) في حزيران من العام ١٨٧١، أتى هيغو ليقيم في فياندن في دوقية لكسمبور الكبرى، بعد أن أبعد من بلجيكا، لأنه قد قدم الملجأ للكومونيين الملاحقين. وقصور المنطقة التي كان=

تحت تلك الحجرة، كانت هناك حجرة أخرى، وكانت تلك هي زنزانة النسيان الحقيقية. ولم يكن يجري الدخول إليها يتم عبر باب بل كان يجري الولوج إليها عبر ثقب، فالمحكوم العاري، كان ينـزل بواسطة حبل تحت إبطيه، إلى الحجرة السفلى، عن طريق منفذ تم إحداثُه في وسطِ تبليط الغرفة العليا. فإذا كان متمسكاً بالعيش، كانوا يلقون له بالغذاء عبر ذلكَ الثقب. ولا نزال نرى اليوم ثقباً من هذه الشاكلة في بويّون[1].

= قد زارها أثناء أسفاره في الأعوام ١٨٦٣-١٨٦٤-١٨٦٥ يستحضرها في أبياته الشعرية من مجموعة: السنة الرهيبة (١٨٧٢)؛ وفالنكفيلز في عداد قصور أخرى، في قصيدته التي تحمل هذا العنوان:

فالكنفيلز الذي نميزه من بعيد في رذاذ المطر،
هو القلعة المدمرة لكونت عجوز مهدّم . . .
وصلتُ. وبلغتُ القلعة الوحشية و المهيبة
وحتى في وضح النهار، يكون ثمة ظل مرعب فوقها
وعلى الثغرة التي تستخدم كباب، لمحت
تحت أبراج عريضة يعلوها شعار عال
فلاحا عجوزا طويل القامة ومتفكرا، هو الكونت .

إن السيد ريمون إيسكولييه، أثناء دراسته الذي نورده في المراجع العامة، لا يشك بأن قصرا في الكسمبور هو الذي أوحى بعمارة لاتورغ. وقد عَرض تطابقاً دقيقاً تماماً حتى ب. جاري في كتابه: روح المساكن القديمة(ميركور دوفرانس، ١٩٤٥) والذي يذكره ر. إيسكولييه ويتبني استنتاجه، ولعل الأمر يتعلق بقصر بوفور، فإذا ما رجعنا إلى هوامش أسفار فيكتور هيغو والتي جمعت في طبعة المطبعة الوطنية (أثناء السفر رقم ٢) نجد في الحقيقة (ص: ٥٤٠-٥٤١) وبتاريخ ١٢ حزيران ١٨٧١. قصة زيارة إلى بوفور «إنه يتبدى في أحد منعطفات الشارع، في غابة، وفي أعماق منحدر، إنه رؤيا. . ويتألف من قصرين، أحدهما من القرن السابع عشر، قابل للسكن ومسكون، وقصر من القرن الحادي عشر والثاني عشر، رومي الطراز وقوطي، ومهدم. ولكنه أثرٌ رائع. وبرجٌ هائل رئيس قمتُ برسمه» إن التقريب مدهش بالتأكيد، وعلى الخصوص فإن هذا المظهر المزدوج لبوفور، المتنافر والرائع من خلال تنوعه نفسه، هو الذي يمكن أن يوحي بالمماثلة، إذا ما فكرنا بـ «بون - شاتليه» الأنيق للاتورغ، والذي يجاور البرج الضخم، ومع ذلك فإن لوحات الوصف لآثار وعمارات الماضي عديدة جداً في قصص أسفار فيكتور هيغو بحيث يتساءل المرء إن لم يكن هناك على الأصح، كما أوحينا بذلك في ملاحظتنا السابقة نوع من «العدوى» بين الذكريات والانطباعات البصرية التي يمكن أن تكون قد صدرت عنها أخيراً لاتورغ.

(١) في الكسمبور البلجيكية التي كان فيكتور هيغو قد زارها أثناء المنفى، كما جرى التذكير بذلك منذ قليل، وحين حدث له أن غادر غيرنيزيه إلى بلجيكا وإلى ضفاف الرّين.

كانت تأتي ريح عبر ذلك الثقب؛ فالحجرة السفلى، المحفورة تحت قاعة الطابق الأرضي، كانت على الأصحّ بئراً أكثر مما هي حجرة، وكانت تفضي إلى المياه، وكانت نفحة جليدية تملؤها. وتلك الريح التي كانت تميت سجين الحجرة السفلى، كانت تحيي سجين الحجرة العليا. وكانت تجعل السجن صالحا للتنفس. أما السجين الموجود في الأعلى، الذي يتحرك على غير هدى تحت قُبتّه، فلا يحصل على الهواء إلا من خلال ذلك الثقب. فضلا عن ذلك؛ فإن من يدخل إلى هناك أو من يسقط إلى هناك، لا يخرج بعد ذلك. والأمر كان يرجع للسجين ليتحاشى ذلك في العتمة. إن تعثراً واحداً كان يمكن أن يجعل من السجين الموجود في الأعلى سجينا موجودا في الأسفل. كان ذلك يتعلق به. فإن كان متمسكا بالحياة، كان ذلك الثقب خطراً عليه. وإن شعر بالضجر، كان ذلك الثقب ملجأ له. كان الطابق العلوي هو الزنزانة، والطّابق السفلي هو القبر. إنه تراكبٌ مشابه لمجتمع ذلك الزمن[1].

هذا هو الموضع الذي كان أسلافنا يسمونه «دهليزاً»؛ وإذ زال هذا الشيء، فإن الاسم لم يعد له بالنسبة إلينا معنى. وبفضل الثورة، نتفق على التلفظ بهذه الكلمات بغير اكتراث.

من خارج البرج، وفوق الثغرة التي كانت من أربعين عاماً المدخل الوحيد، كان المرء يلمح فتحة أوسع من كوى الرّمي الأخرى وتتدلى منها شبكة حديدية قد اقتلع تثبيتها وبُقرت[2].

*   *   *

(١) رمزيةٌ بروحية ميشليه.

(٢) شأن نافذة «سرداب الدفن البعيد» في مسرحية البورغراف (حماة القلاع) - (الفصل الثالث).

IV

لوبون _ شاتْليه

كان يرتبط بهذا البرج، من الجهة المعاكسة للثغرة، جسرٌ حجريٌّ ذو ثلاثة عقود متضرّرة. وكان الجسر قد حمل قسماً رئيسياً من المنزل تبقت منه بضعة أجزاء. ولم يعد لذلك القسم الرئيسي الذي كانت علاماتُ الحريقِ مرئيةً عليه إلا هيكل بنائه المسودّ، والذي هو ضربٌ من تجمّع عظام كان النور يمّر من خلالها، وتنتصب بجانب البرج، مثل هيكل عظمّي إلى جانّب شبح.

لقد تقوّضت هذه الخربة اليوم تماماً. ولم يبقَ منها أيُّ أثر. إن ما صنعه العديد من القرون والعديد من الملوك، يكفي يوم واحد وفلاحٌ واحد لهدمه.

لاتورغ هي اختصارٌ فلاحيّ، ويعني لاتور غوفان (برج غوفان) مثلما تعني كلمة Jupelle (تنورة صغيرة) الجوبيليير، ومثلما يعني اسم أحدب زعيم عصابة بينسون - لو- تور (طير البرقش المؤذي) بينسون - لو- تورتو (طير البرقش السلحفاة)، إن لاتورغ الذي كان منذ أربعين عاماً أثراً مهدماً والذي هو اليوم خيال، قد كان في عام ١٧٩٣ قلعة محصنة. لقد كان هو الحصن الأمامي القديم لأسرة غوفان، والذي يحرس من الغرب مدخل غابة فوجير، الغابة التي لاتعدو الآن أن تكون هي نفسها، حرشاً.

كانت تلك القلعة قد بنيت على أحد تلك الكتل النضيدية الضخمة التي تتوفر بكثرة بين مايين ودينان، والتي تتناثر في كل مكان بين الأدغال الشائكة،

ونبتات الخلنج، وكأن جبابرة الأساطير قد ألقى بعضهم على رؤوس بعض أحجارَ التبليط.

كان البرج هو القلعة بكاملها وكانت الصخر تحت البرج. وفي أسفل الصخر كان هناك أحد تلك المجاري المائية التي يحولها شهر كانون الثاني إلى سيول، ويجففها شهر حزيران.

كانت هذه القلعة التي بسّطت إلى هذه الدرجة عصية على السقوط تقريباً، في العصر الوسيط. وكان الجسر يضعفها. إن أسرة غوفان القوطية كانت قد شيدتها بدون جسر وكان يجري الوصول إليها عبر جسيرات مهتزة تكفي ضربة بلطة لقطعها، وطالما كان آل غوفان فيكونتات، فقد كانت ترضيهم على ذلك النحو وقد اكتفوا به؛ غير أنهم حين أصبحوا مراكيز، وحين هجروا الكهف إلى البلاط، ألقوا بثلاثة عقود جسور في السيل، فأصبح يمكن الوصول إليهم من جهة السهل، كما جعلوا أنفسهم ليّني الجانب من جهة الملك، أما المراكيز في القرن السابع عشر، والمركيزات في القرن الثامن عشر فلم يعودوا يحرصون على أن يكونوا ذوي منعة، فحلّ تقليدُ فرساي محلّ ما يلي: مواصلة الأسلاف.

قبالة البرج ومن الجهة الغربية، كانت هناك هضبة عالية إلى حدٍّ كافٍ، وتمتد لتصل إلى السهول، وكانت تلك الهضبة تأتي تقريباً لتجاور البرج، ولم تكن مفصولة عنه إلا بوهدة عميقة جداً كان يسيل فيها المجرى المائي الذي هو رافدٌ للكوينون.

أما الجسر الذي يصل بين القلعة والهضبة، فقد أقيم عالياً على ركائز، وقد بنيت على هذه الركائز، كما في شونونسو، عمارة بأسلوب مانسار، صالحة للسكن أكثر من البرج، غير أن العادات كانت لا تزال شديدة القسوة، فحافظ السّادةُ الإقطاعيون على تقليد السكن في حجرات البرج الرئيسي، والتي تشبه الزنزانات، أما المبنى المشيد على الجسر، والذي كان ضرباً من قصرٍ صغير، فقد أُحدثَ فيه ممرٌّ طويل كان يُستخدم كمدخل أسموه قاعة الحرس.

وفوق قاعة الحرس هذه التي كانت ضرباً من دورٍ مسروق ، وضعت مكتبة . وفوق المكتبة ، وضع مخزنٌ للغلال ، وهناك نوافذ طويلة ذات ألواح من الزّجاج البوهيمي ، وأعمدةٌ مستطيلة بين النوافذ ، ورسوم نافرة (نفيرات) منحوتة في الجدار ، وثلاثة طوابق ، وفي الأسفل ، حرباتٌ ، وبنادق فتيلة ، في الوسط ، هناك كتب ، وفي الأعلى ، أكياس شوفان . وكان ذلك وحشياً بعض الشيء ، وجدّ نبيل .

كان البرج الجانبي مخيفاً .

كان يهيمن على تلك العمارة المتقنة بكل ارتفاعه الحدادي ، وكان يمكن تدمير الجسر من المصطبة .

كان المبنيان اللذان أحدُهما شديدُ التحدر ، والآخر صقيل ، يتصادمان أكثر مما يتجاوران . ولم يكن أسلوباهما متوافقين إطلاقاً؛ ومع أنه يبدو أن نصفي دائرة لابدّ أن يكونا متماثلين؛ فما من شيء يشبه عقداً كاملاً رومياً أقل مما يشبهان عقداً مقولباً تقليدياً ، إن هذا البرج الجدير بالغابات قد كان جاراً غريباً لذلك الجسر الجدير بفيرساي ، فلنتصور ألان بارب – تورت[1] يمد ذراعه للويس الرابع عشر . كان مجموعهما يثير الرعب؛ فمن شيئين جليلين مختلطين ، كانت يخرج شيء شرسٌ لا ندري ما هو .

من جهة النظر العسكرية كان الجسر ، ولنؤكد على ذلك ، يسلم البرج تقريباً . كان يحمله وينزع سلاحه؛ فحين كسب زينةً خسر قوةً؛ فقد كان الجسر يضعه على مستوى واحد مع الهضبة . وإذْ كان على الدوام منيعاً من جهة الغابة ، فهو الآن قابل للانجراح من جهة السهل . كان قديماً يتحكم بالهضبة ، وتتحكم به الهضبة الآن . ويمكن لعدو متمركز هناك أن يسيطر سريعاً على الجسر ، كانت المكتبةُ ومخزنُ الغلال ، لصالح المحاصِر وضد القلعة . إن مكتبةً ما ومخزن غلال يتشابهان في أن الكتب والقش قابلة للاحتراق . وبالنسبة لمحاصر يستخدم الحريق

(١) دوق بروتانيا في القرن العاشر .

يُعتبر حرقُ هوميروس، وحرقُ حزمةٍ من العلف، هما الشيء نفسه، بشرط أن يحترقا. وقد أثبت الفرنسيون ذلكّ للألمان بحرق مكتبة هايدلبرغ[1]. وقد أثبت الألمان للفرنسيين ذلك بإحراق مكتبة ستراسبور[2]، فهذا الجسر، إذا ما أضيف إلى لاتورغ، قد كان إذن خطأً استراتيجياً. ولكن الأمراء غوفان لم يكونوا يظنون في القرن السابع عشر، وفي عهد كولبير ولوفوا. وليس أكثر من أمراء روهان أو أمراء تريموال، بأنهم سيكونون بعد ذلك عرضةً للحصار. ومع ذلك فقد اتخذ بناة الجسر بعض الاحتياطات، فأولها أنهم تحسبوا للحريق، وتحت النوافذ الثلاث من جهة النزول، قاموا بتعليق سلّم إنقاذ قوي على نحوٍ عرضي، بكلابات كانت لا تزال ترى لنصفِ قرنٍ خلا، وطول هذا السلّم هو ارتفاع الطابقين الأولين للجسر، وهو ارتفاعٌ يتخطَى ارتفاع ثلاثة طوابق عادية. وثانيهما أنهم تحسبّوا للهجوم؛ فقاموا بعزل جسر البرج بواسطة باب حديدي ثقيل ومنخفض. وكان ذلك الباب مقوساً، ويجري إغلاقُه بمفتاح ضخم موجود في مخبأ يعرفه السيد وحده؛ وما أن يغلق حتى يكون بإمكان الباب أن يتصدى للمنجنيق، وأن يجابه القنبلة تقريباً.

كان لابد من المرور عبر الجسر للوصول إلى ذلك الباب، ومن المرور عبر ذلك الباب للولوج إلى البرج. وما من مدخل آخر.

* * *

(١) من ذكريات رحلة الرين للعام ١٨٤٠، وفي الرسالة رقم ٢٨، في «الرين» الموجهة إلى لويس بولانجيه، يصف هيغو الخرائب التي تأملها في هايدلبرغ، ويستحضر طويلاً القصف الفرنسي لعام ١٦٩٣، وتدمير البالاتينا الذي أمر به لوفوا، بعد قرن تماماً من سقوط الحكم الملكي، وقد أوحى له بإحدى هذه المقارنات التنبئية التي كانت تروق لخياله «يا لانتقامات القدرا ١٦٩٣–١٧٩٣! . . . قصاص، قصاص!»

(٢) إبان حصار المدينة على يد فيردير (٩ آب – ٢٨ أيلول، ١٨٧٠)

V

الباب الحديدي

كان الطابق الثاني من قُصير الجسر ، والذي زيد علوّه بسبب الركائز ، كان يقابل الطابق الثاني للبرج؛ فعلى هذا الارتفاع إنما وضع الباب الحديدي لمزيد من الأمان .

كان الباب الحديدي ينفتح من جهة الجسر على المكتبة ، ومن جهة البرج على قاعة كبيرة مقببة فيها دعامة في الوسط . وهذه القاعة كما قلنا للتو ، كانت الطابق الثاني من البرج الرئيسي . كانت مستديرة كالبرج وتنيرها كوى رمي طويلة وتطل على الحقول . أما السور الوحشي تماماً ، فقد كان مجرداً ، ولا شيء يخفي حجارته والتي هي إضافة إلى ذلك محكمة على نحوٍ متناظر . وكان يتم الوصول إلى تلك القاعة عن طريق درج لولبي أُحدِث في السور ، وهو أمر جد بسيط حين تكون سماكة الجدار تصل إلى خمسةَ عشر قدماً . وفي العصرِ الوسيط ، كان يتم الاستيلاء على مدينة ما شارعاً فشارعاً ، وعلى شارعٍ ما منزلاً فمنزلاً ، وعلى منزل ما غرفة فغرفة ، كانت تجري محاصرة قلعة ما طابقاً فطابقاً . وكان لاتورغ من هذه الناحية جيد الإعداد على نحوٍ بارع ، وشكساً جداً ، وصعباً جداً ، أما الصعود من طابق إلى آخر ، فكان يتم لولبياً عن طريق درج يصعب بلوغه ، وكانت الأبواب مواربة ، ولا يصل ارتفاعها إلى قامة الإنسان . وكان لابدَّ من خفض الرأس للمرور منها ، والحال فإن الرأس المنخفض رأسٌ يجري تحطيمه وكان المحاصَر ينتظر المحاصِر عند الباب .

تحت القاعة المستديرة ذات الركيزة، كانت هناك حجرتان متماثلتان، وكانتا الطابق الأول والطابق الأرضي، وفوقهما ثلاث حجرات. وكان البرج ينغلق على هذه الحجرات الست المتراكبة بغطاء حجري هو السّطيح والذي كانوا يصلون إليه من مرقب ضيق.

كانت الخمس عشرة قدماً التي تبلغها سماكة السور، والتي كان لا بدَّ من خرقها لوضع الباب الحديدي فيها، والذي كان مسدوداً في وسطها، كانت تحتضنه ضمن تقوّسٍ طويل بحيث أن الباب عندما يكون مغلقاً، سواء من ناحية البرج أم من ناحية الجسر، يكون تحت رواقٍ مسقوف عمقُه ست أو سبع أقدام، وعندما يكون مفتوحاً، فإن هذين الرواقين المسقوفين يندمجان ويشكلان قبة المدخل.

تحت الرواق المسقوف من جهة الجسر كانت تنفتح في سماكة الجدار الكوةُ المنخفضة لدرج حلزوني - سان - جيل[1]، يؤدي إلى معبر الطابق الأول تحت المكتبة، فقد كانت هذه أيضاً صعوبة تواجه المهاجم، ولم يكن القصير عند الجسر يُظهِر عند نهايته الواقعة في ناحية الهضبة إلا جداراً عامودياً وكان الجسر ينقطع هناك.

وكان جسرٌ متحرك مثبتٌ إزاءِ باب منخفض يجعله على اتصال بالهضبة، وهذا الجسر المتحرك الذي لم يكن ينخفض قطّ بسبب ارتفاع الهضبة إلا بشكل مائل، كان يؤدي إلى الممر الطويل الذي يسمى بقاعة الحرس، وما إن يصبح المحاصرُ مسيطراً على هذا الممرّ، حتى يغدو مجبراً على أن يحتلّ بعنف درج سان - جيل اللولبي الذي يصعد إلى الطابق الثاني، لكي يصل إلى الباب الحديدي.

* * *

(١) درجٌ مبني على نمط ذلك الذي يمكن زيارته في برج سان-جيل، في ضواحي نيم.

VI

المكتبة

أما المكتبة فقد كانت قاعة مستطيلة بعرض الجسر وطوله ولها باب وحيد وهو الباب الحديدي وكان هناك باب زائف صفّاقٌ ومنجّدٌ بجوخ أخضر، ويكفي أن يُدفَع دفعاً فيموه من الداخل تقبُّبَ مدخل البرج، وكان جِّدار المكتبة من أعلاه إلى أدناه، من الأرضية الخشبية إلى السقف، مغطى بخزائن مزججة وفق طراز المصنوعات الخشبية الجميلة في القرن السابع عشر. وكانت ستُ نوافذ ثلاث من كل جهة، وواحدة منها فوق كل رواق مسقوف تنير تلك المكتبة. ومن خلال هذه النوافذ، من خارج الهضبة إلى أعلاها، كان يُرى داخلها، وفي فواصل تلك النوافذ، كانت تنصب على حوامل من السنديان المنحوت ستةُ تماثيل نصفية من الرخام، هي تماثيل هيرمولاووس دوبيزانس، وأتينيه النحوي النوكراتي، وسويداس، وكازبون، وكلوفيس، ملك فرنسا، ورئيس قضاته، أنا كالوس، والذي لم يكن من ناحية أخرى رئيس قضاة أكثر مما كان كلوفيس ملكا[1].

---

(١) كان هيرمولاووس قد ألّف موجزاً لمعجم إيتيين دوبيزانس الجغرافي – وإيتينيه (القرن الثالث الميلادي)، ولد في المدينة الإغريقية في مصر، نوكرايتس، وهو مؤلف المنتخبات الضخمة، مأدبة السفسطائيين – وسويداس (القرن العاشر) مؤلف معجم مصطلحات غني بالمعلومات، حول تاريخ الأدب الإغريقي – وكازوبول (١٥٥٩–١٦١٤) اللاهوتي البروتستانتي، وقيّم مكتبه هنري الرابع، ومؤلف العديد من الشروحات والطبعات العلمية – وكلوفيس الذي يعتبر زعيما لقبائل محاربة (الفرنجة السّاليين) أكثر مما يعتبر «ملكاً» – وفي كل المقاطع التي هي =

في هذه المكتبة، كانت هناك كتب غير محددة. وكان أحدها قد استمر ذائع الصيت. وهو كتابٌ قديم بقطعِ الربع يتضمن صوراً مطبوعة، ويحمل بحروف ضخمة العنوان التالي: سان - برتيلمي، وعنوانا ثانوياً هو: الإنجيل حسب برتيلمي، مسبوق ببحث لبانتينوس، الفيلسوف المسيحي، حول مسألة معرفة إن كان هذا الإنجيل ينبغي أن يعدّ مختلقا، وإن كان سان برتيلمي هو مثل ناثنائيل[1]. وهذا الكتاب الذي يُعتبرُ نسخةً فريدة، كان موضوعاً على قمطر، في وسط المكتبة، وفي القرن الأخير، كان الناس يأتون لرؤيته من باب الفضول.

* * *

= من هذا النوع «اتّساعُ معرفة» هيغو يعتبر تسلية. وهذا النوع من إظهار المعرفة بصورةٍ جريئة (والذي سوف يستمدّ منه أناتول فرانس فيما بعد مؤثرات أشد فعالية) كان أحد الأشكال الأثيرة لخياله التاريخي.

(٢) الملاحظة ذاتها التي كانت في الهامش السابق. فهيغو يفيد هنا من «بطاقة» توثيق نجدها في الصفحة ٣٦١ من محفوظة الهوامش التي أُخذت من أجل رواية عام ٩٣: سان بارتيلمي - الرّسول. في العام ٣٩ للميلاد، والذي سُلخ حياً في عام ٧١، وقد سمي أيضاً ناثنائيل. وترك إنجيلاً يعتبر في عداد الأناجيل المختلقة. وكان قد هدى إلى المسيحية ليكاونيا. وهناك كاتب سيرة (في القرن الثاني) المدعو بانتينوس. وهناك شارح ومفسر يدعى بارونيوس وبانتين، مؤسس مدرسة الاسكندرية، وكان أحد أولئك الرّواقيين الذين اهتدوا إلى المسيحية وحاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة الإغريقية واليهودية.

VII

مخزن الغلال

أما مخزن الغلال الذي كان ، شأن المكتبة ، يتخذ الشكل المستطيل للجسر ، فقد كان ببساطة هو أسفل السطح . وكان يتألف من ساحة كبيرة مكتظة بالقش والعلف ومنارة بست سقائف . وما من زخرفةٍ فيه إلا صورة سان برنابيه[١] المنحوتة على الباب وتحت هذا البيت الشعري:

[٢]Barnabus Sanctus Falcem ice per herbam

وكذلك من برج عال وواسع ، مؤلّفٍ من ستة طوابق ، ومثقوب هنا وهناك بعدد من كوى الرمي ، وله مدخلٌ ومخرَج وحيد ، هو باب حديدي يطلّ على جسر قصير مغلق بجسر متحرك . وراء البرج ، هناك الغابة . وأمام البرج ، هضبة ملأى بجنيبات الخلنج هي أعلى من الجسر وأخفض من البرج ، وتحت الجسر ، بين البرج والهضبة ، هناك مسيلٌ عميق ، وضيق ، ومليء بالعليق ، هو سيلٌ في الشتاء وساقية في الربيع ، وحفرة ملأى بالحجارة في الصيف . هذا ما كان عليه لاتور – غوفان الذي يسمونه لاتورغ .

* * *

---

(١) سان برنابيه ، أصله من قبرص ، وهو المؤلف المفترض لعظة أخلاقية ، وقد ضحى بقطعة أرض كان يمتلكها لأورشليم القدس لكي يعيل الجماعة المسيحية .

(٢) «يجعل سان برنابيه المنجل يتقدم داخل العشب» . (باللاتينية) .

X

الرّهائن

انقضى تموز، وجاء آب. وكانت تمّر على فرنسا نفحة بطولية وشرسة، وكان يجتاز الأفق للتوّ شبحان، مارا المطعون بسكين في خاصرته، وشارلوت كوردي المقطوعة الرأس؛ فقد أخذ كلّ شيء يغدو رهيباً. أما الفاندية التي قهرت في إستراتيجيتها الكبرى، فقد لجأت إلى الصغرى الأكثر إثارة للرعب كما قلنا.

لقد أصبحت تلك الحرب الآن معركة هائلة، ممزَّقة في الأحراش، وبدأت كوارث الجيش الضخم، المسمّى بالجيش الكاثوليكي والملكي. وكان هناك مرسوم يرسل إلى الفاندية جيش مايانس، وقد مات ثمانية آلاف فاندي في أنسيني؛ وصدّ الفانديّون عن نانت، وأخرجوا من مونتييغ، أبعدوا من توار، وطردوا من نوار موتييه، ودحروا إلى خارج شوليه وموريتانيا وسومور. لقد كانوا يخلون بارتونيه، ويغادرون كلّيسون؛ وكانوا يفرون من شاتيّون، وقد سقطت رايتهم في سانت – إليير، وهُزموا في بورنيك. وفي ليسايل، وفونتونيه، ودوّيه وفي شاتو– دو، و في بون – دو – سيه. وقد أخفقوا في لوسون، وتقهقروا في شاتينيوريه، وهزموا في لاروش – سور– يون. ولكنهم كانوا يهددون لاروشيل من ناحية، وكان أسطول إنكليزي، من ناحية أخرى، في مياه غرنيزيه، بإمرة الجنرال غريغ، يحمل بضعة أفواج إنكليزية، مختلطة بأفضل ضباط البحرية الفرنسية، وهو لا ينتظر إلا إشارة من المركيز دو لانتوناك لكي يرسو. وكان يمكن لهذا الإنزال أن يعيد النصر إلى التمرد الملكي. لقد كان

بِتْ من جهة أخرى من مجرمي الدولة؛ ففي السياسة، هناك الخيانةُ مثلما هناك خنجرٌ ضمن مجموعة أسلحة؛ فقد كان بِتْ يطعن بلادنا، ويخون بلده؛ فجلبُ العار إلى البلد يعتبر خيانة. وكانت إنكلترا في عهده وبواسطته تخوض حربها البونيّة (القرطاجية)[1]. لقد كانت تتجسّس، وتخدع، وتكذب. إنها تقوم بصيد مخالف وتزوّر، ولم تكن تشمئز من شيء. وكانت تهبط وصولاً إلى صغائر الحقد الدقيقة. كانت تعمل على احتكار الشحم الذي كانت الليبرة منه تكلف خمسة فرنكات. وقد ضُبطت مع انكليزي في ليل رسالةٌ من بريجان، عميل بِتْ في الفاندية، وكانت تقرأ فيها هذه السطور «أرجوك ألاّ توفر المال؛ فنحن نأمل أن تجري عمليات الاغتيال بحذر، فالكهنة المتنكرون، والنساء هم الأشخاص الأكثر ملائمة لهذه العملية. فلترسلوا ستين ألف ليرة إلى روان، وخمسين ألفاً إلى كان». وقد قرأ بارِيّر هذه الرسالة في المؤتمر الوطني، في الأول من آب. وكانت ترد على هذه الأعمال الغادرة أعمال باريّن الوحشية، وفيما بعد فظاعات كارييه. وكان جمهوريّو متز، وجمهور الجنوب يطالبون بالزّحف على المتمردين. وقد صدر مرسومٌ لتشكيل أربع وعشرين جماعة من الرّواد لإحراق الأسيجة وتخوم الحريج. إنها أزمةٌ لم يسبق لها مثيل؛ فلم تكن الحرب تتوقّف في موضع حتى تبدأ من جديد في موضع آخر. فلا رحمة! ولا أسرى! تلك كانت صيحة الجانبين. لقد كان التاريخ مليئاً بظلمة مخيفة.

في ذلك الشهر، شهر آب، كان لاتورغ محاصراً.

وذات مساء، وأثناء بزوغ النجوم، وفي هدوء شفق قائظ، حيث لاتتحرك ورقةٌ واحدة في الغابة، ولا ترتعش نبتةُ عشب في السّهل، ومن خلال صمت الليل الذي يحلّ، سُمع صوتُ بوق، وكان صوت البوق هذا صادراً عن أعالي البرج. وردّ على صوتِ البوق هذا صوت نفيرٍ يأتي من الأسفل.

في أعلى البرج، كان هناك رجلٌ مسلّح، وفي الأسفل، في العتمة، كان هناك معسكر.

---

(١) لم يراع هيغو جانب إنكلترا، لا في الخاتمة السياسية لكتابه: «الرّين» (١٨٤٢) ولا في روايته «الرّجل الضّاحك» (١٨٦٩)، وهنا يلتقي أيضاً ميشليه.

كان المرء يميّز بصورةٍ مبهمةٍ حول لاتور- غوفان ازدحاماً لأشكالٍ سوداء. وكان هذا الازدحام مخيّماً في العراء. وقد أخذت بعضُ النيران تشتعلُ فيه تحت أشجار الغابة، وبين جنبات خلنج الهضبة، وتنقرُ الظلمات، في هذا المكان أو ذاك، بنقاطٍ مضيئة. وكأن الأرض كانت تبتغي أن تترصّع بالنجوم، في الوقت نفسه الذي تترصع فيه السّماء. فيا للّنجوم القاتمة، نجوم الحرب! كان مخيّم العراء المقام من ناحية الهضبة يمتدُّ حتى السّهول، ومن ناحية الغابة يتوغّلُ في الدّغل؛ كان لاتورغ محاصراً.

كان امتداد جيش المحاصِرين يدلّ على وجود جيشٍ كثير العدد.

كان المعسكر يلازم القلعة عن كثب، ويأتي من ناحية البرج وصولاً إلى الصّخرة. ومن جهة الجسر وصولاً إلى الوادي.

انطلق صوت بوقٍ ثانٍ تلته دقّة نفيرٍ ثانية.

كان ذلك البوق يسأل، وكان ذلك النفير يجيب.

ذلك البوق كان هو البرج الذي يسأل المعسكر: هل يمكنني أن أكلّمك؟ وذلك النفير كان هو المعسكر الذي يجيب بنعم.

في ذلك العهد، الذي لم يكن يعتبر المؤتمر الوطني الفانديين محاربين، وكان هناك مرسومٌ يمنع تبادل المفاوضين مع «قطاع الطرق»، كان يجري بقدر الإمكان تعويض الاتصالات التي يسمح بها حقّ الناس في الحرب العادية، ويحظرها في الحرب الأهلية. ومن هنا، يحدث، عند الحاجة، اتفاقٌ بين البوق الفلاحي والنفير العسكري. ولم يكن النداءُ الأوّل إلاّ توطئة، أما النداءُ الثاني فكان يطرح السؤال: هل تريدون الإصغاء؟ فإذا سكت النفير، عند هذا النداء الثاني، يكون معنى ذلك الرّفض، وإن ردّ النفير يكون الموافقة. وكان هذا يعني: هدنة لبضع لحظات.

وبما أن النفير قد ردّ على النداء الثاني، فإن الرّجل الذي كان في أعلى البرج قد تكلّم، وسُمِع ما يلي:

– أيها الرّجال الذين تسمعونني ، أنا غوج – لو– بروبان ، الملقّب بـ: بريز – بلو (محطّم الأزرق) لأني قد قضيت على الكثيرين من جماعتكم ، والملقّب بـ: ليمانوس لأني سأقتل أيضاً منهم أكثر مما قتلت . لقد قُطعتُ إصبعي بضربة سيف على أنبوب بندقيتي في هجوم غرانفيل . وقد قمتم في لافال بإعدام والدي ووالدتي وأختي جاكلين ذات الثمانية عشر عاماً على المقصلة . هذا ما أنا عليه .

إني أكلمكم باسم سيدي المركيز غوفان دولانتوناك ، فيكونت فونتونيه ، والأمير البروتاني ، وسيّد الغابات السّبع ، وسيّدي .

اعلموا أولاً أن سيّدي المركيز ، وقبل أن يصبح حبيس هذا البرج الذي تبقونه محاصراً فيه . قد قسّم الحرب بين ستة قادة ، هم نوّابه؛ فقد أعطى ديلبير المنطقة الواقعة بين طريق بريست وطريق إيرينيه ، وأعطى تريتن المنطقة الواقعة بين لارويه ولافال ، وجاكيه الملقّب بتايفر ، تخوم لوهو– مين ، وغولييه ، الملقب بـ غران – بيير ، أعطاه شاتو – غونتييه ، وأعطى لوكونت كران ، وأعطى ديبوا – غي فوجير ، وأعطى السيّد دورو شامبو لامايين بكاملها ، بحيث لم ينته شيء بالنسبة إليكم بالاستيلاء على تلك القلعة ، وبحيث أنه حتى ولو مات السيّد المركيز ، فإن لافانديه الرّب و الملك لن تموت .

إن ما أقوله عن هذا ، ولتعلموا ذلك ، هو لإعلامكم . فسيّدي موجود هنا ، إلى جانبي ، وأنا الفم الذي تمرّ منه كلماته ؛ فيا أيّها الرّجال الذين تحاصروننا ، اصمتوا وإليكم ما يهمّ أن تسمعوه:

لا تنسوا أن الحرب التي تشنّونها علينا ليست عادلة إطلاقاً. فنحن أناس نسكن في بلدنا ، ونحن نقاتل قتالاً شريفاً ، ونحن بسطاء و أنقياء تحت مشيئة الرّب كالعشب تحت النّدى؛ فالجمهوريةُ هي التي هاجمتنا؛ وقد أتت لتنغص عيشنا في أريافنا ، وقد أُحرقت منازُلنا ومحاصيلنا ، وقُصفت إكاراتنا ، وكانت نساؤنا وأطفالنا مجبرين على الهروب حفاة في الأحراش . في حين كانت دُخّلة الشتاء لا تزال تغنّي .

أنتم الموجودين هنا والذين تسمعونني، لقد طاردتمونا في الغابة، وأنتم تحاصروننا في هذا البرج. لقد قتلتم أو شتتّم أولئك الذين انضموا إلينا. ولديكم مدفعيّة. وقد جمعتم في طابوركم الحاميات العسكرية في مورتان، وبارانت، وتيّول، ولانديفي، وإيفران، وتينتينياك، وفيتريه، وهذا ما يجعل عددكم أربعة آلاف وخمسمئة جندي تهاجموننا بهم، ونحن تسعة عشر رجلاً ندافع عن أنفسنا.

لدينا أقوات وذخائر.

لقد نجحتم في وضع لغم وفي تفجير قسمٍ من صخرتنا وقسمٍ من جدارنا.

لقد أحدث ذلك فجوةً في أسفل البرج، وهذه الفجوة هي ثغرة يمكنكم أن تدخلوا من خلالها مع أنها ليست في العراء، ويسقفها البرج من فوقها، فهو لا يزال متينا وقائماً.

أنتم الآن تحضّرون الهجوم.

ونحن، أولاً سيّدي المركيز الذي هو أمير بروتانيا ورئيس الدّير الزّمني لديرسانت - ماري دولانتوناك والذي تأسس فيه قدّاس في كلّ يوم على يد الملكة جان، ثم المدافعين الآخرين عن البرج، وبينهم السيد رئيس الدير تورمو في حرب غران - فرانكور، ورفيقي غينوازو الذي هو قائد كان - فير (المعسكر الاخضر)[1]. ورفيقي شانت - أن - لايفير (المغني في الشتاء) والذي هو قائد كان دو لافوان (معسكر الشوفان) وصديقي لاموزيت الذي هو قائد كان دي فورمي (معسكر النمل) وأنا الفلاح الذي ولدت في دسكرة دان التي تسيل فيها ساقية موريباندر، كلنا جميعاً، لدينا شيء نقول لكم.

أيها الرجال الذين تقفون في أسفل البرج اسمعوا.

---

(١) الترجمة بين قوسين بقصد الإيضاح حسبما يوحي بذلك النص الفرنسي، ولكنها اقتراحات من المترجم (م:ز.ع).

لدينا ثلاثة أسرى بين أيدينا وهم أطفال ثلاثة، وقد تبنّت إحدى كتائبكم هؤلاء الأطفال الثلاثة، وهم لكم. ونحن نعرض عليكم إعادة هؤلاء الأطفال إليكم.

بشرط واحد.

هو أن نخرج من هنا بحريّة.

إذا رفضتم، اسمعوا جيداً، لن يكون بإمكانكم الهجوم إلا بطريقتين: عن طريق الثغرة من جهة الغابة، أو عن طريق الجسر من جهة الهضبة. إن في المبنى القائم على الجسر ثلاثة طوابق؛ وأنا ليمانوس الذي أكلمكم موجودٌ في الطابق الأسفل، وقد عملت على وضع ستة براميل من القار، ومئة حزمة من أغصان الخلنج الجافة، وفي الطابق الأعلى، هناك قشّ، وفي الطابق الأوسط هناك كتبٌ وأوراق، والباب الحديدي الذي يصل الجسر بالبرج مغلق، ويحمل سيدي المفتاح معه؛ وقد أحدثت أنا تحت الباب فجوةً، وتمرٌّ من هذه الفجوة فتيلة مكبرتة، أحد طرفيها متّصلٌ بأحد براميل القار، والطرف الآخر في متناول يدي، داخل البرج؛ وسوف أشعله حين يبدو ذلك لي حسناً. فإذا رفضتم أن تدعونا نخرج، نضع الأطفال الثلاثة في الطابق الثاني للجسر، بين الطابق الذي تؤدي إليه الفتيلة المكبرتة وحيث يكون القار، والطابق الذي فيه القش، ونغلق الباب الحديدي عليهم، وإذا هاجمتم عن طريق الجسر، ستكونون أنتم من أحرق البناء، وإذا هاجمتم عن طريق الثغرة، فسنكون نحن من يحرقه؛ وإذا هاجمتم في آن عن طريق الثغرة والجسر، فإن إشعال النار سيجري على يدكم، وعلى يدنا في آن. وفي كل الحالات، يقضي الأطفالُ الثلاثة.

والآن، اقبلوا أو ارفضوا.

إذا قبلتم خرجنا.

وإذا رفضتم مات الأطفال،

لقد بلّغتكم.

وصمت الرجلُ الذي كان يتكلم من أعلى البرج.

وصاح صوت من الأسفل:

– نحن نرفض.

كان ذلك الصوت مقتضباً وصارماً، فأضاف صوتٌ آخر أقل قسوة ولكنه حازم مع ذلك:

– إننا نعطيكم أربع وعشرين ساعة لكي تستسلموا حسب إرادتكم.

خيمّت فترة من الصمت، وواصل الصوت نفسه يقول:

– غداً في مثل هذه الساعة، إن لم تستسلموا، نطلق الهجوم.

فتابع الصوت الأول قائلاً:

– حينذاك لا تكون هناك رحمة.

على ذلك الصوت المخيف(٧٣) ردّ صوت آخر من أعلى البرج، وشوهدت بين كوّتي رمي قامةٌ عالية تنحني(١)، وقد كان بالإمكان أن يتعرف فيها المرء على ضوء النجوم، وجه المركيز دولانتوناك المخيف؛ وذلك الوجه الذي كانت تسقط نظرة منه في العتمة، وكأنها تبحث عن شخصٍ ما، صرخت:

– عجباً، هذا أنت أيها الكاهن!

فرد الصوت الخشن الآتي من الأسفل:

– نعم هذا أنا أيها الخائن![٢]

* * *

---

(١) وهكذا يتبدى للمحاصرين Castellan d'osbor، Welf في إحدى قصائد مجموعة أسطورة القرون ١٨٧٧ والتي تحمل هذا العنوان.

(٢) هناك سجع بين الكلمتين: Prêtre «كاهن» و Traitre «خائن» بالفرنسية (م: ز.ع)

XI

فظيع كالقديم

كان الصوت القاسي في الواقع هو صوت سيموردان؛ أما الصوت الأكثر شباباً والأقل جزماً فقد كان صوت غوفان.

لم يكن المركيز دولانتوناك قد أخطأ حين تعرّف رئيسَ الدير سيموردان.

في غضون أسابيع قليلة، وفي تلك المنطقة التي كانت الحروب الأهلية تجعلها حرباً دامية، كان سيموردان كما نعلم، قد غدا ذائع الصيت؛ وما من شهرة محزنة أكثر من شهرته؛ وقد كان الناس يقولون: مارا في باريس، وشالييه[1] في ليون، وسيموردان في الفانديه. لقد كانوا يثلبون على رئيس الدير سيموردان كل ما يشكل الاحترام الذين كانوا يكنونه له فيما مضى؛ وهذا هو نتيجة رداء الكاهن الذي بدّله. كان سيموردان يثير الرعب، إن المتشددين منكودون؛ فمن يرى أفعالهم يدينهم، ومن يرى سريرتهم، فربما يُحلهّم من خطاياهم، إن رجلاً مثل ليكورغ لا تُفسّر أفعالهُ يبدو كأنه ليبير[2]. وأياً كان الأمر فإن رجلين، المركيز دولانتوناك ورئيس الدير سيموردان كانا متعادلين في ميزان الكراهية، كانت لعنة الملكيين على سيموردان توازي مقت الجمهوريين للانتوناك. كان

---

(١) نظم شالييه الإرهاب في الرون، وأُعدِمَ في عام ١٧٩٥، أثناء انتفاضة ملكية.

(٢) يذكر هيغو باستمرار مشرّع أسبارطة وإمبراطور روما (في القصاص، وفي أسطورة القرون) أولهما باعتباره نموذج المواطن الكريم، برغم صرامة إصلاحاته، والثاني باعتباره رمزاً للاستبداد.

كل واحد من هذين الرجلين هو الوحش بالنسبة للمعسكر المضاد. بحيث نجمت هذه الواقعة الفريدة التي يضع بحسبها بريور دولامارن في غرانفيل جائزةً على رأس لانتوناك؛ في حين يضع شاريت في نورموتييه جائزة على رأس سيموردان.

إن هذين الرجلين ولنقل ذلك، المركيز والكاهن، كانا الرجل نفسه إلى حدّ معين، إن لقناع الحرب الأهلية البرونزي مظهرين، أحدهما يستدير نحو الماضي والآخر يستدير نحو المستقبل، ولكنهما كليهما مأسويان. كان لانتوناك هو أول هذين المظهرين، وسيموردان ثانيهما؛ إلا أن تكشيرة لانتوناك المريرة كانت مغطاةً بالعتمة والليل، وعلى الجبين الحاسم لسيموردان كان هناك ضوء الفجر[1].

ومع ذلك فإن لاتورغ المحاصر قد حصل على استراحة.

بفضل تدخل غوفان كما رأينا منذ قليل، تم الاتفاق على نوعٍ من هدنة لأربعٍ وعشرين ساعة.

كان ليمانوس فوق ذلك مطلّعاً على الأمور بشكلٍ جيد، ونتيجة لاستدعاءات سيموردان، أصبح تحت إمرة غوفان الآن أربعة آلاف وخمسمئة رجل سواء من الحرس الوطني أو من جند الجبهة، والذين كان يحاصر بهم لانتوناك في لاتورغ. وقد استطاع أن يوجّه على القلعة اثني عشر مدفعاً، ستة من جانب البرج على تخوم الغابة، على شكل مدفعية مطمورة، وستة من جانب الجسر، على الهضبة بالمدفعية العالية، وكان قد تمكّن من تفجير اللغم؛ فأصبحت الثغرة مفتوحةً في أسفل البرج.

وهكذا فما أن انقضت ساعات الهدنة الأربع وعشرين، حتى بدأ القتال يدور تحت الشروط التالية:

---

(١) تمييز أساسي لدلالة عام ٩٣: إن العتمة والليل يرمزان إلى الماضي الملكي؛ أما ضوء الفجر الذي يغمر جبين سيموردان؛ فهو الأمل بالأزمنة الجديدة وبالمستقبل، أمل الجمهورية العالمية التي كان فيكتور هيغو يحلم بها.

على الهضبة وفي الغابة ، كان عدد الجنود أربعة آلاف وخمسمئة .

وفي البرج تسعة عشر .

إن التاريخ يمكن أن يعثر على أسماء هؤلاء التسعة عشر محاصراً في إعلانات الخارجين على القانون . ولربما نلتقيهم .

لقيادة هؤلاء الرجال الأربعة آلاف الذين كانوا جيشاً تقريباً ، كان سيموردان يرغب في ألا يعترض غوفان على أن يكون معاوناً للقائد العام . وكان غوفان قد رفض وقال : «حين يُقبض على لانتوناك ، نرى . فأنا لم استحق شيئاً حتى الآن» .

هذه المراكز القياديّة الكبيرة ذات الرّتب المتواضعة كانت ، من ناحية أخرى ، من التقاليد الجمهوريّة؛ فبونابرت ، فيما بعد ، كان في الوقت نفسه قائد سريّة مدفعيّة ، وقائداً عاماً لجيش إيطاليا .

كان للاتور - غوفان مصيرٌ غريب؛ فرجلٌ من أسرة غوفان كان يهاجمه ، وواحدٌ منهم كان يدافع عنه . ومن هنا يأتي بعض التحفّظ في الهجوم عليه ، ولكن ليس في الدفاع ، لأن السيد لانتوناك كان من أولئك الذين لا يراعون شيئاً . ومن جهةٍ أخرى ، كان قد سكن في فرساي[1] . ولم يكن لديه أيُّ تطّير من لاتورغ الذي لا يكاد يعرفه . كان قد أتى ليلجأ إليه ، ولم يكن لديه ملجأ آخر . هذا كلّ شيء . غير أنه كان يمكنه أن يدمّره بلا تردّد ، أما غوفان فكان أكثر مراعاة .

كانت النقطة الضعيفة للقلعة هي الجسر ، ولكن كان هناك ، في المكتبة القائمة فوق الجسر ، محفوظاتُ العائلة؛ فلو جرى شنّ الهجوم من ذلك المكان ، لكان الحريق أمراً لا مفرّ منه . وكان يبدو لغوفان أن إحراق المحفوظات معناه الهجوم على آبائه . فقد كان لاتورغ هو قصر عائلة غوفان الرّيفي . ومن هذا

(١) انظر الملاحظة : /١٥١/ .

البرج إنما كانت تتحرّك كلّ إقطاعات بروتانيا. مثلما كانت كلّ إقطاعات فرنسا تتحرك من اللوفر. كانت ذكرياتُ غوفان العائلية موجودة هناك. وكان هو نفسه قد ولد هناك، وقادته أقدارُ الحياة المتعرّجة إلى الهجوم، وهو رجلٌ، على ذلك السور الجليل الذي كان قد حماه وهو طفل. فهل يكون كافراً بذلك المنزل إلى الحدّ الذي يدمره فيه؟ ولربما يكون مهده الخاص، هو غوفان، موجوداً في زاويةٍ ما من زوايا سقيفة المكتبة.

إن بعض التأملات تصبح انفعالات. وغوفان، في حضرة منزل العائلة القديم أخذ يشعر بالتأثّر. وهذا هو السّبب الذي دعاه إلى عدم التعرّض إلى الجسر. كان قد اكتفى بأن يجعل كلَّ خروج، أو كلّ هروب متعذراً من ذلك المخرج، وأن يوقف الجسر عند حدّه بفضل وحدة للمدفعيّة، واختار الجهة المقابلة للهجوم، ومن هنا، وضع اللغم، والحفر، في أسفل البرج.

كان سيموردان قد تركه يفعل ذلك، وقد أخذ على نفسه هذا الأمر؛ لأن فظاظته كانت تتجهّم أمام الرّثاثات القوطيّة، ولم يعد يريد أن يتسامح مع المباني أكثر مما يتسامح مع الناس. إن عدم التعرّض لقصر كان بدايةً للتسامح. والحال؛ فإن التسامح كان نقطة ضعف غوفان. وكان سيموردان، كما نعلم، يراقبه ويوقفه عند ذلك المنحدر المشؤوم في نظره. ومع هذا، فهو ذاته لا يقرّ لنفسه بذلك، إلاّ بنوعٍ من الغضب. لم تكن رؤيته للاتورغ من جديد تجري دون ارتعاشة خفيّة. كان يشعر بالحنان أمام غرفة الدراسة التي كانت فيها أولى الكتب التي جعل غوفان يقرؤها. لقد كان خوري القرية المجاورة، بارينييه؛ وكان هو، سيموردان، قد سكن في تخشيبات قصير الجسر. وفي المكتبة، إنما كان يضع بين ركبتيه غوفان الصغير وهو يهجّي الأبجديّة؛ وبين تلك الجدران الأربعة القديمة إنما كان يرى ابنه الحبيب، ابن روحه. يكبر كرجل، وينمو كفكر، فهل سيسحق ويحرق هذه المكتبة، وهذا القصير، وهذه الجدران المفعمة بتبريكاته للطفل؟ لقد كان يعفو عنها. كلاّ وبلا ندم.

كان قد ترك غوفان يشرع في الحصار من النّاحية المقابلة. كان للاتورغ جهة وحشيّة هي البرج، وجهةٌ متمدّنة هي المكتبة. وكان سيموردان قد سمح لغوفان بألاّ يهاجم بالمدفعيّة إلاّ الجهة الوحشيّة.

فضلاً عن ذلك، فإن ذلك المسكن القديم. الذي هاجمه واحدٌ من آل غوفان ودافع عنه واحدٌ من آل غوفان، قد أخذ يرجع إلى عاداته الإقطاعية، في أوج الثورة الفرنسية. إن الحرب بين الأقارب هي كل تاريخ العصر الوسيط؛ إن أمثال إيتيوكل وبولينيس قوطيّون مثلما هم إغريق، ويصنع هاملت في إليسينور ما فعله أوريست في أرغوس[1].

* * *

(١) إن إيتيوكل هو ابن أوديب وجوكاستا، وقد تنازع مع أخيه بولينيس السّلطة فاقتتل الأخوان. وهاملت قد انتقم لوالده من عمّه الذي تآمر على اغتيال والده مع والدته. أما أوريست فقد انتقم مع اخته إلكترا من والدته كليتمنسترا ثأراً لوالده أغاممنون. (م:ز.ع).

XII

المباشرة بالإنقاذ

انقضى الليل بكامله بالتحضيرات من الجانبين. وما إن انتهت المفاوضة التي سمعناها للتوّ، حتى كان أول شيء اهتم به غوفان هو استدعاء معاونه.

كان غيشان الذي ينبغي أن نعرفه قليلاً، رجلاً من المرتبة الثانية، نزيهاً، وغير هيّاب، ومتواضعاً في مستواه، وجنديّاً أفضل منه قائداً، وذكياً على نحوٍ صارم وصولاً إلى الدرجة التي يغدو فيها من واجبه ألا يفهم بعد ذلك، فلا يلين قلبه قطّ، ولا يمكن للفساد أن يصل إليه أيّاً كان. وكذلك الأمر للرشوة التي تفسد الضمير، كما بالنسبة للرأفة التي تفسد العدالة. كان فوق روحه وفوق قلبه هذان العاكسان: الانضباط والأوامر[1]، شأن حصان له واقيتا نظر على عينيه، وهو يسير إلى الأمام في الفسحة التي يدعها ذلك له. كانت خطوتُه مستقيمة، ولكن طريقه ضيّقة.

فضلاً عن هذا، فهو رجلٌ موثوق؛ وصلبٌ في القيادة، وذو طاعة مطلقة.

وجّه غوفان كلامه لغيشان بحميّة قائلاً:

– يا غيشان، هاتِ سلّماً.

– يا سيّدي القائد، ليس لدينا سلّم.

(١) شأن الشرطي جافير في البؤساء.

– ينبغي أن نحصل على سلّم .

– للتسلّق ؟

– كلاّ . للإنقاذ .

ففكر غيشان وأجاب .

– فهمت ، ولكن من أجل ما تريد ، لابدّ أن يكون عالياً جداً .

– لارتفاع ثلاثة طوابق على الأقل .

– أجل يا سيدي القائد ، هذا هو الارتفاع تقريباً .

– وينبغي تجاوز هذا الارتفاع ، لأنه ينبغي التأكّد من النجاح .

– بلا شكّ .

– وكيف يتفّق ألاّ يكون لديكم سلّم؟

– يا سيّدي القائد ، أنت لم ترَ من الملائم أن يجري حصارُ لاتورغ من الهضبة . وقد اكتفيت بحصارها من تلك الجهة ، وأردت ألاّ تهاجمها من الجسر ، بل من البرج . لم نهتم إلاّ باللغم ، وقد عدلنا عن التسلّق . وهذا هو السبب في أنه لا سلالم لدينا .

– اصنعوا عدداً منها في الحال .

– إن سلّماً ارتفاعه ثلاثة طوابق لا يعدُّ بسرعة .

– اعملوا على ربط ثلاثة سلالم قصيرة طرفاً بطرف .

– يجب أن تكون بحوزتنا .

– اعثروا على عدد منها .

– لن نجد. ومع ذلك فالفلاّحون يتلفون السلالم مثلما يفكّكون العربات. ويقطعون الجسور.

– إنهم يريدون شلّ الجمهورية، هذا صحيح.

– يريدون ألاّ نتمكن من جرّ قافلة، ومن عبور نهر، وتسلّق جدار.

– ويلزمني سلّم مع ذلك.

– إني أفكر بالأمر. يا سيّدي القائد، ففي جافنيه، قريبا من فوجير، منجرة كبيرة ويمكن الحصول على سلّم منها.

– ما من دقيقة يمكن إضاعتها.

– متى تريد الحصول على السلّم؟

– غداً، في مثل هذه السّاعة، على الأكثر.

– سأبعث إلى جافنيه بمبعوث برسالة عاجلة على جواد سريع، وسوف ينقل أمر الاستيلاء. ففي جافنيه مركزٌ للخيّالة يزوّده بالمرافقة. ويمكن للسلّم أن يكون هنا غداً قبل غياب الشمس.

فقال غوفان:

– حسناً. سيكون هذا كافياً. فأسرعوا، هيّا.

بعد دقيقتين من الوقت، رجع غيشان، وقال لغوفان:

– يا سيّدي القائد، انطلق المبعوث بالرسالة العاجلة إلى جافنيه.

صعد غوفان إلى الهضبة. ولبث لفترة طويلة ونظرته محدّقةٌ بجسر – القصير (بون – شاتليه) الذي كان يعترض الوادي. أمّا جبهة جملون القصير، التي لم يكن لها فتحة أخرى غير المدخل المنخفض الذي يغلقه الجسر المتحرّك حين يكون منصوباً، فقد كانت تواجه وعورة المنحدر وتعرّجه. وكان لا بدَّ،

للوصول من الهضبة إلى أسفل ركائز الجسر . من النزول على طول هذا التعرّج ، من أشواك متشابكة إلى أشواك أخرى ، وهذا ما لم يكن متعذراً . ولكن ما إن ينـزل المهاجم إلى الحفرة ، حتى يتعرّض لكلّ القذائف التي يمكن أن تنهمر من الطوابق الثلاثة . وانتهى الأمر بغوفان للاقتناع بأن الهجوم الحقيقي قد كان من خلال ثغرة البرج ، في تلك المرحلة التي وصل الحصار إليها .

لقد اتخذ كافة التدابير لئلاّ يكون أي هروب ممكناً . لقد أكمل حصار لاتورغ الوثيق وشدّ حلقات كتائبه بحيث لا يتمكن شيء من أن يمرّ عبرها . واقتسم غوفان وسيموردان حصار القلعة . فاحتفظ غوفان بجهة الغابة ، وأعطى سيموردان جهة الهضبة ، وجرى الاتفاق على أنه فيما يقود غوفان الذي يعاونه غيشان ، الهجوم عن طريق الخندق ، يراقب سيموردان الجسر والمنحدر ، وفتائل وحدة المدفعية العالية كلّها مشعلة .

* * *

XIII

ما يفعله المركيز

بينما كان كل شيء في الخارج يستعد للهجوم ، كان كلُّ شيء في الداخل يستعد للمقاومة ، لا يسمى برجٌ معين برميلاً[1] من غير مماثلة حقيقية معه ، ويُضربُ أحياناً برجٌ بانفجار لغم كما يُضربُ برميل بمثقب . إن السور يُثقَبُ وكأنه فتحة برميل . وهذا ما حدث للاتورغ .

إن ضربة المثقب المقتدرة والتي سددتها ثلاثة كنتالات من البارود قد ثقبت من جهةٍ إلى أخرى الجدار الهائل ، وكان هذا الثقب يبدأ من أسفل البرج ، ويجتاز السور في أكبر سماكة له ، ويأتي ليصل على شكلِ قوسٍ عديم الشكل إلى طابق القلعة الارضي . وكان المحاصرون قد وسعوه ، من الخارج ، وشكلوه بطلقات المدفعية لكي يجعلوا ذلك الثقب سالكاً للهجوم .

كان الطابق الأرضي الذي تخترقه تلك الثغرة ، قاعةً كبيرةً مستديرة وعارية وفيها ركيزةٌ مركزيّة تحمل مفتاح عقد القبّة . ولم يكن قطر هذه القاعة التي كانت أوسع قاعة في البرج الرّئيسي يقلّ عن أربعين قدما . وكان كلّ طابقٍ من البرج يتألف من حجرة مماثلة ، ولكنها أقلّ اتساعاً ، ولها حجرات موجودة في ثغرات كوى الرّمي . ولم يكن للطابق السفلي كوى رمي ، ولا منافذ ، ولا مناور؛ ولها من الضوء والهواء بقدر ما لقبر .

---

(١) معنى أكده (أثبته) ليتريه إلى جانب معان أخرى للكلمة «Douve» (حفرة ، برميل) إن الخبير بالمفردات يتكشف أيضاً من خلال هذا التفصيل .

أما باب زنزانات النسيان المصنوع من الحديد أكثر مما هو مصنوع من الخشب، فقد كان في قاعة الطابق الأرضي. وكان هناك بابٌ آخر لتلك القاعة يفتح على درج يقود إلى الحجرات العليا. وكانت كلّ الأدراج قد أُحدِثت داخل سماكة الجدار.

إلى تلك القاعة المنخفضة إنما كانت لدى المحاصرين[٧٤] فرصةٌ مؤاتية للوصول عبر الثغرة التي كانوا قد صنعوها. وبما أن هذه القاعة محتلّة فقد بقي عليهم أن يستولوا على البرج.

لم يكن يستطيع أحد أن يتنفّس قطّ في تلك القاعة المنخفضة؛ وما من أحد يمضي فيها أربع وعشرين ساعة من دون أن يختنق. أما الآن، وبفضل الثغرة، فقد أصبح العيش فيها ممكناً.

هذا هو السبب في أن المحاصرين لم يغلقوا الثغرة.

وما فائدة ذلك، من جهة أخرى؟ فقد كان يمكن للمدفع أن يعيد فتحها.

لقد غرزوا في الجدار إناءَ إشعالٍ حديدي كبير، ونصبوا فيه مشعلاً، فأنار ذلك الطابق الارضي.

والآن، كيف يدافعون عن أنفسهم فيه؟ كان سدُّ الثقب سهلاً، ولكنه غيرُ مجد. والتمترسُ الرّاجع كان أفضل. إن تمترساً راجعاً هو نوع من تخندّق بزاويةٍ منفرجة، بضربٍ من متراسٍ مدعّم يتيح تسليط النيران على المهاجمين. ومن خلال ترك الثغرة مفتوحة من الخارِج، يسدّها من الدّاخل. لم يكونوا يفتقرون إلى التجهيزات، فأقاموا تمترساً راجعاً يحتوي شقوقاً من أجل مرور سبطانات البنادق. وكانت زاوية التمترس الراجع تستند إلى الرّكيزة المركزيّة، وكان جناحاه يلمسان الجدار من الجانبين. وما إن تمّ ذلك، حتى جرى وضع ألغامٍ أرضيّة في مواضع مناسبة.

كان المركيز يدير كل شيء. إنه ملهم، ومنسّق، ومرشد ومعلّم، ونفس مرعبة.

كان لانتوناك من ذلك الجنس من المحاربين، محاربي القرن الثامن عشر، والذين كانوا ينقذون المدن، وهم في الثمانين من أعمارهم. كان يشبه ذلك الكونت دالبرغ[1] الذي طرد ملك بولونيا من ريغا، وهو في المئة من عمره تقريباً، وكان المركيز يقول:

- تشجعوا، أيها الأصدقاء؛ ففي بداية هذا القرن، في عام ١٧١٣، قاوم شارل الثاني عشر الذي كان محتجزا في منزل مع ثلاثمئة سويدي، عشرين ألف تركيّ[2].

سُدّ الطابقان السّفليان، وجرى تحصين الحجرات، وأُحدثت فتحاتٌ في قباب المضاجع، ودعّمت الأبواب روافد مغروزة بضربات من المطارق الخشبية، فكانت أشبه ما تكون بزافرات (أنصاف قناطر داعمة)، إلاّ أنه توجّب ترك الدّرج اللولبي حرّاً وهو الذي يتّصل بكلّ الطوابق؛ فكان ينبغي أن يكون التجوّل فيه ممكناً، وعرقلته بالنسبة للمحاصِر، كان معناه عرقلته بالنسبة للمحاصَر. وهكذا كان الدّفاعُ عن الأماكن نقطةَ ضعيفة دائماً.

أما المركيز الذي لا يتعب، والمتينُ البنية مثل شاب، فيرفع العوارض الخشبية، ويحمل الحجارة، فقد كان مثلاً يحتذى، وكان يباشر العمل، ويقود، ويساعد، ويتصادق، ويضحك مع هذه العشيرة الضارية، ومع ذلك، فهو السيّد دائماً، العالي الشأن، والمقرّب، والأنيق، والمخيف.

لم يكن ينبغي أن يرد عليه أحد. وكان يقول: إذا تمرّد نصفكم، فلسوف أجعله يُعَدم بالرّصاص على يد النصف الآخر، ولسوف أُدافع عن المكان بالباقي.

إن هذه الأمور هي التي تدفع إلى عبادة الزّعيم.

* * *

---

(١) الموضوع بإمرة غوستاف - أُدولف، ملك السويد. والحادثة تعود إلى عام ١٦٢١.
(٢) تذكر لقصة فولتير (شارل الثاني عشر، الكتاب السادس).

XIV

ما يفعله ليمانوس

فيما كان المركيز يهتم بالثغرة والبرج، كان ليمانوس يهتم بالجسر. ومنذ بداية الحصار، كان جسر الإنقاذ المعلّق بشكلٍ معترض خارج نوافذ الطابق الثاني وتحته. كان قد سُحب بناءً على أمر من المركيز، ووضعه ليمانوس في قاعة المكتبة. ولربما كان ذلك السلّم هو الذي يريد غوفان أن يسدّ مسدّه. أما نوافذ الطابق الأول المسروق[٧٥]، والمسمّى بقاعة الحرس، فكان يحميها تسليحٌ ثلاثي من العوارض الحديدية المثبّتة في الحجر، ولم يكن بالإمكان الدخول أو الخروج منها.

لم تكن هناك عوارض لنوافذ المكتبة، ولكنها كانت عالية جداً.

طلب ليمانوس ثلاثة رجال لمرافقته، وهم مثله لا يتورّعون عن شيء ومصممون على كلّ شيء. وكان هؤلاء الرجال هم واسنار المدعو برانش - دور، والأخوان بيك - أن - بوا. لقد حمل ليمانوس مصباحاً مكتوماً، وفتح الباب الحديدي، تفحّص بدقة طوابقَ قصير الجسر الثلاثة. وكان واسنار برانش - دور متصلّباً مثل ليمانوس، فقد كان له أخٌ قتله الجمهوريّون.

عاين ليمانوس الطابق العلوي الذي يغصّ بالعلف والقشّ، والطابق السّفلي الذي أمر أن تجلب إليه بعض الأوعية الناريّة التي أضافها إلى براميل القار، وتأكد من حالة الفتيل المكبرت الجيدة، والتي كان أحد طرفيها في الجسر، والآخر في البرج. وسكب على الأرضيّة الخشبيّة، وتحت البراميل، وتحت حزم الأغصان.

بركةً من القار، والتي غمر فيها طرف الفتيل المكبرت؛ ثمّ عمل على وضع المراقد الثلاثة التي كان فيها رينيه - جان وغروزالان وجورجيت غارقين في نوم عميق، عمل على وضعها في قاعة المكتبة، بين الطابق الأرضي الذي كان فيه القار ومخزن الغلال الذي كان فيه القشّ. وقد حُملت المراقد بهدوء شديد، لئلاّ يجري إيقاظ الصّغار.

كانت تلك المراقد عبارة عن مذاود ريفية بسيطة وصغيرة، وهي نوع من سلال السّوحر، شديدة الانخفاض توضع على الأرض، مما يتيح للطفل أن يخرج وحده من المرقد بلا مساعدة. وبقرب كلّ مرقد عمل ليمانوس على وضع قصعة للحساء مع ملعقة خشبية. لقد كان سلمّ الإنقاذ الذي تمّ فكّه عن كلاّباته قد وُضع على الأرضية الخشبيّة، إزاء الجدار. وعمل ليمانوس على ترتيب المراقد الثلاثة بشكل متلاصق على طول الجدار الآخر قبالة السلّم. ثم فتح نوافذ المكتبة السّت على مصاريعها، ظنّا منه أن تيارات هوائية يمكن أن تكون مفيدة. وكانت تلك الليلة ليلة صيف، زرقاء وفاترة.

أرسل الأخوين بيك - أن - بوا ليفتحا نوافذ الطّابق السّفليّ والطّابق العلويّ، وكان قد لاحظ، على الواجهة الشّرقية من المبنى، شجرةَ لبلاب عتيقة يابسة، وهي بلون الصّوفان، وتغطي جهة كاملة من الجسر، من الأعلى إلى الأسفل، وتحيط بنوافذ الطّوابق الثلاثة. وظنّ أن شجرة اللّبلاب هذه لن تكون ضارّة. وألقى ليمانوس نظرة أخيرة، خرج بعدها هؤلاء الرّجال الأربعة من القصير، ودخلوا إلى البرج الرئيسي. لقد أغلق ليمانوس الباب الحديديّ الثقيل بدورتين، وتأمّل باهتمام القفل الهائل والمخيف، وعاين بإيماءة راضية من رأسه الفتيل المكبرت الذي كان يمرّ من الثقب الذي أحدثه هو، والذي أصبح منذ ذلك الحين الاتصال الوحيد بين البرج والجسر. كان ذلك الفتيل ينطلق من الحجرة المستديرة، ويمرّ تحت الباب الحديدي، ويدخل تحت حنية العقد، وينزل درج الطّابق الأرضي للجسر، ويتلوّى على الدرجات اللّولبية، ويزحف على أرضية رواق الطابق المسروق، ويسير ليفضي إلى بركة القار تحت[٧٦] كومة

الأغصان اليابسة. كان ليمانوس قد حسب أنه يلزم ما يقارب ربع ساعة لكي يلهب ذلك الفتيل، الذي يشعل من داخل البرج، بركة القار تحت المكتبة. وبعد أن اتّخذ ليمانوس كلّ هذه الترتيبات، وقام بكلّ هذه الأعمال التفقدّية، أرجع مفتاحَ الباب الحديدي إلى المركيز دولانتوناك الذي وضعه في جيبه.

كان من المهم مراقبة كلّ حركات المحاصرين. فمضى ليمانوس ليتمركز بشكلٍ بارز، وبوق بقّار في حزامه، في محرس السّطيحة، في أعلى البرج. وكانَ إلى جانبه، في فرجة طاقة المحرس، وهو يراقب الغابة بعين والهضبة بعين، وعاء بارود، وكيس من نسيج كتّاني مليء بالرّصاص المعيّر، وصحف قديمة كان يمزقها، ويصنع طلقات.

حين ظهرت الشمس، أنارت في الغابة ثمانية كتائب، تحمل سيوفها إلى جنبها، وجعبها على ظهرها، وتضع الحراب في بنادقها وتستعد للهجوم؛ وفوق الهضبة، كانت هناك وحدة مدافع، وصناديق ذخيرة، وأكياس حشوة، وعلب قذائف، وفي القلعة تسعة عشر رجلاً يحشون طبنجات، وبنادق فتيلة، ومسدّسات، وبنادق إسبنغولة، وفي المراقد الثلاثة، ثلاثة أطفال نائمون.

* * *

الكتاب الثالث

مذبحة

ســـان ـ بارتيلمي

I

استيقظ الأطفال[1].

الصّغيرة هي التي استيقظت أولاً.

استيقاظُ الأطفال هو تفتّح الزهور. وكأن عطراً ينبعث من هذه الأرواح النديّة.

إن جورجيت، ابنة العشرين شهراً، والتي كانت آخرَ من ولدت بين

(١) إننا نعرف على نحوٍ كافٍ الدّور الذي كانت تشغله مشاهد الأطفال في مؤلّفات هيغو في فترة الشباب: نوتردام باريس (ف: ٣، ٦، فطيرة بخميرة الذرة). وفي: أوراق الخريف (ف:١٥و١٩)، و: الأصوات الدّاخليّة (٢٢، إلى عصافير طائرة) إلخ. ولكنها وفيرة خصوصاً في البؤساء (كوزيت وبنات تيناردييه، والصبيان: غافروش وأخوته). وفيما بعد، في المسرح الحرّ (الجدّة)، وفي: الفن أن يكون المرء جدّاً (١٨٧٧). إن هيغو يدمج إلى حدٍّ ما ثلاثة عناصر في مشاهده الموسّعة إلى حدٍّ كبير: حنان يتدفق لطفاً متصنّعاً إلى حدٍ كافٍ، وتأملات شعريّة حول الطفولة، وترتبط ارتباطاً متكلّفاً بعض الشيء بالتأملات الدّائرة على الرّب والطبيعة، وأخيراً هناك ملاحظات صحيحة جدّاً، ومرهفة جدّاً، تتيح لهيغو أن يصف، وأن يجعل الأطفال يتحاورون بشكلٍ صحيح وعذوبة غالباً ما تكون لذيذة. ولسوف نجد هذه الجوانب الثلاثة في سياق هذه الصفحات التي أراد الرّوائي أن يصنع منها بشكلٍ جليّ لحظة أساسيّة من لحظات القصّة.

الأطفال الثلاثة، والتي كانت لا تزال ترضع في شهر أيّار، قد رفعت رأسها الصغير، وجلست على مؤخرتها. ونظرتِ إلى قدميها، وأخذت تثغثغ.

كان هناك ضياءٌ صباحي على مرقدها. وكان من الصعب على المرء أن يقول أيّهما أكثر تورّداً، قدم جورجيت أم الفجر.

كان الاثنان الآخران لا يزالان نائمين؛ فنوم الذكور أثقل، أما جورجيت الفرحة والهادئة، فقد كانت تثغثغ.

كان رينيه – جان أسمر، وكان غروزالان أسمر محمرّ الوجه، وكانت جورجيت شقراء.

إن هذه الفروق اللونية في الشّعر و التي تتوافق في الطفولة مع العمر، يمكن أن تتغير فيما بعد. كان رينيه – جان له هيئة هرقل صغير، وكان ينام على بطنه، وقبضتاه في عينيه. أما غروزالان فكانت ساقاه خارج سريره الصغير.

كانوا ثلاثتهم يلبسون ثياباً رثّة؛ والملابس التي كانت كتيبة بونيّه – روج قد أعطتهم إيّاها قد تحولت إلى مزق. وما كانوا يرتدونه لم يكن يعتبر قميصاً حتى. كان الصبيّان عاريين تقريباً، وكانت جورجيت ملتفّة بسمل كان تنورة، ولم يعد أكثر من صديريّة إلا قليلاً. فمن كان يعنى بهؤلاء الأطفال؟ لم يكن بمقدور أحد أن يجيب. فلم تكن هناك أم لهم. وهؤلاء الفلاّحون المتوحشون المحاربون الذين يجرونهم وإيّاهم من غابة إلى غابة، كانوا يعطونهم حصتهم من الحساء. هذا كل شيء. وكان الصّغار يتدبرون هذا الوضع الصعب بقدر إمكانهم. كان كلُّ الناس ولاة أمرهم، ولم يكن أحدٌ والداً لهم. غير أن أسمال الأطفال كانت مفعمة بالضياء. لقد كانوا ظرفاء.

وكانت جورجيت تثغثغ.

إن ما يغرّد به عصفور، يثغثغ به طفل. إنه النشيد نفسه. نشيدٌ غير واضح، وملجلجٌ، وعميقٌ[1]. إن أمام الطفل أكثر من العصفور، المصيرَ البشريّ المعتم.

(١) انظر في: الفن في أن يكون المرء جَدّاً، ١٠: أطفال، عصافير وزهور.

ومن هنا يأتي الحزنُ المختلط بالفرح، حزنُ الناس الذين يصغون إلى الصّغير الذي يغنّي[1].

إن الترتيل الأسمى الذي يمكن سماعه على الأرض هو تمتمةُ النفس البشرية على شفاه الطفولة. إن هذه الوشوشة الغامضة لفكرٍ لم يزل غريزة تتضمّن نداءً لاشعوريّاً إلى العدالة الأبديّة لا ندري ما هو؟ ولربّما يكون ذلك احتجاجاً على العتبة قبل الدخول. وهو احتجاجٌ متواضع ومؤثر؛ إن هذا الجهل المبتسم للّانهائي يعرض للخطر كلّ الخليقة من خلال المصير الذي سوف يُقَّرر للكائن الضعيف والأعزل. إن الشقاء، إذا ما حدث، سيكون سوء ائتمان.

إن وشوشة الطفل هي أكثر وأقلّ من الكلام. إنها ليست علامات صوتيّة، وهي غناء، فهي ليست مقاطع، وهي لغة؛ فلقد كان لهذه الوشوشة بدايةٌ في السماء ولن يكون لها نهاية على الأرض. إنها مما قبل الولادة، وتستمر، فهي متابعة. إن هذه التمتمة تتشكل مما كان يقوله الطفل حين كان ملاكاً، ومما سيقوله حين يغدو رجلاً. إن للمهد أمساً مثلما للقبر غدٌ. وهذا الغد وهذا الأمس يدمجان في هذه الثغثغة الغامضة قرينهما المجهول، وما من شيء يدلّ على الرّب، والأبديّة، والمسؤوليّة، وثنائية القدر مثل ذلك الظلّ الهائل في تلك النفس الورديّة[2].

لم يكن ما تتمتم به جورجيت يكدّرها، لأن كلّ وجهها الجميل كان ابتسامة. كان فمها يبتسم، وعيناها تبتسمان، وغمّازتا خدّيها تبتسمان: وكان ينبعث من هذه الابتسامة قبولٌ للصباح خفيّ. إن في النّفس إيماناً بالضياء. فالسماء

(١) هذا هو الشعور الذي يعبر عنه هيغو في الأبيات الأخيرة لقصيدته المكرسة لقبر تيوفيل غوتييه، والتي كتبت في غيرنيزيه، في تشرين الثاني ١٨٧٢:

. . . الليل يملأ نظرتي المضطربة
والتي تتنبأ، واأسفاه! بمستقبل الحمائم،
فتبكي على المراقد وتبتسم على القبور.

(٢) لا بدّ من إيراد قسم كامل من: «الفن في أن يكون المرء جَدّاً» لتفسير هذا المقطع الشعري.

كانت زرقاء، والطقس حارا، وكان صحوا. إن تلك المخلوقة الواهية، من غير أن تدري بشيء، ومن غير أن تعرف شيئاً، ومن غير أن تفهم شيئاً، والغارقة برخاوةٍ في أحلام اليقظة، والتي لا تفكّر، كانت تشعر أنها في أمان في هذه الطبيعة، وفي هذه الأشجار المرحّبة، وفي هذه الخضرة الصادقة، وهذا الرّيف النّقيّ والوادع، وفي هذه الأصوات، أصوات الأعشاش، والينابيع، والذّباب، والأوراق والتي تتألق فوقها براءة الشمس الهائلة[1].

استيقظ بعد جورجيت رينيه – جان البكر، الطويل والذي تعدّى الرابعة من عمره. لقد نهض واقفاً، وخطا فوق مرقده على نحو رجولي، ولمح قصعته، ووجد الأمر سهلاً جدّاً، وجلس على الأرض، وبدأ يأكل حساءه.

لم تكن ثغثغة جورجيت قد أيقظت غروزالان، ولكنه استدار مذعوراً على صوت الملعقة داخل القصعة، وفتح عينيه. وكان غروزالان هو طفل الأعوام الثلاثة. فرأى قصعته، ولم يكن عليه إلاّ أن يمدّ ذراعه، فأمسك بها، ومن غير أن يخرج من سريره، وضع قصعته على ركبتيه، وأمسك ملعقته، وفعل مثل رينيه – جان، أي بدأ يأكل.

لم تكن جورجيت تسمعهما، وكانت تموّجاتُ صوتها تبدو وكأنها تعدّلُ نغمةَ ترجُّح حلم. كانت عيناها المفتوحتان على وسعهما تنظران إلى الأعلى، وكانتا رائعتَين؛ فأيّاً كان السّقف أو القبّة اللذان يعلوان رأس الطفل، فالذي ينعكس في عينيه هو السماء.

(١) كان قد أوحى هذا الاشتراك لطبيعة بريئة بقصيدة: إلى عصافير طائرة.
السّماء الزرقاء، والربيع، والطبيعة الصّافية،
كتاب العصافير والفجر هذا
قصيدة الله هذه التي تفضل قصائدي
والتي يمكن فيها للطفل أن يقطف الزهرة مقطعاً حيّاً،
من غير أن يرعبه صوتٌ خشنٌ فجأة.
انظر في: الفن في أن يكون المرء جَدّاً، قصائد من مثل: فرح الأشياء، الرّبيع، القيلولة، إلخ.

عندما أنهى رينيه – جان طعامه ، حكّ قعر القصعة بملعقته ، وتنهّد وقال بوقار:

– أكلت حسائي .

وهذا ما انتزع جورجيت من أحلام يقظتها ، فقالت:

– سائي[1] .

وإذ رأت أن رينيه – جان قد أنهى طعامه ، وأن غروزالان كان يأكل ، فقد أمسكت بقصعة الشوربة التي كانت إلى جانبها ، وأكلت ، وهي ترفع ملعقتها إلى أذنها عدداً من المرات أكبر بكثير مما إلى فمها .

ومن وقت لآخر ، كانت تتخلّى عن التهذيب وتأكل بإصبعها .

أما غروزالان ، فبعد أن حكّ قعر القصعة ، شأنه أخيه ، مضى ليلتحق به ، وأخذ يركض وراءه .

* * *

(١) محاكاة طفليّة لكلمة: حسائي ، بالتشابه مع: soupe و pou poupe . (م: ز . ع) .

II

فجأة سُمع في الأسفل، خارجاً، ومن ناحية الغابة، صوتُ بوق، هو نوعٌ من نفير عالٍ وصارم. وقد ردّ على صوت البوق من أعلى البرج صوت نفير.

في تلك المرّة، كان البوق هو الذي ينادي، والنفير هو الذي يردّ.

انطلقت قرعة بوقٍ ثانية تبعتها قرعة نفيرٍ ثانية.

ثمّ ارتفع، على تخوم الغابة، صوتٌ بعيد، ولكنه واضح، فصاح بصورة جليّة بما يلي:

- يا قطّاع الطرق! إننا ننذركم. إذا لم تستسلموا بلا قيدٍ ولا شرط عند مغيب الشمس، فلسوف نهاجم.

ردّ من سطيحة البرج صوتٌ يشبه الهدير:

- هاجموا.

فردد الصوت الآتي من الأسفل:

- سوف تُطلقُ قذيفةُ مدفعٍ كتحذيرٍ أخير، وقبل الهجوم بنصف ساعة.

وكرر الصّوت الآتي من الأعلى قائلاً:

- هاجموا.

لم تكن هذه الأصوات تصل إلى الأطفال، غير أن البوق والنفير كانا يصلان إلى أعلى وإلى أبعد، وقد رفعت جورجيت رقبتها، وعند أول صوت من البوق وضعت ملعقتها في قصعتها، وعند قرعة النفير الثانية، رفعت السبابة الصغيرة ليدها اليمنى وخفضتها. ورفعتها دورياً، ووقّعت إيقاعات التبويق، والتي أتى صوت النفير الثاني ليطيل أمدها. وحين صمت النفير والبوق، لبثت متفكرةً وإصبعها في الهواء، وهمست بصوتٍ خافت:

– ميسيقا.

ونظن أنها كانت تريد أن تقول «موسيقا».

لم يكن الطفلان الأكبران، رينيه – جان وغروزالان قد انتبها إلى النّفير والبوق، فقد كانا مأخوذين بشيء آخر؛ لقد كانت خنفساء متكوّرة تجتاز المكتبة[1].

لمحها غروزالان فصاح:

– حيوان.

فهرع غروزالان وقال:

– إنه يقرص.

فقال رينيه – جان:

– لا تؤذه.

وأخذا كلاهما ينظران إلى ذلك العابر.

---

(١) فلنجر مقارنةً مع المشهد اللطيف في «البؤساء» (القسم الأول، ٤ ، ١) الذي تعهد فيه فانتين بابنتها كوزيت الصغيرة إلى تيناردييه الأم. «ومع ذلك، فقد كانت الفتيات الصغيرات مجتمعات في وضعية تدل على القلق العميق والغبطة، وكانت قد جرت حادثة صغيرة هي: أن دودة ضخمة كانت قد خرجت من الأرض، فاعتراهن الخوف، وصرن في حالة انجذاب...»

ومع ذلك فقد كانت جورجيت قد أنهت حساءها، فبحثت بعينيها عن أخويها. وكان رينيه - جان وغروزالان في فتحة إحدى النوافذ جاثيين ومترصّنين فوق الخنفساء المتكوّرة، وكانا يتلامسان بجبينهما ويختلط شعر كلّ منهما بالآخر. ويحبسان نفسهما وهما مذهولان، ويتأملان الدّابّة التي كانت قد توقفت، ولم تعد تتحرّك، فقلّما كانت مسرورة من هذا الإعجاب الشديد.

إذْ رأت جورجيت أخويها في حالة تأمل، فقد أرادت أن تعرف ما كان عليه الأمر، ولم يكن من السهل الوصول إليهم، ومع هذا فقد شرعت بذلك. كانت المسافة محفوفة بالصعاب؛ كانت هناك أشياء على الأرض، ومقاعد مقلوبة لا مساند لها. وأكوام من الأوراق القديمة، وصناديقُ تغليف، مساميرُها مقتلعة وفارغة، وصوانات، وأكداس غير محدّدة كان لا بدَّ من السير حولها، وهي أرخبيل من العثرات، وقد قامت جورجيت بالمخاطرة فيها. لقد بدأت بالخروج من مرقدها، هذا هو عملها الأول؛ ثمّ دلفت إلى الصخور الشاطئيّة، وتلوّت بين المضائق، ودفعت أحد المقاعد الذي لا مسند له، وزحفت بين صندوقين، ومرت من فوق رزمة من الأوراق القديمة، متسلّقةً من جهة، ومتدحرجةً من الأخرى، ومظهرةً برقّة عريها الصغير المسكين. ووصلت على هذا النحو إلى ما يسمّيه البحّار عرض البحر، أي إلى فسحةٍ واسعةٍ إلى حدٍّ كافٍ من الأرضية الخشبية التي لم تعد مسدودةً ولم تعد فيها مخاطر. حينذاك، اندفعت، واجتازت تلك الفسحة التي كانت تعادل قطر القاعة بأكمله، متقدّمة على يديها وقدميها، وبسرعة قطّ، ووصلت بقرب النافذة، وهناك، كان ثمّة حاجزٌ مخيف، فالسلّم الكبير الممدد على طول الجدار كان يأتي ليفضي إلى تلك النافذة، وكان طرف السلّم يتخطّى قليلاً زاوية فتحتها؛ وكان ذلك يشكّل بين جورجيت وأخويها نوعاً من رأس ينبغي تجاوزه، فتوقّفت وتفكّرت، وبعد ما انتهت مناجاتها الداخلية، اتخذت قرارها؛ فقبضت بتصميم على إحدى الدرجات بأصابعها الورديّة[٧٨]. وهي الدرجات التي كانت عمودية وليست أفقيّة، وبما أن السلّم كان ممدداً على إحدى قائمتيه، فقد حاولت أن تنهض على

قدميها، فسقطت ثانية. وبدأت من جديد لمرّتين. فأخفقت، وفي المرّة الثالثة، نجحت. حينئذ، استندت وهي منتصبة وواقفة على كلّ درجة من الدّرجات بالتتابع، وأخذت تسير على طول السلّم، وما إن وصلت إلى طرفه، حتى زلّت بها نقطة الارتكاز، فترنّحت. ولكنها ما إن أمسكت بيديها الصغيرتين طرف القائمة التي كانت ضخمة، حتى نهضت من جديد، وجاوزت الرأس الناتئ (الشّناخ)، ونظرت إلى رينيه - جان وغروزالان، وضحكت.

* * *

III

في تلك اللحظة، أخذ رينيه – جان الذي كان راضياً عن نتيجة ملاحظاته حول الخنفساء المتكوّرة، أخذ يرفع رأسه من جديد ويقول:

– إنها أنثى.

أضحك ضحكُ جورجيت رينيه – جان، وأضحك ضحكُ رينيه – جان غروزالان. قامت جورجيت بالانضمام إلى أخويها، فشكّل ذلك منتدىً صغيراً على الأرض. غير أن الخنفساء المتكوّرة كانت قد اختفت.

كانت قد أفادت من ضحك جورجيت لكي تندسّ في أحد ثقوب الأرضيّة الخشبيّة.

تلت حوادثُ أخرى الخنفساء المتكوّرة.

عبرت سنونوات أولاً.

كانت أعشاشها ربما تحت حافة السّقف. وأتت للطيران قرب النافذة، وهي قلقة بعض الشيء من الأطفال، وراسمةً دوائر كبيرة في الهواء، ومطلقةً صيحتها الربيعيّة الرقيقة. وهذا ما جعل عيون الأطفال الثلاثة ترتفع، فنُسيت الخنفساء المتكوّرة.

وجّهت جورجيت إصبعها إلى السنونوات وصاحت:

- كوكو!

فأنّبها رينيه - جان قائلاً:

- يا آنسة، لا يقولون كوكو، يقولون عصافير.

فقالت جورجيت:

- زوزو.

ونظر ثلاثتهم إلى السّنونوات.

ثمّ دخلت نحلة.

لا شيء يشبه روحاً كالنحلة؛ فهي تمضي من زهرة إلى زهرة كما تمضي الرّوح من نجمةٍ إلى نجمة. وتجلب العسل مثلما تجلب الرّوحُ النور[1].

أحدثت هذه الأخيرة ضجّة كبيرة أثناء دخولها، وكانت تطنّ بصوت عالٍ، وكان يبدو أنّها تقول: وصلت، ورأيت الورود للتّو، والآن أتيت لأرى الأطفال. فما الذي يجري هنا؟

إن نحلةً ما هي مدبّرة منزل، وهي تدوّي أثناء غنائها.

لم يزح الأطفال عيونهم عن النّحلة طيلة بقائها هناك.

استكشفت النّحلةُ المكتبةَ بكاملها، ونقّبت في الزّوايا المخبوءة، ورفرفت وكأنّها في منزلها وفي قفير، وطافت مجنّحة وشجيّة، من خزانة إلى خزانة، ناظرة من خلال زجاج النوافذ، إلى عناوين الكتب، كما لو كانت شبحاً.

ومضت بعد أن قامت بزيارتها.

وقال رينيه - جان:

---

(١) تخطر في الذّهن القصيدة الشهيرة من ديوان «القصاص»: المعطف الامبراطوري: بنات النور، نحلات . . .

– إنها تذهب إلى بيتها .

وقال غروزالان:

– إنها حيوان .

فردّ رينيه جان سريعاً:

– لا ، إنها ذبابة .

فقالت جورجيت:

– ذيبية .

عند ذاك ، أمسك غروزالان الذي وجد لتوّه على الأرض خيطا في طرفه عقدة ، أمسك بين إبهامه وسبابته الطّرف المقابل للعقدة ، وصنع من الخيط نوعا من طاحونة دوّارة صغيرة ، ونظر إليها وهي تدور بانتباه شديد .

أما جورجيت التي أصبحت ، من جهتها ، رباعيّة الأقدام ، واستأنفت ذهابها وإيابها الكيفيّ على الأرضية الخشبية ، فقد اكتشفت كنبة منجّدة جليلة قضمتها الدّيدان التي يخرج شعر ذنبها من بضعة ثقوب . كانت قد توقّفت عند تلك الكنبة ، وتوسّع الثقوب ، وتسحب شعر الذنب بتأمل .

فجأة ، رفعت أحد أصابعها ، وهذا ما كان يعني:

– أصغوا .

أدار الأخوان رأسيهما

كانت تسمع فرقعة مبهمة وبعيدة في الخارج . وربما كان ذلك هو المعسكر المهاجم الذي ينفّذ تحرّكا استراتيجيا في الغابة . كانت هناك خيولٌ

تصهل ، وطبولٌ تقرع ، وعرباتٌ ذخيرةٍ تسير ، وسلاسل تتصادم ، وألحانُ أبواقٍ عسكرية تتنادى ، ويردّ بعضها على البعضِ الآخر ، وتشوّش أصواتٍ مخيفة تغدو باختلاطها نوعا من التناغم . وكان الأطفال يصغون مسحورين .

وقال رينيه - جان:

- ربّي[1] هو الذي يصنع هذا .

* * *

(١) الطفل يلفظ كلمة: ربّي مضيفاً إليها التعريف بأل؛ وكأنه يعرّفها مرتين «ال . . ربّي» (م:ز . ع) .

IV

توقفت الجلبة.

وبقي رينيه – جان متفكّراً.

كيف تتفكّك الأفكار وتتشكل مجدّداً في هذه الأدمغة الصغيرة؟ ما هو التحرّك الغامض، تحرّكُ هذه الذاكرات الشديدة الاضطراب، والشديدة القصر أيضاً؟ يتشكل في ذلك الرأس الرّقيق المتفكّر خليطٌ من الـ.. ربّي والصلاة، والأيدي المضمومة، ومن ابتسامة رقيقة ما، وغير محددة كانت ترتسم على ذلك الوجه فيما سبق. ولم تعد موجودة، وهمس رينيه – جان بصوتٍ خفيض: – ماما.

فقال غروزالان:

– ماما.

وقالت جورجيت:

– ماما.

ثم أخذ رينيه – جان يقفز.

وحين رأى غروزالان ذلك، قفز..

كان غروزالان يقلّد كلّ حركات وكلّ إيماءات رينيه – جان، أما جورجيت فعلى نحوٍ أقل. إن ابن الثلاثة أعوام يقلّد حرفيّا ابن الأربعة أعوام. أما ابن العشرين شهراً، فيحافظ على استقلاله.

بقيت جورجيت جالسة وهي تقول كلمة من وقتٍ لوقت. ولم تكن جورجيت تصنع جملاً.

كانت متأمّلة، وتتكلم بأقوال مأثورة، فقد كانت أحادية المقاطع.

مع ذلك؛ فبعد مرور بعض الوقت، استمالها المثال المتبّع، وانتهى بها الأمر لتحاول أن تفعل مثل أخويها. وهذه الأزواج الثلاثة من الأقدام العارية أخذت ترقص، وتعدو وتتمايل في غبار الأرضية الخشبية القديمة المصنوعة من السّنديان الصّقيل. تحت النظرة الوقورة، نظرة التّماثيل الرّخاميّة التي كانت جورجيت تلقي نحوها جانبياً من وقتٍ لوقت نظرةً قلقة، وهي تهمس:

* الموموم!

في لغة جورجيت «الموموم» هو كل ما كان يشبه رجلاً[1] ومع ذلك فهو ليس رجلاً.

إن الكائنات لا تبدو للطفل إلاّ مختلطةً بالأشباح.

كانت جورجيت تتبع أخويها، وهي تسير أكثر مما تترجّح، ولكن على يديها ورجليها بصورة أكثر سهولة.

فجأة، رفع رينيه جان رأسه، بعد ما اقترب من إحدى النوافذ، ثم خفضه، ومضى ليختبئ خلف زاوية جدارِ فتحةِ النافذة. كان قد لمح للتوّ شخصاً ينظر إليه. وكان ذلك جنديّاً أزرق من معسكر الهضبة، فأفاد من الهدنة وخرقها بعض الشيء ربّما، وخاطر وصولاً إلى حافة انحدار الوهدة التي تنكشف منها

(١) التقارب بين كلمتي Momomme و Homme، بالفرنسيّة. (م:ز.ع).

داخل المكتبة. وما إن رأى غروزالان رينيه – جان يسعي للاختباء، حتى مضى هو للاختباء. لقد تكوّر إلى جانب رينيه – جان، وأتت جورجيت لتختبئ وراءهما. ومكثوا هناك صامتين، لا يبدون حراكاً، ووضعت جورجيت إصبعها على شفتيها. وبعد بضع لحظات، خاطر رينيه – جان بتقديم رأسه، وإذا بالجندي لم يزل هناك؛ فأدخل رينيه – جان رأسه سريعاً، ولم يعد يجرؤ الثلاثة الصغار على التلفظ بكلمة. واستمرّ هذا لفترة ليست بالقليلة. وقد أضجر هذا الخوف جورجيت أخيراً، فأتتها الجرأة، ونظرت، وكان الجنديّ قد مضى، فعاد الأطفال إلى الرّكض واللعب.

مع أن غروزالان مقلّد لرينيه – جان ومعجبٌ به، فقد كانت له خصوصيته وهي اللّقى؛ فرآه أخوه وأخته فجأة يتقافز بشغف، وهو يسحب خلفه عربةً صغيرة ذات عجلات أربع، كان قد نبشها من الأرض من مكان لا ندري أين هو.

كانت تلك العربة ذات الدّمية موجودة هناك منذ سنوات، في الغبار، منسيّةً، وتقيم علاقةَ حسنِ جوارٍ مع كتب العباقرة، وتماثيل الحكماء النصفيّة. وربما كانت إحدى تلك الخشاخيش التي كان غوفان يلعب بها وهو طفل.

كان غروزالان قد صنع من خيطه سوطاً يجعله يفرقع. وكان شديدَ الاعتداد. فهكذا يكون المبتكرون؛ وحين لا يكتشف المرء أمريكا، يكتشف عربةً صغيرة، هذا هو الأمر دائماً.

كان لا بدَّ من المشاركة؛ فقد أراد رينيه – جان أن يتعلّق بالعربة، وأرادت جورجيت أن تركب فيها.

حاولت أن تجلس فيها، وكان رينيه – جان هو الحصان، وغروزالان هو الحوذي. غير أن الحوذي لم يكن يحسن القيام بمهنته، فعلّمه الحصان إيّاها.

صاح رينيه – جان بغروزالان:

– قل: دي!

فردّد غروزالان:

- دي!

انقلبت العربة، وتدحرجت جورجيت. وصاح الجميع، الملائكة، وصاحت جورجيت: ثم راودتها رغبة مبهمة للبكاء(٧٩).

فقال رينيه - جان:

- يا آنسة. أنت أكبر مما ينبغي.

فقالت جورجيت:

- عندي كبيرة[1].

وكبرها كان يواسيها عن سقطتها.

كان إفريز السطح المعمّد تحت النوافذ جدّ عريض، وكان غبارُ الحقول المتطاير من هضبة الخلنج قد آل به الأمر إلى التراكم في الإفريز، وكانت الأمطار قد صنعت مجدداً ترابا من هذا الغبار، وكانت الرّيح قد جلبت إليه بذوراً بحيث أن شجرة عليق قد أفادت من هذا القدر القليل من التراب لكي تنبت هناك. وكانت شجرة العليق من نوعٍ مقاوم يسمّى توتة الثعلب. كان ذلك في شهر آب، وشجيرة العليق مغطاة بثمار التوت، وغصن من أغصان شجيرة العليق يدخل من إحدى النوافذ، وكان ذلك الغصن يتدلّى حتى الأرض تقريباً.

لقد اكتشف غروزالان تلك الشجيرة، بعد أن اكتشف العربة، فاقترب منها. قطف حبّة توتٍ، وأكلها. وقال رينيه - جان:

- أنا جائع.

---

(١) للمقارنة مع حوار الأطفال في: «الجدّة»، في المسرح الحرّ.
وجورجيت تقول: J'ai بدلاً من: Je suis = أي عندي بدلاً من أنا . . . (م. ز. ع).

أما جورجيت التي أخذت تعدو على ركبتَيها ويديها، فقد وصلت.

لقد نهبوا ثلاثتهم الغصن، وأكلوا كلّ ثمرات التّوت، فانتشوا بها وتلطّخوا، وإذ غدوا متورّدين تماماً، بسبب صبغة توت العليق القرمزيّة، فإن هؤلاء الملائكةِ الأرفع قد انتهى بهم الأمر ليصبحوا ثلاثة آلهة ريفيّة صغيرة، وهذا ما كان يمكن أن يصدم دانتي ويفتن فيرجيل. لقد كانوا يقهقهون.

من وقتٍ لآخر، كانت شجرة العلّيق تخز أصابعهم، ما من شيء مقابل لا شيء.

مدّت جورجيت إلى رينيه - جان إصبعها الذي كانت تقطر منه نقطة دم، وهي تدلّ على شجرة العلّيق وقالت:

- يخز.

أما غروزالان الذي وُخِز أيضاً، فقد نظر إلى شجرة العلّيق وقال بارتياب:

- إنها حيوان.

فأجاب رينيه - جان:

- لا، إنها عصا.

استأنف غروزالان يقول:

- عصا. إنها شريرة.

هذه المرّة أيضاً، رغبت جورجيت في البكاء، ولكنها أخذت تضحك.

* * *

على الإنهاك والتعب على سيماء وجهه: غير أن مزاجه العام بدا أكثر إشراقاً مما كان عليه من قبل. كان وجه فيلسوف».

وبعد أيام قليلة، وكان أنينكوف نفسه قد غادر باريس إلى «بامبرج» في بافاريا. فقد ذهل غاية الذهول وهو يمشي في أحد الأيام حين رأى شخصاً ذا أنف شديد الطول ومعطف قصير جداً يشبه في كل شيء مؤلف «نفوس ميتة». كان جوجول في طريقه إلى «أوستند»، وقد نزل مع بقية الركاب من عربة السفر لترويض ساقيه. كانت العربة ستتابع طريقها بعد ساعة. زار الصديقان الكنيسة القديمة الشهيرة التي بنيت في القرن الثالث عشر حيث أظهر جوجول خبرته في الفنون المعمارية. ولدى خروجهما من الكنيسة أخبر أنينكوف بأنه ينوي نشر «مقاطعه المختارة» في وقت قريب، وأن الكتاب سيكون مثل هبة من الهواء العذب وسط مزيج من ضباب وأدخنة الحياة الحديثة. وقد التمعت عيناه بنور اليقين العنيد. وفي اندفاعة اللحظة فرض على صديقه قضاء فصل الشتاء في نابولي وأضاف: «سأكون أنا نفسي هناك، وستسمع في نابولي أموراً لا تتوقعها. سأبلغك بأشياء تتعلق بك، أجل، تخصك شخصياً. ولا يمكن للمرء أن يتنبأ من أي مكان سيأتيك العون. أقول لك، إذهب إلى نابولي وسأطلعك هناك على سر ستشكرني عليه»... وبعد ذلك تحوّل إلى الاضطرابات في أوروبا: «لقد بدأ الناس يخافون من أن الاضطراب الأوروبي - البروليتاريا - سيأتي إلينا. إنهم يتساءلون لماذا لا يتم تحويل الموجيك (الفلاحين الروس) إلى مزارعين ألمان. لماذا هذا التساؤل؟ هل يمكن أن ينفصل الموجيك عن الأرض؟ أي نوع من البروليتاريا ترى فيهم؟ فكر كيف يبكي الفلاح الروسي عندما يرى الأرض. البعض منهم يرتمي ليغمرها بالقبل وكأنها المرأة الحبيبة! ألا يعني هذا شيئاً!» كان يتكلم بعاطفة شديدة وقد ثبت عينيه على الأرض، لا ينظر لأحد ولا لشيء.

كتب أنينكوف يقول: «كان جوجول مقتنعاً بأن روسيا بلد فريد، تخضع لقوانين خاصة لا يملك عنها أحد في أوروبا أية فكرة»..

قفا الرّسم المواجه، يقرأ المرء إهداء موجهاً إلى آل غريف[1]. والذين كانوا في ليون كما كان آل الزيفير في أمستردام. ومن كلّ ذلك، كانت تنتج نسخة شهيرة على الدّرجة نفسها من النّدرة تقريباً التي للأبوستول في موسكو[2].

كان ذلك الكتاب جميلاً، وهذا هو السبب في أن رينيه – جان كان ينظر إليه ربما أكثر مما ينبغي. وكان المجلّد مفتوحاً بالتّحديد على رشمة تمثل سان - بارتيلمي حاملاً جلده على ذراعه[3]. وكانت تلك الرّشمة ترى من الأسفل. وحين تمّ أكل كلّ ثمرات التوت، أخذ رينيه – جان يتأملها بنظرة حبّ رهيبة، أما جورجيت التي كانت تتبع اتجاه عيني أخيها، فقد لمحت الرّشمة وقالت:

– جيماج[4].

جعلت هذه الكلمة رينيه – جان يحزم أمره كما يبدو. حينذاك قام بشيء غير مألوف أمام ذهول غروزالان.

كانت هناك كرسي ضخمة من السنديان في إحدى زوايا المكتبة. سار رينيه – جان إلى تلك الكرسي، وأمسك بها وسحبها إليه بمفرده حتى القمطر. ثمّ صعد عليها، بعد أن لامست الكرسي القمطر، ووضع قبضتيه على الكتاب.

حين وصل إلى هذه القمة، شعر بالحاجة إلى أن يكون عظيماً، فأمسك بـ «الصّورة» (جيماج) من الزاوية العليا ومزّقها بعناية، وقد حدث ذلك الشقّ لسان – بارتيلمي بشكلٍ جانبي، ولكن ذلك لم يكن ذنب رينيه – جان؛ فقد

(١) سيباستيان غريف (١٤٩١– ١٥٥٦) من أصلٍ ألماني، وقد أقام في ليون، وكان ناشراً لرابليه، ومارو، وإيتيين دوليه، إلخ.

(٢) ميشيل ابوستولوس كان لزمن معين محميّ الكاردينال بيساريون، وقد كتب في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بحثا ضدّ مذهب الكنيسة اللاتينية.

من أجل كل هذه الإشارات، انظر الصفحة ٣٠٤، رقم ١ (النص الفرنسي).

(٣) كان يقتضي التقليد أن يسلخ حيّاً. إن التنكيل بسان – بارتيلمي هو موضوع لوحة لريبيرا وكان تيوفيل غوتييه معجباً بها، وهي موجودة في متحف برادو في مدريد.

(٤) أي «IMAGE» = صورة، وقد حرّفتها بلغتها الطفولية (م. ز. ع).

الذي جعلت من نفسي الرقيب الأكثر حزماً عليه حين كتبته. وحتى لو افترضنا توقفك عند عبارة ما عند النظرة الأولى فإنني متأكد بأن نهاية الكتاب ستفسر معناها بصورة أكبر وأنك ستدرك، باختصار، أنها ضرورية له».

توجه بعد ذلك إلى «أوستند» لبناء قوته بالاستحمام في مياه البحر خلال الفصل الحار. وبعد الارتعاش لدى إلقاء نفسه في الموج كان يبقى في غرفة الفندق حيث يأخذ قلمه ليصدر دروساً لمعاصريه في الأخلاق، والدين، والأدب، والإدارة، والاقتصاد السياسي، والعدالة والوطنية. وما لبثت ثلاثة كراسات أن غادرت أوستند إلى عنوان بلتنييف. أما الكراس الخامس والأخير فقد أرسل من فرانكفورت التي توجه إليها في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر للإقامة مع جوكوفسكي من جديد. غير أن نيكيتنكو لم يكن في عجلة فيما يبدو لإصدار رأيه.

كتب جوجول لبلتنييف (في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٦) يقول: «استحلفك بحق السماء أن تستخدم كل ما في وسعك وكل ما لديك من وسائل لتسريع طباعة الكتاب. عليك أن تفعل ذلك من أجلي ومن أجل الآخرين. باختصار: من أجل الجميع. وفور نشر الكتاب هيئ كل النسخ الضرورية وقدمها لجميع أفراد العائلة الإمبراطورية بمن فيهم الأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد- ولكل كبار الدوقات، ولكن لا تتقبل أية هدايا. غير أنه إن عرض عليك أحد مالاً للحجاج الذين قد أصادفهم في طريقي إلى الأرض المقدسة فخذه ولا تتردد».

بينما كان ينتظر طبع «مقاطع مختارة» تجذرت فكرة تنويرية أخرى في ذهن جوجول. فبمناسبة إعادة إحياء «المفتش العام» في سانت بطرسبرج وموسكو، فقد فكر بإضافة مشهد آخر بعنوان: «حل عقدة المسرحية في المفتش العام» حيث كان سيضاف للطبعة الرابعة لهذه المسرحية الكوميدية، على أن توزع أرباح مبيعاتها على الفقراء بواسطة لجنة حددها الكاتب في مقدمته الأخيرة: أودويفسكي، الدوقة فايلجورسكي، والدوقة داشكوف وأركادي روسيت

VI

بعد أن أنهت جورجيت الفسخ ، مدّت يدها إلى رينيه – جان ، وقالت:

– أيضاً!

أتت بعد القدّيس ومفسّرِه الصّورُ المتجّهمة ، صور الشارحين . وكان الأول فيما بينها تاريخياً غافانتوس؛ لقد انتزعها رينيه – جان ووضع غافانتوس في يد جورجيت .

لقد مضى كلُّ شارحي سان – بارتيلمي .

إن العطاء تفوّق؛ ولم يستبقِ رينيه – جان لنفسه شيئاً . وكان غروزالان وجورجيت يتأملانه ، وكان هذا يكفيهما . وقد اكتفى بإعجاب جمهوره .

أما رينيه – جان الذي لا ينفد ، والأريحيّ فقد قدّم لغروزالان فابريسيويينيا تيلي ولجورجيت الأب ستيلتينغ ، وقدّم لغروزالان ألفونس توستا ، ولجورجيت كورنيليوس ألابيده[1]؛ وحصل غروزالان على هنري هامون ، وجورجيت على الأب روبيرتي ، والمزيد بمنظر لمدينة دوي التي ولد فيها عام ١٦١٩ . وتلقّى

(١) اسم مُلَتّين ، جرياً على عادة البحّاثة ، من البلجيكي كورنيليوس ستين (كورني دولا بيير) ، أستاذ العبرية في لوفان (١٥٦٦ – ١٦٣٧) ومفسّر التوراة وكذلك كافة الشخصيات التي يلهو هيغو هنا بمراكمة أسمائها . إن المزاحات بصدد «المفسّرين» هي إحدى الموضوعات التي لا تنضب لقصيدة : الحمار ، المنشورة في عام ١٨٨١ ، والتي كتبها هيغو منذ عام ١٨٥٧ تهكّماً على العلم البشري .

غروزالان احتجاج الورّاقين ، وحصلت جورجيت على الإهداء إلى آل غريف . وكانت هناك أيضاً خرائط ، فقام رينيه – جان بتوزيعها ، أعطى أثيوبيا لغروزالان ، وليكاونيا لجورجيت . وما إن فعل هذا حتى رمى الكتاب على الأرض .

كانت تلك لحظة مرعبة؛ فقد أتى غروزالان وجورجيت بنشوة ممزوجة بالذّعر ، أتى رينيه – جان مقطّباً حاجبيه ، ومصلّباً عرقوبيه ، ومشنّجاً قبضتيه ، ودافعاً إلى خارج المقرأ المجلّد الضخم الذي هو بقطع الرّبع . إن كتاباً جليلاً يفقد توازنه أمرٌ مأساوي[1] . وقد تدلّى من المجلّد الثقيل الذي انقلب عن مكانه للحظة ، وتردد ، وترجّح ، ثمّ تقوّض . وإذْ تحطّم ، وُدعِك ، وتمزّق ، وتخلّع ضمن تجليده ، فقد تسطّح على نحوٍ محزن على الأرضية الخشبية ، ولحسن الحظّ ، فهو لم يسقط على الأطفال .

---

(١) إن كارثة المجلّد الذي بقطع الرّبع يذكر بهدم المقرأ في قصيدة بوالو (النشيد الرّابع):

إنهم يقوضون المحور الذي يدافع عن نفسه بلا طائل
وكل منهم يريد أن يكرّم يده بضربة .
وأخيراً ، هوت الآلة تحت كثير من الجهد ،
وانفتح هيكلها ، وترجّح ، وانفجر وهوى .

لا شك أن الإلماح إرادي ، وفي كلّ حال ، فهو ليس عرضيا تماماً ، فهيغو ، المتشدد تجاه بوالو كناقد ، كان معجباً بالمقابل ببوالو كفنان في اللغة والشعر . وفي ذكرياته في غيرنيزيه ، يظهر لنا ستابفير وهو يستظهر «بتلذذ متذوق أدبي» مقطعاً آخر من المقرأ (النشيد الخامس) ، وهو المعركة بضربات من الكتب ، والذي يمكن مقارنته أيضاً بسقوط سان – بارتيلمي:

عند هذه الكلمات ، أمسك بمجموعة قوانين تفسيريّة .
ضخمّتهما رؤى أكورس وأليسا
والأطمار التي لا فائدة منها لكتابة قوطيّة ،
كانت تشكل أربعةُ ألواح خشبية غطاءها .
والمحاطة جزئيّاً برقّ قديم اسود ،
وكانت تتدلّى منه بقيةٌ من مغلاقٍ بثلاثة مسامير .

إنه توسع معرفي طريف ، وتهكّم بحق «الكتب» الضخمة العالمة ، ودقة في المفردات وغنى ، وأسلوب بطوليّ – هزلي ، فكل شيء هنا يقرّب هيغو من بوالو . ونحن ندرك ميل فلوبير لتلك الحادثة . والتي أُدرجت بصورةٍ غير متوقعة وخيالٍ مبدع تصويري في منتصفِ رواية الأزمنة الثوريّة .

لقد كانوا مبهورين، ولم يسحقوا، وكل مغامرات الغزاة لا تنتهي نهاية جيدة كهذه.

وشأن كلّ الأمجاد؛ فقد أحدث هذا ضجّة كبرى، وغيمة من الغبار.

بعد أن طرح رينيه – جان الكتاب أرضاً نزل عن كرسيّه.

كانت هناك لحظةُ صمتٍ وذعر، فللنّصر مخاوفُه المرعبة، وقد تماسك الأطفال الثلاثة بالأيدي عن بعدٍ، وهم يتأملون المجلّد العريض المفكّك.

غير أن غروزالان، بعد قليل من التفكّر، اقترب من الكتاب بعزم ووجّه له لبطة.

انتهى الأمر. فشهيّة التدمير موجودة، وقد وجّه رينيه – جان لبطته للمجلّد، ووجهت جورجيت له لبطتها، وهذا ما جعلها تسقط على الأرض، ولكن جالسة. فأفادت من ذلك لكي تنقض على سان – بارتيلمي. لقد زالت كلّ هيبة؛ فهرع رينيه – جان ووثب غروزالان، وإذ كان الأطفال فرحين، ومندفعين، وظافرين، وبلا رحمة، وهم يمزّقون الرّشمات، ويشجّون الصّفيحات، وينتزعون دلالات الصّفحات، ويخدشون التجليد، ويقتلعون الجلد المذهّب، ويسحبون مسامير الزوايا الفضية، ويكسرون الرّق، ويشرشرون النصّ العظيم، مستخدمين أقدامهم، وأيديهم، وأظافرهم، وأسنانهم الورديّة، وهم ضاحكون[٨٠] وشرسون، فقد كان الملائكة الثلاثة الكواسرُ ينقضون على الإنجيلي المحروم من الحماية.

لقد دمّروا إرمينيا، واليهوديّة، والبينيفان التي ترقد فيها ذخائر القدّيس ناثنائيل، والذي قد يكون بارتيلمي نفسه، والبابا جيلاز الذي أعلن إنجيل بارتيلمي – ناثنائيل مزيّفاً، وكلّ الصّور، وكلّ الخرائط. وقد انهمكوا في الإعدام الذي لا يرحم للكتاب القديم إلى درجة كبيرة بحيث أن فأرةً قد مرّت من غير أن يعيروها انتباهاً. لقد كان ذلك إبادة[٨١].

إن هزيمة التاريخِ والأسطورةِ، والعلم، والمعجزات، الحقيقي منها والزائف، واللغة اللاتينيَة للكنيسة، والمعتقداتَ الباطلة، وضروب التعصّب، والأسرار، وتمزيق دينٍ كامل من أعلى إلى أسفل، هذا عملٌ يقوم به ثلاثة عمالقة، وحتى ثلاثة أطفال.

لقد انقضت الساعات في هذا العناء، ولكنهم فرغوا منه؛ فلم يتبقَّ شيء من بارتيلمي.

عندما انتهى الأمر، وفصلت الصفحة الأخيرة، وحين أصبح الرّشم الأخير على الأرض، وحين لم يعدْ هناك من الكتاب إلاّ أجزاء من النصوص، وصور ضمن هيكل التجليد، انتصب رينيه - جان واقفاً، ونظر إلى الأرضية الخشبية التي تنتثرُ عليها كلّ تلك الأوراق المبعثرة، وصفّق.

وصفّق غروزالان.

أمسكت جورجيت بإحدى تلك الأوراق، ونهضت، واستندت إلى النافذة التي كانت تصل إلى ذقنها، وأخذت تمزّق الصّفحة الكبيرة إلى قطع صغيرة من خلال النافذة.

وما إن رأى رينيه - جان وغروزالان ذلك حتى فعلا الأمر نفسه؛ فالتقطا الأوراق ومزّقاها، والتقطا أوراقاً ومزّقاها أيضاً، ومن خلال النّافذة مثل جورجيت؛ وطار الكتابُ العميقُ كلّه تقريباً في الرّيح صفحةً فصفحة، بعد أن فتّته تلك الأصابع الصغيرة الضارية. أما جورجيت، المتفكّرة، فقد نظرت إلى تلك الأسراب من الأوراق الصّغيرة البيضاء تتشتّتُ مع كل هبّات الهواء وتقول:

- فراشات.

وانتهت المذبحة بتلاشٍ في السماء اللازورديّة.

* * *

VII

كان ذلك هو الإعدام الثاني لسان - بارتيلمي الذي كان قد استشهد للمرة الأولى في العام ٤٩ للميلاد.

مع ذلك، فقد كان المساء يحلّ، والحرارة تزداد، والقيلولة وشيكة، فأخذت عينا جورجيت تغدوان غير واضحتين، ومضى رينيه - جان إلى مرقده، وسحب منه كيس القش الذي كان يقوم مقام فراش له، وجره حتى النّافذة[٨٢] وتمدّد عليه وقال:

لنرقد. وضع غروزالان رأسه على رينيه - جان، ووضعت جورجيت رأسها على غروزالان، ونام الجناة الثلاثة.

كانت النفحات الفاترة تدخل عبر النوافذ المفتوحة[١]، وروائح الزّهور البرّية التي تطير من الوهاد ومن الهضاب، كانت تطوف مختلطة بأنفاس المساء. كان الفضاء هادئاً ورحيماً[٨٣] وكان كلّ شيء مشرقاً، وكل شيء يهدأ، وكلّ شيء يحبّ كلّ شيء، وكانت الشمس تمنح الخليقة هذه المداعبة، التي هي النور، وكان المرء يستقبل بكيانه كلّه[٨٤] الانسجامَ الذي يصدر عن عذوبة الأشياء الهائلة؛ كانت هناك أمومةٌ في اللانهائي، فالخليقةُ معجزةٌ في أوج تفتحها، وهي تكمل ضخامتها بطيبتها؛ وكان يبدو أن المرء يحس بكائنٍ غير

(١) إن نشيد الشّفق الرائع هذا يفصّل في أحد التصورات (في عداد تصورات أخرى) التي كوّنها فيكتور هيغو عن الطبيعة: إنه التصوّر المتفائل للطبيعة عند الإقتدار، والمحبة التي تحمي البراءة. فلنقارنها بـ «مشهد مطمئِن «في» الأشعة والظلال»، ومع مقطوعات عديدة في التأملات (إلى الأشجار): Mgitusque Boum والفن في أن يكون المرء جدّاً، والقيثارة كلّها.

مرئي يتخذ هذه الاحتياطات الغامضة التي تحمي الضعفاء من الأقوياء، ضمن نزاع الكائنات المخيف؛ وفي الوقت نفسه؛ فقد كان ذلك جميلاً. وكان البهاء يعادل الوداعة، وكان للمنظر المرنّق العينين بشكلٍ لا يوصف، ذلك التموّجُ الرّائع الذي تصنعه تنقّلات الظل والنور، على المروج وعلى الأنهار. كانت الأدخنة تتصاعد نحو الغيوم، كما تتصاعد أحلام اليقظة نحو الرؤى، وكانت طيراناتُ العصافير تدوّم فوق لاتورغ، وكانت السنونوات تنظر من خلال النوافذ، وتبدو وكأنها تأتي لترى إن كان الأطفال ينامون جيداً. لقد كانوا متكوّمين أحدهم على الآخر على نحوٍ لطيف، بلا حركة، وهم عراة جزئياً، في وضعيات محبّة؛ لقد كانوا رائعين وأنقياء، ولم يكن لثلاثتهم مجتمعين من العمر تسعة أعوام، وكانوا يحلمون أحلاماً فردوسيّة تنعكس على أفواههم بابتسامات مبهمة. ربّما كان الرّب يكلّمهم في أذنهم. كانوا أولئك الذين تسميهم كافة اللغات البشرية بالضعفاء والمباركين. كانوا أنقياء القلوب الموقّرين. وكان كل شيء يصمت وكأن نَفَس صدورهم الرّقيقة هو شأن الكون، وتصغي إليه الخليقة بكاملها، فلم تكن الأوراق تحفّ، ولم تكن الأعشاب ترتعش، وكان يبدو أن العالم الواسع المليء بالنجوم يحبس تنفّسه لئلا يزعج هؤلاء النائمين الملائكيين المتواضعين، ولم يكن هناك شيء سامٍ كالاحترام الهائل الذي تبديه الطبيعة حول ذلك الصّغر.

كانت الشمس ماضيةً إلى المغيب وهي تلامسُ الأفق تقريباً. وفجأة، وفي ذلك الهدوء العميق، التمع برق خارج من الغابة، ثم انفجر صوتٌ مخيف؛ فقد أطلقت للتوّ قذيفة مدفع؛ فهيمنت الأصداء على ذلك الصوت، وصنعت منه فرقعة. وكان الهديرُ الممتدّ من هضبة إلى هضبة شيطانياً، فأيقظ جورجيت.

أعلت رأسها قليلاً، ورفعت إصبعها الصغير، وأصغت وقالت:

— بوم.

توقف الصّوت، وعاد كل شيء إلى سكونه؛ فوضعت جورجيت رأسها من جديد على غروزالان، وأغفت ثانية.

* * *

الكتاب الرابع

الأم

I

الموت يمرّ

في ذلك المساء، كانت الأم التي رأيناها تمشي على غير هدىً تقريباً، قد سارت طيلة النهار. وكانت تلك هي قصتها في كلّ يوم، فوق ذلك. كانت تمضي إلى الأمام ولا تتوقف قط، فإغفاءاتُ الإرهاق التي تغفوها في أول زاوية تعرض لها لم تكن استراحة أكثر مما كان ما تأكله في هذا المكان أو ذاك يعتبر غذاء، وهو أشبه ما يكون بنقر الطيور. كانت تأكلُ وتنام بقدر ما يلزمها تماماً لكي لا تسقط ميتة.

كانت قد أمضت الليلة الفائتة في مستودعِ حصيدٍ مهجور؛ فالحروبُ الأهليّة تخلق مثل تلك المساكن المتداعية؛ وكانتَ قد وجدت في حقلٍ مقفرٍ أربعة جدران وباباً مفتوحاً، وقليلاً من قش تحت بقيةٍ من سقف، ورقدتَ على ذلك القش وتحت ذلك السقف، وهي تحسّ من خلال القش بانسلال الفئران وترى من خلال السقف طلوع النجوم. كانت قد نامت بضع ساعات، ثم استيقظت في منتصف الليل، وعاودت المسير لكي تقطع أكبر مسافة ممكنة قبل

حرّ النهار الشديد. إن منتصف الليل أكثر اعتدالاً من الظهيرة، بالنسبة لمن يسافر صيفاً على قدميه.

كانت تتبع بأقصى جهدها المسارَ المختصرَ الذي كان قد دلّها عليه فلاّح ڤوتورت؛ وكانت تسير بقدر الإمكان باتجاه الغروب. ومن كان يمكنه أن يكون بقربها، كان يمكن أن يسمعها تقول وباستمرار: لاتورغ. وإضافة إلى أسماء أطفالها الصغار الثلاثة، لم تكن تعرف إلا تلك الكلمة.

كانت تحلم أثناء سيرها، وكانت تفكّر بالمغامرات التي عاشتها، كانت تفكر بكلّ ما عانته، وبكل ما قبلت به، وباللقاءات، والأفعال الشائنة، والشروط المفروضة، والصفقات المعروضة والتي احتملتها، من أجل ملجأ حيناً، ومن أجل قطعة خبز حيناً، وللحصول بكل بساطة على أن يدلّوها على طريقها حيناً. إن امرأة بائسة هي أكثر شقاءً من رجلٍ بائس؛ لأنها أداة للذّة[1]. فيا للمسير الهائم الفظيع! وفوق ذلك، فقد كان كلّ شيء لديها سواء فعلاً، بشرط أن تعثر على أطفالها.

كان أول شيء التقته، في ذلك اليوم، هو قرية على الطريق. كان الفجر لم ينبلج إلا قليلاً، وكان كلّ شيءٍ غارقاً في عتمة الليل. ومع ذلك؛ فقد كانت بعض الأبواب قد انفرجت قليلاً في شارع القرية الكبير، وكانت بعض الرؤوس الفضولية تخرج من النوافذ، والسكان يتحركون مثل قفيرِ نحلٍ جرى إزعاجه. وكان ذلك مردّه، إلى جلبةٍ أحدثتها ضجّة عجلات، وحدائد هالكة تناهت إلى الأسماع.

في الساحة، وأمام الكنيسة، كانت هناك جماعة مذهولة، وعيونها في الهواء، تنظر إلى شيء ينزل من الطريق باتجاه القرية من أعلى إحدى الهضاب. كان ذلك عجّالةً ذات أربع عجلات، وتجرّها خمسةُ خيول مربوطة بسلاسل. وعلى العجّالة كان المرء يميّز تراكماً يشبه كومة من عوارض طويلة، وفي وسطها

---

(١) تذكّر لشخصيّة فانتين في البؤساء.

كان هناك شيء لا شكل له، وغير واضح، وكان مغطّى بغطاء واقٍ كبير له مظهر كفن. وكان عشرةُ رجال مع خيولهم يسيرون أمامَ العجّالة وعشرة آخرون وراءها. وكان هؤلاء الرّجال يعتمرون قبعات ذات ثلاث زوايا، وكان المرء يرى من فوق أكتافهم أسنة منتصبة تبدو كأنها سيوفٌ مجرّدة. وكان هذا الموكب كلّه. والذي يتقدّم ببطء يبرز بوضوح على الأفق بلون أسود[٨٥] فاقع. كانت العجّالة تبدو سوداء، والمقرن يبدو أسود، والخيّالة يبدون سوداً، وكان الصباح يشحب خلفهم.

دخل ذلك الشيءُ إلى القرية وتوجّه نحو السّاحة، كان نور الصباح قد بدأ ينبلج قليلاً أثناء نزول تلك العجّالة، فأصبح بالإمكان على نحوٍ واضح رؤية الموكب الذي كان يتبدّى مثل مسيرة أخيلة، فلم تكن تصدر عنه أيّة كلمة.

كان الخيّالة دركيين، وكانوا يحملون في الحقيقة سيفاً مجرّداً، وكان الغطاء الواقي أسود.

دخلت الأم البائسة من جهتها إلى القرية، واقتربت من تجمهرٍ للفلاّحين، في اللحظة التي كانت تصل فيها تلك العربة وهؤلاء الدركييّن. وفي الجمهرة، كانت أصوات تهمس بأسئلة وأجوبة:

– وماذا يكون هذا؟

– إنها المقصلة التي تمرّ.

– من أين تأتي؟

– من فوجير.

– وإلى أين تذهب؟

– لا أدري. يُقال إنها ذاهبة إلى قصرٍ من ناحية بارينييه.

–إلى بارينييه!

– فلتذهبْ حيث تشاء بشرط ألاّ تتوقف هنا.

لقد كانت تلك العربة الكبيرة وحمولتها المغطّاة بنوعٍ من كفن، وذلك المقرن، وهؤلاء الدركيين، وضجيج تلك السلاسل، وصمت أولئك الرّجال، وساعة الشفق، كلّ ذلك المجموع كان شبحيّاً[1].

اجتازت تلك الزمرة السّاحة، وخرجت من القرية. وكانت القرية في مُنخفضٍ من الأرض بين صعود وهبوط. وبعد ربع ساعة، رأى الفلاحون الذين بقوا هناك كأنهم قد تحجّروا، رؤوا الموكب الكئيب يظهر ثانية في قمّة الهضبة التي كانت في الغرب. كانت الأخاديدُ تهزّ العجلات الضخمة، وسلاسلُ المقرن تجلجل مع ريح الصباحِ، والسّيوفُ تلتمع. كانت الشمس تشرق، فانعطفت الطريق، وتوارى كلّ شيء.

كانت تلك هي اللحظة نفسها التي كانت تستيقظ فيها جورجيت، في قاعة المكتبة، إلى جانب أخويها اللذين لم يزالا نائمين، وتلقي تحيّة الصّباح على قدميها الورديتين[2].

* * *

(١) أجر مقارنة مع لوحة مماثلة، هي رسم مشؤوم يبرز على ارضية لصباح داكن في البؤساء (القسم الثاني –٣) وهي سلسلة المحكومين بالاشغال الشّاقة السّائرين إلى السّجن.

(٢) من خلال تناقضٍ مماثل، تكون الصّغيرة كوزيت في البؤساء شاهدة على المشهد الرّهيب، مشهد رحيل المحكومين بالأشغال الشّاقة.

II

الموت يتكلّم

كانت الأم قد رأت ذلك الشيء الغامض يمرّ، غير أنها لم تكن قد فهمت أو سعت لتفهم شيئاً، لأن رؤيا أخرى كانت أمام ناظريها، وهي أطفالها الضّائعون في غياهب الظلام.

خرجت من القرية، هي أيضاً، بعد وقتٍ قليل من خروج الموكب الذي تتابع للتو، وتبعت الطريق نفسها، على مسافة معينة وراء الزمرة الثانية للدرك. فجأة رجعت إلى ذهنها كلمةُ «مقصلة»، ففكّرت قائلة: «مقصلة» إن المرأة المتوحشة، ميشيل فليشار لم تكن تعرف ماذا تعني هذه الكلمة؛ غير أن الغريزة تحذّر، فأحسّت برعشة، من غير أن يكون بوسعها أن تقول لماذا. وبدا لها أمراً رهيباً أن تسير وراء ذلك الشيء، فانجرفت إلى اليسار، وتركت الطريق، وتوغلت تحت الأشجار التي كانت غابة فوجير.

بعد أن تجولت لبعض الوقت لمحت قبة جرس وسطوحاً. وكان ذلك قريةً في تخوم الغابة، فمضت إليها، وكانت جائعة.

كانت تلك القرية هي إحدى تلك القرى التي أقام فيها الجمهوريّون مراكز عسكريّة توغلت فيها حتى ساحة مقر العمدة.

في تلك القرية كان هناك أيضاً اضطرابٌ وقلق.

كان ثمّة تجمّع يحتشد أمام درج مدخلٍ مكوّن من بضع درجات هو مدخل مقر العمدة. وعلى هذا الدرج، كان المرء يلمح رجلاً يرافقه عدد من الجنود، ويحمل بيده إعلاناً كبيراً مبسوطاً. وكان على يمين ذلك الرجل قارع طبل، وعلى يساره ملصق إعلانات يحمل سطلاً من الغراء وفرشاة.

على الشرّفة، وفوق الباب، كان العمدة واقفاً، ومتوشّحاً بالوشاح الثلاثي الألوان المختلط بملابسه الفلاّحيّة.

أما الرّجل الذي كان يحمل الإعلان فهو منادٍ عام.

كان يحمل حمّالة الجولات التي يعلّق بها خرجاً صغيراً، وهذا ما كان يدلّ على أنه يمضي من قريةٍ إلى قرية، وأن لديه شيئا ينادي به في المنطقة كلّها.

في اللحظة التي اقتربت فيها ميشيل فليشار، كان الرّجل قد انتهى للتو من بسط الإعلان، وبدأ القراءة، فقال بصوتٍ عال:

- «الجمهوريّة الفرنسيّة، الموحّدة والتي لا تتجزأ»

أحدث الطبل قرعاً. وكان ثمّة نوع من التموّج في التّجمّع. نزع البعض قبّعاته، وغرز آخرون قبّعاتهم في رؤوسهم.

في ذلك الزّمن، وفي تلك المنطقة، كان يمكن للمرء أن يتعرّف الرأي من خلال عمرة الرأس؛ فقد كانت القبعاتُ ملكيّةً، والقلنسواتُ جمهوريّةً. وقد توقّفت همسات الأصوات المشوّشة، وأصغى الناس للمنادي الذي قرأ:

«بموجب الأوامر المعطاة لنا والسلطات التي فوّضتنا بها لجنة السّلامة العامّة...»

وقرع الطبل من جديد، فتابع المنادي يقول:

«... وتنفيذاً لمرسوم المؤتمر الوطني الذي يعلن المتمرّدين الذين يقبض عليهم والسّلاح بأيديهم خارجين عن القانون، والذي يعاقبُ بالحكم الأقصى كلّ شخصٍ يؤويهم أو يجعلهم يهربون...»

وسأل أحد الفلاحين جاره بصوتٍ منخفض:

– وماذا يكون هذا الحكم الأقصى؟ فأجابه جاره: لا أدري.

وهزّ المنادي الإعلان وهو يقول:

«. . . نظراً للمادة ١٧ من قانون الثلاثين من نيسان والذي يعطي المفوّضين ووكلاء المفوضين السّلطة الكاملة على المتمرّدين».

«ويعتبر خارجاً على القانون . . .»

وتوقف لفترة صمتٍ ثم استأنف يقول:

– «. . . الأفراد الذين يُدلّ عليهم بالأسماء أو الألقاب التالية . . .»

فأصاخ التّجمّع كلّه السّمع.

وغدا صوت المنادي راعداً، وقال:

– «. . . لانتوناك، قاطع الطريق».

فهمس أحد الفلاّحين:

– إنه سيّدي الإقطاعي.

وسُمع في الحشد الهمسُ التّالي:

– إنه سيّدنا الإقطاعي.

فتابع المنادي:

«. . . لانتوناك، المركيز السّابق، قاطع طريق وليمانوس، قاطع طريق . . .»

ونظر فلاّحان كلٌّ منهما إلى الآخر جانبيّاً:

– إنه غوج لوبرويان.

– أجل ، إنه بريز بلو .

وكان المنادي يواصل قراءة القائمة:

– « . . . غران فرانكور ، قاطع الطريق . . . »

فهمس التجمّع:

– إنه كاهن .

– أجل ، رئيس الدّير تيرمو .

– أجل في مكانٍ ما ، بجانب حرش دولا شاييل . إنه خوريّ .

وقال رجلٌ يعتمر قلنسوة:

– وقاطع طريق .

فقرأ المنادي:

– « . . . بوانوفو ، قاطع الطريق والأخوان بيك أن بوا ، قاطعا الطريق وهوزار ، قاطع الطّريق . . . » .

فقال أحد الفلاحين:

– إنه السيّد دوكلين .

– وبانييه ، قاطع الطريق .

– إنه السيّد سيفير .

– « . . . وبلاس نيت ، قاطع الطّريق . . . » .

– إنه السيّد جاموا .

وكان المنادي يتابع قراءته من غير أن يهتم بهذه التعليقات .

- «... غينوازو، قاطع الطّريق وشانتونيه المدعو بروبي، قاطع الطّريق...»

وهمس أحد الفلاّحين:

- إن غينوازو هو لوبلون نفسه، أما شانتونيه فهو من سانت أوين.

واستأنف المنادي يقول:

- «... هواسنار، قاطع الطّريق»

وسُمع في الحشد من يقولون:

- إنه من روييه.

- أجل، إنه برانش دور.

- له أخٌ قد قتل في هجوم بونتورسون

- أجل، هواسنار مالونيير.

- فتى وسيم في التاسعة عشرة من عمره.

وقال المنادي:

- انتباه، إليكم نهاية القائمة:

- «... بيل فينيي، قاطع الطّريق لاموزيت، قاطع الطريق، سابر تو، قاطع الطريق بران دامور، قاطع الطّريق...».

دفع أحد الصّبيان مرفق إحدى الفتيات، فابتسمت الفتاة.

وتابع المنادي يقول:

- «... شانت أن إيفير، قاطع الطّريق ولوشا، قاطع الطّريق...».

قال فلاّح:

– هذا مولار.

– «. . . تابوز، قاطع الطّريق. . .».

وقال فلاّح:

– إنه غوفر.

وأضافت امرأة:

– آل غوفر، هما اثنان.

فدمدم فتى:

– إنهما رجلان طيبان كلاهما.

هزّ المنادي الإعلان، وقرع ضارب الطبل دقّة الإعلان.

فتابع المنادي قراءته:

– «. . . إن المذكورين أعلاه، وفي أي مكان يقبض عليهم فيه، وبعد التأكد من هوّيتهم، يعدمون فوراً».

وحدثت حركة.

فواصل المنادي يقول:

– «. . . إن أي إنسان يؤمّن لهم الملجأ. ويساعد على هروبهم يحال إلى محكمة عرفية، ويعدم. التّوقيع. . .».

غدا الصّمت عميقاً.

– «. . . التوقيع: مندوب لجنة السّلامة العامّة، سيموردان».

فقال أحد الفلاحين:

– الكاهن.

وقال آخر:

– خوري بارينييه السّابق.

وأضاف أحد المدنيين (البرجوازيين):

– تيرمو وسيموردان. كاهن أبيض وكاهن أزرق

وأضاف مدني آخر:

– إنهما أسودان كلاهما.

أما العمدة الذي كان على الشّرفة، فقد رفع قبعته وهتف:

– عاشت الجمهوريّة!

وأعلن الطبل أن المنادي لم ينهِ كلامه بعد. وقد قام بإشارةٍ من يده، في الواقع، وقال:

– انتبهوا. هذه هي الصفحات الأربع الأخيرة لإعلان الحكومة. وهي موقّعةٌ من قائد طابور حملة كوت دي نور، والذي هو الآمر غوفان.

فقالت أصوات الحشد:

–أصغوا!

وقرأ المنادي:

– «تحت طائلة عقوبة الموت...».

وسكت الجميع.

– « . . . يحظّر، تنفيذاً للأمر المذكور أعلاه، تقديمُ المعونة والنجدةُ للمتمرّدين التسّعة عشر المذكورين آنفاً، والذين هم محاصرون ومطوّقون في هذه السّاعة، في لاتورغ».

فقال أحد الأصوات:

– ماذا؟

كان ذلك صوت امرأة، كان صوت الأمّ.

* * *

III

غمغمة الفلاّحين

كانت ميشيل فليشار قد اختلطت بالفلاحين. ولم تكن قد أُصغت إلى شيء، غير أن ما لا نصغي إليه، نسمعه. كانت قد سمعت هذه الكلمة: لاتورغ، فرفعت رأسها، ورددّت:

– ماذا؟ لاتورغ؟

نظروا إليها. وكانت تبدو شاردة، وترتدي أسمالاً بالية؛ فهمست بعض الأصوات تقول:

– إن لها هيئة لصّة متسكّعة.

اقتربت فلاّحة تحمل فطائر من الحنطة السّوداء في سلّة. وقالت لها بصوتٍ جدّ خفيض:

– اسكتي.

تأملت ميشيل فليشار تلك المرأة بذهول. ومن جديد، لم تعد قادرة على الفهم. فهذا الاسم، لاتورغ، كان قد مرّ كالبرق، وكان الليل يتبدّل. أفلم يكن يحقّ لها أن تستعلم؟ وعلام ينظرون إليها إذن على هذا النّحو؟

مع ذلك؛ فقد كان الطبل قد قرع آخر دقّة للإعلان، وكان ملصق

الإعلانات قد ألصق الإعلان، وكان العمدة قد دخل إلى مقرّ العموديّة، والمنادي قد ذهب إلى قرية أخرى، وتفرّق التجمّهر الصّاخب.

كانت هناك زمرة قد بقيت أمام الإعلان. فذهبت ميشيل فليشار إلى تلك الزّمرة.

كان يجري التعليق على أسماء الرّجال الذين يُعدّون خارجين على القانون.

كان هناك فلاّحون وبرجوازيّون، أي بيضٌ وزرق.

وكان هناك فلاّحٌ يقول:

– الأمر سيان. فهم لا يمسكون بالجميع؛ فتسعة عشر ليست إلاّ تسعة عشر. إنهم لا يمسكون بريو[٨٦]، ولا يمسكون بينجامان مولان، ولا يمسكون بغوبيل الذي هو من خورنيّة أندوييه.

وقال آخر:

– ولا بلوريول، وومونجان.

– ولا بيرايس دوني.

– ولا بفرانسوا دودويه.

– أجل، الذي من لافال.

– ولا بهوييه ولا بلونيه فيلييه.

– ولا بغريجيس.

– ولا ببيلون.

– ولا بفيّول.

– ولا بمنيسان.

– ولا بغيهاريّه .

– ولا بالإخوة لوجوريه الثلاثة .

– ولا بالسيّد لوشاندولييه دو بيرفيل .

فقال عجوزٌ صارم أبيض الشّعر:

– أيّها الحمقى! إنهم يمسكون بكلّ شيء ، إن كانوا يمسكون بلانتوناك .

فهمس أحد الشبّان:

– لم يقبضوا عليه بعد .

فردّ العجوز قائلاً:

– إذا ما قبض على لانتوناك ، فقد قُبض على الرّوح . وإذا مات لانتوناك ، فقد قُتلت الفانديّه .

وقال أحد المدنيين:

– ومن يكون إذن لانتوناك هذا؟

فأجابه مدنيّ:

– إنه نبيلٌ سابق .

وتابع آخر يقول:

– إنه أحد أولئك الذين يطلقون النّار على النّساء .

سمعت ميشيل فليشار ، وقالت:

– هذا صحيح .

استدار الناس إليها .

فأضافت:

- إذ أطلقوا النّار عليّ.

كانت الكلمة تثير الغرابة؛ فقد أحدثت الأثر الذي تحدثه امرأة حيّة تقول إنها ميّتة. وأخذوا يعاينوها شزرا إلى حدّ ما.

كانت حالها مقلقة فعلاً، وترتعدُ من كلّ شيء، وكانت مذعورة، ومرتعشة.

ففي يأس المرأة شيءٌ من الضعف الرّهيب الذي لا ندري ما هو؛ فنظن أننا نرى كائناً معلّقاً بطرف القدر. غير أن الفلاّحين يضخمون الأمر أكثر. فقد دمدم أحدهم قائلاً: - يمكن أن تكون هذه جاسوسة.

فقالت له بصوت جدّ خفيض امرأةٌ مسنّة:

- فلتسكت إذن، وتمضِ من هنا.

وردّت ميشيل فليشار قائلة:

- أنا لا أؤذي أحداً. وأبحث عن أولادي.

نظرت المرأة المسنّة إلى أولئك الذين كانوا ينظرون إلى ميشيل فليشار، ولمست جبينها بإصبعها وهي تغمز بعينها، وقالت:

- إنها امرأة بريئة.

ثمّ انتحت بها جانباً، وأعطتها فطيرة من الحنطة السوداء.

قرضت ميشيل فليشار الفطيرة بنهم من غير أن تشكر المرأة.

وقال الفلاّحون:

- نعم، إنها تأكل مثل حيوان. إنها بريئة.

تبدّدت بقيّة التّجمّع، ومضى الجميع واحداً بعد الآخر.

بعد أن أكلت ميشيل فليشار، قالت للفلاّحة:

- حسناً، لقد أكلت، والآن، أين لاتورغ؟

فهتفت الفلاّحة:

- ها قد عاودها الأمر!

- يجب أن أذهب إلى لاتورغ؛ فدلّوني على طريق لاتورغ.

فقالت الفلاّحة:

- إطلاقا! لكي تتعرّضي للقتل، أليس كذلك؟ ومن جهة أخرى؛ فأنا لاأعرفه.

عجباً، هل أنت إذن مجنونة حقّاً؟ اسمعي أيّتها المرأة المسكينة. تبدين متعبة. فهل تريدين أن تستريحي في منزلي؟

فقالت الأم:

- أنا لا أستريح.

وهمست الفلاّحة:

إن قدميها متسلّختان تماماً.

ورددت ميشيل فليشار:

- بما أني أقول لك إنهم قد سرقوا أطفالي، بنتاً صغيرة وصبيين صغيرين. إني آتية من المخبأ المحفور، الذي في الغابة. ويمكن أن تتكلّموا عنّي مع تيلمارش الشّحاذ. ثمّ مع الرّجل الذي التقيته هناك في الحقل. إن الشحّاذ هو الذي شفاني. ويبدو أنه كان بي شيء مكسور. كلّ ذلك أشياء قد حدثت. وهناك

أيضاً الرّقيب رادو. ويمكن أن تتحدّثوا معه. ولسوف يتكلّم: فهو الذي التقانا في أحد الأحراش. ثلاثة. أقول لكم ثلاثة أطفال. وحتى أن أكبرهم يُدعى رينيه جان. وبإمكاني أن أثبت لكم كلّ ذلك. أما الآخر فيدعى غروزالان، والأخرى تدعى جورجيت. لقد مات زوجي، فقد قتلوه. وكان يعمل مؤاكراً في سيسكوانيار. وأنت يبدو عليك أنك امرأة طيبة. فأرشديني إلى طريقي. وأنا لست مجنونة. إني أمّ. لقد فقدت أطفالي، وأنا أبحث عنهم، هذا كلّ شيء. ولا أعلم بالضبط من أين أتيت؛ فلقد نمت هذه الليلة على القشّ في أحد مستودعات الحصيد. لاتورغ، هذا هو المكان الذي أذهب إليه. أنا لست سارقة. وأنتم ترون فعلاً أنني أقول الحقيقة. ولا بدّ من مساعدتي على العثور على أبنائي. أنا لست من المنطقة. وقد أطلقوا علي النار، ولكن لا أدري أين.

هزّت الفلاّحة رأسها وقالت:

– أصغي، يا عابرة السبيل. في أزمنة الثّورة، لا ينبغي أن نقول أشياء لا نفهمها، فهذا يمكن أن يؤدي إلى اعتقالك.

صرخت الأمّ:

– ولكن أين لاتورغ! يا سيدتي. حبّاً بالطفل يسوع، والقدّيسة الطّيبة عذراء الفردوس، أرجوك يا سيدتي، وأتوسّل إليك، وأتضرّع، قولي لي، من أيّة جهةٍ أذهب للوصول إلى لاتورغ!

فغضبت الفلاّحة وقالت:

– لا أدري! وقد أدري ولا أقول! إنها أمكنة سيّئة. فلا يذهب النّاس إليها.

فقال الأمّ:

– إنّي ذاهبة إليها مع ذلك.

وعادت إلى المسير .

رأتها الفلاّحة تبتعد ودمدمت:

– لابدّ مع ذلك أن تأكل .

وركضت خلف ميشيل فليشار ، ووضعت في يدها فطيرة من الحنطة السّوداء .

– هذه لعشائك .

أخذت ميشيل فليشار فطيرة الحنطة السّوداء ، ولم تردّ ، وواصلت المسير .

خرجت من القرية . وحين بلغت المنازل الأخيرة ، التقت ثلاثة أطفال صغار رثيثي الثياب ، وحفاة يمرّون ، اقتربت منهم وقالت:

– هؤلاء بنتان وصبيّ .

إذْ لاحظت أنهم ينظرون إلى رغيفها ، فقد أعطتهم إيّاه .

أخذ الأطفال الرّغيف واعتراهم الخوف .

ودلفت إلى الغابة .

* * *

IV

سوء فهم

ومع ذلك، ففي ذلك اليوم نفسه، وقبل انبلاج الصباح، وفي عتمة الغابة غير الواضحة، حدث في جزء من الطريق التي تمتدّ من جافنيه إلى ليكوس مايلي:

في الحريج (لوبو كاج)، كان كلّ شيء طريقاً ضيّقة ومتعرّجة، وبين جميع الطرق، كانت الطّريق الممتدة من جافنييه إلى بارينبيه، مروراً بليكوس شديدة الانخفاض. إضافة إلى تعرجّها. إنها وهدةٌ أكثر منها طريق. إن هذه الطّريق تأتي من فيتريه، وكان لها الشرف أن تهزّ عربة مدام دو سيفينييه[1]. وكانت كأنها مسوّرة من اليمين ومن اليسار بالأسيجة الشّائكة. وما من مكان أفضل منها لنصب كمين.

في ذلك الصباح، وقبل أن تصل ميشيل فليشار بساعة إلى نقطة أخرى من الغابة، وصل إلى تلك القرية الأولى التي تجلّت لها فيها تجلّياً ضريحيّاً[٨٧] العربةُ التي يواكبها دركيّون، كان هناك في الأسيجة اليابسة التي تجتازها طريق جافنيه عند خروجها من جسر على نهر الكوينون، خليط من الرّجال غير المنظورين. كانت الأغصان تخفي كل شيء. وكان هؤلاء الرّجال فلاّحين ويرتدون سترةً بسيطة وهي سترة فارس غالي من الوبر كان يلبسها ملوك بروتانيا في القرن

(١) حين كانت تذهب إلى قصر دي روشيه، على بعد ٤ كم من فيتريه.

السّادس عشر، وفلاّحو القرن الثامن عشر. كان هؤلاء الرّجال مسلّحين، بعضهم بالبنادق وبعضهم الآخر بالبلطات، أما أولئك الذين كانت لديهم بلطات فقد فرغوا للتوّ من إعداد ضربٍ من محرقةٍ من حزم الحطب اليابسة وجذوع الصنوبر المقشورة في إحدى فرجات الغابةّ. ولم يبقَ إلاّ إضرام النّار فيها. أما أولئك الذين كانت لديهم بنادق، فكانوا يصطفّون على جانبي الطّريق في وضعيّة انتظار. ومن كان يمكنه أن يرى من خلال الأوراق، يلمح في كلّ مكان أصابع على الأزناد، وسبطانات قربيناتٍ مسددة من الفتحات التي كانت تصنعها تشابكات الأغصان. كان هؤلاء الناس متربصّين. وكانت كلّ البنادق تؤدي إلى الطريق الذي ابيضّ من نور النهار.

في ذلك الغسق، كانت أصوات خفيضة تتحادث:

– هل أنت متأكدٌ من هذا؟

– أجل، يقال ذلك.

– سوف تمرّ؟

– يقال إنها في المنطقة.

– لا ينبغي أن تخرج منها.

– يجب إحراقُها.

– نحن ثلاث قرى قد أتينا من أجل ذلك.

– أجل، ولكن المواكبة؟

– سنقتل المواكبة.

– ولكن هل ستمرّ عبر هذه الطريق؟

– يقال هذا.

– إذن فقد تأتي حينذاك من فيتريه؟

– ولم لا؟

– غير أنه كان يقال إنها آتية من فوجير .

– سواء أتت من فوجير أو من فيتريه ، فهي تأتي من الشّيطان .

– نعم .

– يجب أن تعود إليهما .

– نعم .

– فإلى بارينييه إنما قد تذهب إذن؟

– يبدو ذلك .

– لن تذهب إليها .

– كلاّ .

– كلاّ ، كلاّ ، كلاّ!

– انتبهوا .

غداً من المفيد أن يلتزموا الصّمت في الحقيقة ، لأن النهار قد بدأ يبزغ قليلاً .

فجأة ، حبس الرّجال المترصّدون أنفاسهم . وسُمعت[88] جلبةُ دواليب وخيول . نظروا من خلال الأغصان ، فميّزوا بصورة مبهمة في الطّريق المتعرّجة والضيّقة عربةً طويلة ، ومواكبةً على الخيول ، وشيئاً ما على العربة ، وكان ذلك يصل إليهم . قال ذلك الذي كان يبدو قائدهم:

– هذه هي!

فقال أحد المترصّدين:

- أجل، ومع المواكبة.

- كم هو عدد رجال المواكبة؟

- إثنا عشر.

- كان يُقال إن عددهم عشرون.

- إثنا عشر أو عشرون، فلنقتل الجميع.

- لننتظرْ حتى يصبحوا على مرمانا تماماً.

بعد ذلك بقليل، وفي أحد منعطفات الطّريق، ظهرت العربة ومواكبتها.

وصاح الزّعيم الفلاّحي:

- عاش الملك!

وانطلقت في آن مئةُ طلقةِ بندقية.

عندما تبدد الدخان، كانت المواكبة أيضاً قد تفرّقت، وسقط سبعةُ خيّالة، وهرب خمسة، فهرع الفلاّحون إلى العربة.

وهتف الزّعيم:

- عجباً، ليست هذه هي المقصلة، إنها سلّم.

كانت كلّ حمولة العربة في الحقيقة هي سلّم طويل.

كان الجوادان قد وقعا وجرحا، أما سائقُ العربة فقد قُتل، ولكن ليس بصورة جليّة.

وقال الزّعيم:

– الأمر سيّان. إن سلّماً له مواكبة هو شيءٌ مشبوه. وقد كانوا ذاهبين من ناحية بارينييه. وذلك من أجل تسلّق لاتورغ، بالتأكيد.

وصاح الفلاّحون:

– لنحّرق السلّم.

وأحرقوا السلّم.

أما العربةُ المأتميّة التي كانوا ينتظرونها، فقد كانت تسلكُ طريقاً أخرى، وكانت قد أصبحت على بعد فرسخين منهم، وفي تلك القرية التي رأتها ميشيل فليشار تمرّ فيها عند شروق الشمس.

* * *

V

صوت في البريّة[1]

بعد أن تركت ميشيل فليشار الأطفال الثلاثة الذين أعطتهم رغيفها، أخذت تمشي على غير هدىً عبر الغابة.

إذْ لم يشأ أحدٌ أن يدلها على طريقها، فقد كان لزاماً عليها أن تعثر عليه وحدها. كانت تجلس أحياناً، وتنهض، وتجلس من جديد. وكانت تشعر بذلك التعب المغمّ الذي يشعر به المرء في عضلاته أولاً، ثمّ ينتقل إلى عظامه، وهو تعبُ العبد. فقد كانت أمةً فعلاً. أمةً لأطفالها الضّائعين. وكان لا بدَّ من العثور عليهم. وكانت كلُّ دقيقة تنقضي يمكن أن يكون فيها هلاكُهم؛ فمن كان عليه واجبٌ كهذا لا حقّ له؛ وكان محظوراً عليها أن تستردّ أنفاسها. غير أنها كانت مرهقة حقّاً. وعلى تلك الدرجة من الإرهاق بحيث أن خطوة إضافية تشكّل مشكلة. فهل يمكنها القيام بها؟ كانت تسير منذ الصباح، ولم تعد تصادف قريةً، ولا منزلاً حتّى. وقد سلكت أولاً الشّعب الذي كانت ضروريّاً، ثمّ الذي لم يكن ضروريّاً، وانتهى بها الأمر إلى الضياع في وسط الأغصان التي يشبه بعضُها البعضَ الآخر. فهل كانت تقترب من الهدف؟ وهل أصبحت قريبة من نهاية عذابها؟ لقد كانت في درب الآلام، وكانت تحسّ بضنى المحطّة الأخيرة. فهل كانت ستسقط على الطريق، وتقضي هناك؟ في لحظةٍ معيّنة،

(١) باللاّتينية، في النّص. (م: ز. ع).

كان يبدو التّقدّم متعذّراً أكثر بالنسبة إليها. كانت الشمسُ تميلُ، وكانت الغابة معتمة، والشّعابُ قد امحّت تحت العشب، فلم تعد تدري ماسيحدث لها. لم يعد لها إلاّ الرّب. فأخذت تدعو، ولم يعدْ أحد يجيبها.

نظرت حولها، فرأت فرجةً بين الأغصان؛ فتوجّهت من تلك النّاحية، وألفت نفسها فجأة خارج الغابة.

كان أمامها وادٍ صغير ضيّق مثل خندق، وكان يسيل في أعماقه خيطٌ صافٍ من الماء بين الأحجار. فانتبهت حينئذ إلى أنها تشعرُ بظمأ محرق. فمضت إلى ذلك الماء، وجثت، وشربت.

أفادت من أنها كانت راكعةً لكي تصلّي.

حين نهضت، أخذت تسعى لإيجاد وجهتها. وخطت فوق السّاقية.

فيما وراء الوادي الضيّق الصّغير، كان ينبسط على مرمى البصر سهلٌ مرتفعٌ واسع، مغطىً بأشواك الغابات القصيرة، ويصعد بمستوى منحنٍ، ويملأ الأفق كلّه. كانت الغابة عزلةً، وذلك السّهل المرتفع قفراً. في الغابة، وراء كلّ شجيرة فتيّة، كان يمكن للمرء أن يصادف شخصاً ما؛ وعلى السّهل المرتفع، وإلى البعد الذي كان يمكنُ للنظّر أن يمتدّ فيه. وكانت بعضُ العصافير التي تبدو هاربةً، تطير بين شجيرات الخلنج.

حينذاك، وأمام ذلك التّخلّي الهائل، شعرت الأم المضطربةُ بأن ركبتيها تتراخيان، وغدت كأنها قد فقدت رشدها، فأطلقت في العزلة هذه الصّرخة الغريبة:

– هل هناك أحدٌ هنا؟

وانتظرت الرّد

فأتاها الرّد.

انفجر صوتٌ مكتوم وعميق ، وكان ذلك الصّوت يأتي من أعماق الأفق ، فارتدّ رجعه من صدىً إلى صدى ، وكان ذلك يشبه قصفة رعد ، إن لم يكن طلقةَ مدفع.، وكان يبدو أن ذلك الصّوت إنما يردُّ على سؤال الأم ، وأنه يقول:

– أجل.

ثمّ هيمن الصّمت .

انتصبت الأم ، وقد ارتدّت إليها الحياة . فقد كان هناك أحد ما . كان يبدو لها أنه قد أصبح لديها الآن من تكلّمه . كان قد فرغت من الشرّب والصّلاة؛ وأخذت قواها ترجع إليها . فبدأت تصعد السّهل المرتفع من الجهة التي قد سمعت فيها الصّوت الهائل البعيد .

فجأة ، رأت برجاً عالياً يبرز من أقاصي الأفق . وكان ذلك البرج وحيداً في ذلك المشهد البرّي . وكان شعاع من الشمس الغاربة يلوّنه بالأرجوان . لقد كانت على مسافة أكثر من فرسخ منه . وخلف ذلك البرج ، كانت تختفي في الضباب خضرةٌ كبيرة ، واسعة الانتشار هي غابة فوجير .

كان ذلك البرج يتبدّى لها في نقطة الأفق نفسها التي أتت منها تلك الزّمجرة التي بدت لها نداء . فهل كان ذلك البرجُ هو الذي أحدثَ ذلك الصّوت ؟

كانت ميشيل فليشار قد وصلت إلى قمّة السّهل المرتفع ، ولم يعد أمامها إلاّ السّهل؛

فسارت باتّجاه البرج .

* * *

VI

موقف

كان الوقت قد حان .

وكان المتصلب يقبض على من لا يرحم

وكان سيموردان يقبض بيده على لانتوناك .

كان المتمرّد العجوز الملكي قد قُبض عليه في ملجئه . ولم يكن بإمكانه أن يهرب بطبيعة الحال ، وكان سيموردان ينوي أن يقطع رأسَ المركيز في منطقته ، في المكان نفسه ، وعلى أراضيه ، وفي منزله تقريباً ، لكي يشهد المقرّ الإقطاعي سقوط رأس الرّجل الإقطاعي ، ولكي تكون الأمثولةُ جديرةً بالتّذكرّ .

هذا هو السبب في أنه قد أرسل في طلب المقصلة في فوجير ، وقد رأيناها للتو في طريقها .

كان قتل لانتوناك يعني قتل الفانديه ، وقتلُ الفانديه هو إنقاذُ فرنسا . فلم يكن سيموردان متردداً؛ فهذا الرّجلُ كان يشعرُ بأنه مرتاحٌ لقسوةِ واجبه الضارية .

بدا أن المركيز هالك ، ومن هذه النّاحية ، كان سيموردان مرتاحاً ، غير أنه كان قلقاً من جهة أخرى . فقد يكون الصّراع فظيعاً بالتأكيد ، وقد يديره

غوفان، ويودّ أن يتدخّل فيه ربّما؛ فقد كان في شخصيّة هذا الشاب شيء من طبع الجندي، وكان الرّجل الذي يلقي بنفسه في هذه المصارعة، بشرط ألا يقتل فيها؟ غوفان! ابنه! والحنان الوحيد الذي يشعر به على هذه الأرض! كان غوفان مغموراً بالسعادة حتّى ذلك الوقت، غير أن السعادة يصيبها العياء. وكان سيموردان يرتجف. وكان مصيره يتضمّن هذا الأمر الغريب في كونه بين رجلين من أسرة غوفان، وهو يريد لأحدهما الموت، ويريد الحياة للآخر.

لم تكن طلقةُ المدفع التي هزّت جورجيت في مرقدها، ونادت الأم من أعماق المناطق المعزولة قد صنعت إلاّ هذا. وسواء كانت مصادفةً، أو قصداً لدى المسدّد، فإن القذيفة التي لم تكن مع ذلك إلاّ قذيفة تحذيرية، كانت قد ضربت، وفزرت، وانتزعت جزئيّاً تسليح العوارض الحديدية الذي كان يموّه ويغلق كوّة الرمي الكبيرة، كوّة الطابق الأول للبرج. ولم يكن لدى المحاصرين الوقت لإصلاح ذلك الضرر.

كان المحاصَرون يتبجّحون، وكانت لديهم كميّةٌ قليلة جداً من الذخائر. وكان موقفهم، ولنؤكّد على هذا، أكثر حرجاً أيضاً مما كان يفترضه المحاصرون. ولو كان لديهم ما يكفي من البارود، لقاموا بتفجير لاتورغ، هم والعدو بداخله. لقد كان ذلك هو حلمهم، بيد أن كلّ احتياطاتهم قد نفدت، ولم تكن حصّة كلّ رجل منهم تصل حتى ثلاثين طلقة إلاّ بصعوبة. كان لديهم العديد من البنادق، والإسبنغولات المنفرجة، والمسدسات والقليل من الطلقات. وكانوا قد حشوا كلّ الأسلحة لكي يتمكنوا من أن يطلقوا النار باستمرار. ولكن كم من الوقت يمكن لهذه النار أن تدوم؟ فكان لا بد من إضرامها وتوفيرها في آن. وهنا كانت تكمن الصعوبة. ولحسن الحظ، وهذا حظٌّ مشؤوم، فقد يغدو الصّراع على وجه الخصوص رجلاً لرجل، وبالسلاح الأبيض، بالسيف أو بالخنجر، فيمسك بعضهم بخناق بعض أكثر مما يتبادل إطلاق النار، ويتقاتلون بالبلطات؛ وكان رجاؤهم في ذلك.

كان داخلُ البرج يبدو منيعاً[٨٩]. وفي القاعة المنخفضة التي كان يفضي إليها ثقب الثغرة، كانت هناك قاعة التّحصن التي هي ذلك المتراس الذي بناه ببراعة لانتوناك، والذي كان يسدُّ المدخل. وخلف قاعة التّحصّن. كانت هناك منضدة مغطاة بالأسلحة المحشوّة، كالطبنجات، والقربينات، وبنادق الفتيل، والسيوف، والبلطات، والخناجر. وبما أن المركيز لم يستطع أن يستخدم سجن زنزانات القبو المظلمة والذي كان يتّصل بالقاعة المنخفضة لكي يفجّر البرج، فقد سعى إلى إغلاق باب سرداب الدّفن. وفوق القلعة الخفيضة، كانت هناك غرفة الطّابق الأول المستديرة والتي لم يكن المرء يصل إليها إلاّ عن طريق درج سان جيل اللولبي الشديد الضيّق. وهذه الغرفة المؤثثة، شأن القاعة المنخفضة، بمنضدة مغطّاة بأسلحةٍ جميعُها جاهزة، والتي لم يكن يتعيّن إلاّ المباشرة باستخدامها، كانت تضيئها فتحة الرّمي الكبيرة والتي أتت قنبلة منذ قليل لتحطّم تشبيكها الحديدي. وفوق تلك الغرفة، كان الدّرجُ الحلزونيّ يُفضي إلى الغرفة المستديرة في الطّابق الثاني الذي كان فيه الباب الحديدي المشرف على جسر القصير. كانت غرفةُ الطّابق الثاني هذه تدعى بلا تفريق غرفة الباب الحديدي، أو غرفة المرايا. بسبب الكثير من المرايا الصّغيرة المعلّقة مباشرةً على الحجر العاري بمسامير قديمة صدئة، وهذا تصنّعٌ غير مألوف مختلط بالوحشية. وبما أن الغرف العليا لم يكن ممكناً أن يجري الدّفاعُ عنها بصورةٍ مفيدة، فقد كانت غرفة المرايا هذه هي ما يسمّيها ما نيسّون ماليّه، مشترع الأماكن المنيعة: «المركز الأخير الذي يستسلم فيه المحاصرون» وكان المقصود بذلك، كما سبق أن قلنا، منع المحاصرين من أن يصلوا إلى هناك.

كانت تلك الغرفة المستديرة في الطّابق الثاني تنيرها كوى الرّمي؛ مع ذلك؛ فقد كان مشعلٌ يشتعل فيها. وهذا المشعل المنصوب في مشعالٍ حديدي شبيهٍ بمشعال القاعة المنخفضة كان قد أشعله ليمانوس الذي وضع بشكلٍ منحرف طرف الذّبالة المكبرتة. وهذه اهتمامات مرعبة.

في صدر القاعة الخفيضة، وعلى منصّة طويلة، كان هناك ما يؤكل، كما في مغارةٍ هوميروسيّة. أطباق أرز كبيرة، ونقيعٌ هو مغليّ القمح الأسود، والفريم الذي هو لحم العجل المفروم، ودوائر الويشبوت التي هي عجينة الطّحين، والفواكه المطبوخة بالماء، وفطيرة البادريه، وأوعية خمر التّفاح، وكان من يشاء يشرب ويأكل.

أذهلت طلقة المدفع الجميع. ولم يتبقَّ أمامهم إلاّ نصف ساعة.

كان ليمانوس يراقب، من أعلى البرج، يراقب اقتراب المحاصرين. وكان لانتوناك قد أمر بعدم إطلاق النار، وبترك المهاجمين يصلّون. وكان قد قال: إنهم أربعة آلاف وخمسمئة. وقتلهم في الخارج لا فائدة منه. فلا تقتلوا إلاّ في الداخل. ففي الدّاخل، يرجع التعادل.

وكان قد أضاف ضاحكاً: عدالة، إخاء.

كان من المتفّق عليه أنه حين يبدأ العدو تحرّكه، يحذر ليمانوس ببوقه بذلك.

كان الجميع المتمركزون بصمت خلف قاعة التحصين، أو على درجات الأدراج، كانوا ينتظرون، يدٌ على بندقيّة الفتيلة، واليد الأخرى على المسبحة الورديّة. أخذ الموقف يتحدّد، وكان هو التالي:

بالنسبة للمهاجمين، كانت هناك ثغرة ينبغي تسلّقها، ومتراس ينبغي كسره، وثلاث قاعات متراكبة ينبغي الاستيلاء عليها عنوة، واحدةً بعد الأخرى، ودرجان حلزونيّان ينبغي احتلالهُما درجةً فدرجة، تحت سحابةٍ من القذائف، أما بالنسبة للمحاصرين، فهناك الموت.

* * *

VII

تمهيدات

كان غوفان يرتّب الهجوم من ناحيته. وكان يعطي سيموردان تعليماته الأخيرة، والذي، كما نتذكّر، كان يتعيّن عليه، من غير أن يشارك في العمليّة، أن يحرس السّهل المرتفع، ويعطيها غيشان الذي يتعيّن عليه أن يبقى في حالة ترصّد مع معظم الجيش في معسكر الغابة. وكان من المتّفق عليه ألاّ تطلق النارَ السّريةُ المنخفضة، لمدفعيّة الغابة، ولا السريّة العالية للسهل المرتفع، إلاّ إذا كانت هناك غارةٌ يقوم بها المحاصَرون أو محاولة هرب. كان غوفان يحتفظ لنفسه بقيادة طابور الثغرة. وهذا المكان هو الذي كان يزعج سيموردان.

كانت الشّمس قد غابت منذ قليل.

إن برجاً في أرضٍ مكشوفة يشبه سفينةً في عرض البحر. ويجب أن يتلقّى الهجوم بالصورة نفسها. إنه اقتحامٌ له أكثر منه هجومٌ عليه، فلا استخدام للمدفعيّة، ولشيءٍ لا طائل منه. فما فائدة القصف المدفعي لجدران سماكتها خمسة عشر قدماً؟ إنه ثقبٌ في إحدى فتحات الجدار، يحدثه البعض عنوةً، ويسدّه الآخرون، وتأتي البلطاتُ، والسكاكين، والمسدسات، والقبضات والأسنان. تلك هي المغامرة.

كان غوفان يحسُّ بأنه لم تكن هناك وسيلة أخرى للاستيلاء على لاتورغ.

أي من خلال هجوم يتلاحم فيه المقاتلون، وما من شيء أكثر منه دمويّةً وقتلاً. لقد كان يعرف داخل البرج المرعب، إذ كان يعيش فيه طفلاً.

كان يتفكّر بعمق.

ومع ذلك، وعلى بعد بضع خطوات منه، كان غيشان نائبه يعاين الأفق من ناحية بارينييه، وهو يمسك منظاراً بيده، وهتف غيشان فجأة:

– آه! أخيراً!

فانتزع هذا الهتاف غوفان من أحلام يقظته، وقال:

– ماذا هناك، يا غيشان؟

– سيّدي القائد، ها قد أتى السلّم.

– سلّم الإنقاذ؟

– أجل.

– كيف؟ ألم نحصل عليه بعد؟

– كلاّ، أيّها القائد. وكنتُ قلقاً؛ فقد رجع المراسلُ المستعجل الذي أرسلته إلى جافنيه.

– أعلم ذلك.

– لقد أبلغنا بأنه قد وجد في منجرةِ جافنيه السلّم ذا القياس المطلوب، وأنه قد صادره، وعمل على وضع السلّم في عربة، وطلب مواكبةً من اثني عشر خيّالاً، وشاهد العربة والمواكبة والسلّم تمضي إلى بارينييه. وبعد ذلك، رجع مطلقاً لجواده العنان.

– وقد قدّم لنا هذا التقرير. كان يضيف فيه بأن العربة ستكون هنا قبل

مغيب الشمس ، لأنها قد قُطرت ، وانطلقت في حوالي السّاعة الثانية صباحاً ، أنا أعلم كلّ هذا . وإذن؟

– وإذن ، يا سيّدي القائد؛ فالشّمس قد غابت للتوّ ، والعربة التي تحمل السلّم لم تصل بعد .

– هل هذا ممكن؟ ولكن ينبغي مع ذلك أن نهاجم . وقد حانت السّاعة . وإذا ما تأخرنا فسوف يظن المحاصَرون بأننا نتراجع .

– أيّها القائد ، يمكن أن نهاجم .

– غير أن سلّم الإنقاذ ضروريّ .

– بلا شك .

– ولكنّه ليس بحوزتنا .

– إنه بحوزتنا .

– كيف؟

– هذا ما جعلني أقول ذلك: أه ! في آخر الأمر ! إن العربة لم تصلْ ، فأخذتُ منظاري ، وعاينتُ الطريق من بارينييه إلى لاتورغ ، وها أنا مسرور ، يا سيّدي القائد؛ فالعربة هناك مع المواكبة . إنها تنزل منحدراً . ويمكنك أن تراها .

أخذ غوفان المنظار ونظر:

– هذه هي ، في الواقع . لم يعد هناك ما يكفي من الضّوء لتمييز كلّ شيء؛ غير أننا نرى المواكبة . هذه هي فعلاً . إلاّ أن المواكبة تبدو لي أكثر عدداً مما كنت تقول ، يا غيشان .

– وتبدو لي كذلك أيضاً .

– إنهم على بعد ربع فرسخ تقريباً .

– يا سيّدي القائد ، سيكون سلّم الإنقاذ هنا بعد ربع ساعة .

– يمكن أن نهاجم .

كانت تلك فعلاً عربة تصل ، ولكنها لم تكن تلك العربة التي كانا يظنّانها حين استدار غوفان ، رأى خلفه الرّقيب رادو ، المنتصب القامة ، المخفض العينين ، في وضعيّة التحية العسكريّة .

– ماذا هناك ، أيّها الرّقيب رادو؟

– أيّها المواطن القائد ، نحن ، رجال كتيبة بونيه روج ، نطلب فضلاً تمنحنا إيّاه .

– وما هو؟

– أن نُقتَل .

فقال غوفان:

– عجباً!

– هل تريد أن تتكرّم علينا بذلك؟

فقال غوفان:

– ولكن . . . هذا يتوقّف على الظروف .

– إليك هذا ، أيّها القائد . إنكم تراعون جانبنا منذ قضيّة دول . ونحن لانزال اثني عشر .

– وإذن؟

– إن هذا يشعرنا بالإذلال .

– إنكم الاحتياط .

– نفضّل أن نكون الطّليعة .

– ولكني بحاجة إليكم لحسم النجاح في نهاية عمليّةٍ ما . إني أحافظ عليكم .

– أكثر مما ينبغي .

– الأمر سيّان . فأنتم في الطابور ، وتسيرون معه .

– في الخلف . إن من حقّ باريس أن تسير في المقدّمة .

– سأفكّر في ذلك ، أيّها الرّقيب رادو .

– فكّر في ذلك اليوم ، يا سيّدي القائد ، فهذه هي الفرصة . ولسوف يكون هناك اشتباك قاسٍ ننتصر فيه أو نُغلب . وسيكون ذلك التحاما كثيفاً؛ فلاتورغ سوف يحرق أصابع أولئك الذين يلمسونه . ونحن نطلب الحظوة في أن نكون في عدادهم .

توقّف الرّقيب عن الكلام ، وعضّ شاربه ، وتابع بصوتٍ متغيّر:

– ثمّ يا سيّدي القائد ، هناك أطفالنا ، في ذلك البرج . إن فيه أبناءنا ، أبناء الكتيبة ، أبناءنا الثلاثة ، وهذا الوجه القبيح ، هذا الغريبويْ مون كول تو بيز[1] ، والمدعو بريز بلو ، والمدعو ليمانوس ، وهذا الغوج – لو– بروبان ، هذا البوج – لو– غرويان ، وهذا الفوج لو ترويان ، غضب الرّب ورجل الشيطان ، يهدد أبناءنا ، أبناءنا ، أطفالنا الصّغار ، يا سيّدي القائد . وحين يتدخل كلّ اضطراب في الأمر ، فنحن لا نريد أن يصيبهم مكروه . هل تسمع هذا ، يا صاحب السلطة؟ إننا لا نريد ذلك . وأحياناً ، انتهزت فرصة أن القتال لم يكن يجري ، وقد صعدت على السّهل المرتفع ، ونظرت إليهم من إحدى النوافذ . أجل ، إنهم حقّاً هناك . وبالإمكان رؤيتهم من حافة الوهدة ، وقد رأيتُهم ، وأخفتُهم ،

(١) الأبله الذي يقبل المؤخّرة (شتيمة يصف بها رادو خصمه) . (م: ز . ع)

أخفت هؤلاء المحبوبين ياسيّدي القائد، إذا سقطت شعرةٌ واحدة من رؤوسهم الصغيرة، رؤوس الملائكة، فإنّي أقسم بألف قسم بأسماء كلّ ماهو مقدّس. أنا الرّقيب رادو، بأن أودع[1] المسؤوليّة لدى هيكلّ الأب الأزلي. وهذا ما تقوله الكتيبة: نريد أن يتمّ إنقاذ الأطفال أو أن نُقَتل جميعاً. هذا حقّنا، يا لغضب الرّب! أجل، أن نقتل جميعاً. والآن، تحيّة واحترام.

مدّ غوفان يده إلى رادو، وقال:

– أنتم رجال شجعان، وسوف تكونون في الرّتل الهجومي. إني أقسمكم إلى قسمين، فأضع ستّة منكم في الطليعة لكي نتقدّم، وأضع ستّة في المؤخّرة لكي لا نتراجع.

– هل أكون أنا من يقود الاثني عشر دائماً؟

– بالتأكيد.

– إذن، شكراً لك، يا سيّدي القائد، فأنا في الطّليعة.

أدّى رادو التحيّة العسكريّة مجدّداً، والتحق بالصّف.

أخرج غوفان ساعته، وقال بضع كلمات في أذن غيشان. وبدأ رتل الهجوم بالتّشكل.

* * *

---

(١) ترجمة مخفّفة نضعها تحاشياً متعمّداً لنوع من التجديف. (م: ز. ع).

VIII

الكلام والزّمجرة

مع ذلك ، فإن سيموردان ، الذي لم يكن قد وصل إلى مركزه في السّهل المرتفع ، والذي كان إلى جانب غوفان ، قد اقترب من أحد البوّاقين ، قال له:

– دقّ البوق .

فدقّ البواق ، وردّ عليه البوق الآخر .

تبادل صوت البوق وصوت النفير مرّة أُخرى قرعهما .

وسأل غوفان غيشان:

– ما هذا ؟ ماذا يريد سيموردان؟

كان سيموردان قد تقدّم باتجاه البرج ، حاملاً منديلاً أبيض بيده .

ورفع صوته قائلاً:

– أيها الرّجال الموجودون في البرج ، هل تعرفونني؟

فردّ عليه صوتٌ ، هو صوت ليمانوس من أعلى البرج .

– نعم .

حينئذٍ تحادث الرّجلان ، وردّ كلّ منهما على الآخر ، وسُمع ما يلي:

– أنا مرسلٌ من الجمهوريّة .

– أنت خوري بارينييه السّابق .

– أنا مندوب لجنة الخلاص العام .

– أنت كاهن .

– أنا ممثل القانون . أنت مرتدّ .

– أنا مفوّض الثورة .

– أنت كافر

– أنا سيموردان .

– أنت الشيطان .

– هل تعرفني .

– إننا نمقتك .

– هل تكونون مسرورين إذا وقعت تحت سيطرتكم؟

– نحن ثمانية عشر ، ونعطي رؤوسنا مقابل رأسك .

– حسناً ، أنا آتٍ لأسلّم نفسي إليكم .

سمعتْ من أعلى البرج قهقهةٌ وحشيّة . وهذه الصّرخة:

– تعال!

هيمن في المعسكر صمت انتظارٍ عميق ، فتابع سيموردان يقول:

– بشرط .

– وما هو؟

– اسمعوا .

– تكلّم .

– هل تكرهونني؟

– أجل .

– أنا ، أحبّكم ، أنا أخوكم .

فأجاب الصوت من أعلى البرج قائلاً .

– نعم ، يا قايين .

فردّ سيموردان سريعاً بتبديلٍ غريب في الصوت الذي كان عالياً ورقيقاً في آن:

– اشتموا ، ولكن أصغوا . لقد أتيت إلي هنا كمندوب مفاوض . أجل ، أنتم أخوتي . فأنتم رجال مساكين تائهون . وأنا صديقكم . أنا النور ، وأتحدّث إلي الجهل . إن النور يحتوي الإخاء دوماً . ومن جهةٍ أخرى ، أليس لنا جميعاً الامّ نفسها ، الوطن؟ وإذن ، أصغوا إلي . سوف تعرفون فيما بعد ، أو يعرف أبناؤكم ، أو أبناء أبنائكم أن كلّ ما يجري في هذه اللحظة ، يجري إتماماً للشرائع العليا ، أن ما هو موجوّد في الثورة ، إنما هو الرّب . وبانتظار اللحظة التي تصل فيها إلى الفهم كلّ الضمائر ، وحتّى ضمائركم . حيث تتلاشى كلّ ضروب التّعصّب ، بانتظار أن يحدث هذا النور الكبير ، لن يرأف أحد بجهالاتكم؟ إني آتٍ إليكم ، أقدّم رأسي لكم؛ وأنا أفعل أكثر من ذلك ، أمدّ لكم يدي . وأطلب أنّ تمنّوا عليّ بإهلاكي من أجل خلاصكم . لديّ تفويضٌ مطلق ، وما أقوله يسعني فعله . إن هذه هي أهم اللحظات . وإني أقوم بجهدٍ أخير . أجل ، إن

ذلك الذي يكلّمكم مواطنٌ، وفي شخصِ هذا المواطن، أجل، هناك كاهن. إن المواطن يقاتلكم، ولكن الكاهنَ يتوسّل إليكم. فاصغوا إليّ. إن الكثيرين منكم لديهم نساء وأطفال. وأنا أتولّى الدّفاع عن أطفالكم وعن نسائكم. أتولّى الدّفاع عنهم ضدّكم. آه، يا أخوتي...

فقال ليمانوس هازئاً:

– هيّا، لتعظْ!

فتابع سيموردان:

– يا إخوتي لا تدعوا السّاعة المقيتة تدقّ. سوف نتذابح هنا. والكثيرون منا والموجودون هنا أمامكم لن يروا شمس الغد. أجل، إن العديد سوف يقضون. وأنتم، أنتمْ جميعاً، سوف تموتون. فلتعفوا عن أنفسكم. ولماذا إهراقُ كلِّ هذا الدّم، حين يكون بلا فائدة؟ لماذا نقتل الكثير من الرّجال، حين يكفي قتلُ اثنين؟

فقال ليمانوس:

– اثنان؟

– أجل، اثنان.

– ومن هما؟

– لانتوناك وأنا.

ورفع سيموردان صوته قائلاً:

– هناك رجلان زائدان، لانتوناك بالنسبة إلينا، وأنا بالنسبة إليكم. وهذا ما أعرضه عليكم، وتنقذون حياتكم جميعاً: أعطونا لانتوناك، وخذوني. فيعدم لانتوناك بالمقصلة، وتصنعون بي ما تشاؤون.

فصرخ ليمانوس:

– أيّها الكاهن، إذا أمسكنا بك، أحرقناك على نارٍ هادئة.

فقال سيموردان:

– أنا موافق على هذا.

وتابع يقول:

– أنتم، المحكومين بالموت في هذا البرج، يمكنكم أن تكونوا جميعاً أحياء وأحراراً بعد ساعة. وإني آتي إليكم بالخلاص. فهل تقبلون؟

فانفجر ليمانوس قائلاً:

– أنت لست أثيماً فحسب، بل أنت مجنون. ما أغرب هذا، لماذا تأتي لتزعجنا؟ ومن الذي يرجوك لتأتي وتكلمنا؟ فهل نسلم نحن سيدنا؟ ماذا تريد؟

– رأسه وأعرض عليكم...

– جلدك. فلسوف نسلخك مثل كلب، أيها الخوري سيموردان. وإذن، لا، فإن جلدك لا يساوي رأسه. امضِ.

– سيكون الأمر رهيباً ففكروا للمرة الأخيرة.

كان الليل يقبل أثناء تلك الكلمات القاتمة التي كانت تُسمع في داخل البرج كما من خارجه. وكان المركيز دولانتوناك يلتزم الصمّت، ولا يبدي معارضة. فلدى الزعماء مثل هذه الأنانيات المشؤومة. وهذا هو أحد حقوق المسؤولية.

أطلق ليمانوس صوته من فوق سيموردان وصاح:

– أيها الرجال الذين تهاجمون، لقد قلنا لكم اقتراحاتنا ونحن نؤكّدها، وليس لدينا ما نغيره فيها. اقبلوها وإلاّ، فالويل لكم! هل توافقون عليها؟ إننا نُعيدُ الأطفال الثلاثة الموجودين هنا إليكم، وأنتم تدعوننا نخرج بحرّية سالمين جميعاً.

فأجاب سيموردان:

– جميعاً نعم ، ولكن باستثناء واحد .

– ومن هو؟ .

– لانتوناك .

– سيّدناّ! أن نسلّم سيّدنا! إطلاقاً .

– يلزمنا لانتوناك .

– إطلاقاً

– لا يمكننا أن نتفاوض إلا بهذا الشرط .

– ابدؤوا إذن .

وساد الصمت .

بعد أن دق ليمانوس ببوقه دقّة الإشارة ، نزل مجدداً . ووضع المركيز سيفه بيده ، وتجمع المحاصَرون التّسعة عشر بصمتٍ في القاعة المنخفضة خلف قاعة التحصُّن ، وجثوا ، وكانوا يسمعون خطوة الرتل الهجوميّ المتزنة ، والذي كان يتقدم نحو البرج في الظلمة ، وكانت تلك الضجة تقترب ، وفجأة ، أحسّوا بها قريبةً منهم ، وحتى عند فم الثغرة ، حينئذ ، أُسندوا جميعاً بنادقهم ، وبنادقهم المنفرجة ، من خلال شقوق قاعة التحصّن ، ونهض أُحدهم ، وهو غران فرانكور ، والذي كان كاهن ترومو ، وهو يحمل سيفاً مجرّداً في يده اليمنى ، وصليباً في اليد اليسرى ، وقال بصوت وقور:

– باسم الآب والابن والرّوح القدس!

فأطلق الجميع النار ونشب القتال .

* * *

IX

جبابرة ضدّ عمالقة

كان ذلك مرعباً فعلاً.

تخطت تلك المجابهة كلَّ ما كان يمكن أن يتخيله المرء.

لكي نجد شيئاً مماثلاً، لابدَّ من الرجوع إلى مبارزات إسخيلوس العظيمة، أو إلى المذابح الإقطاعية، إلى تلك «الهجمات بالأسلحة القصيرة» والتي دامت حتى القرن السابع عشر، حين كان يجري التوغّل إلى الأماكن المحصنة، عن طريق الحصون الزائفة. وهي هجماتٌ مأساوية، كما يقول رقيب مقاطعة «ألينيتجو»[1]، «سوف يتقدم فيها المحاصرون، بعد أن تكون الألغام قد أحدثت تأثيرها، ويحملون ألواحاً خشبية مغطاة بنصالٍ من الحديد الأبيض، وهم مسلحون بتروس مستديرة، ووقاءات نقالة، ومزودون بكمية من القنابل، فيجعلون أولئك الموجودين في المكان يتخلون عن تخندقاتهم، أو عن أماكن تحصنهم، ويسيطرون عليهم، ويُخرِجون المحاصرين بقوة منه..».

كان مكانُ الهجوم مرعباً، فقد كان إحدى تلك الثّغرات التي تُدعى بلغة المهنة بالثغرات تحت القبة، أي أنها، ولنذكّر بذلك، فجوةٌ تخترق الجدار من

(١) الحصون الزائفة (BRAIES) كانت نوعاً من الأسوار المبنية أمام البناء المحصن لكي يكسر الهجمات الأولى– وألينيتجو هي مقاطعة في البرتغال، بين تاج وغواديانا، وهي أحد المسارح التي جرى فيها الصراع ضد البربر، في القرن الثاني عشر.

جهةً إلى أخرى، وليست شقاً متوسعِ الفتحة في العراء، كان البارود قد فعل فعله كالمثقب. وكان أثرُ اللغم عنيفاً إلى الدرجة التي تصدّع فيها البرجُ بسبب الانفجار إلى أكثر من أربعين قدماً من حفرة اللغم، ولكنه لم يكن إلا تصدعاً، والتمزّق الذي أحدث، ويستخدم كثغرة، ويؤّمن مدخلاً إلى القاعة المنخفضة، كان يشبهُ طعنةَ حربةٍ تثقب أكثر مما تشبه بلطة تشجّ.

كان ذلك عملية بزلٍ في خاصرة البرج، وكسراً مخترقاً، وشيئاً مثل بئر راقدةٍ على الأرض، ورواقٍ يتلوى ويصعد مثل قطعة أمعاء عبر سورٍ سماكتُه خمسةَ عشر قدماً، وأسطوانة بلا شكل محدد لا يدري المرء ما هي، تزدحم بالعوائق، والكمائن، والانفجارات والتي يصدم المرء فيها جبينه بالصوان، وقدميه بالحصى، وعينيه بالعتمة.

كان أمام المهاجمين ذلك الرّواقُ الأسودُ الذي هو فمُ هوّةٍ تشكلُ فكيّه، في الأسفل وفي الأعلى، كلّ حجارةِ السور المشرّم، والذي هو شدقُ سمكةِ قرش لم تعد لديه أسنان إلا ذلك الاقتلاع المرعب. وكان لا بدَّ من الدّخول إلى ذلك الجحر، ومن الخروج منه.

كانت تنفجر القذائف في الداخل، وينتصب مركز التحصّن في الخارج، في الخارج أي قاعة الطابق الأرضي المنخفضة.

إن صدامات النقّابين في الأروقة المغطاة، حين يأتي لغمٌ معاكسٌ ليقطع اللغم، والمذابح التي تجري بالبلطة تحت منطقة مابين السطحين في المراكب التي تتصادم في المعارك البحرية، تتميز وحدها بهذه الضراوة، إن القتال في داخل حفرة. هو آخر درجةٍ من درجات الفظاعة، فمن الفظيع أن يجري الاقتتال تحت سقفٍ يعلو الرؤوس، وفي اللحظة التي دخلت فيها أول موجةٍ من المحاصرين، تغطت قاعة التحصّنِ كلها بالبروق، وكان هناك شيءٌ أشبه ما يكون بالصاعقة التي تنفجر تحت الأرض، وردّ الرعدُ المهاجمُ على الرعد الكامن، وردت الانفجاراتُ بعضُها على البعض الآخر. وارتفعت صيحة غوفان: «لننقض!»،

ثم صيحة لانتوناك: «أصمدوا أمام العدوّ!». ثم صيحة ليمانوس: «إليَّ يا أهل ماين!». ثم القعقعة، فالسّيوف ضد السيوف، والطلقة مقابل الطلقة، ورشقات النار المرعبة التي تقتل كل شيء، كان المشعل المعلق بالجدار ينيرُ إنارةً غير واضحة كلّ ذلك الهول. ومن المستحيل أن يميز المرء شيئاً؛ فلقد كان غارقاً في حلكة يشوبها الاحمرار؛ ومن كان يدخل إلى هناك يغدو فجأة أصماً وأعمى. أصماً بسبب الضجة وأعمي بسبب الدخان، وكان الرجال الذين أصبحوا خارج المعركة يرقدون بين الأنقاض. كان المرء يسيرُ على الجثث، فيسحق الجروح، ويهرس الأطراف المكسورة التي كان يخرج منها العويل، وكان المحتضرون يعضون أقدام العابرين، وعلى فترات كانت هناك فترات صمت أشد فظاعة من الضجة.

كان هناك من يمسكون بخناقِ بعضهم بعضاً، ويُسمعُ نفسُ الأفواه المرعب، ثم الصّرير، والحشرجات، واللعنات. وعاد الرعد يهدر، فأخذت ساقية من الدم تخرج من البرج، عبر الثغرة، وتتدفق في العتمة، وكانت تلك البقعة القاتمة تسيل في العشب داخنة.

إن المرء ليظنّ إن البرجَ نفسه هو الذي كان ينزف، وأن العملاق قد جرح. هذا أمرٌ مذهل، فلم تكن تحدثُ ضجةٌ تقريباً في الخارج، وكان الليل شديد الظلمة، وفي السهل، وفي الغابة، كان حول القلعة المهاجَمة نوعٌ من الهدوء الجنائزي. في الداخل كان هناك الجحيم، وفي الخارج كان هناك القبر، إن هذا الاصطدام بين الرجال الذين يتفانون في العتمة، ورشّات الرصاص هذه، وهذه الجلبات، وكلّ هذا الضجيج، كان ينتهي تحت كتلة الجدران والقباب، وكانت الضجّة ينقصُها الهواء، ويضاف الاختناق إلى المذبحة، وخارج البرج، كان ذلك لا يكاد يسمع، وكان الأطفال لا يزالون نائمين أثناء ذلك الوقت.

كانت الضراوة تزداد، وكانت قاعة التحصّن تصمد؛ فما من شيء أكثر مشقة من تحطيم هذا النوع من المتاريس والذي هو على شكل دعامة غائرة، فإن كان العدد يلعب دوراً ضد المحاصَرين، فقد كان الموقع لصالحهم، كان الرتل

الهجومي يَخسر عدداً كبيراً من أفراده. وإذ كان مصطفاً وممتداً إلى الخارج، في أسفل البرج، فقد كان يتوغل ببطء في فتحة الثغرة، ويتقلص مثل حفثٍ يدخل إلى جحره.

أما غوفان الذي كانت له كقائدٍ شاب تصرفاتٌ غير متبصرة، فقد كان في القاعة المنخفضة، في خضم العراك، مع كل الشظايا المحيطة به. لنضفْ إلى هذا أنه كان يمتلك ثقة الرّجل الذي لم يجرح قطّ.

وإذ كان يستدير ليعطي أمراً، فقد أضاء وجهه وعلى مقربةٍ منه، وميضُ رشقةِ رصاص، وهتف:

– سيموردان! ماذا أتيت لتفعل هنا؟

كان هذا هو سيموردان في الواقع، فأجاب سيموردان:

– أتيت لأكون بقربك،

– ولكنك ستتسبب لنفسك بالقتل!

– حسناً، وأنت ماذا تفعل هنا إذن؟

– ولكني ضروريّ هنا، وأنت لست كذلك.

– بما أنك في هذا المكان، فيجب أن أكون فيه.

– كلا يا سيدي.

– أجل يا بني!

وبقي سيموردان بقرب غوفان.

كان الموتى يتكومون على بلاط أرضيات القاعة المنخفضة.

ومع أن قاعة التحصّن لم تكن قد فتحت عنوة بعد، فإن العدد بطبيعة

الحال كان لا بدَّ أن ينتهي الأمر به إلى الانتصار. كان المهاجمون مكشوفين، والمهاجَمون في مأمن، لقد كان يسقط عشرة محاصِرين مقابل محاصَر واحد، غير أن المحاصِرين كانوا يتجددون، كان المحاصِرون يزدادون، والمحاصَرون يتناقصون.

كان المحاصَرون التسعة عشر كلهم وراء قاعة التحصّن، وكان الهجوم يجري هناك، وكان لديهم موتى وجرحى. وكان خمسة عشر منهم لا يزالون يقاتلون على الأكثر. وكان أحد أكثر الرجال إثارة للرعب، وهو شانت أن إيفير قد تعرض لبتر مريع، فقد كان بروتانياً، مربّع القامة، وذا شعرٍ أُجعد قصير، ومن النوع القصير والمقاوم. وكانت إحدى عينيه قد فقئت، وكُسِر فكهّ، وكان لا يزال قادراً على السير، فجرٌ نفسه إلى الدرج الحلزوني، وصعد إلى غرفة الطابق الأول، آملاً أن يتمكن هناك من أن يصلي ويموت.

كان قد استند إلى الجدار قريباً من كوة الرمي لكي يحاول أن يتنفس قليلاً.

في الأسفل كانت المذبحةُ أمام قاعة التحصّن تزدادُ فظاعةً، وفي فترة انقطاعٍ، بين رشقتي رصاص، رفع سيموردان صوته وصاح:

– أيها المحاصَرون! لماذا يهرق الدم زمناً أطول؟ لقد تمكنّا منكم. فاستسلموا وفكروا بأننا أربعة آلاف وخمسمئة، مقابل تسعة عشر، أي أكثر من مائتين مقابل كلّ واحد منكم. فاستسلموا.

فرد المركيز دولانتوناك قائلاً:

– فلنكف عن هذه اللطافة المتكلفة.

وردت عشرون رصاصة على سيموردان.

لم تكن قاعة التحصّن تعلو حتى القبة، وهذا ما كان يتيح للمحاصَرين أن يطلقوا من فوقها، غير أن هذا كان يتيح للمحاصِرين أن يتسلقوا إليها.

صاح غوفان:

- هجوم على قاعة التحصّن! هل هناك أحد لديه الاستعداد لتسلق قاعة التحصّن؟

فقال الرقيب رادو:

- أنا.

* * *

X

رادو

هنا أُصيب المهاجمون بالذهول. وكان رادو قد دخل عبر كوّة الثغّرة، على رأس الرّتل الهجومي، وكان هو السادس. ومن أصل هؤلاء الرجال الستة للكتيبة الباريسية، كان قد سقط أربعة منهم، وبعد أن أطلق هذه الصرخة: أنا! لم يروه يتقدم بل يتراجع. وإذ خفض جسمه والتوى، وزحف تقريباً بين أرجل المقاتلين، وعاد إلى فتحة الثغّرة وخرج منها. فهل كان ذلك هروباً؟ فهل يهربُ رجلٌ كهذا؟ ماذا كان ذلك يعني؟.

ما أن وصل رادو إلى خارج الثغرة، وكان الدخان لا يزال يعمي بصره، حتى فرك عينيه، وكأنّه ينـزعُ عنهما رعبَ الليل، ونظر على ضوء النجوم إلى سور البرج، وهز رأسه هزة رضى تعني: لم أخطئ التقدير[1].

كان رادو قد لاحظ أن الشريط العميق لانفجار اللغم يصعد فوق الثغرة حتى كوة الرمي الموجودة في الطابق الأول، والتي كانت قنبلة قد بعجت هيكلها الحديدي وخلعته. وكانت شبكةُ العوارض المكسورة تتدلى وقد اقتُلعت جزئياً، وبإمكان رجل أن يمر منها.

---

(١) كان بلزاك قد أقام في رواية «الشّوان» نماذج تصور جنوداً جمهوريين من مثل: «لاكليه دي كوْر» و«بوبييه».

كان بإمكان رجل أن يمر منها ولكن هل يمكن لرجل أن يصعد؟ عبر الشريط المتعرج، أجل، وبشرط أن يكون قطّاً.

هذا ما كان عليه رادو. فقد كان من ذلك الجنس الذي يسميه بيندار «بالرجال الرياضيين الرشيقين». والمرء يمكن أن يكون جندياً عجوزاً، ورجلا شاباً. ورادو الذي كان في الحرس الفرنسي. لم يكد يبلغ الأربعين من عمره، لقد كان هرقلاً (٩٠) رشيقاً.

وضع رادو بندقيته القصيرة على الأرض، ونزع حمالة سلاحه، وترك رداءه وسترته، ولم يحتفظ إلا بمسدسيه الذين وضعهما في حزام سرواله، وسيفه المجرد الذي أمسك به بين أسنانه. وكان أخمصُ مسدّسيه يمرّ فوق حزامه.

وإذ تخفّف على هذا النحو مما هو غير مفيد، وعيون كل أولئك الذين يشكلون رتل الهجوم تتبعه، فهم لم يدخلوا بعد إلى الثغرة، فقد أخذ يتسلق حجارة شريط صدع الجدار، وكأنها درجاتُ درج. وكان مفيداً له أن يكون بلا حذاء، فلا شيء يتسلّق مثل قدم حافية، كان يقلّص أصابع قدميه داخل ثقوب الأحجار، ويرفع نفسه بقبضتيه، ويتثبّت بركبتيه. كان الصّعودُ شاقاً. وكان أشبه ما يكون بالارتقاء على طول أسنان منشار.

- وقد فكّر قائلاً: لحسن الحظ أنه لا أحد في غرفة الطابق الأول؛ وإلا لما أتيح لي أن أتسلق على هذا النحو.

لم يكن عليه أن يطلع بعناء أقل من أربعين قدماً، وكلما كان يصعد، وتُفيحتا مسدسيه النافرتان تعيقانه قليلاً، كلما كان شريطُ الصّدع يضيق، ويغدو الصّعودُ صعباً أكثر فأكثر، كان خطرُ السقوط يزداد في الوقت نفسه الذي يزداد فيه عمق الهوة.

وصل أخيراً إلى حافة كوّة الرمي، فأبعد الشّبكة الملتوية والمنتزعة من مكانها، فأصبح لديه متسع فيها للمرور، فرفع نفسه بجهدٍ قوي، وأسند

ركبتيه إلى إفريز الحافة، وأمسك بإحدى يديه بقرمةٍ من العارضة على اليمين، وباليد الأخرى بقرمة على اليسار، وانتصب حتى منتصف جسمه أمام فرجةِ كوة الرمي، وسيفه بين أسنانه، فغدا معلّقاً بقبضتيه فوق الهوة.

لم يعد عليه إلا أن يقوم بفشخةٍ واحدة ليقفز إلى قاعة الطابق الأول.

ولكن وجهاً تبدّى في كوة الرمي.

فجأة رأى رادو أمامه في الظّل شيئاً مرعباً، إنّه عينٌ مفقوءةٌ وفكٌ محطمٌ، إنه قناعٌ مضرجٌ بالدم.

هذا القناع الذي لم يكن فيه إلا حدقة كان ينظر إليه.

كان لهذا القناع يدان، وهاتان اليدان قد خرجتا من العتمة، وتقدمتا نحو رادو، أخذت إحداهما بقبضةٍ واحدة مسدّسيه من حزامه، وانتزعت الأخرى سيفه من بين أسنانه.

كان رادو مجرداً من السلاح، وكانت ركبته تنزلق على المستوى المنحني للإفريز، وقبضتاه المتشنجتان على قرمات التشبيك لاتكادان تكفيان لتثبيته، وكانت وراءه هوّةٌ ارتفاعها أربعون قدماً.

هذا القناع وهاتان اليدان هما شانت أن إيفير.

أما شانت أن إيفير الذي يخنقه الدّخانُ المتصاعد من الأسفل، فكان قد أفلح في الدخول إلى فتحة كوة الرمي، وهناك أنعشه الهواء الخارجي، وجمّدت برودةُ الليل دمه، واستعاد بعض قوته. وفجأة رأى أمام الفتحة، جذع رادو يبرز في الخارج. حينئذ وبما أن رادو كانت يداه متشبثتين بالعوارض، ولم يكن أمامه من خيار إلا أن يستسلم للسقوط أو أن يستسلم للتجريد من سلاحه، فإن شانت أن إيفير، المرعب والهادئ قد اختطف مسدسيه من حزامه، وسيفه من بين أسنانه.

بدأ صراعٌ خارق. إنه صراعٌ بين المجرد من سلاحه والجريح[1].

كان المنتصرُ بطبيعة الحال هو المحتضر؛ فقد كانت رصاصة تكفي لكي يلقي برادو إلى الهوة الفاغرة تحت قدميه.

لحسن حظ رادو، فإن شانت أن إيفير لم يستطع أن يطلق النار من أحد المسدسين، وأن يستخدم السيف، لأنه يحمل المسدسين بيدٍ واحدة. فسدد ضربة بحد السيف لكتف رادو، فجرحت ضربة السيف رادو وأنقذته.

أما رادو الذي كان بلا أسلحة، ولكنه ممتلك لكامل قوته، فقد استخف بجرحه الذي لم يكن من ناحية أخرى قد أصاب العظم، وقام بوثبةٍ فجائية إلى الأمام، وأفلت العوارض وقفز إلى فتحة النافذة.

هناك ألفى نفسه وجهاً لوجه مع شانت أن إيفير الذي كان قد رمى السيف وراءه، ويحمل المسدسين في قبضتيه.

أما شانت أن إيفير الذي انتصب على ركبتيه، فقد سدد سلاحه على رادو عن قرب تقريباً، غير أن ذراعه التي ضعفت كانت ترتجف، فلم يطلق النار فوراً.

أفاد رادو من هذا التوقف لكي ينفجر ضاحكاً، ويصيح:

– قل إذاً أيها القبيح المنظر[2]. هل تظن أنك تخيفني بشدقك، شدق الثور المطابق للدّرْجة؟ لعنك الله، كم أتلفوا وجهك الناعم!

كان شانت أن إيفير يصوب مسدسه عليه.

وتابع رادو يقول:

---

(١) إن هذه القصص، قصص المعارك عند هيغو غالباً ماتكون على الدرجة نفسها من الدقة التي تمتاز بها قصص ميريميه. إنه يستخرج منها في كل وقت دلالة رمزية.

(٢) يركب الروائي أسماء ذات معنى ليستخدمها للشخصيات على أنها أسماء تدل على حالها. (م:ز.ع)

- ليس هذا كلاماً ولكن سحنتك(*)، قد تمزقت بشدة بسبب رش الشظايا. ياعزيزي الصبي المسكين، لقد حطمت بيلون (آلهة الحرب) سحنتك، هيا، هيا، ابصق طلقة مسدسك الصغيرة، أيها الأبله.

انطلقت الطلقة فمرّت قريباً جداً من رأس رادو بحيث انتزعت نصف أذنه. فرفع شانت أن إيفير الذراع الأخرى المسلحة بالمسدس الثاني. غير أن رادو لم يترك له الوقت ليصوّب، وصاح:

- يكفي أني قد خسرت أذناً. وقد جرحتني مرتين. فإليّ يا حلوة!

أنقض على شانت أن إيفير، وقذف بذراعه إلى الجو، وجعل الطلقة تنطلق، فمضت إلى مكان غير محدد، وأمسك بفكه المخلوع وأخذ يجسّه بيده.

أطلق شانت أن إيفير زمجرة وأغمي عليه.

مرّ رادو من فوقه وتركه في فتحة النافذة وقال له:

- الآن وقد أعلمتك بتحذيري، لا تبد أية حركة من بعد. أبق هنا، أيها المتجرجر الشرّير- على الأرض(1). أنت تفكر حقاً بأنني لن أتلهى حالياً بذبحك. فازحف كما يروق لك على الأرض، يا مواطن نعلي. متْ، هذا هو الأمر الفعلي دوماً. وبعد قليل إنما ستعرف أن خوريك لم يكن يقول لك إلا السخافات. امضِ إلى السّر الخفي الكبير أيها الفلاح.

ووثب إلى قاعة الطابق الأول ودمدم:

- لا يبصر المرء شيئاً هنا.

كان شانت أن إيفير يتحرك بشكل متشنج، ويولول من خلال الاحتضار، فاستدار رادو، وقال:

(*) ترجمة لكلمة: Gargoine التي تعني حلقوم، وقد استخدمها هيغو بمعنى وجه وسحنة (م:ز.ع)
(1) يركب الروائي أسماء ذات معنى ليستخدمها للشخصيات على أنها أسماء تدل على حالها. (م:ز.ع).

– الصمت! أسعْدني بسكوتك أيها المواطن من دون أن تدري ، لن أتدخل بعد الآن في أمرك . وإني آنف أن أجهز عليك . فدعني وشأني .

وإذ ساوره قلق ، فقد دسّ جمع كفه في شعره ، وهو يتأمل شانت أن إيفير .

– وإذاً هكذا ، ماذا سأفعل؟ هل هذا حسن ، ولكن ها أنا مجردٌ من السلاح . كان لدي طلقتان يمكنني استعمالهما ، وقد بددتهما لي أيها الحيوان! وإضافة إلى هذا ، دخان يؤلمك في عينيك ألم الكلاب ! .

وإذ وقع على أذنه الممزقة ، فقد قال:

– ها أنت قد تقدمت حقاً بأنك قد انتزعت مني أذناً ! وأنا بالفعل أفضل أن ينقصني هذا عن أن ينقصني شيءٌ آخر ، فليس هذا أكثر من زينة . ولقد خدشتني أيضاً في كتفي ، غير أنه شيءٌ لا يذكر ، فلتقضِ أيها الفلاح ، إني أسامحك .

أُصغى ، فكانت الضجة في القاعة المنخفضة مرعبة . وكان القتال أكثر احتداماً منه في أي وقت .

– الأمور تسير على ما يرام في الأسفل ، والأمر سيان . إنهم يزعقون قائلين: «عاش الملك» ، ويَنفُقون بنبل .

اصطدمت قدماه بسيفه على الأرض ، فالتقطه ، وقال لشانت أن إيفير الذي لم يعد يتحرك والذي ربما كان قد مات:

– أترى يا رجل الغابات ، ما كنت أريد أن أفعله ، سيفي أو سكوتك ، إنهما الأمر نفسه ، ولكنني أستعيده من باب المودة ، غير أن مسدساتي كانت تلزمني . فليأخذك الشيطان أيها المتوحش! وإذن فماذا سأفعل ؟ إني لا أصلح لشيء هنا .

تقدم في القاعة محاولاً أن يبصر وأن يتوجه . وفجأة في الظليل ، وخلف دعامة الوسط ، لمح منضدة طويلة ، وعلى تلك المنضدة كان هناك شيء يلمع على نحو غير واضح . فأخذ يتحسسه ، لقد كانت طبنجات ، ومسدسات ،

وقربينات ، وصفّ من الأسلحة النارية مرتبة بنظام ، ويبدو عليها أنها لا تنتظر إلا أيدي لتقبض عليها ؛ إنها احتياطي المعركة التي يهيئها المحاصَرون للمرحلة الثانية من الهجوم ، إنها ترسانة كاملة .

وهتف رادو:

– صِوان سُفره! .

وانقض عليها مبهوراً .

حين ذاك غدا مخيفاً .

كان باب الدرج الذي يتصل بالطوابق العليا والسفلى مرئياً ، وكان مفتوحاً على مصراعيه ، إلى جانب الطاولة المحملة بالأسلحة . فترك رادو سيفه يسقط ، وأخذ بيديه مسدسين بطلقتين ، وأطلق نارهما في آن ، وبلا تبصر تحت الباب ، في الجزء اللولبي للدرج ، ثم أمسك باسبنغولة (بندقية منفرجة) وقبض على طبنجة محشوة بالخردق الغليظ وأفرغها . أما الطبنجة التي تقذف خمس عشرة رصاصةً ، فبدت كأنها تطلق رشقة رشاش . حينذاك صاح رادو الذي استرجع أنفاسه ، وبصوت راعد في الدرج: عاشت باريس!

وإذ استحوذ على طبنجة ثانية أضخم من الأولى ، فقد سدّدها إلى تحت القبة المتعرجة لدرج سان جيل اللولبي وأخذ ينتظر .

كانت البلبلة في القاعة المنخفضة لا توصف .

إن هذه الضروب من الدهشة غير المتوقعة قد فكّكت المقاومة .

إن رصاصتين من أصل رصاصات الإطلاق الثلاث التي أُطلقها رادو قد أصابت مرماها؛ فقد قتلت إحداهما بكر الأخوين بيك أنْ بوا ، وقتلت الأخرى هوزار . الذي كان هو السيد دوكيلين . وصاح المركيز:

– إنهم في الأعلى!

سببت هذه الصيحة الخروج من قاعة التحصّن ، وإن سرب طيور ليس أسرع في هروبه من هذا الخروج ، فقد كان هناك تسابق بين من يندفعون على الدرج ، وكان المركيز يشجع هذا الهروب . وكان يقول:

– أسرعوا؛ فالشجاعة في الهرب ولنصعد جميعاً إلى الطابق الثاني! وهناك نستأنف عملنا .

وكان آخر من غادر قاعة التحصّن .

وقد أنقذته هذه الشجاعة .

أما رادو الذي كان يكمن في أعلى الطابق الأول للدرج ، وأصبعه على زناد الطبنجة ، فقد كان يراقب الهروب ، وقد تلقى أول الذين ظهروا عند منعطف الدرج اللولبي إطلاق النار في وجوههم وسقطوا مصعوقين ، ولو كان المركيز من بينهم ، لمات . وقبل أن يتوفر الوقت لرادو ليمسك بسلاح جديد ، عبر الآخرون ، وعبر المركيز بعد الجميع ، بشكل أبطأ من الآخرين . وقد كانوا يظنون أن غرفة الطابق الأول ملأى بالمحاصرين ، فلم يتوقفوا فيها ، وتوجهوا ، إلى قاعة الطابق الثاني ، إلى غرفة المرايا . فهناك إنما كان الباب الحديديّ . وهناك إنما كانت الذّبالة المكبرتة ، وهناك ، إنما كان التسليم أو الموت .

أما غوفان . الذي كان متفاجئاً مثلهم بانفجارات الدّرج ، ولا يجد تفسيراً للنجدة التي كانت تصل إليه ، فقد أفاد من ذلك ، من غير أن يسعى للفهم ، وقفز ، هو وجماعته ، من فوق قاعة التّحصّن ، وساق المحاصرين مطارداً إيّاهم حتى الطابق الأول .

هناك ، وجد رادو .

بدأ رادو بالتحيّة العسكرية ، وقال:

– دقيقة واحدة ، يا سيّدي القائد . أنا الذي فعلت ذلك . وقد تذكّرت دُوْل . وصنعت مثلك ، جعلت العدو بين نارين .

فقال غوفان مبتسماً:

– تلميذٌ جيّد.

حين يكون المرء لفترةٍ من الزّمن في العتمة، ينتهي الأمر بالعينين إلى الاعتياد على العتمة شأن عيون طيور الليل، وقد لاحظ غوفان أن رادو مضرّج بالدماء.

– ولكنّك جريحٌ، أيّها الرّفيق!

– لا تعرْ الأمر اهتماماً، يا سيّدي القائد. فما أهميّة ذلك، أذنٌ أكثر أو أقل؟ وقد أصبت أيضاً بضربة سيف، وأنا لا آبه بها. حين يكسر المرء لوح زجاج، يجرح نفسه قليلاً على الدّوام، فضلاً عن أن الدّم ليس كله دمي.

قاموا بنوع من التوقّف في قاعة الطابق الأول والتي احتلّها رادو. لقد أتوا بفانوس. وانضم سيموردان إلى غوفان. وأخذوا يتشاورون؛ فقد كان هناك ما يدعو فعلاً إلى التفكير ولم يكن المحاصرون يعرفون خفايا المحاصرين؛ كانوا يجهلون النّقص الذي يعانونه في ذخيرتهم. لم يكونوا يعرفون أن المدافعين عن المكان يفتقرون إلى البارود. وكان الطابق الثاني هو المركز الأخير للمقاومة. وقد يظن المحاصرون أن الدّرج ملغوم.

الأمر المؤكّد هو أن العدو لم يكن بوسعه الهروب؛ فهؤلاء الذين لم يموتوا كانوا هناك وكأنهم سجناء، وكان ولقد أُحكمَ الفخّ على لانتوناك.

بهذا اليقين، كان بالإمكان أن يتمهّلوا بعض الوقت في البحث عن أفضل خاتمة ممكنة.

كان قد سقط العديد من القتلى، وكان لا بدَّ من محاولةِ عدم خسارة عددٍ آخر من الناس في هذا الهجوم الأخير.

قد تكون المخاطرة في هذا الهجوم العظيم كبيرة، فمن المحتمل أن تكون هناك صليةُ نارٍ أولى ينبغي تلقيّها.

كانت المعركةُ متواصلةً. وكان المحاصرون، المسيطرون على الطابق الأرضيّ، وعلى الطابق الأول، ينتظرون أمر القائد بمتابعة هجومهم. وكان غوفان وسيموردان مجتمعين للتشاور. ومعهم رادو يحضر مشاوراتهم بصمت.

قام بتحيّةٍ عسكريّةٍ جديدة، وقال بخجل:

– سيّدي القائد؟

– ماذا هناك، يا رادو؟

– هل لي الحق في مكافأةٍ صغيرة؟

– بالتأكيد. اطلب ما تشاء.

– أطلب أن أكون أول من يصعد.

لم يكن بالإمكان أن يرفض طلبه. أضف إلى ذلك أنه كان يمكن أن يفعل ما يريد من دون إذن.

* * *

XI

اليائسون

فيما كان يجري التشاور في الطابق الأول. كان الآخرون يتمترسون في الطابق الثاني. إن النجاح هيجان، والهزيمة سُعار. كان الطّابقان سوف يتصادمان اصطداماً عنيفاً. إن الاقتراب من النّصر نشوة. ففي الأسفل، كان هناك الأمل الذي يصبح أعظم القوى البشرية، لو لم يكن اليأس موجوداً.

كان اليأس في الأعلى.

إنه يأس هادئ، وبارد، ومشؤوم.

حين وصل المحاصَرون إلى تلك القاعة، قاعة الملجأ والتي لم يكن فيما وراءها شيء بالنسبة إليهم، كان أوّلُ همّهم هو سدّ المدخل؛ فإغلاقُ الباب كان بلا فائدة، وكان زحمُ الدّرج أفضل. وفي حالةٍ كهذه، يعتبر العائق الذي يمكن للمرء أن يرى من خلاله وأن يقاتل، يعتبرُ أفضلَ من بابٍ مغلق.

كانوا يستضيئون بمشعلٍ نصبه ليمانوس في إناء إضاءةٍ جداري بقرب الذّبالة المكبرتة.

كان في قاعة الطابق الثاني تلك صندوقٌ من الصناديق الضخمة الثقيلة والمصنوعة من السنديان، والتي تحشر فيها الملابس والبياضات، قبل اختراع خزائن الأثاث ذات الجوارير.

سحبوا هذا الصندوق. ونصبوه واقفاً تحت الدّرج. فدخل في ذلك الموضع دخولاً متيناً وسدّ المدخل. ولم يدع شيئاً مفتوحاً، بقرب القبّة، إلاّ مساحة ضيّقة يمكنها أن تجعل رجلاً يمرّ، وممتازة لقتل المهاجمين واحداً فواحداً، وكان أمراً مشكوكاً فيه أن يخاطر أحدٌ فيها.

كان المدخل المسدود يعطيهم فترة استراحة.

فأحصوا عددهم.

لم يبقَ من التّسعة عشر إلاّ سبعة، بما فيهم ليمانوس. وقد جرحوا جميعاً باستثناء ليمانوس والمركيز.

أما الخمسةُ الذين جُرحوا، والذين كانوا مع ذلك جدّ نشيطين، ففي حرارة المعركة، يدعك أيُّ جرحٍ غير مميت تروح وتجيء، فهم شانتونيه، المدعو روبي، وغينوازو، وهو اسنار برانش دور، وبران دامور، وغران فرانكور. أما الباقون فقد ماتوا جميعاً.

لم يعد لديهم ذخائر. وقد نفدت جعبتهم، فأخذوا يعدّون الخرطوشات. فكم كان لديهم، هم السّبعة، من الطلقات التي يمكنهم إطلاقها؟ أربع طلقات.

لقد وصلوا إلى تلك اللحظة التي لم يعد فيها إلاّ السقوط. وحوصروا باتّجاه المنحدر الفاغر والرّهيب. وكان من الصّعب أن يكون المرء أكثر قرباً من الحافّة.

مع ذلك، فقد كان الهجوم قد استؤنف للتوّ، ولكن ببطء، وبثقة متزايدة، وكانت تُسمع ضرباتُ أخمص المحاصرين التي تتفحّص الدّرج درجةً فدرجة.

ما من وسيلة للهرب. عن طريق المكتبة؟ لقد كان هناك، على السّهل المرتفع، ستّة مدافع موجّهة، وفتيلها مشعَل. عن طريق الغرف العليا؟ ما فائدة ذلك؟ لقد كانت تفضي إلى مصطبة السّطح. وهناك، يجد المرء وسيلة ليرمي بنفسه من أعلى البرج إلى أسفله.

كان السبعة الباقون على قيد الحياة من تلك العصبة الملحميّة قد ألفوا أنفسهم بلا رحمة محبوسين ومحجوزين داخل ذلك السّور الذي يحميهم ويسلّمهم. لم يكونوا قد قبض عليهم بعد، ولكنهم قد غدوا سجناء.

رفع المركيز صوته قائلاً:

- يا أصدقائي، لقد انتهى كلّ شيء.

وأضاف بعد فترة من الصّمت:

- يا غران فرانكور، عُدْ لتكون رئيس الدير تورمو.

جثا الجميع وهم يحملون سبحتهم الورديّة بيدهم. وكانت ضربات أخمص المهاجمين تقترب.

أما غران فرانكور الذي كان مضرّجاً بالدّم بسبب رصاصة جلفت جمجمته وانتزعت جلدها المشعّر، فقد رفع بيده اليمنى صليبه. ووضع المركيز، الشكّاك في أعماقه[1]، إحدى ركبتيه على الأرض.

وقال غران فرانكور:

- ليعترف كلّ واحد بخطاياه بصوتٍ عالٍ يا سيّدي، تكلّم[2].

فأجاب المركيز:

- لقد قتلت.

وقال هواسنار:

---

(١) كان لدى هيغو فكرته الخاصة حول هذه النقطة، كما تؤكّد ذلك ملاحظةٌ وردت في «البقايا» ومفادها أن «معظم النبلاء البروتانيين كانوا فولتيريي النزعة، وكان العديد منهم يجري الدّم البروتستانتي الفرنسي في عروقه».

(٢) صلاة الشّوان، ومباركة البنادق على يد رئيس الدير غادان تشكلان أحد أجمل المشاهد في رواية بالزاك.

– لقد قتلت .

وقال غينوازو:

– لقد قتلت .

وقال شانتونيه:

– لقد قتلت .

وقال ليمانوس:

– لقد قتلت .

فتابع غران فرانكور:

– باسم الثالوث الجزيل التقديس ، أُحلّكم من خطاياكم ، فلتذهب نفوسكم بسلام .

فردّت الأصوات جميعاً:

– آمين .

ونهض المركيز ، وقال:

– والآن ، لنمتْ .

وقال ليمانوس:

– ولنقتلْ .

وأخذت ضرباتُ الأخمص تزعزعُ الصّندوق الذي كان يسدّ الباب .

وقال الكاهن:

– فكّروا بالرّب ؛ فالأرض لم تعد موجودةً بالنسبة إليكم .

فتابع المركيز:

- أجل، نحن في القبر.

أحنى الجميع جباههم ودقّوا صدورهم. أما المركيز وحده والكاهن فكانا واقفين. وكانت العيون تحدّق بالأرض، كان الكاهن يصلّي، والفلاّحون يصلّون، والمركيز يتفكّر. أما الصندوق الذي أخذ يُضرب كأنما بالمطارق، فقد كان يرنّ بشكلٍ مغِمّ.

في تلك اللحظة صاح صوتٌ حادٌّ وقوي، صارخاً وراءهم فجأة:

-كنت قد قلت لك ذلك حقّاً، يا سيّدي!

استدارت الرؤوس كلّها مذهولة.

وانفتح للتو ثقبٌ في الجدار.

إن حجراً ملصقاً بالطين بصورة متقنة بأحجار أخرى، ولكنه غير مملّط، وله رزّة في أعلاه ورزّة في أسفله، كان يدور للتوّ على نفسه بالصورة التي تدور فيها الأسطوانات الدّوارة، وقد فتحت السّور من خلال دورانها. وإذ انفتل الحجر على محوره، فقد أصبحت الفتحةُ مضاعفةً، وتُقدّم معبرين. أحدهما على اليمين والآخر على اليسار، وهما ضيّقان، ولكنهما كافيان ليسمحا بمرور رجل. وفيما وراء هذا الباب غير المتوقّع، كان المرء يلمح الدّرجات الأولى لدرجٍ لولبيّ، وكان وجهُ رجلٍ يظهر في الفتحة.

لقد تعرّف المركيز هالمالو.

* * *

XII

منقذ (٩١)

- هذا أنت ، يا هالمالو؟

- أنا ، يا سيّدي . أنت ترى فعلاً أن الأحجار التي تدور هي أمرٌ موجود ، وأنه يمكن الخروج من هنا . وقد وصلت في الوقت المناسب . ولكن ، فلنسرعْ . فبعد عشر دقائق تكون في وسط الغابة .

فقال الكاهن:

- إن الرّب كبير .

وصاحت كلّ الأصوات:

- أنقذْ نفسك ، يا سيّدي .

فقال المركيز:

- أنتم جميعاً أولاً .

فقال رئيس الدّير تيرمو:

- أنت أولاً ، يا سيّدي .

– أنا الأخير .

وتابع المركيز بصوتٍ متشدّد:

– لا حاجة لمعركةٍ في الشهامة ، فليس لدينا الوقت لنكون كرماء . أنتم جرحى ، وأنا آمركم بأنّ تعيشوا وأن تهربوا ! بسرعة ، أفيدوا من هذا المخرج . وشكراً ، يا هالمالو .

قال رئيس الدّير تيرمو:

– يا سيّدي المركيز ، هل سنفترق؟

– في الأسفل ، بلا شك ، فلن نفلت قطّ إلاّ واحداً فواحداً .

– هل يعيّن لنا سيّدي موعداً ؟

– أجل فرجةٌ في الغابة . هي لابيير غوفين . هل تعرفون المكان؟

– إننا نعرفه جميعاً . سأكون فيه غداً ، عند الظهيرة؛ وليكن كلّ أولئك الذين يقدرون على السّير موجودين فيه .

– سنكون هناك .

وقال المركيز:

– وسوف نعاود الحرب .

مع ذلك ، فإن هالمالو ، وهو يضغط على الحجر الدّوار ، قد لاحظ للتوّ أنه لم يعد يتحرّك . والفتحة لم يعد بإمكانها أن تنغلق ، فقال:

– لنسرعْ ، يا سيّدي ، فالحجر يقاوم الآن . ولقد تمكنت من فتح الممر ، ولكن لن أستطيع إغلاقه .

كان الحجر ، في واقع الأمر ، وبعد عدم استخدام طويل ، وكأنّه متصلّب في مفصّلته . وأصبح من المتعذّر منذ ذلك الوقت أن يتحرّك .

وتابع هالمالو يقول:

– يا سيّدي ، كنت آمل أن أعيد إغلاق الممر ، وألا يجد الزّرقُ من بعد أحداً ، حين يدخلون ، وألاّ يفهموا شيئاً ، وأن يظنوا أنكم تبخّرتم . ولكن ها هو الحجر الذي لا يرغب بذلك . سوف يرى العدو المخرج مفتوحاً ، ويمكنه القيام بالملاحقة ، فلا نضيّعنّ دقيقة على أيّة حال . بسرعة . الجميع على الدّرج .

وضع ليمانوس يده على كتف هالمالو ، وقال:

– أيّها الرّفيق ، كم يلزمنا من الوقت لكي نخرج من هذا المعبر ، ولكي نكون بأمانٍ في الغابة؟

فسأل هالمالو:

– ألم يصب أحدٌ بجرحٍ خطير؟

فأجابوه:

– لا أحد .

– في هذه الحالة ، ربع ساعة تكفي .

فسارع ليمانوس إلى الرّد قائلاً:

– وهكذا ، فإذا لم يدخل العدوّ إلى هنا إلاّ بعد ربع ساعة . . .

– فيمكنه أن يلاحقنا ، ولن يصل إلينا أبداً .

فقال المركيز:

– ولكنهم سيكونون هنا، بعد خمس دقائق. وهذا الصندوق العتيق ليس مؤهلاً لإعاقتهم طويلاً. إن بضعة ضربات من الأخمص سوف تأتي عليه. ربع ساعة! من الذي سيوقفهم لربع ساعة؟

فقال ليمانوس:

– أنا.

فقال غوج لوبرويان:

– أنا، يا سيّدي[٩٢] اسمع. من أصل ستّة، أنتم الخمسة جرحى، أما أنا فلم أصبْ بخدش.

وقال المركيز:

– ولا أنا.

– أنت القائد يا سيّدي، وأنا الجنديّ. والقائد والجنديّ اثنان مختلفان.

– أعلم ذلك، ولكلّ واحد منّا واجبٌ مختلف.

–كلاّ، يا سيّدي، لدينا، أنت وأنا الواجب نفسه، والذي هو إنقاذك.

استدار ليمانوس نحو رفاقه، وقال:

– أيّها الرّفاق، إن المطلوب هو إفشالُ العدوّ وتأخيرُ المطاردة أكثر ما يمكن. اسمعوا. إني بكامل قوّتي، ولم أخسر نقطة دم. وبما أني لم أُصب بجرح، فلسوف أصمد أكثر من سواي. فاذهبوا جميعاً، واتركوا لي أسلحتكم، فلسوف أُحسِنُ استخدامها. وإني آخذ على عاتقي إيقاف العدو نصف ساعة كاملة. فكمْ هو عدد المسدسات المحشوّة هنا؟

– أربعة.

– ضعوها على الأرض.

وفعلوا مثلما أراد.

- حسناً. إني أبقى. ولسوف يجدون من يتكلّمون معه. والآن، بسرعة، امضوا.

إن الأوضاع القاطعة تلغي ضروب الشكر، (٩٣) ولم يتوفّر إلاّ القليل من الوقت لكي يصافحوه، وقال له المركيز:

- إلى اللقاء.

- كلا، يا سيّدي، آمل أن لا، فليس هناك لقاء، فأنا سأموت.

دلف الجميع واحداً بعد الآخر إلى الدّرج الضيّق، وأولهم الجرحى. وفيما كانوا ينزلون، أخذ المركيز قلم الرّصاص من دفتر جيبه، وكتب بعض الكلمات على الحجر الذي لم يعد ممكناً أن يدور، والذي كان يدع الممرّ فاغراً.

وقال هالمالو:

- تعال، يا سيّدي، فلم يعد هناك أحد سواك.

وبدأ هالمالو ينزل.

وتبعه المركيز.

وظلّ ليمانوس بمفرده.

* * *

XIII

جلّاد

كانت المسدسات الأربعة قد وضعت على البلاطات ، لأنه لم يكن في تلك القاعة أرضيةٌ خشبية. فأخذ ليمانوس مسدّسين منها ، وأمسك بواحدٍ في كلّ يد .

تقدّم بصورة مائلة باتجاه مدخل الدّرج الذي كان الصندوق يسدّه ويموّهه .

كان المهاجمون يخشون بطبيعة الحال مفاجأة ما ، أي إحدى تلك الانفجارات النهائية التي هي كارثةٌ بالنسبة للغالب ، كما هي كارثة بالنسبة للمغلوب في الوقت نفسه . وبقدر ما كان الهجوم الأول عاصفاً ، بقدر ما كان الهجوم الأخير بطيئاً وحذراً .

لم يكن باستطاعة المهاجمين ، وربّما لم يكونوا يريدون أن يحطّموا الصّندوق بعنف ، كانوا قد دمّروا قعره بضربات من أخمص البنادق ، وثقبوا غطاءه بضربات من الحراب ، ومن خلال هذه الثقوب ، كانوا يحاولون أن يبصروا في القاعة ، قبل أن يخاطروا في الولوج إليها .

كان ضوء المصابيح الذي كانوا ينيرون به الدّرج يمرّ من خلال هذه الثقوب .

لمح ليمانوس من أحد هذه الثقوب إحدى تلك الحدقات التي كانت تنظر . فسدّد من هذا الثقب سبطانة أحد تلك المسدّسات ، وضغط على الزّناد .

انطلقت الطّلقة، وسمع ليمانوس بفرح صرخةً مرعبة. كانت الرّصاصة قد فقأت عين الجندي، واخترقت رأسه، وهذا الجندي الذي كان ينظر قد سقط للتوّ على الدّرج منقلباً على قفاه.

كان المهاجمون قد خرقوا على نحوٍ كافٍ من الاتساع أسفل الغطاء في موضعين، وأحدثوا فيه نوعين من كوى الرّمي، وقد أفاد ليمانوس من أحد هذين الشّقين ومرر ذراعه منه، وأفلت، بلا تبصّر، في تجمّع المهاجمين طلقة مسدّسه الثانية. ومن المحتمل أن تكون الرّصاصة قد تقافزت، لأنه قد سُمعت بضعة أصوات، وكأن ثلاثة رجال أو أربعة قد قتلوا أو جرحوا، وحدثت على الدّرج جلبةٌ كبيرة بين رجالٍ يفرّون أو يتقهقرون.

رمى ليمانوس المسدّسين اللذين فرغ من الإطلاق بهما؛ وأمسك بالاثنين اللذين بقيا، ثمّ نظر من ثقوب الصندوق، والمسدّسان في قبضتيه.

تبيّن الأثر الأوّل الذي أحدثه.

كان المهاجمون قد نزلوا الدّرج مجدداً. وكان ثمّة محتضرون يتلوّون على الدّرجات، ولم يكن انعطاف الدرج اللّولبي يدع إلا ثلاث أو أربع درجات ترى.

أخذ ليمانوس ينتظر، وكان يفكر قائلاً:

- هذا وقتٌ أربحه.

ومع ذلك؛ فقد رأى رجلاً منبطحاً، يصعد زحفاً درجات الدرج، وفي الوقت نفسه، وفي موضع أخفض، ظهر رأسُ جنديّ وراء الدعامة المركزية للدرج اللّولبي. سدد ليمانوس على هذا الرأس وأطلق. فصدرت صرخة، وسقط الجندي، ونقل ليمانوس المسدس الأخير المحشوّ الذي تبقى لديه من يده اليسرى إلى يده اليمنى.

في تلك اللحظة، أحسّ بألم فظيع، وكان هو من أطلق صياحاً بدوره. إن سيفاً كان يخترق أحشاءه. إن قبضة ما، هي قبضة الرجل الذي كان يزحف،

كانت قد مرت للتوّ من خلال كوّة الرمي الثانية ، كوة أسفل الصندوق ، وهذه القبضة قد غرزت سيفاً في بطن ليمانوس .

كان الجرح مرعباً ، وكان بطن ليمانوس مشقوقاً من جهةٍ لأخرى .

لم يسقط ليمانوس بل صرّ على أسنانه ، وقال:

- حسناً!

ثم تراجع وهو يترنّح ويجر نفسه حتى المشعل الذي كان يلتهب بجانب الباب الحديدي ، ووضع مسدسه على الأرض وقبض على المشعل ، وإذ أسند بيده اليسرى أمعاءه التي كانت تخرج ، فقد خفض بيده اليمنى المشعل ، وأضرم النار بالذّبالة المكبرتة .

اشتعلت النارُ وتوهّجت الذبالة ؛ فترك ليمانوس المشعل الذي استمر يحترق على الأرض وأمسك بمسدسه من جديد ، وأضرم الذبالة بالقليل من النَفَس الذي تبقى له ، بعد أن سقط على البلاط ، ونهض ثانية ، سرى اللهب سريعاً ، ومرّ تحت الباب الحديدي ، وبلغ لوبون شاتليه (جسر القُصير) .

حينذاك فإن هذا الرجل الذي رأى نجاحه المقيت ، والذي ربما غدا راضياً عن جريمته أكثر مما هو راضٍ عن فضيلته ، هذا الرجل الذي كان بطلاً منذ قليل ، والذي لم يعدْ أكثر من قاتلَ والذي سيموت ، أخذ يبتسم .

وقد همس يقول:

- سوف يتذكرونني ، فأنا أنتقم من صغارهم ، لصغيرنا الذي يخصنا ، وهو الملك الموجود في لوتامبل .

* * *

XIV

ليمانوس يفرّ أيضاً

في تلك اللحظة حدثت ضجة كبرى؛ فالصندوق الذي دفع بعنف قد انهار، مفسحاً المجال لرجلٍ يهجم في القاعة، وسيفه بيده.

– هذا أنا، رادو، فمن يحقد عليّ؟، إني ضجرٌ من الانتظار وأخاطر بنفسي، الأمر لدي سيان، ولقد بقرتُ بطنَ احدهم على كلّ حال، إني الآن أهاجمكم جميعاً؛ فلتلحقوا بي أو لا تلحقوا، هاأنذا، فكم هو عددكم؟.

كان ذاك هو رادو فعلاً، وكان بمفرده، بعد المذبحة التي نفّذها ليمانوس للتو على الدرج، كان غوفان الذي تخوف من لغّمٍ مموّه، قد جعل رجاله ينسحبون، وأخذ يتشاور مع سيموردان.

أما رادو، الذي كان سيفه بيده على العتبة، في تلك الظلمة التي كان لايكاد المشعل المطفأ تقريباً يلقي فيها ضوءاً، فقد ردد سؤاله:

– أنا بمفردي، فكم أنتم؟

وحين لم يسمع شيئاً تقدّم، وانبثقت من المشعل، فأنارت القاعةَ كلها، إحدى تلك الدفقات من الضياء التي تنبعث على فتراتٍ من البؤر المحتضرة، والتي يمكن أن نسمّيها انتحابات النور. أبصر رادو إحدى تلك المرايا الصغيرة

المعلقة على الجدار، واقترب منها، ونظر إلى وجهه المضرّج بالدماء، وإلى أذنه المتدلية، وقال:

– تخلّعٌ مقزّز.

ثم استدار مذهولاً من رؤية القاعة الخالية وهتف:

– ما من أحد هنا! عديدُ المقاتلين صفر.

لمح الحجر الذي دار، والفتحة والدرج.

– أه! إني أدرك الأمر، مفتاح الحقول. فلتأتوا جميعكم إذن! أيها الرفاق، تعالوا! لقد ذهبوا، وجروا، واندفعوا وحشروا أنفسهم، ورحلوا. كانت تلك الجرّة التي هي البرج العتيق متصدعة. هذا هو الثقب الذي مرّوا منه، الأوغاد! فكيف تريدون التغلّب على بِتْ وكوبور. بمهازل من هذه الشاكلة! إن إله الشياطين هو الذي أتى لنجدتهم! ما من أحد هنا!

انطلقت طلقةُ مسدّس، فجلفت رصاصةٌ مرفَقَةُ وتسطّحت على الجدار.

– ولكن بلى! هناك أحدهم. فمن الذي تكرم بمجاملتي؟

فقال صوت:

– أنا.

قدّم رادو رأسه، وميزّ في تدُّرج الضوء شيئاً كان ليمانوس، وصاح:

– أه! لقد أمسكت بواحد منهم، لقد هرب الآخرون، أما أنت فلن تهرب.

فرد ليمانوس قائلاً:

– أتظنّ ذلك؟

خطا رادو خطوة وتوقف وقال:

– هيه! أيها الرجل الممدد على الأرض من أنت؟

– أنا ذلك الموجود على الأرض والذي يسخر من الواقفين .

– ماذا لديك في يدك اليمنى؟

– مسدس

– وفي يدك اليسرى؟

– أمعائي .

– إني آخذك أسيراً

– أتحدّاك في ذلك .

وإذ انحنى ليمانوس على الذبالة المشتعلة ، فقد نفخ نفسه الأخير على الحريق وقضى .

بعد بضع لحظات ، كان غوفان وسيموردان والجميع في القاعة . وقد رؤوا الفتحة جميعاً .

لقد فتشوا في الزوايا الخفية ، وتفحصوا الدرج ، فقد كان يفضي إلى مخرج في المسيل المنحدر ، وتبيّنوا الهروب ، هزوا ليمانوس فوجدوه ميتاً . أما غوفان فقد عاين ، والمصباح بيده ، الحجرَ الذي أمنّ للمحاصرين مخرجاً ، وكان قد سمع كلاماً عن الحجر الدوار ، ولكنه هو أيضاً كان يعتبر تلك الأسطورة خرافة . وقد لاحظ وهو يتأمّل الحجر شيئاً كان مكتوباً بقلم الرصاص ، فقرّب المصباح وقرأ مايلي:

– إلى اللقاء ياسيّدي الفيكونت لانتوناك

كان غيشان قد انضمّ إلى غوفان ، وكانت الملاحقة بلا فائدة بطبيعة الحال. فالهروب كان ناجزاً وكاملاً ، وكان إلى جانب الهاربين ، المنطقةُ

بكاملها والأدغال الفتية، والوادي والحرجات، وساكنها، لقد كانوا بلا شك قد أصبحوا بعيدين فعلاً، وما من وسيلة للعثور عليهم. وكانت غابة فوجير بكاملها مخبأ هائلاً. فما العمل؟ كان لا بّد من البدء بشيء مجدداً. كان غوفان وغيشان يتبادلان خيبات أملهما وتكهناتهما.

كان سيموردان يصغي برصانة من غير أن يقول كلمة.

وقال غوفان

– بالمناسبة يا غيشان، والسّلّم؟.

– لم يأتِ. أيها القائد.

– ولكننا قد رأينا عربة يواكبها الدركيون.

فرد غيشان:

– لم تكن تجلب السّلّم.

– ماذا كانت تجلب إذن؟

فقال سيموردان:

– المقصلة.

* * *

XV

لا تضع في جيب واحد

ساعة ومفتاحاً

لم يكن المركيز دولانتوناك بعيداً بالقدر الذي يظنّونه .

ومع ذلك لم يكن بأمانٍ كامل على نحو أقل ، وبعيداً عن متناولهم . كان يتبع هالمالو .

كان الدرج الذي نزلا منه ، هالمالو وهو وراء الهاربين الآخرين ، ينتهي بقرب المسيل وعقود الجسر برواق ضيق ومقبب ، وكان هذا الرواق ينفتح على صدعٍ عميق وطبيعي في الأرض التي تفضي إلى المسيل من جهةٍ ، وإلى الغابة من الجهةِ الأخرى . وكان هذا الصدعُ الذي يخفى عن الأبصار تماماً يتعرج تحت النباتات التي لا يمكن النفوذ إليها ، ومن غير الممكن اللحاقُ برجل ، فالهاربُ ما إن يصل إلى ذلك الصّدع ، حتى لا يعود يتعين عليه إلا أن يقوم بمثل هروب الخفث ، ويغدو العثور عليه متعذراً . وقد كان مدخلُ المعبر السري للدرج مسدوداً إلى حد كبير بالعليق بحيث كان بناةُ الممرّ السردابي يعتبرون أنه من غير المفيد إغلاقهُ بشكل آخر .

لم يعد يتعين على المركيز في ذلك الحين ، إلا أن يمضي في سبيله ، ولم

يكن عليه أن يبالي بتمويه. فمنذ وصوله إلى بروتانيا، لم يكن قد تخلى عن ملابسه الفلاحية، معتقداً أنه يصبح سيداً إقطاعياً أعظم على هذا النحو.

كان قد اكتفى بنزع سيفه الذي فكّ إبزيمه ورماه.

حين نفذ هالمالو والمركيز من المعبر إلى الصدع، لم يكن الآخرون الخمسة، غينوازو، وهواسنار برانش دور، وبران دامور، وشاتونيه، ورئيس الدير تيرمو، لا يزالون موجودين فيه.

فقال هالمالو:

– لم يستغرقوا وقتاً طويلاً كي يتحرروا.

فقال المركيز:

– افعل مثلهم.

– هل يريد سيدي أن أتركه؟

– بلا شكّ. وقد سبق أن قلت لك ذلك. فلا يهرب المرء فعلاً إلا بمفرده. وحيث يمرّ واحد، لا يمر اثنان فإذا كنا معاً، استرعينا الانتباه، فقد تتسبّب في القبض علي، وقد أتسبب في القبض عليك.

– هل يعرف سيدي المنطقة؟

– أجل.

– هل يبقي سيدي على الموعد في بيير غوفين؟

– غداً عند الظهيرة. سأكون هناك. سنكون هناك.

فقطع هالمالو كلامه ثم قال:

– أه! ياسيدي حين أفكر أننا كنا في عرض البحر، وأننا كنا وحدنا، وأني كنت أريد أن أقتلك، وأنك كنت سيدي وأنه كان بوسعك أن تقول ذلك لي، ولم تقل لي ذلك! فأيّ رجلٍ أنت!

فاستأنف المركيز يقول:

– انكلترا. لم تعد هناك وسيلة أخرى، ينبغي أن يكون الانكليز في فرنسا بعد خمسة عشر يوماً.

– سيكون لدي العديد من الأمور التي أعرضها على سيدي، فقد نفذّت مهمّاته.

– سنتكلم عن كل ذلك غداً.

– إلى الغد يا سيدي.

– بالمناسبة، هل أنت جائع؟

– ربما يا سيدي؛ فقد كنت متعجلاً للوصول بحيث لا أعلم إن كنت قد أكلتُ اليوم.

أخرج المركيز من جيبه لوحاً من الشوكولاته، وكسره إلى قسمين، فأعطى نصفه إلى هالمالو، وبدأ يأكل النصف الآخر.

وقال هالمالو:

– يا سيدي، الوادي على يمينك والغابة على يسارك.

– حسناً اتركني، امضِ في اتجاهك.

امتثل هالمالو واختفى في الظلمة. وسُمع صوتُ احتكاك أشواك الغابات، ثم لا شيء بعد ذلك. وما إن مرت بضع ثوانٍ حتى أصبح من المتعذّر التقاط أثره مجدداً، إن أرض البوكاج هذه، الشائكة والمتشابكة كانت عوناً للهارب،

فالمرء لم يكن يختفي فيها، بل يتلاشى؛ فتلك السهولة في التفرّقات السريعة هي التي كانت تجعل الجيوش تتردد أمام ذلك التمرّد، وتمردِ الفانديه الذي كان يتراجع باستمرار، وأمام مقاتليها الهاربين هروباً مدهشاً إلى درجة هائلة.

لبث المركيز بلا حراك. وكان من هؤلاء الرجال الذين يبذلون جهدهم في ألا يشعروا بشيء. غير أنه لم يستطع أن يتملّص من التأثر بسبب تنفّسه للهواء الطلق، بعد أن استنشق الكثير من الدم والذّبح. إن شعور المرء بأنه قد أنقذ تماماً، بعد أن كان هالكاً تماماً، وبعد القبر الذي يُرى عن كثب، أن يمتلك المرء الأمان الكامل، وأن يخرج من الموت، ويرجع إلى الحياة، فهذا يسبّب هزّة، حتى بالنسبة لرجلٍ مثل لانتوناك، ومع أنه كان قد اجتاز هزات مماثلة، لم يستطع أن يجنب روحه الرابطة الجأش زعزعةً لبضع لحظات. لقد أقرّ لنفسه بأنه كان مسروراً، فكبح بسرعة تلك الحركة التي كانت تشبه الفرح تقريباً. أخرج ساعته وجعلها تدق. فكم كانت الساعة؟

كانت دهشتُه كبيرةً حين تبيّن أن الساعة لم تكن إلا العاشرة، وعندما يكون المرء قد احتمل لتوه إحدى تلك التحولات الطارئة في الحياة البشرية والتي يُطرَح فيها كل شيء للجدل يكون مذهولاً دائماً من أن دقائق ملأى بالأحداث ليست أطول من سواها.

كانت طلقةُ مدفع التحذير قد أُطلقت قبل غروب الشمس بقليل، وكان لاتورغ قد تعرض لاقتحام الرتل الهجومي بعد ذلك بنصف ساعة، بين الساعة السابعة والثامنة، عند الغسق، وهكذا فإن تلك المعركة الهائلة التي بدأت في الساعة الثامنة قد انتهت في العاشرة، وكانت هذه الملحمة كلّها قد دامت مئة وعشرين دقيقة؛ ففي بعض الأحيان تقترن بالكوارث سرعةٌ خاطفة، وتتصّف الأحداثُ بمثل هذه[٩٤] التوقيتات المختصرة المذهلة.

إذا ما فكرنا بالأمر وجدنا أن العكس هو الذي كان يمكن أن يكون مدهشاً، فمقاومةُ عددٍ صغير جداً لعدد كبير جداً لمدة ساعتين كانت أمراً فائقاً

للمعتاد، ومن المؤكد أن تلك المعركة، معركة الرجال التسعة عشر ضّد أربعة آلاف لم تكن معركة قصيرة، ولم تنتهِ بسرعة.

مع ذلك، فقد حان الوقت للذهاب، وكان على هالمالو أن يبتعد، وقد رأى المركيز أنه لم يكن البقاء ضرورياً في ذلك المكان مدةً أطول، أعاد ساعته إلى سترته، وليس إلى الجيب نفسه فقد لاحظ لتوه أنها كانت على تماس مع مفتاح الباب الحديدي الذي جلبه إليه ليمانوس، وأن زجاجَ ساعته يمكن أن ينكسر لاصطدامه بذلك المفتاحِ، وتهيأ للوصول بدوره إلى الغابة، وبما أنه كان يتجه يساراً فقد بدا له أن نوعاً من ضياءٍ مبهم كان يتغلغل وصولاً إليه.

استدار ومن خلال أشواك الغابات التي تبرز بوضوح على أساس أحمر، وتغدو فجأة مرئية في أصغر تفاصيلها، لمح ضوءاً كبيراً في الوادي وكانت بعضُ الخطواتِ الواسعة فقط تفصله عن الوادي[٩٥] فسار فيه، ثم عدل عن رأيه، ووجد من غير المفيد أن يعرض نفسه لذلك الضياء، فأيّا كان[٩٦]، فهو لا يعنيه على كلّ حال، فعاد إلى السير في الاتجاه الذي دله عليه هالمالو، وخطا بضع خطوات باتجاه الغابة، فجأة سمع فوق رأسه صرخة رهيبة، وهو متوارٍ ومختبئ بين شجيرات العليق، وكانت هذه الصّرخة وكأنها منطلقة من حافّة السهل المرتفع نفسه، فوق الوادي، فرفع المركيز عينيه وتوقف.

* * *

الكتاب الخامس

IN DAEMONE DEUS[1]

I

عُثر عليهم ولكنّهم ضائعون

في اللحظة التي كانت ميشيل فليشار قد لمحت فيها البرج المحمّر بسبب الشمس الغاربة، كانت على بعد فرسخٍ منه، وهي التي لم يكن باستطاعتها أن تقوم بخطوة واحدة إلا بصعوبة، لم تتردد إطلاقاً في اجتياز هذا الفرسخ. إن النساء ضعيفات، ولكن الأمهات قويات. فسارت.

كانت الشمس قد غربت والغسق قد حلّ، ثم العتمة العميقة. وسمعت وهي تمشي باستمرار، دقّات الساعة الثماني، ثم التسعة، في قبة جرس لم يكن مرئياً. والأرجح أن قبة جرس بارينيية، ومن وقت لآخر، كانت تتوقّف لتصغي لضروبٍ من الدقات المكتومة التي ربّما تكون قرقعاتِ الليل المبهمة.

كانت تتقدم في مسيرها على نحوٍ مستقيم، مهشّمةً نباتات الجولق، والأراضيَ البائرة المسننة، تحت قدميها الداميتين. كان يرشدها ضوءٌ ضعيفٌ يصدر عن البرج الرئيس البعيد، ويجعلها ترتعد، ويعطي ذلك البرج التماعاً

(١) باللاتينية في النص: برعاية الرب.

غامضاً في العتمة. كان ذلك الضوء يغدو أكثر سطوعاً، حين تصبح الطلقات أكثر وضوحاً، ثم يأخذ بالتلاشي.

لم تكن الهضبة الواسعة التي كانت تتقدم[٩٧] فيها ميشيل فليشار إلا عشباً وشجيرات خلنج، لا منزل فيها ولا شجرة. كانت ترتفع شيئاً فشيئاً، وعلى مدى البصر، تتكئ بخطها الطويل والمستقيم والجامد على الأفق المعتم. إن ما كان يسند ميشيل في صعودها هو أن البرج كان باستمرار تحت ناظريها.

كانت تراه يكبر ببطء، كانت الانفجارات المخنوقة والأضواء الشاحبة التي تخرج من البرج تحدث على فترات متناوبة، فكانت تنقطع، ثم ترجع طارحةً على الأم البائسة المكروبة لغزاً مؤثراً لا ندري ما هو.

فجأة توقفت الانفجارات وانطفأ كل شيء، الضجيج والضياء، وخيمت لحظةٌ من الصمت المطلق، وهيمن نوعٌ من الهدوء المغّم.

في تلك اللحظة، إنّما وصلت ميشيل فليشار إلى حافة الهضبة.

لمحت عند قدميها مسيلاً يضيع قعرهُ في كثافة ليليّة باهتة، وعلى مسافة معينة، في أعلى الهضبة، تشابكاً لعجلاتٍ ومنحدراتٍ وكوى كانت سريّة مدافع، وأمامها رأت مبنىً هائلاً تضيئه بصورة مشوشّة فتائلُ سريةِ المدفعية المشتعلة، وكان هذا المبنى يبدو مبنياً بعتماتٍ أكثر سواداً من كل العتمات التي تحيط به.

كان ذلك المبنى مكوناً من جسرٍ تنغرزُ عقودُه في المسيل، ومن نوع من قصر يرتفع على الجسر، وكان القصرُ والجسر يسند كلٌّ منهما الآخر، عند استدارةٍ عالية معتمة هي البرج الذي كان تسير إليه تلك الأم من مكان جدّ بعيد.

كانت ترى إضاءاتٌ تمضي، وتجيء في مناورة البرج، ومن الضجيج الذي كان يصدر عنها، كان المرء يتكهن بأنها مليئة بجمهرة من الناس الذين تبرز بعضُ أخيلتهم في الأعلى، وصولاً إلى سقيفة السّطح.

بقرب سرية المدفعية ، كانت ميشيل فليشار تميّز حُراسّه الخيّالة ، ولكنهم لم يلمحوها في العتمة وبين أشواك الغابات .

كانت قد وصلت إلى حافة الهضبة ، على مقربة من الجسر ، بحيث أنهُ قد بدا لها تقريباً أن بوسعها أن تلمسه بيدها ، وكان عمقُ المسيل يفصلها عنه وكانت تميّز في الظل طوابقَ قصرِ الجسر الثلاثة .

مكثت لوقتٍ غير محدد ، فمقاييس الزمن كانت تمحي في ذهنها ، فقد كانت مأخوذةً ، وبكماء أمام ذلك المسيل الفاغر ، وتلك العمارة المعتمة . فماذا كان ذلك ؟ . وماذا كان يجري هناك؟ . هل كان ذلك هو لاتورغ؟ . لقد كانت مصابةً بذلك الدوار ، دوار انتظارٍ غير محدّد يشبه الوصول والرحيل . وكانت تتساءل لماذا كانت هناك .

كانت تنظر وكانت تصغي .

فجأةً ، لم تعد ترى شيئاً .

ستارٌ من الدخان قد ارتفع لتوّه بينها وبين ما كانت تنظر إليه . وجعلتها رائحة شواء لاذعة تغمض عينيها ، وما إن أغلقت جفونها ، حتى احمرّت وغدت ساطعةً ، ففتحتهما من جديد .

لم يعد الليل ما تراه أمامها ، بل النهار ، غير أنه نوعٌ من نهارٍ مشؤوم ، النّهار الذي يطلع من النّار . كان تحت ناظريها بدايةُ حريق .

كان الدّخان قد تحوّل من أسود إلى أرجواني ، وكان لهبٌ عظيمٌ في داخله؛ فيظهر ذلك اللهب ثمّ يختفي . بمثل تلك التلوّيات المخيفة التي للبروق والثعابين .

كان ذلك اللّهب يخرج مثل لسان شيءٍ ما ، يشبه شدقاً والذي هو نافذة ملأى بالنار . وهذه النافذة المشبكّة بعوارض حديدية غدت حمراء ، كانت أحد

شبابيك الطابق السفلي للقصر المبنيّ على الجسر. ولم يكن المرء يلمح من كلّ المبنى إلا تلك النّافذة؛ فكان الدّخان يغطي كلّ شيء، حتى الهضبة، ولا يميّز المرء إلا حافة المسيل السّوداء في اللّهب القرمزيّ.

كانت ميشيل فليشار المذهولة[98] تنظر؛ فالدّخانُ غيم، والغيـمُ حلم. ولم تعد تعرف ما كانت تراه. هل كان عليها أن تهرب؟ هل كان عليها أن تبقى؟ كان تشعر تقريباً أنها خارج الواقع.

مرّت هبّة هواء، وشقّت ستارة الدّخان، و في التمزّق، انتصبت القلعةُ المأسوية مرئيةً بكاملها، ببرجها الرئيس، وجسرها، وقصيرها، ومبهرةً، ومرعبةً في اللون الذهبي الرّائع للحريق الذي ينعكس عليها من الأعلى إلى الأسفل. وتمكنت ميشيل فليشار من أن ترى كلّ شيء من خلال جلاء النّار[1] المشؤوم.

كان الطّابق الأسفل من القصر المبنيّ على الجسر يحترق.

فوق هذا الطابق، كان المرء يميّز الطابقين الآخرين اللذين لا يزالان سالمين، ولكن كأنهما محمولان في سلّة من اللّهب. ومن حافّة الهضبة التي كانت ميشيل فليشار فيها، كان يرى داخلها بصورةٍ غير واضحة. من خلال تدخّلات النّار والدّخان فيه.

لقد كانت كلُّ النوافذ مفتوحة.

ومن خلال نوافذ الطابق الثاني التي كانت كبيرة جدّاً، كانت ميشيل فليشار تلمح، بمحاذاة الجدران، خزائن تبدو لها ملأى بالكتب، وأمام أحد

(١) تثبت ملاحظات «البقايا» (أي ذخائر الرّواية) أن ف. هيغو قد تكوّنت لديه مبكّراً فكرةُ وصفِ حريق يدور على لاتورغ. وقد كان منذ زمنٍ طويل بارعاً في هذا النوع من لوحات الوصف الباهرة والفخمة: السحابة المستعرة في قصيدةِ «نار السماء» في ديوان «الشّرقيات»، وإضرام الكاتدرائية أثناء هجوم «المشرّدين» في رواية: (نوتردام باريس). ولكننا نفكر خصوصاً برسالة الرّين (التي تسمّى Feuer! Feuer!) (النّار بالالمانيّة) (رقم ١٩) حيث يصف المسافر الحريق الذي شهده في مدينة لورش. «إنه لشيء مرعبٌ ومثيرٌ للإعجاب أن يرى المرء حريقاً عن كثب...».

الشبابيك، على الأرض، وفي الظليل، مجموعة صغيرة متراكمة، وشيئاً له مظهرٌ غيرُ واضحٍ ومكوّم، مظهرُ عشٍّ أو حضنةِ فراخ، ويتبدّى لها وكأنه يتحرّك على فتراتٍ.

كانت تنظر إلى ذلك.

فماذا كانت هذه المجموعة الصغيرة من الأخيلة؟

في بعض الأحيان، كان يدور في ذهنها أن ذلك يشبه أشكالاً حيّة. وكانت محمومةً، ولم تأكل منذ الصباح، وكانت قد مشت دون توقّف. كانت منهكة، وتشعر بنوعٍ من الهلوسة تتحرّر منها غريزيّاً. ومع ذلك، فإن عينيها اللتين يزداد تحديقهما لم يكن بوسعهما أن تشيحا عن ذلك التّكوّم المبهم لأشياء غير محددة، وربما لا حياة فيها، ولا تتحرّك في الظاهر، هذا التكوّم الذي كان يرقد هناك على الأرضيّة الخشبية لتلك القاعة المتوضّعة فوق الحريق.

فجأة مدّت النّار من الأسفل، وكأن لها إرادة معيّنة، إحدى مقذوفاتها باتجاه اللبلابة الكبيرة الميّتة التي كانت تغطي بالضبط تلك الواجهة التي كانت تنظر إليها ميشيل فليشار. ويظن المرء أن اللّهب قد اكتشف تلك الشّبكة من الأغصان الجافة. فانقضّت عليها شرارةٌ بصورةٍ نهمة، وأخذت تصعد على طول السروع برشاقة نثارات البارود المرعبة. وبلغ اللهب الطّابق الثاني، بلمح البصر.

حينذاك، أنار من الأعلى. داخل الطابق الأول. وأبرز ضوءٌ ساطعٌ فجأةً ثلاثة كائنات صغيرة نائمة.

لقد كانوا كومة[٩٩] ظريفة، هي أذرعٌ وأرجلٌ متشابكة، وأجفانٌ مغمضة، ورؤوسٌ شقراء باسمة.

وتعرّفت الأمّ أبناءها.

فأطلقت صرخةً مرعبة.

إن هذه الصرخة، صرخة القلق الذي لا يوصف لا توهب إلاّ للأمهات: فما من شيء أشدّ شراسةً منها وإثارةً للمشاعر. وحين تطلقها امرأة، يظن المرء أنه يسمع ذئبة، وحين تطلقها ذئبة، يظن أنه يسمع امرأة.

كانت صرخة ميشيل فليشار هذه عواءً، ويقول هوميروس: نبحت هيكوب[1].

كانت تلك الصرخة هي التي سمعها المركيز منذ قليل.

ورأينا أنه توقّف.

كان المركيز بين منفذ المعبر الذي جعله هالمالو يهرب منه والمسيل، ومن خلال الأشواك الغابية المتشابكة فوقه، رأى الجسر يشتعل، ولاتورغ المحمّر بسبب انعكاس النّور، وقد لمح فوق رأسه، ومن خلال إبعاد غصنين، ومن الناحية الأخرى، على حافة الهضبة، قبالة القصر المشتعل، وفي وضح نهار الحريق، سحنةً زائغة النّظر ومثيرةً للشفقة، هي امرأة منحنية على المسيل.

وعن تلك المرأة إنما صدرت تلك الصرخة[100].

هذه السحنة لم تعد ميشيل فليشار، كانت غورغون[2]. إن البؤساء هم الهائلون. وكانت الفلاّحة قد تحوّلت إلى خيّرة. إن هذه القرويّة العاديّة والعاميّة، والجاهلة وغير الواعية. قد وصلت للتوّ، وعلى نحوٍ مفاجئ إلى أبعاد اليأس الملحميّة. إن الآلام العظيمة هي توسّعٌ عملاق للرّوح. وهذه الأم قد كانت الأمومة[3]. إن كلّ ما يلخّص الإنسانيّة يفوق البشريّ. كانت تنتصب هناك، على حافّة هذا المسيل، وأمام هذا الإضرام، أمام هذه الجريمة، مثل ملاك

---

(١) في الأساطير الإغريقية: هيكوب هي زوجة بريام التي فقدت زوجها وأولادها جميعاً تقريباً في حرب طروادة. (م:ز.ع).
(٢) في الأساطير اليونانية، مسخٌ محاطٌ بثعابين، والخيّرة هي المتسامحة في الأساطير نفسها (م ز.ع).
(٣) هذه أيضاً جملة تميز التحوّل الرمزي الذي يُحدثه الروائي على شخصياته.

ضريحيّ؛ كانت صرختها صرخة حيوان، وحركتها حركة إلهة. ووجهها الذي كانت تنزل منه اللعنات، كان يبدو مثل قناع من التوهّج، وما من شيء أكثر سمواً من وميض عينيها الغارقتين بالدّموع. لقد كانت نظرتها تصعق الحريق.

كان المركيز يصغي، وكان ذلك يسقط على رأسه، وكان يسمع شيئاً غير ملفوظ، ومزقاً وغير واضح. وهو نحيبٌ أكثر منه كلام.

– أه! يا إلهي! أطفالي! إنهم أطفالي! النجدة! الحريق! الحريق! الحريق! ولكنهم قطّاع طرق إذن! أما من أحدٍ هناك؟ ولكن أطفالي سيحترقون! أه يا لهذا الأمر! جورجيت! أطفالي! غروزالان، رينيه جان! ولكن ما معنى هذا! ومن الذي وضع أطفالي هناك؟ إنهم نائمون. لقد جننت! إنه شيء مستحيل. النجدة!

مع ذلك كانت حركة كبيرة تجري في لاتورغ وعلى الهضبة. كان المعسكرُ كلّه يهرع إلى النار التي اندلعت للتو، إن المحاصرين بعد أن واجهوا القذائف الرشاشة، واجهوا الحريق، وكان غوفان وسيموردان وغيشان يصدرون الأوامر، فما العمل؟ ولم يكد يتبقى إلا بضعة دلاءٍ من الماء الذي يمكن اغترافُه من ساقية المسيل الشحيحة. كان القلق يتزايد، وكانت حافةُ الهضبة مغطاة بوجوهٍ مرتعبة تنظر. كانوا ينظرون، ولا يتمكنون من فعل شيء حيال ذلك.

كان اللهّب، من خلال اللبلاب الذي اشتعل، قد وصل إلى الطابق الأعلى، وهناك وصل إلى مخزن الغلال المليء بالقش، فسارع إليه. أصبح كلّ المخزن يشتعل الآن... كان اللّهبُ يتراقص، أما فرح اللهب فقد كان أمراً مغمّاً، وكان يبدو أن نفساً أثيماً يسعّر تلك المحرقة. ويخيل إلى المرء أن ليمانوس المرعب بكلّيته كان موجوداً هناك، وقد تحوّل إلى زوبعةٍ من الشرر يغتذي بحياة النار القاتلة، وإن تلك الروح المسّخ قد تحولت إلى حريق، لم يكن طابقُ المكتبة قد بلغته النار بعد، وكان علوّ سقفه وسماكة جدرانه تؤخّر اللحظة التي يلتهب فيها، غير أن تلك الدقيقة المشؤومة كانت تقترب، وكان قد بدأ الحريق، حريقُ

الطّابق الأول يلامسه ويداعبه حريقُ الطابق الثالث ، وكانت قبلة الموت تمسه مساً خفيفاً . في الأسفل ، قبوٌ من الحمم ، وفي الأعلى قبّةٌ من الجمر ، وعندما حدث ثقبٌ في الأرضية الخشبية ، حدث تدهورٌ إلى الرماد الأحمر ، وعندما حدث ثقبٌ في السقف ، حدث انطمارٌ تحت أكداس الفحم المستعرة . لم يكن رينيه - جان ، وغروزالان وجورجيت قد استيقظوا بعد ، كانوا ينامون نوماً عميقاً وبسيطاً ، هو نومُ الطفولة ، ومن خلال تثنيات اللهب والدخان التي كانت تغطي النوافذ وتكشفها دورياً ، كان المرء يلمحهم في مغارة النار تلك ، في أعماق ضوءٍ شهابي مطمئن ، ظرفـاء لا يبدون حراكاً ، مثل ثلاثة أطفال شبيهين بيسوع الطفل ، ونائمين مستأمنين في جحيم ، وكان يمكن لنمرٍ أن يبكي حين يرى هذه الوردات في ذلك الأتون ، وتلك المهود في ذلك القبر . ومع ذلك فقد كانت الأم تلوي بذراعيها قائلة:

- إلى الحريق! إني أصيحُ إلى الحريق ! هل أنتم صمّ إذن حتى لا تأتوا ![1] .
إنهم يحرقون أطفالي! فلتصلوا إذن ، أنتم أيها الرجال الموجودون هناك ، هاأنا أسير ، منذ أيام وأيام ، وأراهم على هذا الشكل! إلى الحريق النجدة! إنهم ملائكة! لنفكر بأنهم ملائكة فماذا صنعوا ، هؤلاء البريئون؟! لقد أطلقوا علي النار ، أما هم فيحرقونهم! فمن الذي يصنع إذن مثل هذه الأشياء! النجدة! أنقذوا أطفالي! ألا تسمعونني؟ إذا كانت هناك كلبة ، يمكن أن يرأف الناس بكلبة! أطفالي! أطفالي! إنهم نائمون! آه ياجورجيت! إني أرى البطن الصغير لهذه الحبيبة! إنه رينيه جان! إنه غروزالان ، فهكذا يدعون ، أنتم ترون فعلاً أنني أمّهم . إن ما يجري في هذا الوقت بغيض! لقد مشيت أياماً وليالي . حتى أنني قد تكلمت مع امرأة هذا الصباح . النجدة! النجدة! إلى الحريق! هل أصبح الناس وحوشاً إذن! إنه أمرٌ فظيع! لم يبلغ بكرهم خمسة أعوام ، ولم تبلغ الصغيرة عامين ، إني أرى

(١) بلاهة كئيبة تنفجر فجأة بسيلٍ من الكلمات غير المتماسكة أحياناً ، ولكن ببلاغةٍ غير منتظرة من جانب الشخصية؛ فتحت هذا الشكل ، إنما سبق لهيغو أن رغب في تصوير الألم الأمومي الذي تجسده المرأة المعتزلة في (نوتردام باريس ، الكتاب العاشر ، الفصل الأول: فردة الحذاء الصغيرة) ، ونفكر أيضاً بالتعبير عن الألم الأبوي ، ألم تيبوليه في « الملك يتلهى » (١٨٣٢) .

أرجلهم الصغيرة العارية. إنهم نائمون. أيتها العذراء القديسة الرحيمة! إن يدَ الرّب تعيدهم إلي، ويدُ الجحيم تستعيدهم مني. لنفكر بأنني قد مشيت كثيراً! إنهم أطفالي الذين أرضعتهم حليبي! أنا التي كنت أظن أنني منكودة لأنني لاأعثر عليهم! ارأفوا بي! أريد أطفالي، أحتاج إلى أطفالي! ومع ذلك فهم في تلك النار هناك في الحقيقة! انظروا إلى قدميّ المسكينتين، كم هما مضرّجتان بالدم تماماً. النجدة! ليس من الممكن أن يكون هناك رجال على الأرض، وأن يتركوا هؤلاء الصغار يموتون هكذا! النجدة، إلى القاتل! إنها أشياء لا نرى مثلها، أه! قطّاع الطرق! ماذا يكون هذا المنزل المرعب؟ لقد سرقوهم مني لكي يقتلوهم، يايسوع، إنه الشقاء! أريد أطفالي. أوه! إني لا أعلم ماذا أفعل! لا أريد أن يموتوا! النجدة! النجدة! النجدة! أوه! لو كان يتحتم عليهم أن يموتوا على هذا النحو، لقتلت الرّب!

وفي الوقت الذي سمعت فيه التوسّلات الرّهيبة للأم، كانت أصواتٌ ترتفع على الهضبة وفي المسيل:

– سلّم!

– ليس هناك سلّم

– ماء!

– ليس هناك ماء.

– هناك في الأعلى، في البرج، وفي الطابق الثاني، هناك باب!

– إنه حديدي

– اكسروه.

– لا نستطيع.

وكانت الأم تضاعف صرخاتها البائسة:

– إلى الحريق! النجدة! ولتسرعوا إذن! هيا، اقتلوني! أطفالي! أطفالي! أه! ياللنار الرّهيبة! فلتخرجوهم منها، أو فلتقتلوني!

وفي الفواصل الزمنية بين هذه الصّيحات، كانت تُسمع فرقعةُ الحريق الهادئة.

تحسس المركيز جيبه فلمس فيها مفتاح الباب الحديديّ، وإذْ انحنى تحت القبّة التي كان قد هرب منها، فقد دخل مجدداً إلى المعبر الذي خرج منه لتوّه.

* * *

II

من الباب الحجريّ إلى الباب الحديديّ

كان هناك جيشٌ مضطرب بكامله حول عملية إنقاذٍ متعذرة؛ فلم يكن بوسع أربعة آلاف رجل أن ينقذوا ثلاثة أطفال ، هذا ماكان الوضع عليه .

لم يكن هناك سلّمٌ في الحقيقة ، والسلّم المرسل من جافونيه لم يكن قد وصل؛ وكان اضطرامُ النار يتوسّع مثل فوهة بركانٍ تنفتح ، أما محاولة إخمادها بساقية المسيل التي جفت تقريباً فكانت تثير السخرية مثلما يلقي المرء بكأس من الماء في بركان .

كان سيموردان وغيشان ورادو قد نزلوا إلى المسيل ، وكانَ غوفان قد صعد ثانية إلى قاعة الطابق الثاني للاتورغ والذي كان فيه الحجر الدوار ، والذي هو المخرجُ السّري لباب المكتبة الحديدي ، فهناك كان الفتيل المكبرت الذي أشعله ليمانوس ، ومن هناك إنما انطلق الحريق .

كان غوفان قد جلب معه عشرين نقّاباً ، لم تعد هناك وسيلةٌ أخرى سوى خلع الباب الحديدي ، فقد كان مغلقاً فعلاً بصورة شديدة التعقيد .

بدؤوا بضربات البلطات ، فتكسّرت البلطات ، وقال أحد النقّابين :

– إن الفولاذ الذي يضرب هذا الحديد يبدو مصنوعاً من الزجاج .

كان الباب في حقيقة الأمر من الحديد المطرَّق، وقد جربوا ثقلاتٍ تحت الباب، فتحطّمت القضبان الحديدية فقال النقّاب:

- كأعواد الثقاب.

وهمس غوفان مغتمّاً:

- ما من شيء يمكن أن يفتح هذا الباب إلا قنبلة، ويتعين علينا أن نرفع إلى هنا مدفعاً.

وقال النقاب:

- وأيضاً.

هيمنت لحظة من الإرهاق، وكل تلك السواعد العاجزة قد توقفت، إن هؤلاء الرجال الخرس والمهزومين، والمذهولين، كانوا يتأملون الباب الذي لايتزعزع، وأخذ انعكاس ضوءٍ أحمر يمرّ من تحت ومن الخلف. وكان الحريق يزداد.

كانت جثة ليمانوس المنفّرة، مشؤومةً وظافرة.

بعد بضع دقائق ربما، ينهار كل شيء.

ما العمل؟ لم يعد هناك أمل.

وصاح غوفان المغتاظ، وعينه تحدّق بحجر الجدار الدوار، وعلى مخرج الهروب المفتوح:

- ومع ذلك، فمن هنا إنّما ذهب المركيز دولانتوناك!

فقال صوت:

- ويرجع.

ارتسم رأسٌ أبيض، داخل إطار المخرج السّريّ الحجريّ!

كان ذلك هو المركيز.

لم يكن غوفان قد رآه[101] عن كثب منذ سنوات عديدة، فارتد إلى الوراء. بقي كلُّ أولئك الذين كانوا هناك في الوضع الذي كانوا فيه مجمّدين من الذهول.

كان المركيز يحمل مفتاحاً ضخماً في يده، فدفع بنظرةٍ متكبرة عدداً من النقّابين الذين كانوا أمامه، وسار مباشرةً إلى الباب الحديدي، وانحنى تحت القبّة ووضع المفتاح في القفل، فصرّ القفلُ، وانفتح الباب، وشوهدت لجّة من اللّهب، فدخلَ المركيز فيها.

دخل فيها بقدم ثابتةٍ، ورأس مرفوع.

كان الجميع يتبعونه بعيونهم، وهم يرتعشون.

ما إن خطا المركيز بضع خطوات في القاعة المحترقة، حتى انهارت وراءه الأرض الخشبية التي تآكلتها النار، وزعزعها عقب حذائه، وأحدثت هوّة بينه وبين الباب، لم يُدْر المركيز رأسه، وواصل التقدم، وتوارى في الدخان.

ولم يعد المرء يرى شيئاً.

هل كان باستطاعته أن يمضي إلى أبعد من ذلك؟ وهل انفتح تحته منقعٌ جديد من النار؟ ألم يكن ما أفلح فيه هو أن يهلك نفسه؟ لم يكن ممكناً أن يُقال شيء؛ فلم يكن أمام أحد إلا سورٌ من الدخان واللّهب. لقد كان المركيز فيما وراء ذلك ميتاً أو حيّاً.

* * *

III

حيث نرى استيقاظ الأطفال

الذين رأيناهم يعودون إلى النوم

مع ذلك فقد انتهى الأمر بالأطفال إلى فتح عيونهم.

والحريق الذي لم يكن قد دخل إلى قاعة المكتبة بعد، كان يلقي إلى السقف انعكاساً ورديّاً. لم يكن الأطفال يعرفون هذا النوع من الفجر؛ فنظروا إليه، وتأملته جورجيت.

كانت كلُّ بهاءاتِ الحريق تنبسط؛ فقد كان الأفعوان الأسود، والتنين القرمزيّ يظهران في الدخان الذي لا نظام في، والقاتم والعقيقي[1] بصورة رائعة. وكانت تتطاير إلى البعيد شراراتٌ طويلة، وتحزُّ العتمة، فتتراءى للمرء مثل مذنبات متقاتلة، يعدو بعضها خلف البعض الآخر. إن النار تغدو إسرافاً؛ ونيرانَ الجمر ملأى بعلبِ الجواهر التي تنثرها في الرّيح. وتماثل الفحم والماس ليس

(١) يمكننا أن نقوم بمقارنة مع الوصف الشعري الرائع لحريق قصر الشياطين في «Crimen Amoris» لفيرلين (قديماً ومنذ قليل):

سقط المشعل من يده المحوّمة،
فأعول الحريق حينئذٍ وهو يرتفع
شجارٌ هائل بين نسورٍ حمر وغارقٌ
في الدّوامات السوداء، دوامات الدخان والريح.

تماثلاً مجانيّاً. وقد حدثت في جدار الطابق الثالث فجواتٌ كان الجمر يسكب منها في المسيل شلالاتٍ من الأحجار الكريمة، وبدأت أكوام القشّ والشوفان التي تحترق في مخزن الغلال تسيل من النوافذ على شكل ركامٍ جرفيّ من التبر، فتغدو حبّاتُ الشوفان حبّاتِ جَمَشْت، وأعواد القشّ تصبحُ عَقيقاً أحمر.

فقالت جورجيت:

- حلو!

وكان الأطفال الثلاثة جميعاً قد انتصبوا.

وصرخت الأمّ:

- آه! إنهم يستيقظون.

نهض رينيه جان، وحينئذٍ نهض غروزالان، ونهضت جورجيت بعده.

تمطّى رينيه جان بذراعيه، ومضى إلى الشبّاك وقال:

- أشعر بالحرّ.

فردّدت جورجيت:

- أنا بالحرّ.

ونادتهم الأمّ:

- أطفالي! رينيه! ألان! جورجيت!

كان الأطفال ينظرون حولهم. وكانوا يحاولون أن يفهموا. وحيث يكون الرّجال مرتعبين، يكون الأطفال فضوليين. ومن يدهشُ بسهولة يرتعُب بصعوبة. إن الجّهل يتضمّن شيئاً من الإقدام، وقلّما يتحاشى الأطفال الجحَيم بحيث يبدون به إعجابهم إذا ما رأوه.

ورددت الأمّ:

- رينيه ! ألان! جورجيت!

أدار رينيه جان رأسه، فانتزعه ذلك الصّوت من شروده. فذاكرةُ الأطفال قصيرة المدى، غير أن التذكّر لديهم سريع ؛ فالماضي برقّته هو الأمس بالنسبة إليهم. لقد رأى رينيه جان أمّه، ووجد ذلك بسيطاً، وإذْ كان محاطاً بأشياء غريبة، فقد شعر بحاجةٍ مبهمةٍ للعون، وصرخ:

- ماما!

وقال غروزالان:

- ماما!

وقالت جورجيت:

- مما!

ومدّت ذراعيها الصغّيرتين.

فصاحت الأمّ معولةً:

- أطفالي!

أتوا جميعاً إلى حافّة النافذة، ولم يكن الاضطرام، لحسن الحظّ، من تلك النّاحية.

وقال رينيه جان:

- أحسّ بحرٍّ شديد.

وأضاف:

- هذا يحترق.

وأخذ يبحث عن أمّه بعينيه، وقال:

- تعالي إذن يا أمي!

وردّدت جورجيت:

- إذْ، أمّي.

أما الأمّ المشعّثة الشّعر، والممزّقة الملابس، والنّازفة، فقد تركت نفسها تتدحرج من شجيرة دغليّة إلى شجيرة دغليّة في المسيل. وكان سيموردان وغيشان فيه، وهما عاجزان في الأسفل، مثلما هو غوفان في الأعلى. أمّا الجنود اليائسون، لأنهم عديمو الفائدة، فقد كانوا يتجمهرون حولهما. كانت الحرارة لا تحتمل، ولم يكن أحد يحسّ بذلك. وكانوا يتفكّرون مليّاً بانحدار الجسر، وارتفاع عقوده، وعلوّ الطّوابق، والنوافذ التي يتعذّر بلوغها، وبضرورة التّصرف بشكلٍ سريع. كانت هناك ثلاثةُ طوابق يجب عبورها. وما من وسيلة للوصول إليها. أمّا رادو الذي كان جريحاً، ومصاباً بضربة سيفٍ في كتفه، وقد اقتلعت أذنه، وكان يتصبب عرقاً، ويقطر دماً، فقد هرع، ورأى ميشيل فليشار، وقال: عجباً، إنها التي أُطلقت عليها النّار! لقد بُعثَت إذن؟ فقالت الأمّ:

- أطفالي! فأجاب رادو هذا صحيحَ. ليس لدينا وقت لننشغل بالأشباح.

وبدأ يرتقي الجسر، وتلك محاولةٌ لا فائدة منها، فغرز أظافره في الحجر، وتسلّق لبضع لحظات، بيد أن المداميك كانت ملساء، ولم يكن فيها كسر، ولا نتوء نافر، كان السّور مسدوداً بالطّين سدّاً محكماً مثل سورٍ جديد، فسقط رادو ثانيةً. وكان الحريق متواصلاً، ومرعباً. وكان المرء يلمح في إطار الشبّاك المحمّر تماماً، الرؤوس الثلاثة الشقراء. حينذاك، أشار إلى السّماء بقبضته، وكأنه يبحث عن أحدٍ بنظرته وقال:

- أهذا تصرّف يجري القيام به، أيّها الإله الرّحيم!

وكانت الأمّ تحتضن بركبتيها ركائز الجسر وهي تصيح:

- الرّحمة!

كانت طقطقاتٌ مكتومة تختلط بفرقعات الجمر، وكان زجاجُ خزائنِ المكتبة يتشقّق ويسقط بصخب. وكان من الجليّ أن هيكلها قد أخذ يخرّ، ولم تكن أيّة قوّة بشرية قادرةً على فعل شيء حيال ذلك. وكان كلّ شيء سينهار بعد لحظة. فلا يسمع المرء إلاّ الكارثة. ولم تكن تُسْمع الأصوات الصّغيرة تردّد: ماما!... ماما!

لقد وصلوا إلى منتهى الذّعر.

فجأة، ظهرت، من النّافذة المجاورة للنّافذة التي كان فيها الأطفال، وعلى الخلفيّة الأرجوانيّة للتّوهّج، سحنةٌ طويلة.

ارتفعت الرؤوس كلّها، وغدت كلُّ العيون محدّقةً. كان هناك رجلٌ في الأعلى. رجلٌ في قاعة المكتبة، رجلٌ في الأتون. وكانت تلك السّحنة تبرز سوداء اللّون في اللّهب، ولكن شعرها كان أبيض. وقد تعرّفوا فيها المركيز دولانتوناك.

توارى، ثمّ ظهر ثانية.

انتصب العجوزُ المرعب في النّافذة، وهو يحرّك سلّماً ضخماً بين يديه. وكان ذلك هو سلّم الإنقاذ الموضوع في المكتبة والذي كان قد مضى ليأتي به بمحاذاة الجدار، والذي كان قد سحبه حتى النّافذة. لقد أمسك به من أحد طرفيه، وبخفّة متقنة لرياضيّ جعله ينزلق خارج الشبّاك، على حافّة نقطة الاستناد الخارجيّة، وصولاً إلى سافلة المسيل. أمّا رادو الذي كان في الأسفل، فقد مدّ يديه في غمرة اضطرابه، وتلقّى السلّم، وضمّه بين ذراعيه وصاح: عاشت الجمهوريّة!

ردّ المركيز: عاش الملك!

ودمدم رادو: بوسعك حقّاً أن تصرّح بكلّ ما تريد، وأن تقول حماقات، إذا شئت، فأنت الإله الرّحيم.

كان السلّم قد رُكّز ، وكان التواصلُ قد أُقيم بين القاعة المحترقة والأرض ، فهرع عشرون رجلاً ، وعلى رأسهم رادو ، وفي لمح البصر ، تنضّدوا من الأعلى إلى الأسفل ، مسندين ظهورهم إلى درجات السلّم ، مثل البنّائين الذين يرفعون ويُنزلون الأحجار . وقد أحدث هذا سلّماً بشريّاً على السلّم الخشبيّ .

أمّا رادو فقد كان يصل إلى النّافذة ، في قمّة السلّم ، وكان يستدير نحو الحريق .

كان الجيش الصّغير ، المنتشر بين شجيرات الخلنج ، وعلى المنعطفات ، يحتشد على الهضبة ، وفي المسيل ، وعلى مصطبة سطح البرج ، وقد تجاذبته الانفعالات في آن .

توارى المركيز ثانيةً ، ثم عاد إلى الظهور حاملاً طفلاً .

ودوّى تصفيقٌ هائل .

كان ذلك هو الطّفل الأوّل الذي أمسك به المركيز بلا تحديد . كان هو غروزالان .

وكان غروزالان يصرخ:

– أنا خائف .

أعطى المركيز غروزالان إلى رادو الذي مرّره إلى خلفه ، وتحته إلى جنديّ مرّره لآخر . وفي حين كان غروزالان ، المرتعب إلى حدٍّ كبير والصّارخ ، يصل على هذا النّحو من ساعد إلى ساعد ، وصولاً إلى أسفل السلّم ، رجع المركيز الذي غاب للحظة من الزّمن ، إلى النّافذة حاملاً رينيه – جان الذي كان يقاوم ويبكي ، والذي ضرب رادو حين مرّره المركيز إلى الرّقيب .

دخل المركيز ثانية إلى القاعة الملأى باللهب . وكانت جورجيت قد بقيت وحدها فمضى إليها . فابتسمت . وأحسّ ذلك الرّجلُ الصّواني بشيء رطب[١٠٢] يأتي إلى عينيه ، وسأل: ما اسمك ؟

فقالت:

– أورجيت.

فأخذها بين ذراعيه، وكانت تبتسم باستمرار. وفي اللحظة التي كان يسلّمها فيها لرادو، أحسّ ذلك الوجدانُ الشديدُ التّعالي، والشديدُ القتامة بانبهار البراءة، فأعطى العجوزُ الطفلةَ قبلةً.

وقال الجنود:

– إنها الطفلة الصّغيرة!

ونزلت جورجيت، بدورها، من ساعدٍ إلى ساعد، وصولاً إلى الأرض، بين صيحات الافتتان. كانوا يصفّقون، ويخبّطون الأرض بأقدامهم وكان رماةُ القنابل ينتحبون، وكانت تبتسم لهم.

كانت الأمّ في أسفل السلّم، لاهثة، وفاقدة للرّشاد، ومنتشية بكلّ هذا الأمر غير المتوقّع، وقد أُلقي بها من الجحيم إلى الجنّة، من غير مرحلة انتقاليّة. إن الفرح المفرط يمزّق القلب على طريقته. لقد كانت تمدّ ذراعيها، فتلقّت غروزالان أوّلاً، ثمّ رينيه جان، ثمّ جورجيت، وغمرتهم بلا نظام بالقبلات، ثمّ انفجرت ضاحكةً، ووقعت مغشيّاً عليها.

ارتفعت صيحة كبرى تقول:

– لقد نجوا جميعاً!

لقد نجوا جميعاً. في الواقع، باستثناء العجوز.

لم يكن أحد يفكّر به، ولا هو نفسه ربّما.

مكث حالماً لبضع لحظات على حافّة النّافذة، وكأنه يريد أن يترك للجّة اللهب الوقتَ لتتّخذ قرارها. ثمّ خطا فوق مسند الشّباك، من دون تعجّل،

وببطء، وأنفة، ومن غير أن يستدير، وهو واقف باستقامة، ووراءه الحريق وبمواجهة الهوّة، أخذ ينزل السلّم صامتاً بمهابة شبح. أمّا أولئك الذين كانوا على السلّم، فقد هرعوا إلى الأسفل، وارتعد الحاضرون جميعاً. وحدث حول ذلك الرّجل الذي كان ينزل من الأعلى تقهقرُ رعبٍ مقدّس، كما يحدث حول رؤيا.

أمّا هو، فقد كان مع ذلك يتوارى برزانة في الظّلمة التي كانت أمامه؛ وفي حين كانوا يتقهقرون، كان يقترب منهم. وكان شحوبه الرّخامي ليس فيه أيّة تجعيدة، ولم يكن في نظرته الشّبحيّة أيّ لمعان. وفي كلّ خطوة كان يقوم بها باتّجاه هؤلاء الرّجال الذين كانت حدقاتُهم المذعورة تحدّق به في العتمة، كان يبدو أطول قامة، وكان السلّم يرتجف، ويدقّ تحت قدمه الحداديّة حتى ليخيّل إلى المرء أنه تمثال الآمر[1] الذي ينزل مجدّداً إلى القبر.

حين أصبح المركيز في الأسفل، وحين بلغ الدّرجة الأخيرة للسلّم، ووضع قدمه على الأرض. انقضّت يدٌ على ياقته، فاستدار، وقال سيموردان:

– إنّي أعتقلك.

فقال لانتوناك:

– إنّي أوافقك.

* * *

(١) الآمر هو الشخصيّة التي ترجع من الموت في «أسطورة دون جوان» لتقتصّ منه على جرائمه. (م:ز.ع).

الكتاب السادس

بعد النصر إنما تدور المعركة[103]

I

القبض على لانتوناك

لقد نزل المركيز من جديد إلى القبر في الواقع .

واقتادوه .

أُعيد على الفور فتحُ القبو الزنزانة في الطابق الأرضي للاتورغ تحت نظرة سيموردان الصّارمة؛ لقد وضع فيه مصباحٌ وجرة ماء ، ورغيف خبز من خبز الجنود ، وأُلقيت فيه حزمة قشّ . وبعد أقل من ربع ساعة ، اعتباراً من الدقيقة التي قبضت فيها يد الكاهن على المركيز ، عاد باب الزنزانة لينغلق على لانتوناك ، ما إن تم ذلك حتى مضى سيموردان للقاء غوفان وفي تلك اللحظة ، كانت كنيسة بارينيه البعيدة تقرع بجرسها الحادية عشرة مساءً ، فقال سيموردان لغوفان:

– سوف أُدعو المحكمة العسكرية للانعقاد ، ولن تكون من أعضائها ، فأنت من عائلة غوفان ولانتوناك من عائلة غوفان ، وصلة القرابة التي تربطك به كبيرة بحيثٍ لا يمكنك أن تحاكمه ، وإني أَلوم إيغاليتيه لأنه قد حاكم كابيه . لسوف تشكّل المحكمةُ العسكرية من ثلاثة قضاة: من ضابط هو النقيب غيشان ،

وضابطِ صف هو الرقيب رادو ، ومني أنا الذي سوف أرأسها ، ولم يعد شيء من كلٍ هذا يعنيك ، ولسوف نتقيد بمرسوم المجلس الوطني ، ونكتفي بالتأكد من هوية المركيز لانتوناك ، وغداً تنعقّد المحكمة العسكرية ، وبعد غد المقصلة ، لقد ماتت الفانديه .

لم يرد غوفان بأيّة كلمة ، أما سيموردان الذي كان منشغلاً بالمهمّة العليا التي بقي عليه أن يقوم بها ، فقد تركه ، كان على سيموردان أن يحدد مواعيد وأن يختار أماكن ، وكانت لديه ، شأن ليكينيو ، في غرانفيل ، وشأن تاليان في بوردو ، وشأن شالييه في ليون ، وشأن سان جوست في ستراسبور ، كانت لديه عادة ، عُرفت بأنها مثال يحتذى ، وهي أن يحضر شخصياً عمليات الإعدام؛ فالقاضي الذي يأتي ليشاهد الجلاد وهو يعمل هو عرفٌ اقتبسه عهدُ الإرهاب في عام ٩٣ عن المحاكم الفرنسية العليا ، وعن محاكم التفتيش في إسبانيا[١] .

وكان غوفان منشغل الذهن أيضاً .

كانت ريحٌ باردة تهب من الغابة ، وإذ ترك غوفان غيشان يصدر أوامره الضرورية ، فقد مضى إلى خيمته التي كانت في مرج تخوم الغابة في أسفل لاتورغ ، وأخذ منها معطفه الذي له غطاءٌ للرأس وتلفعّ به . كان ذلك المعطف ذا كنارٍ مقصّب بذلك الشريط البسيط الذي كان ، حسب الدرجة الجمهورية المعتدلةَ بزيناتها ، يدلُ على القائد الأعلى . أخذ يمشي في ذلك المرج الدامي ، والذي كان الهجوم قد بدأ فيه ، كان هناك وحيداً ، وكان الحريق يتواصل ، وأضحى منذ ذلك الحين مُزدِرىً ؛ كان رادو بقرب الأطفال والأمّ ، مبدياً حناناً أمومياً مثلها تقريباً؛ وكان قصير الجسر ينهي احتراقه ، وكان النقابون يتركون شيئاً للنار ، فيقومون بحفر الحفر ، ويدفنون الموتى ، ويضمدون الجرحى ، وكانوا قد هدموا قاعة التحصّن ، ويزيلون من الغرف والأدراج الجثث التي تزحمها ، وينظّفون مكان المذبحة ، ويكنسون كدسة قاذورات النصر المخيفة ،

(١) – لا تفوت هيغو أية فرصة للإيحاء بأن عهد الإرهاب هو من إرث الماضي وهو «ناتج» عن قرون النظام الملكي .

كان الجنود يقومون بما يمكن تسميته بتنظيف المعركة المنتهية، وذلك بسرعة عسكرية، ولم يكن غوفان يرى شيئاً من كل ذلك.

من خلال أحلام يقظته، قلّما كان يُلقي نظرةً إلى موقع الثغرة العسكري الذي جرت مضاعفةُ عديدة، بناءً على أمر سيموردان.

هذه الثغرة كان يميزها في الظلمة، على بعد مئتي خطوة تقريباً من زاوية المرج الذي كان كأنما التجأ إليه، كان يرى تلك الفتحة السوداء. فمن هناك إنما بدأ الهجوم، قبل ثلاث ساعات من ذلك الحين، ومن هناك إنما كان غوفان قد دلف إلى البرج، وكان هناك الطابق الأرضي الذي تقع فيه قاعة التحصن، وفي ذلك الطابق الأرضي، إنما انفتح بابُ الزنزانة التي كان فيها المركيز.

كان المركز العسكري، مركز الثغرة يحرس تلك الزنزانة.

وفي الوقت ذاته الذي كان فيه نظرهُ يلمح بشكلٍ غير واضح تلك الثغّرة، كانت أذنه تسمع على نحوٍ مشوش هذه الكلمات التي تتردد مثل قرعة حزن تدقّ:

غداً المحكمة العسكرية، وبعد غدٍ المقصلة.

أما الحريق الذي كان قد تم عزله، والذي كان النقابون يلقون عليه كلّ الماء الذي أمكنهم الحصول عليه، فلم يكن يخمد من غير مقاومة، وكان يطلق ألسنةً متقطعة من اللّهب؛ كانت تُسمع السقوف تقضقض على فترات، والطّوابق المتصدعة يهوي أحدها على الآخر، حينئذ كانت دواماتٌ من الشررِ تتطاير، وكأنها تتطاير من مشعلٍ جرى هزه، وكان نورٌ جليٌّ كالبرق يجعل الأفق القصيّ مرئياً، ويستطيل ظلٌّ لآتورغ الذي غدا بغتةً عملاقاً، حتى الغابة[1].

كان غوفان يروح ويجيء بخطىً بطيئة في ذلك الظلّ، وأمام ثغرة الهجوم، وعلى فترات، كان يصالب يديه خلف رأسه المغطىّ بواقية رأسه العسكرية، لقد كان يتفكر.

---

(١) «إن حطّاب هضاب بيسّيتر»، قد ذعر لرؤية ظل أبراج نوتردام يترجّح على شجيرات الخلنج التي يعمل فيها» (نوتردام باريس، الفصل: ١٠، المقطع: ٤)

II

غوفان يتفكّر

كانت أحلام يقظته لا يمكن سبرُها[1].

إن تغييراً ملحوظاً وخارقاً قد حدث للتوّ.

فالمركيز دولانتوناك قد تبدّلت هيئته.

وكان غوفان شاهداً على هذا التبدّل.

لم يكن بإمكانه أن يظنّ يوماً أن أموراً كهذه يمكن أن تنتج عن تعقّد في الحوادث، كما حدثت، لم يكن بإمكانه قطّ، حتى في الحلم، أن يتصوّر أن شيئاً مماثلاً يمكن أن يحدث.

إن غير المتوقع، ذلك الشيء المتعالي الذي يتلاعب بالإنسان، كان قد قبض على غوفان، وهو يمسك به.

---

(١) تشير إحدى ملاحظات البقايا (ذخيرة الرواية): «إلى أن فصيل الإعدام ينتظر (عاصفة أخرى تحت جمجمة)... » هناك في الحقيقة، بين تأمل غوفان والمناجاة الشهيرة الداخلية لجان فالجان (البؤساء القسم الأول، الكتاب السابع، الفصل الثالث) تماثل مثير بين نقطتين خصوصاً: بناء (الحركات الكبيرة والطويلة التي تحمل الشخصية في اتجاه ما حيناً، وفي اتجاه آخر حيناً آخر، على طريقة المناجيات التقليدية، ولكن باتساع كلامي وغني في الصور، رومنسي فعلاً) – ومن جهة أخرى، الطبيعة والنبرة وأسلوب تأملات المؤلف، الحاضر باستمرار إلى جانب شخصيته.

كان أمام غوفان المستحيل الذي يغدو واقعياً ومرئياً وملموساً، ولا يمكن تفاديه، ولا يرحم.

فما كان رأيه بذلك، هو، غوفان؟

لم يكن المطلوب هو المراوغة، كان ينبغي البتُّ في الأمر.

وكان هناك سؤالٌ مطروحٌ عليه، ولم يكن بإمكانه أن يهرب منه.

ومن الذي يطرحه؟

– الأحداث.

وليست الأحداث فحسب.

لأنه حين تطرح الأحداث علينا سؤالاً، وهي متبدّلة، فإن العدالة التي هي ثابتةٌ تخطرنا بالإجابة عليه.

ووراء الغيم الذي يلقي علينا ظلّه، هناك النجمة التي تلقي علينا ضياءها. وليس بوسعنا أن نتملّص من الضياء أكثر مما نتملّص من الظلّ.

كان غوفان يخضع لاستجواب.

كان يمثل أمام أحدهم.

أمام شخصٍ رهيب.

ضميره.

كان غوفان يحس بأن كلّ شيء يترجرج في داخله، فتصميماتُه الأكثر صلابة، ووعوده المقطوعة بأشد الحزم، وقراراته التي يتعذّر عليه الرجوع عنها أكثر من سواها، كل ذلك كان يتزعزع في أعماق إرادته.

ثمةَ اهتزازاتٌ في الروّح.

بقدر ما كان يفكّر أكثر بما رآه للتوّ ، بقدر ما كان يتشوش أكثر .

إن غوفان الجمهوري النـزعة ، كان يظن أنه قد وصل إلى المطلق ، أو كان فيه .

إن مطلقاً سامياً قد تكشّف للتوّ .

ففوق المطلق الثوري ، هناك المطلق البشري .

إن ماكان يجري لم يكن بالإمكان التملّص منه ، كان الحدثُ خطيراً؛ وكان غوفان يشكلُ جزءاً من هذا الحدث . لقد كان منه ، ولم يكن بوسعه الانسحاب منه . ومع أن سيموردان قد قال له: - «هذا لم يعد يعنيك» فقد شعر في نفسه بشيء ما ، هو مثل ما تحسّه الشجرة حين تقتلع من جذورها .

إن لكل إنسان قاعدة ، وتَزعُزع هذه القاعدة يسبّب اضطراباً عميقاً . وكان غوفان يحسّ بهذا الاضطراب .

كان يضغط على رأسه بين يديه[١٠٤] ، وكأنما ليجعل الحقيقة تنبثق منه ، إن تحديد موقف كذلك لم يكن سهلاً ، فما من شيء أكثر عسراً[١٠٥] . كانت أمامه أرقام رهيبة لا بدَّ من حساب مجموعها؛ فالقيام بالجمع الذي يعده القدر ، أي دوار يسببه! لقد كان يجربه وكان يحاول أن يفهم ، كان يجهد لتجميع أفكاره ، وتنظِيم ألوان المقاومة التي كان يحسّ بها في ذاته ، وأن يُجمِلَ الوقائع .

وكان يعرضها على نفسه .

فمن الذي لم يحدث له أن يقدم لنفسه بياناً ، وأن يتساءل في ظرف بالغ الخطورة ، حول المسار الذي يتعين عليه إتباعه ، سواء للتقدم أو للتراجع .

كان غوفان قد شهد لتوه أمراً خارقاً .

ففي الوقت نفسه الذي حدثت فيه معركة أرضية ، كانت هناك معركةٌ سماوية ، إنها معركة الخير ضد الشر .

إن قلباً مرعباً قد هُزم.

وبالنظر إلى هذا الإنسان بكلّ ما فيه من سوء، العنف، والخطأ، وعدم التبصّر، والعناد المضلّ، والتعاظم، والأنانية، فإن غوفان قد رأى لتوّه معجزة.

إنها انتصارُ الإنسانية على الإنسان.

فالإنسانية قد قهرت اللا إنساني.

وبأية وسيلة؟ بأية صورة؟ وكيف صرعت جباراً مليئاً بالغضب والحقد؟ وأية أسلحة قد اسُتخدمت؟ أية آلة حربية؟ إنها المهد.

إن انبهاراً قد مرّ منذ قليل على عين غوفان؛ ففي عزّ الحرب الاجتماعية، وفي قلب اشتعال كل ضروب البغضاء، وكلّ ألوان الانتقام، وفي اللحظة الأكثر قتامة، والأكثر هياجاً في المعمعة، وفي الساعة التي كانت الجريمة تصدر فيها كل لهيبها، والكراهية كلّ ظلماتها، وفي تلك اللحظة من الصراعات التي يغدو فيها كلّ شيء قذيفة، والتي يكون فيها المعتركُ مأتميًا إلى درجة لا يعود المرء يعرف أين الصالح، وأين النـزيه، وأين الحقيقي؛ أخذ المجهول فجأة، وهو مخدّر النفوس الغامض، أخذ يجعل النور الأبديّ العظيم يسطع، من فوق الضياءات، والحِلَكات البشرية.

وفوق النزال القاتم بين الزائف والنسبي، في الأعماق، فإن الحقيقة قد ظهرت فجأة.

إن قوة الضعفاء قد تدخلت بغتة.

كنّا قد رأينا ثلاثة كائنات ضعيفة، قد ولدت منذ قليل، وهي غير واعية، وجرى التخلي عنها، وهي يتيمةٌ ومتلعثمة، وباسمة، وضدها الحرب الأهلية، وشريعة المثل، ومنطق الاقتصاصات الفظيع، والقتل والمذبحة، وقتال الأخوة، والغيظ، والضغينة، وكافة المسوخ الثعبانية، قد رأيناها تحرز النصر. كنا قد

رأينا إخفاقَ وهزيمةَ حريقٍ شائن ، مهمته ارتكابُ جريمة ، كنا قد رأينا الترصُّدات الفظيعة التي خابت وأحبطت؛ وكنا قد رأينا الضراوة العتيقة الإقطاعية ، والازدراء القديم الذي لا يرحم ، والتجربة المزعومة لضرورات الحرب ، ومصلحة الدولة ، وكافة التحيّزات المتغطرسة ، تحيّزات الشيخوخة الرهيبة وهي تتلاشى أمام النظرة الزرقاء لأولئك الذين لم يعيشوا ، وهذا أمرٌ جدّ بسيط ، لأن ذلك الذي لم يعش بعد لم يصنع شراً؛ إنه العدالة. إنه الحقيقة ، إنه البياض ، وملائكة السماء الهائلة ماثلةٌ في الأطفال الصغار .

إنه مشهدٌ مفيد ، وهو نصيحة ودرس ، إن مقاتلي الحرب المهووسين ، والذين لا يرحمون كانوا قد رؤوا فجأة ، وبمواجهة كلّ الآثام ، وكل الاعتداءات وكل ضروب التعصب ، والاغتيال والثأر ، وهم يسعّرون المحارق ، وبمواجهة الموت ، الذي يصل حاملاً مشعلاً بيده ، وفوق جحفل الجرائم الهائل ، كانوا قد رؤوا ذلك الجبروت ينتصب ، إنه البراءة .

وكانت الغلبةُ للبراءة .

كان يمكن أن يقال: كلاّ إن الحربَ الأهلية غيرُ موجودة ، والهمجّية غير موجودة ، والكراهية غير موجودة ، والفريضة غير موجودة ، والظلمات غير موجودة ، ولتبديد هذه الأشباح يكفي هذا الفجر ، الذي هو الطفولة .

وفي أية معركة ، لم يكن الشيطان قطّ مرئياً أكثر ، ولا الله .

كانت حلبةُ هذه المعركة هي الضمير .

إنه ضمير لانتوناك .

وقد بدأت المعركة من جديد ، وعلى نحوٍ أكثر ضراوة ، وأكثر حسماً ربما ، في ضمير آخر . إنه ضمير غوفان .

فأيُّ ميدان قتالٍ هو الإنسان! .

لقد أُسلمنا إلى هذه الآلهة ، وإلى هذه المسوخ ، وإلى هذه العمالقة ، التي هي أفكارنا .

وغالباً ما يدوسُ هؤلاء المحاربون روحَنا بأقدامهم .

كان غوفان يتأمل .

كان المركيز دولانتوناك ، المطوّق والمحاصر والمُدان ، والذي غدا خارجاً على القانون ، والذي ضُيّق عليه كالحيوان في السيرك ، وكالمسمار داخل الكماشة ، والذي حُبس في ملجئه الذي أصبح سجناً ، والذي احتضنه من كل جانب سورٌ من الحديد والنار ، كان قد توصل إلى التواري . لقد أنجز معجزة الهرب هذه ، لقد نجح في تحقيقِ هذا العمل الرائع ، والأصعب من كافة الأعمال ، في حربٍ كتلك الحرب ، وهو الهروب ، وصار مجدداً الذاهب والآيب المخيف ، والمترحّل المشؤوم ، وقائد اللا منظورين ، وزعيم الرجال السردابيين ، وسيد الغابات . كان غوفان قد أحرز النصر ، أما لانتوناك فالحرية ، وأصبح لانتوناك حاصلاً على الأمان منذ ذلك الحين ، وبوسعه أن يجري جرياً غير محدود إلى الأمام ، ولديه الخيار لأماكن لجوء لا ينفد . كان يتعذّر القبضُ عليه ، ويتعذّر العثورُ عليه(١٠٦) ويصعب الوصول إليه ، لقد وقع الأسد في الفخّ ، وقد خرج منه .

ويا للعجب لقد رجع إليه .

كان المركيز قد غادر الغابة بإرادته ، وبصورة عفوية ، وبإثرة كاملة منه ، وغادر الفيء والأمان والحرية ، لكيٍ يدخل إلى أكبر الأخطار هولاً ، وغير هياب ، وكان غوفان قد رآه للمرة الأولى ، وهو يهرع إلى الحريق تحت خطر الوقوع فيه ، وللمرة الثانية وهو ينزل السلم الذي يسلمه إلى أعدائه ، والذي كان سلّماً للإنقاذ بالنسبة للآخرين ، وكان سلم هلاكٍ بالنسبة إليه .

ولماذا فعل ذلك؟

لإنقاذ ثلاثة أطفال.

والآن، ماذا سيفعلون[١٠٧] لهذا الرجل؟

إعدامه بالمقصلة.

وهكذا فإن هذا الرجل، ومن أجل ثلاثة أطفال أطفاله؟ لا. من أسرته؟ لا. من طبقته؟ لا. من أجل ثلاثة أطفالٍ فقراء، هم أول من وصل، أطفال لقطاء ومغمورين، ورثيتي الثياب، وحفاة، هذا النبيل، هذا الأمير، هذا العجوز الذي أنقذ وحرّر، والمنتصر، لأن الهروب يُعدّ ظفراً، كان قد خاطر بكل شيء، وجازف بكل شيء، وطرح للبحث كلّ شيء، وبصورة متعالية، وفي الوقت عينه الذي كان يعيد فيه الأطفال، أتى برأسه، وهذا الرأس الذي كان مخيفاً حتى ذلك الوقت، وأصبح الآن جليلاً، قد قدّمه.

وماذا سيفعلون؟.

سيقبلونه.

كان لدى المركيز دولانتوناك الخيار بين حياة الآخرين وحياته، وفي هذا الاختيار الشامخ، إنما اختار موته.

وكانوا بصدد أن يمنحوه إياه.

كانوا سيقتلونه.

فأيّ ثمنٍ للبطولة!.

إنه الرّد على عملٍ نبيل بعمل وحشيّ!.

إنه إعطاء الثورة هذه الأرضية!.

فأيّ تصغيرٍ هذا للجمهورية!.

وفي حين كان يدخل رجلُ الأحكامِ المسبقة والعبوديات، والذي تحول فجأة، كان يدخل إلى الإنسانية، فإنهم هم، رجال التحرير والانعتاق قد يبقون في الحرب الأهلية، وفي نهج الدّم، وفي صراع الأخوة.

والشرّعةُ السامية الإلهية، شرعةُ الغفران وإنكار الذّات، والفداء والتضحية، تكون موجودة لدى مقاتلي الضلال، ولا تكون موجودة لدى جنود الحقيقة!

ماذا! عدمُ النضال بشهامة! والخضوع لهذه الهزيمة، ومع أنهم الأقوى، يغدون الأضعف، ومع أنهم المنتصرون، يصبحون القتلة، وأن يسمحوا بأن يقال إن هناك من ينقذ الأطفال من جهة الملكيين، وإن هناك من يقتل الشيوخ من جهة الجمهورية!

يرى المرء هذا الجندي الكبير، هذا الثمانينيّ القوي، وهذا المقاتل المجرد من سلاحه، والذي هو على الأصحّ مخطوف، ولم يجرِ الإمساك به، وقد قُبض عليه وهو في غمرة عملٍ جيد، وأوثق بموافقته، ولا يزال يحمل فوق جبينه عرق إخلاصٍ عظيم، ويصعد درجات منصة الإعدام، كما يصعد المرءُ درجاتِ التمجيد!، ويوضع تحت شفرة المقصلة ذلك الرأسُ الذي ترفرف حوله مبتهلة الأرواحُ الثلاثة، أرواح الملائكة الصغار التي أُنقذها!، وأمام هذا العقاب الشائن بالنسبة للجلادين، يرى المرء الابتسامة على وجه ذلك الرجل، وحمرة الخجل على وجه الجمهورية! ويتمّ ذلك بحضورِ غوفان الزّعيم!

وإذ يكون بوسعه أن يحول دون ذلك، فهو يستنكف! ويكتفي بهذا الإعفاء المتعالي: لم يعد هذا يعنيك! ولن يقول لنفسه، في مثل هذه الحالة، إن التخلي معناه التواطؤ!، ولن يلاحظ، في عملٍ على هذه الدرجة من الجسامة، بين من يفعل، ومن يدع الآخرين يفعلون، من يدعهم يفعلون هو الأسوأ، لأنه جبان!.

ولكن هذا الموت، ألم يَعدْ به؟ هو غوفان، الإنسان الرحيم، ألم يكن قد أعلن أن لانتوناك يستثنى من الرحمة، وأنه سيسلّم لانتوناك إلى سيموردان؟. وهذا الرأس، إنه مدين به، وهكذا سوف يسدده، هذا كلّ ما في الأمر.

ولكن هل كان ذلك هو الرأس نفسه؟.

حتى ذلك الحين، لم يكن غوفان قد رأى في شخص لانتوناك إلا المقاتل الهمجّي، والمتعصب للملكية والإقطاعية، وجزّار الأسرى، وقاتلَ الحرب الجامح، والرّجل الدموي، وهذا الرجل لم يكن يخشاه، هذا المبعد، سوف يبعده، وهذا الشخص الذي لا يرحم، سوف يجده بلا رحمة. لا شيء أبسط من ذلك، إن الطريق كانت مرسومة، ويسهلُ اتّباعُها بصورةٍ مفجعة، وتمّ تقرير كل شيء مسبقاً، ولسوف يقتل من يقتل، فقد كان الجميع على خط الرعب المستقيم، وأخذ انعطافٌ غير متوقّع[١٠٨] يكشف أفقاً جديداً، فلقد حدث تحول. إن لانتوناك غيرَ منتظرٍ قد دخل إلى المسرح. وأخذ بطلٌ يخرج من الوحش، بل أكثرُ من بطل، إنسان، وأكثر من روح، قلب. لم يعد قاتلاً ذلك الذي كان أمام غوفان، بل منقذاً. كان غوفان مصعوقاً بموجةٍ من الضيّاء السّماوي، وكان لانتوناك قد ضربه للتوّ بصاعقة من الطيبة.

ألا يغير وجه لانتوناك المتغير وجه غوفان؟ ماذا! وتكون اشراقة الضّياء هذه بلا ردة فعل!، فيمضي رجلُ الماضي إلى الأمام، ورجل المستقبل إلى الوراء! ورجل الهمجيات والاعتقادات الباطلة يفتح أجنحةً مفاجئة، ويحلّق، وينظر تحته إلى رجل المثل الأعلى، وهو يزحف، في الوحل وفي الظلمة! ويبقى غوفان منبطحاً في الأخدود القديم الضاري، في حين يمضي لانتوناك إلى السمّو باحثاً عن المغامرات.

وثمة شيءٌ آخر أيضاً.

والعائلة!.

هذا الدّم الذي سيهرقه – لأن تركه يهرق[١٠٩]، معناه إهراقه بنفسه – ؛ ألم يكن دمه، هو غوفان؟ لقد مات جدّه، غير أن أخا جدّه كان حياً؛ وأخو الجد هذا، هو المركيز دولانتوناك. ألن ينتصب ذلك الذي كان من بين الشقيقين في القبر، ليمنع الآخر من الدخول إليه؟ ألن يأمر حفيده بأن يحترم منذ ذلك الحين هذا الإكليل من الشعر الأبيض، الذي هو شقيق هالته الخاصة به؟ ألن يكون هناك بين غوفان ولانتوناك نظرةٌ ساخطة هي نظرة شبح.

وهل تهدف الثورة إذن إلى إفساد طبيعة الإنسان؟ وهل أعّدت الثورةُ لتحطيم العائلة، ولخنق الإنسانية؟ بعكس ذلك؛ فللتأكيد على هذه الحقائق العليا، وليس لإنكارها، إنما انبثقت ثورةُ عام ٨٩. إن الإطاحة بسجون الظلم (الباستيلات) هو تخليصٌ للبشرية، وإلغاءُ الإقطاعية هو تأسيسُ العائلة؛ فبما أن الصانع هو نقطة انطلاق السُلّطة[١]، والسُلّطة متضَمّنة لدى صانعها، فما من سُلّطة أخرى غير الأبوّة. ومن هنا تأتي شرعيةُ ملكة النحل التي تصنع شعبها، والتي هي ملكةٌ باعتبارها أماً، ومن هنا، مخالفة الملك – الرجل للعقل الذي لا يمكن أن يكون السّيد، لأنه ليس الأب، ومن هنا يأتي إلغاء الملك، ومن هنا تأتي الجمهورية وما هو كل ذلك؟ إنه العائلة، إنه الإنسانية، إنه الثورة؛ فالثورة هي تولّي الشعوب للسُلّطة[١١٠] وفي الأساس، الشعبُ هو الإنسان.

وفي حين كان لانتوناك يرجع إلى الإنسانية، كان المطلوب هو أن نعرف[١١١] إن كان غوفان، من ناحيته سيدخل إلى العائلة.

كان المطلوبُ هو أن نعرف إن كان العمُّ وابن الأخ سيلتقيان في النّور العالي أو إن كان سيردّ على تقدُّم العمّ تراجعٌ لابن الأخ.

كانت المسألة في ذلك النزاعِ المؤثر بين غوفان وضميره، تصل إلى أن تطرح على هذا النحوّ، وكان الحلّ يبدو صادراً عنها بالذات؛ إنقاذ لانتوناك.

---

(١) يستخدم هيغو كلمتي «Auteur» «صانع» و «Autorité» «سلطة» ليبرهن على اشتقاق السلطة من صانعها (م:ز.ع)

أجل، وماذا عن فرنسا؟.

هنا، أخذت المشكلة تبدّل وجهها بشكلٍ مفاجئ.

ماذا! كانت فرنسا في ضيق شديد! كانت فرنسا قد أُسلمت، وغدت مفتوحة، ودُكّت حصونها! لم يعد لديها خندق، كانت ألمانيا تجتاز الرّين! ولم يعد لديها سور، فكانت إيطاليا تعبر من فوق جبال الألب، وإسبانيا من فوق البيرينيه، وقد تبقت لديها اللجّة العظيمة، المحيط، كانت الهاوية إلى جانبها، وكان باستطاعتها أن تستند إليها، وأن تحارب الأرض كلها، بأن تتكئ بجبروتها على البحر بكامله، ويكون موقعها منيعاً، على أيّة حال. ولكن، لا. فكانت ستفتقر إلى هذا الموقع؛ فلم يعد هذا المحيط لها، وفي هذا المحيط، كانت هناك انكلترا. والصحيح أن انكلترا لم تكن تعرف كيف ستمرّ. والمستغرب أن رجلاً كان سيلقي لها بالجسر، رجلاً سيمدّ لها يده، رجلاً سيقول لبتْ وكريغ وكورنفاليس ودوندا، وللقراصنة: تعالوا! رجلاً سوف يصيح قائلاً: يا انكلترا استولي على فرنسا، وهذا الرّجل كان المركيز دولانتوناك.

هذا الرّجل كان مقبوضاً عليه. وبعد ثلاثة أشهر من المطاردة، والملاحقة، والضّراوة تمّ الإمساك به أخيراً. وانقضّت يد الثورة منذ قليل على اللعين. إن قبضة عام ٩٣، المطبقة قد أخذ بتلابيب القاتل الملكيّ. وبواسطة أحد المفاعيل، مفاعيل القصد الخفيّ الذي يتدخّل من الأعلى بالأمور البشرية، إنما كان هذا القاتل لوالديه ينتظر قصاصه، في زنزانته العائلية ذاتها. لقد كان الرّجلُ الإقطاعيّ في زنزانة النسيان الإقطاعية. كانت حجارةُ قصره تنتصبُ ضدّه، وتنغلق عليه، وذلك الذي كان يريد أن يسلّم بلاده، قد سلّمه منزله.

إن الرّب كان قد بنى كلّ ذلك بصورة جليّة. وكانت ساعةُ العدالة قد دقّت، وأسرت الثورةُ هذا العدوَّ العام. لم يعدْ بإمكانه أن يقاتل، ولم يعدْ بإمكانه أن يناضل، ولم يعدْ بإمكانه أن يضرّ؛ ففي تلك الفانديّه التي كان فيها الكثير من السّواعد، كان هو الدّفاع الوحيد، فإذا ما انتهى، انتهت الحرب

الأهليّة، وقد تمّ القبض عليه كخاتمة مأساويّة وسعيدة، بعد الكثير من المذابح والمجازر. لقد كان هناك، الرّجل الّذي كانَ يقتل، وأتى دوره ليموت.

ولعله سيكون هناك أحد لإنقاذه.

كان سيموردان، أي عهد ٩٣، يمسك بلانتوناك، أي بالملكية، وقد يكون هناك أحدُ لينتزع تلك الطريدة من ذلك البرثن البرونزي! كان لانتوناك، الرّجل الذي تتركّز فيه تلك الحزمة من الويلات التي تسمّى الماضي، المركيز دو لانتوناك كان في القبر، والباب الثقيل الأبدي كان قد انغلق عليه، وقد يأتي أحدهم، من الخارج، لكي يسحب المزلاج! لقد مات هذا الجاني الاجتماعي، ومات معه التمرّد، وصراع الأخوة القاتل، والحرب البهيميّة، وقد يعيده أحدهم إلى الحياة!

آه! كم سيضحك هيكلُ الجمجمة هذا!

كم سيقول هذا الشبح: حسناً، ها أنا حيّ، أيّها الحمقى!

كم سيعود إلى مهمّته المقزّزة! كم سيعود للغرق في لجّة الكراهيّة، والحرب، بقساوة في القلب، وفرح! كم سنرى مجدّداً، ومنذ الغد، المنازلَ المحترقة، والأسرى المذبوحين، والجرحى المجهّز عليهم، والنّساءَ اللواتي أُطلقت عليهن النّار!

وعلى أيّة حال، فهذا العملُ الذي كان يفتن غوفان، ألم يكن غوفان يبالغ فيه بينه وبين نفسه.

ثلاثة أطفال كانوا هالكين؛ وأنقذهم لانتوناك.

ولكن من الذي كان قد سبب هلاكهم؟

ألم يكن لانتوناك؟

من الذي وضع هذه المراقد في هذا الحريق؟

ألم يكن ليمانوس؟

وماذا كان ليمانوس؟

ألم يكن نائب المركيز؟

والمسؤول، هو القائد

فمُشعِل الحريق والقاتل كان إذن لانتوناك.

فما الأمر الرّائع الذي فعله إذن؟

إنه لم يستمر في فعلته، لا شيء أكثر.

وبعد أن بنى الجريمة، تراجع أمامها.

لقد استفظع نفسه، وأيقظت صرخةُ الأمّ في ذاته ذلك الأساس العميقَ للرأفة البشرية القديمة، والتي هي ضربٌ من مخزون في الحياة الجماعيّة، والذي هو في كلّ النفوس، وحتّى أكثرها شؤماً. لدى تلك الصّرخة، رجع أدراجه. ومن الليل الذي كان يتوغّل فيه، تقهقر باتجاه النهار. وبعد أن صنع الجريمة، قام بتفكيكها. وكانت كلّ مزيّته هي في: أنه لم يكن وحشاً حتّى النّهاية.

ومقابل هذا القليل إلى هذه الدّرجة، مقابل هذا القليل، يُعادُ إليه كلّ شيء! ويعاد إليه الفضاء، والحقول، والسّهول، والنّهار، وتعاد إليه الغابة التي قد يستخدمها لأعمال اللصوصيّة، وتُعاد إليه الحريّة التي قد يستخدمها من أجل الاستعباد، وتُعاد إليه الحياة التي قد يستخدمها من أجل الموت!

أما محاولة التفاهم معه، أما أن تكون هناك إرادة للتّعامل مع تلك النّفس المتعالية، وأما أن يُفرض عليه خلاصُه بصورة مشروطة، أما عن سؤاله إن كان يوافق، مقابل النّجاة بحياته، أن يمتنع منذ ذلك الحين عن كلّ عدائيّة وعن كلّ تمرّد. فأيّ خطأ سيكون عرضٌ كهذا، وأيّ امتياز يمنح له به، وبأيّ ازدراء قد

نصطدم، وكم سيصفع السّؤال بالرّد! كم سيقول: احتفظوا بالأفعال المخجلة لكم. اقتلوني!

ما من شيء يمكن في الحقيقة أن يُصْنَع مع هذا[١١٢] الرّجل. سوى قتله أو تسليمه.

أتى هذا الرجل في الوقت المناسب. فقد كان على الدّوام مستعدّاً للطّيران أو للتضحية بنفسه؛ كان بالنسبة لذاته نسَره وهاويته. إنه نفسٌ غريبة.

أن يقتل؟ أيّ قلق! وأن يُسلّم؟ أيّة مسؤوليّة!

إذا ما نجا لانتوناك، فإن كلّ شيء سيبدأ من جديد مع الفاندية، كما مع الأفعوان، طالما لم يُقطَع رأسُه. وبطرفة عين، وبسرعةِ انطلاق النيزك، فإن اللّهيب كلّه والذي أطفأه اختفاء هذا الرّجل، سوف يشتعل مجدّداً. ولن يستريح لانتوناك طالما لم يحقق ذلك المخطّط المقيت، فيضع مثلما يوضعُ الغطاءُ على القبر، الملكية على الجمهورية، وإنكلترا على فرنسا، إن إنقاذ لانتوناك كان معناه التضحية بفرنسا، إن حياة لانتوناك هي موتُ جمهورٍ من الكائنات البريئة، رجالاً ونساءً وأطفالاً تأخذهم مجدداً الحرب الداخلية؛ إنه إنزال الإنكليز، وتراجعُ الثورة، والمدنُ المنهوبة، والشعبُ الممزق، وبروتانيا النازفة دماً، والطريدة التي أعيدت إلى المخلب.

وغوفان في وسط كلّ ضروب الأضواء الغامضة، والإنارات باتجاهات معاكسة، كان يرى بصورةٍ مبهمة، وفي تفكّره، ارتسامَ الخطوط الأولى للمشكلة التالية التي تطرح أمامه: إطلاق سراح النمر.

ثم أخذت المسألةُ تظهرُ مجدداً بأوّلِ مظهرٍ لها، فإن حجر سيزيف الذي ليس شيئاً آخر سوى نزاع الإنسان مع ذاته، أخذ يسقط مجدداً، فهل كان لانتوناك نمراً إذن؟

ربما كان ذلك من قبل ، ولكن ألا يزال كذلك أيضاً ، كان غوفان يكابد تلك الدوائر الحلزونية المدوخة للفكر ، والتي ترجع إليه ، وتجعل الفكر شبيهاً بالخفث ، وهل كان ممكناً بعد المعاينة حتماً أن ننكر إخلاص لانتوناك ، وتفانيه الصّلب ، وتجردّه الشامخ؟ ماذا! أبوجود كلّ أشداق الحرب الأهلية المفتوحة . يجري تأكيد الإنسانية! ماذا! في نزاع الحقائق الدنيا ، أتجلب الحقائق العليا! ماذا! أيجري التدّليلُ على أن هناك ، فوق الملكيات ، وفوق الثورات ، وفوق المسائل الأرضية ، الحنانُ الواسعُ للنفس الإنسانية ، والحمايةُ المتوجّبة على الأقوياء تجاه الضعفاء ، والخلاص المتوجب على أولئك الذين أُنقذوا تجاه أولئك الذين هلكوا ، والأبوة المتوجّبة تجاه كلّ الأطفال وكل الشيوخ! أيجري إثبات هذه الأشياء الرائعة ، وإثباتُها بأن يهب الإنسان رأسه! ماذا! أيكون المرء قائداً عسكرياً (جنرالاً) ويتخلى عن الإستراتيجية والمعركة ، وعن الثأر! ماذا أيكون المرء ملكياً ويأخذ ميزاناً ، ويضع في إحدى كفتيه ملك فرنسا ونظاماً ملكياً دام خمسة عشر قرناً ، والقوانين العتيقة المطلوب إصلاحُها ، والمجتمع القديم المطلوبُ تجديدُه ، وفي الكفة الأخرى ثلاثة فلاحين صغاراً بلا تحديد ، وأن يجدُ الملكُ والعرشُ والصولجان وقرون النظام الملكي الخمسة عشر خفيفة ، إذا ما وزنت بهذا الثقل الذي هو ثلاث براءات! ماذا! إن كل ذلك قد لا يكون شيئاً! ماذا! والذي قام بذلك يبقى النمر ، وينبغي أن يعامل على أنه حيوان متوحش! لا! لا! لا! لم يكن وحشاً ذلك الرجل الذي أضاء للتو بنور عملٍ إلهي هاوية الحرب الأهلية! لقد تحول حاملُ السّيف إلى حامل النور ، وكان الشيطانُ الجهنّمي قد رجع ليكون لوسيفير السماوي[1] . كان لانتوناك قد كفر عن كل أفعاله الهمجية بعمل فيه تضحية ، وبإهلاكه لنفسه جسدياً ، فقد خلص نفسه أخلاقياً ؛ وصنع من نفسه بريئاً مجدداً . وقد وقّع عفوه الخاص ، والحق في أن يغفر الإنسان لنفسه أليس موجوداً ؟ لقد غدا منذ ذلك الوقت موقراً .

---

(١) هذا هو تقريباً البيت الشعري الأخير لـ «نهاية الشيطان» في الحالة التي نُقلت فيها إلينا هذه القصيدة التي لم تستكمل . مات الشيطان ، فلتعش مجدداً ، يا لوسيفير السماوي .

لقد أصبح لانتوناك لتوه مخالفاً لعادته ، وأتى الآن دور غوفان .

كان غوفان مكلفاً بأن يرد عليه .

كان صراع الأهواء الطيّبة ، والأهواء السيئة يسبّب في ذلك الوقت بلبلةً في العالم . ولانتوناك من خلال سيطرته على هذه البلبلة ، قد استخلص منها الإنسانية ، وأصبح على غوفان الآن أن يستخلص منها العائلة .

فماذا سيفعل؟

وهل سيخيّب غوفان ثقة الرب به؟

كلا ، وكان يتمتم في نفسه: لننقذ لانتوناك .

وإذن ، فهذا حسن ، هيا ، اصنع للإنكليز مصالحهم . فرّ ، وانتقل إلى العدوّ . أنقذْ لانتوناك وخنْ فرنسا .

وكان يرتعد .

إن حلّك ليس حلاً ، أيها الحالم! .

كان غوفان يرى في العتمة ابتسامة أبي الهول المشؤومة .

كان ذلك الموقف نوعاً من مفترقِ طرقٍ رهيب قد أتت الحقائق المتصارعة لتفضي إليه ، وتتجابه فيه ، وتحدّق كلٌّ من الأفكار الثلاث العليا للإنسان ، الإنسانية والعائلة والوطن ، تحدّق كل منها بالأخرى .

كان كلُّ صوتٍ من هذه الأصوات يشرع في الكلام بدوره ، وكان كلُّ واحدٍ منها يقول قولاً محقاً ، فكيف يكون الاختيار . إن كل واحد بدوره يبدو أنه قد وجد وصلاً بين الحكمة والعدالة ، وكان يقول: اصنع هذا ، فهل كان ذلك ما ينبغي أن يفعله؟ أجل . كلا ، كانت الحكمةُ العقلية تقول شيئاً ، والشعورُ يقول شيئاً آخر ، كانت النصيحتان متعاكستين ، إن المحكمة العقلية ليست إلا

العقل ، والشعور غالباً ما يكون الضمير ، إن أحدهما يأتي من الإنسان ، والآخر من أعلى[1] .

وهذا ما يعني أن الشعور يتضمن وضوحاً أقل واقتداراً أكبر .

ومع ذلك فأيّة قوةٍ في العقل الصارم!

كان غوفان يتردد .

ارتباكات مخيفة .

كانت هناك هاويتان تنفتحان أمام غوفان ، القضاء على المركيز؟ أم إنقاذه؟ كان ينبغي الاندفاع إلى إحداهما أو إلى الأخرى .

وأيه لجّة من هاتين اللجّتين كانت هي الواجب ؟

* * *

---

(١) إن هذه الفكرة تتأكد باستمرار في مؤلفات نضج وشيخوخة فيكتور هيغو (انظر خصوصاً مقدمة البؤساء غير المنشورة في طبعة المطبعة الوطنية)، والتي تذكر بتصورات روسو في «إعلان اعتقاد نائب السافوا الأسقفي» . «ضميره ، أي الرب» هكذا كتب في الفصل المعنون ب:«عاصفة تحت جمجمة» .

III

قلنسوة القائد

كان الواجب في حقيقة الأمر هو المسألة المواجهة[1].

كان الواجب ينتصب مشؤوماً أمام سيموردان، ومرعباً أمام غوفان. كان بسيطاً أمام أحدهما، ومتعدداً ومختلفاً أمام الآخر.

دقت الساعة الثانية عشرة ليلاً، ثم الواحدة صباحاً.

كان غوفان قد اقترب من مدخل الثغرة، من دون أن ينتبه، ومن غير أن يشعر بذلك.

لم يعد الحريقُ يلقي إلا التماعاتٍ موزعة، وانطفأ.

في الجهة الأُخرى من البرج، كان السهل المرتفع يتلقى نور الحريق المنعكس، فيغدو مرئياً أحياناً ثم يحتجب حين يغطي الدخان النار، وهذا الضياء الذي كان يتأجّج بقفزاتٍ فجائية، وتقطعه ظلمات مباغتة، كان يخلُّ بتناسب الأشياء فيما بينها، ويعطي حراس المعسكر مظاهر تشبهُ اليرقات. أما غوفان فمن خلال تأمله؛ قد كان يتفحص بشكل مبهم تلك الامحّاءات، امحاءات الدخان

(١) إن غوفان حسب مذهب «كانت» الأخلاقي، إنما سيخضعُ «لضرورة» معينة، ونفكّر أيضاً بـ «شهامة» ديكارت وكورني، وبالعدوى التي تصيبُ البطل، عدوى النبل التي تدفع الأبطال إلى تخطّي أنفسهم لكي لا يبقوا أدنى من ذلك الذي دلّهم على الطريق.

من جراء التوهج، وامحاءات التوهج بسبب الدخان، كانت هذه الظهورات، وهذه الاختفاءات للضياء أمام عينيه تحمل تماثلاً غير محدود مع ظهورات، واختفاءاتِ الحقيقة في فكره.

فجأة، وبين زوبعتين من الدخان، أضاءت شراراتٌ تطايرت من نار الجمر المتخامدة قمّة السهل المرتفع بشكلٍ ساطع، وأبرزت فيه [١١٣] خيال عربةٍ قرمزياً.

نظر غوفان إلى تلك العربة، فكانت محاطةً بخّيالة يعتمرون قبّعات الدركيين، وبدا له أنها العربة التي أراه إياها منظار غيشان عند الأفق، قبل بضع ساعات في اللحظة التي كانت تغيب فيها الشمس، كان هناك رجالٌ على العربة، ويبدو عليهم الانشغال بتفريغها، إن ما كانوا يسحبونه من العربة كان يبدو ثقيلاً، ويصدر أحياناً [١١٤] صوتاً مصماً، وكان من الصعب على المرء أن يعرف ما كان ذلك؛ فقد كان هذا يشبه صقالات، وقد نزل اثنان منهم ووضعوا على الأرض صندوقاً من المفترض أن يحتوي، إذا حكمنا عليه من شكله، شيئاً مثلث الشكل، وانطفأت الشرارة، وعاد كلّ شيء إلى العتمة مجدداً، أما غوفان الذي كان محدقاً فقد مكث متفكراً أمام ما كان موجوداً هناك في الظلمة.

كانت هناك مصابيحُ قد اشتعلت، وكان أناس يروحون ويجيئون على السهل المرتفع، غير أن الأشكال التي كانت تتحرك كانت مشوشة. ومن جهةٍ أخرى، فإن غوفان من الأسفل، ومن الجهة الأخرى من المسيل، ماكان يرى إلا ماكان على حافة السهل العالي تماماً.

كانت هناك أصواتٌ تتكلم، ولكن الكلمات لم تكن تُلتقط، وفي هذا المكان أو ذاك، كانت هناك صدماتٌ تدقّ على شيء خشبي، وكان يسمع أيضاً صريرٌ معدنيّ غير واضح، وشبيهٌ بصوتِ منجلٍ حاصد يجري شحذه.

ودقت الساعة الثانية.

توجه غوفان نحو الثغرة ببطء، مثل شخص يخطو عمداً خطوتين إلى

الأمام ، وثلاث خطوات إلى الوراء ، وقد قدم الحارس السلاح ، عند اقترابه ، متعرفاً في الظليل معطف وقلنسوةَ القائد المضفور بشريط الرتبة . ولج غوفان إلى قاعة الطابق الأرضي ، التي تحوّلت إلى مركز حراسة . كان هناك مصباح معلّق بالقبة ، وكان ينيره إنارة كافية ، بالضبط لكي يتم اجتيازُ القاعة من غير أن يسير المرء على رجال المركز الراقدين على الأرض ، فوق القش ، وكان معظمهم نائماً .

كانوا مضطجعين هناك؛ وقبل بضع ساعات كانوا يقاتلون ، أمّا شظايا المقذوفات المبعثرةِ تحتهم ، على شكلِ حبيبات حديدية ، ورصاصية ، وقد جرى تكنيسُها بشكل رديء ، فقد كانتَ تزعجهم في النوم قليلاً؛ بيد أنهم كانوا متعبين وأخذوا يستريحون . كانت تلك القاعةُ هي المكان المرعب ، فهناك جرى الهجوم ، وهناك كانوا يزمجرون ويصرخون وكان يسمع الصّرير ، ويجري الضّرب ، والقتل ، وتنطلقُ زفرات الموت ، كان العديد من جماعاتهم قد سقطوا موتى على تلك الأرضية المبلّطة التي كانوا يرقدون عليها مرنّقي العيون ، كان ذلك القشّ الذي يستخدمونه في نومهم قد شرب دماءَ رفاقهم ، أما الآن فقد انتهى الأمر ، وكان الدّمُ قد انقطع ، والسيوفُ قد نشّفت ، والموتى قد ماتوا ، وكانوا من ناحيتهم ينامون باطمئنان ، تلك هي الحرب ، ثم أن الجميع سيغفون غداً الإغفاءة نفسها .

عند دخول غوفان ، نهض بعضُ هؤلاء الرجال الناعسين ، وكان الضابط الذي يقود المركيز من بينهم مع الآخرين ، ودلّه غوفان على باب الزنزانة وهو يقول:

– افتح لي هذا .

سُحبت المزالجُ وانفتح الباب .

فدخل غوفان إلى الزنزانة ،

وانغلق الباب خلفه .

* * *

الكتاب السابع

الإقطاعية والثورة

I

السَّلف

كان هناك قنديل موضوع على بلاط قبو البرج ، إلى جانب منفذ زنزانة النسيان المربع .

كان المرء يلاحظ على البلاط أيضاً الجرة الملأى بالماء ، ورغيفَ المؤونة وحزمةَ القش ، كان القبو منحوتاً في الصخر ، والسجين الذي كانت تتملكه نزوة لإشعال القشّ ، كان يعمل بلا طائل فلا يكون هناك أيّ خطرٍ لاحتراق السجن ، ويكون من المؤكد أن يختنق السجين .

في اللحظة التي دار فيها الباب على مفصلاته ، كان المركيز يسير في زنزانته ، إنه يقوم بحركةِ ذهابٍ وإياب آليةٍ خاصة بالوحوش الموضوعة في قفص .

رفع رأسه عند الصوت الذي أحدثه الباب وهو ينفتح وينغلق ، والقنديل الذي كان على الأرض بين غوفان والمركيز أنار هذين الرجلين في وسط وجهيهما .

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر وكانت تلك النظرة مباشِرة بحيث جعلتهما كليهما بلا حراك.

قهقه المركيز وهتف.

– صباح الخير يا سيّد، ها قد مرت سنواتٌ ليست بالقليلة، ولم يحالفني الحظ فيها للقائك، وأنت تتفضل بأن تأتي لزيارتي، إني أشكرك ولا أطلب إلا أن أتحدث معك قليلاً. كنت قد بدأت أضجر، وأصدقاؤك يضيعون وقتهم بإثبات الهوية، والمحاكم العسكرية، وهذه الأساليب كلُّها تطول؛ فقد أُمضي إلى مهمتي بشكل أسرع. فأنا هنا في منزلي. تفضّل بالدخول، حسناً ماذا تقول عن كلّ ما يجري؟ إنه طريف، أليس كذلك؟ فذات مرة، كان هناك ملكٌ وملكة، فالملك كان الملك، والملكة كانت فرنسا. ولقد قطعوا رأس الملك، وزوجوا الملكة لروبيسبيير، وكان لهذا السيد وهذه السيدة ابنة تدعى المقصلة، ويبدو أنني سأتعرّف عليها غداً صباحاً، وسأكون مسروراً بذلك، كما أنا مسرور برؤيتك، فهل أتيت لأجل هذا؟ وهل ترقيت في الرتبة؟ وهل ستكون الجلاد؟ إن كانت هذه مجرد زيارة ودّية، فإنني متأثر بها. يا سيدي الفيكونت، إنك لم تعد تعرف ربما ما هو الرّجلُ النبيل. حسناً، هذا أحدهم، هذا أنا. فانظر إليه، إنه يؤمن بالله، إنه يؤمن بالتقليد، ويؤمن بالعائلة، ويؤمن بأجداده، ويؤمن بمثال أبيه، بالإخلاص والاستقامة، وبالواجب تجاه أميره، وباحترام الشرائع القديمة، بالفضيلة والعدالة، وهو ما يجعلك تُعدَم بالرصاص بسرور، فلتتكرم أرجوك بالجلوس. على بلاط الأرضية، هذا صحيح، لأنه ما من كنبة في هذه القاعة؛ غير أن الذي يعيش في الوحل يمكنه أن يجلس على الأرض، أنا لا أقول هذا لكي أهينك، لأن ما نسميه الوحل، أنتم تسمونه الأمة، ولا شك أنكم لا تطلبون مني أن أصيح حرية، مساواة إخاء؟ فهذه غرفة قديمة من غرف منزلي، وكان السادة الإقطاعيون قديماً يضعون فيها القرويين الأفظاظ، أما الآن فالقرويون الأفظاظ يضعون فيها السادة الإقطاعيين، وهذه الترّهات تسمى الثورة، ويبدو أنهم سوف يقطعون عنقي بعد ست وثلاثين ساعة من الآن.

ولا أرى ضيراً ، على سبيل المثال ، إن كان هناك تهذيب ، في أن ترسل إليّ علبة السّعوط الموجودة في الأعلى ، في غرفة المرايا التي لعبت فيها حين كنت طفلاً ، وجعلتك تقفز فيها على ركبتي . يا سيدي ، أريد أن أعلمك بشيء ؛ إنك تدعى غوفان ، والأمر غير المألوف ، هو أن الدّم النبيل الذي يجري في عروقك ، وهو الدمُ نفسه الذي لدي ، وهذا الدم الذي يصنع مني رجلاً شريفاً ، يصنع منك نذلاً . تلك هي الخصوصيات . سوف تقول لي أن الذنب ليس ذنبك ولا ذنبي . تباً ، إن المرء يصبح شريراً من دون أن يدري ، وهذا يرجع إلى الهواء الذي نتنفسه ، ففي أزمنة كأزمنتنا ، لا يكون المرءُ مسؤولاً عما يفعل؛ فالثورةُ نذلةٌ بالنسبة لكل الناس ، وكل مجرميكم الكبار هم بريئون كبار . أي حمقى![١١٥] بدءاً بك . اسمح لي بأن أعجب بك ، أجل أنا معجب بأن يتلهّى صبيّ مثلك ، والذي هو رجل كريم النسب[١١٦] وذو مكانة جيدة في الدولة ، ولديه دمٌ عظيم يريقه في سبيل القضايا الكبرى ، وهو فيكونت لهذا البرج غوفان (تور غوفان) وأمير بروتانيا ، ويمكن أن يكون دوقاً بالحق ، وعيناً من أعيان فرنسا بالوراثة ، وهذا تقريباً كل ما يمكن أن يُرغب فيه في هذا العالم ، رجلٌ حصيف ، أن يتلهى ، في الحال التي هو فيها ، بأن يكون على ما أنت عليه ، بحيث يترك لدى أعدائه انطباعاً بأنه أثيم ، ولدى أصدقائه بأنه أحمق . بالمناسبة ، قدم تهانيَّ للسيد رئيس الدير سيموردان .

كان المركيز يتكلم بارتياح ، واطمئنان ، من غير أن يشدّد على شيء بصوته الرفيع التهذيب ، ونظرته الصافية والهادئة ، ويداه في جيبي صدرته[١] وقطع كلامه ، وتنفّس طويلاً ثم استأنف يقول:

– أنا لا أخفيك أنني فعلت كل ما استطعت لكي أقتلك ، وكما تراني ،

(١) يذكّر لانتوناك هنا أيضاً ، وبنبرة السخرية الهادئة هذه ، بشخصية الدوق دوريتيل الذي كان قد خطر في ذهن هيغو . إن مرافعته الارستقراطية ضد الثورة تحاكي اللعنات البرجوازية التي كان يوجهها الأب جيلنورمان في « البؤساء» إلى حفيده ماريوس الذي اعتنق الأفكار الثورية ، وهي صورة تشبه كثيراً صورة فيكتور هيغو ١٨٣٠ .

فقد صوبت أنا نفسي، شخصياً المدافع ثلاث مرات عليك، إنه تصرفٌ فظ، وأنا أقرُّ بذلك، غير أننا نكون قد اعتمدنا على حكمةٍ سيئة إذا تصورنا أن العدو في الحرب يسعى لكي يكون مستحباً لدينا، فنحن في حالة حرب، أيها السيد ابن أخي، إن كل شيء فيها نارٌ ودم، ومع ذلك فالصحيح أنهم قد قتلوا الملك، يا له من عصرٍ جميل.

وتوقف أيضاً، ثم واصل يقول:

– حين نفكرّ بأن شيئاً من كل هذا لم يكن له أن يحدث لو تم شنقُ فولتير، ووضع روسّو في سجن للأشغال الشاقة! يا للعجب! رجال الفكر، يا لهم من بليّة! وإذن، فما الذي تعيبُه عليها، على هذه الملكية؟ صحيحٌ أنهم كانوا يرسلون رئيسَ الدير بوسيل إلى ديره في كوربينيي، تاركين له اختيار العربة، وكل الوقت الذي يريده لاجتياز الطريق، أما السيد تيتون، الذي كان إذا شئت متهتكاً جداً، وكان يذهب إلى عند الفتيات، قبل أن يذهب إلى معجزات نائب الكاهن باريس، فقد نقلوه من قصر فينسين إلى قصر هام في بيكارديا، والذي هو مكانٌ[1] قبيحٌ إلى حدٍ كاف، وإني أقرّ بذلك، هذه هي التظلّمات وأنا أتذكرها. وقد رفعت صوتي بها في ذلك الوقت[2]. وكنت غبياً مثلك.

تلمس المركيز جيبه وكأنه يبحث فيها عن علبة سعوطه، وتابع يقول:

– إنما لم أكن شريراً مثلك، كنا نتكلم من أجل الكلام، وكان هناك أيضاً

---

(١) إشارات إلى الصراعات الدينية تحت حكم لويس الخامس عشر، أما رئيس الدير بوسيل (١٦٥٥– ١٧٤٥) الجانسيني النزعة، فقد حارب البيان البابوي Uni GENI Tus أمام محكمة باريس، ومن هنا يأتي توقيفه للعام ١٧٣٢ وقد تم اعتقال المستشار تيتون في الوقت عينه لأسباب مماثلة إن اسم نائب الكاهن باريس يذكر بالمشاهد الشهيرة للمعجزات، وبالمصابين بالاختلاج الديني في مقبرة سان ميدار.

(٢) هذا سطرٌ ينبغي الانتباه إليه، فلانتوناك في شبابه، قد كان أحد هؤلاء النبلاء الذين كانوا يحتجون على تعسّف السلطة، وكانوا مستعدين للقبول بإصلاحات، خصوصاً في النظام القضائي.

عصيانُ التحقيقات والعرائض[1] . ثم أتى هؤلاء السادة الفلاسفة ، فجرى إحراق الكتابات ، بدلاً من إحراق المؤلّفين ، وقد اختلطت بذلك دسائس البلاط ، فكان هناك كل هؤلاء البلهاء ، تورغو ، وكينيه ، وماليرب ، والفيزيوقراطيون إلخ . . . وقد بدأ الصخب . أتى كل شيء من عند الكتّاب الفاشلين وناظمي القوافي ، أما الموسوعة! ديدرو! ودالامبير! آه! فيا للناس التافهين! والعجيب أن يكون رجلٌ كريم النسب كملك بروسيا قد آمن بذلك إيماناً بليداً! ولو كان الأمر لي لقضيت على كل الكويتبين (حكاكي الورق) . عجباً! لقد كنا نحن سادةً نقيم العدل ، ويمكن للمرء أن يرى هنا ، على الجدار أثر دواليب الفسخ . لم نكن نمزح . كلا ، كلا ، ما من كتاب فاشلين! وما دام هناك من أمثال أرويه[2] ، فسيكون هناك من أمثال مارا . وما دام هناك كويتبون تافهون يخربشون ، فسيكون هناك أوغادٌ يقتلون ، ومادام هناك حبر ، فسيكون هناك سوادٌ حالك ، ومادامت قائمة الإنسان تمسك بريشة الإوز ، فإن الحماقات الباطلة سوف تولّد حماقات شنيعة . إن الكتب تصنع الجرائم[3] ، إن كلمة «Chimère» تحمل معنيين[4] فهي تعني الحلم والوهم ، وتعني المسخ . فكم يجري الاكتفاء بالترهات! وما الذي تمتدحونه لنا بحقوقكم؟ حقوق الإنسان ؟ وحقوق الشعب! وهذا كلام أجوف بما يكفي ، وغبي بما يكفي ، وخيالي بما يكفي ، وفارغ بما يكفي من المعنى! أما أنا فحين أقول: إن هافواز ، شقيقة كونان ، قد جلبت كونتيه بروتانيا لهويل ، كونت نانت وكورنواي ، والذي ترك العرش لألان فيرغان ، عمّ بيرت ، والتي تزوجت بألان لوتوار ، السيد الإقطاعي للاروش سور -يون ، ورزقت

---

(١) التحقيقات والعرائض كانت تشكل إحدى قاعات المحكمة ، وكانت نضالات المحكمة العليا ضد الوزراء ، والشائعة جداً خلال عهد لويس الخامس عشر ، لا تخلو من تأثير كما نعلم على بدايات الثورة .

(٢) هي أسرة فولتير .

(٣) كان هيغوْ يتلهى ساخراً عن عمد إذ يدفع ضروب الغضب عند أنصار النظام القديم حتى التضخيم (الكاريكاتور) المضحك ، والموجهة ضد الفلاسفة الذين يعتبرونهم مبشرين بالثورة ، والموجهة عموماً ضد الكتاب والمفكرين .

(٤) باللغة الفرنسية طبعاً (م:ز.ع)

منه بكونان لوبوتي، جدّ غي، أو غوفان دوتوار، سلفنا، أقول شيئاً واضحاً، وهذا يعتبر حقاً. أما مضحكوكم، وحقراؤكم، وقرويّوكم الأفظاظ فما الذي يسمونه حقوقهم؟ قتل الرّب، وقتل الملك. إن لم يكن هذا الأمر مقزّزاً! أه! الحقراء! فسأكون مستاءً لأجلك، يا سيدي، فأنت من هذا الدم الأبيّ، الدم البروتاني، أنت وأنا، جدّنا هو غوفان دوتوار، وجدّنا الأكبر أيضاً هو ذلك الدوق الكبير دومونبازون، والذي كان من أعيان فرنسا، ومكرماً بقلادة الأوسمة، والذي هاجم ضاحية تور، وجُرح في معركة دارك، والذي مات، وهو رئيس الصيد في فرنسا، وذلك في منزله، في كوزيير بمنطقة تورين، وقد بلغ ستة وتسعين عاماً. ويمكنني أن أكلمك أيضاً عن الدوق دولودينوا ابن سيدة الكارناش، وعن كلود دولورين، دوق شيفروز، وعن هنري دولونونكور، وعن فرانسوا دولافال بوادوفان. ولكن ما فائدة هذا؟ إن السيد يشرفه أن يكون أحمق، وهو حريصٌ على أن يكون نداً لسائسي. فلتعلم ما يلي، لقد كنت قد أصبحت رجلاً عجوزاً، حين كنت لم تزل طفلاً صغيراً. وقد مخّطتك، حين كنت خانباً. وقد أمخّطك أيضاً. وأثناء ترعرعك، وجدت الوسيلة لتصغير نفسك. ومنذ ذلك الوقت الذي لم يعد أحدنا يرى الآخر فيه، ذهبنا كل منا في اتجاه، أنا في اتجاه النزاهة، وأنت في الاتجاه المعاكس. عجباً! لا أدري كيف سينتهي كل ذلك؛ غير أن السادة أصدقاءك هم أشقياء مزهوون. أه! أجل إن هذا جميل، وأنا أقبل به، فالنجاحات باهرة، وقد ألغوا من الجيش عقوبةَ نصف ليتر الماء الذي كان يُنزل بالجندي السّكير لثلاثة أيام متتالية؛ وأصبح لدينا الحدُّ الأقصى، والمؤتمر الوطني، والأسقف غوبيل والسيد شوميت، والسيد هيبير، وأخذوا يبيدون الماضي كله بالجملة، بدءاً من الباستيل ووصولاً إلى التقويم، ويستبدلون القديسين بالخضار، فليكن أيها السادة المواطنون، فلتكونوا المسيطرين، واحكموا وتصرفوا كما يحلو لكم، وامنحوا أنفسكم هذا الارتياح، ولا تتضايقوا، وكل ذلك لن يحول دون أن يبقى الدّين هو الدّين، ودون أن تغطي الملكية ألف وخمسمئة عام من تاريخنا، ودون أن تكون السيادة الإقطاعية القديمة الفرنسية أعلى منكم، حتى وإن قطع رأسها.

للسّلالات الملكية ، فإننا نستخفّ بها ؛ فشيلبيريك ، في الأساس ، لم يكن إلاّ راهباً يدعى دانييل ، وكان رينفروا هو الذي اختلق شيلبيريك لكي يزعج شارل مارتيل؛ ونحن نعلم تلك الأشياء مثلما تعلمونها . وليست هذه هي المسألة ، المسألةُ هي التالية: أن نكون مملكةً عظيمة ، وأن نكون فرنسا القديمة ، وأن نكون بلد الترتيب الرائع الذي يُقدَّرُ فيه أولاً الشخصُ المقدّسُ للعاهلين ، وهم السادة المطلقون للدولة ، ثم الأمراء ، ثم ضباط التاج المكلفون بأسلحة البّر والبحر ، والمكلفون بالمدفعية ، ومراقبة نظّار المالية ، ثم هناك القضاء الأعلى والأدنى ، والذي يلحق به تدبيرُ أمور ضرائب الملح ، والإيرادات العامة ، وأخيراً ، شرطةُ المملكة في مراتبها الثلاث ، وذلك هو الأمر الذي كان جميلاً ومنظّماً بشكلٍ نبيل ، وقد دمرتموه ، لقد دمرتم المقاطعات ، بما أنكم جهلة تدعون للرثاء ، دونَ أن يحدّثكم قلبكم حتى عما كانت عليه المقاطعات[1] ، إن عبقرية فرنسا مؤلفةٌ من عبقرية القارة نفسها ، وكلّ واحدة من مقاطعات فرنسا كانت تمثّل فصيلةً من فصائل أوربا؛ فصراحةُ ألمانيا كانت بيكارديا ، وشهامة السويد في الشمبانيا ، وصناعة هولنده في بورغونيا ، ونشاط بولونيا في اللانغدوك ، ورصانةُ اسبانيا في غاسكونيا ، وحكمةُ إيطاليا في بروفانسيا ، وحدة ذهن اليونان في نورمانديا ، وإخلاصُ سويسرا في الدوفينيه ، إنكم لم تكونوا تعلمون شيئاً من كل ذلك ، لقد كسرتم ، وحطمتم ، وقصفتم ، وقوضتم ، وكنتم براحة بال حيوانات وحشيةً . آه! إنكم لم تعودوا ترغبون في أن يكون لكم نبلاء! حسناً ، لن يكونَ لكم نبلاء ، وسلموا بأن تحرموا منهم . ولن يكون لكم سادة من الحاشية ، ولن يكون لكم أبطال . فليلةً سعيدة ، ياضروب العظمة القديمة . فلتجدوا لي حالياً رجلاً مثل فارس داسّاس[2]! إنكم تخافون جميعكم على حياتكم ، فلن يكون لديكم فرسان فونتونوا الذين كانوا يؤدون التحية قبل أن يقوموا بالقتل ، ولن يكون لديكم المقاتلون الذين يرتدون جوارب حريرية في حصار ليريدا ، ولن تكون لكم تلك الأيام العسكرية المفعمة بالزهو ، والتي كانت تمرّ فيها قنزعاتُ

(١) يعزو هيغو هنا إلى لانتوناك بعضاً من الحجج الجدية لمنظري الملكية المطلقة ، بدءاً من جوزيف دوميستر ، وصولاً إلى ملكيي القرن العشرين .

(٢) فارس فرنسي ضحى بحياته في سبيل جيشه (م:ز.ع)

القبعات كالشهب؛ إنكم شعبٌ منته ؛ ولسوف تحتملون هذا الاغتصاب والغزو؛ فإن يرجع ألاريك الثاني ، فلن يجِّد في مواجهته كلوفيس ، وإذا رجع عبد الرحمن ، فهو لن يجد في مواجهته شارل مارتيل؛ وإن يرجع السكسونيون ، فهم لن يجدوا في مواجهتهم بيبّان . لن يكون لديكم أمثال أنياديل ، وروكروا ، ولينس ، وستافارد ، ونيرفند ، وستينكيرك ، ولامارساي ، وروكو ، ولاوفيلد ، وماهون ، ولن يكون لديكم بوفين ، برفقة فيليب أوغست اللذان يأسران ، بإحدى اليدين ، رونو ، كونت بولونيا ، وبالأخرى فيران ، كونت الفلاندر . سوف تكون لديكم بلدة أزينكو ، ولكن لن يكونِ لديكم السيد دوباكفيل ، حامل راية الشعلة والذي سيقتل في تلكِ البلدة متلفعاً بالعلم! هيا! هيا! افعلوا الامر! وكونوا الرجال الجديدين . ولتغدوا صغاراً! .

صمت المركيز للحظة من الزمن ، ثم أردف بسرعة:

– ولكن ، دعونا كباراً . اقتلوا الملوك ، اقتلوا النبلاء ، اقتلوِا الكهنة ، اصرعوا! دمّروا ، اذبحوا ، دوسوا كل شيء بالأقدام ، ضعوا الحكمَ القديمة تحت عقب جزماتكم ، ولتطؤوا العرش بأقدامكم ، ولتخبطوا الهيكلَ بأرجلكم وتسحقوا الرّب ، وترقصوا فوقه! فهذا شأنكم ، إنكم خونةٌ وجبناء ، وغيرُ مؤهّلين للإخلاص والتضحية . لقد قلت قولي هذا ، والآن اعدموني بالمقصلة ، سيدي الفيكونت ، فلي الشرف أن أكون رجلك المتواضع جداً .

وأضاف يقول:

– أه ! إني أقول لك حقائقك ! فبمَ يضيرني ذلك ؟ إني ميت .

فقال غوفان[1]:

---

(١) كانت المسودة الأولى المحفوظة مع الذخائر (بقايا الرواية) تقدم لنا حواراً قصيراً بين العم وابن الأخ (أخي الجد والحفيد): «أهرب – أنا ممتن لك على هذا ، ولكن ذلك لا طائل منه – ولو كنت قد قبضت عليك ، لجعلتهم يعدمونك بالرصاص ، – فاجعلني أعدم بالمقصلة . . » وكان غوفان يرد مسوغاً بادرته:» . . . في الأمر أنك دخلت للتو إلى الإنسانية ، وأنا الذي أدخل إلى العائلة ، يا عمي ، أهرب» – وقد فضل هيغو هذا النوّع من الخاتمة المباغتة ، ذات الأثر الأكبر ، والذي غالباً ما استخدمه في مسرحياته وقصائده .

- أنت حرٌّ طليق.

وإذ تقدم غوفان باتجاه المركيز، فقد فك أزرارَ معطفه، معطفِ القائد، وألقى به على كتفيه، وخفض غطاء رأسه على عينيه، وكان لكليهما القامة ذاتها.

وقال المركيز:

- حسنا! وماذا تفعل؟

رفع غوفان صوته وصاح:

- أيها المعاونُ، افتح لي الباب.

فانفتح الباب.

وصاح غوفان:

- سوف تهتم بأن تغلق الباب مجدداً خلفي.

ودفع المركيز المدهوش خارجاً.

كان كل ما يضيء القاعة الخفيضة، التي تحوّلت إلى مركز حراسة، كما نتذكر هو مصباحٌ مصنوع من القرن، ويبدو منه كلٌّ شيء مشوشاً، ويعطي من العتمة أكثر مما يعطي من الضوء، وفي ذلك النور المضطرب، رأى عددٌ من أولئك الجنود الذين لم يكونوا ينامون رجلاً طويل القامة يسير في وسطهم، ويتوجّه نحو المخرج، مرتدياً معطفَ القائد العام، وغطاء رأسه المزين بشارة الضابط، فقدموا التحية العسكرية، ومرّ الرجل.

اجتاز المركيز بهدوء مركز الحراسة، واجتاز الثغرة، وليس من غير أن يصطدم برأسه فيها، أكثر من مرة، وخرج.

أما الحارس، فقد قدم له السلاح، ظناً منه أنه يرى غوفان.

حين أصبح المركيز خارجاً وتحت قدميه عشبُ الحقول ، وأصبحت الغابة على بعد مئتي خطوة منه ، وأمامه الفضاءُ والليلُ والحريةُ والحياة ، توقف ، ومكث لحظة بلا حراك ، مثل رجل قد انساق واستسلم للمفاجأة ، والذي ماإن أفاد من باب مفتوح ، حتى أخذ يتفحص إن كان قد أحسن التصرف أو لم يحسنه ، فيتردد قبل أن يمضي إلى أبعد من ذلك ، ويصغي إلى فكرة أخيرة ، وبعد بضع ثوان من التفكير المتأني ، رفع يده اليمنى ، وجعل أصبعه الوسطى تفرقع بإبهامه ، وقال: هذا صحيح[1]!

وابتعد.

كان باب الزنزانة قد انغلق من جديد وكان غوفان داخلها.

* * *

(١) هذه الموافقة على إطلاق السراح ، نظراً للظروف ، لا تتضمّن أيّ شيء لا يعتبر جدّ طبيعي ، غير أن هيغو يريد بصورةٍ جلية أن يدلّ اعتباراً من تلك اللحظة أن غوفان تخطى لانتوناك في سموّه المناقبيّ.

II

المحكمة العسكريّة

كان كلُّ شيء في المحكمة العسكرية تقديرياً حينذاك. وكان دوما*، في المجلس التشريعي، قد وضع الخطوط الأولى لمسوّدة تشريع عسكري، وقد قام تالو، في مجلس الخمسمئة بتنقيحه فيما بعد. غير أن التشريع النّهائي للمجالس الحربيّة لم تجر صياغته إلاّ في عهد الإمبراطوريّة. وإلى عهد الإمبراطوريّة إنما يرجع، بالمناسبة، الإلزام المفروض على المحاكم العسكرية بألاّ تجمع الأصوات إلاّ بدءاً من الرّتبة الدنيا. أما في عهد الثورة فلم يكن هذا القانون موجوداً[1].

في عام ١٧٩٣، كان رئيسُ المحكمة العسكرية بمفرده تقريبا هو المحكمة بكاملها؛ كان يختار الأعضاء، ويصنّف ترتيبَ الرّتب، وينظّم أسلوبَ التّصويت، وكان هو السيّد في الوقت ذاته الذي هو القاضي فيه.

كان سيموردان قد عيّن، كمقرٍّ للمحكمة العسكرية، تلك القاعة ذاتها من الطابق الأرضيّ الذي كانت فيه قاعة التّحصّن، وأصبح فيها الآن مركز الحراسة. كان يحرص على اختصارِ كلّ شيء، الطّريق من السّجن إلى المحكمة، والمسافة من المحكمة إلى منصّة الإعدام.

(*) دوما: رجل سياسي في المجلس التشريعي من أنصار روبيسبيير. (م: ز.ع).

(١) دوماً الاهتمام نفسه بالدّقة التّاريخيّة والتّوثيقية.

عند الظهيرة ، وطبقاً لأوامره ، كانت المحكمة منعقدة بالأبّهة التالية: ثلاث كراسي من القشّ ، وطاولة من خشب السّرو ، وشمعتان مضاءتان ، ومقعد بلا سواعد أمام الطّاولة .

كانت الكراسي مخصصّة للقضاة ، والمقعد الذي بلا سواعد للمتّهم . وعلى طرفي الطّاولة ، كان هناك مقعدان اثنان بلا سواعد ، أحدهما للمفوّض محضر الأحكام . والذي كان محاسب التّجهيزات ، والآخر لكاتب المحكمة الذي كان عريفاً .

على الطّاولة . كانت هناك عصا من الشّمع الأحمر ، وختم الجمهوريّة النّحاسيّ ، ومحبرتان ، وملفات من الورق الأبيض ، وملصقان مطبوعان ، ومبسوطان ومفتوحان على عرضهما ، ويحتوي أحدهما: الوضع خارج القانون ، والآخر مرسوم المؤتمر الوطني .

كانت كرسيُّ الوسط تستند على حزمةٍ من الأعلام المثلثة الألوان ؛ ففي تلك العهود ، عهود البساطة الخشنة ، كان الزّخرفُ (الدّيكور) يوضع بسرعة ، وكان يلزم القليلُ من الوقت لتبديلِ مركز الحراسة في محكمةٍ قضائيّة .

وكانت كرسي الوسط ، المخصصة للرّئيس ، تواجه باب الزّنزانة .

وكان الجنود هم الجمهور .

وكان دركيّان يحرسان كرسي المتّهم .

كان سيموردان جالساً على كرسي الوسط ، وعلى يمينه النّقيب غيشان كقاضٍ أول ، وعلى شماله الرّقيب رادو كقاضٍ ثان .

على رأسه كانت قبّعةٌ ذات قنزعةٍ مثلثة الألوان ، وسيفُه على جنبه ، ومسدساه في نطاقه . وكانت ندبتُه ذاتُ اللونِ الأحمر الفاقع تزيد من هيئته المخيفة .

انتهى الأمر برادو إلى تضميد جرحه. فكان يضع حول رأسه منديلاً تتّسع عليه ببطء بقعةٌ من الدّم.

عند الظهيرة، لم تكن الجلسة قد افتُتحت بعد، كان يقف ساع قريباً من طاولة المحكمة، وتسمع كدفةُ حصانه في الخارج. وكان سيموردانَ يكتب. كان يكتب ما يلي:

«أيّها المواطنون أعضاء لجنة الخلاص العام.

لقد قُبض على لانتوناك، ولسوف يُعدم غداً».

وضع التّاريخ ووقّع، وختم الرّسالة الرّسميّة، وسلّمها إلى السّاعي الذي انطلق بها.

ما إن فعل سيموردان ذلك، حتّى قال بصوت عالٍ:

– افتحوا الزّنزانة.

سحب الدّركيان المزالج، وفتحا الزّنزانة، ودخلا إليها.

رفع سيموردان رأسه، وصالب ذراعيه، ونظر إلى الباب، وصاح:

– اجلبوا السّجين.

ظهر رجلٌ بين الدّركيين، تحت قنطرة الباب المفتوح.

كان ذلك غوفان.

فأصيب سيموردان برعدةٍ، وصاح:

– غوفان!

ثمّ استأنف يقول:

– إني أطلب السّجين.

فقال غوفان:

– إنه أنا .

– أنت؟

– أنا .

– ولانتوناك؟

– إنه حرٌّ طليق .

– طليق؟

– أجل .

– هارب؟

– هارب .

فتمتم سيموردان وهو يرتجف:

– في الواقع ، إن هذا القصر قصره ، وهو يعرف كلّ مخارجه ، وربما تكون زنزانةُ النسيان متّصلة بمخرجٍ ما ، ولا بدّ أنه قد وجد وسيلة للهرب ، ولم يكن بحاجةٍ لأحد من أجل ذلك .

فقال غوفان:

– لقد تلقّى مساعدة .

– ليهرب؟

– ليهرب .

– ومن الذي ساعده؟

– أنا.

– أنت؟

– أنا.

– أنت تهذي!

– لقد دخلتُ إلى الزّنزانة، وكنتُ بمفردي مع السّجين، وخلعتُ معطفي، ووضعتُه على ظهره، وخفضتُ غطاء الرأس على وجهه. وقد خرج بدلاً مني، وبقيتُ مكانه. وهاأنذا.

– أنت لم تفعل ذلك!

– فعلتُه.

– هذا غير ممكن.

– هذا حقيقيّ.

– أحضروا لي لانتوناك!

– لم يعد موجوداً هنا؛ فالجنود الذين رأوا معطف القائد ظنّوا أنه أنا، وتركوه يمرّ، وكان لا يزال الوقت ليلاً.

– أنت مجنون.

– إني أقول ما هو واقع.

هيمنت لحظة من الصّمت، وتمتم سيموردان:

– إذن فأنت تستحقّ...

فقال غوفان:

– الموت.

كان سيموردان شاحباً مثل رأسٍ مقطوع، وكان بلا حراكٍ مثل رجلٍ وقعت عليه الصاعقة للتوّ، ويبدو أنه لم يعد يتنفس، ونقطةُ عرقٍ كبيرة تقطرُ من جبينه.

وثبّت صوته وقال:

- أيها الدركيون، أجلسوا المتّهم.

فأخذ غوفان مكانه على المقعد الذي لا ذراع له،

واستأنف سيموردان يقول:

- أيها الدركيون استلّوا سيوفكم.

كانت تلك هي الصّيغة المستخدمة حين يكون المتّهم تحت وطأة حكمٍ بالإعدام.

واستلّ الدركيون سيوفهم.

وكان صوت سيموردان قد استعاد نبرته المعتادة فقال:

- أيها المتّهم، انهض[1].

ولم يعد يخاطب غوفان بصيغة المفرد.

* * *

---

(١) بالفرنسية: Levez-vous أي: انهضوا. (م:ز.ع)

III

التّصويت

نهض غوفان.

وسأل سيموردان:

– ما اسمك؟

فأجاب غوفان:

– غوفان.

وتابع سيموردان الاستجواب:

– ومن تكون؟

– أنا القائد العام لطابور حملة كوت – دي – نور.

– هل أنت قريبٌ أو حليفُه؟ الرجلِ الهارب أو حليفه؟

– إني حفيد أخيه.

– هل تعرف مرسوم المؤتمر الوطني؟

– أرى ملصقه على طاولتك.

- ماذا لديك لتقوله بصدد هذا المرسوم؟

- إنني وضعتُ تصديقي عليه، وإنني أمرت بتنفيذه، وإنني أنا من عملت على إعداد هذا الملصق المذيّل بتوقيعي.

- اختر مدافعاً عنك.

- سأدافع عن نفسي.

- الكلامُ لك.

كان سيموردان قد غدا مجدداً خالياً من التأثر، إلا أن عدم تأثره كان يشبه هدوء رجل أقل مما يشبه سكينة صخرة(١١٧).

بقي غوفان صامتاً لحظة، وكأنه يتأمل.

واستأنف سيموردان يقول:

- ماذا لديك دفاعاً عن نفسك؟

رفع غوفان رأسه بتمهّل، ولم ينظر إلى أحد، وأجاب:

- ما يلي: هناك شيء قد منعني من رؤيةِ شيء آخر؛ إن عملاً طيّباً، نظرت إليه عن كثب بشكلٍ مفرط، قد حجب عني مئة عملٍ إجراميّ؛ فمن جهة هناك عجوز، وهناك أطفالٌ من الجهة الأخرى، وكلّ ذلك قد انتصب بيني وبين الواجب.

نسيتُ القرى المحروقة، والحقولَ المخرّبة، والأسرى المذبوحين، والجرحى المجهز عليهم، والنّساءَ اللواتي أُطلقت عليهن النّار. لقد نسيت فرنسا المسلّمة إلى انكلترا؛ وأطلقت سراحَ قاتل الوطن. إني مذنب. ويبدو أنني أتكلم ضدّ نفسي، حين أتكلّم على هذا النّحو. وهذا خطأ. إني أتكلّم دفاعاً عن نفسي. وحين يقرّ المذنب بخطئه، فهو ينقذ الشيء الوحيد الذي يستحقّ أن ينقذ، وهو الشرف.

فأجاب سيموردان بسرعة:

- هل هذا كلّ ما لديك لتقوله دفاعاً عن نفسك؟

- أضيف بأنه كان ينبغي أن أكون عبرةً، باعتباري القائد، وأنكم بدوركم ينبغي أن تكونوا كذلك، باعتباركم القضاة.

- وأيّة عبرةٍ تطلب؟

- موتي.

- هل تجده عدلاً.

- وضروريّاً.

- اجلس.

أما محاسب التجهيزات، المفوّض بتحضير الأحكام، فقد نهض وقرأ أولاً القرار الذي ينصّ على اعتبار المركيز السّابق دولانتوناك خارجاً على القانون، وثانياً، مرسوم المؤتمر الوطني الذي ينصّ على العقوبة القصوى (الإعدام) بحقّ أي شخصٍ يسهّل هروب متمرّد أسير. وأنهى قراءته بالأسطر المعدودة المطبوعة في أسفل الملصق، ملصق المرسوم، الذي يأمر بحظر ((تقديم العون والنجدة)) للمتمرّد المذكور أعلاه ((تحت طائلة عقوبة الإعدام))، وقد وقّع عليها: القائد العام لطابور الحملة العسكرية، غوفان.

ما إن قام مفوّض الأحكام بهذه القراءات، حتّى عاد إلى الجلوس.

تكتّف سيموردان وقال:

- أيّها المتهم، انتبه. أيّها الجمهور، أصغ، وانظر، والتزم الصّمت. إن أمامكم القانون. ولسوف تجري المباشرة بالتّصويت. وسيصدر الحكم بالأكثريّة البسيطة. وكلّ قاضٍ سوف يبدي رأيه بدوره، وبصوتٍ عالٍ، وبحضور المتّهم، فالعدالة ليس لديها شيء تخفيه[١١٨].

وتابع سيموردان يقول:

- الكلمة للقاضي الأول، فأيّها النّقيب غيشان، تكلّم.

لم يكن النّقيب غيشان يبدو أنه يرى سيموردان أو غوفان؛ فقد كانت أجفانه المخفضة تخفي عينيه الثابتتين المحدّقتين بملصق المرسوم، وتنظران إليه مليّاً، كما ينظر المرء إلى هاوية، وقال:

- إن القانون صريح. إن القاضي هو أكثر وأقلّ من إنسان. إنه أقلّ من إنسان، لأنه ليس لديه قلب، وهو أكثرُ من إنسان لأنه يحمل سيف القضاء. وفي عام ٤١٤، في روما، أعدم مانليوس ابنه بجرم الانتصار من دون أمرٍ منه. إن الانضباط الذي يُخرَق كان يتطلّب تفكيراً. أما هنا، فإن القانون هو الذي خُرق. والقانون أعلى أيضاً من الانضباط. ونتيجة لنوبةِ رأفة، وُضع الوطنُ في خطر، فيمكن للرأفة أن تتخذ حجم الجريمة. لقد جعلَ القائد غوفان المتمرّد يهرب، وهو لانتوناك. إن غوفان مذنب. وأنا أصوّت على الإعدام.

فقال سيموردان:

- سجّل، أيّها الكاتب.

وكتب كاتب المحكمة: «النّقيب غيشان: الإعدام»

ورفع غوفان صوته قائلاً:

- يا غيشان، لقد صوتَّ جيّداً، وأنا أشكرك.

واستأنف سيموردان يقول:

- الكلمة للقاضي الثاني. تكلّم أيّها الرّقيب رادو.

نهض رادو، واستدار نحو غوفان، وأدّى للمتّهم التحية العسكرية، ثمّ هتف:

- إذا كان هذا هو الأمر، إذن، فلتعدموني على المقصلة، وإني لأعطي

هنا، وحقّ الله كلمة الشّرف الأكثر قدسيّة بأنني أودّ لو كنت عملت أولاً ماعمله العجوز، وثانياً ما عمله مقدّمي. حين رأيت هذا الشّخص الذي يبلغ ثمانين عاماً يُلقي بنفسه في النّار، لكي يسحب منها ثلاثة أطفال، قلت، أيّها الرّجل الطيّب، إنك رجلٌ شهم! وحين أعلم أن مقدّمي هو الذي أنقذ العجوز من مقصلتكم الغبيّة، أقسم بكل شيء أنك يا مقدّمي، ينبغي أن تصبح لواءً (جنرالاً)، وأنك رجلٌ حقيقي، وأنا، يا لهدير الرّعد[1]! أودّ منحك وسامَ صليبِ القدّيس لويس إن كان لا يزال هناك أوسمة صليب، وأن كان لا يزال هناك قدّيسون، وإن كان لا يزال هناك لويسات[2]! ويا عجبي! هل سنكون معتوهين الآن؟ إن كان من أجل أمورٍ مثل هذه قد كسبنا معركة جيماب، ومعركة فالمي، ومعركة فلوروس[3]. ومعركة فاتينيي، فينبغي أن تقولوا ذلك. كيف! هذا هو المقدّم غوفان الذي يُخضِعُ هؤلاء الدّواب الملكيين على قرع الطّبل، والذي ينقذ الجمهوريّة بحدّ السيف، والذي أنجز الأمور في دول حيث كان يلزم الكثير جدّاً من العقل، وحين يكون لديكم هذا الرّجل، تحاولون ألاّ تحصلوا عليه! وبدلاً من أن تصنعوا منه لواءً لكم، تريدون أن تقطعوا عنقه! أقول إن هذا يجعل المرء يلقي برأسه أوّلاً من فوق حاجز لوبون نوف، وإنك أنت، أيّها المواطن غوفان، يا سيدي المقدّم، لو كنت بدلاً من أن تكون سيّدي اللواء، كنت عريفاً لديّ، فإني أقول لك إنك قد قلت حماقاتٍ شنيعة للتّو. لقد أحسن العجوز بإنقاذ الأطفال، وقد أحسنت أنت بإنقاذ العجوز. فإن يتمّ إعدامُ النّاس بالمقصلة لأنهم قاموا بأعمال جيّدة، فلنذهب إلى كلّ الشياطين. لم أعد أعلم إطلاقاً عمّا يدور الأمر. لم يعدْ هناك مبرر للتّوقف، هذا غير صحيح، أليس كذلك، كلّ هذا؟ إنني أقرص نفسي لكي أعرف إن كنت مستيقظاً. أنا لا أفهم.

---

(١) قَسَمٌ مألوف. (م: ز. ع).

(٢) أي ملوك باسم لويس. (م: ز. ع).

(٣) مغالطة تاريخيّة: شنّت معركة فلوروس في حزيران للعام ١٧٩٤.

كان ينبغي إذن أن يدع العجوزُ الأطفال يُحرَقون أحياء، وكان ينبغي إذن أن يدع سيّدي المقدّم العجوز تُقطع عنقه، عجباً، إذن، فلتعدموني بالمقصلة. فأنا أودُّ ذلك بالقدر نفسه، ولنفترض أن الأطفال قد ماتوا؛ فإن كتيبة البونيّه روج كانت ستُجلّل بالعار. هل هذا ما كان يُراد؟ وإذن، فليأكل بعضُنا البعض الآخر، إني لديّ خبرة في السياسة بقدر ما لديكم هناك. وكنت في نادي قسم دييبك (الحراب).

لعنة الله! إننا نُختبل في النّهاية! فلأوجز طريقتي في رؤية الأشياء.

أنا لا أحبّ الأشياء التي يكمن جانبها السيئ في أننا لا نعود ندري إطلاقاً أين نحن. فلماذا، وحقّ الشيّطان، يقتلُ أحدُنا الآخر؟ لكي يقتلوا لنا قائدنا! نرفض هذا اللعب[1] السّخيف.

أريد قائدي! يلزمني قائدي. إنه أحبّه اليوم أكثر من الأمس. أما إرساله إلى المقصلة، فهذا ما تضحكونني به! كلّ هذا[119]. نحن لا نريده. لقد أصغيت. ولسوف يقال أي شيء تشاؤون. وقبل كلّ شيء، فهذا غير ممكن.

وعاد رادو إلى الجلوس. وكان جرحه قد انفتح مجدّداً، وكان خيط من الدّم خارجٌ من العُصابة يسيل على طول عنقه، ومن الموضع الذي كانت فيه أذنه.

استدار سيموردان نحو رادو، وقال:

– أنت تصوّت لصالح مسامحة المتّهم؟

فقال رادو:

– أصوّت لصالح أن يصبح لواءً.

– أسألك إن كنت تصوّت لصالح تبرئته؟

– أصوّت لصالح أن تجعلوه الأوّل في الجمهوريّة.

---

(١) نرفض ليزيت: وهي الخادمة المغناج، الخفيفة والتي أبدعها القوّالون والشعراء. (م:ز.ع).

– أيّها الرّقيب رادو ، هل تصوّت لصالح تبرئة المقدّم غوفان ، نعم أم لا؟

– أصوّت لصالح أن يقطع رأسي بدلاً منه .

فقال سيموردان:

– تبرئة ، سجّل ، يا كاتب المحكمة:

سجّل كاتب المحكمة: «الرّقيب رادو: تبرئة»

ثمّ قال كاتب المحكمة:

– صوتٌ للإعدام . وصوتٌ للتبرئة . تعادل .

وصار على سيموردان أن يدلي بصوته .

نهض ، ونزع قبعته ، ووضعها على الطّاولة .

لم يعد شاحباً ولا داكن السّحنة . كان وجهه بلون التراب .

ما كان للصّمت أن يكون أكثر عمقاً ، لو كان أولئك الذين كانوا هناك راقدين في أكفان (١٢٠).

وقال سيموردان بصوتٍ رزين وبطيء وحازم:

– أيها المتهم غوفان ، لقد سمعنا وقائع الدعوى ، والمحكمةُ العسكرية ، باسم الجمهورية وبأكثرية صوتين مقابل صوت واحد . . .

وقطع كلامه ، وكان توقفاً مؤقتاً قد أصابه ، فهل كان يتردد أمام الموت؟ وهل كان يتردد أمام الحياة؟ كانت كلُّ الصدور لاهثة ، فتابع سيموردان:

– . . . تحكم عليك بالإعدام .

كان وجهه يعبّر عن تعذيبِ الظفر المشؤوم ، وعندما بارك الملاك في الظلمات ، يعقوب الذي جندله(١٢١) لاَ بدَّ أن يعقوب قد ابتسم تلك الابتسامة المرعبة .

لم يكن ذلك إلا ومضةً التمعت وزالت . وغدا سيموردان مجدداً متحجراً كالرخام ، وعاد إلى الجلوس ، واعتمر قبعته ثانيةً وأضاف:

– يا غوفان ، سوف تعدمُ غداً ، عند شروق الشمس .

نهض غوفان وأدى التحية وقال:

– أشكر المحكمة .

فقال سيموردان:

– خذوا المحكوم .

أشار سيموردان ، فانفتح باب الزنزانة من جديد ، فدخل غوفان إليها وأُغلق البابُ ثانية ، وظل الدركيان يحرسان الباب من الجانبين ، وسيفاهما مجردان

وحُمِل رادو الذي سقط للتوّ فاقداً للوعي .

* * *

IV

سيموردان

يصبح السّيد بعد أن كان قاضياً

المعسكر وكرُ زنابير، خصوصاً في زمن الثورة، إن الشوكة الوطنية الموجودة في الجندي تخرج طواعية وبسرعة، ولا تتضايق من أن تقرص القائد بعد أن تكون قد طردت العدو، إن جماعة الجند الباسلة التي كانت قد استولت على لاتورغ قد صدرت عنها غمغماتُ استنكارٍ متنوّعة، ضد المقدم غوفان أولاً، حين علمت بهروب لانتوناك. وحين شوهد غوفان خارجاً من الزنزانة التي كان يظن أن لانتوناك محتجزاً فيها، كان الأمر شبيهاً بصدمةٍ كهربائية، وفي أقل من دقيقة أصبح الفيلق(١٢٢) كلّه على اطّلاع بالأمر، وانفجر همسُ الجيش الصغير، وكان هذا الهمس هو التالي:

– إنهم يشرعون الآن بمحاكمة غوفان. ولكن هذا للخداع. فلتثقوا والحالة هذه بمن كانوا ذوي ألقاب سابقة وبأنصار القسس! لقد رأينا للتو فيكونتاً ينقذ مركيزاً، ولسوف نرى كاهناً يعفو عن نبيل! حين عُرِفت إدانة غوفان، حدث همسٌ ثان: – هذا أمر صعب! إن قائدنا، قائدنا الشجاع، ومقدّمنا الشاب، البطل! إنّه فيكونت، حسناً! لقد زاد تقديُره حين أصبح جمهورياً! كيف، هو محرّرُ بونتورسون، وفيلديو، وبونتوبو! المنتصر في دول وفي لاتورغ! والذي أصبحنا لا نُقهر بفضله! ذلك الذي هو سيفُ الجمهورية في

الفانديه! الرجل الذي يواجه الشوان منذ خمسة أشهر، ويُصلحُ كلَّ حماقات ليشيل والآخرين! إن سيموردان يجرؤ أن يحكم عليه بالموتَ! لماذا! لأنه أنقذَ عجوزاً كان قد أنقذ ثلاثة أطفال! كاهن يقتل جندياً!

على هذا النحو كان يتذمّر المعسكرُ المنتصرُ والمستاء. وكان هناك غضبٌ قاتم يحيط بسيموردان. أربعة آلاف ضد رجلٍ واحد، ويبدو أنّ هذا يشكل قوة؛ وهو ليس كذلك، لقد كان هؤلاء الرجاّل الأربعة آلاف حشداً، وكان سيموردان إرادة. كان معروفاً أن سيموردان يقطب حاجبه بسهولة، ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من هذا لكي يوقف الجيش عند حدّه، وفي تلك الأوقات القاسية، كان يكفي أن يكون ظلٌّ لجنة الخلاصِ العام خلف رجلٍ ما لكي يجعل هذا الرجل مُهاباً، ولكي تؤولَ اللعناتُ إلى غَمغمة، والغمغمةَ إلى الصمت. وقبل هذه الغمغمات كما بعدها، بقي سيموردان هو المتحكّم بمصير غوفان كما بمصير الجميع، كان معروفاً أنه ما من شيء يمكن أن يطلب منه، وأنه لن يمتثل إلا لضميره، وهو الصوت الذي يفوق البشر، والذي يسمعه هو وحده، كان كل شيء يرتبط به، وما كان قد صنعه كقاضٍ عسكري بمفرده، كان باستطاعته أن ينقضه كمفوض مدني، وحده كان بمقدوره أن يعفو. كانت لديه سلطات كاملة وبإشارة منه، كانت باستطاعته أن يطلق سراح غوفان؛ فقد كان سيد الحياة والموت، وكان يمارس السلطة على المقصلة، وفي تلك اللحظات المأساوية كان الرّجلَ الأعلى.

ولم يكن بالإمكان إلا الانتظار.

وحلّ الظلام.

* * *

V

الزّنزانة

أصبحت قاعة المحاكمة ثانية مركزاً للحراسة؛ وكان قد جرى تعزيزُ المركز كما في اليوم السابق ، فكان حارسان يقومان بحراسة باب الزنزانة المغلق .

حوالي منتصف الليل ، اجتاز رجل يحمل بيده مصباحاً ، مركز الحراسة ، وعرّف بنفسه ، فتحوا له الباب . إنه سيموردان .

دخل فبقي الباب مشقوقاً وراءه ، وخطا خطوة في تلك العتمة ، ووضع المصباح على الأرض ، وتوقف . وكان يُسمعُ في العتمة التنُّفسُ المنتظم لرجلٍ نائم ، فأصغى سيموردان وهو يتفكر ، إلى ذلك الصوت الهادئ .

كان غوفان في صدر الزنزانة ، على كومة القش . وكان تنفُّسُه هو الذي يُسمع؛ فقد كان ينام بعمق .

تقدم سيموردان بأقلّ ضجة ممكنة ، واقترب كثيراً وأخذ ينظر إلى غوفان؛ فما كان لأمٍّ تنظر إلى رضيعها وهو ينام ، نظرةٌ أكثر حنواً من تلك النظرة ، وأكثر امتناعاً على الوصف . كانت تلك النظرة أقوى من سيموردان ربما ، فأسند [١٢٣] قبضتيه على عينيه ، كما يفعل الأطفال أحياناً ، ومكث للحظة من الزمن بلا حراك . ثم جثا ، ورفع يد غوفان ووضع شفتيه عليها .

قام غوفان بحركة، وفتح عينيه بدهشةٍ مبهمة، هي دهشةُ الاستيقاظ المذعورة، وكان المصباحُ ينيرُ القبو على نحو ضعيف، فتعرف سيموردان وقال:

- عجباً، هذا أنت يا معلمي.

وأضاف:

- كنت أحلم بأن الموت يقبل يدي.

وأصيب سيموردان بتلك الهزة التي يسببها لنا أحياناً ذلك الاجتياحُ المفاجئ لمدّ من الأفكار، ويكون هذا المدّ عالياً، وعاصفاً، إلى درجة يبدو فيها أنه سيطفئ الروح. لم يخرج شيء من قلب سيموردان العميق، لم يستطع أن يقول إلا: غوفان!

ونظر كل منهما إلى الآخر؛ سيموردان بعينين مليئتين بتلك الضروب من اللهب التي تحرق[١٢٤] الدموع، وغوفان بأكثر ابتساماته رقة.

نهض غوفان على مرفقه وقال:

- هذه الندبة التي أراها على وجهك هي ضربةُ السيف التي تلقّيتها عني. وبالأمس، في تلك المعركة إلى جانبي وبسببي، وأين كان يمكن أن أكون، لو لم تضعك العناية الإلهية بجانب سريري؟ في الظلمات. فإذا كان لدي مفهومُ الواجب[١٢٥] فهو يأتيني منك. لقد ولدّت مربّطاً؛ فالأحكام المسبقة أربطة، وقد نزعتَ عني تلك العصبيات، وأعدتَ إلى الحرية نمائي، ومما لم يكن من قبل أكثر من جثة محنطةٍ (مومياء)، صنعتَ من جديد طفلاً، وفي الجهيض المحتمل وضعتَ وعياً. من غيرك، كان يمكن أن أشب صغيراً. إني موجودٌ بفضلك. لم أكن إلا سيداً إقطاعياً، فصنعتَ مني مواطناً، صنعتَ مني عقلاً؛ لقد جعلتني أهلاً كإنسان للحياة الأرضية[١٢٦] وكروحٍ للحياة السماوية، لقد أعطيتني لكي

أذهب إلى الواقع البشري، مفتاحَ الحقيقة، ولكي أذهب إلى ما ورائها مفتاحَ النور، آه، يا سيدي، إني أشكرك، فأنت الذي صنعتني.

جلس سيموردان على القشّ بجانب غوفان وقال له:

– أتيتُ لأتعشّى معك.

قطع غوفان الرغيف الأسود، وقدمه إليه، فأخذ سيموردان قطعة منه، ثم مد غوفان إليه إبريق الماء، وقال سيموردان:

– اشرب أولاً.

فشرب غوفان، ومرر الإبريق إلى سيموردان الذي شرب بعده. ولم يكن غوفان قد شرب إلا جرعة.

وشرب سيموردان جرعات طويلة[١٢٧].

في ذلك العشاء كان غوفان يأكل وسيموردان يشرب، وهذه دلالةٌ على هدوءِ الأول منهما، وانفعال الثاني.

لم يكن أحدٌ يعرف أيّ صفاءٍ رهيب كان في تلك الزنزانة، فقد كان هذان الرجلان يتحدثان[١].

وكان غوفان يقول:

– إن الأشياء العظيمة ترتسم معالمها، وما تفعلهُ الثورة في هذه اللحظة خفيّ، ووراء العمل المنظور، هناك العملُ غير المنظور، إن العملَ المنظورَ مخيفٌ، والعملَ غير المنظور جليلٌ، وأنا أميّز في هذه اللحظة كلّ شيء، إنه

(١) كان هوغو قد وضع مخطط هذا الحوار على النحو التالي: «حديث سام بين غوفان وسيموردان، وما من كلمة عما سيحدث في صباح اليوم التالي– المطلق. مستقبل الجنس البشري. العالم كما ستصنعه الثورة – نهاية المقصلة – نهاية الحرب – المرأة التي يعلى شأنها – أوربا الموحدة – الكوكب الواحد – المثل الأعلى».

لأمر غريب وجميل، فقد كان لا بد حقاً من استخدام مواد الماضي، ومن هنا يأتي عهد عام ٩٣ فتحت صقالةِ الهمجية، يُبنى معبدُ الحضارة.

ورد سيموردان قائلاً:

– أجل، ومن هذا المؤقّت، سيخرج النهائي، فالنهائُي يعني الحقّ والواجب المتوازيين، والضريبةَ النسبّية والمتدرّجة (التصاعديّة)، والخدمة العسكرية الإلزامية، والتسوية وعدم وجود أي انحراف، وفوق الجميع وكل شيء، هذا الخط المستقيم الذي هو القانون، وجمهورية المطلق.

فقال غوفان:

– أفضل جمهورية المثل الأعلى.

وقطع كلامه، ثم واصل يقول:

– آه يا معلمي، في كل ما قلته للتوّ، أين تضع الإخلاصَ والتضحية، ونكرانَ الذات، وتشابكَ ألوان التعاطفات النبيلة، والمحبة؟ فأن يوضع كلّ شيء في حالة توازن، هو أمرٌ جيد، أما أن يوضع كل شيء في حالة تناغم، فهو أفضل، ففوق الميزان، هناك القيثارة، إن جمهوريتك تعايرُ وتقيسُ، وتنظمّ الإنسان، وجمهوريتي تحمله على قاربِ زرقةِ السماء، فذلك هو الاختلاف بين نظريةِ ونسر[١٢٨].

– إنك تتيه في التأملات.

– وأنت في الحساب.

– هناك حلمٌ في التناغم.

– وهناك حلمٌ في الجبر أيضاً.

– أريد الإنسان الذي يصنعهُ إقليدس.

وقال غوفان:

– وأنا أفضله مصنوعاً على يد هوميروس.

وتركزت ابتسامة سيموردان القاسية على غوفان، وكأنما ليحذّر هذه الرّوح، وقال:

– الشعّر، احترس من الشعّراء.

– أجل إني أعرف هذه الكلمة. احترس من النفحّات، احترس من الأشعّة، احترس من العطور، احترس من الزهور، احترس من الكوكبات.

– لا شيء من كل هذا يُطعِم.

– وما أدراك بذلك. فالفكرة أيضاً غذاء، وأن يفكّر المرءُ معناه أن يأكل.

– لا نجردنّ الأمر. فالجمهورية هي اثنان واثنان تساوي أربعة. وحين أعطي كل إنسان ما يخصّه...

– يبقى عليك أن تعطي كل إنسان ما لا يخصّه.

– وماذا تقصد بهذا؟

– أقصد الالتزام الهائل المتبادل الذي يدين به كلُّ إنسان للجميع، والذي يدين به الجميع لكل إنسان، والذي هو الحياة الاجتماعية بكاملها.

– خارج القانون الصّارم ليس هناك شيء.

– هناك كل شيء.

– لا أرى إلا العدالة.

– أنا أنظر إلى أعلى.

– وماذا هناك إذاً فوق العدالة؟

– الإنصاف .

كانا يتوقفان أحياناً وكأنّ ومضاتٍ من الضوء تعبر .

ويستأنف سيموردان قائلاً:

– حدّد ما تقول ، إني أتحدّاك في هذا .

– فليكن[1] أنت تريد الخدمة العسكرية الإجبارية ، ضدّ من ؟ ضد رجال

---

(١) إن بعضاً من بنود هذا البرنامج يمكن أن يفاجئنا في التاريخ الذي أعلن فيه ، إلا أن المسألة تدور هنا ببساطة على البرنامج الذي لم يكف هيغو خصوصاً عام ١٨٥١ عن تقديمه باسمه ، وتحت أشكال متعددة في قصائده ورواياته وخطاباته ، وهذا ما ستسمح بتحديده تقريبات مع بعض النصوص الأساسية ، التي من بينها ، في عداد نصوص أخرى ، مقدمة باريس – الدليل ، التي ألفها بناء على مبادرة بول موريس ، لكي يقدم باريس إلى زائري معرض ١٨٦٧ . وفي تلك الكراسة الضخمة ، كان هيغو ينظم إعلان مبادئ ، وبياناً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وكان يعهد مسبقاً بتنفيذه للقرن العشرين ، وإليكم بعض المقاطع التي يمكن مقارنتها مع رؤى غوفان للمستقبل .
حول الخدمة العسكرية: «فالأربعة مليارات التي تكلفها سنوياً الجيوشُ الدائمة ، تترك في جيب المواطنين ، والأربعة ملايين من الشغيلة الشباب التي يلغيها إلغاءً مشرفاً الزيّ العسكري الموحد ، ترد إلى التجارة والزراعة والصناعة» .
وحول الضريبة والثروة العامة: «يصبح التعامل بالعملة الورقية في أعلى درجة له ، والورقة النقدية ذات القيمة تجعل أي شخص يمتلك ٢٠ فرنكاً في جيب صدرته صاحب دخل؛ وتنتج قيمة زائدة لا تحصى ، عند إلغاء الممارسات الطفيلية . . ويكون لدوران النقد المتضاعف عشر مرات نتيجةٌ هي الانتاج والاستهلاك المتضاعف مئة مرة» استثمار الأرض والملكية: «يصبح الكوكبُ منزلَ الإنسان ، ولا يضيع منه شيء ، وأي إنسان يرغب يحصل على سقف في أرض بكر ، أو على حقل ، ورفاه وغنى بشرط وحيد أن توسع على الأرض كلها فكرة الوطن ، وأن يعتبر المرء نفسه مواطن العالم وأكاراً فيه بحيث تصبح الملكية ، هذا الحق البشري الكبير ، هذه الحرية العليا ، متاحة للشعب (ديمقراطية) ومعممة . . . وليست ملغاة» .
وحول قيمة الأرض والأشغال الكبرى: «فالمجاري تستبدل بها تصريف المياه ، ومجاري المياه تحجز بالسدود وهذا ما سيمنع الفيضانات ، وإذا ما زرعت بالأسماك ستنتج الحياة الرخيصة» في البؤساء من قبل «القسم الخامس الكتاب الأول» فإن حادثة جان فالجان الذي يهيم في مجاري باريس ، كان قد أوحت للروائي – الاقتصادي باستطراد واسع حول السمادات ، مع خطة كاملة للاستخدام العقلاني . = =

آخرين، أنا لا أريد خدمةً عسكرية. أريدُ السلام. أنت تريد أن يُنجَد البؤساء، وأنا أريد إلغاء البؤس، أنت تريد الضريبة النسبية وأنا لا أريد ضريبة إطلاقاً، أريد أن يتقلص الإنفاق العام إلى تعبيره الأبسط، وأن يُدَفع من القيمة الزائدة الاجتماعية.

– وماذا تقصد بذلك؟

– ما يلي: أولاً إلغاء ضروب التطُّفل، تطفّل الكاهن، وتطفلّ القاضي، وتطفّل الجندي، ثم الانتفاع بثرواتهم، إنكم تلقون بالسماد في المجاري، فلتلقوا به في الأثلام، إن ثلاثة أرباع الأرض بائرة، فلتستصلحوا فرنسا، ولتلغوا حق الإرعاء العمومي، ولتقسموا الأراضي البلدية، وليكن لكلّ إنسانٍ أرض، ولسوف تضاعفون مئة مرة الإنتاج الاجتماعي، إن فرنسا في هذا الوقت لا تقدم لفلاحيها اللحم إلا لأربعة أيام في العام؛ فإذا ما حرثت بشكلٍ جيد أطعمت ثلاثمئة مليون إنسان، وهي أوربا كلها. استخدموا الطبيعة، تلك المعينة الهائلة المزدراة، واجعلوا كلَّ هبّات الريح، وكلَّ مساقط المياه وكل ضروب الدفق المغناطيسي تعمل لأجلكم، إن للكوكب شبكة عروق تحت الأرض؛ وفي هذه الشبكة جريانٌ هائل للماء، والزيت، والنار، فاثقبوا عرق الكوكب، وفجروا منه ذلك الماء من أجلِ مناهلكم، وهذا الزيت لمصابيحكم، وهذه النار لمواقدكم، فكروا بحركة الأمواج، وبالمد والجزر، وبحركة تيارات البحر المستمرة، فما هو المحيط؟ إنه قوة هائلة ضائعة، فما أشد غباء الأرض! بعدم استخدام المحيط!

= = إن كل هذه الإيحاءات التي تختلط فيها الأفكار الطوباوية، الذي سوف يكذبها عصرنا، والتوقعات النافذة البصيرة الفريدة في النصوص التي جمعت في معظمها تحت عنوان «أعمال وأقوال»«١٨٧٥ –١٨٧٦ –١٨٨٩» أما عن استخدام قوة حركات المد والجزر، فقد تطرق إليها في خطابين موجهين للعمال «٢٥ آذار ١٨٧٧، و٤ آب ١٨٧٩» وقد أوردهما باربو في كتابه: فيكتور هيغو وعصره «١٨٨١» فهذا المقطع من رواية: عام٩٣ ليس معزولاً إذن، فهو يشكل على العكس وثيقةً حقيقيةً حول مفاهيم هيغو المهتم باستمرار أكثر بالمسائل الاجتماعية والذي كان يحرص على التشديد على الطابع المحدد وحتى التقني لبرنامجه.

– ها أنت في خضم الحلم .

– أي في قلب الواقع .

واستأنف غوفان يقول:

– والمرأة ماذا تفعل بها ؟

فأجاب سيموردان:

– تبقى على ما هي عليه . خادمة الرّجل .

– نعم ولكن بشرط .

– وما هو؟

– أن يكون الرجل خادماً للمرأة .

فهتف سيموردان:

– هل تفكر بهذا الأمر؟ الرجل خادم! أبداً . إن الرجل سيّد ، وأنا لا أقرّ إلا بملكية واحدة ، هي ملكية المنزل ، فالرجل ملكٌ في منزله .

– أجل لكن بشرط .

– وما هو؟

– أن تكون المرأة فيه ملكة .

– أي أنك تريد للرجل وللمرأة . .

– المساواة .

– المساواة! هل يخطر هذا ببالك؟ إن الكائنين مختلفان. – قلت المساواة ولم أقل التماثل[1].

هيمنت فترة سكوت، وكأنها نوعٌ من هدنة بين هذين العقلين اللذين يتبادلان مساجلاتٍ خاطفة، وقد قطعها سيموردان إذْ قال:

– والطّفل! لمن تعطيه؟

– أولاً للأب الذي أنجبه، ثمّ للأم التي تلده، ثمّ للمعلّم الذي يقوم على تربيته، ثمّ للمدينة التي تجعل منه رجلاً، ثمّ للوطن الذي هو الأم العليا، ثمّ للبشرية التي هي الجدّ الأكبر.

– أنت لا تتكلّم عن الله.

– إن كلّ واحدة من هذه الدّرجات، الأب، الأم، والسّيد، والمدينة، والوطن، والبشرية، هي درجةٌ من درجات السّلم الصّاعد إلى الله[2].

كان سيموردان ساكتاً، فتابع غوفان يقول:

– حين يكون المرء في أعلى[129] السلّم، يكون قد وصل إلى الله، فيفتح الله بابه، ولا يعود على المرء إلاّ أن يدخل.

قام سيموردان بحركةِ رجلٍ يذكّر برجل آخر.

– يا غوفان، عدْ إلى الأرض، إننا نريد تحقيق الممكن.

(١) اهتمام آخر ثابت يشغل هيغو. وفي إحدى قصائد التأملات التي توفرت لنا الفرصةُ قبلاً لإيرادها مرات عديدة، والتي هي مجاهرة بالرأي والتي هي «كتابة» في عام ١٨٤٦، لا يقوى على نسيان هذا الجانب من رسالته التبشيرية: طالبت بحقوق للمرأة والطفل.
والاهتمامات ذاتها موجودة في ميلانكوليا (اكتابات) (التأملات، رقم ٢، ٣).
(٢) «سلّم الكائنات» هو أحد هذه الموضوعات الكبرى للقصيدة الميتافيزيقية الواردة في التأملات (٤، ٢٦) وهي: ما يقوله فم الظلام، وانظر الحركة الكبيرة التي تبدأ بهذا البيت الشّعري:
هذا السلّم الذي تراه، هل تظن بأنه ينكسر؟

– ابدؤوا بألا تجعلوه غير ممكن.

– إن الممكن يتحقق دائماً.

– ليس دائماً فلو عاملنا اليوتوبيا (الخيال) بقسوة، قتلناها؛ فلم يعد هناك شيء بلا دفاع كالبيضة،

– ومع ذلك فلا بدَّ من القبض على اليوتوبيا، وأن نفرض عليها نير الواقع، وأن نؤطرها في الحدث، إن الفكرة المجردة تتحول إلى فكرة ملموسة، وما تفقده من جمالها تكسبه مجدداً في فعلها، إنها أقل شأناً ولكنها أفضل، ينبغي أن يدخل الحقُّ إلى القانون، وحينما يصبح الحق قانوناً[1]، يصبح المطلق. وفي ذلك ما أدعوه الممكن.

– إن الممكن أكثر من هذا.

– عجباً ها أنت تغرق ثانية في الحلم.

– إن الممكن طائرٌ غامض يحوم دوماً فوق الإنسان.

– ينبغي القبض عليه.

– حياً.

وتابع غوفان يقول.

– إن فكرتي هي: إلى الأمام دوماً؛ فلو كان الله يشاء أن يتراجع الإنسان؛ لوضع له عيناً خلف رأسه، فلننظر دوماً إلى ناحية الفجر، والبزوغ والولادة، إن من يسقط يشجع من يصعد، إن فرقعة الشجرة القديمة نداء للشجرة الجديدة، سوف يصنع كلّ قرنٍ إنجازه المدني اليوم، والإنساني غداً، اليوم مسألة الحق،

---

(١) إن المجلد الأول من «أفعال وأقوال» الذي صدر عام ١٨٧٥ بعنوان: قبل المنفى، مسبوق بمقدمة ينصب هيغو فيها الحق والقانون كلاً منهما أمام الآخر، باحثاً عن الكيفية التي يمكن بواسطتها دمجُ كلِّ منهما بالآخر.

وغداً مسألة الأجر، فالأجر والحقّ هما الكلمة ذاتها في الأساس، إن الإنسان لا يعيش لكي لا يُدفع له أجره؛ والرّب حين يعطي الحياة يلتزم بدين؛ والحقّ هو الأجرُ الفطريّ، والأجر هو الحقّ المكتسب[1].

كان غوفان يتكلم وكأنه نبيّ يتأمّل. وكان سيموردان يصغي، لقد انقلبت الأدوار، ويبدو الآن أن التلميذ هو الذي أصبح المعلّم.

وهمس سيموردان:

– إنك تسرع.

فقال غوفان مبتسماً:

– هذا لأنني قد أكون متعجلاً قليلاً.

واستأنف يقول:

– آه يا معلمي، هذا هو الفرق بين طوباويّتينا؛ أنت تريد أن تكون الثكنة إجبارية، وأنا أريد المدرسة، أنت تحلم بالرجل الجندي، وأحلم بالرجل المواطن. أنت تريده مخيفاً، وأنا أريده متفكّراً، إنك تؤسّس جمهورية السيف، وأنا أأسّس...

وقطع كلامه قائلاً:

– أودُّ تأسيسَ جمهورية العقول.

نظر سيموردان إلى أرضية الزنزانة وقال:

– وبالانتظار، ماذا تريد؟

(١) إن هذه الإشارة إلى المشكلة العمالية والتي فهم هيغو خطورتها فهماً كاملاً، قد تكون كافية لإثبات الدرجة التي يتماهى فيها مع غوفان، والذي لا بد أن توقعاته تذكّر بالتأكيد بتوقعات ثوريي عهده. (وسان – جوست في عداد آخرين)، ولكنها تبشر أكثر أيضاً بالنبرة والأسلوب نفسه، مصنف: أعمال وأقوال.

– ما هو موجود .

– أنت تغفر إذن للحظة الحاضرة؟

– أجل .

– ولماذا؟

– لأنها عاصفة ، والعاصفةُ تدري دائماً ماذا تصنع ، ومقابل سنديانة مصعوقة ، كم غابة معافاة! كان هناك طاعون للحضارة ، وهذه الريح العظيمة تخلصها منه ، ولعلها لا تقوم بانتقاءٍ كافٍ ، فهل باستطاعتها أن تفعل خلاف ذلك؟ إن على عاتقها تكنيساً قاسياً! وأمام فظاعة النتّن ، أفهم هيجان الهبوب .

وتابع غوفان:

– ومن ناحية أخرى فما أهمية العاصفة بالنسبة لي ، إن كانت لدي البوصلة؛ وماذا تصنع لي الحوادث إن كان لي ضميري!

وأضاف ذلك الصوتُ الخفيض والذي هو صوتٌ ارتساميّ:

– هناك أحدٌ ما ينبغي أن نمتثل دوماً لمشيئته .

فسأل سيموردان:

– من هو؟

رفع غوفان إصبعه فوق رأسه ، وتابع سيموردان بنظرته اتجاه الإصبع المرفوعة ، ومن خلال قبّة الزنزانة ، بدا له أنه يرى السماء المليئة بالنجوم .

وصمتا أيضاً .

فاستأنف سيموردان يقول:

– في مجتمع أوسع من الطبيعي ، أقول لك إن الأمر لم يعد ممكناً ، إنه حلم .

- إنه الهدف، وإلا فما فائدة المجتمع؟ ابقوا في الطبيعة، وكونوا متوحّشين، إن أُوتاييتي فردوس[1]. إلا أنّ الناس في هذا الفردوس لا يفكرون، ولعله يكون من الأفضل أيضاً أن يكون هناك جحيمٌ عاقل من أن يكون هناك فردوسٌ غبي. كلا، ما من جحيم، فلنكن المجتمع البشري، والأكثر اتساعاً من الطبيعة، أجل، إذا لم تضيفوا شيئاً إلى الطبيعة، فلم الخروج من الطبيعة؟ وحينئذ اكتفوا بالعمل، كالنملة، وبالعسل كالنحلة، ابقوا الدابة العاملة بدلاً من أن تكونوا العقل الملك، وإذا ما أضفتم شيئاً للطبيعة، فلسوف تكونون بالضرورة أعظم منها، فالإضافةُ هي الزيادة، والزيادةُ هي الكبر، إن المجتمع هو الطبيعة المرفوعة في سموها، أريد كل ما تفتقر إليه خلايا النحل، وكل ما تفتقر إليه قرى النمل، الأوابد والفنون، والشعر، والأبطال، والعبقريات، إن حمل الأثقال الأزلية، ليس قانون البشر، لا، لا، لا، لامنبوذين بعد الآن، ولا عبيد بعد الآن، ولا محكومين بالأشغال الشاقة، ولا مدانين بعد الآن! أريد أن تكون كلُّ صفة من صفات الإنسان رمزاً للحضارة وحامية للتقدم، أريد الحرية أمام الفكر، والمساواة أمام القلب، والإخاء أمام الروح، كلا، لا نير بعد الآن، إن الإنسان قد خلق، لا ليجرّ السلاسل، بل ليفتح الأجنحة، ولا إنسان زاحف بعد الآن، أريد تحويل صورة اليرقة إلى فراشات، وأريد أن تتبدل دودةُ الأرض إلى زهرةٍ حيّة، وأن تطير[2]. أريد..

توقف وأصبحت عينه تلتمع.

وأخذت شفتاه تتحركان وكفَّ عن الكلام.

---

(١) من خلال هذا التذكير بإحدى أشهر طوباويات (يوتوبيا) القرن الثامن عشر- والتي يرمز إليها اسم أوتاييتي، الجزيرة السعيدة، ومن خلال مفهوم «المتوحشِ الطيب» يفترق هيغو عن روسو. ويقترب بالأصح من فولتير، الذي يمتدح مجتمعاً مستنيراً بحكمة الفكر، ولسوف يظهر هذا التحبيذ في الخطاب الذي ألقاه هيغو في عام ١٨٧٨ بمناسبة الذكرى المئوية لموت فولتير، ومن هنا يأتي جدل عنيف بين هيغو ولويس بلان الذي بقي «روسوّيّاً».

(٢) هذا هو الأسلوب ذاته الذي يتم تعرفه بيسر، أسلوب تكهنات هيغو في البؤساء، وفي وليم شكسبير، تقريض العبقريات، وفي نصوص لا تحصى لفترة المنفى والشيخوخة.

كان الباب قد بقي مفتوحاً، وشيء من ضوضاء الخارج كان يتسرب إلى داخل الزنزانة، وكانت تُسمع أصواتُ نفيرٍ غير واضحة، ولربما كانت نوبة الصباح؛ ثم أصوات أعقاب البنادق التي تدق الأرض، كان ذلك هو جنود الحرس الذين يتبدلون، ثم وقريباً إلى حدٍ كافٍ من البرج، وبقدر ما كان يمكن تخيله في البرج، حركة شبيهة بتحّركِ ألواحٍ خشبية ورافدات، إضافة إلى أصوات مكتومة، ومتقطعة تشبه ضربات مطرقة.

كان سيموردان يصغي وهو شاحب الوجه، لم يكن غوفان يسمع، كانت أحلام يقظته تزداد عمقاً، وكان يبدو أنه لم يعد يتنفس، لشدة ما كان منتبهاً لما يراه تحت قبة دماغه الرؤيوية، كان يرتعش ارتعاشاتٍ ناعمة، وكان نور الفجر[130] الذي كان في حدقتيه يكبر.

مرَّ بعض الوقت على ذلك النحو. وسأله سيموردان:

– بمَ تفكّر؟

فقال غوفان:

– بالمستقبل.

وغرق ثانية في تأمله، فنهض سيموردان من سرير القش الذي كانا جالسين عليه كليهما، ولم يلاحظ غوفان ذلك. أما سيموردان الذي غطّى الشاب المتفكر بنظرته، فقد تراجع ببطء حتى الباب، وخرج، فانغلقت الزنزانة من جديد.

* * *

VI

ومع ذلك فالشّمس تشرق

لم يتأخر النهار عن البزوغ في الأفق .

وفي الوقت نفسه الذي طلع فيه النهار ، تبدّى شـيءٌ غريبٌ وغير متحرك ، ومفاجئ ولا تعرفه طيورُ السماء ، وذلك على سهل لاتورغ ، فوق غابة فوجير .

كان ذلك قد وضع هناك أثناء الليل . كان منصوباً أكثر مما هو مبنيّ ، ومن البعيد في الأفق ، كانت قامةٌ مصنوعة من خطوط مستقيمة وقاسية لها مظهر رسالة عبرانية ، مظهر إحدى تلك الكتابات الهيروغليفية التي تشكل جزءاً من أبجدية اللغز القديم .

للوهلة الأولى ، فإن الفكرة التي كان ذلك الشيء يوقظها هي فكرة انعدام الجدوى . فقد كان موجوداً هناك بين شجيرات الخلنج المزهرة . وكان المرء يتساءل عن الاستخدام الممكن له ، ثم يشعر بارتعاشة تعتريه ، كان ذلك نوعاً من منصة قوائمها أربعة أعمدة[1] ، وفي نهاية المنصة ، كانت هناك رافدتان ، منتصبتان وقائمتان ، ومرتبطان في قمتهما بعارضة أفقية ، ترفعان مثلثا يبدو أسود اللون على زوقة الصباح ، ويبقيانه معلقاً ، وفي الطرف الآخر من المنصة ، كان

(١) بالنسبة للعدو الشرس لحكم الإعدام تتخّذ منصة الإعدام دوماً مظهر رؤيا لكابوس غير واقعي ومقزز ، وهو يظهر هكذا في نهاية القصيدة الاجتماعية الكبرى في «التأملات» (٣ ، ٢): الكآبة (ميلانكو ليا):==

هناك سلّم، وبين الرافدتين في الأسفل، تحت المثلث، كان المرء يميز نوعاً من مأطورة مكّونة من قسمين متحركين يعرضان للنظر ثقباً دائرياً بقياس عنق إنسان تقريباً، من خلال تطابق كل منهما مع الآخر، وكان القسم العلوي من المأطورة ينزلق على أخدود، بحيث يمكنه أن يرتفع وينخفض، وفي اللحظة الحالية كان الهلالان اللذان يشكلان الطوق بانضمام كل منهما إلى الآخر، كانا متباعدين، وكان المرء يلاحظ في أسفل الدعامتين اللتين تحملان المثلث عارضة خشبية يمكنها أن تدور على مفصّلة، ولها مظهر رجّاحة، وإلى جانب هذه العارضة، كانت هناك سلةّ طويلة، وبين الدعامتين في الأمام وعلى طرف المنصة، كانت هناك سلّة مربعة، وكان ذلك مدهوناً بالأحمر، كان كل شيء مصنوعاً من الخشب، باستثناء المثلث الذي كان من الحديد، وكان المرء يشعر أن ذلك قد بناه الناس، لفرط ما كان قبيحاً، وحقيراً وصغيراً، وكان ذلك جديراً بأن تكون قد جلبته إلى هناك الجنيّات، لفرط ما كان رهيباً.

كان ذلك البناء الدميم هو المقصلة.

وقبالة ذلك على بعد بضع خطوات، في المسيل كان هناك مسخٌ آخر، هو لاتورغ، مسخٌ حجريّ يشكلُ نداً لمسخ خشبي، حين يلمسُ الإنسان ولنقل ذلك، الخشب والحجر، لا يعود الخشب والحجر خشباً ولا حجراً، ويأخذان من الإنسان شيئاً[1].

= = كل هؤلاء الناس المسرورين بالعيش يشربون، ويضحكون.
ويغنون، وأحياناً نرى فوقهم
عمودين يسندان مثلثاً مقززاً
وهما يخرجان ببطء من سود بلاط المدن...

انظر أيضاً نهاية القصيدة الملحمية: الثورة، وفي: القيثارة كلها»، والقصيدة المسماة: منصة الإعدام، في الطبعة الأولى (أنظر المقدمة، ص:١٦).

(١) هذه هي الفكرة التي أوضحها هيغو بصورة رائعة في قصيدة: طبيعة التأملات (٣، ٢٩). «حيث تقبل الشجرة بأن تخضع لأهواء الإنسان بأن تصبح عريش المحراث، أو دعامة، أو صاري مركب، ولكن أن تتحول إلى مشنقة». وقد أشار إلى هذا الموضوع أغريبا دوبينيه في كتابه السابع من «المأسويات»:

لماذا حولتمونا، كما ستقول الأشجار، من أشجارٍ لذيذة لمشانق كريهة؟

إن مبنىً ما هو عقيدة، وآلةً ما هي فكرة[١٣١].

إن لاتورغ هو المحصلة المشؤومة للماضي الذي كان يسمى الباستيل في باريس وبرج لندن في إنكلترا، وسبيلبرغ في ألمانيا، والإسكوريال في إسبانيا، والكرملين في موسكو، وقصر سانت أنج في روما[١]. لقد تكثفت في لاتورغ الف وخمسمئة عام، العصر الوسيط، وعصر المقطعين، والإقطاعية، وتكثفت في المقصلة سنة هي عام٩٣، وهذه الاشهر الاثني عشر كانت تعادل تلك القرون الخمسة عشر.

كان لاتورغ هو الملكيّة، وكانت المقصلةُ هي الثورة.

إنها مجابهة مأساوية[١٣٢].

فالدّينُ من جهة، والاستحقاقُ من الجهة الأخرى، ومن ناحية، التعقّد القوطي الذي يتعذر حلّه، القّن، والسيد الإقطاعي. العبد، والسيد، والعوام والنبلاء، والشرّعة المتعددة، والمتفرّعة إلى تقاليد، القاضي والكاهن المتحالفان، والوثاقات التي لا تحصى، والضرائب، ضرائب الملح، والأموال المرصودة، وضرائب الرؤوس، والاستثناءات، والامتيازات، والأحكام المسبقة، وألوان التّعصّب، والحقّ المكتسب الملكي في الإفلاس، والصّولجان، والعرش، والأهواء، والحق الإلهي[٢]. ومن النّاحية الأخرى، هذا الشيء البسيط: شفرة المقصلة.

---

(١) تستحضر الأسماء الثلاثة الأولى صرامة العقوبات التي كانت، بالنسبة لهيغو، كما بالنسبة لميشيليه، أحد عيوب الماضي الأساسية. والسبيلبيرغ والذي غالباً ما ذكره ستندال، ووصفه سيلفيو بيليكو في كتابه: سجون، كان يقع في حقيقة الأمر على الأرض النمساوية في برون في مورافيا.. وفي الملاحظات المتراكمة في «عام ٩٣» لهيغو قد جمع شهادات عديدة حول فظاظات أنظمة الماضي الجزائية (فقد خصص صفحة كاملة للتنكيل بداميان، منفذ الاعتداء على لويس الخامس عشر، والذي كان ميشيليه قد روى احتضاره الفظيع بفيض من التفاصيل).
أما الأسماء الثلاث التالية فترمز على الأصح إلى السُلطة المطلقة والاستبدادية، فقصر سانت أنج، الذي حوله البابوات إلى قلعة محصنة، قد استُخدم كسجن، فضلاً عن هذا أيضاً.

(٢) يكثّف هيغو ببضعة أسطر مرافعته الاتهامية ضدّ النظام القديم، والتي توسّع فيها في العديد من المواضع في مؤلفاته خصوصاً، منذ المنفى (انظر، في عداد مؤلفات أخرى، مقدمة باريس- الدّليل والتي ذكرناها آنفاً، والقسم الثاني كلّه المعنون بـ: الماضي.

العقدة من جهة، والبلطة من الجهة الأخرى.

كان لاتورغ لزمنٍ طويل وحده في ذلك القفر. كان ماثلاً هناك بمقاذفه التي كان يسيل منها الزّيت الغالي، والقارُ الملتهب والرّصاص الذّائب، وبزنزاناته المؤبّدة المفروشة بالعظام، وبغرفته المخصصة لعمليات الفسخ، وبالمأساة الهائلة التي كان مملوءاً بها. كان يهيمن بسحنته المشؤومة على الغابة، وكان قد عمّر في تلك العتمة خمسة عشر قرناً من الهدوء المخيف، وكان في تلك المنطقة هو السّلطة الوحيدة، والاحترام الوحيد، والرّعب الوحيد، كانت له السّيطرة، وكان الهمجيّة، بلا شريك، وفجأة، كان يرى شيئاً ينتصب أمامه، وفي مقابله – وهو أكثر من شيء ما– إنه أحدٌ ما مرعبٌ مثله[١٣٣]، هو المقصلة.

أحياناً يبدو أن للحجر عيوناً غريبة. إن تمثالاً ما يراقب، وبرجاً ما يرصد، وواجهة مبنىً ما تتأمل[١]. لقد كان لاتورغ يبدو، وكأنه يعاين المقصلة.

كان يبدو أنه يتساءل.

فماذا يكون ذلك؟

كان يبدو أنه قد خرج من الأرض.

وكان ذلك فعلاً قد خرج منها.

فمن الأرض القاتلة، نبتت الشجرةُ المشؤومة. من تلك الأرض المروّية بالكثير من العرق، والكثيرُ من الدّموع، والكثيرُ من الدّم، من تلك الأرض التي كانت قد حُفِرَ فيها الكثيرُ من الحفر، والكثيرُ من القبور، والكثيرُ من المغاور، والكثير من الأفخاخ، من تلك الأرض التي كان قد تعفّنت فيها كلُّ ضروبِ الموتى التي صنعتها كلّ ضروب الاستبدادات، من تلك الأرض التي تنضّدت فوق الكثير من الهاويات، والتي دُفن فيها الكثيرُ من الآثام، تلك البذارات

(١) لقد قدّم هذا الإحياء للمادة لهيغو في «نوتردامِ باريس»، وفي الرّين وفي أُسطورة القرون، وفي الثورة ضمن رياح الفكر الأربعة، إلخ. أحد موضوعاته الملحميّة الاثيرة لديه.

الفظيعة، من تلك الأرض العميقة كانت قد خرجت، في اليوم المحدّد، تلك المنتقمة، تلك الآلة الشّرسة التي تحمل السّيف، وقد قال عام ٩٣ للعالم القديم:

– ها أنذا.

وكان للمقصلة الحقّ في أن تقول للبرج الرّئيسيّ:

– إنّي ابنتك.

وأخذ البرج الرّئيسيّ، في الوقت نفسه، يحسُّ بأنه قُتل على يدها، لأن هذه الأشياء الغامضة تحيا حياة غامضة.

أما لاتورغ، فأمام ذلك الظهور المرعب(١٣٤)، فقد اعتراه ذعرٌ غير محدّد(١). فيخيّل للمرء أنه قد خاف. كانت كتلةُ الصوّان الشّيطانية جليلةً وشائنة، وكانت تلك العارضةُ الخشبية بمثلّثها أسوأ. كانتَ القدرةُ الكليّة المخلوعةُ مرتعبةً من القدرة الكليّة الجديدة. كان التّاريخ الإجرامي يتأمّل التاريخ الذي يقيم العدل.

وكان عنفُ الماضي يقارن نفسه بعنف الحاضر. وكانت القلعةُ المحصّنة العتيقة، والسّجنُ العتيق، والنظامُ الإقطاعي العتيق الذي كان يصرخ فيه ألماً المعذبون المقطّعو الأطراف، ومنشأةُ الحرب والقتل التي غدت غير صالحة للاستعمال، وخارج المعركة وقد اخترُقت، ودُكّت، وخُلعت عن عرشها، وصارت كومةً من الحجارة تعادل كومةً من الرّماد، وصارت مقزّزة وعظيمة وميّتة، ومفعمة بدوار القرون المرعبة، كانت تنظر إلى السّاعة المخيفة الحيّة وهي تعبر. كان الأمس يرتعد أمام اليوم، والضّراوة العجوز تتبيّن الرّعب الجديد وتعانيه، وهذا ما لم يعدْ إلاّ العدم الذي يفتحُ عينين من الظلمة أمام ما كان هو الإرهاب، والشّبح كان ينظر إلى الطّيف.

إن الطبيعة لا ترحم. وهي لا تقبل بأن تسحب زهورها، وموسيقاها(١٣٥). وعطورها، وأشّعتها أمام الشناعة البشريّة. إنها تُثقِلُ الإنسان بالتّباين بين الجمال

---

(١) هذه هي الكلمة المفضلة عند هيغو، في مثل هذه الاستحضارات الأهلاسيّة.

الإلهي و القباحة الاجتماعية. إنها لا تغفر له جناحَ فراشةٍ ولا غناءَ عصفور. ويتوجّب عليه، في خضمّ القتل، وفي قلب الانتقام، وفي غمرة الهمجيّة، أن يحتمل نظرة الأشياء المقدّسة. وليس بمقدوره أن يتملّص من اللّوم الهائل، لوم العذوبة الكونيّة، ومن الصفاء الذي لا يرحم، صفاء زرقة السماء. ينبغي أن يظهر تشوّهُ الشرائع البشريّة عارياً تماماً في وسط الألق الأزلي. إن الإنسان يحطّمُ ويَسحق، إن الإنسان يُجدِبُ، والإنسان يقتل، ويبقى الصّيف هو الصّيف، والزنبقة تبقى هي الزّنبقة، والكوكب يبقى هو الكوكب.

في ذلك الصّباح، لم تكن سماء النّهار الطّالع النديّة أكثر سحراً قطّ، كانت ريحٌ فاترةٌ تحرّك جنيبات الخلنج، وكانت الأبخرةُ تزحف برخاوةٍ بين الأغصان، وكانت غابة فوجير، التي يتخللها تماماً النَفَس الذي يخرج من الينابيع، تنفث الدّخان في الفجر مثل مجمرةِ عطورٍ واسعة ملأى بالبخور، وكانت زرقة القبّة السّماويّة، وبياض السّحب وشفافية المياه الصّافية، والخضرة، تلك السلسلة المتناغمة التي تتدرج من الزّمرد الريحاني إلى الزمرد ومجموعة الأشجار المتآخية، وأغطية الأعشاب والسهول العميقة. كان في كلِ شيء ذلك الصفاء الذي هو نصيحةُ الطبيعة الأزلية للإنسان، وفي وسطِ كلّ ذلك، كان ينبسطُ عدم الحياء البشري، وفي وسط كل ذلك، كانت تتبدى القلعة المحصّنة، ومنصةُ الإعدام، والحربُ، والتنكيلُ، وجها العصر الدموي والدقيقة المضرجة بالدم، بومة ليل الماضي، وخفاش شفق المستقبل، وأمام الخليقة المزهرة والمعطرة، والودودة، والساحرة، كانت السماء البهية تغمر بالفجر لاتورغ والمقصلة، ويبدو وكأنها تقول: انظروا إلى ما أفعل وإلى ما تفعلون.

تلك هي الاستخدامات الهائلة التي تستعملها الشمس بنورها.

وكان لذلك المشهد مشاهدون.

كان الرجال الأربعة آلاف، رجالُ الجيش الصغير المكلّف بالحملة مصطفّاً بنظام قتالي على الهضبة، وكانوا يحيطون بالمقصلة من جهاتٍ ثلاث بحيث

يرسمون حولها، برسم هندسي الشكل E[1] أما السرية التي كانت تتمركز في وسط الخط الأكبر فقد كانت تشكل فرضة حرف الـ E ، وكانت الآلة الحمراء[١٣٦] وكأنها محبوسة داخل تلك الجبهات القتالية الثلاث ، كضربٍ من سورٍ من الجنود منطوٍ من الجانبين حتى حواف انحدار الهضبة ، أما الجهة الرابعة ، الجهة المفتوحة ، فقد كانت المسيل نفسه ، وهو ينظر إلى لاتورغ .

كان ذلك يشكل ساحةً على شكل مربعٍ طويل ، وفي وسطها كانت المقصلة ، وكلما كان النهار يرتفع ، كان الظل الذي تحدِثه المقصلة يتضاءل على العشب .

كان المدفعيون على مدافعهم ، والفتائل مشتعلة .

كان دخان أزرق رقيق يرتفع من المسيل؛ وكان ذلك هو حريق الجسر الذي يكمل خموده .

كان ذلك الدخان يموّه لاتورغ من غير أن يحجبه ، وكانت مصطبة لاتورغ العالية تهيمن على الأفق بكامله ، وبين تلك المصطبة والمقصلة ، لم يكن هناك إلا فجوة المسيل . ومن إحداهما إلى الأخرى ، كان يمكن أن يجري تبادل الكلام .

إلى تلك المصطبة ، كانت قد نُقلت منضدةُ المحكمة ، والكرسي الذي تضلله الأعلام الثلاثية الألوان . كان النهار يطلع وراء لاتورغ ، ويبرز كتلة القلعة بلونها الأسود ، وفي أعلاها ، وعلى كرسي المحكمة ، وتحت حزمة الأعلام ، كانت هناك سحنةُ رجلٍ جالس ، ولا يبدي حراكاً ، وذراعاه مكتوفتان ، كان ذلك الرجل هو سيموردان ، وكان يرتدي ، كما في اليوم السابق ، بدلةَ المفوض المدني ، وعلى رأسه القبعة ذات القنزعة المثلثة الألوان ، وسيفه بجانبه ، ومسدساته في حزامه .

---

(١) تشبيه يميز أحد أشكال الخيال عند فيكتور هيغو ، والذي يمكن أن نسميه الخيال الهندسي . انظر قصة واترلو في رواية البؤساء (القسم الثاني ، الكتاب:١) والفصل الذي يحمل عنوان A (الفصل الرابع)

كان ساكتاً، وكان الجميع ساكتين، وكان الجنود ينزلون بنادقهم، ويخفضون عيونهم، كانوا يتلامسون بمرافقهم، غير أنهم لم يكونوا يتكلمون. فقد كانوا يفكرون بشكلٍ غامض بتلك الحرب، وبالكثير من المعارك، وبالتراشقات بالرصاص عند الحواجز والتي جابهوها ببسالة، وبمجموع الفلاحين الغاضبين والذين يطاردهم تقدّمُهم العاصف، وبالقلاع التي احتلوها والمعارك التي كسبوها، وبالانتصارات، وكان يبدو لهم الآن أن كل مجدٍ الآن يتحول إلى عارٍ بالنسبة إليهم، كان انتصارٌ قاتم يضيّق كل الصدور. وكان يرى على منصة المقصلة الجلاد الذي يسير ذهاباً وإياباً. وكان ضياءُ الصباح المتزايد يملأ السماء بصورةٍ جلية.

فجأة سُمعت تلك الضجة الغامضة التي تُحدِثها الطبول المغطاة بغطاءٍ حدادي (الكريب) لقد اقترب ذلك القرعُ المأتميّ، وانفتحت الصفوف، ودخلَ موكبٌ إلى المربّع، وتوجه إلى منصّة الإعدام.

الطبولُ السوداء أولاً، ثم سرية رماة القنابل، التي تخفض سلاحها، ثم فصيلة الدرك التي تجرد سيوفها، ثم المحكوم غوفان.

كان غوفان يسير بحرية، ولم يكن موثوقاً بالحبال، لا في قدميه ولا في يديه، كان يرتدي بزّته البسيطة، ويحمل سيفه.

خلفه كانت هناك فصيلة أخرى من رماة القنابل.

كان لا يزال على وجهه ذلك الفرح المتأمل الذي يجعله يشرق في اللحظة التي قال فيها لسيموردان: إني أفكر بالمستقبل. ولم يكن هناك شيء فائق للوصف. وسامٍ مثل تلك الابتسامة المتواصلة.

حين وصل إلى ذلك المكان الحزين، كانت نظرته الأولى تتجه إلى أعلى البرج. فقد ازدرى المقصلة.

كان يعلم أن سيموردان سيعتبر من واجبه أن يحضر تنفيذ الإعدام. فبحث عنه بنظرته على المصطبة. ووجده هناك.

كان سيموردان ممتقع الوجه وبارداً[1]. ولم يكن أولئك الذين كانوا بقربه يسمعون نفسه.

وعندما أبصر غوفان، لم يرتعش.

ومع ذلك، كان غوفان يتقدم نحو منصة الإعدام.

وأثناء سيره كان ينظر دائماً إلى سيموردان، وكان سيموردان ينظر إليه.

وكان يبدو أن سيموردان[137] يتكئ على تلك النظرة.

وصل غوفان إلى أسفل المنصة، وصعد إليها، أما الضابط الذي كان يقود رماة القنابل فقد لحق به إلى هناك.

فك سيفه وسلمّه إلى الضابط، ونزع ربطة عنقه، وسلمها إلى الجلاّد. كان يشبه رؤيا، ولم يكن قد بدا أكثر وسامة. كان شعره البنيّ يتطاير في الهواء. ولم يكونوا يقصون الشعر حينذاك. وكانت عنقه البيضاء توحي للمرء بأنه عنق امرأة، وكانت نظرة عينه البطولية والسامية توحي للمرء بأنه رئيس ملائكة. كان على منصة الإعدام، وكان متفكراً. فهذا المكان هو قمةٌ[2] أيضاً. كان غوفان واقفاً فيها بهياً وهادئاً. وإذْ كانت الشمس تلفّه، فقد وضعته في ما يشبه هالة المجد.

---

(١) حتى النهاية يجسد سيموردان الثورة بتشدد، وباهتمام بالمطلق لا يمكنهما إلا أن يجعلانا نفكر بالتحليل الشهير الذي سوف يقدمه تين بعد قليل في كتابه: أصول فرنسا المعاصرة: الإيديولوجيا الثورية، وريثة «الفكر التقليدي».
وتؤكد على هذا المفهوم للشخصية إشارة مثيرة للتساؤل يقدمها فيكتور هيغو أثناء طبع الرواية: في الكتاب السابع، الفصل الثالث (التصويتات) من القسم الثالث، فسيموردان، حين يتلفظ بالحكم على غوفان، يبدأ على النحو التالي! «باسم الجمهورية... وكان بول موريس قد اعترض على هذه الجملة. ويجيبه هيغو، في ٣٠ كانون الاول للعام ١٨٧٣: إني أبقي على: باسم الجمهورية. لأن الصيغة القانونية بشكل صارم ينبغي أن تخلي المكان لتفكير سيموردان. كان الشعب الفرنسي موجوداً قبل الجمهورية، وبواسطة الجمهورية إنما يقتل سيموردان غوفان، إنه يرى فكرة: الجمهورية ولم يعد يرى الحقيقة الواقعة: فرنسا. وهذا ما يجعله بروتوس — الأسوأ أو الأعظم — (المراسلات، ٤، ص ٣٧٥، طبعة المطبعة الوطنية ١٩٥٢).
(٢) انظر الملاحظة رقم: ٣٥٧

ومع ذلك، فقد كان لابد من تقييد المحكوم، فأتى الجلاد وهو يحمل حبلاً بيده. في تلك اللحظة، وحين رأى الجنود قائدهم الشاب محصوراً تحت شفرة المقصلة(١٣٨)، بصورة مؤكدة، أصبح ذلك فوق احتمالهم، فانفجر قلبُ هؤلاء المحاربين، وسُمع ذلك الشيء الهائل، انتحابُ جيش، تعالت جلبة تقول: العفو! العفو!

وجثا البعض، وكان البعض الآخر يلقون ببنادقهم، ويرفعون أذرعتهم نحو المصطبة التي كان يقف عليها سيموردان. وصاح أحدُ رماةِ القنابل وهو يشير إلى المقصلة:

– ألا تقبلون بدلاء عن هذا؟ هاأنذا –

كان الجميع يرددون بهياج: العفو! العفو! وكان يمكن للأسود أن يتحرك شعورها وترتعب لو سمعت ذلك، لأن دموع الجنود مخيفة.

توقف الجلاد، لأنه لم يعد يدري ماذا يفعل.

حينذاك صاح صوتٌ مقتضب وخفيض، ومع ذلك فقد سمعه الجميع، لفرط ما كان باعثاً على الخوف:

– الحكم للقانون!

لقد تعرفوا في ذلك تلك النبرة التي لا ترحم، فإن سيموردان قد تكلم، وارتعد الجيش.

لم يتردّد الجلاد بعد ذلك، واقترب ممسكاً بحبله.

وقال غوفان:

– انتظر.

استدار نحو سيموردان، وأشار بيده اليمنى التي لم تزل طليقة، إشارة وداع لسيموردان، ثم ترك الجلاد يوثقه.

وعندما أوثق، قال للجلاد:

– عفواً. لحظة أيضاً.

وصاح:

– عاشت الجمهورية!

أضجعه الجلاد على الرجّاحة، ودخل ذلك الرأس الساحر والأبي علبة الطّوق المشينة[139]، ورفع الجلاد بلطفٍ شعره، ثم ضغط النابض[140]، فانفصل المثلث، وانزلق في البداية ببطء، ثم بسرعة، وسُمعت ضربة مقززة[141]...

في اللحظة ذاتها، سمعت ضربةٌ أخرى، لقد ردت على ضربة البلطة طلقةُ مسدس، كان سيموردان قد أمسك بأحد مسدساته التي كان يحملها في حزامه، وفي اللحظة التي كان رأس غوفان يتدحرج فيها في السلة، كان سيموردان يخترق قلبه هو برصاصة، فخرج من فمه هو سيلٌ من الدماء. وسقط ميتاً.

وهاتان الروحان، الشقيقتان المأسويتان، حلقتا معاً، وظلمةُ إحداهما تمتزج بنور الأخرى[1].

* * *

(١) إن التضاد الختامي الذي يميز هيغو كثيراً بأسلوبه ونبرته، يتضمن في الوقت نفسه كلّ دلالة الرواية العميقة، وكان بإمكاننا أعلاه (في القسم الثالث، الكتاب الأول، الفصل الثاني) أن نقرأ جملة تبدو، لأول وهلة، مناقضة لهذا الحكم النهائي «كان على الجبين المشؤوم لسيموردان، شعاع من نور الفجر» غير أنه في هذا الموضع إنما كانت تجري مقارنة سيموردان بلانتوناك، رجل الماضي، والذي كانت «بسمته الهازئة المريرة» تبدو «مغطاة بالظلمة والليل». وهنا إنما يتعارض غوفان مع سيموردان، فإنه إذاً تلك الروح المغطاة بالظلمة من حيث الصرامة التي لا تنثني والتي تقيده بالهمجية الجديدة التي تدل على المقصلة، وعلى العكس، فإن غوفان، نبيّ المستقبل، هو حقاً الروح الوحيدة المغمورة «بالنور» تلك هي التراتبية التي يقصدها روائي «عام ٩٣».

تنويعات مختارة

١- المخطوطة في الصياغة الأولى: محفوفة بالمخاطر.

٢- المخطوطة والنسخ: عميقة، وقد صححت على تجارب الطبع.

٣- المخطوطة في الصياغة الأولى: يتقدمون.

٤- المخطوطة في الصياغة الأولى: بقدوم الربيع.

٥- المخطوطة في الصياغة الأولى: الإقدام الأنثوي الممتزج بالفضول.

٦- المخطوطة والنسخ: من الرأس إلى القدمين، ونظرت. وقد صححت على تجارب الطبع.

٧- نقرأ في النسخ: الطفلة الصغيرة التي ترضع شرهة، مثلا؛ إن هذه الكلمات شطبت واستُبدل بها نصُّ النسخة الأصلية المطابقة للمخطوطة.

٨- بعد: لا تخشي شيئاً، شطبت الكلمات التالية في المخطوطة: إن المرأة التي كانت تسمع بذهول. لم تكن تصغي. وهذه الجملة ترد ثانية في النسخ حيث شطبت فيما بعد.

٩- في المخطوطة: كليّاً tout، وفي النسخ من كل مكان Toute.

١٠- عنوان أضيف على تجربة الطبع.

١١- في المخطوطة: المفعمين بالقوة والمثقلين بالسنين في آن، وقد صححت كالآتي: المثقلين بالسنين والمفعمين بالقوة. والتصحيح نفسه قد جرى على النسخ: وعلى تجارب الطبع المثقلين بالسنين و(المفعمين) القوة، وفي ط:١٨٨٠: والمفعمين بالقوة.

١٢- لم تظهر إلا في المخطوطة Ras Baisse وفي النسخ وتجربة الطبع: Rabaisse.

١٣- عنوان مضاف إلى تجربة الطبع. فعناوين الفصول لا تظهر في معظمها إلا في الطبعة الأصلية، والبعض منها على النسخ أو شأن هذا العنوان من الفصل الثاني على تجارب الطبع المودعة في متحف فيكتور هيغو.

١٤- في المخطوطة باعتبارها لا تمنع. النسخ: لم تكن تمنع (أو تحول دون) طبعة ١٨٨٠، باعتبارها لا تمنع.

١٥- عنوان أضيف إلى تجربة الطبع.

١٦- على النسخ:كارّييه، وعلى تجربة الطبع: كارييه وقد شطبت واستبدلت بها: بيرّان.

١٧- على المخطوطة والنسخ Ses، على تجارب الطبع Ses شطبت واستبدلت بها Ces طبعة ١٨٨٠ Ses (أي ضرباتها، وليس هذه الضربات).

١٨- على المخطوطة: كل هذا الطاقم من الرجال الرهيبين المعتادين على الضحك، ثم: الرجال المعتادين... على النسخ: كل هذا الطاقم المعتاد (كذا) على الضحك. طبعة ١٨٨٠: الرجال المعتادون.

١٩- المخطوطة والنسخ: كان يكمل. طبعة ١٨٨٠: كان يكمل.

٢٠- طبعة ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية: قطع (ومدفعية اختفت منها).

٢١- المخطوطة: هذه البقية لسفينة. في النسخ: بقية السفينة هذه. طبعة ١٨٨٠: هذه البقية لسفينة.

٢٢- المخطوطة والنسخ: نصف صلب العجل. وعلى تجربة الطبع: لسان، وفي طبعة ١٨٨٠: نصف صلب. . .

٢٣- طبعة المطبعة الوطنية المئة والإحدى وسبعين.

٢٤- في طبعة ١٨٨٠: Gabelows.

٢٥- في المخطوطة: Lehaut-des-pres، وفي طبعة: ١٨٨٠: Lehaut-des-pres.

في طبعة المطبعة الوطنية: كرّر.

٢٦- في المخطوطة: المعاول. طبعة ١٨٨٠: المعاول، أما عصّي طويلة فقد ظهرت في النسخ: (الصحيفة المزدوجة رقم: ٨٢٥).

٢٧- المخطوطة: عينهم. النسخ: هيئتهم. ط ١٨٨٠: عينهم.

٢٨- ط المطبعة الوطنية: Dubois de crancé، وإضافة De النبالية هذه موجودة باستمرار في طبعة المطبعة الوطنية (رابو دو (De) سانت إيتيين)، غويتون دو مورفو. . إلخ. . .

٢٩- و Par sa paole verte غير واردة في المخطوط ولا في النسخ.

٣٠- إن هذا النص هو أحد الأشياء الغريبة للطبعة الأصلية، فالمخطوطة تورد:

عام ٩٠، و١٩حزيران، ونهاية الإقطاعية، و١٩حزيران هو تاريخ جلسة الجمعية التأسيسية التي أُلغيت فيها ألقاب النبالة المتوارثة، وعلى النسخ (صحيفة ٨٤٨) إنما يظهر من غير شطب النص: عام ٩٠ في ١٤آب، فلم هذا الاستبدال الذي يشكل خطأً تاريخياً، بما أن الجلسة الشهيرة التي قضي فيها على

النظام الاجتماعي القديم قد حدثت فعلاً في ١٤آب، ولكن كما نعلم في عام ١٧٨٩؟ إن هيغو (أو الذي أعد النسخ المصور) هل فكر في غضون ذلك، فيما يخص تأثير الجملة، بتاريخ معروف أكثر من تاريخ ١٩حزيران ١٧٩٠، وهو التاريخ القليل الشهرة فيما بين التواريخ الثورية الكبرى، وهذا الهاجس هل كان هو سبب الهفوة؟ لم نجد طباعة تجريبية لتلك الصفحة. وعلى كل حال، فقد مر الخطأ غير ملحوظ على تجارب الطبع الأخيرة واتفق أن يطبع هكذا في النص الأصلي، وقد جرى تصحيحه في الطبعات اللاحقة، وخصوصاً في الطبعة غير القابلة للتغيير لعام ١٨٨٠ والتي تثبت نص المخطوطة: ٩٠و١٩حزيران.

٣١- المخطوطة: أوربا تهاجم فرنسا، وفرنسا تهاجم باريس. والنص نفسه في نسخة الصورة والـ «و» تظهر في الطبعة الأصلية. أما في طبعة المطبعة الوطنية فتحتوي في الوقت ذاته الفاصلة والـ «و».

٣٢- في المخطوطة: الحاجة: شطبت واستبدل بها: ضرورة. طبعة ١٨٨٨٠: الضرورة.

٣٣- Des pantou Fles، مشطوبة واستبدل بها: Delarges souliers، طبعة ١٨٨٠: de large souliers.

٣٤- يحتوي المخطوط من دون أي شطب: Les brutes du Finistere parlent la même langue que les sauvages de Cornouailles يتكلم أفظاظ الفينيستير لغة متوحشي كورنواي ذاتها. أما طبعة النسخ فتقدم النص نفسه مع فارق بسيط في الصياغة: Du Cornouailles.

٣٥- المخطوط: Sa tête بدلاً من la tête.

٣٦- المخطوط: J ai souhaite Qu' on envoyat a lechafaud la Faction du roi: تمنيت أن يرسلوا إلى المقصلة زمرة الملك، قد شطبت واستبدل بها النص المطبوع كالأصل تماماً.

٣٧- ان معد النسخ كان قد ترك فراغاً وكلمة mathevon قد أضيفت على النسخ وحسب كل احتمال بيد هيغو نفسه.

٣٨- في المخطوط: وخصوصاً في الوسط، في باريس، السابقون. في النسخ: في الوسط، في باريس، السابقون... ط ١٨٨٠: في الوسط، في باريس، السابقون. ط ١٨٨٠: ومنع Et barre وتحتوي صورة النسخ والأصل على Et jai barre (وقد منعت).

٣٩-كانت حالة المخطوط الأولى تحتوي بعد صوتك الضخم الكلمات التالية التي شطبت: عيناكِ الكبيرتان، وقبضتاك الضخمتان، وكلماتك الفظة.

٤٠-المخطوط: شيران جرى تصحيحه إلى شامبون. ط ١٨٨٠، الفصل الذي يرد فيه هذا التصحيح غير موجود في صورة النسخ.

٤١-كانت بداية الفصل ترد في البداية على النحو التالي في المخطوط: هانحن على القمة الكبرى. ربما يكون المؤتمر الوطني هو نقطة الذروة للتاريخ، فهناك الهمالايا، وهناك المؤتمر الوطني.

لم يظهر شيء أبداً أكثر علواً فوق الحضارة البشرية، كل هذا المقطع قد شطب واستبدل به ما يلي:

ها هو المجلس الوطني في الأفق والمأساة تقودنا إليه

إننا نقترب من القمة الكبرى

وتصبح النظرة محدقة بوجود هذه القمة

ويشعر الفكر بأنه ميال إلى التأمل

لقد شطب هذا النص بدوره واستبدل به النص الوارد في الأصل، ونجد، على صورة النسخ، الصياغة الأولى للمخطوط وهي مشطوبة، ومستبدل بها النص النهائي على يد هيغو.

٤٤– كلمة: إعلان مكتوبة بحرف كبير في المخطوط . Declaration والتي توردها الأصل هنا إيراداً دقيقاً. أما الطبعة النهائية لعام ١٨٨١ للمطبعة الوطنية فتورد كلمة إعلان من غير حرف كبير، ونص النسخ الذي تكتب فيه الـ d الصغيرة بيد أخرى غير يد معد الصورة المنسوخة من غير أن يكون بالإمكان التأكيد بأن التصحيح قد تم بيد هيغو نفسه. ونحن نذكر هذا التفصيل الصغير جداً باعتباره مثالاً في عداد أمثلة أخرى عن التنوع الذي تقدمه حول هذه النقطة النصوص المختلفة لرواية: عام ثلاثة وتسعون:٩٣ .

٤٢– المخطوط: متاهة من الأروقة، ملأى، ط المطبعة الوطنية: المليئة.

٤٣– المخطوط وصورة النسخ يحملان فعلاً: ڤيلاّت: والشكل ڤيليت الذي نجده في طبعة ١٨٨٠ ، وفي طبعة المطبعة الوطنية، لابد أن يكون خطأ مطبعياً.

٤٤– المخطوط: أن يموت، شطبت واستبدل بها: أن يقضي. وفي ط ١٨٨٠ يستعاد النص الأول للمخطوط: أن يموت.

٤٥– نورد في نصنا شكل المخطوط: رول، ويقدم الأصل: روت، وهي غلطة واضحة ناتجة عن صورة النسخ. ط ١٨٨٠: رول.

٤٦– المخطوط: بالمرفق، وعلى صورة النسخ وكما يبدو بيد هيغو نفسه: المرفق، ط ١٨٨٠: المرفق.

٤٧– ط المطبعة الوطنية: دوشاسيتل.

٤٨– المخطوط: كان ذلك رهيباً، وقد شطبت واستبدل بها النص الذي أعيد استخدامه في الأصل

٤٩– كل هذه الأسماء مكتوبة بلا أحرف كبيره في المخطوط وفي صورة النسخ، وقد جرى إيرادها بالضبط في هذه النقطة، ط ١٨٨٠.

٥٠- على هامش مرور الأشباح، إن ف. هيغو قد سجل في المخطوط: «إني أنهي هذه الصفحات في المؤتمر الوطني، اليوم في ٢٦ شباط، وهو عيد ميلادي، فاليوم أبلغ الواحدة والسبعين».

٥١- المخطوط: كوبيه، ط ١٨٨٠: كوبنيه. ط المطبعة الوطنية: كوبيه.

٥٢- المخطوط وصورة النسخ: كتبت Puisaye، وبالمقابل وفي عدد من المواضع في مواضع أخرى كتبت بيد هيغو نجد أن Puisaye محتوية على «y» مرتين واضحتين، وهذه الكتابة التي تتبناها طبعة ١٨٨٠.

٥٣- المخطوط: تحت جذور الأشجار، في النسخ: تحت الأشجار.

٥٤- المخطوط: الشبكات المتفرعة شطبت واستبدل بها: متاهة.

٥٥- المخطوط: هذه الجيوش التي تكتنفها الأسرار كانت تروح وتجيء، شطبت واستبدل بها النص الذي ورد في الأصل.

٥٦- المخطوط: كانوا لصوصاً، في صورة النسخ: كانوا سارقين. ط ١٨٨٠: كانوا سارقين. ط المطبعة الوطنية: كانوا لصوصاً.

٥٧- المخطوط ط: ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية: بشريط العقدة، صورة النسخ: بشريط عقدة.

٥٨- كلمة vendéen (فاندي) مبدوءة هنا بحرف كبير في المخطوط. ط المطبعة الوطنية: Vendéen.

٥٩- هذا هو شكل الكتابة في المخطوط: Finisterre. وفي صورة النسخ، وفي طبعة المطبعة الوطنية: Finistere.

٦٠- المخطوط: àl'histoire وفي صورة النسخ dans l'histoire.

٦١- المخطوط: On ylit encore Aujourd'hui شطبت واستبدل بها نص الأصل.

٦٢- ط ١٨٨٠ وط المطبعة الوطنية تطبعان: كان كل شيء يسير على مايرام. بالأمس، غوفان. . . علامات الترقيم ليست واضحة على المخطوط ولا على صورة النسخ.

٦٣- ط ١٨٨٠ وط المطبعة: في ساحة المعرض: نص المخطوط كلمة en (ليست واضحة جداً) صورة النسخ: ساحة معرض.

٦٤- المخطوط وصورة النسخ: abattis: أقطاع أشجار.

٦٥- المخطوط مقروءة هنا بصعوبة gars (فتيان). وعلى صورة النسخ (على نحو جد واضح): كل هؤلاء الناس: tous ces gens-là. وفي طبعتي ١٨٨٠ والمطبعة الوطنية ترد: gars (فتيان).

٦٦- بعد هذه الجملة يمكن أن نقرأ في المخطوط الأسماء التالية، وقد شطبت بعد ذلك: الرأفة هي أحد أشكال الخيانة، ولسوف نقرأ بعد ذلك بقليل: ص٢٨٩، والفكرة نفسها تحت هذا الشكل: الرأفة يمكن أن تكون. . .

٦٧- المخطوط: بشكل مأساوي tragique شطبت واستبدل بها: بذعر En sursaut.

٦٨- هذا هو شكل المخطوط وصورة النسخ، ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية تضعان الأهلة

الصغيرة قبل كلمة «فيلسوف» وكذلك الأمر بعد هذا بقليل بالنسبة لـ«غير المركبة» أو «البسيطة».

٦٩- هذا هو نص المخطوط وصورة النسخ وتطبع ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية: aucun Coup de Fusil: أية طلقة بندقية.

٧٠- المخطوط: إرادة قاتمة ثم: خفية، وأخيراً: غامضة، وعلى صورة النسخ: قاتمة. جرى محوها واستبدال: غامضة بها.

٧١- المخطوط وصورة النسخ: ويقبض عليه: Etpris.

٧٢- بعد: النجوم، يتضمن المخطوط هذه الكلمات التي شطبت بعد ذلك: فلا شيء أكثر هولاً. هذا هو نص المخطوط وصورة النسخ. ط ١٨٨٠. وطبعة المطبعة الوطنية: Son.

٧٣- في المخطوط: لا يرحم inexorable شطبت واستبدل بها: مخيف Farouche

٧٤- نصحح النص: Assiégés (المحاصَرون) لكونها هفوة قلم جلية على صورة النسخ، التي وردت عن الأصل: والمخطوطة تتضمن من جهة أخرى Assieges (المحاصَرون) التي جرى تصحيحها فوقها إلى assiegeants (المحاصِرون) غير أن هذا التصحيح لا يبدو أنه قد أجري في الحال، ولربما يكونَ قد جرى تأجيله لاحقاً على المخطوط. ط ١٨٨٠: Assieeants.

٧٥- Entresol (طابق نصفي مسروق على الطابق الأرضي) غير موجودة في المخطوط، ولا على صورة النسخ، وطبعة ١٨٨٠ تبقي على الكلمة.

٧٦- الطبعة الأصلية تتطبع بناءً على صورة النسخ «Sur» «على» التي هي هفوة بينة ونحن نعيد إثبات نص المخطوط: «Sous» «تحت» وطبعة ١٨٨٠، تورد: Sur، وطبعة المطبعة الوطنية تطبع: Sous.

٧٧- المخطوط وصورة النسخ: doux «الرقّيق».

٧٨- المخطوط: يديها الصغيرتين Ses petites mains شُطبت واستبدل بها: أصابعها الوردية: Ses doigts roses.

٧٩- المخطوط: قليل من الرغبة شطبت واستبدل بها: رغبة مبهمة.

٨٠- طبعة المطبعة الوطنية: الضاحكون المتورّدون.

٨١- هنا في المخطوط، «عشرون سطراً» لم تعد واردة في الأصل

٨٢- آ- المخطوط: وصولاً إلى قرب النافذة، صورة النسخ: حتى النافذة. ط ١٨٨٠: حتى النافذة.

٨٣- ب- المخطوط: المرحب شطبت واستبدل بها: الرحيم.

٨٤- جـ- كان الانسجام يُشعّ في كل مكان، شطبت واستبدل بها النص الذي تم إيراده في الأصل.

٨٥- في المخطوط: بخيال فاقع، شطبت وصححت.

٨٦- نثبت Priou (بريو) التي في المخطوط - أما Riou التي في الأصل فهي خطيئة سببها النسخ حيث كان يمكن لـ Pr (بر) أن تقرأ R (ر).

٨٧- المخطوط: كئيب lugubre شُطبت واسُتبدل بها ضريحي Sepulcrale.

٨٨- في ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية: كان يسمع، وفي المخطوط هناك بقعة على «a entendait» بحيث تبدو وكأنها تصحيح، وصورة النسخ تورد: كان يُسمع On entendait.

٨٩- في المخطوط: كان هائلاً استبدلت بها: كان يبدو حصيناً. النص البدئي نفسه، والتصحيح ذاته على صورة النسخ.

٩٠- نعيد هنا إيراد الحرف الكبير الذي استخدم في المخطوط (H، لكلمة Hercule) وفي صورة النسخ باستثناء الأصل والطبعات الاخرى التي أبقت عليه.

٩١- يحمل هذا الفصل عنواناً مكتوباً بخط هيغو هو: يا للشيطان، أين يمكن لبطل أن يختبئ؟ وقد حذف هذا العنوان على تجربة طبع ثانية واستبدل به: «المنقذ».

٩٢- في كل هذه الصفحة الحرف الكبير Majuscule في بداية الكلمة: Monseigneur (سيدي) قد حذف على تجربة الطبع ، في كل المواضع .

٩٣- هذا هو الشكل في المخطوط ، وصورة النسخ ، والشكل المفضل لدى هيغو زيادة على ذلك ، وفي ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية: Remerciements «الشكر» .

٩٤- هذا هو نصُّ المخطوط ، وصورة النسخ الذي جرى فيه تصحيح des إلى De ces . وفي ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية: لها توقيتات مختصرة: Ont des raccourcis .

٩٥- هذه الجملة غير موجودة في ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية .

٩٦- في المخطوط: هذا الضياء ، أيّا كان؛ لم يكن- وفي ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية ، جرى إيراد إشارات الترقيم هذه الخاصة بالمخطوط . وكانت صورة النسخ تحتوي: في هذا الضياء ، أيّاً كان؛ لم يكن . . .

٩٧- في المخطوط وصورة النسخ: كانت تسلك Cheminait ويظهر التصحيح على تجربة الطبع .

٩٨- في المخطوط: مذعورة شطبت واستبدل بها: مذهولة .

٩٩- هذا هو نص المخطوط ، وصورة النسخ وتجربة الطبع . ط ١٨٨٠ وطبعة المطبعة الوطنية: كومةً من . .

١٠٠- كانت تلك المرأة هي التي أطلقت تلك الصرخة ، شطبت واستبدل بها الجملة الواردة في صورة النسخ وفي الأصل والجملة غير واردة في طبعة المطبعة الوطنية .

١٠١- المخطوطة: لم يكن قد رآه «Ne l'avait vu» ط ١٨٨٠: لم يكن قد رآه «Ne l'avait pas vu» ، طبعة المطبعة الوطنية ، لم يكن رآه «Ne l'avait vu» .

١٠٢- المخطوطة: شعر بدمعة، شطبت. والتصحيح ذاته على صورة النسخ.

١٠٣- عنوان هذا الكتاب في المخطوطة: الإقطاعية والثورة. إنه عنوان الكتاب السابع في نص الأصل - أما العنوان الجديد فيظهر على صورة النسخ.

١٠٤- المخطوطة: «بيديه» وكانت الجملة في البداية تستطيل في المخطوطة بالكلمات التالية التي شطبت «وكان يجهد في تجميع أفكاره، وفي إيجاز الوقائع».

١٠٥- تسبق هذه الكلمات في المخطوطة إضافة ترد فوق النص: تبسيط المركب، وهذه الكلمات

لا ترد في صورة النسخ، ولا في تجارب الطبع التي أمكننا أن نرجع إليها، ولا في الأصل، وقد أعيد إيرادها في طبعة عام ١٨٨٠ وفي طبعة المطبعة الوطنية، حيث تظهر الجملة على النحو التالي: إن تبسيط المركب هو أمرٌ لا شيء أقل منه يسراً.

١٠٦- المخطوطة: «لا يجرح» و«حصين» شطبتا واستبدلت بهما: يتعذر وجوده (إيجاده).

١٠٧- المخطوطة: ماذا كانوا سيفعلون؟ وتحمل صورة النسخ: ماذا كانوا سيفعلون به؟.

١٠٨- المخطوطة: فجأة كل شيء قد أخذ يبدل صورته، هذه الكلمات قد حذفت فيما بعد.

١٠٩- يمكنها أن تمنع ذلك: كلمات حذفت فيما بعد.

١١٠- في المخطوطة: الشعب، وقد أورد النص ثانية في ط ١٨٨٠ وفي

طبعة المطبعة الوطنية - وتحمل صورة النسخ: الشعوب، التي صححت إلى: الشعب. وتظهر الشعوب في تجارب الطبع التي رجعنا إليها.

١١١- إن طبعات عام ١٨٨٠، وطبعة المطبعة الوطنية تضيف ما يلي: كلمة: الآن، التي لم تكن موجودة في المخطوطة، ولا في تجارب الطبع التي رجعنا إليها، ولا في الأصل، إنما التي تظهر في صورة النسخ.

١١٢- المخطوطة: مع رجل كهذا، وهذا نص أعيد إيراده في ط ١٨٨٠، و طبعة المطبعة الوطنية، وتحمل صورة النسخ: مع هذا الرجل.

١١٣- في طبعة ١٨٨٠ و طبعة المطبعة الوطنية، يجري طبع: «انبثق» وفي المخطوطة وصورة النسخ كان يرد فعلاً: «برز».

١١٤- في طبعة ١٨٨٠ و طبعة المطبعة الوطنية يجري طبع: Par instants (أحياناً).

وكانت المخطوطة وصورة النسخ تحملان فعلاً moments (على فترات...).

١١٥- أي حمقى! أي جهلة! «buses!».

١١٦- المخطوطة رجل كريم النسب، صححت إلى رجل رفيع المنزلة.

١١٧- المخطوطة: من برودة الرخام، صححت إلى من هدوء صخرة.

١١٨- بعد هذه الكلمات كانت المخطوطة تحمل أولاً هذه الجملة التي شطبت فيما بعد: «وهيمن صوتٌ كصوت الموت».

١١٩- في المخطوطة وصورة النسخ: tout ça, tout ça (كل هذا، كل هذا) وقد جرى هذا إيراد هذا التكرار في طبعة ١٨٨٠ و طبعة المطبعة الوطنية.

١٢٠- كان يمكن أن يكونوا في القبر، (في المخطوطة) شطبت هذه الكلمات الأخيرة وصححت واستبدل بها: راقدين في أكفان.

١٢١- عندما تقاتل يعقوب في الكلمات مع الملاك ، بداية الجملة قد شطبت .

١٢٢- المخطوطة وصورة النسخ: كل المعسكر ، طبعة ١٨٨٠: كل الفيلق ، طبعة المطبعة الوطنية: كل المعسكر .

١٢٣- المخطوطة ، الطبعة الأولى: وضع سيموردان يده على عينيه .

١٢٤- المخطوطة ، الطبعة الأولى: التي تجفّف .

١٢٥- المخطوطة ، الطبعة الأولى: الحق .

١٢٦- المخطوطة ، الطبعة الأولى: الحياة الإنسانية .

١٢٧- المخطوطة ، الطبعة الأولى:لم يكن غوفان قد شرب إلا جرعة واحدة ، وهذه دلالة على هدوئه العميق ، وشرب سيموردان بجرعات طويلة ، وهذه دلالة على الحمى والانفعال .

١٢٨- المخطوطة ، الطبعة الأولى:بين الهندسة وزوج من الأجنحة .

١٢٩- هذا هو نص المخطوطة وصورة النسخ أما طبعة ١٨٨٠ ، وطبعة المطبعة الوطنية فتطبعان: في نهاية (في آخر) .

١٣٠- المخطوطة: الفجر ، ثم: النور ، وأخيراً ، ضياء الفجر .

١٣١- المخطوطة و الصياغة الأولى: إن مبنى هو فكرة ، وآلة هي إرادة .

١٣٢- المخطوطة و الصياغة الأولى: المجابهة المدوّخة .

١٣٣- في المخطوطة: فوق وتحت كلمة مرعب ، وقد جرى الإبقاء عليه أخيراً ، ومخيف ومأتمي ، وقد شطبا .

١٣٤- المخطوطة ، الصياغة الأولى: لاتورغ الذي أكملته في عزلته بشكل يثير الغرابة: المقصلة .

١٣٥- المخطوطة، الصياغة الأولى: زهورها، طيورها، ونحلها، وروائحها (عطورها).

١٣٦- المخطوطة، الصياغة الأولى: كانت منصة الإعدام.

١٣٧- المخطوطة، الصياغة الأولى: كان يبدو أن غوفان، شطب الاسم بخط بسيط صغير، من غير تصحيح.

١٣٨- المخطوطة، الصياغة الأولى: بصورة حازمة تقريباً، ثم في مسودتين غير مقروءتين، الأولى منهما فوق الثانية، وفوقهما: من الحافة المخيفة.

١٣٩- المخطوطة، الصياغة الأولى: المرعبة.

١٤٠- المخطوطة، الصياغة الأولى: نابض القبر.

١٤١- المخطوطة، الصياغة الأولى: صدمة مكتومة. إن كلمة مقززة تكتب فوق كلمة مكتومة، التي تظل مقروءة.

* * *

إضافة نص

«عام ٩٣»

ليس المعتمد في هذه الطبعة هو نص الطبعة الأخيرة المنشورة في حياة هيغو، أي الطبعة التي لا تتغير: ne varietur للعام ١٨٨٠ بل نص الطبعة الأصلية للعام ١٨٧٤.

لقد لاحظ ب. بيريه؛ في الفاتحة الموضوعة في مقدمة الطبعة الكبيرة النقدية لـ: أسطورة القرون:

«لقد ظننا بأنه يتعين علينا الاكتفاء بنص عام ١٨٥٩ والذي صححه ف. هيغو. ولم يكن بوسعنا الحصول على الإثبات بأن ف. هيغو قد اهتم بنفسه بالطبعات اللاحقة».

إن هذا الاحتياط يصلح أيضاً لـ «عام٩٣» (كاترفان تريز)، وربما يصلح أكثر من ذلك أيضاً، للأعمال التي تنتمي للفترة الأخيرة من نشاط ف. هيغو الأدبي، لم نبتعد عن الأصل إلا بسبب غلطتين جليتين أو ثلاث (أنظر خصوصاً الصفحة ٣٢٢ وفي التنويعات، في ترجمتنا: رقم ٧٨).

ما الذي تجلبه المقارنة بين الطبعة الأصلية والطبعة التي لا تتغير؟

إن الاختلافات المهمة فعلاً والتي سوف نشير إليها (خصوصاً في الصفحة ١٣٥ (الأصل الفرنسي طبعاً، والملاحظة ٣١ في ترجمتنا هذه) هي اختلافات نادرة، وغالباً ما تفسّر برجوع ناشري عام ١٨٨٠ إلى المخطوطة وليس دائماً. ثمة حالات لا تكون فيها الطبعة التي لا تتغير مطابقة للمخطوطة، أو للأصل، ويحدث لها (أنظر الصفحة ١٩٠، وملاحظة التنويعات في ترجمتنا رقم ٤٧)

أن تورد الحالة الأولى للمخطوطة وينطبق الأمر نفسه على طبعة ما بعد وفاة المؤلف، والتي يطلق عليها طبعة المطبعة الوطنية، والتي يمكن أن تعتبر حالياً الطبعة النهائية لمؤلفات هيغو الكاملة: إنها تتوافق حيناً مع الطبعة الأصلية، ومع الطبعة التي لا تتغير حيناً (أنظر الصفحة ٦٧ (الأصل الفرنسي) والملاحظة رقم ٢٣ في ترجمتنا)فهي تقدم شكلاً خاصاً تماماً. إن الامر يتعلق بتفاصيل دقيقة. ومن جهة أخرى هذه المجازفة لا يمكن تحاشيها تقريباً فما من طبعة من هذه الطبعات خالية من الاخطاء الطباعية.

ونجد، بالنسبة للإملاء في عام ٩٣(كاترفان تريز)، وقد راعينا بطبيعة الحال في هذه الطبعة، بعض الخصوصيات التي كان الروائي حريصاً عليها، نجد كلمات: poètes dénoûment bayonnettes[1] وتقديم كلمة quatrevingt treize (أي عام:٩٣) نفسها بخط وصل واحد[2].

لقد كان يصر على ذلك. ويعرف القراء والناشرين أيضاً رصانته في استخدام الحروف الكبيرة، خصوصاً حين يتعلق الامر بكلمات من مثل: ثوره révolution. وجمهورية république، وأسماء الشعوب: anglais (انكليز) prussiens (بروسيون). . . . ولكن معاينة المخطوط بعناية، والحق يقال، تظهر في هذه النقطة، تباينات مصدرها قلم هيغو، ويحدث، من جهة أخرى، أن يكون من العويص أن نكتشف إن كان الامر يتعلق بحروف كبيره أو صغيره، فبعض الكلمات التي تأتي بعد نقطة، ألا يبدو أنها تبدأ بحرف كبير يُفسرٌ في هذه الحالة بتسرع في الكتابة ؟ إن اختيارا كيفيا إلى حد معين، ونقصانا معينا في الوحدة الجمالية. ملحوظة في المخطوطة: ومن غير المفاجئ أن نعثر عليها في صورة النسخ، وفي الطبعة الأصلية، وان نسجل بهذه التدقيقات اختلافات تستحق الذكر بين الطبعات المتعاقبة.

والملاحظة نفسها تطرح بالنسبة لعلامات الوقف. ونحن نعرف المتطلبات النظرية لفيكتور هيغو في هذه المسالة. ونقول ملاحظه ترد في إحدى تجارب طبع عام ٩٣.

---

(١) تكتب في الاصل: poetes. denoument – baionnettes (م:ز.ع)

(٢) تقديم كلمة quatrevingt – treize بخط وصل واحد بدلا من quatre – vingt – treize (م: ز.ع).

وفي مقدمة الفصل. «لاحظوا وتابعوا علامات الوقف عندي»: فالجبابرة بدلا من العمالقة، (الحرف الأول كبير في الجبابرة: titans. إنها علامات وقف «متعمده» ومتبصرة) وكما يؤكد م. برينو. ومن المؤكد فعلا أن الاستخدام الحاذق والمرتب للفاصلة، وللنقطة، والفاصلة بخاصة غالبا ما يكشف في عام ٩٣ عن الاهتمام بتأكيد إيقاع مثل تلك التعدادات، ومثل تلك الجمل ذات التأثير (مثلما تحمل المقاطع الثابتة في أول السطر، في الحوارات والقطع «الفلسفية» طابع الروائي الذي يمكن تعرّفه بيسر).

ومع ذلك، فلنقرّ بأن اختيار علامات الوقف تظهر أكثر مجانية، في أحيان أخرى، ومن هنا تأتي أيضاً تباينات بين الطبعات، وفي داخل كل منها.

لسوف نشير، ونحن ننسخ الأصل، وعلى سبيل الفضول، إلى عددٍ من هذه الاختلافات مع الطبعات اللاحقة إلا انه، بالنسبة لعام٩٣، كما بالنسبةً للمؤلفات الكبرى لهيغو تقدم دراسة عمل الإعداد التي سبقت طبع المؤلف فائدة أعلى للغاية. وكان ب. بيرية قد عزم فيما يخص أسطورة القرون، ألا يورد في التعليقات و الحواشي (تنويعات أخرى غير تلك التي تصدر مباشرة عن المخطوطات) وبحوزتنا بالنسبة لعام ٩٣:

١- المخطوط الكامل المودع في المكتبة الوطنية la Bibliotheque nationale:

٢- صورة منسوخة مربوطة بتتمة الملاحظات التي دونها هيغو على روايته. والموجودة أيضاً في الوطنية:la nationale

٣- مجموعة من التجارب الطباعية التي ندين للسيد سيرجان، أمين متحف فيكتور هيغو بالفضل في الوصول إليها في الإطار الموحي إلى حدٍّ كبير للمنزل الواقع في ساحة ديفوج.

يحتوي المخطوط- زيادة على الكثير من القطع التي أضيفت إلى الشكل الأولي – على عدد هام من التصحيحات إلى حد كاف. ويحدث أن نستخدم الجملة أو العبارة المشطوبتان في مقطع أخر غير أن التصحيحات، في معظم الحالات، قد أجريت بشطحة قلم، على نحو فيه قدر كبير من التشديد والحزم،

بحيث أن الشكل الأول قد اختفى تماماً وأصبح غير مقروء. وأحيانا جعله الحبر الذي يبهت، بالظهور مجددا. وأخيرا يبقى برغم كل شيء ما يكفي تماما من المقاطع التي يمكن من خلالها أن يتابع المرء عمل الكاتب وليزوده بدروس مثيرة للاهتمام. وقد اقتبسنا منه تنويعات منتقاة.

إن الصورة المنسوخة مسبوقة بالملاحظة التالية التي صاغها ف. هيغو، «يتعين أن يجري ترتيب هذه الصورة المنسوخة التي تمت الطباعة بناء عليها وأظن أنها كاملة. في ٢٩ نيسان ١٨٧٤»

(أن بعض الصفيحات ناقصة في واقع الأمر) ونقرأ في الصفحة الأخيرة:

«صورة منسوخة في ١٥ آذار وجرى إنهاؤها في ١٥ حزيران، في يوم عيد الرب. ١٨٧٣».

أن الجزء الأكبر مكتوب باليد نفسها (وهي بلا شك يد مدام شونيه، زوجة أخ فيكتورهيغو). وتظهر بعض الصفيحات خطاً آخر. وتقرأ على تلك الصورة المنسوخة بعض التصحيحات. وهي بالتأكيد بيد ف. هيغو. ويحدث أن تورد هذه التصحيحات بالضبط التصحيحات التي نجدها على المخطوط، وبما أن صورة النسخ قد قدمت حالة النص الأولى، فليس من غير الممكن أن تكون تلك التصحيحات قد أجريت بيد ف. هيغو على صورة النسخ، ثم نقلت إلى المخطوطة على يده.

أما عن تجارب طبع متحف فيكتور هيغو، فليس لها حدود إلا بالنسبة لعدد محدد من الفصول. وبالمقابل، فإن المرء يجد ثلاثة أو أربعة تجارب طبع متعاقبة، بالنسبة للفصل ذاته، وقد أجريت فيها تصحيحات بيد هيغو، وإنه لأمر شكليّ محض أن يجري تصحيح مثل تلك الأغلاط المطبعية، وثمة تصحيحات أخرى، وسوف نشير إليها، تحتوي فائدة أكبر، وخصوصاً فيما يتعلق ببعض عناوين الفصول والتي لا تظهر على المخطوط ولا في صورة النسخ.

* * *

المراجع

I ـ الطبعات

لا بدّ من الإشارة خصوصاً إلى أربع طبعات هي:

١– الطبعة الأصلية ، ميشيل ليفي ، ٣مجلدات ، ١٨٧٤ .

٢– طبعة هوغ ، وهي الطبعة الأولى الموضحة . S . d ، ١٨٧٦ .

٣– الطبعة التي تشكل جزءاً من الطبعة الكبرى المسماة بالطبعة التي لا تتغير لمؤلفات فيكتور هيغو ، هيتزل وكانتان ، الرواية XIV (١٤) . ١٨٨٠ .

٤– الطبعة المسماة: بطبعة المطبعة الوطنية ، أولندورف ١٩٢٤ ، وتتلوها إضافة هامة جداً تتضمن: ذخائر (ما تبقى) من «عام ٩٣» . (كاترفان تريز) – مخطوطات: عام ٩٣– ملاحظات الناشر I – تاريخ عام ٩٣ II– المعاينة النقدية. III– موجز المراجع IV– موجز أيقوني (صور وماشابه – إيضاح المؤلفات: نسخ مصورة ووثائق) .

II ـ دراسات نقدية إجمالية.

تحتوي طبعة المطبعة الوطنية معاينة نقدية (الصفحات ٤٧٥–٤٨٩) تقدم أحكام الصحافة الأدبية في لحظة نشر الرواية .

منذ ذلك الحين لم تنشر دراسة مكرسة خصوصاً لعام ٩٣، ولا حتى لفيكتور هيغو كروائي، ففي المؤلفات العامة المكرسة للإنسان والمؤلفات إنما ينبغي البحث عن إشارات لرواية الأزمنة الثورية.

كتاب فيكتور هيغو الذهبي (تحت إدارة إ. بليمون) المكتبة الفنية ١٨٨٣، الصفحات ١٤٦-٢٥١.

* ب. دوسان-فيكتور، فيكتور هيغو، كالمان ليفي، ١٨٨٤، الصفحات ١٨٠-٢٠١.

* ش. رونوفييه، فيكتور هيغو، الفيلسوف. أ. كولان، ١٩٠٠، الصفحات ٢١٣-٢٤٤.

* ب. بيرييه، فيكتور هيغو، غارنييه، الصفحات: ٣٦٨-٣٧٨.

* أ. بيليسور، فيكتور هيغو، بحث في مؤلفاته، بيران، ١٩٣٠، الصفحات: ٢٨٧-٣٢٢.

* ف. غريغ. مؤلفات فيكتور هيغو. فلاماريون، ١٩٣٣، الصفحات: ٣٩٣-٣٩٥.

* ج-ب. بارير، هيغو، الإنسان والمؤلفات، بوفان، ١٩٥٢، الصفحات: ٢٢٩-٢٣٣.

وأخيراً في العدد رقم ١ بتاريخ ١٩ آذار ١٩٥٣، من «المكتبة العالمية» والمخصص لموقع فيكتور هيغو، سوف نقرأ باهتمام (الصفحات ٧-١٣) أفكار ر. إسكولييه حول «عام٩٣»، والتي تسبق نص الرواية ويحتوي العدد نفسه أيضاً صفحة جيدة جداً لهنري كلوار حول فيكتور هيغو الروائي.

III- دراسات تفصيلية.

دراستان لا بدَّ من الاحتفاظ بهما وهما:

١- ل. هافيه، حول الاستخدام الذي قام به فيكتور هيغو للمعجم الفرنسي-النورماندي ر. ج. ميتيفييه، فيما يخص رواية «عام٩٣»، وذلك في المعاينة النقدية، بتاريخ ٤ نيسان ١٨٧٤، الصفحات ٢١٨-٢٢٣.

٢- ب. بيرييه، كيف حضّر هيغو، روايته التاريخية: «عام٩٣»، المجلة الجامعية، ١٩١٤.

وأخيراً دراسة:

* ش. برونو، تاريخ اللغة الفرنسية، المجلد: XIII (١٣)، العصر الواقعي، ١٩٥٣، الصفحات ٨٠-١٢٧. فيكتور هيغو ناثراً، وهو يحتوي إحالات عديدة إلى رواية «عام٩٣».

* * *

- مواليد السويداء - سورية - ١٩٤٦.
- متخرج من قسم اللغة الفرنسية - جامعة دمشق ١٩٦٧.
دبلوم عامة في التربية من الجامعة نفسها ١٩٦٨.
- مدرس للغة الفرنسية بين الأعوام: ١٩٦٨-٢٠٠٥.
- منشط تربوي (١٩٩٤-٢٠٠٥) ومشترك في تأليف كتب لمعاهد تدريس اللغة الفرنسية.
- عضو اتحاد الكتاب العرب - جمعية الترجمة (١٩٩٤).
- أنجز ترجمات عن الفرنسية.
- أعد دراسات ومحاضرات في النقد الأدبي (العربي والفرنسي) وأبحاثاً في تجارب الترجمة.

❖ من ترجماته:

- أسطورة دون جوان، لمؤلفه: جان روسيه.
- أسطورة أوديب، لمؤلفته: كوليت استيه.
- مالرو : لمؤلفه : بول غايار.
- مورياك: لمؤلفه: أندريه سياي.
- الثورة الفرنسية، لمؤلفيه: دوني رشيه وفرانسوا فوريه.
- أزمة مفهوم الأدب في فرنسا في القرن العشرين، لمؤلفه: ألبير ليونار.
- كولومبا (الأعمال القصصية الكاملة) لمؤلفها: بروسبير ميريميه.
- كارمن (الأعمال القصصية الكاملة) لمؤلفها: بروسبير ميريميه.
- هان الإيسلندي (رواية) لمؤلفها: فيكتور هوغو.
- نوتردام باريس لمؤلفه: فيكتور هوغو. صدرت عام ٢٠٠٩

الطبعة الأولى / ٢٠١٠
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



«عام ٩٣» هي آخر روايات فيكتور هوغو، وقد أنجزها بين عامي: ١٨٧٢-١٨٧٣، ونُشرت في عام ١٩٧٤، وهذا يعني أنه قد كان في السبعين من عمره. غير أنها طالما كانت حاضرةً في ذهنه كموضوع لسنوات طويلة خلت. وفيها نجد أفكاره التي انتهى إليها، بعد تطوّر امتدّ على عقود من حياته المديدة. ومع أنّها روايةٌ تاريخة، فهي مصطبغةٌ بطابع فكريّ عميق، وتطرحُ إشكاليات الثورة كموضوعٍ واسع للجدل. إن هيغو ينتقل من الملكي المتعصّب إلى المنتقد الشديد لمفاسد النّظام الملكي الفردي، بما فيه من تسلُّط وقسوةٍ وانحيازٍ إلى النبلاء، والفئات الميسورة في المجتمع الفرنسي لما قبل ثورة ١٧٨٩، إلى المناصر للاتجاهات الديمقراطية، والتحررية، التي أوصلته إلى الجمهورية.

غير أن هوغو يطرحُ في هذه الرواية فلسفته عن الثورة، مبرزاً قيمها الجوهرية، وعاكساً ذلك الصراع الطويل والأليم بين أنصار النظام القديم، وأنصار الثورة اليعقوبية، ومُديناً فظائع الحرب الأهلية ومآسيها، وهو لايتردد في الاختيار بين الشّعب ومضطّهديه، فيقف إلى جانب الضّعفاء والمحرومين والمهمّشين. وحين يتعلق الأمر بمسألة الوسائل التي يعتبرها مشروعة في الثورة، لايقرّ العنف غير المسوّغ، ويرى أن هدف الثورة هو الإنسان، والدفاع عن حقه في الحياة، والعيش الكريم، وعن حقوقه الأخرى في التعليم والصحة والارتقاء في كافة الميادين، وعن مساواة المرأة بمنظورٍ متقدّم، ويتنبأ هوغو بالجمهورية العالمية. وكلّ ذلك من خلال أحداث ثورة ٨٩ الكبرى وماتلاها، ومن خلال شخصيات روائيةٍ يبتدعها، من مثل: سيموردان ولانتوناك وغوفان، ورادو، إضافة إلى تيلمارش، الشحّاذ المبعد عن المجتمع والسياسة والصراعات.

ويفرد هوغو لأفكاره حواراتٍ عميقة يجعل فيها الآراء المختلفة تتجابه أمام القارئ الذي يتعين عليه أن يتأمّل فيها ويتفكّر ويحاكم، مستخدماً، في آنٍ واحد، إيحاءاتِ القلب ومقتضياتِ المنطق والفكر.



www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة السـورية للكتاب - ٢٠١٠

توزيع دار صفحات للدراسات والنشر